

رحلة إلى وداي

الشيخ محمد بن عمر التونسي

تحقيق ودراسة :

أ.د. عبد الباقي محمد



شركة مناكب للنشر

Dr. Binibrahim Archive



- تولى عددا من المناصب الإدارية :
 - رئيس قسم التاريخ بكلية البنات جامعة أم درمان الإسلامية .
 - مدير مركز البحوث والنشر - جامعة أم درمان الإسلامية .
 - انتخب عضوا للطلاب بجامعة الفائر ١٩٩١ م .
 - انتخب أستاذا للتاريخ بكلية الآداب جامعة التحدي بليبيا ١٩٩٤ - ١٩٩٦ .
 - عين نائبا لمدير جامعة الفائر ١٩٩٧ .

أ.د. عبد الباقي محمد أحمد كبير

- ولد في قرية كيم ولاية دارفور عام ١٩٥٧ م .
- حصل على شهادة البكالوريوس في قسم التاريخ جامعة الأزهر بتقدير جيد جدا عام ١٩٨٠ م :
 - حصل على تيلوم الدراسات العليا في العربية (لغة عربية) ١٩٨١ م كلية العربية جامعة الأزهر .
 - حصل على شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي بتقدير ممتاز ١٩٨٤ م .
 - حصل على شهادة الدكتوراة في التاريخ والحضارة الإسلامية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى ١٩٨٧/١٩٨٨ م ج . ع . م
 - أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الآداب جامعة أم درمان الإسلامية ١٩٨٨ .
- نبيه عدد من البحوث المنشورة وغير المنشورة :
 - دراسات في الحضارة الإسلامية .
 - التاريخ ومنهج البحث التاريخي .
 - النور الثقافي للشيخ أحمد بابا التتبيكي .
 - مدينة تتبكو حاضرة الإسلام في أفريقيا .
 - علاقات سلطنة دارفور الخارجية .
 - مهنات الدعوة الإسلامية في أفريقيا .
 - المشاكل الحديثة لدول القرن الأفريقي ودور الاستعمار فيها
- عضو الجمعية التاريخية السودانية .
- عضو الجمعية التاريخية المصرية .
- عضو الجمعية التاريخية العراقية

شركة مناكب للنشر

رحلة إلى وداي

الشيخ محمد بن عمر التونسي

تحقيق ودراسة :

أ. د. عبد الباقي محمد

مقدمة:

أولاً: قصة الكاتب والكاتبه-

على الرغم من أن كتاب "الرحلة إلى وداي" يتحدث عن تاريخ دولة الوداي وشعوب السودان الأوسط إلا أنه يحكى أيضاً قصة حياة كاتبه الشيخ محمد بن عمر التونسي الذى عاش متنقلاً بين شمال إفريقيا ومصر وبلاد السودان، فقد انحدر كاتبنا من أسرة تونسية تحب الترحال والتجوال، فقد جاء أبوه عمر إلى مصر باحثاً عن أبيه، فوجد أن أباه قد غادر مصر إلى سنار حيث استقر به المقام، فالتحق عمر بالأزهر الشريف لأجل الدراسة، ثم تزوج من امرأة مصرية أنجبت له ابنه محمداً، وكان يتتبع أخبار والده الذى أصبح من ذوى الجاه والسلطة فى سنار، فعزم على اللحاق به، فسافر مع أحد التجار السناريين، فالتقى بوالده فى سنار وعاش بجواره حتى وافته منيته، فورث عمر أعباء المسئولية فى العلم والجاه والمال، ثم خرج فى رحلة تجارية إلى دارفور، فرحب به السلطان عبد الرحمن الرشيد (١٧٨٧-١٨٠١م) وأكرمه، وأقطعته حاكورة فى منطقة جديد رأس الفيل، فالتقى عصاه فيها واستقر به النوى، وأصبح من أهل المشورة والرأى فى الدولة.

شب محمد مع والدته فى القاهرة، ثم التحق بالأزهر الشريف فقرأ القرآن ودرس العلوم الاسلامية والعربية وتلقاه فيها، وكان دائم السؤال عن والده، وعندما تأكد من وجوده وصيته فى دارفور، شد رحاله وسافر مع تجارها، وعند وصوله إلى الفاشر بعد رحلة شاقة استقبله والده بالترحاب، وقدمه إلى السلطان محمد الفضل (١٨٠١-١٨٣٧م) سلطان دارفور يومئذ فرحب به وكساه وأهداه، وهو دأب سلاطين دارفور إكراماً للأشراف والعلماء، وكان الشيخ محمد يومئذ لم يتجاوز عمره العشرين عاماً، فعاش مع والده فى الفاشر لحوالى سبع سنوات قضاهها منعماً مرفهاً يجالس الأمراء والوزراء ويتنقل بين ربوع دارفور ومروجها كيفما شاء ومتى أراد، فهو "ابن الشريف عمر" كما أنه لا يمنع نفسه هواها فيجلس مع الصبيان أمثاله والصبيات، ويستمع إلى أحاديثهم وأغانيهم عن الحب والغزل والهيام.

و يشاهد الرقص بأنواعه، فتكونت لديه ذخيرة ثرة من المعلومات عن دارفور وتاريخها وحياة سكانها، فسجلها في كتابه الذي سماه:

تسحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان' وهو أهم كتاب صدر حتى الآن عن تاريخ دارفور السياسي والحضاري. وقد قام بتحقيقه كل من الدكتور خليل عساكر، والدكتور مصطفى مسعد عام ١٩٦٤.

تلك الحياة الرغدة التي عاشها كاتبنا في الفاشر لم تستمر، فسرعان ما انقلبت الأمور، فقد سافر والده في رحلة تجارية الى وداي، وهناك وجد ترحيباً حاراً من سلطان وداي يومئذ السلطان عبد الكريم صابون، وقربه إليه وعينه وزيراً ومستشاراً له، فطاب له المقام فيها، فكتب الى ابنه محمد بدارفور أن يأتيه مسرعاً و يأخذ معه جميع أمواله وأولاده لأنه يريد السفر الى تونس، ولكن صادف وصول هذا الخطاب تؤثر العلاقة بين دارفور ووداي، فقد غزى السلطان صابون بلاد التاما وهي تتبع لدارفور، ثم كتب الى السلطان محمد الفضل كتاباً يهدده فيه بأنه إن لم يرعوى ويمنع أتباعه من التاما من العبث في دياره فإنه سيفزو قلب دارفور وعاصمتها، وهنا أخذ السلطان محمد الفضل يشك في أن يكون للشريف عمر دور في هذا الغزو، فاتهمه بنقل أسرار دولته العسكرية الى سلطان وداي، ولهذا قام بمنع ابنه محمد من السفر الى والده، ووضع في الحبس التحفظي في منزل والده وشدد عليه الحراسة، فعاش كاتبنا فترة من القلق والخوف امتدت لبضعة أشهر حتى توسط له الشيخ مالك الفوتاوي وهو صديق والده وإمام السلطان يومئذ، فقبل السلطان وساطته وسمح له بالسفر، فسافر الى وداي في حراسة خاصة، وبعد دخوله واره عاصمة وداي وجد والده قد سافر الى تونس بعد طول انتظار، فنزل في بيت والده، وبعث إليه السلطان ببشریات الترحاب والهدايا والضيافة، فبدأ الشيخ محمد بن عمر التونسي حياة جديدة لكتاب جديد ضمنه قصته وقصة هذه الدولة وشعوبها، وحياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ويبدو واضحاً أنه ارتاح كثيراً في وداي وأعجب بها وبسلطانها وحياة الناس فيها، حيث وجد الجاه والنفوذ والمال، كما أن الشرف مازال معه، فهو ابن الشريف عمر، فالتبع نفس المنهج الذي سلكه في دارفور في جمع المعلومات عن

هذه البلاد في شتى مناحي الحياة، كما أنه استفاد من الموقع الجغرافي لوداي،
فهي وسط بين دارفور وبرنو، وكانت تمر بها عدة طرق تجارية بين شمال
الصحراء وجنوبها، فكانت ملتقى للتجار من كل الجهات، وبينما كان الجميع
منهمكين في جمع المال، كان صاحبنا منهمكاً في جمع التاريخ والثقافة وحركة
الحياة اليومية للإنسان والحيوان والنبات، فجمع من ذلك الشيء الكثير لكنه لم
يجمع من المال شيئاً، فقد ضاعت أمواله كلها بطريقة درامية دون أن يأسى لها أو
يحزن بعد أن طوف ببلاد السودان، ثم عاد إلى تونس موطن الأباء والأجداد
وركب البحر متاجراً بين تونس وطرابلس والاسكندرية، حيث أخذ الحنين إلى
أمه، وموطن النشأة والصبا فزارها بالقاهرة، لكن قلبه تعلق ببلاد الوداي الطيبة،
فعاد إليها مسرعاً، لكنه وجد الأحوال قد تغيرت تماماً، حيث توفي الوالد، ولحق به
صديقه العزيز السلطان صابون، وبدأ الكثيرون يقبلون له ظهر المجن مما دعاه
إلى المغادرة النهائية لتلك البلاد التي طالما أحبها وجسد ذكرياته العطرة من خلال
كتابه الذي جلس لمعالجته في مدينة القاهرة، فعقب استقراره فيها اكتشف
الفرنسيون شخصيته وموهبته العلمية الفذة، فقد كانت مصر يومئذ تقع في دائرة
النفوذ والاهتمام الفرنسي، وكانت فرنسا شغوفة بمعرفة الفريقين جنوب الصحراء،
خاصة بعد احتلال الجزائر عام ١٨٣٠م، فأصبح الشيخ التونسي مصدر اهتمام
كبير وتم تعيينه موظفاً بالمدرسة الطبية الفرنسية بالقاهرة، ونصحته الفرنسيون
بجمع معلوماته وكتابات عن بلاد السودان في كتاب، فكتب الجزء الأول منه عن
دارفور، وهو "تسحيذ الأذهان" أما الثاني فهو "الرحلة إلى وداي" وإذا كان الكتاب
الأول قد وجد الاهتمام والملاحقة حتى رأى النور عام ١٩٦٤م فإن الكتاب الثاني
ظل طي النسيان، حتى ترجمه إلى اللغة الفرنسية المستر بيرون مدير المدرسة
الطبية الفرنسية بالقاهرة عام ١٨٤٥م ونُشر في فرنسا، أما الأصل العربي فقد ظل
مفقوداً لأكثر من قرن ونصف من الزمان حتى اكتشفه أخيراً في الثمانينات باحث
سعودي في معهد الدراسات الشرقية بباريس وتم تصويره لجامعة الرياض، ومنها
إلى جامعة الملك فيصل بتتاد، وكنت دائم البحث والسؤال عن هذا الكتاب حتى
عثرت عليه وشرعت على الفور في تحقيقه بعد أن تجمعت لدى ثلاث نسخ منه

بالإضافة إلى الترجمة الفرنسية واستمر تحقيقه لمدة ثلاث سنوات، كل رجائي أن يرى هذا الكتاب النور ويضاف إلى المكتبة العربية والتاريخية. أشار الكاتب في نهاية كتابه إلى أن لديه كتابات أخرى عن رحلته إلى الحج وإلى مكة والمدينة المنورة وعن سفره إلى المؤرة وخاصة مدينة موشلق في بلاد اليونان، ومأثد فيها من أحداث وكوارث وذكر بأن ذلك سيكون مادة لجزء آخر. ونأمل أن يجد الباحثون في البحث عن هذا الجزء الهام حتى تتكامل الصورة التاريخية التي رسمها لنا الشيخ محمد بن عمر التونسي.

ثانياً: أهمية الكتاب

يعتبر كتاب "الرحلة إلى وداي" من الكتب التاريخية الهامة، وتتبع أهميته من الآتي:-

- ١- تناول تاريخ منطقة كانت مهمة تماماً من قبل الكتاب العرب والمسلمين وهي منطقة السودان الأوسط، وهي منطقة انتشر فيها الإسلام منذ القرن الخامس الهجري (١١م) وبذلك يكون هو الكتاب الوحيد الذي تناول تاريخ هذه المنطقة باللغة العربية، وبمنهج أصيل وعميق.
- ٢- تحدث الكتاب عن تاريخ دولة وداي منذ نشأتها وحتى عصر السلطان صاهون وهو العصر الذهبي لهذه السلطنة، فقد هجم عليها الفرنسيون بعد ذلك بقليل وضموها إلى مستعمراتهم، وبذلك يكون الكتاب قد كشف لنا تاريخ دولة إسلامية لم يعرف العالم عنها شيئاً إلا من خلال كتابات بعض الأوروبيين التي كانت تكتب لأغراض خاصة بهم، وقد تناول الكاتب بعداً مهماً وهو دور هذه الدولة في نشر الإسلام في منطقة السودان الأوسط والدور الكبير الذي قامت به في هذا المجال.
- ٣- جاء الكتاب مكملاً لكتاب تشحيد الأذهان، وبذلك أصبحت لدينا صورة متكاملة عن تاريخ المنطقة من برنو غرباً وحتى سنار شرقاً، ومن الصحراء شمالاً وحتى المنطقة الاستوائية جنوباً.

١- تناول الكتاب التاريخ السياسى والحضارى للمنطقة خاصة حياة المجتمع وأنشطته المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة.. وهو منهج متفرد فى كتابة التاريخ.

٢- كان الكاتب معاصراً وشاهد عيان لما يكتب، وكان مشاركاً فى بعض الأحداث، وكذلك والده، كما كان لنفوذ والده فى الدولة الأثر الكبير فى تمكينه من أخذ المعلومات من مصادرha الأصلية، كل ذلك يجعل من الكتاب وثيقة تاريخية نادرة تستحق الاهتمام والاحترام، بدرجة أعلى من اهتمام الفرنسيين به.

٣- كشف الكتاب عن العلاقات الثقافية والتجارية بين شمال إفريقيا ودول جنوب الصحراء الكبرى، وهى علاقات مستمرة عبر العصور، لكنها لم تجد من يكتب عنها ويعيشها كما فعل الشيخ التونسي فى هذا الكتاب.

ثالثاً: منهج الكتاب:

كُتِبَ الكتاب بلغة عربية جيدة، وبخط مغربى واضح، اتبع فيه الكاتب المنهج الوصفى التاريخى الشامل، وقسمه الى ثلاثة عشر فصلاً ومبحثاً، بدأها بسبب ارتحاله من دارفور الى وداى، واختتمها بوفاة السلطان صابون.

• تميز أسلوبه بالوضوح والنقد الصريح لكل ماشاهده، وكان لسنه الشابة أثرها فى تشكيل منهجه الذى تميز بالجرأة والافتحام والمخاطرة فى سبيل الوصول الى الحقيقة، وكان لموقف سلطان دارفور الذى حبسه ومنعه من السفر الى وداى، أثره الواضح فى كتابته حيث تحامل على سلاطين دارفور وقتل من قدرهم، بينما رفع من شأن سلاطين الوداى بعامه، والسلطان عبدالكريم صابون بخاصة.

• اتسم منهجه بالدقة والتقصى عن الحدث، وكان يسافر لأيام وإلى لأجل الوقوف على الأحداث بنفسه، وقد سافر لشهور عبر الصحراء ووصف لنا الحياة فى تلك القوافل التجارية ومآتانيه من أهوال الطبيعة، وتهديدات البشر، فهو رجل مغامر بطبعه حتى تعرض لحوادث عدة كادت أن تودى بحياته.

• وفوق ما يسجل من ملاحظات، فإنه كان يستعين في كتابته بأراء وروايات التجار والعلماء القاطنين من برنو ووداي ودارفور إلى القاهرة، بعد أن استقر الشيخ محمد بالقاهرة، وكان لهؤلاء التجار منازل خاصة بهم، وأحياناً يتجمعون في منزل الأمير أبومدين بن السلطان إبراهيم حسين سلطان دارفور الذي قتله الزبير باشا، وأخذ معه حوالي العشرين أميراً إلى القاهرة عام ١٨٤٧م فكان الشيخ يجلس معهم لساعات طويلة لأخذ المعلومات.

• كما تميز منهج الكتاب بالاستدلالات الواضحة فنجد في الكتاب خرائط القرى والمدن، ورسومات مختلفة للأشخاص، وأنواع الأسلحة والحيوانات الأليفة والمتوحشة وغير ذلك لأجل تقريب المعلومة للقارىء.

• اتسم منهج الكتاب أيضاً بالخروج عن الأسلوب التقليدى لسرد الأحداث التاريخية، فكان كثيراً ما يجرى المقارنات بين الدول في نشأتها ونظمها وشعوبها وصناعاتها، خاصة بين دارفور ووداي، كما كان يقارن بين الثورات والحركات الإسلامية مثل مقارنة بين حركة الشيخ عثمان بن فودي في غرب إفريقيا وحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، مما يجعل منهجه أقرب إلى المناهج الحديثة في تناول التاريخ.

• تناول الكتاب الحياة السياسية والحضارية لدولة وداي، منذ نشأتها وحتى وفاة السلطان صابون، وفي هذا الجانب تحدث بالتفصيل عن السياسة الحكيمة التى اتبعها سلاطين الوداي فى بناء دولتهم، وكيف شج السلطان صابون الحرب ضد الدول والملوك الذين يهددون وحدة بلاده واستقرارها كالغور والباقرمى والقائمة، وانتصر عليهم وأجبرهم على توقيع العهود والمواثيق معه، فاستقرت وداي وازدهرت وأصبحت قبلة للعلماء والتجار من شمال إفريقيا ومصر والحجاز وبرنو وسنار. أما الجانب الحضارى فقد ركز عليه وأبرزه بشكل باهر وقوى مما يعطى منهج الكتاب ميزة خاصة، فقد تناول فيه أهم القبائل التى تقطن وداي واصفاً الأقاليم التى تقطنها كل قبيلة، والأنشطة التى تقوم بها من زراعة وتجارة ورعى وصناعة، وتحدث بتوسع فى التجارة والرحلات التجارية وأنواع البضائع وأهمها، خاصة تجارة الرقيق الرابعة فى ذلك الوقت، وهو الجانب

الذى جذب اهتمام الفرنسيين، كما وصف نظام الحكم فى الدولة، والتقسيم
الادارى، والجيش وتقسيماته وأنواع الأسلحة المستعملة آنذاك، والحرب وكيف
تدار فى وداى، كما وصف الأمراض فى هذه البلاد وأنواع الأدوية وكيفية
التداوى.. وغير ذلك من الموضوعات الهامة التى تعكس سعة المنهج الذى
ملكه الكاتب ودقته.

. إعتقد المؤلف أن يستدل بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآيات الشعرية،
والحكم والأمثال العربية، فيما يدعيه من قضايا، وما يثيره من مشكلات.
. كما نجده يميل إلى السجع فى التعبير، وهو ما يوقعه فى مشكلات أحياناً، فقد
يضطر إلى استعمال كلمة أو عبارة فى غير محلها لضبط القافية أو السجع،
فيشوه المعنى لرضاء لملكة الشعر عنده.

. كما يلاحظ فى منهجه أنه يتناول موضوعاً ما ويحاول تشبيهه أو الاستدلال عليه
بقصة ما فيستمرسل فى هذه القصة لصفحات طوال حتى يكاد القارىء ينسى
أصل الموضوع ثم يعود بعد ذلك إلى أصل الموضوع ولكن قد يزدى هذا
التطويل فى الجزئيات إلى اختصار فى الأصل، وهو أمر وارد فى منهج هذا
الكاتب. كما أن هذا الاستمرسال أوقعه فى بعض المغالطات مع نفسه، خاصة
عند المقارنة بين دارفور ووداى.

. فضلاً عن ذلك فإن الكتاب فيه أخطاء لغوية ونحوية وإملائية متناثرة فى طياته
ولعلها من أخطاء النقلة، كما أننا نجد أحياناً حشواً واضحاً، وعبارات غريبة
وحياناً تركيباً تنقصه الصياغة، ولعلها لغة الشيخ فى ذلك الزمان والمكان حيث
عاش سنين عدداً بين الفور والوداى ولأخذ من لهجاتهم الكثير وتأثر بها
وظهرت فى كتابته.

رابعاً: منهج التحقيق:-

استعملنا أن نحصل على ثلاث نسخ لمخطوط الكتاب مصورة من المخطوط
العربى الأصيل، بالإضافة إلى الترجمة العربية من الأصل الفرنسى، فرقمناها
كالتالى: النسخة (أ) من جامعة الرياض، والنسخة (ب) من جامعة الملك فيصل

بالتجميع - تشاد، والنسخة (ج) من مكتبة الشيخ موسى بنياللا، بالاضافة الى
الأصل الفرنسي، ولكن بعد الاطلاع على النسخ الثلاث ودراستها اتضح أنها
صورت من أصل واحد، وبالتالي فهي تشكل نسخة واحدة، مما اضطررنا الى
ترجمة الأصل الفرنسي، وهو كتاب كامل، مأخوذ من الأصل العربي، فاستعنا به
في مجال المقارنة والتدقيق واستكمال النصوص والنواقص حتى نستطيع بذلك
تكملة الأصل العربي للكتاب، ونقدمه للقراء كاملاً محققاً ومطبوعاً.

لما المنهج الذي اتبعناه في تحقيق الكتاب، فهو المنهج العلمي المتبع في
تحقيق كتب التراث العربي من المحافظة على النص، وعدم المساس به، أو
بمضمونه الذي قصده المؤلف، وماكنا بإصلاحه من أخطاء لغوية أو نحوية،
أشرنا إليها في الهامش، وإذا أضفنا كلمة ساقطة أو غير ذلك وضعناها بين
حاصرتين () وذلك حتى يستقيم النص.

كما لم نحاول تغيير تركيب بعض الكلمات أو الجمل التي تبدو ركيكة
ولاستقيم مع قواعد اللغة الشائعة.

ونظراً لتعدد المشارب الثقافية للمؤلف من مغربية ومصرية وسودانية فقد
درج أحياناً على عدم التزام القاعدة النحوية بإفراد الفعل ولو كان الفاعل مثى أو
مجموعاً، بل اتبع قاعدة ما يطلق عليه النحاة لغة 'أكلوني البراغيث' أى الحاق الفعل
علامة التثنية أو الجمع إذا كان مثى أو مجموعاً، وهذا ما سنلاحظه في ثنايا هذا
الكتاب، وقد اضطررنا أحياناً لابقائها لكثرتها حتى نقلل من التهميش.

• لم يكن الكتاب مرتباً ترتيباً موضوعياً، وربما تعرض لعبث بفعل النقلة
والمترجمين فقمنا بإعادة ترتيبه بحسب تسلسل الأحداث والموضوعات، كما قمنا
بتقديم الفصول ذات الطابع الميسر والحري وتأخير الفصول ذات الطابع
الثقافي والحضاري باعتبار أن هذه الأخيرة نتاج طبيعي للمراحل الأولى، وقمنا
بتقديم الفصول حسب هذا المنهج الذي سلكناه في الترتيب حتى يبدو الكتاب
أكثر انسجاماً.

• هناك نقص في بعض الفصول وطمس في بعضها الآخر، فاستعنا ببقية النسخ
وبالأصل الفرنسي في تكملة النقص وإيراز المطموس.

• كما وجدنا فصلاً بأكمله مفقوداً من المخطوط العربي، فأضفناه من الترجمة الفرنسية، وبالتالي أصبح الكتاب مكتملاً ومتناسقاً.

• كما يلاحظ أن هناك تداخلاً بين بعض الفصول، فنجد مثلاً نهاية الفصل الرابع هي بداية الفصل السابع، أو حديثاً في منتصف الفصل لا ينسجم مع سابقه، أو مع لاحقه، كل تلك من أخطاء الناقل، فيشير إليها أحياناً بقوله: "قف هنا نقص" أو "قف هنا طمس" مما يجعل النص في غاية التعقيد، فقمنا بتصحيح ذلك كله.

• كما قمنا بتحقيق كل الآيات الواردة في الكتاب بنسبتها إلى سورها من القرآن الكريم، وكذلك الأحاديث النبوية وندناها إلى أصولها من كتب السنة، كما اجتهدنا في شرح بعض الآيات الشعرية والأمثال والحكم التي وردت في المخطوط.

• وردت أسماء أشخاص من سلاطين وعلماء وتجار وأماكن ومسن وحيوان، وهي كثيرة قمنا بتعريفها وشرحها في الهامش، وأحياناً قد يطول الشرح في الهامش بحسب مقتضى الحال، وقمنا بتصحيح ما وقع فيه المؤلف من أخطاء في هذا الجانب.

• كما يلاحظ أن هناك تكراراً لفصول في هذا الكتاب حوالي فصلين وردا في كتاب تحشيد الأذهان قمنا بالبيان لانهما يتحدثان عن بلاد السودان عامة أي دارفور ووداي وما جاورهما، لاسيما وأن فيهما إشارات واضحة لوداي، ومقارنات بينها وبين دارفور.

كما قمنا بالحقا وكتابة التواريخ الهجرية التي اقتصر عليها المؤلف بالتواريخ الميلادية ووضعناها بين قوسين.

• ورد في المخطوط عدد كبير من الرسوم التوضيحية قمنا برسمها في أماكنها كما ورد في الكتاب، كما أضفنا بعض الخرائط للكتاب من الأصل الفرنسي مثل خريطة مدينة وارة عاصمة وداي، وخريطة لمنزل السلطان صابون، وكذلك بعض الصور للأشخاص والأسلحة ووضعناها في مؤخرة الكتاب استكمالاً له وتعميماً لفائدته.

• ويشار إلى أننا أضفنا إلى البحث مقدمتي الدكتور السير بيرون وجومار بعد ترجمتهما من الأصل الفرنسي لما فيهما من معلومات مهمة عن ودای، وعن منطقة السودان الأوسط عموماً لم يتطرق إليها الكاتب.

وأخيراً نسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يكون إضافة حقيقية للمكتبة العربية والإسلامية، وأن يكون حافظاً للباحثين والمؤرخين لمزيد من البحث والتنقيب عن تراث هذه المنطقة الأصيلة في انتمائها للأمة الإسلامية.

وإن كان لي من شكر بعد الله فأنني أقدمه لأخوتي وزملائي الذين وقفوا معي من أجل أن يرى هذا الكتاب النور، وأخص بالشكر منهم: البروفسير/الزبير بشير طه وزير التعليم العالي والبحث العلمي، والدكتور/عثمان عبد الجبار وكيسل جامعة الفاشر، والاستاذ/عصام ودای مدير مركز أبحاث تراث دارفور بجامعة الفاشر، والاخ الاستاذ الدكتور/عبدالله محمد ادم استاذ اللغة العربية وأدائها بجامعة الرياض وجامعة إفريقيا العالمية، واستاذة اللغة الفرنسية الاستاذ/السر الأمين التكنينة، والاستاذ/أنم داود بجامعة نيالا، ولا أنسى الاستاذ/احمد دقرشم عبدالله الذي أشرف على طباعته، وإلى كل الجنود المجهولين شكري وتقديرى.

المحقق،،،،،

مقدمة

بقلم السيد بنوون

ما زالت معرفة الناس بدار ودّاي أقل منها عن معرفتها بدارفور، وعنهما كتب شيخ قبل عدة سنوات مختصراً عن تمبكتو يحتوى معلومات عن بلاد السودان الغربى آثار ذلك اهتمام الجغرافيين كثيراً، ويبدو لى أن الكتاب الذى بين أيديكم ذو أهمية أكبر لما يحويه من معلومات تفيد الرحالة والمسافرين الذين ينوون سبر أشوار المراكز الشرقية لأفريقيا.

ويتجلى من بعض صفحات الكتاب (وقد أكدت لى ذلك مقابلاتى مع شيخى، أن تقسيمات السودان التى يعرفها ويقبلها أهلها تختلف عن تلك التى يعرفها جغرافيو أوروبا.

ولهذا فقد عكفت على تحديد هذه التقسيمات: أماكن التقاطع، مساحاتها، والمسافات التى تفصل بينها، وحاولت أيضاً اختطاط خريطة للسودان من خلال المعلومات التى جمعتها.

لقد أوضحت ما استطاع شيخى التونسى أن يبينه لى، أى ما يعرفه السودانيون ككُسام وأسماء ومسافات، فقد اتبعت لشيخى كاتب هذا الكتاب فى رحلاته فرصة مقابلة واستفسار التجار والمسافرين وخاصة النخاسة الذين جابوا السودان عشرات المرات، وقد تلقى من هؤلاء النخاسة معلومات مفيدة عن هذه البلاد ومكانها.

من جهة أخرى فقد اتبعت لى الفرصة بأن أقابل فى القاهرة عدداً من سكان دارفور، ودّاي، برنو، باقرمى، ورجالاً من مندره، وأفناو، وقد كنت أستفسرهم عن مواقع البلدان التى جاموا منها أو جابوها ترحالاً داخل السودان.

تبدأ من بحر قزوم، فى الخليج العربى مساحة واسعة تمتد نحو الغرب تمثل هذه المساحة أرض السودان، إذ تبدأ من رأس موالكن وتنتهى فى دارتبيكو إمبراطورية الفلان أو الفلانة فى الجنوب الغربى لدار تبكتو وحتى الحدود الغربية للسينيفامبى، أى الأرض التى تمتد من البحر الأحمر وحتى المحيط الأطلنسى، لأن

جزء من السنيغامبي بعد جزءاً من دار ملاً، إذ يعتبر السودانيون الفوتا الذين يسكنون الاجزاء الشرقية للسنيغامبي جزءاً من دار ملاً وقد رأينا الشيخ التونسي يشير مرات عديدة في كتابه: رحلة الى دارفور، (تسحيذ الازهار) الى الفكي لو الشيخ مالك، بالفوتاوي، أي من فوتا تشكل كل النيار الواقعة الى الجنوب من الدويلات الاسلامية جزءاً أصيلاً من السودان، فالحدود الجنوبية الغربية للحبشة تعتبر بالنسبة للسنايين على الاقل جزءاً من السودان.

اما القبائل التي تسكن جنوب غربي سنار ماوراء فازو على فتسمى بالنوبة، وفي مصر عندما يقال لعبد "توبى" يقصد به انه قائم من جنوب سنار، من دار النوبة، ولا يقصد أبداً بذلك عيد ولد في ما يعرف اليوم بالنوبة. ففي القرن الثالث الميلادي دفع ديوكليتيني (Diocletien) قبيلة نوبية هي النوباد للسكن في جنوب مصر، ومن هنا أعطى الاسم للأرض الواقعة بين مصر وجزيرة مروى ومن قبل هذا التاريخ لا توجد نوبة اخرى غير التي تقع جنوب سنار، ويبدو أيضاً ان مصدر اسم نوبة هو الكلمة القبطية نوب (Naub) أي ذهب، حيث توجد في هذه المنطقة حقيقة رمال بلون الذهب.

وتسمى القبائل المجوسية - غير المسلمة - التي تسكن ما بعد كردفان الى الجنوب بالتزوج ومفردها ترجاوى.

اما الذين يسكنون ما بعد دارفور حيث يذهب الفور لصيد الرقيق فيسمون بالفرتيت، والذين ما بعد جنوب اواسط ودأى والذين ينعتهم الوداويون بالرق فيسمون بالجناخرة، اما المجوس الذين يتمددون جنوبى باقرمى وبرنو وبعد مندره (Mandarah) فيسمون بالكرداويين، مفردها كرداوى - سكان دار كردى، ويبدو وارداً ان تكون للقبائل التي تسكن النطاق الجنوبي للسودان الى الجنوب من أغلاديس، (Aghades) وأفناو وتمبكتو وملاً اسماء تميزها أيضاً، لكن شيخنا لم يذكرها، ويبدو ان جزءاً من شمالي غينيا بعده سكان دار ملاً وتمبكتو جزءاً من السودان أيضاً حيث تصل حملاتهم لصيد الرقيق.

من جهة اخرى فان الجبال التي يسميها الجغرافيون في خرمهم جبال القمر لم تكن هي الحدود الجنوبية للسودان، فقد توغل شيخنا في دار فريت وراى مزارع وارضى تغطيها الغابات، واكثر من ثلاثة مجارى مائية، احدهم يقع وراء دار بنقا، وشالا، وقولا، وهو بحر ادا (Ada) الرقيق، وراى جبالا لكنها متفرقة وارضى غير مستوية ملأى بمياه موسمية، لكنه لم يسمع أبداً بسلامل جبلية تسمى جبال الكمورو (Comer) والتي ترجمت الى 'جبال القمر' ومع ذلك يجهل اين تقع حدود السودان جنوباً.

يتضح مما تقدم أن الاراضى الواسعة التي تسمى السودان تنقسم الى جزعين جزء شمالي أسميه السودان المسلم والذي يشمل الدويلات العشر التي ذكرت في تسجيل الاذهان وجزء جنوبي أسميه السودان المجوسى والذي يتكون من القبائل الوثنية والتي يعتمد عليها النخاسة في استجلاب مولود سنوية هائلة من الرقيق، وسرى في فصل من هذا الكتاب وصفاً للطريقة الوحشية التي يتم بها اصطلياد الرقيق والتي لا تبررها اليوم حتى الديانة الاسلامية^(١). وهناك ايضا تقسيم أقامه النخاسة من الدويلات البربرية والذين كانوا يتابعون مطارداتهم حتى وسط افريقيا، ولهذا يقول الشيخ في كتابه أن التوافقة والغدامسين والفرانبيين لا يعتبرون السودان الحقيقي غير أغاديس وأفاو وتمبكتو وبالتالي فإن الدول الاخرى مثل: برنو، باقرمي، وداى، دارفور، كريفان، وسنار، لا تعتبر سودانا وسبب هذا الاستثناء هو أن الرقيق والبضائع الآتية من هذه الدويلات الشرقية ليست جيدة، اما في الجزء الغربى فإن الرقيق أنكى واغوى، وبالتالي مربح بقدر اكبر خاصة الرقيق الآتى من أفاو، فإن قيمته اكبر وبفضله الجميع.

^(١) في هذه المعارة نحن ووضح على الاسلام، ولكن الاسلام قد نحر الرق، سيما بعد الاسلام قد حارب الرق منذ ظهوره وضيق مولوده وحصره فقط في راي العرب وذلك لاعتقاد الامماء بان كل منة في بلد اسرى المسلمين في دهم ووضع لها اياماً فواحد مره في الحروب، سيما بعد الدول الأوروبية لم تحرر الرق الا في القرن العشرين سيما منهم الاسلام بأكثر من اربعة عشر مره.

كان في السابق يطلق اسم التكرور على سكان برنو أما اليوم فيطلق على كل سكان المنطقة، برنو، مندرا، كاتم، باقرمي، ودأي،* (انظر تشييد الأذهان، ص ١٢٦).

تفصل بين دول السودان مساحات خالية من أي وجود لسكان مستقرين والمساحات التي تفصل بين دارفور ووداي، وبين وداي وباقرمي تخلو حتى من الرحل، هذه الفواصل لا يستطيع قبيلة السكن فيها خشية غارات مهاجرة من الفور أو الودايين أو الباقرمي، ولكونهم بين دولتين لا يستطيعون تغاضي طلبات وهجمات جيوش هذه الدول. لكن الحال ليس كما هو في السهول التي تقع بين برنو وأغاديس، أو بين أغاديس وأفناو والتي تمتد لمساحات شاسعة إلى الشمال من هذه الدول، وتسكنها في مساحات متباعدة عادة قبائل الطوارق المتشرذمة والتي تحمل دائما معها سلاحها: حراجهم في الأيدي وخناجرهم على الأزرع ويقطعون دوماً طرق القوافل التي ذلوا ما تبدي مقاومة تذكر.

أما في الجنوب فالفلاحة أيضا يجوبون السهول على طرق القوافل، ويشبهون الطوارق في الجسارة والقسوة، يذكر التونسي: أن الطوارق ليست قبيلة عربية إذ ينحدرون من التبو ويشبه الطوارق والتبو والفلاحة أكراد ديار بكر، لقد التقيت في القاهرة أحد سكان غدامس وقد سافر عدة مرات بين غدامس وأغاديس وأفناو وحكى لي وللشيخ التونسي أن الطوارق ينتشرون كقبائل متقلبة في المساحات الصحراوية التي تفصل بين كل من غدامس وأفناو وأغاديس، وينطق الاسم طوارق أو طوارقة، ويشبه الطوارق عرب الجزيرة إذ يقيم بعضهم في خيام من الوبر، وآخرون في خيام من الكتان أو الجلد، ومدينتهم تسمى غات (Ghat) وتبعد خمسة وعشرين يوماً عن غدامس، وقد نصبوا من بينهم ملكاً يقيم في غات لعدة سنوات، وقد حاول فلاة ملأ الذين أتت بهم حروب الإصلاح إلى ما بعد شمال أغاديس وأفناو أن يهندوا بإخضاع أعداد كبيرة من الطوارق لكنهم أبعدوا عن الأقاليم التي احتلوها وعادت إلى الطوارق استقلاليتهم، وقد أعطاني الفكي الأبسي 'الهلكي' القادم من ولاية عاصمة وداي والذي التقيته لمرات عديدة عام ١٨٤٣م

عند الشيخ التونسي في القاهرة والتي مر بها في طريقه الى مكة، اعطاني معلومات قيمة عن الطوارق، ويسكن الفكي الهلالي نفس البيت الذي كان يسكنه الشيخ التونسي مع اثنين من أبناء عمه واثنين ترك لهما الشيخ البيت ليقيمهما فيه حتى الآن، لقد مدني الهلالي بجزء كبير من المادة التي نحاول بها رسم خارطة وداي، أي أسماء القرى واتجاهاتها ومواقعها وأسماء واتجاهات بحر أرو (Iro) من منبعه في جبل مرة ومجره في باقزمي واتجاه شاري وبحر فتري (Filry) وبحر رائد ونهر السلامات والبحر الأبيض في برنو، ولكنه لم يحدثنا عما إذا كانت هناك علاقة بين البحر الأبيض هذا والنيل الأبيض، ولم يعرف أيضا نهر المسلا وكما رددت هذا الاسم على مسمع الهلالي بأنه نهر طويل المجري يجيب، بأنه لا يوجد بحر أو مجرى مائي في سودانا أطول من بحر أرو والذي يسمى في نقطة ما بحر السلامات، كما لا يوجد بحر أعرض من الشاري ولا أسرع من بحر أبيض الذي يقع في برنو ومن هنا أميل الى الاعتقاد بأن نهر أرو هو نهر مسلا الذي ذكره براون.

باختصار لقد اعطانا الهلالي الأسماء والعلاقات والمسافات التقريبية بين أكثر من مائة وخمسين الى مائتي قرية ومكان لم تكن نعرفها من قبل، لكن كم كلفنا ذلك من وقت ومحادثات وأسئلة ومراوغات لكي نحصل على المعلومات التي نريدها من الفكي الهلالي، وهذا الهلالي برغم سهولة التعامل معه الا أنه كان على خلاف السودانيين الذين التقينهم وعرفتهم كان يتحاشى فضولنا باستمرار، وهذه عادة شائعة عند الزنج في السودان منهم من لا يعطون أي معلومات عن بلادهم ولولا الشيخ التونسي لما حصلت على شيء منه.

وذلك مساء وبينما كنا في دعوة لتناول طبق رائع من الكسكس في بيت الشيخ التونسي، وكنا ثلاثة فقط، قلت للهلالي لماذا ترفض أن تمد الشيخ بالمعلومات التي يريدها عن بلدك! أجاب: إن هذا شيء محظور وعقوبته الاعدام، سألته ثانية: كيف؟ عقب قائلا: بلاتك، إذا علم السلطان بأنني أنا الذي حدثكم عن طرق وديار وداي فسيقطنني بلا رحمة، قلت له: ومن يذهب لسلطانكم ليقول له

أنت الذي أخبرتنا عن الأرض في ودّاي، فلا أنا ولا الشيخ ننسوي السفر إلى
السودان، وحتى إذا جاعتنا الرغبة منحرص على ألا نقول أنت الذي أخبرتنا، قال
أصدقكم، لكن أنتم تعلمون الخوف.. قلت له لا تخف نعاذك بالأمان نغوثك، قال:
أصدقكم، لكن أقسموا لي بأنكم لن تقولوا أن الهلكى هو الذى أعطاكم معلومات
عن ودّاي وساقول لكم ما اعرفه لأننى سافرت كثيراً داخل ودّاي ورافقت قسوات
السلطان فى طريق ولادة - أبوسمين فى حملتين ضد باقرمى وحملة أخرى فى
أرض عرب السلاطى حين تمردوا وحملتين فى داركردى ودار بنقا من أجل
صيد الرقيق، قلت له: هل تسىرون النهار كله فى هذه الاسفار؟ أجاب: أبداً، نسير
فى مراحل يوماً بيوم لمدة تتراوح بين خمس إلى ثمانى ساعات فى خط مستقيم
لأن بلادنا ماهرة بالسكان ومن السهل أن يجوبها المرء ثم إن المحطات هى
نفسها، سألته: إن الذين يتبعون الحملات إن كانت للحرب أو لصيد الرقيق يجب
أن يعرفوا...؟ أجاب: طبعاً، سألته: وكم محطة توجد فى الاتجاهات إلى زرتىها؟
أجاب: إنها كثيرة حسبنا من الشمال إلى الجنوب لأن ودّاي يزيد طولها بثلاث عن
عرضها، قلت له هل تسمى مباشرة حدود دارفور أو باقرمى؟ قال: لا، يوجد بيننا
ودارفور وادى اسكتا وكلكل من الجنوب إلى الشمال وهى منطقة مليئة بالغابات،
لما الوادى الذى يفصلنا عن باقرمى فهو أبو راوى وتحفه الغابات من الجانبين،
وعرضه يضاعف عرض الوادى الذى يفصلنا عن دارفور، ومن يومها وأصل
الهلكى طوعاً وصفه، وقد كتب الشيخ المسافات والأماكن بعناية، لكننا وجدنا
صعوبة بالغة فى وضع المسافات وتحديد الاتجاهات.

وقد كان يبدو للهلكى أنه فى أسفاره هذه يسير فى خط مستقيم أو ماهر
أشبه بذلك، سواء من الشمال إلى الجنوب أو من الشرق إلى الغرب. أو من أحد
الخطوط المتوسطة بين هذه الاتجاهات، هذا كل ما سمعنا معرفته وحتى الهلكى
ما كنا نظنه يعرف أكثر من ذلك.

بعدها تحدثنا عن باقي السودان، لأن الهلالي كان قد سافر إلى أفتاو في
الشمال ذات مرة، فقد أعطانا معلومات مهمة عن الطوارق والتي لم أجدنا مضمنة
في أي من الخرط التي وجدتها في مصر.

إلى الشمال من أغاديس قريباً من حدودها تسكن قبيلة الطوارق كليوي
الكبيرة، والتي تسكن الجبال وتمثل قبيلة كثيرة العدد وقوية، ويحتل جزء منها
الأراضي الواقعة بين برنو وأغاديس أما الطوارق البدويون الحقيقيون - طوارق
أولامون فيسكنون على الحدود الشمالية لتمبكتو ومنهم انقسم الفرع القوي أو
لامون الشرقيون والذين يملكون كثيراً من الجمال والخيول، وتتكون كل واحدة من
هذه القبائل من مجموعة تضم حوالي مائة ألف شخص، أما القبيلة الرئيسية الثانية
في الطوارق فهي الهجرس وبين هاتين القبيلتين الرئيسيتين تنزل قبيلة طوارق
أجداكين، قبيلة الفقهاء المشعورين وتسكن قبيلة التمسجرن إلى الشرق من البلاد
التي يسكنها طوارق دار الطوارق إلى الشمال من أولامودين الشرق وتحدث قبيلتنا
أسن وكيجرس لغة واحدة، وكانت الغلبة القبلية في البداية لايتسن ولكنها زالت
والت إلى يد الكيل-جرس.

أما التبو أو النيبو فيقومون بنفس أدوار الطوارق وينتشرون أيضاً في
شمال السودان خاصة في الجزء الشرقي وبشكل رئيسي في طرق القوافل في
الصحراء بدءاً بفزان وانتهاءً ببرنو ووداي ويجمعون الضرائب من القوافل التي
تمر بهم، أما تبو رشاد أو تبو راشدي وتعني تبو الصخور فيسمون بذلك لأنهم
يسكنون متفرقين بين الجبال التي تقع بالقرب من الحدود الجنوبية الشرقية لفزان،
ويسكن عدد منهم في كهوف هذه الجبال.

أما فيما يخص التقسيمات الداخلية مثل ولايات الدولة والمحافظة فعدد
منها يقع في أماكن غير التي حددها الجغرافيون في خريطهم حتى الحديثة منها
وكذلك تسمية بعض القبائل جديدة تماماً، وقد رأينا نملاذج من ذلك في دارفور ذات
الشيء في دار فرتيت ودار النوبة، وأغلب القبائل العربية التي كانت تجاور

دارفور ودار وداى كانت مجبولة ونفس الشيء بالنسبة لبرجوب ودار تروج ودار
الجنائزة.

إن المنذرا حسب ما اكد لى أحد البرنو والذى كنت التقيه فى منزل سلطان
دارفور - فيعبرها نهر شارى والذى يروى أطراف ماسينا عاصمة باقرمى وحسب
ماقال صديقى البرنداوى فإن شارى هو الاسم الحقيقى للنهر لكنه حرف اليوم
ليصبح شارى، اما اسم تساد او تساد المكتوب على خريطنا ليشير الى البحيرة
الكبيرة التى تقع بعد باقرمى فى بلاد البرنو فإن هذا الاسم لم يكن معروفاً للبرنو
الذين يطلقون على الكل أى البحيرة والنهر - بحر شارى - (فى مصر يطلق اسم
بحر على النيل) وهو صالح للملاحة وتجوبه المراكب الصغيرة باستمرار.

يعتقد البرنو جازمين بان بلادهم هى أرض البركة، فقط لأنه وقع تشابه
لفظى ساذج يعتقدونه حجة، اذ يدعون أن سفينة نوح قد رست فى أرضهم بعد
الطوفان والدليل أن الكلمة برنو كما يزعمون تتكون من مقطعين 'بر' و 'نوح'
واللتان جمعاً لتكونا 'برنوح' أى أرض نوح ثم صارت برنو. فى برنو كما فى
دارفور ووداى وباقرمى فإن الحكام الذين يحملون لقب ملك يحكمون المقاطعات
لكن ملك منذرا لغناه وأهمية بلاده فيحمل لقب سلطان ويحمل هذا اللقب أيضاً
حاكم كنتو وكلاهما يشبه باشا حقيقى يحكم مقاطعته نيابة عن القسطنطينية،
فكلاهما ينصب من قبل سلطان برنو ويحكم سلطان كنتو على رأس خمسة ملوك
يقيم كل منهم فى برنى، أى عاصمة، وتقع إحدى هذه العواصم الخمس فى لوقون
مقر سلطان كنتو.

اما كاتم فيحكمها 'ليفه' وهو اسم يطلق على حاكم هذه المقاطعة وقد كان
ليفه كاتم هو الذى انتد برنو وباقرمى ووداى وحتى دارفور من غزوات الفلانة
الاصلاحيين 'بروتسنانت' فهو الذى اوقف زحفهم بعد أن خرج الفلانة من دار ملا
يقودهم أحد العلماء على السودان الشرقى وهند بالاستيلاء على ثلاثة أرباع
السودان، ويخبرنا الشيخ أن هذه الحرب قد اجتاحت عدداً من البلدان فى نفس
الوقت الذى دعمت فيه الوهابية المسلحة ثورات اللبدو فى غربى الجزيرة العربية.

اما ادغيس أو اغاديس كما يسميها الجغرافيون فهي مقاطعة مجهولة نسبياً
والموقع الاكثر اعتباراً في هذا الجزء من السودان يسمى ادغيس ايضاً والتي
الشرق من هذه المحافظة مايعرفه المغاربة بالسودان التجاري.

بعد اغاديس تأتي افناو وهي ارض ممتدة ومعها تتم معظم التجارة مع
تونس وطرابلس وبلاد المغرب عموماً، وهذه المدن نادراً ما تذكر في الخرطوم
ولافناو علاقات تجارية ثابتة مع تونس، واكبر مدن هذه المقاطعة هي هوسا
وكشينا، ونوفي، وهذه الاسماء هي ايضاً اسماء لثلاثة تقسيمات للبلاد، ويطلق
الجغرافيون الاوربيون على افناو اسم هوسا، الاسم الذي لا احد من السودانيين
والمغاربة الذين التقيتهم في مصر يعرف ان يطلق على غير عاصمة افناو
ولا يعرفونه ابداً كاسم لدولة.

لما دار تبكتو فلا احتاج الى الحديث عنها، فهي معروفة وخاصة باسم
مدينتها العاصمة تبكتو، لما دار ملا أو دار الفلانة فهي ذات امتداد معتبر، ويقول
الشيخ ان فلانة شرق دار ملا نوى رؤوس كبيرة وجباه عريضة، واقواء كبيرة،
لما اولئك الذين هم في الغرب وخاصة شمال غرب ملا فرووسهم منتظمة نسبياً.
ويوجد الفلانة منتشرين في كل مكان ابتداء من دارفور وحتى السينغامبي
رحلاً ومقيمين باعداد كبيرة ويحتلون ثلثي الجزء الغربي من الاقاليم الجنوبية من
دويلات السودان الاسلامي وهناك يقومون بالانوار التي يقوم بها النور والطولوق
وباختصار يوجد الفلانة في كل السودان حتى كردفان، وابتداء من دارفور حيث
توجد لديهم بعض القرى مثل التي في اسافل جبل مرة، فهم كثر في كل دولة لان
حروب الاصلاح قنفت بهم في كل ارجاء السودان الاسلامي.

ويذكر التونسي انه راي فلانة يشغلون مناصب عليا في كل من دارفور
ووداي ففي كتاب رحلة الى دارفور (تسحيذ الازمان) نرى ان الفكي ماتك
الغوتاوي يتمتع بنفوذ قوى لدى السلطان، من جهة اخرى نرى ان مشاعر الرعب
وتارة الاعجاب بالفلانة التي اثارها حروبهم قد ربطت باسم اولئك 'الوحوش'
فكرة مرعبة، واشياء خرافية قادتهم الى تملك قوة السحر ضد قبائل السودان وعلى

ضوء هذه العلاقة فهم بإمكانهم فرض كل ما يريدونه على قبائل جاهلة متخوفة
تؤمن بالخرافة وتكفي الإشارة باليد لتوقع بهم في الرعب أو التعجب أو الإعجاب.
لنقل الآن شيئاً عن محاولة رسم خريطة وداى المضافة الى هذه الرحلة لقد
اتبعت فى رسم هذه الخريطة نفس الخطوات التى اتبعتها فى رسم خريطة
دارفور، فالمسافات قد وصفت بالتقريب، ولعلنى يمكن أن اضع لكل يوم مسة
فراسخ وربع، فهذا متوسط ما تقطعه القوافل فى عدد معلوم من الايام، وأحياناً
تقطع فى يومين أو ثلاثة أو أربعة ايام أكثر من خمسة وعشرين فرسخاً لكن اذا
وضعنا فى الاعتبار أن المسافرين بالقوافل السودانية عرب أو غيرهم يحسبون
المسافة مقطرة بعدد من الايام حتى ايام الراحة، فمثلاً فى المسافة المقطرة بخمسة
عشر أو عشرين يوماً من السفر يقضون أربعة أو خمسة ايام فى الراحة، ولهذا فان
التقديرات التى وضعناها تمثل المسافات جغرافياً لتقريب الحقيقة.

إن طول وداى من الشمال الى الجنوب يساوى ثلاثين يوماً، وعرضها أى
من الشرق الى الغرب يساوى حوالى عشرين يوماً وعرضها النهاى فى الشمال
أكثر قليلاً مما هو عليه فى الجنوب، وإن مساحة وداى مأهولة بالسكان أكثر من
مساحة دارفور، والكثافة السكانية اكبر.

وعدا الجانب الشرقى فإن وداى محاطة بقبائل عربية شبه متقلة لا تخضع
لسلطان وداى، وعلاقتهم بسلطان وداى هى نفس العلاقة التى بين سلطان دارفور
وتلك القبائل العربية المحيطة بدارفور، وقبائل البنيات 'بنى بديات' وهم بدو رحل
يعيشون على مسافة يومين أو ثلاثة من حدود وداى الشمالية ولهم طباع تشبه نمط
الحياة العربية لكنهم ليسوا من أصول عربية ولا يتكلمون لغتهم.

وما زالت وداى تسمى وداى - برقو ودارصليح، والاسم الاخير هو الأكثر
شيوفاً فى كل السودان، واسم وداى هو الأكثر استخداماً بعد دارصليح، ولودايون
لا يسمون بلدهم الا وداى ونايراً ما يستخدمون اسم برقو، وهذا الاسم لا يستخدم الا
فى اجزاء محدودة من السودان.

أما التقسيمات الإدارية الرئيسية في وداي فمقسمة بحسب الاتجاهات فتوجد خمسة أقسام رئيسية وهي محافظات: الشمال، الشرق، الغرب، البطيحة، والبطحاء، أي "الأراضي المنخفضة" ويحمل حكام هذه المحافظات اسم عقدا، وهم: عقيد الريح، ويحكم الشمال، وعقيد الصباح، ويحكم الشرق، وهي المحافظة الحدودية مع دارفور والتي يسكنها المساليت وهؤلاء يشكلون قبيلة كبيرة العدد، وعقيد الغرب، ويحكم الغرب، وعقيد البطيحة، ويحكم المنطقة الواقعة من البطيحة الوسطى وحتى أقصى الجنوب، وعقيد البطحاء، ويحكم المنطقة من وسط وداي وإلى الجنوب حتى وادي البطيحة.

واسم بطحاء وتصغيرها بطيحة هما اسمان لواديين كبيرين عريقين هما عبارة عن أراضي منخفضة يجري الواديان فيها من الشرق إلى الغرب، ويقسمان دارصليح إلى ثلاث مناطق غير متساوية.

تتكون اسافل البطيحة من واد رملي أبيض جميل تحفه على جانبيه الأشجار ويبلغ عرضه حوالي نصف ساعة مشياً على الأقدام ويمتد في خط مستقيم تقريباً تغمره مياه الأمطار الموسمية، وعندما يقل الماء يصبح صافياً جداً يعطى منظراً رائعاً للرمال من تحته، وحسب ما يقول التونسي، بأنه نادراً ما ينقطع سيل الماء في هذا الوادي، لكن تقل سرعته ويضيق مجراه، لمانهر بنى راشد فيجف أحياناً ويغور الماء في الرمل ويتبخر جزء منه وفي الشتاء يضعف تيار الماء، فحسب توزيع فصول السنة في وداي فإن الصيف هو موسم الأمطار ويأتي مباشرة بعد الشتاء، وهذا ما يعطى الفصول الترتيب التالي: الشتاء، الصيف، الخريف، الربيع.

تكون المياه أكثر وفرة في أثناء الحر الغافض، وعندما يأتي الربيع والشتاء بصفة خاصة لا تستطيع درجات الحرارة المتواضعة من تبخير كميات كبيرة من المياه تحد البطيحة من الشمال والجنوب كميات من الأشجار، وما بعدهما مباشرة قرى ومزارع، وبعد نصف ساعة من السير نحو الجنوب يسكن الكاشميرة وهي

قبيلة كبيرة تسكن عدداً من القرى من بينها أم حروية والتي بها أكثر من خمسمائة رجل قادر على حمل السلاح وكانت مقراً لاقامة الشيخ التونسي لعبد من الشهور. لما البطحة أو البطحاء فهي على بعد ستة أو سبعة أيام إلى الجنوب من البطيحة، أي حوالي خمسة وأربعين فرسخاً، والوادي يحتل نفس الموقع وربما نفس الطول والعرض كما هو في البطيحة، لكن مياه البطحة أكثر وفرة ولا تجف أبداً، ففي موسم الأمطار تتجمع مياه الواديين وتصبه أنهاراً كبيرة، وبالتالي تتعزل القبائل التي تسكن ما بعد الواديين لفترة حتى تجف المياه ويتفرع من البطيحة نهر التفرى.

بجانب الحكام الرئيسيين الذين تحدثنا عنهم سابقاً، يوجد ملوك برتب ثانوية يحكمون بعض المقاطعات والديار والقبائل، وأغلب هؤلاء الملوك يتبعون لعقائد المناطق التي يعيشون فيها.

وكذلك القبائل العربية التي تسكن ما بعد الحدود لها علاقة أحياناً بعقيد المنطقة التي ينزلون بالقرب منها، لأن السلطان يرسل كل عام في طلب ضريبة الحماية، والتي تفرض على القبائل بشكل عشوائي أحياناً مما يجعل البعض يرفضها.

وتخضع لحاكم الغرب تقريباً قبائل البنى غياتية (غيات) والبنى زيدة. وللكاشميرة ملك يخضع لعقيد البطحاء، أما جناخرة ودای وهم عبيد تحت خدمة السلطان والذين تم جمعهم أخيراً في تنظيم أشبه بالعبيدية التابعين لسلطان الفور، فهم تحت إمرة ملك يحكم عدداً من القرى التي يقطنها هؤلاء الرقيق بين وارة والغرب، وإلى الشمال من المنطقة التي يقطنها الجناخرة تقع منطقة جبلية مأهولة بالسكان ويحكمها ملك يسمى ملك الجبل، ويبدو أنه يتبع مباشرة لسلطان ودای أكثر منه إلى عقيد الشمال.

وهناك قبائل أخرى ولكل قبيلة ملكها مثل: الكوكا، الكوركوس، البيقو، الداجو، الموي، البرقد، الحيماد، البندلة، التفرى، وهؤلاء في الجنوب والغرب، وهناك البرتى والميمة، القمر، المسجي، المذاقو، اللبالا، ومجموعة من الداجو

والهليلات في الشمال، والمسائيت في الشرق بجانب مسمجة البطيحة والاب بكر
والمرقى، اما القبائل العربية في ودأى فهي السلاطات والرائدية وهؤلاء يقيمون
داخل حدود ودأى، ولكل منها شيخ تتبع له، وهذا الشيخ يتبع لأقرب عقيد في
المنطقة التي ينزل فيها، ويحكم الفترى خمسة ملوك يتزعمهم الملك المقيم في ياوا.
وكل حاكم يمثل السلطان في مقاطعته، ويعتبر نفسه الحاكم الاعلى ويحكم
مايراه حتى وإن كان ظالماً، ولكل عقيد الحق في حفظ النظام والدفاع عن
مقاطعته.

تمثل قبيلة الكوكبة التي تسكن الى الشمال الشرقي من الفترى قبيلة منفصلة
منذ زمن بعيد عن الكوكبة الموجودين في جنوب شرق ودأى، وقد وقع هذا
الانفصال كما يقول الهالكى بعد نزاع دموى، وقد شكت هذه القبيلة التي تسمى
نفسها مهندة الى السلطان فحكم لها بأن منحها حكم البطيحة حيث أقامت منذ ذلك
الوقت.

أن الكوكبة الذين يسكنون الزاوية الجنوبية الشرقية لدار صليح يشكلون
جزءاً من الجناخرة، والذين يكونون قبيلة كبيرة تشتهر بجمال نساها فكل الفتيات
الجميلات اللاتي كان اهل ودأى يخطفون عند غاراتهم في دار الجناخرة كن
يقتن حريماً للسلطان، ويذكر ان السلطان نصح منذ زمن قديم بالرمال حملة الى
ارض الكوكبة والجناخرة المجوس لاستجلاب الفتيات والنساء والرجال والاطفال
والاسر وترحيلهم للإقامة في جنوب ودأى حتى يتسنى له الحصول على ما يحتاجه
من نساء شرعيات او سراري في كل عام، وقد عمل السلطان بهذه النصيحة،
ومنذ ذلك الزمن يرسل حاكم كوكا كل عام أجمل فتياتها حريماً للسلطان وكانت
الارسالية السنوية تتراوح ما بين المائة والمائة وخمسين من الفتيات العزراوات
اللاتي لا تتجاوز أعمارهن عن الاربعة عشر عاماً.

ويقيم السلطان في مدينة وارة، وهي مدينة صغيرة، اعطاني الشيخ خريطة
لها، وهي محاولة بالجبال التي تشكل موراً طبيعياً وحصناً لها، وحسب تقيمي
للمسافات التي اعطاني اياها شيخي فتقع عند خط ١٣ شمالاً و ٢١ او ٢٢ شرقاً

بالتقريب، ولا تبعد كثيراً عن دار تاما، لأن الحرب التي وقعت بين التاما وجيوش وداي، والتي سنتحدث عنها، وقعت على بعد خمسة أيام من وارة، داخل أرض التاما.

لن دار التاما التي كانت غالباً تحت سيطرة الحكام الفور، قد سقطت مرات عدة على يد الوداويين، وهي بلد زراعية تتخللها الجبال، ويقع ملك التاما في قمة الجبل الرئيسي وهو جبل التاما.

يقسم وارة من الشمال إلى الجنوب شارع واسع ينتهي بميدان فصبح أمام قصر السلطان يسمى الفاشر، وتسمى المدينة أيضاً الفاشر، ليس كاسم علم لكن كاسم لمكان يقم فيه السلطان، وهذه التسمية تطلق على مقر السلطان ولو خارج وارة.

في برنو وباقرمي وبعض المحافظات الأخرى مثل كتكو تستخدم كلمة برني بدلاً عن فاشر، فعندما نسمع عبارة برني باقرمي نفهم أن المراد بها هو مقر السلطان، وإيضاً كل الأماكن التي يقم فيها السلطان داخل الدولة، ولعمد بعيد كانت عاصمة الباقرمي في ماسينا التي يمر بها نهر شارى، وماسينا هو الاسم الذي يطلقه عليها سكانها، أما عند بقية سكان باقرمي فيسمونها كارنك، أما اسم ماسينا فقد كتبها كما ينطقها من سمعها منهم في القاهرة والذين سافروا مرات عديدة إلى برني باقرمي.

يتسع نهر شارى بشكل عجيب بالقرب من ماسينا حيث يسمى 'ميتر' كما يقول الهالكى - يمتد عرضه مع الاق، فلايكاد المرأ إذا وقف في أحد شاطئيه أن يرى شخصاً آخر على الشاطئ، الآخر، ومعروف أنه حتى في فترة انخفاض المياه يصل عرض النهر في بعض الأماكن إلى ستمائة متر، وينبع نهر شارى من جبال مندرية، ويجرى من الجنوب إلى الشمال ويصب في بحيرة شارى، لقد ذكر لى الفكى الهالكى عدة مرات أن نهر إيرو يأخذ اسم بحر السلامات عندما يعبر أراضي العرب السلامات، وبالتالي فإن هذا الاسم يطلق على هذا الجزء فقط من نهر إيرو وليس نهراً خاصاً ونفس الشيء بالنسبة لبحر لم التيمان، ويبقى أن يقال

ان الايرو مجرى مائى ضخمة وعميق ويشكل قوساً مستداً فى دارقلا، ويتبع نهر
راشد مجرى مقوساً مماثلاً، هناك ملاحظة يجب أن يضعها المسافرين فى
الاعتبار وهى انه لا يوجد نهر معروف يجرى طوال العام سوى نهر شارى.
وينبع نهر ايرو من لزوم الذى ينبع من الاجزاء الغربية لجبل مرة فى
دارفور، ويعبر مسافة طويلة ومتنوعة، ويمتلىء فى موسم الامطار ثم يفقد مياهه
تدريجياً أثناء جريانه، وفى بعض اوقات العام يجف النهر وينقطع ويتلاشى،
وهناك مجار اخرى اضعف منه وتجف فى فصل الصيف وتصل الى ذات النهاية،
ولهذا فان نهر ايرو يبدأ فى فقد مياهه بمجرد خروجه من وداى ودخوله الى دار
ملاً حيث يفقد مياهه فى الاراضى الرملية مما يجعل مجراه فى نهايته ضيقاً حتى
يتلاشى، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الجغرافيين يختلفون فى وجود وعدم
وجود نهر ايرو، وبحر الغزال، وبحر الفترى... الخ.

يصب نهر ايرو وبحر الغزال وعدد اخر من الودية والخيران فى شارى
الكبير على مايبو، يفيض نهر لم التيمان عندما تصب الامطار مثل انشء الذى
يحدث مع نيل مصر، ومع تراجع المياه يزرع الاهالى الاماكن التى كانت قد
غمرتها المياه.

اما بحر ابيض فيجرى بين كتكو وبرنو من الجنوب الى الشمال، ثم يذهب
ليصب مع ايبو فى شارى، وله مجرى ضيق أشبه بقناة القاهرة لكنه لسرع.
كل هذه المعلومات جمعتها مع الشيخ التونسى من أشخاص سودانيين يجب
أن نذكرهم هنا طالما لم ينكروا فى كتاب رحلة الى دارفور تشحيذ الازهان.
ان هذه النقاط والمعلومات مستثيرة وتعود لحدث الرحالة الاوربيين الذين
سيكونون الاول فى هذا الميدان ليجنوا المتعة والشرف بروية هذه البلاد البكر،
عالم وسط افريقيا المغلق منذ سنوات والمحفوف بالمخاطر للذين لم يجهزوا
لرحلاتهم لمدة طويلة ولا يعرفون اسرار اللغة العربية - لغة المسلمين المقنعة -
والذين لم يتأسلموا - أو يظهروا اسلامهم لاجل سلامتهم، والذى لا يستطيع ان

يتقن شخصية الرجل سهل التقياد المؤمن القادر على مواجهة شراسة مسلمي السودان من لم يتمكن من كل هذا يجب التفكير في السفر وأن يلزم بيته.

نذكر أن رحلات دولهم التي منيرة جاءت بنتائج متواضعة، إذ يجد المرء صعوبة في السفر بملابس حمراء انجليزية، يستلزم الأمر ارتداء جبة دارفور أو ودلوية لجوب بلاد دارفور أو ودأى، ويجب تدكين لون البشرة حتى لا يثير اللون الأبيض نظر الزنج السود كالفحم، ويجب أيضاً الإقامة لمدة مواسم في كوبي وتنقلتي وولاية والتعرف على السكان المحليين والتجار والنخاسة، يجب كل ذلك بل والتغاضي عن أشياء كثيرة أيضاً يجب الاتعصب احداً، يمكنك أن تتبع صاندي الرقيق والتجار المحليين حتى حدود الفريتيت الجنوبية، أو حتى إلى أرض الجناخرة ويمكنك أخيراً التعرف على حدود السودان الجنوبية وموقع جبال القمر وعلى مواقع تجارية وحضارية كثيرة يمكن دراستها أثناء الرحلة إلى السودان.

أي شرف ينتظر الرحالة الشجعان والمثابرين متقدي الذكاء الذين يفضون ست أو ثمان أو حتى عشر سنوات للتحضير للرحلة ويكتشف خطوة خطوة إفريقيا المجهولة. من بعدها يجب البحث عن وسائل تسمح من على وجه الأرض دروب الأمم والعار التي عبرها يجر كل عام آلاف العبيد، لحم إنساني يباع في الأسواق أو يترك تطعمه الكوامر، ويجب أن تدخل إلى قلب إفريقيا أدوات جديدة واحتياجات جديدة واستبدال تجارة الرقيق بعلاقات تجارية جديدة، وحتى لا تترك كميات هائلة من أموال الأوروبيين تهرب إلى داخل السودان وتبقى بلا فوائد حتى لمالكها، يقال أنه لا يستطيع المرء أن يتخيل كمية العملات الفضية التي دخلت إلى تلك البلاد.

وسنرى لاحقاً عند الاستيلاء على خزينة سلطان ما ما يدخل خزائنه من هذه

العملات^(١)

^(١) هذه الفترة تمكن مدى المنتع الذي يضره الأوروبيون والطمع الذي لهه العرب، فلم لا يمتدحون إلى كميات الصانع التي بأصنافها من إفريقيا وحق البشر الذين سبغوا إلى أسواق العبيد فيها وراء البحر كل ذلك لا يمتدحون له، وما سبغوا على الفشل من العملات الأوروبية التي تكون حمولة العمار والسلاطين.

والبرينة، هذه اللعب هي اول ما تربط السودان بالجزائر، ويتغير هؤلاء الاطفال تدريجياً عبر انوات اكثر جدية وجنوى. ويصبح الاطفال رجالاً، ولاحقاً يفتح لهؤلاء الرجال طريق الرب وينادى فيهم مبشر فى الصحراء..... ان مسلمى افريقيا الفرنسية وقد حملوا الى هؤلاء الزنج الذين مازالوا فى مهد الانسانية المنتوجات الصناعية، يتحدثون اليهم عن امة ارسلها الله الى افريقيا، امة من الصفة يسمهم ان يعلموا الجائع ويرووا الظامى، وهى تتصل بشعوب العالم اجمع، لانها القبلة الكبرى حيث المائدة الالهية مفتوحة لكل الناس، وحيث يأخذ الجميع خبز الحياة وخمرة النكاه وملح الحكمة كنتيجة ضرورية لمحاولة التربية فى شمال افريقيا والسودان ويجب ان تحطم باتنية والعمل تجارة الرقيق، ويجب ان يرغم ملاك الرقيق على الاحترام اللازم لخلق الله الرحيم، ولبنى الانسان، وان يحقروا بما فعلوا لهؤلاء المساكين الذين يسلبون كل عام وبضربات منظمة متتامة تقطع الغابات ومن ثم يساقون قطعاناً يباعون فى البلاد الاسلامية^(١) هذه التجارة هى احد الالام الاسلامية، وهى موضع تحقير عند امم اوربا المستتيرة منذ وقت طويل، أضف الى ذلك ان محمد على قد عمل بكل ما اوتى من قوة فى تنشيط هذه التجارة الدنيئة. وأعرف ان عدداً من الرقيق الذين يباعون خارج السودان يعتبرون أعضاء جنداً فى العائلة مسخرين لخدمتها ويصبحون ملكاً لها، ويدعون لتبرير أفعالهم الشنيعة ان هؤلاء الرقيق سعداء لانهم لايجنون مايجنونه هنا فى بلادهم بلها من طريقة غريبة للتصل من الجرم.

الا يعلم الناس كم من هؤلاء العبيد، رجال وأطفال ونساء يموتون قبل الوصول الى مصر، او المغرب، او القسطنطينية والى كل البلاد التى يعيش فيها

^(١) يحاول لشرع ما حدث أن يلحق بحارة الرقيق الافريقى بالسفوف والبلاد الاسلامية، ربما انه الخلقة هي قد الاوربيين مع العلم ان ذنوا هذه التجارة ووسعوا من قوتها واستولوا الحارة الافريقية من سكانها وقنومهم صيداً ان الارمنى الخديعة الى الامريكين وحسبوا النمط الطوى والامول الاوربية، وقد امتدت هذه الحارة لاكثر من ثلاثة ارون منذ انهم الاوربيون قوتها من حوتها وورسرة شافدا، وهى المرحمة ان لا تعبر هؤلاء معها لمرودا منها، كما رقص الاسلام طرق صوماً منذ اكثر من اربعة عشر لراى الى وقت كانت له لوربا نزارح الى نو الديكتورية والشركات للشعلة والمطبات لفرطة، وكان الرق يمارس بشكل شيع الى لوربا القسيسة والوسيلة والحديثة يقرر انهم من موروثها الذهبية والملمعة.

المسلمون ويحكمها المسلمون، يموت الآلاف عند الغزو، والآلاف في الطريق، ثم الآلاف الآخرون في هذه البلاد قبل التعمود على نمط العيش والعمل غير المعهود بالنسبة لهم، وهناك الآلاف يخضعون والآلاف يخرجون من السودان لعبور الصحراء والآلاف ليتحملوا برد سوريا وآسيا الصغرى وتركيا وفارس، وتموت الأماء في أعمار مبكرة، إذ تموت الزنوجيات والحبيشيات في أعمار لا تتجاوز الأربعين، وعند العشرين يكن قد عجزن لأنهن يصبحن منذ سن الثامنة أو العاشرة سراري للمسلمين، وكم يبقى من الأطفال الذين يولدون بعد الأمراض وموه التغطية؟

بحمد الله لقد أخذت الدولتان مسروعات الصوت في العالم - فرنسا وإنجلترا - على نفسيهما أن تكونا شرطيتين للامم المتخلفة، فقد بدلتا في تكميم تجارة الرقيق، ففي المتوسط وصلت هذه التجارة إلى أنني معدلاتها إذ صارت أعداد محدودة جداً من السفن التي تعبر إلى شمال البحر تحمل أطفالاً أو رجالاً أو نساءً للبيع، لكن ما زالت تهرب أعداد كبيرة عبر البحر الأحمر وعبر البر. ما عادت المجوسية موجودة والتي يمثل الرق أحد وجوهها فلماذا يمارس حتى زمن كهذا؟ لماذا حافظ محمد علي، على هذه الممارسة المخزية؟ ألم ير أن الرق لم يكن عملاً منطقياً إلا في ديانة الأولمب؟ ألم ير محمد علي الذي حاول محاربة الشرك ولمر بالتوحيد أنه من الأفضل أن يحارب هذه التجارة المجوسية^(١) عند الحديث عن وحدانية الخالق يجب أن نعترف أيضاً بوحدة الخلق ووحدة الأسرة البشرية التي خرجت من أب واحد وأم واحدة من يد الله.

بيروت - الناصرة - يوليو ١٨٤٥.

^(١) سئل ابن العربي عن الإسلام هل حارب الرق بكل أنواعه، ولم يلم سوى رقب العرب، وهذا أيضاً صفة لأحمد المسعود، لكن التزامهم بتحديث ملوك الغافل بتعليم الإسلام، وشكك حال المسلمين في هذه الفترة أن يمارسون فيها الرق، وهم بذلك يعملون بتعليم الإسلام أو يمسحون في هذا الأمر، وبالتالي فإن الله يمنع على هذه الشريعة من المسلمين، وليس على الإسلام، ورسول الإسلام صلى الله عليه وسلم الذي منع رسالته ونهى عنه، وتركنا على هذه النماء لأنها كهارمة، لا يعمل عنها إلا هلك، وهذه الشريعة تمارس بسرقة باعز من الأوربيين وتشتبههم لأن الأوربيين هم الذي يشررون الرقاب الأرضي من شواطئ البحر المتوسط ولحقهم إلى أوروبا ولم يتركوا.

مقدمة السيد/حومار:

ملاحظات عامة:-

ان الواقع الحالي للجزء الشمالي لاfrيقيا والسودان الشرقي لجدير بالتدوين في كتاب مثل كتاب (الرحلة الي وداي) الرحلة التي قام بها قبل سنين عديدة الشيخ محمد التونسي أحد علماء القاهرة والذي قام ايضاً بكتابة كتاب (الرحلة الي دارفور) والذي قام بترجمته الدكتور 'بيرون' وظهر في عام ١٨٤٥م وعلي ذات المثابرة ، فنحن مدينون له بهذا الكتاب الأول ، ولكنه قرر ايضاً ترجمة هذا الكتاب ، لأن هذا الرحالة قد بقي فترة من الزمن ، حيث كتب اهتماماته الدينية وتسجيل مذكراته.

حقيقة بفضل هذا العالم المستشرق اتاحت لنا الفرصة لمعرفة الحالة العسكرية والمدنية والسياسية لمملكه كبيرة في السودان كانت مجهولة الي يومنا هذا ، وسوف نعرف ايضاً عن مناخها وثروتها. وكذلك عن الاخلاق والتاريخ ، وبدون اي شك فان الشيخ يكشف لنا الوجود الحقيقي لوداي ، وهناك حقيقة يجب ذكرها. وهي: اننا في اوربا لم نعرف شيئاً عن هذه المنطقة الا اسمها قبل برخارد Borchard ويرجع الفضل الي هذا المراقب الذكي والممتاز الذي عرفنا بهذه المنطقة ، ولم يحدثنا عن العلاقات بين الطبيعة و السياسة إلا بقدر جذب الانتباه لمزيد من المعرفة ، فعندما ذكر 'برخارد' الجغرافيين والعلماء 'وداي' ، فانها لم تكن ذات شهرة مثل دارفور ، ولم يذكر 'براون Brown' الذي قضى ثلاث سنوات في دارفور الا اسم 'وداي' بل كان هناك رجاله آخرون من امثال 'هورنمان Hornman' 'ودي ستزن DeCitizen' 'ودي ليون Delione' 'ودي لنهام DeEnham' ، وآخرون زلروا المنطقة ولم يتحدثوا عن وداي أبداً ، وفي تلك الفترة فان الموقع الجغرافي لوداي برشحها لان تلعب دوراً في العلاقات التجارية ، والاحداث تؤكد ذلك ، فقط كانت تحتاج الي فرصة تحملها الي الساحة التجارية خاصة وانها قد قامت بهذا الجانب التجاري ، وكانت دارفور منذ قرون

عده تصدر الي مصر منتجاتها الزراعية ، والبضاعة والعييد ، وكان كل العالم يعرف قوافل دارفور والتي كانت تضم آلاف الجمال ، وتقدر الملايين من الاموال كمكادات لتلك البضائع .

وكانت مملكة وداي بعيدة كل البعد لتنافس دولة الفور ، ومن ناحية اخري كانت الحروب بين الدولتين تمنع الوداي من تصدير بضائعها مع الفور لتصل الي شواطئ النيل ، وكانت الفرصة غير المتوقعة هي الغزو الفرنسي لمصر عام ١٧٩٨م وطرد المماليك وقواتهم نحو الصعيد ، حيث توغلوا جنوباً الي ما بعد الشلال الأول وبدأوا ببلاد النوبة ودنقلا وحتى سنار وكردفان وكان يمكنهم البقاء فيها لولا تهورهم في العودة مرة اخري الي مصر لينازعوا محمد علي الحكم ، حيث اصبح الوريث للجيش الفرنسي بخطأ مفاجيء ، وبدأ في تكوين لجيش وطرد المماليك للمرة الثانية ، حيث استقر جيش من المصريين في سنار وكردفان ، وكانت هناك شبه حرب مع الدولة المجاورة ، فكانت تجارة دارفور مع القاهرة قد تدهورت او قد توقفت تماماً ومنذ ذلك التاريخ بدأت العلاقات التجارية بين وداي وفزان ثم مع طرابلس وبنغازي ، واخذت القوافل تسلك طريقين جديدين ، حيث استقبل البحر المتوسط وأوروبا ولأول مرة بضائع مباشرة من وداي ، بدون أي واسطة ، وسوف نستعرض التفاصيل حول النقاط الآتية:

التاريخ:

يجب ان ابين هنا صدفه تاريخية مهمة ، وهي انه في الوقت الذي ظهر فيه علي ضفاف النيل رجل خارق وهو المسمى محمد علي ملك مصر ، في نفس ذلك العصر أي عام ١٨٠٤م ظهر في وداي السلطان عبد الكريم صابون وكان ينتمي علي حسب معلومات الراوي الي الجيل السادس من أبناء السلطان الأول لهذا البلد صليح او صالح الذي أقام الإسلام وأقام الحكم الوراثي فيها ، وقبل ذلك كانت وداي مملكة وثنية مثل ممالك الفرتيت والجناخرة وغيرها من القبائل الجنوبية .

لما فيما يخص السلطان صابون فقد اشتهر خلال فترة حكمه الذي اتسم بتصره وبريقه وقد اشتهر بصفات يشترك في بعضها مع محمد علي منها

المصراة والذكاء والاستقامة والحكمة واخيراً الرغبة في التميز وأحياناً استعمال بعض الوسائل القاسية. كان السلطان صابون أصغر سنّاً من محمد علي ، وقد وصل الي الحكم قبله بقليل ، ومات قبله أيضاً ، كان صابون يهتم بالتجارة مثل محمد علي ، ويبحث بالتوافل الي مصر كما بحث اليه بالهدايا للاستقبال الذي وجده تجار الوداي بالقاهرة فقامت علاقات إزاء بين الأميرين ، وعندما انتهت مؤامرات النور قبل مجيء محمد علي بقليل ، أرسل محمد علي بجيش الي كردغان فاصبحت دار فور بين قوتين عدوتين لها ، فأصبح من الصعوبة بالنسبة للمسافرين الدخول أو الإقامة في دار فور ، ومثل ما رأينا في كتاب الرحلة الي دارفور أن هذا الوضع قد استمر بالرغم من موت أبي مدين^(١) وموت محمد علي. إن السلطان صابون ترك سمعة بأنه سلطان ذكي عادل وحكيم وأنه رجل ذو بأس شديد، ورجل حرب بل رجل خير وكرم، وقد أخذ وبقوة أثناء حكمه النهب بعض القبائل، وباتفاق مع سلطان برنو فقد قام بحملات ضد الباقرمي، بقصد تأديب السلطان بسبب جبروته وسوء أخلاقه واخيراً أُرسي السلام في طروق امبراطوريته.

وهذه بعض الصفات التي يختلف فيها محمد علي، والتي اعتذر لتقاريء بأن تحدث عن هذه المواضع، برغم من أنني كنت متحفظاً لوجود الاختلاف بين الرجلين وبين الدولتين.

إن تلك الأحداث الكثيرة والتي لا نعرف عنها الكثير، قد رواها الشيخ محمد التونسي وهي أحداث كثيرة وعجيبة، أخذها شخصياً من وداي عندما أقام فيها فترة طويلة، وقد أخذ تلك الروايات من أبطالها أنفسهم، وذكر لنا مجموعة من الأحداث أظهرت لنا الإنسان والمكان بالقول زاهية، إن مؤلفنا قام بتعريف أصول الأسرة المالكة في وداي علي الأقل منذ زمن السلطان صليح، والذين خلفوه: عروس

(١) أبو مدين : هو الامو محمد أبو مدين بن السلطان عبد الرحمن الرشيد ، واسم السلطان محمد لعل، من بني مهوّل. اختلف مع أبيه في الحكم وهرب الي كردغان ومنها الي القاهرة عام ١٨٣٤م حيث وعده محمد علي بالانضمام له من أبيه بنحو حمله الي دارفور وتعيينه سلطاناً عليها الا ان الحطة لم تنجح ونزل أبو مدين في ظروف حافلة .

متر: لشعر الانعام ص ٢٤١.

الكبير، عروس الصغير، جودة، صالح، وأخيراً في حوالي عام ١٨٠٤م أو ١٨٠٥م برز السلطان محمد عبد الكريم الذي لقب بصابون، هذا الأمير قد مات ميتة شنيعة عام ١٨١١م على حسب رواية الشيخ، ولكن رواية برخلود تشير إلى أنه مات في بداية عام ١٨١٥م، حيث أن عام ١٨١٦م كان يحكم فيه يوسف عبدالقادر بن صابون الملقب بخريفين، وبعد ذلك حكم راجب بن صابون، ومحمد شريف أخ صابون، إن هذا الأخير لم يستول على الحكم إلا بمساعدة أمير دار فور السلطان محمد حسين، وقد قام بحملة ضد البرنو ويقال إن السلطان محمد حسين كان يحكم بالعدل ولكن يجب أن يشار إلى أنه لا يزال يوجد هناك من يطالب بالعرش وهو ابن لصابون وهو ابنه الأول، وقد أرسله إلى القاهرة وعمره ثلاثة عشر عاماً لتلقي العلم هناك، وكان السلطان صابون الذي كان بدوره عالماً لرك أن يتلقى ابنه العلم من علماء الأزهر المعروفين بوزارة العلم، ولكن الأمير الشاب بعد ألف جولة لم يصل إلى القاهرة إلا في عام ١٨٢٧م أي بعد إحدى عشرة سنة، من مغادرته واردة، وفي هذا الموضوع يجب قراءة مغامراته التي دونت في كتيب غير معروف لدى الكثيرين، وادين فيه بالفضل للعالم السيد: رينوار Reauwar (سكرتير الجمعية الملكية للجغرافية بلندن) والذي سمي:

The story of Jafar son of the sultan of wadai. First published in the United Kingdom, journal, for march, April and may, London, ١٨٥٠.

قصة جعفر بن سلطان وداي، الطبعة الأولى، المملكة المتحدة، جورنال مارس، أبريل، ومايو، لندن ١٨٥٠م.

فبذل أن يرسل السلطان صابون ابنه عبر طريق النيل إلى القاهرة، فقد أرسله إلى بنغازي عن طريق الصحراء، أي إلى الشمال مباشرة، وكانت ترافقه قافلة قوامها خمسمائة جمل، ولكن الأمير الصغير قبض عليه وعذب من قبل باشا طرابلس، ومن طرابلس قام الأمير بعدة محاولات للوصول إلى هدفه، وأخيراً وبفضل الحماية الإنجليزية استطاع أن يصل إلى مصر.

ومن ناحية اخرى علمنا من مذكرات لم تكن ذات طابع فضولى، ولكنها كانت ذات طابع علمى، والتي كتبها: 'فلجانس فرسنال' Filgas Fersenal أن ولى العهد جعفر بعد محاولات عدة للاستيلاء على الحكم من عمه السلطان شريف قد انسحب الى دارنقا عام ١٨٤٦م ثم سافر الى دارفور عام ١٨٤٩م وكان دائماً فى انتظار استرجاع العرش الذى كان مستحيلاً.

والحديث عن التباين جعفر يقودنا الى الحديث عن علاقته بوداي ليس فقط لانها تساعدنا فى معرفة الاسرة التى قدمت بالوراثة تسعة ملوك للدولة، ولكن عندما نتابع مذكرات جعفر نجدهم ثلاثة عشر ملكاً. وعلى الرغم من أن الامير جعفر قد سلك طريق وداى البحر المتوسط بامر والده قبل حوالي خمسة وثلاثين عاماً وهذا الطريق غير آمن الا انه يؤكد لنا الاهمية التى كان يعطيها السلطان صابون لهذا الطريق منذ امد بعيد، وبالطبع يجب قطع الصحراء الصعبة والتي كانت مليئة بقطاع الطرق ويمكن للاتمان أن يعرض نفسه للعطش، ولكن هذا الطريق كان قصيراً، ويذكر احد الرواة بأنهم كانوا يتلقون مكافآت عندما يمرون بفزان، وايضا عند الوصول الى بنغازى، ومن هنا يمكن للمرأ أن يسافر عن طريق البحر الى الاسكندرية أو الى طرابلس، ولكن كما ذكرت ذلك سابقاً، ليست هناك مقارنة مع قوافل دارفور والتي تسافر الى النيل مباشرة منذ زمن سحيق.

الفلاحة والوهابية:-

قلت ان هناك تشابهاً بين الاحداث فى مصر وفى وداى، وهناك ملاحظة اخرى لا تقل اهمية، بان هناك أحداث وقعت فى نفس الزمن تقريباً دعوى اقوم بمقارنة اخرى كما فعلها الشيخ محمد التونسى، وكانت لها اهمية كبرى من اصلاح التجارى والسياسى، ذلك هو اصلاح الدينى الذى ادخل عن طريق الفلاحة أو القولة وكان الاثر فى انشاء امبراطورية الفلاحة، حيث ظهر فجأة فى نهاية القرن فقيه من بلاد الفلاحة يدعى الزاكي، كان يعيب على رجال الدولة، وبصفة عامة على كل الناس فى السودان بأنهم قد تخلوا عن الطريق القويم

والسوى للإسلام، وتبعوا الطريق غير السوى، فانهم يشربون الخمر، ويمارسون عادات بعيدة كل البعد عن مبادئ القرآن، انها تقريباً نفس الأشياء التى كان ينتقدها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وبأخذها على مواطنيه فى نجد، والذى كان المؤسس الأول للطريقة الوهابية، وكان كل من محمد بن سعود ومن بعده ابنه عبدالعزيز كانا قائدين للجيش الذى كان يحتاجه المصلح محمد بن عبد الوهاب لنشر فكرته النقية، ان فتوحاتهم فى الجزيرة العربية قد ازدادت فى نهاية القرن الثامن عشر، واخيراً وقعت مكة المكرمة فى يد سعود بن عبدالعزيز يوم ١٨٠٢/١٢/٢٥ الموافق عام ١٢١٧هـ، وقعت المدينة المنورة عام ١٨٠٥م، ولكن الفلاكي الزاكي اعلن عن فكرته الاصلاحية فى السودان عام ١٨٠٠م، وقد جمع جيشاً كبيراً واستولى على دار ميللا، ومينا، وكشنا، وافنو، وأقنس، وبرنو، أى كل بلاد السودان تقريباً وقد تولفت فتوحات الفلاكي فى بلاد البرنو عندما انفلسر غنى الزاكي الشيخ محمد الامين الكاشي، الذى لجأ اليه سلطان برنو.

وهناك سقوط سعود بن عبدالعزيز امام بغداد فى عام ١٨٠٨م، ومنذ عام ١٧٩٩م الى عام ١٨٠٥م مدد الوهابيون الاصلاحيون فتوحاتهم واستولوا على الحجاز ونجد واقاموا المملكة وهزموا الدولة العثمانية، كما نجد فى الفترة من عام ١٧٩٩م الى عام ١٨٠٥م استولى الفلاكيون الاصلاحيون على ستة ممالك فى السودان واسموا دولتهم الكبيرة، ان الوهابيين قد سبقوا الفلاكيين واستمروا فى الحرب بعدهم، ولكن الوهابيين لم ينشئوا نواة قوة سياسية^(١)، اما الفلاكيون فقد استطاعوا ان ينشئوا امبراطورية قوية تشمل اجزاء كبيرة من السودان، تمتد من

(١) لا اقبل مع كاتب الملحق فيما ذهب اليه من ان الوهابيين لم ينشئوا نواة قوة سياسية، فقد استطاعوا من اول موسم مسلح فيه السعوديون الشيخ محمد بن عبد الوهاب تكوين القوة السياسية للمملكة السعودية واستطاعت بذلك ان تنصر على اعدائها حرباً وملكاً، من نشأت تلك القوة نصرت على ابدائها نزوة التزول الى عم عليها كل العالم الاسلامي وغير الاسلامي وتوحدت على يد يدها شعوب منطقة الجزيرة العربية لأول مرة فى تاريخها، وأصبحت المملكة السعودية اليوم غرة فى حين الدول الاسلامية والعربية استقرراً وملكاً، بها سقطت دولة التوالة من نهاية القرن التاسع عشر على يد الانكليز، وتطاعت دولتهم لصح ولاية مصر ولايات دولته بحوزة المهادية وانتشر التوالة فى كل انحاء المنطقة.

تتبعوا إلى برنو، إلى الجزء الأوسط من إفريقيا جنوب الصحراء والتي سبق تعريفها في بداية الكتاب.

ومن ناحية أخرى فإن قبائل من الفلاتة قد استقرت في وداي ودارفور، وقد خرج من تلك القبائل رجال مؤثرون بكفائتهم ونكايتهم، وقاموا بمهام في تلك الممالك، ولعلنا نتفق على الاعتراف بكفاءة رجال تلك القبيلة، وقد عرفنا ذلك من خلال سفر كلايرتون، وإيضاً من تقرير السلطان بيلو سلطان سكتو، ويبدو أنه من خلال حكم الذين اتوا من بعد لم تتحط الامبراطورية كثيراً، وعندما ننظر الآن إلى زمن الحملة الفرنسية لا نستطيع إلا أن نقول: إن تلك الأحداث وقعت خلال أو بعد تلك الحملة.

كانت تلك الهزة التي أحدثها وجود قوة عسكرية كبيرة على ضفاف النيل وفي العالم الإسلامي قد أعطت الاشارة والقوة الروحية للاصلاحيين أن يتحركوا في إن واحد، في الجزيرة العربية وفي إفريقيا، ويلاحظ أنه منذ عام ١٨٩٨م ومنذ وصولي إلى القاهرة، فإن الجنرال بونابرت قد فتح علاقات اخوة مع سلطان دارفور من ناحية، ومع شريف مكة من ناحية أخرى لكي يضمن لمصر علاقاتها التجارية ورفاهيتها، وفي نفس الوقت لتعطيل أو تحذير العدوان الديني، وهذا يعود إلى الحكمة والنباهة اللتين يتمتع بهما الجنرال بونابرت، من يستطيع أن يقول أو إن يقود هذا الاتصال الازدواجي في الجزيرة العربية وإفريقيا، ولم يمر على وصوله إلا أربع سنوات فقط، وهل الأحداث متسمح لخليفته أن يتابع هذه السياسة.

العادات والتقاليد:-

إن الوثائق التاريخية لمؤلفنا بالرغم من حداثةها إلا أنها لا تمثل نفس الأهمية بالنظر إليها من ناحية العادات والتقاليد، ووضع المرأة والحالة العسكرية، القبائل المختلفة والسكان بصفة عامة وأخيراً الرق كما كان موجوداً.

وفى كل الاحوال المذكورة فلن علاقات الشيخ قد نتج عنها ملاحظات كثيرة
لم تكن متوقعة من اتباع محمد^(١)، وهذا الشيخ بطبيعة المسلم المتحمس ان يصبح
مصلحاً يستجيب لرغبات حب استطلاع الاوربيين.

وكان هناك فى وداى عادات وتقاليد لا تخلو من الغرابة، وسأذكر مثلاً واحداً
لذلك، فقد كان فى قصر السلطان سبعة ابواب تؤدي الى غرفة السلطان والتي يعتقد
فيها الجلسات، فاذا كان هناك زائر الى مجلس السلطان يطبق عليه هذا القانون،
مهما كانت مكانته حتى على الوزير الاول، فعلى الزائر ان يترك فى كل باب
قطعة من ملابسه:

فى الباب الاول يترك حذاءه، وفى الباب الثانى يترك عمامته، ثم يترك
قميصه، ثم طربوشه الى اخر ذلك، وعندما يصل الى الباب السابع قد يصل عارياً
تماماً أمام السلطان^(٢)، وكان هناك حجاب تحجب السلطان، وهذه القاعدة انشئت
لحمليته.

اذا استجوب السلطان شخصاً ما يجب عليه ان يجلس الترفصاء ويصفق
بيديه، ويتميل يميناً وشمالاً الى ان يمس بجبهته التراب ويقول: اطيع سيدي وسيد
والدى وسيد جدى.

كل الاحتفالات كانت تصاحبها آلات ولا تخلو من الصخب، فالالات
الموسيقية كثيرة وتصاحب جميع الاحتفالات مدنية وعسكرية، كان الموظفون
الكبار وضباط العرش وغيرهم من الموظفين كانوا بأعداد كبيرة فى وارة.

والذى يجب ملاحظته هو نظام التفتيش المعمول به فى وداى، فكل موظف
يجب ان يخضع للتفتيش من مفتشين مختصين، وهؤلاء يؤدون مهامهم بفعالية
ويظهرون الحزم والشدة عندما يكتشفون ان هناك تجاوزاً او جرماً.

^(١) يحدد الكاتب بفتح محمد" السلطان وهو عبارة بلغة ما لخص في عمارات المسلمين من لعل السوفات، حامية لها بعض الحسنة
فرقيل كما سألني

^(٢) ورد في من المخطوط بان الناجل على السلطان يمنع ملابسه تدريجاً حتى اذا ما وصل الباب السابع لم يبق له سوى سرواته،
فماخذ ملابسه المملوكة ويحرم لها ثم بدأ يرتاح للقاء.

نظر: المخطوط ص ١٣٧.

لما عن وضع الرقيق فيجب أن نقارن بين مذكرات الشيخ وملاحظات الرحالة الأوروبيين، فقد كان صيد العبيد يمارس في جنوب وداي عند الجناخرة، مثلما يفعل في جنوب دارفور عند الفرتيت، وكان هذا الصيد ينظم بطريقة منظمة وقانونية، وكان السلطان يستخرج رخص الصيد مثلما يستخرج التصريح في أوروبا لصيد الأرانب أو الأيائل ومع أن هذا العمل البشع الذي يمارس ليس له مایبرره فإن الشيخ الجليل وجد المبررات للاستعباد وتجارة الرقيق، وكانت من ضمن مبرراته أن الحرب التي كانت تشن ضد السود ماكانت إلا لانسهم كانوا أقواماً مجوساً وثنيين، أنهم أناس لم يعتنقوا بعد الإيمان الحقيقي، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أباح استعمال القوة لإدخال الناس في الإسلام^(١)، وهذا هو السبب الوحيد الذي أدى إلى تطبيق هذه القاعدة، أي خطف ملايين البؤساء ونقلهم إلى كل أجزاء الأرض، وكانوا يتركون ثلاثة أرباع هؤلاء في الطريق، ويبيعونهم ويشترونهم مثل الحشرات النجسة، وهذا العمل يمارس قبل قرون دون أن يتوقف الجلاذون، ودون أن يقاوم الضحايا^(٢).

وعلى كل يجب أن نذكر أن رحالتنا يشجب الهجوم على الكفار قبل دعوتهم لاعتناق الدين المحمدي، ودون أن توجه إليهم إنذارات متكررة وهذا لا يمنع بأنه عندما يقبض على هؤلاء فإن بيعهم حلال دائماً لأنهم وثنيون وبدون شك فإن هذه

^(١) إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر المسلمين بالقتال في القوة في الإسلام لهذا التعميم المبرر بأن الإسلام لم يرد على كراهة في الدنيا ولم يخاص الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر ولم يأمر على هذه الشعوب من بعده ولهذا على الشعوب واليهود والنصارى أن يلاءوا الإسلام ولا يوافقوا رغبة أو خوف، ولكن للشعوب ردود هذه القول بأن الإسلام بشر بالهدى فقط وولدت الشعوب صورته وحرته وضميرها.

^(٢) في هذه السطور نحصر الكتب وما لم من تعرفت السطح الأربعة لهذه الرق والحارة، وعلى الرغم من أن حارة الرق كانت قائمة خلال هذه الفترة إلا أن الجميع كانوا يمارسونها وكان الأوروبيون في مقدمة الحارة الرق في أفريقيا، وهم الذين أخذوا هذه التجارة ورووها على كل القارات ونقلوا الأفرقة كعبد إلى الأراضي الجديدة في الأمريكتين وحرر المحيط الهندي وأوروبا واستمرت هذه التجارة الرابحة لأكثر من ثلاثة قرون حيث بدأت في حوالي القرن الرابع عشر الميلادي ولم توفد إلا في نهاية القرن العشرين، حيث أقرحت بريطانيا من قبلها وأركت لتعمل والخطف والزمن من اليوم، وبما أن هذه التجارة كانت لاتصلح لحمة الرق بالإسلام والمسلمين لمسي هؤلاء مفرقة لتصبح تاريخهم الكره مع الأفارقة. وهناك مشكلة يجب أن نعرفها وهي أن بعض السلاطين والحكام المسلمين في أفريقيا لم يمارسوا هذه التجارة ولكن هؤلاء لا يظنون كل المسلمين مهممة قبلية، ولهم هذا تعاليم الإسلام، لأن شر الناس من باع البشر، وهذا معنى التعاليم من روح الإسلام والمبررات على المسلمين كما أن فعل هذه التجارة لا يمكن تصورها، كما أننا نرى أن بعض الأوروبيين لهذه التجارة في بحر.

هي نظركه للامور، وفي إنشاء سفره وجد البربرية في بعض الممارسات، فمثلاً اذا اشترى احدهم عبداً بمال كثير، فخوفاً من أن يهرب يقبذه في الليل فيربط قنبره بحبلين ويضع في عنقه الجنزير على وتد مثبتة في الارض وقد اعترف الشيخ محمد التونسي نفسه بأنه تعب من ممارسة هذا العمل والشيخ محمد التونسي هو رجل ممتاز وحكيم ووفى لدينه، ان الفكرة للحكمة لرحالتنا تتمكّن في تصوّره للحالة الاخلاقية للمسلمين وقد اعلن ان الثقافة العلمية والفنون لا تتعارضان مع الدين المحمدي ولا مع الورع والفتن الصانع وهو معجب بالحضارة الاوربية، وبطريقة الاوربيين في العمل والصناعة والفنون لاجل تطور الانسانية، وفي رأيه انه يمكن للشرقيين ان يتعلموا الدراسات العلمية دون المساس بالعقيدة، وقال: ان العلماء كانوا مختلفين عندما ابعثوا الحضارة الغربية وحددوا رفاهية المسلمين في الماديات والرغبات الشنيعة، وتركوهم في ظلمات الجهل، وهنا نعترف بأن التفكير والسفر قد أثرا في تكوين وتأهيل هذا الرجل، واستطاع أن يحب الحضارة الحديثة دون أن يغير من عقيدته الدينية، ودهشنا عندما عرفنا ان السلطان ينجذب للحدائث وفي نظام دكتاتوري مثل نظام وداي، والمؤلف قد ذكر أمثلة لماحصل لصابون نفسه السلطان غير العادي: منها:-

ان يوماً ما ارك أن يغير المولزين، ثم فيما بعد صاغ عملة، وكلا الشينيين ذات فائدة، ولكنه أجبر على تركهما وكان الراي العام قد ثار ضد هذه الفكرة وشكل خطورة لصابون لمقاومة هذه الثورة، ودخل الشيخ في تفاصيل كثيرة فيما يتعلق بوضع المرأة في وداي، وقد تكلم عن زينتهن ودلالهن، وكذلك تكلم عن الاشغال الشاقة التي كن يقمن بها في الريف، وقرأنا بكل دهشة مذكراته عن التعذيب الذي كانت تتعرض له النساء المتزوجات للزانيات، وترك الفرصة للحكايات المأجنة وبعض اللوحات التي نجد ما مكررة نوعاً ما وفي اكثر من مكان. عند الفرقيت المجوس توجد هناك موانع قاسية فيما يتعلق بالزواج، أدهشت الشيخ نفسه، مثلاً، ان الزواج غير مسموح به بين الامل والحلفاء مهما كانت درجة القرابة، ولا يستطيع الرجل الزواج ببنت عمه، وهذا الزواج يحيزه الاسلام،

وهذه الممارسة على قول الشيخ يجب أن تذكر إذا تذكرنا جهل هؤلاء القوم المتوحشون ونظرنا إلى ممارساتهم اليومية أن كلا الجنسين عاريين تماماً من الملابس.

فيما يتعلق بالزواج عند الوادي فإن الشيخ قد ذكر بعض المعلومات المنفرة منه، فإن دوائر القضاء بسيطة جداً ولكنها صارمة للغاية فإن احكامها لا تتألف، وعندما يصدر الحكم فإن السلطان نفسه لا يستطيع تغييره، لما الاحكام التي تصدر ضد المجرمين فإن القائمة طويلة جداً ومخيفة، فإن التعذيب مخيف بل هو أصعب مما هو في الصين، بل الواحد يشمئز من تعددها وفي نفس الوقت لا يستطيع الا الدفاع عن هذا القانون الظالم ونحن في ذلك المكان البعيد علمنا ان لا نكون بعيدين كل البعد عن الحضارة وقد شعرنا بالاهمية ليس فقط ان نذكر بالخوف هذا المنحدر السحيق بل بتدرج هذه العقوبات فهناك عقوبات خاصة لبعض الجرائم، مثال واحد لذلك وهو حالة الدائن الذي يتأخر في سداد ديونه، ونترك للشيخ براعته تحكي حتى لا ندخل الشك في هذا المثال.

عندما يلتقي الدائن مع مدينه الذي تأخر عن الدفع يأمره باسم السلطان ان يتوقف حالاً في المكان الذي وجدته فيه، ويقوم برسم خط حول المدين الذي لا يستطيع أن يغادر المكان مهما كانت الظروف ويظل في هذا المكان الى ان يقوم بسداد دينه او ان يضمه احد اصدقائه ويلتمس له الرحمة، والويل لمن يهرب، والويل ايضاً للدائن الذي يحبس شخصاً دون سند حقيقي سارى المفعول، وهو ما يعرف بالخيانة.

وحسب كلام الراوي فإن الوادي رجال شجعان ويتقدمون كثيراً على النور في البسالة وهم يتسابقون الى الموت دون تفكير فيه، وهم يلاقونه دون خوف، وقد نكر كثيراً من امثلة الشجاعة في كتابه، والشخص الذي يظهر الخوف في الحرب يجلب اليه كراهية النساء ويجد صعوبة في الزواج، وبالرغم من ان طبيعتهم توصف بالشجاعة الا ان لديهم عادات وتقاليذ يميزون بها الشجعان، وهذه العادة تتمثل في تثبيت المحاجم تحت الاذنين وينفخ في هذه المحاجم حتى يظهر على

الجسم فتوء يشبه فاكهة النوم، وتسمى هذه بدومة الشجاعة، وهذا العمل يمكن أن نقرنه بما نلاحظه عند الغال^(١)، فعندما يبرز أحد الشباب الغائبين شجاعة في القتال، أو في صيد الأسود أو الحيوانات المتوحشة الأخرى فقد يتلقى حلقة يلبسها في اذنه الشمال، وحلفتين إذا أظهر شجاعة أكثر من مرة.

إن جيش ودای لهو أقل بكثير من جيش دارفور، ولكنه مدرب للغاية وعلى استعداد دائم حتى ولو لم يكن السلطان في حالة حرب مع جيرانه، إن الأسلحة والنروع مصانة دائماً، وأمر الحرب تحددتها القوانين العسكرية، ولكننا نلاحظ أن هناك استراتيجيات فطرية، لهذا فإن في الفريقين متما في كل العالم كانت فنون الحرب دائماً متقنة والحرب دائماً تصاحبها الموسيقى والآلات والأغاني الحربية، والشيخ قد حفظ كثيراً من تلك الأغاني، ونستطيع أن نقرأ في كتابه أغاني كثيرة للودای وكذلك وصف الآلات الموسيقية المستعملة ونلاحظ أن معظم الأغاني توننت بدقة بعد سماعها، وهناك أيضاً عادة حربية جدير بنا أن نذكرها، ألا وهي المبارزة في صراخ خاص، وهو نوع جديد تماماً، ذلك إذا كان هناك شتم لربد النار فيه، أو نزاع بين رجلين أراد أحدهما الانتقام من الآخر، يناديه أثناء المعركة بأن يخرج إليه، للمبارزة، فإن رفض الخروج أو تراجع أو هرب، يكون قد فقد شرفه وضاع، وعلى زوجته أن تطلب الطلاق منه، ولا يجد أحداً أن يعطيه ابنته أو اخته للزواج منها، وهذه القاعدة تطبق أيضاً على المتنافسين في وظيفة الدولة في حالة خلع أحدهما، وتولية آخر مكانه، فيضمهما المخلوع في نفسه إلى أن تقوم الحرب فينادى غريمه الذي خلفه ويتحداه أن يقاتل في الحرب ببسالة حتى يفدى وظيفته، فإن لبي النداء وحارب بشجاعة يكون قد سدد دين الشرف وفدى وظيفته، وبالتالي تتوقف المنافسة نهائياً، وإذا حدث العكس، بأن دعى ولم يقاتل ببسالة ولم يقبل التحدي يخلع من وظيفته ويجرد من مسؤوليته وتعطى لغريمه بل إذا هرب

^(١) الغال: أو الغال، من الغال الأوربية القديمة، وكانت تقطن فيما يعرف بفرنسا الآن وقد كانت فرنسا تسمى بلاد الغال وغالب هذه الأوربية لم يكونوا لهم إلى الأرباب واستعمروا بدرون من سكان الأصالة والشجاعة التي ورت في لوردا حلال المعصوم الوسطى.

من عدوه يمكن لغريمه أن يقتله دون عقاب يناله وهذا هو الشرف عند هؤلاء الرجال أشباه الوحوش وبهذه الطريقة فإن الصراعات والمبارزات الخامسة كلها ترجع للوطن وشرف الوطن كما قال الشيخ هناك أيضاً عادة أخرى يجب ملاحظتها عند الفريسيين وهم شعب وثني كما ذكرت من قبل، فمن هؤلاء من يبني مسكنه الطبيعي في الأشجار، داخل جذوع الشجر، وقد يحملون إلى بيوتهم غذاءهم من الحبوب، ولكي يبنوا هذا الكوخ يتخلصون من الفروع التي لم تكن ذات قيمة، ويقيمون لها أرضية مستقاة ومن ثم للحجرة، ومن الأفضل لهم أن يخفوا كل معالم المسكن وقد يتعجب بعض الناس من هذا الفعل، وهنا نجد تشابهاً بما يحدث لهؤلاء مع ما يحدث في جزيرة فيجي وفي دلتا الأورنيوك، والهدف الأول للفريسيين هو الهروب من صيادي البشر وربما الهروب من الحيوانات المفترسة التي تتواجد بكثرة عندهم.

أن الصناعة كما فهمنا كانت متقدمة في وداي، والمسكان المحليون يصنعون أشياء صغيرة، معظم المنتجات الغذائية كانت تدخل عن طريق التجارة، أما عن الزراعة فهناك فنون كثيرة فيها، أما الصناعة فهناك الغزل وصناعة القماش القطن، وهناك ورش الصناعة الحديد، وتنقيب المعادن، وأخرى لصناعة الأدوات الزراعية والسلاح الناري والاقواس والسهام والنرق والحراب.. وكان هناك أيضاً صناعة تلوين الملابس.

لما التجارة فكانت متقدمة جداً خاصة الاستيراد، وكانوا يصدرون الصمغ العربي، العاج، التمر هندي، ريش النعام، السفينة، والجلود التي تصنع منها القرب، وأخيراً هناك تجارة الرقيق، التي تمارس بكثافة أما البضائع المستوردة، فمثل الزجاج، المرجان، الطرابيش، الأقمشة القطنية المختلفة، الملايات، والحرير إلى غير ذلك، ويستوردون أيضاً النحاس الأحمر والأصفر، والقسطير، البن، الصابون، التباكو، الكبريت، الملح، الأموال، السكاكين، السروج، وأيضاً الورق، وبعض الكتب الدينية، والآلات الكتابية، وأخيرة العملة، وخاصة القروش الإسبانية، ويسمى عندهم الريال أبو مدفع كما هو الحال في مصر، لأنهم يشبهون أعمدة

هرقل التي على القرش بالمدافع، واستيرك العملة كانت التجارة التي تسد ربحاً كبيراً، كما يفعل كاتب علاقات الامير جعفر.

ويوجد بين الطبقات العليا في وداي من يكتبون بالفارسية، وهو كما يقول الامير، يرجع الى اصولهم الفارسية وهذا كلام غريب، وقد رفضه المؤلف الانجليزي ولكن يبدو ان الشيخ التونسي قد ايد هذا الكلام عندما ذكر ان قبيلة العريقات التي تسكن جنوب وداي يقال ان اصولها عراقية، ومنها جاء اسمهم، ان كلام الامير جعفر لم يكن عبارة عن حدوثة، من ناحية اخرى فان الشيخ تكلم عن رغبة عدد من امراء الوداي في العلم، وخاصة السلطان صابون، الذي كان يفضل الاطباء والعلماء، وهذا هو السبب الذي جعله يستقبل كاتبنا ووالده بكرم خاص، وهنا اريد ان اقول: ان كلمة عالم او علماء تعني الرجال الذين كتبوا في الفقه الاسلامي.

لما عن اللغة التي كان يتحدث بها في وداي فقد وجدتها الشيخ خشنه وفتيرة، وانها في تغير دائم، كما انها تباين لهجات ولغات الامم والقبائل القريبة منها بل الاختلاف بين اللهجات عامة حتى بين القبائل المتلاصقة ومنجد في نهاية ملاحظات الدكتور بيرون، ان لغة الوداي لها مفردات كثيرة جداً تنفرع منها عدة لغات مثل لغات، دارفور، لغات فرتييت، لغات البرنو، لغات الباقرمي، ولغات بلاد التبو.

الجغرافيا:-

تحدثت قليلاً عن الزمن الذي بدلت فيه اوربا معرفة وداي واصف الى ذلك احداث كثيرة: فقد ذكر لي احد الشباب المستشرقين ويسمى برومتر روزي، والذي ذهب الى السنغال عام ١٨١٦م ومنها دخل الى افريقيا الوسطى عن طريق شبه طريق منجو بارك^(١)، وقد ذكر لي طريقاً يؤدي من شينو بولي الى مكة، ان هذا الطريق يمر ببرنو، كوكا، باقرمي، وداي، دارفور، كرديان، ثم سنار ثم شام

^(١) منجو بارك: رحلة لرأس حاء الى بحارة الافرنجة وكانت مهنياً بهر البحر في غرب أفريقيا وهو الذي اكتشف منابع نهر النيجر العظيم.

الحبشة إلى ميناء مصوع، إن هذا الطريق الذي يعبر إفريقيا من أقصاها إلى
أقصاها، ومن الغرب إلى الشرق هو في الواقع نفس الطريق الذي سلك منذ دخول
الإسلام إلى السنغال وزامبيا، وكان يسلكه سكان إفريقيا الغربية للذهاب إلى الحج،
إن مستر ن عرف وداي تحت اسم صليح، أو موبا على حسب الرواية التي نذكرها
له أحد رجال البرنو في القاهرة، بينما يؤكد رورخارد أن لهذا البلد ثلاثة أسماء:
برقو، دار وداي، ودار صليح، وقد نكر زينتر معلومات ضعيفة عن هذه المملكة
حسب رواية أحد رجال البرنو، ونحن نعلم أن هذا الرحالة النكبي كان مستشاراً
لامبراطور روسيا، وكان يكتب قبل بورخارد، وقد نكر معلومات مفيدة عن
جغرافية شبه الجزيرة العربية وإفريقيا، وقال اندرين بالبي أن الذين أعطوا اسم
'وداي' لهذه المملكة هم سكان فزان والصحراء ولكن سكان تلك المنطقة يسمونها
بدار صليح، والبرنو يطلقون عليها اسم برقو، ولكن الاسم الحقيقي لهذه المنطقة
كما قال عالم الجغرافيا هي موبا، وإذا كان هذا صحيحاً فإنه لأمر غريب أن يسقط
هذا الاسم من نقد بورخارد الذي كان دقيقاً جداً في معلوماته، إن دائرة المعارف
الجغرافية التي كتبها (هوفي موراي) والتي ظهرت بعد كتاب بالبي أكدت هذا
الكلام، وذكر هذه المملكة باسم برقو، وتحت اسم صليح واسم وداي أو موبا، إن
اسم موبا ليس له أي اشتقاق خارجي، ولكن له علاقة برحلة مستر ن التي نذكرتها
من قبل، ونذكر أن بورخارد قد ذكر أن لهذه المملكة ثلاثة أسماء وداي ومساها
البرنو والفزان والمغاربة، برقو، ويطلقها سكان دار فور وكردفان، صليح ويطلقها
سكان وداي أنفسهم، ويميل 'فيرسنيل' إلى الاعتقاد بأن تسمية برقو (برقو بورقو)
قد اطلق عن طريق الخطأ، وقد خلطوا إسمين لدولتين مختلفتين، ويتحفظ الدكتور
بيرون من تسمية برقو، وبين رأييه ليس فقط على شهادة الشيخ محمد التونسي،
ولكن على ما سمعه هو نفسه من الفقيه الهلالي (له صورة في هذا الكتاب)، ولكن
النودايين يسمنون من نكر هذا الاسم، لأن الذين أطلقوه هم الأجانب، ويفضلون
استعمال اسم دار صالح أو صليح، إن اشتقاق هذا الاسم 'برقو' يأتي تقريباً من
القبائل التي تقطن شمال هذه المملكة إلى فيا بابو، والتي تسمى تيبو توبو تيبو، لذا

وجب التمييز باسم: تيبو بوقو، أو برقو، بسبب الجوار، لهذا لا يوجد شمال وداي أو برقو دولة بهذا الاسم ان لم يكن هناك ضرورة مهما كان السبب التقاء هذا الاسم على وداي، ان الاسم المفضل للسكان الأصليين هو دار صليح أو دار صليح مقلما هو مكتوب في هذا الكتاب، وأخيراً كلمة صليح كما ذكر فرسنل مع اختلاف طفيف في النطق، يجب ان تنطق الكلمة باللغة العربية، بوضع الفتحة كما فعل بورديارد: دار صليح، أو مع الفتحة: دار صليح.

ان الوضع الجغرافي لولاية عاصمة وداي غير مؤكد، وهذا يجب ذكره، ليس فقط لأن الخرائط التي تخص هذه الدولة ليست منظمة، بل لأن البحوث الطويلة التي أجريت على المعلومات الصحيحة والخالصة لم تصل إلى أي نتيجة مرضية، وأقول بأنني وبكل صعوبة اطلعت على كل المراسلات، وخطت الطرق الصحيحة، وكنت اعتمد على النقاط الثابتة، مثل: الخرطوم، سنار، الأبيض، وأيضاً على كوبي، وهذه النقطة الأخيرة هي الأقرب، وقد عرفها براون، وبكل صعوبة، جمعت لهذا العمل المعلومات، واستعملت الحساب على الفضاء أو المسافة التي يمكن ان تقطع خلال يوم واحد، أو خلال ساعة واحدة، عن طريق وسائل السفر المختلفة: من الفرسان أو القوافل أو المرتجلة، محملين أو غير محملين، وكان يجب على ان اختلف معهم حتى أقوم برسم الخريطة من خلال هذه المعلومات، ولكن لم تقدم شيئاً دقيقاً.

مثلاً هذه المعلومات نتجت عن رحلة براون إلى دارفور، والتي سماها بخط طول كوبيه العاصمة، والتي حددها بمسافات قمرية كثيرة، وعن احتجاب كثير من الكواكب عن المشتري المطابق دائماً، ويجب ان يكون في خط عرض ونقطة ثابتة غير متحركة لكي يحدد موقع ولده، وفي الواقع هناك أراء كثيرة عن المسافة بين كوبيه ولده، وكثيرون يحددون اتجاهها بصفة غير دقيقة، ولكن هناك المقارنة بين الأبيض وكوبيه تؤكد ان كوبيه تقع في الغرب، بعيداً عن الوصف الذي ذكره براون، وإذا أخذنا المسافة باليوم، وهي أقل المسافات وحتى إذا افترضنا أنها في خط مستقيم، ولم نعط اليوم القيمة الحقيقية مثلاً: سبع، ثمان، تسع دقائق (أو ميل

جغرافي) فهي تحمل كوبيه الي الغرب كما ذكرها براون، وبالتالي فإن وجود واره تقع في الغرب في نفس الاتجاه، كما وضع العالم براون روبيل كوبيه في هذا المكان في خريطة الصغيرة التي عملها لكرديان دون ان يهتم بنتائج براون، وليست هناك صعوبة في اظهار بيان الرحلات المختلفة جداً، وتفسير هذا الاختلاف بدرجة كبيرة، ولكن الظروف تختلف عندما يكون الأمر خاص برسم خريطة، فالاتجاهات والمسافات يجب أن تذكر بتحديد دقيق دون أي استثناء، فهناك الكثير من الخرائط التي تظهر وتقول أنها حقيقية دون أن يبينوا آراءهم علي حقائق دقيقة، ودون أن يشير المؤلفون الي الحجج التي يستندون عليها، ولم تأخذنا الدهشة في خروج مثل هذه الكتب، بل لم نتحسّن المعلومات حتي في الكتب التي صدرت حديثاً وهي تمثل في أحسن الأحوال أحسن الكتب الملفقة التي نقرأ بشكل جيد، هذه الملاحظات لا تنطبق إطلاقاً علي النظرة الجغرافية المصاحبة لهذا الكتاب، إن الدكتور بيرون لم يفعل ولا يريد أن يفعل و يكتب إلا ما يمليه عليه الشيخ، فهو يكتب الأماكن وأسمائها بكل دقة، مع تحديد حدودها، كما أنه في العادة لم يرسم خريطة لأي بلد إلا بعد مضي زمن محقق فاته من الأجنبي أن نملك من الآن لوحة مرسومة يمكن أن نقرأ منها سهولة تحديد الأماكن والأقاليم، والتقسيمات الإدارية والحدود التي تميز الأحواض والوديان، وأماكن القبائل العربية، ومذونات كثيرة تسهل قراءة هذا الكتاب بكل يسر.

لم تكن هناك حملة مصرية منذ زمن بعيد الي دارفور أو الي وداي، فكان لا يمكن أن تقوم بحملة لجلب الأدوات العلمية، ولهذا فإن محاولة الخريطة هذه في هذا الكتاب لها أهميتها، وقد تعود بالفائدة بالنسبة للدراسات والرحالة.

ولكن هناك شيء مؤسف هو أننا لم نستطع تحديد عاصمة وداي بالنسبة لكوبيه والأبيض، وحتى أتمكن من القيام بذلك مع صعوبته، سأحاول أن أسأل عدة أسئلة، وتحديد جزء من المعلومات حتي نحس بأننا في الوقت الراهن لم نكن متأكدين من مكان العاصمة، ويمكن أن نقول خلافاً لخريطة (براون) فإن عدة خرائط حديثة تضع واره موازية لكوبيه في جهة الشمال، منها خرائط: السيد رنر،

السيد كايو، السيد سيفانو، والسيد زيمر مان، وآخرون يضعونها في الجنوب، منها خرائط: الكولونيل لوك، والسيد ماك كوين، الذي وضعها على درجة ٢,٥ جنوباً، وخريطة السيد كبير، وخريطة نبذة دارفور، وهناك خريطة حديثة للسيد قلوبوريو، تضع واره على بعد ثلاث درجات شمال كوبيه، على خط طول ١٧ درجة، ليست بعيد عن بحيرة تشاد، ويبدو من ذلك: أن معظم الجغرافيين الحديثين قد قرروا بطريقة تعسفية، أو من خلال رسومات مختلفة جداً لتحديد موقعها، وسأقضي التي معلومات أخذت من الرحلة أنفسهم.

يجب أولاً أن نتحدث عن الفواصل التي تفصل دارفور عن وداي، فكل الدلائل تشير إلى أن الفاصل عبارة عن مساحة صحراوية تقطع مسافتها خلال ثلاثة أيام، ويقول آخرون خلال يوم ونصف، وآخرون خلال يومين: وهناك اختلافات كثيرة في هذا الموضوع، وقال السيد كونيف في كتاب (أوراق جمعية الجغرافيين) إن المسافة بين دارفور ووداي هي تسع ساعات فقط، وأن أراضيها تتكون من الرمل المخلوط بالطين وأن المكان خال من السكان، وفيها أشجار كثيرة، وبعض الغابات الكثيفة (مثلما هناك الصحراء التي تفصل بين كردفان ودارفور، وبها كثير من شجر التبدي).

إن التفاصيل التي ذكرت عن المحطات مثل كوبيه أو تندلي التي واره قد تقل قليلاً من الشكوك، ولكننا نختلف في أسماء المحطات وعددها، على حسب رؤية براون، فأتنا نذهب من كوبيه إلى كيكابيه ثم إلى دار مساليت، ثم نعبّر الحدود إلى أم دخن ثم نأتي إلى أبو شارب ثم إلى واره، وتقطع هذه المسافة في أحد عشر يوماً ونصف اليوم من كيكابيه، ومن خلال معلومات أخرى فإن واره تقع على بعد ثلاثة أيام من كوبيه في الغرب والغرب الشمالي، أي أربعة عشر يوماً من عاصمة إلى أخرى، وهناك رأي آخر يقدر هذه المسافة بثلاثة وعشرين يوماً، وآخر يقدرها بتسعة عشر يوماً ونصف اليوم حسب كلام بورخارد، أي أقل من درجة ونصف تقريباً.

وقال الفقيه ابراهيم نقلاً عن رواية فرسند أن بين كبكائية وولده خمسة وعشرون يوماً ونصف اليوم، بدلاً من أحد عشر يوماً ونصف التي ذكرها براون، أي نصف المسافة هذه، وهو نفس الطريق الذي يمر عادة بأم دخن وأبوشارب. والخلاف أيضاً كبير حول الطريق من دارفور إلى ولده عن طريق دارنقا، إن نقطة الانطلاق هي الريل، وتقع على بعد ستة أيام إلى الجنوب والجنوب الشرقي من كوبيه، أما براون فقد قال إننا نتجه دائماً الشمال، أو إلى الغرب ستة عشر يوماً ونصف في اتجاه واحد، وتسعة أيام في الاتجاه المعاكس، أما قول الفقيه ابراهيم فأننا نذهب كثيراً إلى الجنوب وليس إلى الشمال خمسة وعشرون يوماً بثل سبعة عشر يوماً، أما مجمل الأيام بين الريل وولده فتتفاوت ما بين خمسة وعشرين يوماً ونصف، وتسعة وخمسين يوماً ونصف، الحقيقة أن هناك خطأ في خريطة الكاتب الإنجليزي التي تقدر المسافة بتسعة وخمسين يوماً، إن النسبة التي دعا إليها براون من خريطة عن متوسط اليوم ليس فيها كثير مبالغة، فهو قد حدها بربع درجة طول، وهذه المسافة أي مسافة أربعة أيام عن الدرجة الواحدة (أو ستة فراسخ) فهذا يتطابق مع الطريق الذي نسلكه في المتوسط، والذي يتم قطعه في سبع ساعات إلى ثمان مشياً على الأقدام.

والآن كيف نصدق الفقيه ابراهيم، فربما يكون قد حسب اليوم في أقل من خمسة فراسخ، إن حساب تسعة عشر يوماً ونصف إلى عشرين يوماً على خط مستقيم من كوبيه إلى ولده قد يطابق حساب مسافة الستة أيام من كوبيه إلى ريل، وخمسة وعشرون يوماً ونصف من ريل إلى ولده، ولكنها ليست نفس المسافة بين كوبيه وكبكائية وزغاوة إضافة إلى ولده، فإذا تطابقت المسافات الستة تماماً مع ما ذكره براون والشيخ، فسوف نحصل على مقياسين مقبولين، ثم نصل إلى نتيجة تقريبية ومرضية عن اختلاف خطوط العرض على هاتين النقطتين المتباعدتين للغاية.

وهناك مواضيع أخرى مختلفة وردت في الرسوميات، ويشار إلى أنه إذا لم نستطع حتى الآن تحديد موقع ولده بالنسبة لدارفور فأننا أيضاً قد لا نستطيع تحديده

بالنسبة لبغدادى أو فزان أو بيلما وكوكا برنو الى كاتم ولوقن واخيراً الى كاتو وكشنا وأفناو، وبالرغم من أننا لامتلك رسومات بين وداى وكل هذه الأماكن إلا أن المسافات بينها وبين واره كانت بعيدة جداً، مما يجعل ورود الخطأ وعدم الدقة أمر لا مفر منه بالنسبة لخطوط الطول والعرض.

وكنيت اعتقد فى البداية بالنسبة لأخذت قاعدة الانطلاق وهو خط ذو أبعاد متباعدة ومعروفة وهى: سنار وسكتو (وهما متوازيتان) ووزعت بعد ذلك بالتقريب كل الأماكن السودانية الواقعة على هذا الخط على حسب المسافات التى ذكرها الشيخ ورحالة اخرون، وكنيت واره تقع ضمن هذه الأماكن، وهكذا عرفت أن الشيخ بحسب اثنين وتسعين يوماً على الأقل بين سنار وأفناو (كشنا) فى سبع مسافات، ولكن خط طول كشنا معروف نوعاً ما بالنسبة لسكتو، ولكن يجب أن نترك أيضاً هذا الخلط لذات الأسباب التى ذكرتها.

ولكى أوجز قد امتنع عن مقارنة عدة رسومات وشرحها، ونقبل كذلك أن الطرق التى يسلكها الرحالة وطرق الرحلات اليومية يمكن أن تفسر عدد الأيام، وباختصار فهناك اختلافات كثيرة تعيق تحديد مواقع عواصم دارفور ووداى اليوم. أما بالنسبة لوضع واره، فالأمر مازال صعباً لتحديد لها، لأنه ما زالت هناك شكوك بالنسبة لخط طول كويبة ذاتها، وعلى كل حال فهناك احتمال أن تكون العاصمة واره تقع الى الشمال قليلاً أكثر منه جنوب كويبة وعلى حسب كلام الشيخ فإن مساحة وداى أكثر من خمسين يوماً مشياً على الأقدام طولياً من الشمال الى الجنوب ومسيرة أربعة وعشرين يوماً من الشرق الى الغرب، وعلى حسب معلومات السيد فرسنل فالمسافة هى خمسون يوماً فى متلها، وبذلك فهى بلد واسع لكنه ليس أطول من دارفور.

وقد ذكر الشيخ الكثير من المعلومات التي يمثلها معنى اليوم الواحد لكى يحدد مساحة المملكة ويحصل على نتائج سواء بالنسبة للسكان او بالنسبة للاراضى المزروعة، ولكن لا يستطيع الا ذكر شيء واحد وهو أن مساحة وداى هى على الأقل مساوية لمساحة دارفور، هذا اذا لم تكن اكبر منها.

لما بالنسبة للسكان فمن الصعب معرفة أى معلومة محددة، ان البلد مقسم الى قبائل ويجب أن نميز بين تلك القبائل: خمس قبائل سماها الرحالة بالقبائل الاصلية او الملكية وهى القبائل التى اعتنقت الدين الاسلامى قبل غيرها، ودائماً يتم اختيار السلطان من هذه القبائل، ولايسمح لاي أسرة اخرى ان تحكم من غير تلك القبائل، وای قبيلة من غير هذه القبائل الخمس لايسمح لها أن تشارك فى هذا الشرف.

ونذكرنا فيما سبق أن جنوب وداى تسكنه قبائل ذات أصول شرقية، وواحدة من هذه القبائل ادعت انها من اصل عراقي، وهذا ما أكده كتاب الامير جعفر. أن بلاد الخناجرة التى تقع فى جنوب المملكة تسكنه قبائل وثنية كما ذكرت من قبل، ومن الخطأ أن نعتبر هذه القبائل متوحشة لانهم يصنعون الحديد بشكل جيد وكذلك يجيدون صناعة الابنوس، ولهم فنون اخرى، ونحن نخطئ أيضاً فى تسمية كل القبائل الوثنية بأنها أكلة لحوم البشر، وبالرغم من وجود استثناء فى بلاد الفرتيت جنوب دارفور، ولكنه ليس من السهل حمل الخناجرة على اعتناق الاسلام.

ويجب ان نعترف أن المسلمين حقاً لهم طريقة فى الحياة مختلفة عن حياة الافارقة، ان قبائل عربية كثيرة سكنت جنوب وداى كانت تشارك فى الحملات التى يرسلها السلطان او يسمح بها لاصطياد الخناجرة وهى التى تجهز للجلابة أو تجار الرقيق وكانت مهمتهم اقتياد العبيد الى القوافل، ومن ثم حملهم الى الاسواق العامة، حيث يبيعونهم بالعند، ولأن هذه التجارة مربحة جداً، ولهذا لاندش من اصرار تجار الرقيق فى ممارستها، الامر الذى يحول دون لغائها.

وهذا ملاحظة وهي أن الدول الخمس التي تقع موازية ومتجاورة في الدرجة ١٤ شمالاً وهي: كردفان ودارفور ووداي وباترسي وبرنو، لكل واحدة منها قبيلة وثنية في الجنوب وهي بر تروج، فرتييت، جناجرة، كردي، وكرداي، وتعتبر هذه القبائل الوثنية ملكاً لتلك الدول وهم: تروج جنوب كردفان، وفرتييت جنوب دارفور، وجناجرة جنوب وداي، وكرداي جنوب باترسي، وكرداي جنوب برنو، ولكل دولة الحق في اصطلياد تلك القبائل، وقد ذكر الشيخ تفاصيل كثيرة ومثيرة حول تلك الممارسة وقد دهشنا لأن الباشا الذي يحكم كردفان لصالح سلطان مصر كان يقوم بنفس اعمال سلاطين دارفور ووداي، وهناك أيضاً النوبة جنوب سنار، وهناك قانون لم يكن مرغوباً فيه، وهو أن لمصر الحق في اخذ المواطنين المحليين كعمال لها في الرمال التي تحوي الذهب في النيل الأزرق في فازو على وفي فازيقورو وعلى ضفاف نومات، إن الارض خصبة للغاية وهؤلاء الوحوش كما يسمونهم كثيرون، يزرعون الارض ويحصدون الحبوب، وقد علمنا من تقارير السيد لرنو، إن السكان الذين يكسبون اعالي النيل الابيض وحتى خط عرض ٤ لهم طبع مميز وهادئ، على الرغم من انهم يملكون اسلحة ممتازة، ويعيشون على الحبوب وبعض النباتات ذات السيقان والالبان، وعلى الرغم من انهم يقومون بتربية عدد كبير من البهائم، وليس بعيد أن تكون هناك علاقة طبيعية بين مصر وتلك القبائل الكبيرة التي تملك أرضاً خصبة ومنتجة.

ومساعد الى وداي والقول: أن أرضها أكثر خصوبة من أرض دارفور وأن مناخها أفضل من مناخ دارفور، وتقع بين مداري السرطان والجدي وبالتالي معرضة للعواصف والرياح العنيفة والتي تثير غباراً لا يمكن مقاومته وتستمر العواصف لشهر كامل عقب الخريف، والذي يبدأ عادة في دارفور ووداي من شهر يونية ويستمر في يولية وأغسطس وجزء من سبتمبر، ولهذا نجد كل أراضي وداي تغطيها الجداول والمياه الجارية من خلال الامطار الغزيرة كما تغطيها غابة كثيفة ذات خضرة دائمة طوال العام، وتنتج الحبوب مثل (الذرة والدخن) وتكثر فيها الفواكه طوال العام بشكل عجيب وكل هذه المنتجات موجودة في دارفور.

كما أن الحيوانات كثيرة في وداى والمراعى غنية، فالتبائن العربية فيها تربي الخيول والمواشى بكميات كبيرة، وهناك شئ لا بد من معرفته عن جغرافية وداى وهو علم وصف المياه (الهيدروغرافيا) ففي وداى يوجد حوضان كبيران تحدث عنهما في البداية، وهنا يمكن القول: إن الشيخ لم يستطع تجميع كل المعلومات اللازمة للجغرافيين، إلا أنه قدم معلومات هامة صحح بها أخطاء قديمة، وفتح بها أفقاً جديدة فعلى حسب معلومات الشيخ بأن هناك واد كبير (بحر ايسرو) يقع جنوب وداى ويتجه من الشرق إلى الغرب، وهذا الوادى يحمل اسماء كثيرة منها: بحر سلامات، ولم التيمان، وفي الغرب أيضاً يجرى وادى كبير يسمى بحر الغزال وهو يتجه إلى الشمال والشمال الغربى.

أما في داخل البلاد فهناك واديان كبيران يستعرضان، تصب فيهما وديان ذات مصبات مختلفة، ومجرى غير محدد، وهما: بطحة وبعليحة، ويجب أن نعرف أن مجارى المياه تتوقف في موسم الصيف، وتجرى في الخريف وتصب في بحر الغزال ويبدو أن الذين أخبروا السيد فرسنل أن أحد هذه الوديان يسمى البطيحة، ويعرفه براون بوادى مسلات، وهو أمر ظل يقلقنا منذ زمن بعيد لولا حنق فرسنل بإشارته إلى أن اسم مسلات مثل اسم مسلاتى (جمع مصاليت أو مصاليت) اسم لقبيلة ذكرت في كتاب (الرحلة إلى دلفور).

وعلى كل حال فإن المجرى من الشمال إلى الغرب الذى ذكره براون (يمكن في الحقيقة أن يكون تعسفياً) لأنه يختلف كثيراً عن مجرى البطحة الذى يتجه من الغرب إلى الجنوب الغربى، وليست هناك أى قوة تستطيع أن تقول أن اتجاهه إلى الغرب، سواء هذا المجرى أو المجارى الأخرى، خاصة وأن الجزء الشرقى من وادى في هذا الجانب مرتفع جداً، وهو ما يؤكد التخمين الذى وضعناه في مقدمة كتاب الرحلة إلى دلفور بالنسبة لهذا الخط المستقيم:

أعلى النيل والسودان الأوسط:-

لا يمكننا في هذا المكان أن نتفحص أو نقاش المستندات الجغرافية الضعيفة التي بحوزتنا فيما يخص البلاد التي تقع بين وادي والبحيرة الوسطي (أو بحيرة تشاد) ذلك أن امتداد هذه المساحة هي أيضاً مشكوك فيها بسبب الشك الذي يحوم حول موقع ولوه بالنسبة لخط الطول.

لن أي شخص يدرس هذه المنابع دراسة متأنية يصل إلى أن أسماء مثل: بحر كلا ودار كلا (أوقلا) فترى، بحر فترى وبحيرة فترى حتى بحر الغزال، لا يجد لها في الوقت الحالي تطبيق صادق في أماكن معروفة على أرض الواقع، أن حدود كاتم هي أيضاً مشكوك فيها، أن تحديد تلك الأماكن مرة أخرى على خريطة دون الحصول على معلومات تصبح تحركات مشكوك فيها تقريباً والياً أن تكون ذات فائدة فقط تكون إضافة جديدة لتعقيدات السرد الموجود، ولا زال الأمر مبهماً حتى الآن، فهناك تساؤلات تصعب الإجابة عنها فمثلاً: ما هي الوديان التي تصب في بحيرة فترى، أو بحيرة تشاد من ناحية الشرق؟ وما هي الوديان التي تخرج منها؟ هل لهذه البحيرات تصريفات ما؟ وابن تنتهي مجاري المياه الآن؟ من الشرق؟ الاتجاه والاهمية والمصب النهائي للمياه التي تجري في وادي والأماكن التي تحيط بها، كل هذه التساؤلات مازالت تشكل معضلة للاستكشافات القائمة للآوربيين الذين اتوا محملين بأدواتهم، وكانوا يلاحظون الأشياء بدقة.

ولهذا فلنكتفي بالخرائط الموجودة لننظراً لمعرفة المصطلحات وتعاقب الأماكن، ولا نستعمل هذه الخرائط الأبحر.

هناك سؤال مهم، ولكنه متقن قليلاً ويستحق منا الوقفة للخطوة: وهي مسألة النيل الأبيض الأعلى (في السودان وادي النيل الآن) فهناك جدل كبير دار بين الرحالة المشهورين والعلماء والكتّاب، وقبل هذا الجدل كان لي رأيي ولم تشينسي عنه تلك الملاحظات، بل ربما جاءت لتؤكد أني لن أتناول هذه النقطة بصفة عامة وبخطوط عريضة.

ان السيد ارنو الذى وصل الى النيل الابيض حتى الخط ٤٢ ر ٤ مسن خط العرض شمالاً قد عين اتجاهين لمجرى النيل الاعلى، احدهما يخرج الى الجنوب الغربى، والاخر الى الجنوب الشرقى، (مع فرع لهذا الاخير يميل للشخص بانه فرع يجرى من الشمال الى الشرق)، واطاف السيد ارنو فى كتابه ان النيل اذا وصل الى هذا الارتفاع يكون ارتفاعه صعباً بالنسبة للمراكب الاستكشافية، ان الصخور تكون مثلالات فتكون عقبة للملاحة، ان المجرى هنا ضيق ولكنه ليس عميقاً وكأنا نقرب من المنبع، وبعد ذلك بثمان سنين يصل الاب اقلس كنوبليشر، ودلابامش محملين بأجهزة (بفضل اكتشافات السيد ارنو) صعدا الى مسافة ثلاثة وثلاثين ميلاً جغرافياً الى الجنوب، أى خط عرض ٩ ر ٤ شمالاً، وكان فى شهر يناير فتسلق الاب اقلس جبلاً يدعى لوقوبك، ومن هنا رأى النيل ومجرىه بلا نهاية وعلى مد البصر فى الاقليم الجنوبى الغربى ويسير على سلاسل من الجبال، وفى هذه النقطة كان متوسط عمق النهر مترين وثلاثين سنتيمتراً، وعرضه حوالى مائة وثمانين متراً، وقالوا له ان النهر صالح للملاحة من هنا ولمسافة شهر، وكان المحترم اكنوبليشر يعرف لغة المواطنين المحليين والتي تعلمها فى الخرطوم، وكان يتلقى ويفهم مباشرة ويجب على كل الامثلة، ونشك ايضاً فى العلاقة التى يمكن أن تكون بين بحيرة نيلس (التي ذكرها الدكتور كرايف وقال انها تقع على خط ٤ درجة جنوب خط الاستواء، ولها اطوال متساوية كما يقال مثل الضفتين المتعارضتين لاقريقيا) وبين مجرى النهر الكبير، ولكن الذى لاشك فيه هو وجود وادى كبير وبعيد جداً فى الجنوب، والذى ذكره لنا قبل اربعة وعشرين عاماً السيد كونيغ، ومن هذا كله فان كل المعلومات المشتركة تقول: ان المياه تجرى خمسة وعشرين يوماً على الاقل جنوب باقرمى ووداى لتصب فى النيل الابيض.

ذكرت كل التقارير ذلك الوادى الكبير وهو كتليل الابيض يجرى فى اتجاه بلاد البيض، لكن هذا النهر لا يمثل الا رافداً من رواند النيل او النيل نفسه الذى ياتى من الاقليم الجنوبى ومن مسافة بعيدة جداً أى حوالى ٨٤ يوماً حسب التقارير الاخرى، وها هى اجهة اخرى مدهشة ذكرها لنا الشيخ نفسه، واخذها من الفقيه

مدنى الفتاوى، حيث ذكر أن بعثة استكشافية من اهل دارفور دخلت فى يوم ما بلاد القرنت وسارت الى اقصى الحدود الجنوبية لهذا البلد لمسافة خمسة شهور حتى وصلوا الى مستنقع عريض للغاية حيث لم يستطيعوا تمييز الأشخاص الذين يقفون على الضفة الاخرى الا بصعوبة، وكانت هذه الرحلة فى عهد السلطان عمر.

واعتقد من العبث أن اتحدث عن جبل كلمنجارو والذي يقع على الخط ٤ جنوب، والذي رآه الرحالتان: ريمان وكريف، وهو مغلى بالجليد الدائم، كما هو الحال بالنسبة لجبل كينيا الذى يقع غرب جبل كلمنجارو على خط ١ جنوب، وهذا الجليد الدائم على هذا الجبل يؤكد ارتفاعه الشاق أى حوالى ٤٠٠٠ متر فوق سطح البحر على اقل تقدير، وهذا الجليد المتراكم يذوب فى بعض الفصول وخاصة فى فصل الامطار الموسمية، ولهذا فان انقطاع الفيضان لا يمكن أن يتغير من مواعده لان موعد ذوبان الجليد هو نفس موسم حلول الامطار الاستوائية، واذا كان الامر كذلك فان حوض النيل يمتد الى جبل كينيا فى جانبه الشمالى، وكذلك الى الجزء الشمالى لسلسلة الجبال التى ينتهى اليها جبل كينيا والتى تغذى المنابع العليا للنيل، ان المساحة التى تغطيها هذه التقديرات مهما كانت درجة صحتها فانها تعد كبيرة جداً، وهى خارجة عن البحوث التى قام بها الاوربيون والتى يجب ان نحافظ عليها بدل الطعن فيها، ولكرر انه ليس هناك أى فعل أو دليل مقبول الذى الان كذب فكرة أن الفرع الرئيسى للنيل الابيض يقع على بعد الدرجة ٤ شمالاً وينبع من الاقليم الجنوبى او من الجنوب والجنوب الغربى.

والان اقول حديثاً موجزاً عن مياه السودان الاوسط، فيبدو ان السيد فيرزنل قد رأى ان بحر تشاد اليوم قد يكون هو النيجر الحقيقى للقدماء، وأنا أقول: ان هذه التخمينات قد تكون صحيحة لانها تركز على تقديرات جديدة حيث من المؤكد ان كمية المياه التى يحملها هذا النهر الى كوارا والى اسفل من كاكوندا يؤكد ان لها منابع بعيدة جداً فى الشرق، لان لها رواقد كثيرة وايضا لها منابع وروقد فى السودان، وهنا يجب ان نفكر فى كتاب الميجور دنهام الذى كان منذ زمن بعيد كان

فى منبرا جنوب بحيرة تشاد، فقد رأى من البعد وفى نفس الاتجاه جبلاً شديدة
الارتفاع تمتد على مدى البصر، وبالتالي يمكننا ان نتخيل منذ ذلك الوقت ان ذلك
الاتجاه هو منبع الشاد ومن الممكن ان نقول انه لا يخرج من هذا الاتجاه الارافد
واحد من روافد النهر، وان راسه بعيد تجاه الشرق، ويخرج من جبل مندفى،
وهناك سلسلة كبيرة من الجبال الصغيرة تتجه من الشمال الغربى الى الجنوب
الشرقى تجمع بين جبال المنطرة والجبال التى ينبع منها النيل، او الى روافد بحر
الهنود ولكن من الصعب جداً ان ننفى وجود نظام لعلم الجبال فى وسط افريقيا
خاصة وان هناك عملاً يؤكد وجود نظام متقدم لعلم الجبال وذلك من خلال تقرير
روقا الاقريقى من كمكول (موقع على بعد ٦٨ يوماً شرقى كلبار الجديدة) يحكى
هذا الرجل ان بلاده مليئة بالجبال وان كثيراً من هذه الجبال عالية الارتفاع وتكون
دائماً مغطاة بالجليد والبرد، وقد قبلت هذه الفكرة على بساطتها لانها تتفق ومبادئ
الجغرافيا الفيزيائية، ولكن يجب ملاحظة شىء ما، وهو ان البساطة الشديدة
ولست قاعدة ثابتة، ولكنها نوع من التعقيد تهيه لنا الطبيعة مع مواكبة القوانين
المختلفة وهذا هو السبب الذى يخفى لنا الحقيقة دائماً، مما يفقد المسألة ويؤخر
كثيراً الحل الكامل لمشكلة المياه الكبيرة فى افريقيا.

ان المساحة الكبيرة التى تفصل بين تنبكتو وبوسا تمتد طولها لاكثر من
ثلاثمائة فرسخ مازالت غير مستكشفة وغير معروفة ومن يستطيع تحديد أى من
الروافد يصب فى النهر الكبير من هذه المساحة؟ ومن يستطيع ان يثبت بانه ليس
هناك فرع للنهر بين تلكا النقطتان؟ فالامر يتطلب ان يستكشف منطقة الجبال فى
بوسا، والطلوع الى كولرا، على الاقل فى مستوى مكوتو، والطلوع الى الشاد، ثم
الى المنبع البعيد لهذا الراافد الكبير تجاه الشرق، لاسيما وانه يوجد هناك شك كبير
بالنسبة لمجارى مياه افريقيا الاستوائية.

ان مشكلة النيجر لم تنته تماماً، فماذا نقول عن البحيرة الوسطى وعن
بحيرة تشاد، اللتين لم تستكشفتا بعد تماماً مما يجعل الامر ينتظر طويلاً كاملاً

ويحتاج الى متابعة وتفحص دقيقين لكل المجارى التى تصب فيه فنحن محتاجون الى معرفة مستوياته المختلفة ونهاياته اذا لم يكن هناك شيء اخر غير النيجر. وللمرة الثانية ينبغي ان نلاحظ ان نهر ايبو الذى يصب فيه ليس له رافد على الضفة اليسرى، ولا احد اليوم يؤيد فكرة ان مياه بحيرة تشاد تصب فى حوض النيل، ان مستوى بحيرة تشاد فى الواقع منخفض من مستوى النهر ولكن ما هو الطول الاقصى لبحيرة فترى والتى لم يصفها أى اوروبى رافدا بعينه، ليس هناك اثنى شك فى الاماكن الهامة التى تقع بين برنو وسكتو، وكذلك ليس هناك شك فى الاماكن التى تقع جنوب شرق برنو، وايضاً بالنسبة لمدينة لوقون عاصمة باقرمى، هذه الاماكن حددت بشكل تقريبي فى خريطة سفر اودنى وكذلك ظهرت فى خرائط كلاهرتون ودينهام، وهناك ايضاً اماكن وضعت تقريباً شمال بحيرة تشاد وبحوار كاتم وفترى، واذا كانت البيانات التى جمعها الرحالة الافارقة كافية لبناء خريطة لكل الاقاليم فان المعلومات ايضاً متوفرة اليوم، خاصة وأن السيد فرنفل قد جمع كما كبيراً من المعلومات بخصوص هذا الموضوع لم يتوافر مثلها من قبل، ولكن بالنسبة للدلة التى طرحتها آنفاً فانه من الصعوبة بمكان ان تحدد من خلالها خطأ واضحاً يلبي طموح الأشخاص طالبى الدقة، وعلى كل حال فحينما نجد نقاطاً كثيرة محددة ومختلفة فهذه الخرائط للرحالة الافارقة تكون ذات اهمية كبيرة لمعلومات اضافية بالنسبة لنا خاصة عن العالم الشرقى.

فى هذا الخط وفى هذه المساحة التى تقع بين سكتو وكردفان فان الشيخ محمد التونسى قدم لنا مسافات تقريبية تصلح كمادة للمقارنة، هذا الخط الكبير الذى يمتد لما بين ٨٨ الى ٩٢ يوماً مثباً بين افنو وسنار، وهى مسافة كبيرة وايام اكثر بكثير مما ذكره السيد فرنفل فى خرائطه ولاستطيع نحن الان أن نترجم بدقة جغرافية المعلومات التى قدمها لنا كاتبنا، حيث قدم لنا مسافات تقريبية، فمثلاً المسافة بين الابيض وتنتلى من عشرة الى اثنى عشر يوماً، ومن أقدس الى افنو من اربعة الى خمسة ايام، ومن سنار الى الابيض ما بين خمسة عشر يوماً الى ستة عشر.. من ناحية اخرى فان السيد فرنفل قد جمع خرائط تجمع بين الاماكن بين

الشمال والجنوب أو إلى أسفل منها وموازية، لوثق في اتجاه منحرف إلى الجنوب، فإذا حصلنا على نقاط محددة كما قلت فهذه الخطوط تكون خريطة المستقبل.

وما هي امثلة لذلك: من لوقون إلى واره نحسب واحداً وعشرين يوماً، ومن كانوا إلى باقرمي سبعة وأربعين يوماً، ومن بحيرة فترى إلى لوقون خمسة وأربعين يوماً، ومن باقرمي إلى كاتم تسعة أيام، إلى غير ذلك.

وباختصار شديد فالتنا نرى أن هناك الكثير من الامثلة المتعلقة ليس فقط بالنسبة للبلدان التي تقع غرب وداي إلى برنو ثم إلى أقصى الغرب من ذلك وكذلك هناك الكثير من الامثلة المتعلقة حول الودية التي تجري في هذه البلدان وكذلك بالنسبة لنظام كل المياه الجارية والراكدة في هذه المساحة والتي تشمل أيضاً المنطقة بين خط الاستواء والخط الذي يربط تنبكتو وكردغان - في وسط هذه الشوك يجب أن نشيد بالجهود التي قامت بها الجغرافيا في الجانب الشرقي فقد خلعت خطوات كبيرة يمكن تلخيصها في الآتي:-

١- النظر بعين التأكيد بأن النيل ينبع من أقاليم بعيدة في الجنوب أو إلى الجنوب الغربي على خط ٤ درجات شمالاً بالقرب من خط الاستواء.

٢- تيقنا بأن دارفور أو جزءاً كبيراً منها ينتمي إلى حوض النيل.

٣- أن المياه التي تجري في وداي هي مياه تنتمي إلى حوض بحيرة تشاد.

٤- الوديان التي لها أسماء مختلفة مثل: بحر الاداء، أو (أدا) كى الاك، ايلسن،

كدادا، تصب في النيل في الدرجة ٩ ونصف شمالاً، وكان يعتقد وإلى زمن بعيد

بأنها منبع النهر، وما هي الارواق كبيرة كتليل الازرق الذي يصب في النيل

عند الخرطوم.

٥- يوجد بين دارفور وبحيرة تشاد مملكة مزدهرة بالمسكان، ولها دراية بالحروب

وقد اخذت ذلك من الحضارة الاسلامية، هذه المملكة غنية بمنتجاتها وكان

موقعها اميز من موقع دارفور فتسكنت من إقامة علاقات تجارية مع أوروبا.

وفي الوقت الحالي يمكن أن يكون الكثير من الاسئلة الجغرافية الهامة عن افريقيا قد حلت أو في طريقها للحل، وذلك بسبب تضحية وشجاعة الدكتور ريتشاردسون.

قوافل دارفور:-

هناك طريق معبد يربط بين وداي وباقرمي مباشرة مع الساحل الاستوائي لافريقيا وهذا الطريق الذي فتح للتجارة هو القصر بكثير من الطريق الذي يمر بمصر وقد تحدثنا في كتاب الرحلة الى دارفور عن قوافل وداي التي كانت تتجه الى البحر الابيض المتوسط، اولا عن طريق فزان: واليوم أصبحت العلوم والمعارف متقدمة جداً فقد ذهب السيد فرزنل الى تلك الاماكن، وب نفسه اخذ معلومات مهمة من السكان الاصليين في جالو، تحدثت عن الاصل التاريخي لتلك القوافل وما كانت تقوم به قبل ست وثلاثين عاماً وما يمكن التنبؤ به عن مستقبل هذه الاستكشافات وكذلك عن مستقبل ميناء بنغازي.

ومن الفائدة أن نقارن هذه التقارير بتقرير هذا الشيخ الذي قال للسلطان صابون كل مايسر عن هذه العلاقات التجارية الاولى، ولانه كان معاصراً وشاهد عيان لمايكتب، فقد كانت لعلاقته بعض الاهمية.

كانت وداي ومنذ زمن بعيد ترسل القوافل الى فزان وكان اول رجل يقوم بهذه المحاولة هو احد المغاربة من قبيلة اولاد علي، وقد ذهب هذا الرجل من جالو الى السودان مع مجموعة قليلة، وقد ضاع في الصحراء حتى وجته مجموعة من قبيلة البديات (قبيلة تسكن شمال شرق وداي) واحضرته امام السلطان صابون، فاقترح عليه هذا الاخير بان يأخذ معه قافلة الى المغرب وعن طريق مباشر (مستقيم) فاستطاع ذلك الرجل ان يقود تلك القافلة الى جالو بعد خمسة عشر يوماً قضاها في الصحراء وعندما عاد الى واره كافأه السلطان صابون عن رحلته هذه، ووعدته بحملة اخرى اكبر نطاقاً وتذهب مباشرة الى درنة وبنغازي شمالاً تاركاً من الان طريق فزان وطرابلس الى طريق جالو بنغازي، وهذه القافلة ضاعت ايضاً في الصحراء، فقد انتهى ماؤهم ومات العبيد والتجار باعداد كبيرة،

وكذلك ماتت جمالهم وكانت الكارثة كبيرة، واستطاعت قلوب تلك القافلة أن تصل إلى جالو، وتم إرسال جمال إلى مكان الكارثة، حيث تركت البضائع، وقد استطاعوا حمل جزء كبير من تلك البضائع، وبعد ذلك سلك الشيخ نفسه هذا الطريق للرجوع من وداى إلى المغرب، وقد انضم إلى قافلة ناحت بدورها في البداية، ولكن لحسن الحظ وصلت هذه القافلة إلى الأبار بسرعة، وكانت لهم بعد ذلك قضية مع النبو الذين يشكلون عقبة أخرى ومشاكل توسع فيها الشيخ طويلاً. إن خارطة الشيخ إلى القطرون، يعنى مدخل فزان ويجب أن اتوقف بهذه الكلمات الثقيلة عن طريق وداى التجارى، واترك القارى مع مراسلات كاتبنا ومذكرات السيد فرزى.

أبوقرن-

متى ذكر الشيخ اسم أبوقرن، فأتنى لايمكننى أن أترك الحديث عن هذا الحيوان الذى ذكره العالم الذى كان اتصالاً في جدة، فهو أول من ذكر وجوده في وداى بنفس هذا الاسم (أبوقرن) يعنى: وحيد القرن، ويقال له: مونوسورس، وقد قارنه بالقرن (حيوان اسطورى بجسم الحصان كان الاقنمون يتصورونه ويرز له قرن وسط الجبين) حيوان اسطورى بالنسبة للحيوانات الاليفة، وكذلك بالنسبة للجبين الذى رسموه له في اوربا، ولكن هذا الحيوان له وجود حقيقى في هذا الجزء من افريقيا.

أبوقرن يختلف عن وحيد القرن الحقيقى، هذا الاخير معروف تماماً في افريقيا، ويسمى في مصر: الخرتيت، والجغرافى الالريمى يسميه الكركن، الذى تجده بالقرب من سرنديب (سيلان) ولكن اسم كركن يستعمل ايضا فى اعالي النيل ونجد هذا الاسم في المراسلات القديمة بين الهند والصين والنسب كتبها (رينودون).

اما الوداى فنجدهم يتفقون على أن وصف وحيد قرنهم يختلف عن وحيد القرن العادى، أو عن وحيد القرن الذى له ترنان هذا التميز الذى قام به المحليون

يرتكز بالضرورة الى صفات خاصة ولكن الثابت ان وحيد القرن الاقربقى له قرون وسط الانف، ويقولون ان قرون ابوقرن مزروعة في جبينه.

لأننا كلودبليشر بملاحظات مهمة وحديثة عن اعالي النيل الابيض حيث يوجد حيوان مسلح بقرون مائل موضوع في اسفل جبينه بين العينين، هذا الحيوان بالنسبة للرحالة يختلف عن وحيد القرن المعروف لأن جلده خال تماماً من التجاعيد، والان أعود الى شهادة شيخنا أنها بالطبع ليست شهادة احد رجال الطبيعة ولكن كشهادة أى اوروبى دخل الى باقرمى أو ودای وبالتحديد فى المنطقة بين الدولتين حيث وقعت تلك الاحداث التى يرويها الشيخ.

فقد قام السلطان صابون بحملة ضد سلطان باقرمى المستبد، حيث وصلت الجيوش الى الاراضى التى تفصل بين الدولتين، هذه الاراضى تغطيها غابات كثيفة مليئة بالاسود والاقبال وأبى قرن، يقول الشيخ فعندما كان احد جواسيس الجيش يقوم بتطليف الطريق خرج ابوقرن كبير واتجه مسرعاً نحوهم، فقتل كثيراً منهم، فقد كان يضرب بقرنه كل من يلاقيه ويهاجم بشراسة الى ان وصل الى وسط الجيش ومن شدة الخوف تزعزع كل الجيش وظل السلطان وحيداً مكشوفاً دون حراسة وفجأة ظهر عبد باسل يحمل سكيناً طويلة ووقف امام الحيوان وانتظره، وعندما هجم عليه وقع على الارض وقطع عراقيب الحيوان، ومن خلال تقرير الودای لن أبى قرن حيوان نادر الظهور، ومن هنا كان سبب الخوف هو تلك الروايات والمبالغات التى تتسج حوله، ان حديث الشيخ هنا يطابق حديث السيد فرزقل حول الحيوان ومكان وجوده بين ودای وباقرمى.

الخاتمة:-

من كل ما سبق تتضح لنا اهمية ملكة ودای سواء اعتبرنا ذلك من الناحية العلمية التى مستفاد منها فى المستقبل الاستكشافات فى افريقيا الوسطى، ولذا نظرنا للمستقبل بالنسبة للعلاقات السياسية والاجتماعية والتجارية لسكان السودان الشرقى، وإذا كان الامر كذلك فنستطيع أن نعتبر هذه الرحلة لهذا البلد لأول مرة

ينشر مثلها، بالرغم من عدم الجودة لأن الكتاب لم يكن يحتاج قلم أوربي^(١)، فتأمل
أن يجنب هذا الكتاب فضول وانتباه الجمهور.

وهنا نعتقد بأننا يجب أن ننبه القارئ بالاستطراد والتطويل والتكرار الذي
لا بد من ملاحظته، وإذا كان القارئ يتأثر ببعض الغرائب وبعض التفكرات التي
تبدو ساذجة ومملوكة بقليل من السخافة فنرجو من القارئ أن يتغاضى عن ذلك
بسبب سلامة النية والصدق، وتثبيت الرواية، أن القارئ يمكنه أن يعترف بأن
البساطة لا تمنع من سمو أفكار أُمليت من عقل عاقل ورجل حكيم
وفيلسوف.

هذه الأشياء ليست بغريبة على الشيخ محمد التونسي، لأننا نطلب القرآن له
لبعض اللوحات الفاضحة بالنسبة لبعض التقاليد الأفريقية، وكذلك بالنسبة لكثرة
الاستدلالات الشعرية، وهذا العيب^(٢) له أمثلة عند الكتاب المعاصرين، وإن الكتاب
يلجأ إلى مثل هذا العلم لما لتفسير حدث أو لتبرير ملاحظة، لأن الطريقة الشرقية
هي الطاغية في هذا الكتاب ويجب أن تغنى كما هو الحال في كتاب: الرحلة إلى
دارفور الذي نشر عام ١٨٤٥م بنفس ملاحظات البساطة والساذجة، إن تعاطف
الجمهور مع أحداث الكتاب جعلته يقبل لأول مرة لغة الشيخ الطيب محمد بن عمر
التونسي، واعتقد بأننا استطعنا أن نحافظ على كتابه دون تزوير وأننا لم نغير
ماورد فيه من تقاليد شرقية، وحتى في الحالات التي تبدو ضد الذوق السليم، ولكن
إيمان الرحالة وسلامة نيته قد جعلت له رضى القارئ الأوربي، فسلامة النية هذه

^(١) مقدم الكتاب للمصنف رحمه الله عليه، وهو يحتاج قلم أوربي، وهو حديث هو صاحب، ومتفق مع داسل وفي ذكره بأنه
كتاب مكرر ووحيد، لكن ربما اختلف معه في التهجئة، فإن متبع الكتب في الشرق اعترف عن متابع العرب الأوربي وهذا المصنف
طبع في الأصل من قبل الكتاب الذي يترجمه من الأوربي الأوسط ولم يجل من الكتاب الأوربي الذي رادوا التفتت
إلى اللغة والشعرية التي كتبها القلم نفسه.

^(٢) كثرة الاستدلال بالشعر ليس بالأمر المستغرب، في كتابه التاريخ، خاصة في الأدب ما رواه بغير مصدر أو مذهب للتاريخ، وإنما ذلك
والجزم في ترميز الإسلام، أنه كان مدعياً من أن سليل بلقيس من جد من شربة الذي روى له الأصغر بأن ياتيه بالانحسار
الذي وردت في الأحكام المأثورة: ما كنت أذكر من شعر لطفه فيما قاله أحد الإلهام، وكان مدعياً بمتنح بالشعر وأحياناً بغير
الشعر هو الأصل على صدر الخبر، المأثورة: "وأينك لقد أثبتت وذكرت عملاً من حديثك من هذه، وقد علمت أن الشعر ليس
العرب والأهل على أحسنها وأفضلها، والحاكم بهم في المنفعة، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كان من الشعر
الحكمة." مقرر: د. حسن نصر، نقلاً عن كتابه العربية، ص ١٨١٧.

ليست موضع شك وإن كنا أحياناً يمكن أن نشك فيها وهذا مثال لذلك: فمثلاً رواية الشيخ عن غزوة السلطان صابون ضد الزاني ومرتكب المحارم سلطان باقرمي، هذه يمكن أن ترفض ويشك فيها، ولكن الرحالة الانجليزي كلابرتون قد احضر الى انجلترا مخطوطة عربية تكلمت في جزء منها عن (باقرمي) أو (باقرمي) وقرأنا في هذه المخطوطة ان هذا البلد قد افلس تماماً، لان سلطاناه تحلل عن العادات الى ابعد درجة الى ان تزوج بابنته، عندئذ أرسل الله صابون أمير وداي لتعليمه وسلب بلده عقاباً له على هذا الكفر، والشيء المؤكد أن الشيخ لا يعرف مراسلات كلابرتون، ولا كلابرتون يعرف رحلة الشيخ التونسي.

وهناك أيضاً مراسلات الأمير جعفر التي أوردت هذا الحدث، وكذلك

بوشارو.

اقول كلمة عن اللوحات التي حواها هذا الكتاب: كان هناك شك يدور من قبل حول خريطة بيرون التقريبية، وهناك الصور الكثيرة التي ذكرت في الكتاب عن أشخاص من وسط افريقيا هذه الصور رسمت من الطبيعة، وقد رسمها فلان ذكي، فرنسي الجنسية يدعى السيد ماشيرو، وكان لابد أن يقدموا امامه (وهذا ليس بالامر السهل) وهم أشخاص من وداي، ومن برنو، ومن مندررا، ممن كانوا وقتئذ موجودين بالقاهرة، وقد لجأنا الى الحيل، وتدخل أيضاً السلطان ابومدين سلطان دارفور، وهؤلاء الأشخاص يجهلون مايفعل الرسام، ومن بين هؤلاء: الفقيه الهلكي، الذي اعطى بيرون معلومات مفصلة عن وداي، وإن رسومات الاسلحة والملابس التي قام بها نفس الفنان من خلال النماذج الاصلية التي قدمت له، ومما تجب معرفته انه كان من الطبيعي أن يحضر الى القاهرة رجال من وداي، ومن دارفور ومن باقرمي، ومن مندررا منهم من جاء للدراسة في الجامع الكبير الازهر، والآخرين في طريقهم الى الحج.

اما الخرائط فقد رسمت بناء على املاءات الشيخ، ومن خلال لمقاييس التي ذكرها، كل الامم اليوم تتجه بانظارها الى وسط افريقيا، فمثلاً فرنسا تمتلك الكثير من الابواب التي ستوصلها الى هناك قريباً اما انجلترا فلكن عزتها بالرحالة منذ

زمن بعيد، وكذلك الامر بالنسبة لبقية اوربا التى تنتظر الى مستقبل العلاقات التجارية ولتقدم علوم الملاحظة والرصد، كما أن ودائ بعد اكتشاف الطريق المباشر الى البحر أصبحت من النقاط القريبة جداً من السواحل الاوربية وكذلك برنو وباترمى، ومن البديهي انه كان لودائ اهمية خاصة وإن اوائل الرحلة الذين دخلوها وتعدها كانوا ينتقلون من اكتشاف الى اكتشاف، فهناك مثلاً الكثير من العلامات المدهشة، وكانت لهم اكتشافات مهمة بالنسبة لعلم الاجناس الجغرافى واللغويات.

وقد لاحظنا أخيراً وجود شعب اسود بدائى يملك حروفاً وكتابة خاصة به، وهو بلد موبى، وقد كتب لغتها السيد نورى الذى حلها من ناحية القواعد وتبين أنها بنيت بانتظام اذا حكمنا عليها من خلال عينة ذكرها السيد فورب، هذا البلد له مدارس وكتب أيضاً، وقد وجدت فى وثيقة قديمة وهى عبارة عن اطلال انجلىزى.. خريطة لاقيقيا مع خرافة تدعو للفضول من اربعة أسطر ترجمتها الحرفية كالتالى:-

لقد علمت من أناس مؤمنين، قالوا إن البلد الذى يقع شمال ساحل غانا على بعد حوالى مائة فرسخ تقريباً، هذا البلد مسكون بالببيض، او على الأقل سكان يختلفون عن السود، وانهم يلبسون الملابس، ويكتبون ويصنعون الحريز، وكثير منهم يحتفلون بيوم سبات المسيحى (الاحد) ومؤلف الخريطة لم يذكر مصدر هذه المعلومات لكن من الفضول ان نلاحظ ماينتجون فى بدايات هذه الحضارة وقد مر عليها قرنان فى مثل هذا الطقس، ان هذا العمل الفردى يبدو قد تلاثى تماماً عن الانتظار، ولهذا السبب تخيلت بأنه جنير بلن افكره هذا، ولكن كم من المشاكل انارت الفضول والبحث عن مستكشفين جدد، انه عالم افضل من العلماء القمساء فى علم الاجناس الجغرافى، ولهذا ارسلت اوربا المهمة اليوم بالعلم الى افريقيا جهة اعلى النيل العالم المحترم كنوبليشر على خطى مواطننا الفرنسى السيد ارنو وفى نفس الوقت ارسلت اوربا علماء الطبيعة مثل بارون ملر الى الشرق والجنوب وكراين وريغية وليفتون واوسول الى الشمال، والسيد الدكتور

ريشاردسون واعوانه وكثيرين ذهبوا بعده الى الجزائر والسنغال وناميبيا.. وغير ذلك.

ان النهضة الصناعية في اوربا اليوم قد جرفت معها كل انواع التقدم ووسائل الحضارة، وكان من المستحيل الا يحدث تغيير مستقبلي لأفريقيا خاصة العبودية وتجارة الرقيق الداخلية، ان محبى الحروب وصيدى البشر سيصبحون مع مرور الوقت اما رؤساء للقوافل التجارية واما تجاراً هائنين، وهكذا قيل اذا عرف الافارقة ماتحويه ارضهم من كنوز غير نافذة، وانها قريبة من اوربا عشرات المرات من المستعمرات فى اسيا ومستعمرات العالم الجديد، فانهم سيجهزون لبيعوا لنا منتجاتهم وليس سكانهم وستصبح كل من: طرابلس وتونس واخيراً المغرب مثل مصر والجزائر بوابات من خلالها تستهلك صناعاتنا ويتم تبادلها مع المنتجات او المواد الغنية التى تملكها افريقيا، هذه الثورة لابد منها وكل يوم يقترب وقتها، ومصر التى تحررت نوعاً ما قد تكون مثالا لبقى افريقيا، وستقل مرور العبيد من خلال وادى النيل من منبعه الى مصبه، أى فى خط طول ١٢٠٠ فرسخ وهذه التجارة الكريهة لاتجد طريقها الى تركيا او فارس او الهند، ومنذ زمن بعيد احتلت القوافل الا تحمل من شواطئ النيل شيئا سوى ثروات الارض وبالتالي ستربح افريقيا اكثر مما تخسر، وستكتسب مصر قوة جديدة، وهذا هو الموضوع الذى انتقد فيه سيد مصر الذى عرف بذكائه التجاري، وقد قصد تقريباً ان يحتفظ بعلاقات جيدة مع اهل دينه، ويهنىء لبراطوريته التى يعدها فى نفس الوقت بتنمية كبيرة فى الجيش والبحرية، وكان السياسة والدين طلبا منه هذه التضحية الروتينية، انه خطأ كبير جداً لايفلت منه أحياناً حتى الرجال العظام، وهنا فان عبقرية محمد على تركته ولم يقم بتحجيم هذه التجارة الحزينة الا مؤخراً (تجارة العبيد) انه لم يستطع انهاء هذه التجارة ولكنه غيرها، فقد قدم الى مصر أمير نكي لقط فى مصالحه، وكان متأكداً من مساندة فرنسا وانجلترا له، ولحسن الحظ انه كان موافقاً لهذه المسألة وقد نجح بدون صعوبة وكان تدخل تركيا لتعطيل هذه التغييرات دون فائدة حيث بدا واضحاً منذ نصف قرن تأثير وقوة السلطان

على الساحل الاقربى وعلى ضفاف النيل حيث اخذت هذه التجارة فى التدنى
باستمرار الا فى طرابلس فاتها ظلت تحتفظ على طول خط الاستواء بعلاقات
حقيقية ذات طابع استعماري.

ان الاحتلال الحالى لسواكن ومصوع فى الحبشة لا يتصور الاسبب احتلال
الجزيرة العربية التى تقع فى واجهة هذه المدن، ولكن هل حقاً اخضعت الجزيرة
للاستعمار؟ ان النار التى اوقدها الوهابيون من قبل لا تنتظر الا شرارة لتشتعل من
جديد، و ابراهيم باشا موجوداً لاطفائها.

جوماً،،،

ملاحظة حول كتاب (تاريخ جعفر)

حتى يتمكن القارئ من القيام بمقارنة بين مراسلات الشيخ ومراسلات

الامير جعفر، ذكرت هنا بعض الفقرات لمراسلات الامير جعفر:

ان ودای مملكة وراثية مدى الحياة، ويقول جعفر إنه الابن الحادى عشر لرجل ابيض، وان عمه نصب على عرش باقرمى عن طريق السلطان صلابون بعد طرد سلطان هذه المملكة عام ١٨٠٤م بسبب حياته الاباحية، وانه توجد فى باقرمى بحيرة دائنة يمكن الدوران حولها خلال خمسة عشر يوماً، ان باقرمى مثل ودای فيها الجبال واليهضاب والوديان الكبيرة والصغيرة، ومناخها حار جداً وفى نهاية الصيف تهطل امطار غزيرة.

وفى باقرمى انواع مختلفة من الفواكه ويوجد فيها البن بكميات كبيرة وبشكل سلعة تصديرية، وليس فيها المناجم والذهب والاحجار الكريمة، وتعتمد تجارة باقرمى على الرقيق بشكل اساسى، وكذلك من الفيل وريش النعام، ويتغذى شعبها بالارز او الدخن، وكذلك لحوم الحيوانات الاليفة والسك، بالاضافة الى المنتجات الوفيرة حول البحيرات والوديان.

وتظهر على ارضها الزراعة وفرس النهر ولكن لا يوجد فيها التماسيح، اما العساكر ففيها اعداد كبيرة وهم مسلحون بالاقواس والحراب والخرق المصنوعة من جلد الجاموس، او من جلد فرس النهر، ويحمل بعضهم السيوف والاسلحة النارية التى يحصلون عليها من طرابلس، ويوجد فى العاصمة لربع وحدات عسكرية، والقوة الاصلية هى الفرسان الذين يركبون على خيول ممتازة ذات اصل عربى.

ومدينة وارده بنيت بالتلوب المصنوع من الطين المجفف على الشمس ومساكنها ذات طابق واحد فقط ماعدا القصر والجامع الكبير اللذان بنيا بالحجر والصقالات، وحريم السلطان يحرسه عند من الرجال الخصيين، وتلك عائدات الدولة من الضرائب المفروضة على منتجات الارض، اما الاقاليم فتدفع للضرائب نقدية فى وارده وفى موعد محدد، وقيمة المبلغ تحدد بطريقة غريبة جداً، فقد كانوا

يعلقون الاموال على فرع شجرة ما حتى ينكسر هذا الفرع، وعندئذ يقولون: ان الاتاة كاملة.

والمحمديون كثيرون جداً، وهم الاغلب، والوثنيون ايضاً كثيرون وهناك ايضاً عباد النار، وبعض المسيحيين الاوليين، وهم سود، وهناك اخرون لونهم نحاسي، ويسكنون الجبل، وهذا اضافة لآخر المراسلات مايلي:

ان وجود قبيلة ليست مسلمة ولاوثنية ليس هو الشيء الملفت فقد سمعنا عدة مرات عن وجود مؤسسة مسيحية جنوب جبل كمرى في الداخل ويفترض بعض الناس بأن هؤلاء القوم مسيحيون لانه ليست لهم مساجد وان الترانيم تختلف عن التران جيراتهم، والبعض الآخر يعتقد بانهم يهود ينتمون الى قبيلة تشتت منذ زمن بعيد، على كل حال، فانه من المؤكد وجود اسرة معزولة في قلب افريقيا لها عادات مختلفة تماماً عن عادات الزنوج، وفيما يخص هذه النقطة نقدم هذا الجزء

من رسالة رسمية بتاريخ ٢٤ فبراير ١٨١٧م، حيث جاء فيها:

يجب أن اعرفكم ما علمته عن وجود قبائل مسيحية في قلب افريقيا، وكثيرون يعرفون بانهم جنس زنجى قوى جداً، ولكننى لم استطع اكتشاف أى ملاحظة تدل على ان لهم صفة دينية، صليب او أى شعار اخر، وعندما يأتون الى السوق فانهم يعتنقون الاسلام فوراً، وهناك الكاتب الفرنسى الذى مكث خمسة وعشرين عاماً فى خدمة باشا طرابلس حيث قال:

ان كثيراً من هؤلاء قد اختيروا من بين اكثر الناس جمالاً، وعندما وصلنا الى الميناء سمعنا على ظهر احدى السفن المسيحية لجراس المساء، وفي الحال عندما سمع هؤلاء النين كانوا فى الميناء، تلك الاجراس فرحوا، نالوا رفاقهم وسلموا عليهم بالاحضان، حيث وصفوا لهم تلك السفينة التى أتت منها تلك الاصوات وردوا كلمة: (كمنائى) وهى كلمة محرفة من الايطالية، وعندما سألتهم المترجم قالوا: ان فى مدينتهم الاصلية يوجد مبنى كبير دون صنم او برش او كنية وفى هذا المبنى كانوا يستمعون الى نصيح الراهب.

وهناك شيء آخر يدعو الى الفضول، وهو أن آخر بيه لبنازي كان قد
احضر في شبابه كعبد، قال انه يتذكر احتفالات في بلاده تشبه الصلوات المسيحية
وكانوا يستعملون النبيذ المقدس.. ان عدم الختان بالاضافة الى استخدام الاجراس
والنبيذ كل ذلك يؤكد بأن الاسلام لم يكن يسيطر على هذا البلد، ويبدو لى من
خلال هذه المراسلات المختلفة انه في الوقت الذي فكر فيه الرحالة الجند الدخول
الى قلب القارة حتى يقتربوا من اماكن الحدث الذي اخذته من اسطورة خريطة
هيرمان فول، يبدو ان هذا الحدث قد اتمل تماماً في ذلك الوقت.

الفصل الأول

في سبب امر خالي من دارفور الى وداي

اعلم اني بعد ذهاب والدي من دارفور اقميت سبع سنين وكسور وكنت في تلك المدة اجوس خلالها ولقيتاً ظلالها، واجول في بلدانها، واعاشر سكانها، فكنت مطوراً بمشرقها، ومطوراً بمغربها، ومطوراً بصعيدها، واخر بمهب شمالها، على حد قول الشاعر:

يوماً بجروي و يوماً بالعتيق وبال
عذيب يوماً و يوماً بالخليص^(١)

ومع ذلك ما دخلت بلدة الا واجتمعت على كبرائها، ولا ولجت قرية الا ناديت علماءها، استقصي منهم اعمال قل وجل، واستمطر الويل والطل، لتبهر الفرص ولا ادع في قلبي محلاً للقصص، حتى عرفت قليلها وجليلها، ومأمورها واميرها، ولما اتممت عرفان ماكان مجهولاً، ونلت من كل ما طلبته مأمولاً، توجهت امالي للاستقرار، واكتسب الدرهم والدينار، فبينما انا قار في مكاني راض بما الله اعطاني، منهمك في طلب معاشي، مقبل على كل امر فيه ارتياشي، اذ جاءني من والدي كتاب فيه بعد السلام:

اني لريد ان توجه الي امي بتونس، ولريد ان لا اخلف وراء ظهري أحداً ممن له علة بي، فاذا اناك كتابي هذا فمجل لنا بالقنوم، ليكون الشمل بسلوككم منظوم، واياك ان تترك احداً من العيال، وليكن ذلك من غير امهال، والسلام. فحين عرفت مضمونه انتزعت للسفر، وتأهيت في ايام يسيرة، ولم اتر مايجري به القدر، وخرجت من البلدة التي انا فيها بجميع ما عندي من العيال، وتوجهت الى الفاشر لآخذ الان في السفر، الذي استقر عليه الحال، فحال حلولي بفاشر السلطان، بلغني ان السلطان محمد عبدالكريم سلطان وداي، غزا قبيلة

^(١) بلال هنا استلزم كل من العيال، كما هو حال هذا الشاعر الذي اتمه يوماً بالعتيق وآخر في عذيب، وذلك بالخدمة، وهو في ماضي ضاعف.

التاما^(١)، وهي قبيلة عظيمة لها حاكم مخصوص بها، يسمى سلطاناً كما تقدم ذلك، وأرضهم كلها جبال، وهي (أي قبيلة التاما) من رعايا الفور، فأرجف بدارفور أن السلطان المذكور غير مقتصر على قبيلة التاما بل يريد اخذ مملكة الفور أيضاً، وسمع السلطان محمد فضل ذلك^(٢)، فرجف فزاده وطار رقاده، وأظهر آلات السفر والمحاربة، ونوه على الرحيل في أيام متقاربة، فلما استقر بي الحال، دخلت عليه لاستأذنه في السفر إلى والدي كما أمر، فعبس وتولى، واستقر^(٣) بشره الذي كان لاهل المجلس تحلى، وقال: عجباً لأبيك وأفعاله وما يبدو لدينا من أعماله، أيفظن لنا لاستئتمر بما أضمره ويخفى علينا الأمر الذي دبره، يريد أن يأخذك عنده، ويريح فزاده إلا لما يعلم أن سلطانه قائم علينا، ولن جيشه عن قريب واصل لنا، فأراك بأخذك نجاتك من قسطل المحاربة، ومن وقع السيوف وقت المضاربة، ونحن لاندعك أن تتوجه إليه، فلا نطمع بأن تقربك عيني، ثم أمر الشيخ عبدالله نكسا، الاحتفاظ على، حتى ينفصل الحال، والشيخ عبدالله نكسا هو الاب^(٤) (شيخ)

(١) التاما: قبيلة عربية مؤثرة في أحداث السودان الأوسط، وتقع في ناحية غرب دار فور على الحدود بين وادي ودارفور، وكانت دائماً حرة وصل بين المولى، ولكنها كانت تابعة لدولة الفور، ولها نظامها الإداري الخاص لها، وتقع حرة سوية دارفور وطراً لمولها الأمير يحيى كانت كثيرة الدواج مع المولى الفخورة لها خمسة الفسائل ووداد.

مطر: Macmichael, H. A. Nubian elements in Darfer. S. N. R. (١٩١٨). P ٨٥.

(٢) السلطان محمد فضل: هو ابن السلطان عبدالرحمن الرشيد، وكان أكبر أولاده حين أمدته الحياة، فلهذا الاب شيخ والمجلسه مسائل المولى السطة، تولى سطة واسعة بعد أن مهد له أبوه البلاد، وأصبح له العار، فصار على فتح أبيه من القوة، فنهض مصره حروباً مع الدول المجاورة خاصة وادي، واستطاع أن يسيطر على دولة الفور ويوطد علاقته مع الخارج، وكان الشيخ محمد بن عمر الشولسي أحد شهود العهد لدولة. مطر نسخة الإلهام من ١٢٩.

(٣) في الأصل: واستمر مطر.

(٤) الاب شيخ: هو منصب رفيع في دولة الفور، في عصر نجم الدين وأندعا حطراً عديم، فهو الرجل الثاني بعد السلطان، وهو فورر الامتياز، أي رئيس الوزراء، والملك العام للمعشر، فضلاً عن حكمه لأحدى ولايات دارفور الأربع، والتصرف في دولة الفور إلا بقول منصب الاب شيخ الامد حصى وفي تولاه محمد كرا في عهد السلطان عبدالرحمن الرشيد، وهو من الأوصياء، وصت ذلك بذال في عهد كرا في الحق نرس السلطان برب وأصبح متبرفاً على تربة تولاده ومصافه الحكمة، وبمسائل أنه حصى عنه يده لدهج من عنه كمة حياة حرة، فخلقه السلطان خمسة أحد الوزراء فندى مهاراة صالحة في عنه فكان ذلك أهله في اندخل في شئون السلطة لعلها حتى تمكن من مساهمة السلطان عبدالرحمن الرشيد في الوصول إلى كرسى السلطة بعد وفاة أبيه السلطان برب، فبني في منصب الاب شيخ، فبني حرة في الأصل إلى هذه المذكورة أصبح الاب شيخ وهو المرشح في عصر قانون مالي، وهو القانون الذي تمكّم به ملاطون الفور دولتهم.

مطر: العم خلدو، تاريخ السودان ومصر، ج ٣، ص ١٣٦ - نسخة الإلهام، من ١٢٩، ص ٨.

الذي ولي عوضاً عن الشيخ محمد كراء، الذي أسلفنا ذكره^(١)، فإخني الشيخ
عبدالله، ووضعني أنا ومن معي في دار امام داره ووكل بحراستي عشرة أنفار من
أتباعه فجاءوا بحذائيرهم، وجلسوا على باب الدار، وفي مسقيفتها، ومنعوني
الخروج من باب الدار وكثروا بالليل يتأربون الحراسة على التعاقب، اثنين اثنين،
لكن كانوا لا يمنعون اتباعي من الخروج لقضاء شئوني، فلما رأيت ذلك داخلني من
الغم ما الله به عليم، وبقيت في زاد من الفكر أهيم، لكن صانعت كبيرهم بالاحسان،
وصرت ادعوه لطعامي واجعله في كل رأي أمامي، ومن لطف الله تعالى كان في
طبعه رقة، فلاطفني وصار يقوم لقيامي، ويسرع بقضاء مرامي، وبقيت على تلك
الحال حتى نفذ زادي، وقل اعتدادي، فطلبت ان ارسل الي اقطاعي واني بشيء
منها يكون به استمتاعي، فمنعت ذلك، وكان ما عني هو انقيته مالك، فخلقت أبيع
من رقيقتي، فتكر لي كل منهم بعد ان كان رقيقتي، فتحيلت إذ ذاك احدي الجواني
وفرت، ولم ادر في اي محل استقرت، فأردت الخروج نهراً للبحث عنها^(٢)،
فمنعت منه جهاراً، وقيل لي: إن في خروجك بالنهار عصيائاً لأمر السلطان، وإن
بلغه {الأعلن}^(٣) منا الانتقام لهذا الشأن، فاصبر الي ان يجن البهيم، وينقطع التهويم،
وأذهب معك حيث تريد، وما انا لك الا كأحد العبيد، فأصغيت^(٤) لقوله الجميل،
وصبرت حتى جن الليل، فخرجت وتبعني هو وواحد من أتباعه، فتوجهت الي دار
انقيته مالك، واخبرته بفرار الجارية، وإن سموعي علي فقدما جارية، فتأسف علي
حالي في الظاهر، وأعد خروجي في الليل من الماكر، وقال:

أعلم يا ولدي إن مولانا السلطان شديد الغيظ علي أبيك، وإن علم بخروجك
ربما يؤذيك، فإن حدث لك بعد هذا أمر مهم ارسل الي وأنا أسي فيه بجهدتي،
فقلت له: كيف أصنع في هذه القضية التي دهنتي بكل بلية، فقال: كن خالي البال،
معلمن الحال، ولنا ارسل الي كل الجهات، وأسأل عن جاريك كاملة انصفات،

^(١) مارة: القضاة المذكورة بنصفها ما ورد ذكره في كتابي نسخة الادب.

^(٢) في الأصل: تلحت عليها واحمراب: جهاد.

^(٣) في الأصل: وإن الله لا يمان من الانتقام.

^(٤) في الأصل: لمعت.

قلت: يا مولاي قد فني زادي، وكثر لفنائه سهادي، وبعثت إحدي^(١) الجوارى لأقوت بثمرها الزراري، فهلا تستأنن لي حضرة المشار إليه في إتيان شيء من الغلال، يحسن لي به الحال، فقال: لك عليّ ذلك، ورب هذا الليل الحالك، فخرجت من عنده مغتبطاً بمقاله، شاكراً لأفضاله، وتوجهت إليّ داري، فمكثت مدة لم يظهر لما قاله أثر، ولا جاني عن الجارية ولا عن الآنن بمجيء الغلال خبر، فعرفت أن الأمر مموء عليّ، وأن كل ما قلته أمامي لا يغني شيئاً، فكتبت له ورقة فيها بعد ما يليق بمقام والذي العزيز، أن الانتظار يرث الاصفار، وأن من علامة الإيمان الوفاء بوعد اللسان، وقد صبرت أمداً طويلاً، ولم أر من إنجاز الوعد كثيراً أو قليلاً وقد قال تعالى في الكتاب المكنون:

• يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون^(٢) •

واعلم مولاي أنني صرت صفر اليدين من الغلة والعين، وقد نفذ ثمن الجارية التي بعناها، والأمر محتاج إليّ الأقوات التي القلب^(٣) أوامداً، فالمزمل من مولاي أن يبرد حر الأكباب، برد الجواب، وأرسلته صحبة أحد الحراس^(٤)، فغاب ملياً وحضر وأخرج لي جواباً فيه بعد التحية: أن المال لا ينخر إلا لمل هذا الحال، وقد طلبنا من حضرة السلطان إطلاقك^(٥)، فهاج غضبه وأوري ليهبه، ولم يرد لي جواباً شافياً، فأصبر حتى يحكم الله بأمره، وهو خير الحاكمين، ولولا لك من أهل البيت المكرمين، لكان الأمر عليّ غير ذلك والسلام.

فلما قرأته وفهمت ما حواه، زاد لهيب القلب وجواه، فصبرت عليّ مضض، لعدم قضاء الغرض، وبعد ذلك بأيام، أبق مني جاريتان وغلّام، فنمست عليّ إياق الرقيق، وصلبت بآبائهم نار الحريق، وقطعت الرسائل بيني وبين النقيه مالك، ولم أعلمه بشيء من ذلك، وحينئذ لم يبق عندي إلا جارية عوراء ومسريرة

^(١) في الأصل: أحد الجوارى.

^(٢) سورة الصافات الآية (٢١).

^(٣) في الأصل: من القلوب لوعاء.

^(٤) في الأصل: أحد الحراسين.

^(٥) في الأصل: مطلق بك والصواب: مطلقته.

لعمري، وأخري لي، وعشرين سدايين، فما راعني أن أصبحت فلم أجد سريري، فقامت لذلك قيامتي، فصرت كالطائر الذي لا يجد موطئاً من ضيق الأتفاص فدعوت رئيس^(١) الحرس، وأعلمته بما حدث، فتحزن وتحمر، وتلهف وتضجر، وسألني ببعض الكلام حتى أسمى السماء، فخرجت معه قاصداً دار الفقيه مالك المذكور، لآحكي له ما وقع من الأمور، وبينما أنا وإياه سائرين، إذ دهشنا كبة من الخيل، وكان السلطان في تلك المدة يطوف بالليل بنفسه، ويتولى الحرس خوفاً من الجواسيس والنفلاء^(٢)، بل كلما وجد انساناً مجهولاً قتله، فقتل اناساً كثيرين علي ذلك الحال، لأن إذ ذاك السلطان محمد عبد الكريم لم يرجع إلي بلاده، فقال أحد الفرسان: من انتم، فقلت أنا الشريف محمد بن الشريف عمر التونسي، فقال لي: كف مكانك، حتي يأتي سيدنا، فوقفت، فتلاحقت الخيل وأحاطت^(٣) بي، وصاحبي كان حين سمع بوقع حوافر الخيل فرّ كما يفر الطير، وبعد هزيمة جاء السلطان، ومن لعطف الله تعالى أن جاء معه أحد وزرائه، وكان من أحبائي، وأخلص أصحابي، يقال له الملك سليمان تير، فوقف السلطان، وقال: من هذا، فقال له الفارس الأول وكان يعرفني: هذا الرجل الذي أبوه في دار برقو، فقال لي السلطان: يا هذا، ما الذي أخرجك في هذه الساعة، فشكوت له حالي وضيق رقبتي ومالي، وأسناني تصتت من الفزع، فقال: أليس قد وكلنا بك جماعة من الحراس، فقلت نعم، ومنهم جاهني الضر والبأس، لأنهم يمنعونني الخروج، ولا يمنعون رقبتي، حتي لم يبق لي منهم أحد، واني تحيلت علي الخروج في هذه الساعة، لأذهب إلي دار الفقيه مالك، وأخبره بما وقع لي من الضنك والمهالك لعله يخبر مولانا، أما أن يمن باطلاقي، أو يأمر بقتلي، فإنه خير من إيقائي علي هذه الحالة، فقال السلطان: ولم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، انه قد نفذ زادي، ونفسي اعتدادي، وفرت جواربي، وبقيت أليماً لا أنوق طعاماً، ولقد أصابني من الجوع ما

^(١) في الأصل: دعوت رئيس الحرس....

^(٢) في الأصل: "نفلاء".

^(٣) في الأصل: "استطارت".

منعني الهجوع حتى اتني لاضطراري اختلست حفة من عقيق حمار جلاري،
واكلتها كما تاكل الدواب، وقد لصقت يدي بالتراب، فحينئذ تقدم الملك سليمان تير،
وقبل ركبة الملك، وقال: أعز الله مولانا، إن هذا الرجل مظلوم، وهو هنا الآن
وقدره لديك معلوم، وعادة أبائك كمادة سعادتك، اكرام الأشراف والتفكر إليهم بعين
الرحمة والاشفاق، فنتوسل الي سيدنا أن لا يؤاخذ به بئس أبيه، وإن يغمره
بالاحسان وللجميل يوليه، فلما سمع السلطان مقاله هزته أريحية الكرم، ونخوة
حسن المكارم والشميم، وقال: قد رفعنا عنك الحراس وأبحنا لك الاجتماع بالناس،
لكن لا نطلق لك المراح، إلا إن تحققتا أن ملك البرقو ترك الحرب وراح،
فاستبشرت بذهاب الأنكاد، وأملت أن اليسر قد عاد، فقلت أسأل مولانا أن يطلق
يدي لضيعتي لتكون منها معيشتي، فإنه لا ضرر بعد بؤس، ولا عطر بعد غرس،
حتى يأن لي مولاي بالرحيل، ولك عند الله الثواب الجزيل، فأجابني لمطلوبتي،
وأنتني القصي مرغوبي، وقال: قد أطلقنا يدك لصنيعتك، فرجعت وأنا فرح بما
حصل، مسرور بنيل الأمل، وكان من وقت ما رسم عليّ في تلك الليلة أكثر من
أربعة أشهر، فنكت إذ ذاك حلاوة الأمن، بعد مرارة الخوف والجزع، وقلت هذا
مصدق قوله صلى الله عليه وسلم:

” لو كان العسر في حجر صنّب لتبعه اليسر حتى يخرجه “^(١)

ومصدق قوله تعالى:

” فلن مع العسر يسرا “^(٢) ..

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ” لن يغلب عسر يسرين “^(٣)

ومن قبيل ما وقع لي من العسر ما حكى أن الشيخ الإمام الحافظ إيا حفص
ابن شاهين المحدث، كان في دكان رجل عطار في بغداد، وكان ذلك العطار يقرأ
على الشيخ جزء من الحديث، وبينما هو ذات يوم في الدكان المذكور إذ جاءه

(١) الحديث: رواه الطبراني، وفيه إمامي المعنى، وفي نسخة: مجمع الترويض ١٣٩/٢ .

(٢) سورة الانشراح، الآية ٦٥ .

(٣) أخرجه القرطبي في تفسيره (١٠٧/٢٠) رواه الحاكم في المستدرک من أسنن مرسلاً (٥٢/٢٠) .

رجل من الطوائف الذين يطوفون بالمعطريات في الأزقة، ومعه خمسة دراهم وطبق، وكان رجلاً مسناً، فقال للعطار: اعطني بهذه الدراهم أصنافاً من العطر مساها له، فأخذ العطار الدراهم ووضع له في الطبق من العطر ما يساوي الخمسة دراهم، فأخذها الرجل وانتقل من محله وأراد أن يذهب، فزلقت برجله وانكسب الطبق بما فيه على الأرض، فجزع الرجل جزعاً عظيماً، وصار يحثو التراب على رأسه، فلما رآه الشيخ على الحالة، رق له، وقال له: يا هذا، لاتجزع هكذا، واعلم بأن أمور الدنيا كلها أهون من ذلك، فقال له: يامولاي لقد علم الله تعالى أنني لست جازعاً على الخمسة دراهم، وإنما لأعلم أنها شيء يسير، ولقد كنت في القافلة الفلانية في السنة الفلانية وأنا أحد التجار، وضاع مني إذ ذاك همين^(١) فيه أربعة آلاف دينار، وفصوص بواقيت، وماس تساوي أربعة آلاف أيضاً، فماجزعت ولا هلت، وذلك لأنني أعلم أن عندي غيرها، ولكن يامولاي أني الآن في قل^(٢)، ولم يبق عندي من العين إلا هذه الخمسة دراهم، وقد ولد لي ليلة البارحة مولود، واحتجت أن أتى لأمه بما تحتاجه لنفسا^(٣)، وخفت أن اشتريت لها بهذه الدراهم أبقي بغير رأس مال، ولا أقدر على التكسب، فخطر ببالي أن أشتري بها عطراً، وأطوف به صدر النهار، لعلني أحفظ رأس مالي واستفضل منها شيئاً أمد به رmq لنفسا، فلما انكسب الطبق علمت أنه لايعني إلا الفرار، فجزعت لذلك، فقال الشيخ أبو حفص للعطار: أجمع له من الأرض من العطر ما تقدر على جمعه، وكمل له ما نقص، وأجرك على الله، فامتل العطار وجمع ما قدر على جمعه، وكمل له من عنده، وكان أمام دكان العطار، دكان آخر جالس عليه رجل من الجنود، وكان يسمع حكاية الطوائف فقام وقال للشيخ أبي حفص: يامولانا أريد من فضلك أن تشرف منزلي أنت وهذا الرجل الفقير، فقال الشيخ في سره لعله يريد أن يعطيه ما يمد به رmq لنفسا، ويعينه على حاله، فأخذه الشيخ وتوجه به إلى دار الجندي،

^(١) الهمين: شيء يخط به الخرد والاشياء الصغيرة.

^(٢) في قل: أي في حبس ونكر.

^(٣) لنفسا: أي لثمة من الثياب التي كانت عليها ولم يمتزج عمره إلا حين موتها.

متقاربتيين ويقطع الجلدۃ التي بينهما (ثم) يقطع كذلك كل حد أربعة او خمسة، ثم يضع القرن ويجنب الدم، وبعدهما يكتفى من اخذ الدم يقطع القرن، ولا يضغط على محله بيد، ولا بشيء اخر بل يضع في محل الجروح قطعاً، فيحبس الدم هنا ويجمد، ويبقى كالغدة وبهاتين الغدتين^(١) يفتخرون، ومن لا غدتين له، يسمى عندهم جبناً فيهن ولا يكرم، وهاتان الغدتان يقال لهما في عرفهم دومتان تشبهان لهما بالدم، الذي هو ثمر العقل، ويعيرون الأشراب، الذين لم يكن لهم عند مثلم، ويقولون هذا من الجبن والخوف، ولو كانوا شجعاناً لكنت لهم دومت، لأنهم يعتقدون ان الشجاعة انحصرت فيهم، وان شجاعة غيرهم مسمها بلغت^(٢) فهي بالنسبة لهم كلا شيء وكلهم عاربوا^(٣) الرؤوس كما ذكرنا الا كبيرهم، فعلى رأسه عريقة سوداء، وعلى كتفه ملاءة تدعى عندهم بالملحفة، فنزلوا عن خيولهم بعيداً عنا، ودعونا فسرنا اليهم، فقال كبيرهم: ان العقيد^(٤) يسلم عليكم، فحيينا، ودعونا له والسلطان، ثم قال لنا: من أنتم، وماذا تريدون، فقلنا له كما قلنا أولاً، فدعانا وكتب لسماعنا فرداً فرداً، وكم مع كل انسان منا من جمل، وما بضاعته وما اسمه، وما قبيلته، وما حاجته، ثم قال لنا: قتلوا وبعد القيلة ارحلوا بنا الى دار العقيد، فقلنا له: سمعاً وطاعة، فقلنا وأكلنا وشربنا ونمنا، حتى انبسط الخلل، وانكسر حر الشمس، فأمرونا بالتحميل، فحملنا، وركبوا خيولهم واحاطوا بنا، وسرنا سيراً حثيثاً فدخلنا البلد التي فيها العقيد آخر النهار، قبل غروب الشمس بقليل، فدخلونا في دار العقيد، فوجدنا داراً في وسطها بطحاً واسعة، تقرب من رميلة القاهرة فلأشاروا لنا على جهة منها، فدخلنا المعلى فيها، وبعد أن رتبنا ما يلزمنا ترتيبه دعونا فقمنا جميعاً فدخلونا وسط الدار، واجلسونا بازاء ستارة، سائر من المرحيب، وخرج لنا رجل وقال: ان العقيد يسلم عليكم، فرددنا السلام، فقال لنا العقيد من وراء الستار: من أنتم؟ وماذا تريدون؟ ومن أين آبلتم؟ وما معكم من البضائع؟ فقلنا له ما قلناه

^(١) والاصل: وهاتين الغدتين.

^(٢) والاصل: وان شجاعة غيرهم وان بلغت....

^(٣) والاصل: عاربون الرؤوس....

^(٤) العقيد: هو حاكم الاقليم الشرقي من دولة الموحدين كما هو مع في هذا الكتاب....

وقل (له) يخرج في هذه الساعة بعض الثواني يتجسسون الاخبار، ولرسل فرساناً يذهبون الى اطراف البلاد، وينظرون ما حدث، ويأتون بالاخبار، فقل الوزير: سمعاً وطاعة، وذهب الى قائد البحر وامره باخراج احدى الثواني^(١) كما امر الملك، واخرج فرساناً كذلك، فاخرج قائد البحر احدى الثواني وشحنها بالرجال فجرفوا بالمجاديف، وساروا ملجحين^(٢)، فلما ابتعدوا عن الساحل سمعوا انسائاً ينادى يا غياث المستغيثين يا غياث المستغيثين ثلاث مرات، فنادوه ليبيك ليبيك، ويمموا نحوه وتركوه، واذا هو رجل في اخر رمق، فأخرجوه من البحر ومالوه عن حاله فقال: انا كنت في سفينة وقد اتكمرت وتمزق شمل أهلها ما بين غريق وناج ولى ثلاثة ايام ولنا اسبح، ولو لم تتركوني في هذه الساعة لهلكت، فآخذوه ورجعوا من حيث اتوا، فلما اصبح قائد البحر وجد السفينة والرجال الذين ارسلهم، فسألهم لم لم يذهبوا؟ فحكوا له القصة واروه الرجل الذي وجدوه، فقص عليه قصته، فقال السلطان: سبحان من لرقنى لغريق في البحر حتى انجاه من ظلمات ثلاث: ظلمة الليل وظلمة الوحدة وظلمة البحر، فسبحان القادر على كل شيء.

قال الشاعر:

إن الأمور اذا التوت وقعت
نزل النضا من الكريم فعلها

فاصبر لها فاعلها واعلها
ولعل من عند الأمور فعلها

ولنرجع الى ما كنا بصدد، فبت ليلتي ولنا في غاية من السرور، ولما أصبح الصباح جأنا فلقناوى^(٣) من طرف الاب شيخ عبدالله كسا، واخذ الحراس بأجمعهم، كفانا الله همهم، وفي ضحى ذلك النهار توجهت الى دار تفتيته مالك وأعلمته بما حصل، فأظهر الفرح والاستبشار، وإن كان في قلبه المقيم المقعد من

^(١) في الأصل: أحد الثواني وهو خطأ والصواب احدى.

^(٢) ملجحين أى سارين نحو قوة البحر ووسطه.

^(٣) لقناوى: لغة القراء، وجمعه لقناوة، ولقنوم القناوة عادة لغة القناوى ومما رآه كما يلزمون معلى الرحمة ومصلحة القناوى في القصر.

متر: نسخة الادعاء من ١٥٤.

حر النار، ثم انى أرسلت انى ضيعتى وقوت عائلتى ومكنت فى الفاشر حتى توالت
الأمطار بصحبها المدرار، فامرت بالرجوع الى أبى الجدول^(١)، وأن اقيم بسبها ولا
أحول، فارتحلت على الفور اليها، واقمت بين أظهر أهلها، واكثرت من زرع
الحبوب لاسيما الدخن المرغوب، فنشأ زرعى على احسن حال، حتى تفاعل لى
الناس بحسن الحال، ولازال كذلك حتى امتلأ سنبله حباً، ومالت قلوب الناس اليه
حباً، وقبل ايان حصاده بقليل، قدم على من ملوك الفور ملك جليل والزمنى أن
اصاحبه فى سفره، واكون جليسه فى حضره، ووعدنى بكل جميل ان وافقته على
ذلك، فارتحلت معه من أبى الجدول رغبة فى رفقده، وطمعاً فى الجزاء وعده،
فمرت معه مسيرة يوم، وبت معه فى بلدة له فيها اصهار، فمنعوه الذهاب وضيوفه
ضياقة حسنة، وهو يلاطفنى ويحيينى، واذا دعوته^(٢) يلبينى، وبينما انا احسن معه
حالى، بالبيان الحالى، اذ وصل اليها أحد رسل السلطان المدعوين بالفلانة فى تلك
الاولطان، فحيى الملك ومن حضر، وقال: أيكم ابن الشريف عمر؟ فقلت له أنا
ذلك، جعلت فداك، فقال: إن السلطان يدعوك اليه، لتشرف بالمثل بين يديه،
فأجبت بالسمع والطاعة، وجزعت حتى ظهر اثر الجزع للملك والجماعة، فقال
لى: لم هذا الجزع والخوف والفرع؟ فقلت لانى لا أعلم لماذا يدعونى فقال: دع
حك هذا التوسواس، فما عليك فى هذا الطلب من بأس.

وعلى ذكر لفظ ما عليك من بأس تذكرت حكاية وقعت من بعض الملوك
وصورتها أنه كان له نديم ينادمه على الشراب، وكان له على الملك عادة، وهى
أنه كلما نادمه ليلة يعطيه جائزة، فوقع أنه نادمه فى احدى الليالى ولم يجره بشيء،
ثم انقضى المجلس وذهب الى داره، فقامت اليه زوجته فلم تر معه شيئاً، فقالت
له: أين الجائزة؟ فقال لم يعطنى شيئاً، فقالت: أنا اعطيك، ثم دعت بجوارىها

(١) أو الجدول: معناه كبرى طبع صوت العاصف، وكانت روى القوافل تشتمل على هذا لرى بها وروى القوافل معناه حسنة
الم:

ونظر: تشبهه الانعام من ٢٠.

(٢) أو الاصل: (دونا دعوت).

فحضرن، وأعطت كل واحدة منهن خفاً، وهى الأخرى ونزلت فى ساحة قفاه^(١) وتبعنها فى ذلك حتى انضجته، ولما أصبح الصباح نوى الملك على الشرب، فأرسل للنديم يدعوه ليحضر المجلس فلم يقرر على الذهاب، لأن قفاه أصبح متورماً للغاية، فكتب للملك ما أصابه فى ليلته تلك، وكتب فى آخرها بيتين يقول فيهما شعراً:

وتراسلت بيض الأك كأنها الـ قصيق عند مجالس الاعراس

وتتابعت سود الحفاف كأنها ـ وقع المطارق من بدى الخاس

فلما وقف الملك على الرقعة والبيتين كاد أن يبك من الضحك، ودعا بالتقاضى ورمى له الرقعة، وقال له: أجب عن هذين البيتين، فأجاب عنهما بقوله:

فأصبر على أخلاهن ولا تكن ـ منخلتاً الابلخلق الناس

واعلم اذا اخلت عليك فانه ـ مانى وخوفك ساعة من داس

فأرسل إليه الملك البيتين وجائزة حسنة.. أمـ.

ومما يلحق بهذه الحكاية، ما وقع لأبى نواس، وهو أن الخليفة هارون الرشيد دعا بأحدى جواربيه، وقال لها انى معطيك لأبى نواس، وإياك أن تمكبيه من نفسك، بل كل ماطلب منك خذى الخف وانزلى فى ساحة قفاه، فقالت: سمعاً وطاعة، ثم دعا بأبى نواس وأعطاه الجارية، ففرح وأخذها وتوجه بها الى منزله، ولما كان الليل أراد فيها مايريد الرجل من أهله، فنزلت فى ساحة قفاه، فقال لها: ولم ذلك؟ فكانت لا تتكلم حتى ظن أبونواس أنها من البكم، وصارت كلما مد أبونواس يده اليها نزلت فى ساحة قفاه حتى انضجته، فأصبح متورماً فلما أصبح دعاه الخليفة، فلما مثل بين يديه، قال له: كيف كانت ليلتك يا أبانواس؟ قال: بخير يا أمير المؤمنين، إلا أن أمير المؤمنين عودها عادة قبيحة، يشير بذلك أنها كانت تفعل بالخليفة ذلك، فضحك عليه وقال له: وقبح ما أردت.

^(١) "نزلت فى ساحة قفاه: نزلت مرة على ظهره".

ولنرجع الى مانحن بصدد، فلما اطلوك^(١) الليل خرجت على نية قضاء الحاجة، وأمرت غلامى أن يسرج لى دابتي، ويخرجها ظاهر البلد، ويقف بها حتى آتية، ففعل، وغافلت القوم حتى ناموا، وخرجت وركبت دابتي وتوجهت أنا وغلامى وسرنا مجدين، فما أصبح الصباح الا وأنا بأبى الجدول، فدخلت الدار، فاخبرت بان التفقاوى كان بانتاً عندهم فى الليلة الماضية، فأخذت زادى ووصيت أهلى وركبت دابة أخرى، وخرجت وجديت فى المسير، ولم يقر لى قرار حتى دخلت القنائر وتوجهت الى دار الفقيه مالك، فاستأذنت فى الدخول عليه، فأتى لى، فلما حضرت مجلسه رحب بى وأحسن لقاءى، وقال لى: إن مولانا السلطان أطلق سراحك، وأطال للسفر باعث، وأجل لك ثمانية أيام لا غير، فارجع وأت بأهلك، واسرع كما يسرع الحظير، فقلت: إن لى زرعاً قرب حصاده، فهلا يمهلى مولاي حتى احصده، فقال: إن مولانا السلطان يريد أن يرسل الفقيه أحمد أبوسارة رسولاً الى سلطان الوداي، ومرسلأ معه هدية ويريد أن تكون فى صحبتته، فان أردت فجهز نفسك ومساقر، وإن أبيت فلا تطمع فى السفر بعدها، وتكون قد خالفت أباك، يمكنك بعد ذهاب الرسول المذكور، وأما ما تعنى من الزرع، فأمره يسير بالنسبة لما هو أمامك، وأنت امرؤ عاقل، فاختر لنفسك ما يحلو، فقلت له: أنا الولد وأنت الولد، فبرأيك أستدل، وبفيتك أستظل ولاغنى لى عن مشورتك، ولا أفعل الا ماأمرنى به والسلام.

فقال: يابنى لى نصحتك كما أمر الله، فاذا عزمتم فتوكل على الله واقطع الراى الآن أمامى، لأعلم ما اتفق عليه رأيك، وأخبر به حضرة مولانا السلطان، فقلت: يا مولاي على السفر قد أثبت عزمى خصوصاً بصحبة الفقيه أحمد أبى سارة، فانه منخلص الاخوان، بل هو كالوالد المشفوق، فقال: لئن فبادر لما انت عليه عزم، واسأل الله يتيك المكروه والمغارم، فخرجت من عنده وتوجهت الى أبى الجدول، وأخذت أهلى، وتركت جميع زرعى على سوقه، وقد أن نفاق سوقه، لكن جمعت أناساً كثيرين وأشبهتهم أنى قد وهبت الزرع لخادم لى كان يدعى عبدالله جراب،

^(١) اطلوك: لى انتصت قلت، واسمح سلكاً، فى مثلاً.

وأخذت أهلي وأرتحلتي، فلما وصلت الفاشر دخلت على الفقيه مالك، فأعطاني حال دخولي عليه منشوراً من السلطان فيه الاذن لي بالسفر، والتوصية علي لجميع العمال، خصوصاً لعمال الولاية الغربية، وأن يركب معنا بجيشه حتى نصل إلى المحل الذي نأمن على أنفسنا وعيالتنا، وقال لي: خذ المنشور ولرحل في هذه الساعة، وأترك الفقيه أحمد أبوسارة، فإنه في انتظارك في كيكابية^(١)، فقلت سمعاً وطاعة، وأخذت المنشور وودعته، وبت ليلتي، وأصبحت مرتحلاً، فوصلت كيكابية بعد يومين، ونزلت بسوق الشجاج، في بيت السيد أحمد الصغير، وهو ابن أخ السيد أحمد البدوي الذي كان اخذني من مصر، فاقمت عنده نحو ثلاثة عشر يوماً، حتى اجتمع^(٢) علينا الناس كثيرون، يريدون السفر إلى بلاد وداي ثم ارتحلنا إلى الولاية الغربية، وهي بلاد المساليط^(٣)، فسافرنا مدة خمسة أيام، ونزلنا على ملك الولاية الغربية في ماسمها فنزلنا عليه وأطلعناه على الأمر السلطاني الذي معي، ومع الفقيه أحمد أبوسارة، فبش وبش وأجاب بالسمع والطاعة، ووعنا أنه سيذهب معنا بجيش إلى محل الاطمئنان، كما وعد الله موسى ابن عمران^(٤)، فاستقلنا الميعاد، وخفنا على زائدنا من النفاد، فقال الحق أقول، وعنه لا أحول، لني في هذه المدة مشغول، ولا أقر فيها على تبليغكم المأمول، فإن رضيتم حباً وكرامة وإن أبيتم فبالسلامة، فقلنا له في الثروة والتحارب^(٥) فأبى، وعن مقصدنا

^(١) كيكابية اسم مركب من كلمتين "كي" - كلمة ومعناها لغة شعور الموالدروهم، وهي اسم مدينة كبيرة كانت منذ زمن التواري لغة بالسكك وبلغ على حد ٩٢ ميلاً غرب الفاشر، وهي سوق كبير لمعدات عظيم حل مرة، كانت مسرحاً لمعارك سلاطين الممور مع التواري خاصة في مصر السلطان أحمد بكر (١٦٨٢-١٧١٢) وكانت آخرها وأن انتصر لها سلطان دارفور على السودي والسن يوردها التواري في هذا الكتاب، ولأرأت كيكابية حتى اليوم من أهم مدن ولاية شمال دارفور.

^(٢) في الأصل "اجتمع"

^(٣) المساليط: أو المساليت: خليط من التروج والحرر والحرب يتكلمون لغة خاصة بهم، تبلغ مساحة بلادهم حوالي ٧٥٠٠ ميل مربع وتحدها من الغرب والغرب دار وداي وشلج، ومن الشمال دارفور ودار فاما، ومن الشرق الممور وهي قبيلة ذات تاريخ عريق معقل، وهي من أهم القبائل التي خاضت في الحرب ضد الاستعمار الفرنسي ١٨٧٠م ولومته في بلاد وداي بعد أن ضمت دولة الممور إلى كيان المساليت الممور، فاضع المساليت إلى دولة السودان في عام ١٩٢٠م بموجب اتفاقية لندن، ولحق بلادهم خمس ولاية غرب دارفور الآن.

مقرر: Macnichael: op cit pp ٥٨٠-٥٨٨. لتحميل الأدلة من ١٢٦ - طاق السودان - أحمد عبد الله آدم من ٣٠٩.

^(٤) رجع الله محمد وعنه موسى بن هرون بالذهب إلى مينا بعد ثلاثين يوماً، بغيرها موسى عتق.

^(٥) عبارة قلنا له في الثروة والتحارب: أي حاولنا حماه ولم نجده، كما هو من العمل القادر التحليل واللامعة شعر حقه.....

نبا^(١)، فلما رأيناه عزم على التصميم، وأبى إلا موعد الكليم، رضينا بما قال، وانتظرنا ما يزول إليه الحال، فلما تمت العدة شكونا له مالتينا من الشدة، فوعدنا بالرحيل بعد ثلاثة أيام، ولم ندر أنه كعقوب من اللئام، فمضت ثلاثة في ثلاثة فسنمنا المقام، وعزمنا على الرجوع إلى المقام، ولما رأى منا ذلك همهم ونمهم، وتأسف وتندم واعتذر بأعذار موجبة للقبول، وقال بعد ثلاثة نرحل والله المأمول فصبرنا له رغباً عننا، وبعد الثلاثة جئناه وقتلنا له؛ انجز حر ما وعد وسح خال إذا رعد^(٢)، فخرج بجيشه وجنده وأرتحل بنا مسيرة ثلاثة أيام كانت عندها كلها أحلام، ونزل في رابع النهار على بيت له في آخر إيلاته. أقام به أسبوعاً، يجمع في خيله ورجله، وقد طال علينا المطال، وخشينا تغير الحال، فوفدت عليه في تلك المدة وفود وأى وفود، حتى امتلأ السهل من كثرة الجنود، ولما رأى كثرة العساكر التي قمت عليه وكثافة الجند الذي صار بين يديه، اتن بالرحيل، وأمرنا بالتحميل، فارتحلنا ضحى من النهار، ودخلنا في وسط ذلك الجيش الجرار، فرأينا جيشاً عرمرماً، وجنداً كثيفاً متراماً، فدخلنا الخلاء الكائن بين الدارين، انفصل بين الحكومتين، فرأينا فيها من الوحوش والغزلان والأرانب والفيلة ما لا يحصى عدده، ولقد رأيت في ذلك النهار أن الأرنب يخرج في وسط الصيف، ويجرى حتى يتعب، فيقتل ولا يجد للخلاص مناصاً فقتلوا من تلك الوحوش ما شاء الله أن يقتلوا، حتى جاء وقت القائلة وقال الملك وقتنا^(٣)، وشووا من تلك اللحوم وأطعمونا فأكلنا كذابتنا ثم ارتحلنا وسرنا قليلاً، فوقف الملك وأراد أن يرجع فأبيت وقت له: إن رجعت رجعت معك، لأننا الآن في الخلاء، ولا نأمن على أنفسنا، فاعتذر بأعذار واهية، وقال: إن لي أشغلاً، فقلنا له: ليست أهم من هذا^(٤)، فعند ذلك عين لنا قائداً من قواده ومعه ما ينوف عن خمسين فارساً، وأمره أن يصاحبنا حتى نبلغ مأمناً، ونقول له لرجع وأوصاه وأكد عليه وودعنا الملك وانكفأ راجعاً، وصحبنا قائده

صح من المزمع والمزمع أن

^(١) نبا: أي تقي ولم يقطع بقول الشاعر: لا أعلم تقي إلا السيف ما

^(٢) (وسح حال لما رعد) أي أن السحب لما رعدت لمطرت.

^(٣) (وقال الملك وقتنا) أي نزل وقت القائلة فقتلوا منه من لحمة السهل.

^(٤) في الأصل: لا أعلم من هذا...

المذكور إلى العصر، وأراد الرجوع، فما مكانه، وقتلنا له: كيف تتركنا هاهنا مع
 اتنا قوم عزل، وأن ظهر علينا أربعة شاكى السلاح^(١) لأخذوا مالنا وأرواحنا ويبقى
 معنا في نمتك، فقال: اعلموا أنكم قد دنوتم من زراعة الوداي ونحن لاأمن أن
 يروناوهم لنا أعداء، فيأتونا وتقع^(٢) الحرب بيننا وبينهم، وتكونون أنتم السبب في
 ذلك، فتوسلنا له بكل ولى ونبي، ووفقلنا له في الثروة والقراب، حتى مهلت
 عريكته ولأتت سجيته، فمشى معنا بعد ذلك نحو ربع ساعة، وتوقف عن الذهاب
 وقال: لاأقدر أن أقدم من هاهنا قنماً واحداً، وحلف أنه لم يسبق لأحد وصل
 بالمساكر^(٣) إلى هذا المحل، الا أنتم ثم عين معنا أحد الأدلاء، وودعنا وانكفأ
 يركض هو وجماعته.

فلما كان بعد ذهاب القائد بقليل استوحشنا، وصار كلن الأيك كله رجال
 (الوداي) ودخلنا من الخوف مايعظم وصفه، وما أسمى المساء وفي أحد منا رفق
 من الخوف، فلما ادلهم الغسق، أنخنا المطايا، ولخوفنا من السباع جمعنا حطباً
 كثيراً، وأججنا الركايا^(٤)، وبنا في أبح ليلة من الخوف، ولم يكتحل بالنوم فيها الا
 كل بليد، لأن زئير الأسد وعواء الضباع والذئاب، قد أخذ باسماعنا^(٥)، ولقد رأينا
 في تلك الغابة من الفيلة ما لاأقدر على حصره، ورأينا أنياب الأيال الميتة منها،
 ما اصفر من الشمس، حتى ضرب إلى السواء، ومنها الذاب الذى لايقطه إلاأزك
 ومنها اناب المفلوق قطعتين، ومن كل صنف من الاياب المذكورة رأينا شيئاً
 كثيراً.

فبنا حارسين لامتعنا وأرواحنا إلى الصباح وماطلعت الشمس الا ونحن قد
 اتمعنا التحميل، وأخذت العيس في الرحيل، فسافرنا نحو ثلاث ساعات، ثم دخلنا
 في أرض يظهر أنها كانت مزروعة، وعند ذلك وقف الدليل، وقال مالى للمجازرة

^(١) أربعة شاكى السلاح* أى مسلحون.

^(٢) تقع* ويبلغ الحرب*.....

^(٣) فى الأصل* لم يسبق لأحد وصول بالمساكر إلى هنا المحل*.....

^(٤) أججنا الركايا* أى أنخنا النار على الحطب*.....

^(٥) فى الأصل احلنا باسماعنا*.....

عن هذا المحل من سبيل، وودعنا وانصرف يهرول خائفاً على نفسه، وسرنا نحن نحو ربع ساعة، فما راعنا الا واناس قد اقبلوا شاكين السلاح^(١)، بأيديهم الحراش والرماح، ورمونا بالسلاح فوقنا وقتلنا لهم لآثامونا، فنحن ضيوف، فقاتلوا لنا: قتلوا مكانكم، حتى نعلم الملك^(٢) بكم، فوقنا في الحر، ومامكنونا من النخول تحت الفيء فقيأتنا ظلال المطى، ووقفوا امامنا بالسلاح، ومانعينا من الغزو والرواح، ووجهوا اقدمهم ليعلم الملك، فغاب نحو نصف ساعة وفتح الملك علينا في نحو عشرة فرسان، في عنق كل فرس من خيلهم ناقوس من نحاس، حشد الرنين، فجاءوا حتى قربوا منا، ونزلوا عن خيولهم، في ظل شجرة، ودعونا فجتنا اليهم، فالتصّب واحداً^(٣) من اتباعه، فقال لنا: ان الملك يسلم عليكم، لان العادة ان الملك وان كان حاضراً لا يتدنى بالكلام بل يتكلم واحد من اتباعه، فرددنا عليه السلام ثم قال: يقول لكم: من انتم؟ ومن اين اقبلتم؟ وماذا تريدون؟ فقلنا له: نحن جئنا من دارفور، فمننا من هو تاجر^(٤)، ومعنا رسول من سلطان الفور الى السلطان، ومننا من ليس بتاجر كابن الشريف عمر التونسي، فكتب اسماعنا في ورقة كتبت معه، وركب الملك في خمسة فرسان، وأبقى معنا خمسة، وأولئك الرجال الأول، وقال: مكانكم حتى يأتيكم أمرى، فأتينا مطايلنا، وجلسنا في ظل تلك الشجرة، وطلبنا ماءً فأتونا به، ومكثنا كذلك نحو ساعتين، ثم مارا عنا الا وكرويس من الخيل قد اقبل وفي عنق كل فرس جرس، وثيابهم كالثوب نساء فلاحى^(٥) مصر، النسي تسمى بالبداوى، عارى^(٦) الرووس، وفي خد^(٧) كل انسان منهم غدة، اثبه به غدة الطاعون من أثر الحجامة، وماذاك الا أن الحاجم وقت الحجامة بعد أن يجذب الجلد بالقرب حتى تتورم، ثم يمسك الجلد بين أصبعيه ويقطع بالمو من قلعين

^(١) شاكين السلاح، أي حاملين السلاح...

^(٢) التصّب بالشك هنا هو أمر الشاك وليس مثلك الروماني.

^(٣) في الأصل: التصّب واحد وهو خطأ والصواب: واحداً لأنه مفرد.

^(٤) في الأصل: فسادنا ناصر... والصواب: من هو، لأنها لفظة.

^(٥) في الأصل: فلاحون مصر...

^(٦) في الأصل: عاريون الرووس...

^(٧) في الأصل: وادى كل مسكة...

مقاربتي ويقطع الجلد التي بينهما (ثم) يقطع كذلك كل حد أربعة أو خمسة، ثم يضع القرن ويجنب الدم، وبعدما يكتفى من اخذ الدم يقطع القرن، ولا يضغط على محله بيده، ولا بشيء آخر بل يضع في محل الجروح قطناً، فيحبس الدم هنا ويجمد، ويبقى كالغدة وبهاتين الغدتين^(١) يفتخرون، ومن لا غدتين له، يسمى عندهم جبناً فيهان ولا يكرم، وهاتان الغدتان يقال لهما في عرفهم دومتان تشبیهاً لهما بالدوم، الذي هو ثمر العقل، ويعتزون الأعراب، الذين لم يكن لهم عند متلبهم، ويقولون هذا من الجبن والخوف، ولو كانوا شجعاناً لكنت لهم دومات، لأنهم يعتقدون أن الشجاعة انحصرت فيهم، وإن شجاعة غيرهم مهملت^(٢) فهي بالنسبة لهم كلاً شيئاً وكلهم عاريوا^(٣) الرؤوس كما ذكرنا إلا كبيرهم، فعلى رأسه عريفة سوداء، وعلى كتفه ملاءة تدعى عندهم بالملحفة، فنزلوا عن خيولهم بعيداً عنا، ودعونا فسرنا إليهم، فقال كبيرهم: إن العقيد^(٤) يسلم عليكم، فحييناه ودعونا له والسلطان، ثم قال لنا: من أنتم، وماذا تريدون، فقلنا له كما قلنا أولاً، فدعانا وكتب أسماؤنا فرداً فرداً، وكم مع كل اسم من منا من جمل، وما بضاعتيه وما اسمه، وما قبيلته، وما حاجته، ثم قال لنا: قبلوا وبعد القبلولة إرحلوا بنا إلى دار الفقيه، فقلنا له: سمعاً وطاعة، فقلنا وأكلنا وشربنا ونمنا، حتى انبسط الظل، وانكسر حر الشمس، فأمرونا بالتحميل، فحملنا، وركبوا خيولهم واحاطوا بنا، وسرنا سيراً حثيثاً فدخلنا البلد التي فيها العقيد آخر النهار، قبل غروب الشمس بقليل، فدخلنا في دار العقيد، فوجدنا داراً في وسطها بطحاً واسعة، تقرب من رميلة القاهرة فأشاروا لنا على جهة منها، فأنخنا المعلى فيها، وبعد أن رتبنا ما يلزمنا ترتيبه دعونا فقمنا جميعاً فدخلنا وسط الدار، واجلسونا بازاء ستارة، سائر من المرهيب، وخرج لنا رجل وقال: إن العقيد يسلم عليكم، فرددنا السلام، فقال لنا العقيد من وراء الستار: من أنتم؟ وماذا تريدون؟ ومن أين آبلتم؟ وما معكم من ابضائع؟ فقلنا له ما قلناه

^(١) في الأصل: وهاتان الغدتان.

^(٢) في الأصل: وإن شجاعة غيرهم وإن بلغت...

^(٣) في الأصل: عاريون الرؤوس...

^(٤) العقيد: هو حاكم الولاية المسمى من دولة الروم، كما هو مسمى في هذا الكتاب...

أولاً وثانياً، فسأل كلا منا عن اسمه ونسبه، ومن أى بلد مجيئه، فاخبرنا عن ذلك كله، فقال بعد ذلك مرحباً بكم، وانتم ضيوف مولانا السلطان، قوموا الى موضعكم، ها انا ارسل الى مولانا السلطان خبركم، وانتظر ماذا يكون جوابه فقمنا الى رحالتنا (وقام) هو وأخرج فارساً فى تلك الساعة، وأعطاه مكتوباً للسلطان، وجعل القائمة التى فيها اسمائنا طيه، فخرج الفارس من ساعتنا، وأقمنا فى انتظاره سبعة أيام وفى كل ليلة تأتينا منه ضيافة، وكان ذلك العقيد يسمى جاب الله وهو حاكم الولاية الشرقية، ويسمى فى عرفهم عقيد الصباح، أى حاكم الجهة التى يصبح منها الصباح، فلما كان اليوم الثامن لم نشعر الا وكردوس من الخيل والرجل أقبل، ومعهم طبل من خشب، طويلة كالكوبة السماء فى عرف المصريين بشرابكة، له صوت حاد ومعهم أبواق، كل بوق يقرب طوله من ثلاثة أذرع، له صوت غليظ مفزع، فحين قربوا من البلدة ضرب الطبل، ونفخت البوقات، فخرج العقيد جاب الله وجماعته، وتلقوا القادمين، فدخلوا فى دار العقيد وفى عنق كل فرس من خيلهم ناقوس، وأغشية خيل الجميع كلها من جلد احمر، وكلهم فى ذلك سواء، العقيد والملك والاتباع، وحين نزلوا من خيولهم واستقر بهم المجلس، دعونا فذهبنا اليهم وجلسنا امامهم، فقال أحدهم: ان السلطان يسلم عليكم، فرددنا السلام وقرأنا الفاتحة ودعونا للسلطان بالنصر والظفر، فقال لنا احدهم، وكان يسمى كامكلاك^(١) ناصر، من أنتم؟ ومن اين اقبلتم؟ وماذا تريدون؟ وما معكم من البضائع؟ فاخبرناه عن اسمائنا كما أخبرنا العقيد وغيره، فوجده موافقاً، فأمرنا بالأهبة للسفر، ولن الرحيل فى غد، فبيتنا فرحين، ولما أصبح الصباح ارتحلنا، وركب الكامكلاك وجماعته، وساروا بنا يومين، وفى مغرب اليوم الثالث أنزلونا فى بلد يقال له عبالى، ينزلون كل مسافر أتاها من مملكة غير مملكتهم، فيمكث بها ثلاثة أيام، أشبه بمايفعل من الكرائتينا فى أمصار الاقرنج، وأمصارنا الآن، ولما أهل ودائ فانهم لا يعرفون

^(١) الكامكلاك: والجمع كماككة، وهم مستندون للسلطان الذين يحضرون بحته عند سفره والدموى والشراعات ولم يولد لهم و
 ليس لهم القوة فى سلطة الدواى ويمكن تشبيههم بالامويين فى الحكم الاموية فى دارفور، واحداً بالحق فى القضاء الاميرى.

مصر Voyage all Darfour p. ١٦٢

الكرانتينا، بل وجنوا أسلافهم كذلك يفعلون ففعلوا مثلهم، فأنخنا في عبالى المذكورة، وبتنا ضيقى الصدر^(١)، لحبنا عن احبابنا، ولما كان بعد العشاء لم نشعر الابعى المسمى زروق قد أقبل، وذلك (بعد) أن بلغه لى جنت مع الفقيه احمد لى سارة وكان والدى لى ذاك توجه الى تونس بعد ان ينس من قنومى عليه، فلما علم بقنومى استأنن السلطان فى نقلى من عبالى فى تلك الساعة، فأنن له، فجاء وأمرنى أن أحمل جمالى فحملت، وتوجه بى الى دار لى، وكنت فى طرف البلد وقريبة جداً من عبالى، فما مشينا نحو خمس دقائق الا وقد أنخنا فى دارنا، وبت مع عمى فى انعم ليلة^(٢)، فلما اصبحت رأيت عمى، وحيوط الدار حمرا كما أخبرنى أسحاق الرمال، فتعجبت من ذلك، وأولم عمى وليمة لقنومى، ودعا الناس للطعام، وازدحمت الدار من المسلمين على، ولما كان وقت المساء حضرت لنا من بيت السلطان ضيافة عظيمة، فيها اثنتى عشرة باطية^(٣)، والباطية فى عرفهم أناء عميق مربع من خشب مستطيل، فى كل طرف من طرفيه عروتان، فى كل عروة سلسلة، وهذه الباطية قصعة، فى كل قصعة أربعة سلاسل، يقلها أربعة من العبيد، فكانت جملة العبيد الحاملين للجفان ثمانية وأربعين عبداً، يقدمهم طواشي^(٤) صغير، من طرف السلطان، يسمى فى عرفهم طويرة، لأن جميع العبيد الذين يرسلهم السلطان يسمون طويرات، وهم الذين يسمون فى عرف الفور بكوركوا، فتقدم الطويرة المذكور، وقال: إن السلطان يسلم عليك يا ابن الشريف، وقد أرسل لك هذا العشاء ضيافة، فقبلناه ودعونا للسلطان، وأعطينا العبيد الحاملين جفنة منها، فأكلوا حتى شبعوا، وبقيت فيها بقية، وهذه القصاع كانت كلها مملوءة بالطعام الفاخر، فكان منها الثلثان^(٥) مملوءتان بارز مصنوع بعمل يسمى فى عرف مصر

^(١) فى الأصل: وبتنا ضيقى الصدر...

^(٢) فى الأصل: بامع ليل...

^(٣) فى الأصل: اثنتى عشرة باطية، وهو خطأ: والصواب: اثنتى عشرة باطية..

(٤) الطواشي: طرد الجمع طواشة وهو احمد الحمص.

ينظر: لتسجد الامم، ص ١٧٢.

^(٥) فى الأصل: منها الثلثان مملوءتان.

بالزردة، واثنان^(١) مملوءتان بالدجاج المقلو في السمن، واثنان مملوءتان بفصوص
الحمام، وأربعة مملوءة بالعصيدة المتقنة، والأدم العظيم، وواحدة مملوءة بالفطير
الجميل، وعليه العمل الذي لا نظير له، وواحدة مملوءة باللحم المحمر في السمن،
وجميع ما ذكر من الدجاج والحمام واللحم المعمول في السمن بحيث لو أرك
الإنسان أن يصفى السمن منها لملأ قدراً، فأكلنا وفرقنا على الجيران والعبيد
والخدم، وبقي من الحمام والدجاج واللحم شيء كثير، وفي ثاني ليلة أرسل لنا
السلطان سبع جفان مملوءة كذلك، وفي الليلة الثالثة كذلك أيضاً، وفي ثالث الأيام
حضر لدارنا الكاملاك ومعه الشيخ محمد رئيس ترجمة السلطان، وهو كبقية
التراجمة يسمي في عرفهم ختم الكلام، واخذوا مني الهدية التي أريد إهداءها
للسلطان.

وكانت قليلة، فمنها عشرة أرطال من القهوة اليمني، وعشرة أرطال من
كعب الطيب، وعشرة أرطال من الصابون، وحلقان من السلك النحاس الأصفر،
زينة كل حلقة رطلان، فكتبوا جميع ذلك وذهبوا به، وبعد ساعة حضروا وقالوا إن
السلطان يسلم عليك، وقبل هديتك، وكانت هديتي من أصفر الهدايا وأخسها منزلة،
لكن إنما قبلها لحبه^(٢) في والذي، ولما كان المساء حضر عفتنا طويرة من
طويرات السلطان، ومعه بقعة وسريتين عظيمتين، أحدهما بكر والأخرى ثيب،
لكن الثيب أجمل من البكر، وأحسن زينة، وقال: إن مولانا السلطان أهدي لك
هاتين^(٣) السريتين وهذه الثياب، فدعونا للسلطان، وقرأنا له الفاتحة، وبيتنا ليلتنا
تلك، ولما كان ضحي الغد أتت طويرة ومعه أناس حاملون لأشياء كثيرة، وجمال
محملة، فوضعوا ما على أعناقهم، وانزلوا الحمول، وقال الطويرة: إن السلطان
أهدي لك هذه الأشياء، فإذا فيها خمسة^(٤) جرار من العمل وعشرة سمن، وجمالان

^(١) في الأصل: "اثنان مملوءتان".

^(٢) في الأصل: "لحبه في والذي".

^(٣) في الأصل: "هاتين السريتين".

^(٤) الفرد مرّ لو مره والجمع مرار، ومدة يستعمله لعل والمرور ووداعي في غل لثاء وحسنه بارفاً ويصنع من الطون السمن، لم يصرق
ويكون وودعه.

من الثور، وجمل من السمك المملح، وجمل من التكاكي^(١)، وجواد لزرق، عليه
مرج يقوده عبد سباعي وجاريدان للخدمة، فقبلنا ذلك ودعونا للسلطان، (ثم) فتحنا
البقعة، فإذا فيها ثوبان من أرفع ما يوجد من الثياب، أحدهما أبيض والثاني أسود،
يساوي كل ثوب منهما رأسين من الرقيق، وطاقة من البفنة الانجليزية وكان في
الهدية ثوران سميدان للذبح، وناقاة للذبح أيضاً.

وبعد قليل أخذ يتفقنني بالأطاف حتى أنه ارسل لي مرة ففتين صغيرتين،
في كل قفة منهما مائة بيضة من بيض دجاج الوادي ومما ذلك إلا أن الدجاج
المنكور وحش فيبيض في وقت التربع في الخلاء بيضاً كثيراً، ويجمعه أهل تلك
النواحي فيجتمع عندهم منه شيء كثير، وعليهم للسلطان عادة فيه، في كل سنة
ياتون بها، فيجمعون للسلطان في كل سنة أكثر من مائة حمل بغير^(٢) منه، فلما
كنت هناك في تلك السنة، وجاءوا بعوائد البيض، فرقه السلطان على أرباب دولته
بحسب مقاماتهم وناقلني منه القفتان.

فمكنت في دار ودای أربعة أشهر ولم أر السلطان، ولا رأيته إلى أن قدر
الله عليّ واحترقت يدي من البارود، وذلك أنني كنت أريد أن أشتري زوج
طبنجات، فأريت اختبار زندهما، فوضعت في قلب إحداهما^(٣) باروداً من جراب
فيه بارود، فحين اتكأت على الغماز، ناز البارود، (وكانت^(٤) هناك) شرارة وقعت
على الجراب وكان فيه نحو ثلاثة أرطال، فارتفع اللهب إلى الجو، فاحرق يدي
اليمنى وذراعي إلى قرب الكتف، واحترق معي رجل يسمى شمس، كان خائماً
لأبي، فقامت من الألم غاية المشقة حتى أشرفت على الموت، وبلغ السلطان
خبري، فتألم ووصف لعلاجي زيت الزيتون القديم، فأرسل لي قدره زيت عمره

^(١) التكاكي: السمك، وهو نوع من السمك يصنع غالباً في دار فور ووداي من انظر الحلي، ويباع في الاسواق في شكل قطع
بعضها النسي وبسورها خاصة الفراء وتواسط النسي.

^(٢) هنا المقصود بغيره، ولكنه يعبر عن كثرة هذا النوع من البيض في ودای في فصل الخريف وليس الربيع.

^(٣) في الأصل: "في قلبه إحداهما..."

^(٤) في الأصل: "وكان شرارة..."

أكثر من ستين سنة، حتى أحرزَ وأمر^(١)، فكان هو دوائي، ولما شفياني الله،
وركبت وصليت الجمعة مع السلطان، أخبر بخروحي، فسر، ولما كان الليل أرسل
لي طويرة، فاحضرني عنده، وكان في محل ليس فيه غيره، فسلم علي، وانساني
ورحب بي ولاطفني، وأمرني بطلب العلم، وحضني عليه، وأن ألزم درس الفقيه
السيد أحمد القاسي، فامتثلت أمره، ولأزمت درس الفقيه السيد أحمد المنكور مدة
سنة، فحضرت عليه كتاب أبي الحسن، شارح رسالة أبي زيد القيرواني المالكي،
وربع كتاب الأجاره من شرح الشيخ أحمد الدربيري، علي مختصر الشيخ خليل،
حتى ظهر لي منه عدم الود فقطعته.

^(١) أمر: أي أصبح مرآة، هكذا ورد المؤلف.

الفصل الثاني

في طول داروداي وعرضها وما اشتملت عليه من الطوائف وكيفية ارضها

وأما أجناس ما فيها من الامر على اختلاف أحوالهم وقبايل اشكالهم

إعلم إن المنفرد في ملكه بالبقاء والدوام، الفعال في خلقه ما يشاء من الاحكام، اختار من اصطفاه من عباده علي حسب مراده، وتجلي عليهم بما لا سمه الباسط من الأنوار، فجعل كلاً منهم حاكماً علي قطر من الأقطار، وإن مما افتخر بها ملوك السودان، وشاع ذكرها في جميع الأقطار والبلدان مملكة أولاد صليح، المسماة دار وداي، فهي كالورد بين الأزهار، وكجنة تجري من تحتها الأنهار، لما جعل الله فيها من انواع الخيرات، وما بسط لأهلها من البركات، فكم فيها من نهر راق سأل فصار كالتلجين، وحديقة تفتحت أزهارها، فكانت تنظر كأنسان العين وكم فيها من أراك أرض علي شاطئ النهر ثياباً، وببل غرد علي ذلك الأراك فأزال عن القلوب لزجاجاً، هذا وإن طول مملكة الوداي كطول مملكة الفور، وعرضها أقل من عرضها، فهي أخف أرضاً، فستان ما بين اليوم والامس، وأين القمر من الشمس، وأين الروض من القفار، وأين الجنة من النار، نعم وإن كان في دار فور بعض أماكن تقرب صفاتها من صفات أرض الوداي، إلا أن أكثرها أقولاً^(١) بعيدة عن الماء، شديدة الظلما، تري أهلها أخذهم النحول والاصفرار، وأضر بهم العطش ثم إضرار، يقترون علي أنفسهم في شرب الماء، كأنهم في سفينة ضلت عن مقصودها، ولم تعرف أفي أرض هي أم في سماء، ولما أرض الوداي فمعظمها أنهار دافقة، وأشجار باسقة، عليها طيور بالأكحان ناطقة، فلا تجد من دار الصباح التي هي أول بلاد الوداي من ناحية المشرق الي البحر الذي هو أقصى مملكة الوداي من جهة الغرب مفارقة، يحتاج فيها الي حمل الماء، بل كلها آبار وأنهار، ومزارع وأشجار، وذلك مسافة نحو اثني عشر يوماً للمسافر.. وكلها عامرة أهلة ما عدا بعض أماكن قليلة، لا تعد لقتها، ولذلك إذا أعطي الانسان في

^(١) قول: جمع فور، والقور هو حلة من الرمي رملة مرصعة الصنع للمرارة، حنة الصهيل كاذب من الاسم والقول السودان ومن من جعل لما ذكر من حنة في الطرف نحو الاضطرعها وحلها من القرب.

دار ودای إقطاعاً ولو بدأ واحداً، أحسن من أن يعطى في دار الفور عشرة بلاد،
لعمار هذه وخراب تلك، فلذا تقرر ذلك علمت ما بينهما من التفاوت، ولو رأيتها
لقلت أين الثريا من يد المتداول أو قلت أين الثريا من الثري، وأين الحسام من
المنجل ومن أعابها فقد عدا شعراً:

كضائر الحسنا. قلن لوجهها حذاءً ويغضاً إنه للسير

على أن أهل الوداي وإن كانوا أقل تمدناً^(١) فهم أكرم نفساً واشفق على الغرباء،
ولهذا {فلن} سلطاتها لأكرم السلاطين على الإطلاق، وأحسنهم سياسة بالاتفاق، من
رأي دار مملكته بهيم ويقول: إن هذا المقام كريم، لأن ولده قد وضعت بين ثلاثة
جبال، وليس لها إلا طريقان في أي حال من الأحوال، أحدهما لو وقف فيه عشرة
رجال لمنعوا من يريد الدخول فيها^(٢)، وإن كانوا بعدد الرمل والحصى، وثانيهما
لو وقف فيه شخصان لمنعوا من يريد الدخول فيها^(٣)، ولرض ولده أرض طيبة،
جلدة بين الصلابة والرمليّة، بخلاف تبتلي^(٤) التي هي قاعدة مملكة الفور، فإن
لرضها رمل كرمل عالج نفوس فيه الأقدام، ويثور منه النقع على الدوام، وفي
ولده أبنية جميلة بالنسبة إلى أبنية تبتلي، لأن جميع البيوت التي في تبتلي من
قصب الدخن، حيوطاً وبيوتاً ونهاية الأمر أن لكل بيت زريبة من الشوك، ومحل
السلطان هو وغيره في ذلك سواء، ما عدا أن في بيت السلطان أربعة^(٥) بيوت
مبنية بالطوب، جعلها مخزناً للأمتعة، خوفاً عليها من النار.

وأما بيوت ولده فأكثرها بناءً وحيوط كالأسوار، خصوصاً بيت السلطان،
فإن فيه القصور والمشربيات والأسوار العظيمة، وليس عليه زريبة من الشوك، بل
عليه سور من البناء محيط به إحاطة نهالة بالتمر والأكمام بالتمر، كما أن أرض

^(١) في الأصل: "وإن كانت أقل تمدناً.."

^(٢) في الأصل: "لمنعوا من يريد الدخول إلى ولده.."

^(٣) في الأصل: "لمنعوا من يريد الدخول إليه.."

^(٤) تبتلي: وهي عاصمة مملكة الفور، وهي ما عدا الشند من بلاد الرافدين (١٧٨٧-١٨٠٢ م) وصفت فيما بعد بالتفصيل، وتسمى
نسبة لتبتلي كانت لفرزدك الكور الذي استولى على حثية عاصمة الفور.

مطر: نسخة الاندلس ص ٩١

.... والمصروف: لرملة *

الوداي أحسن من أرض الفور، وليس في دلو فور أرض تشبه أرض الوداي، إلا
الجانب الغربي الذي يقرب من جهة الوداي، ولما أرض الوداي فكلها من الحسن
بمكان، وبلاد الوداي عامرة أهلة، بخلاف بلاد الفور، فإن أكثر البلاد فيها إما
خراب أو كاد، لكثرة الظلم والتسحق الذي علي الرعية من قبل الحكام، ولا تجد في
دلو فور بلاداً عامرة كما ينبغي، إلا بلاداً صاحبها ذو شوكة وجاه وما عدا ذلك
فخراب، {أهلها} يقاسون النذل واليهوان خصوصاً في الزمن الذي كنت فيه هناك^(١)
، فإن السلطان كان صغيراً قد اكتنفته رعونة الشباب، فكان لا يتأمل في أحوال
الرعايا، ولا يرفع عن المظلوم الرزايا، بل كان منهمكاً في لذاته، يقطع بالكس
واللهو أكثر أوقاته، فقصارى أمره إمارة يتخذها^(٢)، أو كاس ينهلها، أو دابة حسنة
يركبها، {وكان الملوك^(٣)} قد انتقلوا الوطأة علي الرعايا، وجلبوا لها المصائب
والبلايا، فلا يقدر أحد من الرعايا {أن} يقتني مالاً، ولا من أشرف الناس أن يكتب
اجلاً، لأنه في تلك المدة ساد رعاع^(٤) الناس أكابرها واستوزر العبيد، وأهمل
الكرام الأماجيد: فصار كل منهم يقول:

أرى الناس محسوفاً بهم غير أنهم علي الأرض لم يثلب عليهم صيدها
وما الحسف أن تلتني أسافل بلدة أعاليها بل أن تسود عيدها
ومما ينسب الي ذلك هذا التخميس:

لبالي تقضي بالوصال عريتها بيت وأبت أن لا بدو وضعها
ولا تعجبوا إن ترمي بوما مرضها تغيرت الأيام واسود يعضها

^(١) هذا حسب المؤلف منهم منصف عن مملكة الفور وحكمتها ولعنوها معناه حديث عنها هو مصنف ومصحح أحياناً مع ما يورده عنها في
كتابه تشييد الادعاء، وسنرى في هذا الكتاب عدداً منقول الفارسي، والبولندي، وهذا دليل الكثرة من الرحالة والوفاء مع الملوك
والأمراء.

^(٢) في الأصل: ممراته يطمعها... * وقد المؤلف: ممراته يطمعها حسناً.

^(٣) في الأصل: * وكانت الملوك قد انتقلت الوطأة *.

^(٤) في الأصل: * ساد *.

وعادت أسوداً عند ذاك قرونها

وقد صار للجهال فينا مريسة ومرك كلاب في الأنام بخلسة

فيا صالح إن دأمر أودامت خياسة ففي الموت فوز للأصيل وسراحة

إذا حكمت أحرار قوم عيلها

خلاقاً للسلطان المرحوم محمد عبدالكريم صابون، فإنه أوسع الناس عدلاً، وأعمرهم إحساناً وفضلاً، فلا تجد في زمنه مظلوماً يشتكي دهره ولا ولا فقيراً يشتكي فقره، وقد أعطي القوس باريها، وأنزل الدار بانيها، فأقام حدود الله في عبادته، وانتشر عنه في جميع بلاده، فكل الناس عنه راضون، إلا من كان في قلبه مرض، واستولي عليه داء الحسد، والعجب من الدهر كيف ينقص المسرات ويقبها بالاحزان والاساوات، لأنه اقتصه في عتقون شبابه، وجرع أصحابه كل مصابه، وطالما خدمه بالفخر في الحرب، وأذاق أعاليه من يد أجناده الحثوف والكروب حتى خرب إقليم بالقرمه الفجار، وثني بإقليم التلمه الفجرة الكفار^(١)، حتى ارتفعت من هيئته فرانس^(٢) الفور وسلطانها، وخشيت أن يسلط عليها ويخرجها من أوطانها، لكن لا عتب على الدنيا في هذه الاعمال، لأنها تكمن في كأس مسراتها الداء العضال، ورحم الله الحريري حيث قال:

شرك الردي وقذارة الأكدار

أبكت غداً بآلها من دار

من صدأ لجهامة السرار

لا يندى بجلال الأخطار

يا خاطب الدنيا اللينة أها

دار منى ما أضحكك في يومها

وإذا أظلم سحابها المرتفع

غار أها لا تنقضي وأسيرها

^(١) قلند قال الكاتب هنا، وحده من المثل، يوجد للشما والقرمه بالمعالي والكفار، لأن هذه الدول والشعوب كانت مسلمة منذ قرون عدة قبل قيام دولة ودية، ولما ارتد إسلامي كبر ١٩٠٤، ولكن حملت الكاتب للدولة ودية للأسباب التي ذكرتها هنا منى ومعد لصلحتها بكل منهم.

^(٢) في الأصل: "فران الفور".

ومن أفعال الدنيا بالآسنان وإبدالها العمرة بعد الأحزان، ما وقع للخلفاء الراشدين، وكيف تدانت أجالهم، وقرب الي الله لرتحالهم، وقد قالوا في قصر مدة سيدنا عمر بن عبدالعزيز، الامام العادل في بني أمية حين قال بعض الناس: كيف أن أعمار ملوك بني أمية تطول سنين مع ما هم عليه من الجور والعسف المبيسن، ويتصر عمر بن عبدالعزيز الذي هو بينهم كالذهب الأبريز، لما كان في أيامه من العدل الزائد، أن الدنيا دار محن وأكدار، وهم وعجار، ولو طالت مدة عمر بن عبدالعزيز لرجعت الدنيا الي حال الثياب، مع أنها صارت عجوزاً^(١) شمطاء، كما ورد عن النبي الأول، لم لا وقد كن رضي الله عنه من الزهد في أرفع مكان، وهو الذي أبطل سب علي رضي الله عنه علي المنابر^(٢)، فاستبدله بقوله تعالى: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان"^(٣) وقد ذكر {إن} في أيامه رعت الثياب مع الأغنام، ولم تعد عليها، بأن الملك العلام.

نائرة: مما اتفق مع عنه رضي الله عنه أنه جاءه رسول من طرف ملوك الأكراد، فبلغ في لكرامه وزاده، ولما وضعت المائدة كن فيها حجلتان^(٤) مقلوتان، فلما راحما الرسول وعلم لهما من الحجل، بكى وأفرط في البكاء، فسأله سيدنا عمر رضي الله عنه عن سبب بكائه فأجاب بعد تمنع وقال: يا سيدي إني كنت في أول أمري قاعلاً للطريق، فبينما أنا ذات يوم واقفاً في الطريق، (قدم الي) أحد التجار راكباً علي بقله، وتحتة خرج مملوء من المال، فتعرضت له وأخذت البقلة منه، ولدت قتلته، فقال يا هذا ليس مرانك المال، فقلت نعم، قال لي خذ هذه البقلة وما عليها وأعتني لوجه الله الواحد القهار، فقلت لا سبيل لذلك، ثم أخذت يده أريد قتلته، فلما رأي صممت علي قتلته قال لي أنت فاعل حقيقة، فقلت إي والله، فقال هل لك في أن تتركني حتي أصلي ركعتين، فقلت له لك ذلك، فقام فتوضأ وصلي،

^(١) في الأصل: "صارت عجوزاً شمطاء".

^(٢) كان الأمويون قد اتفقوا سب علي رضي الله عنه علي أثاره، من عصر مدنية، وذلك لتعاليقات السياسة الكبرى بين علي ومروية، حيث لهم الأمر شيئاً مشهوراً في مقتل سيدنا عثمان بن عفان، فيما عرف بالفتنة الكبرى، ومن أجل الأمر كذلك حسن أطلعه الخليفة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه.

^(٣) سورة العمل الآية ٩٠.

^(٤) الحجة جمعها حمل، والحمل الذي ذكر من الحج، يقول صاحب المنصور المماليك أن حقه معتدلة والملاح سيف منقاد من كسده بلغ الصرع، والاستعانة بمرارة كل شهر مرة به كي الصعي حياً ويطوي الصرع. ينظر: الصويرة في فضل الخاء واللام من ٣.

ثم قال لي أنشدك الله الذي لا اله الا هو أن^(١) تتركني، فقلت لا أفعل ولا بد لي من قتلك، فالتفت حينئذ يميناً وشمالاً فرأى حجلتين على شجرة فنادي بصوته أينها الحجلتان لشهدا عليّ اني قتلت ظلماً، فضحكت منه وقتلته بعد ذلك، وأخذت البقرة وما عليها، فلما رأيت هاتين الحجلتين تذكرت تلك الواقعة، فقال له سيدنا عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، لقد شهدا عليك عند من أقانك ثم أمر به فقتل أو.

ولذلك كانت مدة السلطان محمد عبدالكريم صابون قصيرة جداً، لأنه لو طالت مدته لملك دارفور وغيرها، وكان يقال: إن شباب الدنيا رجع لها، فكانت أيامه مواسم، ونغر المسرة به باسم، فكان غضبه لله ورضاه لله وكان رعاه لا يبنون عنه بديلاً، ولا يريدون عن حكمه تحويلاً، فكانت بلاده أهلة بالقطن، عامرة بالساكن، مع أنهم جموع مجمعة، فكان فيها المساليت والميمية والداجو والكشموة والقرعان، وقبائل الوداي الخمس، والكوككة، والجناخرة، والبرقد، وكل من هذه القبائل له جهة يسكنها، فأما المساليت فمساكنهم دار الصباح، أي الجهة الشرقية من دار الوداي، وهي غربي دار الفور، وبينهم وبين مساليت الفور معاملات ونسب وقرابة، وسعة بلادهم نحو يومين عرضاً وثمانية أيام طولاً: وهم أناس ليسوا بالطوال ولا بالقصار وسوادهم يميل إلى الاصفرار، وهذه القبيلة عالم عظيم في دار الوداي وأكثر بلادهم سهل، وإن كان فيها جبال قليلة.

وأما الوداي الذين هم أصل المملكة، فهم ساكنون وسط البلاد، ومنهم أكثر الأمراء والأجناد، وبلادهم جبال منها الجبل المسمى بأبي السنون^(٢)، وهو أعظم جبل، وأهل يزعمون أنهم أصل للوداي، ومنهم ظهرت السلاطين وقرعنت، ومنها (جبل) ملنقه وهو جبل آخر يجزي أبو السنون بنحو فراسخ، وأكثر السناويين^(٣) يغلب على لونها السواد لذلك، وهم أناس طوال ضخام الأجسام كأنهم من رجال العمالقة، وأما ملنقه فيهم أقل منهم سواداً، يقرب لونها إلى الصفرة، وأما الكشموة فيهم بالقرب من واد، مسافة يومين من الجهة الغربية أي

^(١) في الأصل: أنشدك الله الذي لا اله الا هو إلا ما تركني ..

^(٢) في الأصل: المسمى بأبو السنون * وقد سار عليه في كل البحث دون غيره .

^(٣) * السناويون هم سكان جبال الوداي .

ومسكنهم في البطيحة، وهي واد جميل كثير المياه، تزرع عليه أنواع الخضروات والتوابل كاللؤلؤ والكزبرة، والثوم والبصل وطائفة الكشوه على شفير^(١) هذا الوادي، بمعنى أنهم بالقرب منهم، وهو عالم عظيم^(٢)، ومسافة بلادهم نحو أربعة أيام طويلاً وأربع ساعات^(٣) عرضاً، فتري قراهم مصطفة بقرب شفير الوادي المذكور، كتصنيف الدر على عجور الخرز، هذا وبلادهم عامرة بالقطن، أهله بالساكن، يخرج من أقل حلة منها إذا وقع التنفير نحو الخمسة مائة، ما عدا الصغير، ولقد كان المرحوم السلطان محمد عبدالكريم صابون القطع والذي فيها خمس بلاد، فكانت أحسن من خمسين بلداً من بلاد الفور، لكثرة منافعها، وفي ظني أن قبيلة الكشوه لو استقرت كلها وانفردت من غيرها، لكانت وحدها جيشاً عظيماً، وهم أكثر الرعايا انقياداً، واغنائهم مالا ولولاداً، واحوالهم وسط، وليس فيها شطط، وهم بين الطوال والتصار، وبين السود والاحمرار، ولقبتهم غير الوداي، ولهم ملك يحكم على القبيلة ويفعل ما يختار. ولما الكوكة فمأواهم جهة المغرب والجنوب وهم ثلاث فصائل، كل منها لدى أهل الوداي محبوب، منها فصيلة لا يوجد أحسن من نساؤها في الجمال، ويفضلون على بذات الحبش ربوات الدلال، فتري الجارية منهم تسر الناظرين بجمالها، وتفكك العشاق بدلالها، قد أقامت حرب الغرام على ساق، ونور جمالها في ميدان الصباغة يهيم النساك، ويبلبهم^(٤) بالاشواق، وهم طائفة عظيمة، عامرة قراها، كثيرة مياهها ومرعاهها، غير أن أهلها ليسوا ضخام الأجسام، لكن مع الطول والاعتدال، وعدم النحافة والهزال، ومن هذه القبيلة جوارى الملوك والملطان، لأن أهل الوداي يزعمون أن ما عدا الخمس قبائل {هم قبائل الوداي} البقية عبيد يباعون ويشترون بغير تقيد. ولما القرعان فمأواهم من دلو الوداي جهة الشمال، وهم قبيلة عظيمة الأموال كثيرة الخيل والجمال، قد اشتملت على فصائل عديدة كل فصيلة قد صارت أحوالها شديدة، وهم أناس صغار الأجسام، غلب على لواتهم الاحمرار

^(١) شفير الوادي : أي ضلعه .

^(٢) وهو أي الوادي عالم عظيم .

^(٣) ساعة هنا ليست للساعة الرسمية المحددة بسنتين مائة الآن وإنما هي مدة مقصورة في ذلك الزمان قد تزيد على ساعة اليوم .

^(٤) في الأصل : هم فسك واللام بالألف .

دون بقية الألوان، فتري ألوانهم تقرب من ألوان المصريين، كأنهم ليسوا من السودان، ولم أشاهد بلدهم، ولا نحوت قصدهم، غير أني شأدت كثيراً منهم في الوداي، فرأيت نساءهم من أبدع النساء جمالاً، وأفتكها لحظلاً ولرماً نبالاً، والتعجب أن الوداي لا يألّفونهن، لبياض ألوانهن، فالجارية منهن لا يتغالي في ثمنها لبياض لونها، نعم وإن كنا قررنا أن كلما خلص الإنسان من شدة السواد كان عندهم دليلاً على خلوصه من الرق، لكن إن خرج إلى البياض لبيضوه، فلا يألّفون إلا ما كان بلون الحبشة، وهو أعظم مرغوبهم، وقد قدما أن السيد محمد المروجي الطرابلسي كان قد أهدى للسلطان جاريّتين {إحداهما} ببيضاء {والأخرى} حبشية وذكرنا أنه أحب الحبشية، ونالت منه حظوة، وأما البيضاء فلم يذن منها، وبقيت كل كل^(١) حتى ماتت.

وأما الداجو فهم في جهة الجنوب، وبينهم وبين الكوكة مسافة قريبة، لأنهم يتأخمونهم^(٢) في الأراضي، وهم أناس غلب السواد على أجسامهم. واستولت الوحشية على قلوبهم، فهم عند الوداي بمنزلة البرقي عند الفور، إلا أن البرقي يسكنون شمال الفور، {والداجو} في الجنوب، وبالجيلة فلعم طول المكث هناك اضطربت أحوالهم.

وهناك قبائل أخرى مختلطة بما ذكرنا، نسبت أسماءهم وأماكنهم. وأما الجناخرة فأصلهم عبيد السلطان، وهم مقام العبيدية في دار الفور، وهم طائفة عظيمة وأمم جسيمة، قد سكنوا جنوب الوداي، لكن من جهة المشرق، واتصلوا بالمساليب، لكن مع ذلك لا تختلط أنسابهم بهم ولا يمتزج حسبهم بحسبهم، وأما النيمة فهو شعب عظيم، ذو قبائل وفصائل، وهم أناس حالكوا السواد، كان ألوانهم المدا^(٣)، قد سكنوا الجنوب بين المغرب والمشرق، ولم يكن بينهم وبين الداجو والكوكة فرق، وما بين {هذه المنطقة^(٤)} إوولره إلى الجنوب جموع مجمعة، وبلاد

^(١) بقية كل شيء، لئلا يفسد ما كانا نعتناه فاه دون أن يهرما أحد.

^(٢) في الأصل: "مطاهرون".

^(٣) أخذت من سواد النيمة ما كان له حسب مجموعهم الموجود في السودان، فكتب على ألوانهم السمة العامة، وهم مسالون بمون الاستقرار والعمل بالزراعة والالتجار.

^(٤) في الأصل: "وما بين ذلك من ولاة".

واسعة أهاليها مختلطة الأنساب، فتري في البلد الجنسيتين والثلاثة والأربعة والأكثر، خصوصاً البرقة، فإن بلادهم غير منظمة لبعضها، بل يجد الإنسان هنا بلدة، وهنا بلدين أو ثلاث، وهنا عدة بلاد وكلهم غلبت عليهم الطباع القبيحة، فيأثفون الخيانة والفضيحة، وأكثر بضاعتهم السرقة والخيانة، بل لا يعرفون المودة والأمانة، وهم أناس سود الألوان، نحاف الأبدان، قصيرهم أكثر من طويلهم، وعزيزهم في الطبع كحقيرهم، فهم أمة بلاد الوداي ومنهم الحدادون والصيادون، وهم أقل الناس اعتباراً، وأحقهم عند الوداي مقدراً، لأخلاقهم الخبيثة، وطباعهم الخسيسة^(١).

وقد احاط بذل الوداي عرب، فمن جهة المغرب عرب الزبدة والعريقات، وعرب البحر، وهذه القبائل الثلاث^(٢)، من الغنى والقوة بالرجال في أعلى مكان، ولقد أخبرني الفقيه موسى عقيد الزبدة أخو الإمام بدر الدين، أمام السلطان، أن عرب الزبدة هؤلاء من عرب اليمن، ونسبتهم إلى زبيد^(٣)، وأنهم من حمير، وكذا أخبرنا الفقيه العريقي ترجمان السلطان، أن لعريقات^(٤)، من عرب العراق، وأنهم من بنى لخم وجذام، ولما عرب البحر فجموع مجمعة ولكل منها بريئة واسعة، وكلهم تحت قائد واحد، وكلهم أصحاب بقر واساس ومتاع ورياش، وكنت أعرف عقيدهم، وكان يسمى مسعود، وهو رجل كثير الأعوان والجنود.

ومن جهة الشمال المحاميد، وهي قبيلة عظيمة، ذات فصائل وبطون وهي صاحبة^(٥)، إبل ونعم، وخيول وغنم، ورقيق ولجين ومرجان يحلو لنظر العين، وأصحاب عدة كاملة، ورماح عاملة.

^(١) حديث الخائف من البرقة أنه من العرب، لأن العرب في السودان لم يكونوا لها وصف، فقد عرفوا بالفرقة والاسطرار في ديارهم ونعموها، وهم الآن في منطقة القبائل المملوكة في دزهمور، ولهم تاريخ إسلامي حافل مع دولهم المورو.

^(٢) في الأصل: هذه القبائل الثلاثة.

^(٣) زبدة بلدة كانت عامرة في جنوب اليمن، وكانت فيها معابد عظيمة كبرى خلال العصر العباسي وماتلة، وكذا بها من القبائل والعلما، من مصر وشرق إفريقيا والمجاعة، وبعد مرثا هاجرت قبائلها واستقر جزء منها في شرق السودان وهي معروفة الآن بلقب الزبدي، وواصل جزء منها هجرة غرباً واستقر بعلوم وادي وهم الزبدة.

^(٤) العريقات من عربين أو عراق، وبغال لهم هاجروا من العراق، وهم من عرب غم وحمام وهم من القبائل العباس هاجروا إلى شمال الجزيرة العربية واستقر جزء منهم في العراق، ولأصلب سياسة هاجروا إلى مصر وواصلت ليرثها لم إلى بلاد السودان.

^(٥) في الأصل: وهي أصحاب الإبل.

ومن جهة الجنوب عرب المسيرية^(١) والفلان وهما قبيلتان عظيمتان لصحاب بقر جمعها غدير وعندها كثير، وليس بين النور والوداي عرب، لضيق المكان لان بينهما مسافة يوم بل اقل للمسافر الذي يمشي على مهل، ويتبع لدار الوداي تامة كما قدمنا والباقرمة وركا^(٢) وفراوقيه^(٣)، لان كلا من هؤلاء الملوك ماعدا باقرمة يعطى خراجين، خراجاً لسلطان النور، وخراجاً لسلطان الوداي، ولا نجد قبيلة من القبائل التي بدارفور الا (ونجد) مثلها في دار الوداي، ماعدا النجر والتموركة فليس منهما في دار الوداي احد.

ومن جهة الشمال ممايلي المشرق قبيلة البديات وهم قوم من اعجام السودان، الا انهم كالبندو في ركوب الخيل ومرعاها والاقنيات بلباتها، ولكل مما نكرنا من القبائل ملك حاكم عليها يسمى في اصطلاح النور سلطاناً وفي اصطلاح الوداي ملكاً، لانهم يقولون ان لاسلطان هناك الا سلطانهم، وماعداً ذلك فجميع سلاطين الدنيا عندهم ملوك، ولا يقرر احد من الناس ان يقول نحن في بلادنا لنا سلطان، واذا (حدث بان قال احد الناس^(٤)) ذلك، فان كان غريباً عرفوه ونهوه، وقتلوا له لاقتل بعد اليوم انه لا يوجد في الدنيا سلطان^(٥)، ابداً الا سلطاننا، وماعداً ذلك فهم ملوك، وان كان من اهل البلد عنفوه ووبخوه، ومن العجب انهم يسمون السلطان بلغتهم يقولوا: 'ملك ملك كلك نيكاتيني' ومعنى ذلك: ملكنا الله يعطيه

(١) السوية: من القبائل العربية التي هاجرت الى السودان للثروة، وينتمون الى مجموعة عرب مهيبة، من جنوب افريقيا العربية، والذين هاجرت الى مصر ومنها الى شمال غربها ثم الى السودان الغربي ثم الى السودان والى النيل واستقروا في غرب السودان مع بقى صومتهم الرزيقات والعاينة والحاية والخورمة وبن هبة والخمر، واستوطن حرة كبر منهم في القلم لثاء، وهم الان من القبلى القبائل العربية في لثاء وعصمتهم لم حمر وكحلرا، وبعد دعوتهم السودا انضموا الى سوية ررك وسوية حرة، ويعملون حياً في الرعي ولهم تالو قري على كل الدول التي لثاء في غرب غربها.

نظر: الشيخ ابراهيم صالح: المربع السابق، ص ١٥٣

(٢) ركا: تو ركا: قبيلة من العربيت ينتمون لنفسى جنوب دارفور وشمال غرب بحر الاحمر وحره منهم يسكن القلم وداري وبغال لهم سكن جبل مرة الاصلين، ثم احر حوامه بواسطة الداهوا، ثم البحر والنور وكذلك القبائل العربية،

نظر: Macmichael: OP.CIT.P.٨٥

(٣) فراوقية: تو فراوقية، احدى قبائل العربيت القوية، كانت لها منطقة رمن الخراف تتبع لدولة النور تحت حكم ابيها، ونفع بلادهم في حروب دارفور ولهم اسبابات واسعة في تمكن دولة النور وكذلك دولة الوداي

نظر: Macmichael: op.cit.p.١٨٣

(٤) في الأصل: ملكا ونفع وقال ذلك ان كان غريباً

(٥) في الأصل: انه لا يوجد في الدنيا سلطاناً

الحياة، والمرك الله يعطى حياة ملكنا، لأن لغتهم صعبة جداً، وفيها كاذبات كثيرة، ومن العجب أنهم يسمون الله 'كلك' والولد الصغير 'كك' والعجوز 'منجوكك' وأكثر أسمائهم تنتهى بالكاف، كما تبدأ بها كما يسمون أحد الكماكلة، وللرجل الصالح 'كرك' والقرعة كيزك 'وكل كلامهم على هذا المنوال، وكنت فى أحد الأيام^(١) سمعت أحد الكبرتو يعنى بنفيره، فسألت العقيد احمد ود مختار عما يقوله فقال لى انه يقول 'ككك تدارونه كالانيامى' فسألته عن معنى ذلك بالعربية فقال: معناه أيها الطائر الجائع هلم فكل' يعنى انه يقتل الاعداء حتى يثبع الطير من لحومهم، ولقلة مكثى فى بلادهم وكثرة اللغة العربية لم احتج أن اتعلم لغتهم، ومع ذلك كنت عرفت منها جملاً تغنى الانسان فى أحواله الضرورية كأسماء الماء والخبز واللحم، وأسماء الأواني والثياب، (ولكن) نسبتها بعد طول العهد وعدم المكاملة، ولا تظن أن جميع ما فى الوداي من القبائل لغتهم واحدة، بل كل قبيلة لها لغة مستقلة لا تشبه الأخرى كما أن منحهم متغايرة، لأن منحة الوداي مغايرة لمنحة الكشموة، فالوداي كبار الرؤوس، مستديرو الوجه، ضخام الكرانيس طوال القنود، والغالب أن ذكورهم أجمل من إناثهم.

أما الكشموة، فعطوال الوجوه، متوسطون فى طول القنود وضخامة الكرانيس، والبرق صغار الرؤوس، نحاف الابدان، قصار القامة يغلب عليهم السواد، أما الكوكة فصغر الألوان، صغار الأجسام، نساؤهم أجمل من ذكورهم، والحاصل أن لكل منهم منحة يتميز بها عن غيره، بحيث لو رأيت منهم شخصين معا كل شخص من قبيلة لا تركزت من منحتيها أن لكل شخص منهما قبيلة وهكذا.

تبيية-

اعلم أن اهل الوداي كانوا متوحشين لم يدخلهم التمدن الا منذ زمن قريب، لأنهم كانوا قبل ذلك تقرب طبيعتهم من طبيعة اهل الصين ضناً منهم على ملكهم وبلادهم، فكانوا اذا أتاهم غريب ودخل بلادهم منعوه من الذهاب الى بلده حتى يموت، لكنه فى اكرام من المأكول والمشرب والملبس، ولا يمكنوه من العودة الى

^(١) و الأصل: 'وكنت و مع الأيام...

دياره أبداً^(١) (واستمروا على ذلك) حتى ملكهم السلطان صالح، وكان رجلاً عاقلاً
 جليل القدر، يخشى الله ويتقيه فاتفق أن جاء^(٢) في أيامه بعض التجار، فباعوا
 وربحوا، ثم تركهم رجعوا إلى أوطانهم، فاتجزت اليهم القوافل قليلاً قليلاً حتى
 ملكهم ولده المرحوم السلطان محمد عبدالكريم صابون، فكثر لديه الخيرات،
 وفاضت على يده البركات، وأعطى التجار عطايا عظيمة^(٣) حتى رغبهم في العود
 إلى بلاده فتسامعت به الاقطار، وانتهلت^(٤) عليه أبواب البضائع انتهال المطار،
 ووفد إليه العلماء والشعراء من الأمصار، فكانت منته ربيعاً وغيثاً مريعاً، وقع
 ذلك على حد قول الشاعر:

يا أيها الملك الذي بصلاحه صلح الجمع

أنت الزمان فان عدل تملكه أبداً رفيع

فكان رضوان الله عليه ملبه عيب يشينه، سوى كرمه على حد قوله:

وليس لهم عيب سوى أن صنيعهم بصحبهم تس الاحبة والاملا^(٥)

لو على حد قوله:

لا عيب فيهم غير أن سيفهم من قلوب من قراع الكائب^(٦)

ومع صغر سنه كان متمسكاً بالشرعية حسب الامكان، لاتأخذه في الله لومة لائم،
 فكان يقيم الحد ولو على ولده، ولم أر حد الزنا لقيم على أحد الا في بلده، لائسى
 رأيت حد زنا المحصن قد اقيم على امرأة، فحفرت لها حفرة وأوقفت فيها إلى
 صدرها ورجعت حتى ماتت، ولما حد شارب الخمر، فقد رأيت في مواضع، ولحبه
 رحمه الله في العلم وأهله اكتتفه العلماء، فكان لا يقطع لمرأ الابراهيم، وكان أكثر
 لأرباب دولته من اهل العلم، فكان أكبرهم منزلة في الزمن الذي كنت فيه وأقوامهم

^(١) في الأصل: "ولا يمكنه من العود إلى دياره أبداً حتى ملكهم..."

^(٢) في الأصل: "فتملك من مات..."

^(٣) في الأصل: "هذا حسنة..."

^(٤) في الأصل: "وانتهلت منه..." ووفدت عليه العلماء...

^(٥) المتن: أي ليس لهم عيب سوى كرمهم الذي يسيء إلى أحوال احبة وأهله وهو نوع من النجاسة.

^(٦) أي لا عيب فيهم إلا أن سيفهم فيها علامات من ضرب الأمثال في الغرر وهو مدح لهم.

حرمة شيخنا وأستاذنا المرحوم السيد أحمد الفاسي، ويليهِ الامام الفقيه نور قاضي
 للقضاة يومئذ بإقليم الوداي، وهو عربي الأصل وليس من الوداي، غير أنني نسيت
 من أي قبيلة هو من العرب، ويليهِما في الفضل والحرمة الامام الأجل سيدي
 أحمدوه لمييدي ويليهِم الوزير الأجل المحترم الفقيه محمد جميل الزعف، ويليهِم
 الفقيه البارع علي ودمييدي، ويليهِم في الفضائل الأديب الكامل الفقيه التوالى
 الباقوماوي، وكان شاعراً بليغاً، فامتدح حضرة المرحوم السلطان بعدة قصائد
 ولعنم اعتناني بالشعر حينئذ لم أعلق فيها شيئاً، ولا حفظته، وكان رحمه الله تعالى
 (أي السلطان) لا يعتنائه بأهل العلم يقدمهم في الزكاة على غيرهم، ويغفرهم
 بأفضاله، ويتفقد أحوالهم، وينتقم ممن نال منهم، ويغض الطرف عن مساوئهم،
 ويهتم بقضاء حوائجهم إذا رفعت إليه، وكان إمامه الأعظم الإمام الفقيه محمد
 بدر الدين فقيهاً ضليعاً في فقه مذهب الامام مالك، لم تر عيني في أقاليم السودان
 أهيب منه، ولا أفصح منه في الخطبة، فكان نادرة عصره، ووحيد دهره، وكذا
 رئيس تراجمته الفقيه محمد العريقي، كان من الفصاحة بأعلى مكان، جميل الهيئة،
 ومما يلحق بهم الوزير الأجل الفقيه موسى عقيد الزبدة، وهو أخ الامام بدر الدين،
 والفقيه محمد جميل الزعف، وقسمنا له هو الذي فتح الباب الحديد^(١) للسلطان
 ليلة دخوله دار المملكة للتولية حين مات والده السلطان صالح.

وأكثر وزرائه وأمرائه فيهم علمية وشجاعة وإقداماً على الأخطار بخلاف
 غيرهم من الممالك، لأننا قسمنا لهم أشجع من النور ومن الباقومة ولايضاهيهم في
 الشجاعة في إقليم النور إلا الميذوب والزغاوة والتامة، وأشجع من البرنو وإن
 كانت مملكة البرنو أوسع دلاً وأكثر رجالاً وأقوى عدة، ولقد بلغني عنهم حين
 خرج عليهم الفلان، أنهم كسروهم مراراً وحين توجه والذي من باقومة إلى برنو
 كان الفلان متغلبين^(٢) عليهم، حتى أن السلطان أحمد البرناوي فر بنفسه من
 مدينته ونزل في آخر عمله بإقليم كاتم، واحتضنه هناك الفقيه الصالح والوزير

^(١) في الأصل: فتح باب الحديد...

^(٢) في الأصل: مكر فلان متلب عليهم...

الناجح محمد أمين الكاظمي^(١) وبذل معه المجهود في جمع العساكر، ولم يزل معه إلى أن رده إلى مقر مملكتته وكرسي مملكته^(٢). ومن غريب ما اتفق لعساكر البرنو أن السلطان أرسل أحد وزرائه مع جيش عظيم لقتال التفلان، فتوجه الجيش وكان معهم بعض المغاربة واعراب البادية، فبينما هم سائرون في صحراء مستوية المهاد إذ رأوا أمامهم سواداً عظيماً قد ملأ تلك الصحراء فلما رأوا ذلك السواد وأيقنوا أنه جيش التفلان كثر خوفهم^(٣)، ونزل الرعب في قلوبهم وفشلوا ورجعوا على أعقابهم، وقالوا لاطاقة لنا بقتال هذا الجيش فجاء أحد المغاربة إلى الوزير وقال له: كيف تتصرف العساكر من سواد لا تعلم حقيقته، فقال الوزير: من يكشف لنا عن ذلك، فقتل المغربي أنا (أقوم بذلك) فقال له الوزير: أذهب، فذهب المغربي وحقق السواد فراه نعاماً كثيراً قد اجتمع ورفرف بأجنحته، وصار من بعد كئنه جيش مصفوف، فرجع ينادي أيها الناس أرجعوا، هذا نعام، فلم يلو عليه أحد وتمادوا في هزيمتهم إلى أن دخلوا برنسى البرنو وهم في غاية الارتجاف^(٤)، ولما ظهر هذا الأمر وفشا، خاف التقي محمد أمين الكاظمي أن يضيع هذا الخبر ويسمعه التفلان، فبازيد طمعهم في الدولة

(١) الشيخ محمد أمين الكاظمي، والده في إقليم كام برنو لأب كاظمي ولم عربية من عرب "طرابلس" وكان والده يسكن في إقليم قسري. تعلم الشيخ الأمين القراءات بمران وانتقل إلى الأزهر، تزود بالعلم والشريعة، ثم إن روح الشر الاسلامي، وكان مثلاً مصححاً له. استطاع بقوة صحته أن يطلع الشيخ عثمان بن مودي ويخاطبه في مودود لودو، ثم جمع لعل برنو وقامهم لاسراج السلطان من مودود وأصبح ابتداءً مثوكتاً لودو بعد أن انصروا الأسرة السنية التي كانت تحكم برنو لاكثر من ثلاثة عتق، ولأزال أطلعه إمامهم في ولاية برنو: مطر: الشيخ آدم الأوردي الاسلام في مودود، ص ١١١ - والشيخ ابراهيم صالح: تاريخ الاسلام وحياة العرب في امودودية كام برنو، ص ١١٥ وما بعدها.

(٢) يتحدث الكاتب عن مودود السلطان لدولة البرنو، وذلك عندما مر الشيخ عثمان بن مودي برنو في عام ١٨١٠ مهنياً لودوكتها بالتوسط مع اعدائه واستطاع أن يدخل مدينة مودود ومدينة كوكها، وخرج منها السلطان دولة من أحمد ولاد ونظم كسهم، وهناك التقى بالشيخ محمد الأمين الكاظمي وهو من أعلام العلم والشريعة ولاخل حضراً من الشيخ عثمان بن مودي واستطاع أن يوضح حوله الرحالة وإن يستل كل لعل برنو حكومت لودو كبرى بقيادة الشيخ الكاظمي والسلطان دولة استطاعت أن تحرم السلطان ولطردهم من العاصمة، لدخل السلطان دولة عاصمت بعد أربعين يوماً.

(٣) في الأصل: فكثر عوالمهم....

(٤) هنا اخذت من عوف حيث برنو في شيء من الشبهة، فلم لو كانوا كمنكث لما استطاعوا إقامة أكبر دولة اسلامية في إفريقيا، وحاصروا عنها حتى كانت من القبول القبول عبراً واكثرها مساحة إذ امتدت من الصحراء حتى الشيا، وامتدت لاكثر من ألف عتق، ولما وصلوا بنظم من أجمع القبائل في إفريقيا، لودول منهم الشيخ آدم الأوردي: قد لعل برنو هم لودول القروية في إفريقيا الغربية. وإن كان تودو القروية لكانت الحرف في شيء من التوضيح: بطر مودود تاريخ مودود ص ١٦٥ و ابراهيم طر حيا، امودودية الدولة الاسلامية.

البرناوية، ثم طلب رؤساء الجيش الذي حصل فيه هذا الفشل وقتلهم، ثم نادى منادى السلطان في العساكر أن يعد من هذا اليوم كل من فر من عنو لأجزاء له إلا السيف، وجمع العساكر ورتبها وخرج لقتال الفلان، فبزمهم وأخرجهم من (بلاد) البرنو، وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وأقول إن الذي دعا البرنو للفرار قبل التأمل ووقوع الحرب إنما هي الحضارة التي استولت عليهم، حتى صارت لهم عادة، لأنه قد شوهد أن الدولة كلما تمكنت من الحضارة كلما هابت القتال وأسبابه، وكلما كانت في أصالة الخشونة وعدم الترفه كانت أقدم على الأهوال والقتحام المشاق والصبر على المكروه.

لما الحضارة التي تسبب الفشل والخوف في الدول، فأقول: الحضارة هي كثرة التمتع بالمأكل والمشرب والملابس والمراكب والمناكح النفيسة حتى يصير ذلك ديناً للنفس، فإذا جاء بعد ذلك ما يعارض ذلك الدين تشامت منه النفس وأبته، وتذكرت مآلوفاتها وحنّت إليها فتقول لصاحبها: مالك والقتال وارتركاب الأهوال الذي يكون سبباً للهلاك وسوء الارتباك، وترك المأكل العظيمة والمناكح الجميلة، وما أنت عليه من حسن الحال، فيخاف الإنسان ويظن أنه بمجرد دخوله الحرب يموت، وأن الموت متحقق عنده، وتسول له نفسه أنه إن انهزم ولم يباشر قتالاً^(١) سلم من الوبال، ورجع إلى مآلوفاته، فيحمله ذلك على الفرار، وترك القتال، وما علم أن الحضارة هي نهاية أجال العمران، وإن خوفه عليها يكون سبباً لنزولها بالكلية، فقد ذكر العلامة ابن خلدون في تاريخه الكبير في الجزء الأول منه فصلاً في هذا المعنى فقال:

إن العمران كله من بداءة وحضارة^(٢)، وملكة وسوقة له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكنونات عمراً محسوساً، وتبين في المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونحوها، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن النمو برهة، ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط،

^(١) في الأصل: "ومماثره..."

^(٢) في الأصل: "من العمران كله من بداءة وحضارة."

والحضارة في العمران، كذلك، لانه غاية لامزيد وراءها، وذلك أن الترف والنعمة
إذا حصل لأهل العمران دعاهم بطبعه الى مذاهب الحضارة والتحقيق بعوائدهما،
والحضارة هي التفتن في الترف واستجادة لحواله، والكلف بالصنائع التي توقف
من أصنافه وسائر فنونه، كالصنائع المهيئات للمطابخ والملابس والمباني والفرش
والأكية، وسائر الأحوال للمنزل، وللتألق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة
لا يحتاج اليها عند البداوة، وإذا بلغ التألق في هذه الأحوال للمنزلة الغاية تبعته^(١)
طائفة من الشهوات، فتكون النفس من تلك العوائد بأولون كثيرة، لا يستقيم حالها
معها في دينها ولا دنياها، أما دينها فلا استحكام (في) صنعة العوائد التي يضر
نزعها، وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمشوقات التي تطالب بها العوائد، ويعجز
الكسب عن الوفاء بها، ويبانه أن المصّر بالتفتن في الحضارة تعظم نفقات أهله،
والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران، فمتى كانت العمارة أكثر كانت الحضارة
أقل^(٢) لأن المصّر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجاته ثم
تزيد بها المكوس غلاءً، لأن غالب الحضارة إنما يكون حينئذ نهاية الدولة في
استفحالها، وهو زمن وضع المكوس في الدولة لكثرة خروجها حينئذ فالمكوس
تعود على المبيعات بالغلاء لأن السوق والتجار يتحسبون على سلعهم جميع
ما ينفقونه حتى مؤونة أنفسهم، فيكون المكس لذلك داخلاً في قيم المبيعات، فتعظم
نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد الى الاسراف، ولا يجدون وليجة عن ذلك
لما ملكهم من أثر العوائد ومطاعاتها، فتذهب مكاسبهم كلها في النفقات، ويتتابعون
في الاملاق والخصاصة، ويطلب عليهم الفقر، ويقل المتأفون للبائع، فتكسر
الاسواق، ويفسد حال المدينة على العموم في الاسواق والعمران.

وأما مفاد أهلها ففي ذواتهم^(٣) واحداً واحداً، ثم الكد والتعب في حاجات
العوائد، والتلون بالأولون، والشد في تحصيلها، وما يعود على النفس من الضرر
بعد تحصيلها بحصول لون آخر من لواتها، ولذلك يكثر منهم الفسق والشر

^(١) في الأصل: "بمعطاة..."

^(٢) في الأصل: "أكثر..."

^(٣) في الأصل: "وما يلهي عنها في دولهم..."

والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجه ومن غير وجه، وتصرف النفس إلى الفكر في ذلك، والغوص عليه، واستجماع الحيلة، فتجدهم لجرياء^(١) على الكذب والمغامرة والغش والخلاعة والسرقة والفجور في الأيمان والربا في البيوعات، ثم تجدهم لكثرة الشهوات والملاذ الناشئة عن الترف أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمغامرة به وبدواعيه، وطرح الحشمة بالخوض فيه، حتى يبين الأقارب ونوي المحارم، الذين تقتضي البداوة للحياه منهم، وتجدهم أيضاً أبصر بالمر والخبث، يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر، وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح، حتى يصير ذلك عادة وخلقاً لأكثرهم إلا من عصمه الله تعالى، ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الخلق الضميم، ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم، ممن أهمل عن التأديب، وأهمته الدولة من أعدائها، وغلب عليه خلق الجوار، وإن كانوا أهل الغاب، وذلك أن الناس بشر متماثلون، وإنما تفاضلوا أو تمايزوا^(٢) بالخلق، واكتساب الفضائل، واجتناب الرذائل، فمن استحكمت فيه صفة الرذائل بأي وجه كان، وفسد خلق الغير فيه، لم ينفعه نكاه نسبه ولا طيب منبته، ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت ونوي الأحساب والأصالة وأهل الدول مستغرقين في أعمار، ومنتحلين للحرف الدنية في حياتهم، مما فسد من أخلاقهم، وما تلونوا به من متعة وترف وسفسفة، فإذا كثر ذلك في المدينة والأمة كان إيذاناً بخرابها، وهو معنى قوله تعالى:

‘ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ

فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا^(٣)

ووجهه أن مكاسبهم حينئذ لا تغطي^(٤) حاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها، فلا تستقيم أحوالهم، وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت، وهذا معنى ما يقول بعض أهل الخواص: أن المدينة إذا أكثر فيها

^(١) (أجرى)، جمع جرى، ويمكن أن يقول “جرىء”.

^(٢) في الأصل: “تمايزوا...”.

^(٣) الآية: سورة الإسراء، الآية ١٦.

^(٤) في الأصل: “لا تغطي...”.

غرس النارنج^(١) تأنثت بالخراب، حتى أن كثيراً من العامة يتجافى غرس النارنج بالنور، وليس المراد ذلك بأنه خاصة في النارنج، وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياه^(٢) من نوابح الحضارة، ثم إن النارنج والليمون والمرو وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة له، هو من غاية الحضارة، إذ لا يقصد بها في البساتين إلا لشكلها فقط، ولا تفرس إلا بعد التنفين في مذاهب الترف، وهذا هو الطور الذي يخشى فيه هلاك مصر وخرابه لما قلناه ولقد قيل مثل ذلك في الدنيا^(٣)، إذ لا يقصد بها إلا تكون البساتين بنورها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف. ومن مفاسد الحضارة الاتهام في الشهوات والامتراسات فيها لكثرة الترف فيقع التنفن في الشهوات البطنية من الأكل والمشرب وملازمها، ويتبع ذلك التنفن في شهوات الفرج وأنواع المنالك من الزنا واللواط، فيفضي ذلك إلى فساد النوع إما بواسطة اختلاط الأنساب كما في الزنا، فيجهل كل واحد ابنه إذ هم لغير رشده، لأن المياه مختلطة في الأرحام، فتتدفق الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون، ويؤدي ذلك إلى انقطاع الأنساب، ومن ذلك يحصل العقوق من تولد للوالد، وغير ذلك من المفاسد باختصار.

وبالجملة فإن أشجع قبائل السودان الوداي، فاتهم لا يخافون الموت، ويهابون الفوت، وأجبنهم البرنو، وأوسطهم الفور، وأما في اتساع المملكة، فأوسعهم البرنو، ويليهم الفور ويليهم الوداي والباقرمة، على أن بلاد الوداي وإن صغرت إقليمياً فقد عظمت خيراً عيماً، ورقيقها أجمل من رقيق الفور وأحسن خدمة، ولا يوجد في بلاد السودان المتوسطة أحسن من رقيق البقرمة، لما فيهم من الرقة وحسن الخلق والقيام بخدمة أسيادهم خصوصاً الأثلاث منهم، وحين ملك السلطان صلبون بلاد البقرمة وإفنت الوداي بنسائها كرهوا نساءهم، وقالوا لنا لم نترج إلا الآن، وهؤلاء (من) النساء وماسواهم عنم، بل يوجد في رقيق الجناخرة الذي تجلبه

^(١) النارنج : وهو نوع من الفواكه الحمضية من فصيلة البرتقال.

^(٢) وإجراء الماء : أي تدفقها وتصريفها.

^(٣) الدنيا : أي العالم من أمم وبلدان مختلفة.

الوداي من هو في غاية المال وحسن المعاشرة في درجة لا توجد في قبله من الرقيق المجلوب من جهة الفور، مع ان جناجرة الوداي والفور متساخمون، وقد قمنا أن العساكر ربما^(١) تلاقى مع بعضها في الغزو في بلاد الفرتيت لكن من العجب أن الرقيق الذي يجلب لدارفور رديء جداً، والذي يجلب لدار الوداي عظيم، ويغاثوا في ثمنه^(٢)، ولذلك نجد انفع الرقيق في دار الفور هو الرقيق المجلوب من الوداي.

والجناجرة أمة عظيمة لا يعلم عددها الا الله تعالى، تفرعت الى فروع كثيرة وقبائل شتى، مسكنها الجنوب من بلاد السودان الاسلاميين اولها من جنوب سنار على خط مستقيم الى أن تنتهي الى جنوب كشة^(٣) من بلاد المغرب من قبائل هؤلاء المجوس لانك^(٤) إذا سرت من سنار على خط مستقيم الى ناحية المغرب تصل الى كردفان^(٥) بعد (خمسة عشر^(٦)) او ستة عشر يوماً، ثم بعد عشرة أيام من الابيض^(٧) او اثني عشر تصل الى دارفور، ثم منها ان كان من الفاشر الى وداي خمسة عشر يوماً للمثاني، وعشرة للمجد فتصل الى دار وداي، ثم منها اذا أردت التوجه الى الباقرة فتتجه الى الغرب مع انحراف قليل الى الشمال،

^(١) في الأصل: .. لما تلاقى.. وهو غير مستقيم مع سياق الكلام...

^(٢) في الأصل: .. ويغاثوا فيها...

^(٣) كشة: أو كسها، ولاية من ولايات هوسا السبع وتقع شمال بحيرة دحلهو الاسلام في القرن الخامس عشر الميلادي وتقع إلى الشرق من ولاية كانو وكانت مدينة تجارية زارها الرحالة في خطوط في ذلك التاريخ، وذكر ان فيها لغزاً من المسلمين العسرة والسوم، ويسكنها ايضا الهوسا والبربر كما زارها الشيخ محمد بن عبد الكريم القليلي ونزل القضاة فيها وأصبح احولاً لها أهمية والاحتياصة، ومن فيها مسجداً متيناً كما كان لثوبها الحلات يتزوج الارمر حاشية الشيخ السويسي.

مطرو: د. عبد الله محمد كيو، المصدر السابق، ص ٢٩٨

^(٤) في الأصل: * لان لما سرت...

^(٥) كردفان: أو كردفان: هي الاقليم الذي يلي دارفور شرقاً، ويمتد من الحدود مع ولاية الخرطوم، تألفت منها مملكة السبعينات أيام عمومة الفور، وظلت في ايديهم حتى انتزع الركن السوداني عام ١٨٢١م حيث انتزعت من دارفور وصعدت للسودان المصري آنذاك، ويسكنها العديد من القبائل العربية في الشمال، وهناك القوية في الجنوب، وتعتبر كردفان من المناطق القروية القليلة في السودان بحسب الزراعة التي يعمل لها معظم سكان الاقليم.

مطرو: نعم لغزو المرجع السابق، ص ١١٧.

^(٦) في الأصل: سبع او ستة عشر يوماً.. فهناك حيلة نافلة (خمس عشر)

^(٧) الابيض: هي عاصمة كردفان ومن المدن المهمة في السودان واfrica فيها اكثر سواك تصنع الحرف والناحية في الزينة.

لأنك إن لم تتحرف وقعت في كاتم، وهو أول أعمال مملكة باقرمة بعد عشرة أو
اثني عشر يوماً^(١) ولن لربت التوجه إلى برنو، فهناك طريقان:-

أقربهما أن تتوجه على خط مستقيم من المشرق إلى المغرب، فتصل إلى برنو بعد
عشرين يوماً، ولن توجهت عن طريق باقرمي يحتاج أن تعبر^(٢) بحراً عظيماً من
الباقرمة وبرنو، وهذا الطريق طویل، لأنه يمر فيها على برنسي مندر^(٣) وهو
عمل^(٤) مستقل لحاكم مستقل ويمر على إحدى ممالك الكنكو، وتطول الطريق نحو
خمس وثلاثين يوماً، ثم إذا خرجت من برنو ولربت التوجه إلى لركز تتوجه على
خط مستقيم نحو خمسة عشر يوماً وهكذا.

لكن كل قبيلة حازت مملكة من ممالك السودان الاسلاميين^(٥) تسمى باسم
خاص، فالتى حازت سزار تسمى بالنوبة، والتى حازت كردفان تسمى بالانروج،
والتي حازت دارفور تسمى بالفرتييت والتي حازت وداي تسمى بالجنائرة، والتي
حازت الباقرمي والبرنو تسمى بالكرداويين وهكذا، وإن كان كل من حازوا مملكة
من (الممالك هم عبارة عن) شعوب وقبائل وبطون وفصائل لأنك إذا قسمت
السودان الاسلاميين بمن حازهم من هؤلاء المجوس تجد الاسلاميين بالنسبة لهم
كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، فإن قلت كيف يتأتى للاسلاميين الغلب على
هؤلاء مع أنهم أضعافهم، قلت إنما غلبهم الاسلاميون لارتباط كلمتهم واجتماعهم
على رأى واحد، وهؤلاء المجوس كلمتهم منحلة، ولايعاونون بعضهم وزيادة على
ذلك إن بين أهل كل بلدين منهم عدوة فيأتى العدو لهذه البلدة فيحارب أهلها
ويسبي نساءها وأولادها^(٦) وأهل البلدة الأخرى، ينظرونهم بشغراً ولايعينوهم،
وحين يخلصون من هذه يأتون الأخرى، فيفعلون بها كما فعلوا بالأولى، وأهل بلد

^(١) في الأصل: لو أن عشرة يوماً وهو خطأ والصواب: إن عشرة يوماً

^(٢) في الأصل: إن تعدي بحراً... فعبارة تعدي تعني تعبر حسب لغة الفعل دارفور ووداي.

^(٣) مندر: منهم شامع بنع حبوب منهم باقرمة، بالمغرب من كنكو، فاعل حدود دولة الكمرود الحالية، وكان حاصراً لدولة السود.
ويمكنها حاكم مستقل يحمل لقب سلطان.

مطر: ترجمة الفرنسية Voyage au Waday PP. ١٤-١٢..

^(٤) في الأصل: وهي حل.

^(٥) مرجع المؤلف على نسبة أهل السودان المسلمين بالاسلاميين وقد بدلت في مجرمهم عن مجرمهم من السكان أو توب.

^(٦) في الأصل: وأولادهم...

آخر ينظرون اليهم ولا يساعونهم وهكذا، والا لو كانوا يجتمعون كما تجتمع القبائل
الاسلامية لما قدر عليهم أحد، كيف وطول مسافة بلادهم أكثر من شهرين للمجد
وثلاثة أشهر للمتأني، وقد ذكرنا سابقاً أن السرايا التي تذهب من الفور والسوداي
تغيب ستة أشهر، ثلاثة ذهباً وثلاثة ألباً مع أنهم لا يقطعون^(١) البلاد ولا يصلون
إلى نهايتها، وإنما متى تمت لهم ثلاثة أشهر وهم ذاهبون يرجعون، وقد أخبرني
شيخنا الفقيه مدني الفوتاي أن سرية من سرايا الفور توغلت في بلاد القرطيت^(٢)
في طلب المكسب واجمعوا أمرهم أنهم لا يرجعوا^(٣) إلا إذا أتوا على آخر البلاد
وعرفوا نهايتها، فدام بهم الأمر حتى مضى عليهم الزمن نحو خمسة أشهر وهم
ذاهبون ورجعت جميع السرايا ولم يرجعوا هم، حتى ظن أهلهم أنهم أصيبوا
بجائحة أهلكتهم، وبعد هذه المدة انتهوا إلى بحر عظيم متسع لا يري من كان واقفاً
على أحد ساحليه الواقف على الساحل الآخر إلا بشق الأنفس، فرأوا على الساحل
الثاني أناساً عليهم ثياب حمراء، فتعجبوا منهم وتحيروا في الوصول إليهم لقسم
المركب الذي يوصلهم اليهم، وأخبروا أن أولئك الناس^(٤) حين رأوا العساكر
وكثرتهم خافوا على أنفسهم وفروا هاربين، قال الفقيه مدني المذكور: ثم اني سألت
كثيراً^(٥) ممن توجهوا في تلك السرايا فلم أجد من يخبرني في ذلك خبراً شافياً،
وبقيت متحيراً مدة، حتى عثرت على رجل ممن كان قد سافر كثيراً إلى بلاد
القرطيت فسألته عن هذا البحر وهؤلاء الناس فقال: أنهم أشبه شيء بالهنود، والله
اعلم بحقيقة الحال.

وهؤلاء السودان على كثرتهم لكل قبيلة منهم سيما تميزهم على بعضهم^(٦)،
عن بعضهم (فمثلاً) يبرون أسنانهم بالمبرد ماعدا الأضراس وهؤلاء يسمون بنده،

^(١) لا يقطعون البلاد أي لا يقطعون لها من بلدانها إلى بلدانها...

^(٢) بلاد القرطيت: أرض الخرافات مسكونة في أقصى جنوب الجزيرة وديار العرب، فنان وانه رحبها
رواحها، ومقلا ومما ومما ومما وتسمى من هؤلاء، وبلاد القرطيت كانوا هم سكان حال مرة الاملاز ثم مردهم إلى
والبحر والامور بالهمزة صوماً وسكنوا في جنوب السودان

^(٣) في الأصل: فلم لا يرجعون...

^(٤) في الأصل: فإن تلك الأناس...

^(٥) في الأصل: أن سالت من كثير ممن توجه...

^(٦) في الأصل: سيما مردهم ما عداهم... والاسما هو الاملاز ثم مردهم إلى أرضهم...

وبعضهم يتقبون شفاهم العلوية والسفلية تقوياً متتابعة وهؤلاء يسمون كارا،
وبعضهم يتقبون الآن من حافة الصيوان تقوياً متتابعة، وهؤلاء يسمون درنة،
ومنهم من يشرط وجهه بالموس ثلاث شرطيات في كل وجنة، وهؤلاء يسمون
المشك.

ولما بلادهم فهي أخصب البلاد وأحسنها هواً، وقد قيل إن المطر عندهم
كثير جداً حتى أن بعضهم لا ينقطع عنه المطر إلا شهرين في السنة وعندهم
ضروب من الكمأة، منها ضرب عظيم جداً يسمونه الأبو، يشوونه في الجمر
فيكون على هيئة مخ البيض لوناً وطعماً، ولكثرة الأمطار كثرت الأشجار في
بلادهم، وتأكدوا أن أكثرها مما يثمر، والعجب منهم مع وحشيتهم وعدم استئناسهم
ومخالطتهم {لأهل} المدن يعرفون بعض الصناعات العجيبة التي لا يمكن إتقان مثلها
إلا في المدن العظيمة من بلاد الأوربا، منها كراسي الأبنوس التي يصنعونها
لجلوس ملوكهم، فتري الكرسي منها يبهز النظر ويحير الفكر، من حيثة صنعة
وصقلته وملاسته، ولا تفي عبارة المجاز بما فيه من الإتقان، ومنها صناعة
الحراب والسكاكين التي لا يمكن إتقانها في غير بلادهم، إلا إن كان في بلاد
الإنكليز، ومن أعجب ما رأيته عندهم الشبكات التي يشربون فيها الثياب، فأنها
غريبة الإتقان جداً، كأنها عملت في إحدى مدائن الأوربا لأنهم يعملونها مع الحديد
الخالص النقي، فيعملون الشبك طول فتر أو شبر ويعملوا له حجراً من الطين
ويلبسونه بالحديد وقضيب الشبك ليس معتدلاً، بل فيه انحناء كما يوجد في شبكات
أهل أوربا^(١)، بإتقان الصناعة لأنك إذا رأيت الشبك منهم لا تظنه أنه من الحديد،
بل ربما جازمت أنه صبيغ من فضة الصقلية، لونه وحسن صناعته، وكذا ما
يصنعونه من الدمالج والأساور، فأنه شريب جداً، مع أنهم لا يصنعون الثياب ولا
يلبسونها، بل عرايا الأجساد، والرجال يسترون عوراتهم بشقة صغيرة، قليلة
العرض وطولها نحو ذراعين وأكثر، وعرضها أقل من شبر، وتسمى بلغة

^(١) في الأصل: عمل الأوربية.

الفرثيت جوكو. وأما نساؤهم فيستترون^(١) بأوراق الشجر من القبل لا غير، وأما
الثبر فيتركونه عارياً بلا ستر^(٢).

عجيبه من قبائل الفرثيت الكائنين بين دار فور وكردفان قبيلة تسمى
جنقيه^(٣)، وهم أهل بقر، وأبقارهم^(٤) صغيرة الأجسام، كبيرة القرون، ولكل واحد
منهم من البقر عدد كثير، وهؤلاء عراة لا يسترّون عوراتهم، إناثاً وذكوراً، وهذه
القبيلة من أقوى الفرثيت بأساً، ولشدّها مراساً، لا يدركها طالب، ولا ينجو منها
هارب، لشدّة عنوها وقوة أعصابها، ومن عاداتهم أنهم يبيتون في الرماد إناثاً
وذكوراً، وذلك لأنّ انثاهم بعد حلب البقر وأخذ لبنها وقضاء مصالحهنّ، يآخذنّ
أنية ويذهبنّ إلى الخلاء فيجمعنّ روث البقر الذي وجدنه ويجعلنه أكداً أكداً،
كل امرأة تجعل أكداً أمام بيتها، ومتى جف الكداس تلهب فيه النار وتتركه
يحترق من نفسه، فإذا كان بعد العشاء ولزاد الرجل النوم جامته لمراته بقطعة من
الزبد فادهن بها جسمه^(٥) ثم يدخل في الرماد المذكور فيبيت فيه فإذا أصبح ذهب
إلى غدير فاغتسل فيه ومن العجب أنه ينام في الرماد المذكور وأن الرماد لا يدخل
في خياشيمه بالتنفس وكيف يطبق ذلك، وهل تلك^(٦) عادة اعتادوها، وأنهم يدخلون
لجسامهم في الرماد ما عدا رؤوسهم، ولهم في ذلك بصيرة^(٧)، ومن العجب أيضاً
أنهم لا يسمون بقرهم، بل كل انسان منهم يختار بقرة بقرونها، بل تكون قرون
بقرة كلها على هيئتها،^(٨) على نحو خاص من جعلها معوجة إلى الامام،
ومنهم من يجعلها معوجة إلى الخلف، ومنهم من يجعلها معوجة ذات اليمين، ومنهم
من يجعلها معوجة ذات الشمال، ومنهم من يجعلها متعالية، ومنهم من يجعلها

^(١) في الأصل: "يسترون..".

^(٢) ظاهرة العري في القبائل الآرامية مبرومة والبلية خصوصاً مرتبطة بالمعتقدات والعبادات الروحية والتعبدات الدينية لكن هذه الظاهرة
أحدثت تقلّلاً الآن بسبب التعامل المسكّن والغمرات من العمل إلى الحبوب ومن الحبوب إلى العمل، كما أضحى الإسلام يستر سره
وسط هذه القبائل.

^(٣) الملقبة أو المخلدة: حور بنته أهل دار فور وكردفان على القبائل السلية في جنوب العراق، خاصة الديلمكا والشتك واليور.

^(٤) في الأصل: "ومرهم صفوة..".

^(٥) في الأصل: "ومل ذلك عذقة..".

^(٦) ملاحظة: أي صورة، أي رؤية ووجهة نظر، وهي كلمة يستعملها أهل دار فور ووردي عتاً.

ملتوية^(١) وهكذا، ولقد سمعت خبر هؤلاء القوم من عدة أناس ممن وصل بأبقساره
إلى بلادهم وحكوا هذا الخبر، والعهدة عليهم، ولقد رأيت بقرات من بقرهم،
وبقرهم صغير الأجسام كبير القرون وقرونها متلاقية كالهلالين والله أعلم بحقيقة
ذلك.

والحاصل أن الفرثيت أمة عظيمة وأجناس مختلفة، وهم مجوس لا يتكلمون
بدين، فكل من غلبهم تدينوا بدينه، وأنا أعرف من أسماء أجناسهم عدة، وهي
الثوبة^(٢) والتروج^(٣) والشك^(٤) والمجقة والجنقية^(٥)، والشالا^(٦) والبيقو^(٧) والرتو
والكاره^(٨) والينزة والقلة والفراوقية والفنقرو والبابا والجناخرة والنارة والنفقو
والكوكة، وما عرفت منهم إلا قليلاً من جل ساعة^(٩)، من قبل أن أخرج من دار
الفور بسنة، كان {هذا الرجل} قد ذهب إلى الغزو على عاقته، وكان بعض المكوك
استأنن السلطان في الغزو فلما خلاص من دار الفور وأراد أن يدخل الفرثيت جاءه
قوم من أعراب البادية وأخبروه أنهم مروا على أمة عظيمة من الفرثيت لم يسروا
غنائم قط، ومنحوا له في حسن رقيهم، فتوجه إليها ومكث يغزوها أياماً، ولكنهم
رجع مغلولاً ولم يكسب منهم إلا القليل، فاجتمعت {١٥ من تلك القبائل} على بعض

^(١) في الأصل: ملتوية.

^(٢) الثوبة: حسب المصطلح في السور لا ينمون إلى قبائل الفرثيت منهم أممى العربية فلهذا سكنت قبل حدود كردستان ولهم
صلوات مع قبائل عرب و قبائل السور أكثر من صلواتهم مع قبائل حدود السور، ولانما طور كثير في كل الأحداث فوطيه السن
لدت إلى قيام السور في الحال.

^(٣) التروج: راس المؤلف نطق على القبائل التي تسكن قبل عني حدود كردستان، حيث طلب السلطان يواب أصنافاً منهم والسكهم
مدينة كمكينة لخدمة الدولة في الجيش والفرقة المختلفة والنطق منهم اسم العبدية.

^(٤) الشك من القبائل البلية التي تسكن أعالي البيل، وينمون إلى مجموعة الديكا، ولهم حياقم الخاصة وروسهم الخس ويحمل معظمهم
في لربة الأخرى، وليست لهم علاقة بقبائل الفرثيت إلا القليل.

^(٥) الجنقية: سبق تعريفهم بآخر من

^(٦) الشالا: مجموعة من قبائل الفرثيت في حدود بحر العراق والطور دار سجا، وصفها الفارسيون بأنها من أدام لسان لكثرة الأمطار
صدمهم لأنها لا تنقطع إلا لشهرين طوط، والارتفاع درجة الرطوبة.

^(٧) البيقو: يقال إن موطنهم الأصلي في منطقة بحر العراق وأهم هاجروا منها إلى دار طور مند ومن بعد حيث منحهم سلطان دار طور
لوطاً يرونه، بشرط أن يخدموا لخدم السلطان كافة كل عام، ولما كانت ثم السلطان محمد فضل (١٨٠٢ - ١٨٢٩م) تنحس إلى
هذه القبيلة عند انطاع من هذا الطرد، ومنحهم حراهم ورفض طوية الأعداء على من يجر إلى استهم.

^(٨) الكثرة: من مجموعة قبائل الفرثيت حدود بحر العراق، وهم ملك بمكهم وهي من القبائل الثوبة.

^(٩) جل ساعة: هو أحد البحر الذي يقع في النهر العظيم، وكلمة ساعة معناه يسجل ساعة من داره، ١١٩.

عسكره فاخبروهم أنهم قوم جبارون يأكلون الأنمي حياً، فقلت له وكيف ذلك؟ قال: لما توغلنا في بلادهم خرج علينا من قرية من قرأهم عالم عظيم، بأيديهم كراييج طوال معوجة، وهذه الكراييج حادة الشفرة كالنموس، وخرجت نساؤهم خلفهم على رؤوسهن القداح ملأه بالعصيدة، مغطاة وحين تلاقينا صار الرجل منهم يهجم على الرجل منا ويضربه بالكرباج على كتفه، فحين يسيل الدم يمد يده إلى زوجته فتسكني منه القدح الذي فيه العصيدة، فيقطع منها لقمة ويغمسها في الدم ويأكلها وهكذا، ومتى قتلوا منا واحداً أكلوه، فقررنا منهم، فقلت: وما يقال لهذه^(١) القبيلة قبحها الله، فقال هم أعجيفه والله أعلم بحقيقة الحال، لأنه كما ذكرنا أنهم عالم عظيم قد سكنوا الجنوب من أول بلاد السودان من جهة المشرق إلى آخره من المغرب إلى دارملا، التي هي قاعدة ملك الفلان، وهي بلاد واسعة، وهؤلاء الفلان عالم عظيم، والعجب منهم أنهم كانوا أحقر أهل السودان، وأهل السودان كانوا يحقرونهم، ويقولون أنهم أولاد الحرباء، أي أنهم لا لب لهم معروف، بل إن أمهم الأصلية نامت فجاءها ذكر الحرباء فحملت منه بأيديهم الذي تداشوا منه^(٢)، وهم يزعمون أنهم من أولاد سيدنا عمار بن ياسر أحد الصحابة الأعلام الأجلاء والفضلاء والله أعلم بحقيقة الحال.

وأقول إن أهل السودان إنما اخترعوا لهم هذه المقالة أعني قولهم أنهم أولاد حرباء لينلوهم بذلك، لكن الحق يقال إن هؤلاء القوم فيهم علمية ومعرفة بالنسبة إلى غيرهم من أهل السودان وهم يرون أن جميع أهل ممالك السودان عصاة، بل يكفرون بعضهم ويقولون إنهم استحقوا الجهاد لأنهم غيروا وبدلوا في شريعة الإسلام، فأسقطوا الحدود وأخذوا أنماها، أي جعلوها مالية، وهذا محرم منهي عنه شرعاً، وابتدعوا مظالم كثيرة، واعتقدوا أنها مباحة، وجأهروا بالمعاصي، كالزنا

^(١) في الأصل: "وما يقال هؤلاء القبيلة".

^(٢) الحديث من فضل الفلان أو الفلاني كثير في كتب التاريخ، وربما قصد المؤلف لفضل (الأمير) وهم فرع من الفلاني وليس ما رأوا يحصلون الدعوة والوحشية، إنما الحديث من أنهم لم كما ذكر المؤلف بأنهم أبناء حرباء فهو حال بعض وهو ضمن الأساطير الأمريكية حول كثير من القبائل، لأن الفلاني لفضل كثيرة هاجرت إلى أمريكا منذ قبل الميلاد فمن الحضارات الأمريكية، وتوغلوا في أمريكا فترى من الشمال إلى الجنوب وعندما ظهر الإسلام في أمريكا كانوا من توائم القبائل الأمريكية إسلاماً وغيرهم دورهم الإسلامي لولا علي بن أبي طالب عثمان بن عفان في بداية القرن الخامس عشر الميلادي.

وشرب الخمر، والملاهي كالغناء والرقص وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، ومنعوا الزكاة فلا يؤدونها، وهذه الأمور يجب القتال علي كل واحد منها^(١)، ولما قوي عزمهم علي ذلك قام منهم رجل يسمى بالفتية الزاكي وجمع الجموع، وكان رجلاً متنفذاً عندهم، وأرسل الي ملك ملاً^(٢) رسولاً معه كتاب يقول فيه: من عبد الله الزاكي الي ملك ملاً أما بعد: فإن الله حدد حدوداً فتعديتموها، وفرض فرائض فأهملتوها، ونهى عن محرمات فارتكبتوها، وأنا أنبئك عن جميع ما حرم الله ورسوله، وأمرك باتباع الشريعة الغراء، بأن تبطل المكوس، وتقيم الحدود، وتتمسك أنت وأهل مملكتك بشرائع الاسلام، وتتوب الي الله مما أنت فيه، لأنه ليس لكم من الإسلام إلا الاسم، وإن أبيت فاني مقاتلك علي ذلك، كما قال الصديق مانعي الزكاة.

فلما وصل الخبر الي ملك البلدة وقرأ الجواب، قام وقعد^(٣) قال: يهينني بالقتال هذا الفلاني، ويعد علي هذه القبائح، ويزعم أننا لسنا مسلمين، ويتجراً علي بذلك، لا أتركه أبداً، فجهز السلطان جيشاً كثيفاً وأرسله اليه، وأمر رئيس الجيش بالقتال حتي لا تقوم للفلان بعدها قائمة، وأوصاه إن ظفر بالزاكي ألا يقتله^(٤)، بل يقبض عليه حتي يأتي به اليه ليوقفه علي أقواله ويسأله عن^(٥) أفعاله، ثم بعد ذلك يري فيه رأيه، فخرج الجيش وتوجه الي الفلان، وبلغ الخبر للفتية الزاكي فقال: هذا ما كنا نبغي فجمع أصحابه وركب هو علي بعير تواضعاً منه وليس علي البعير وطاء الا فروه من فرو الضأن وتوشح بسيفه، وصف أصحابه ووعظهم وقال لهم: أعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، وهؤلاء القوم أرادوا قتالنا ظلماً منهم، لأننا نصحتناهم، فكان جزاؤنا عندهم القتال، وقد قال الله تعالى "تلك الدار

^(١) في الأصل: "يجب القتال علي كل فرد منها.."

^(٢) ملاً أو ملي أو مان، من أسماء لمملكة مالي الإسلامية والتي نشأت علي سواحل البحر غربي سقوط دولة غامبي عام ١٦٥٠م - ١٠٦٨م علي يد الفرنسيين، وكانت مالي ممتدة من ولاية من ولايات دولة لانا فأعلنت تنوع علي يد قبائل الناديب حتى وصلت الي الحدود في عصر ملكها مساموسي (١٣٠٧ - ١٣٣٩م) ثم أعلنت تصحيل بعد ذلك حتى سقطت في يد قبائل السنهي الثالثة وكانت مالي من أهم الدول الإسلامية التي سمرت الاسلام في سواحل البحر، وربما يتحدث المؤلف عن ولاية من ولايات دولة مالي.

بئر: المرعوم طرعان: دولة مالي الإسلامية.

^(٣) في الأصل: "فلا يهتد.."

^(٤) في الأصل: "وسأله عن أفعاله.."

الأخرة تجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين^(١) ..
 فأصبروا على قتال أعدائكم، وأبشروا بالنصر والفرج، لقوله عليه الصلاة
 والسلام: "لو بني جبل على جبل لذكّ الباغي^(٢)" فثبت بكلامه قلوبهم، ووطن
 على الموت نفوسهم. ولاقوا جيش الفلان، فكان أن هزموهم بسرعة^(٣)، واستولوا
 على أسلابهم وخيولهم ورجع الوزير إلى الملك بالخبيبة والتوبال، ثم زحف الفقيه
 الزاكي في أصحابه حتى حاصر الملك، فخرج الزاكي في جند وأعرافه، صفوة
 الفلان إلى^(٤) الملك فانهزم جيش الملك هزيمة شنعاء، ودخل الفقيه الزاكي دار
 المملكة، فقتل من العلماء وأعداء الملك ما شاء الله أن يقتل، وأرسل وراء الملك
 سرية فجاءت به، فأمر بقتله، وبعد أن مهد الأمور بدار ملاً جمع العساكر وأقام
 في ملاً نائباً عنه، وأمره أن يقيم الشرع، ولا يأخذ إلا الزكاة وخراج الأرض على
 القانون الشرعي، وأن يجعل ذلك في بيت مال المسلمين، وخرج قاصداً مملكة
 كشنا^(٥)، وكان بينه وبينها نحواً من أربعين مرحلة، فافتحمها بالجيش ولم تصببه
 أفة، وسمع به العلماء فجاءوا إليه يهرعون لأنه كلما حصله^(٦) من الأموال يفرقه
 على الجيوش ولا يأخذ لنفسه شيئاً، وكان في سفره يصوم النهار ولا ينفد ساعة
 بغير وضوء، ولما وصل إلى كشنا خرج إليه ملكها وكان قد بلغه ما وقع بدار
 ملاً، فجمع له الجموع^(٧) (وذهب إليه) حتى وصله^(٨)، فراسله الفقيه الزاكي كما راسل
 ملك ملاً، فمزق كتاب الزاكي وسبه وخرج إليه في جيش عسير كثيف، فنصر
 الزاكي^(٩) (على الملك) وقتله واستولى على ملكه والمرايا في البلاد، فاستأصل جميع
 الأموال السلطانية وبسط العدل على الرعايا فأحبوه، وضيق عليهم فسي الأمور
 الشرعية، ونادي مناديه الا كل من سمع المؤذن يؤذن للصلاة ولم يبادر إلى

^(١) سورة النمل، الآية ٨٣.

^(٢) الحديث: رواه ابن الحوزي في المحل المشاع، ورواه ابن أبي حاتم في مثل الحديث،

مط: موسوعة التراث الحديث ٧٤٩/٦.

^(٣) في الأصل: "فكان بأسرع مما هزمهم .."

^(٤) في الأصل: "على الفلان".

^(٥) كشنا: سبق تعريفها، مطر من

^(٦) في الأصل: "كل ما حصل له من الأموال .."

^(٧) في الأصل: "فجمع لها جموع حتى وصل إليه مرسله الملك الزاكي .."

المسجد فحمله هنرا^(١)، وأبطل الخمر والمكوس، ومكث هناك ما شاء الله له أن يمكث حتى تمهدت له البلاد وأقام فيها عاملاً من طرفه، {ثم} جمع العساكر وقال: إني آليت على نفسي أن لا أترك ملكاً من ملوك السودان الظلمة إلا وفعلت به كما فعلت بهذين الملكين، ولأملأن الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، ثم خرج بهم السي مملكة نفا^(٢) ومن عجيب الاتفاق أن خروجه ولفق خروج سعود بن عبدالعزيز الوهابي من الدرعية إلى مكة والمدينة^(٣)، مدعيّاً أن الناس تركوا الشريعة والتزموا البدع، ولذلك هدم قباب الأولياء والصحابية التي بالمدينة ومكة، وكان له شرطى يضرب الناس إذا أذن المؤذن للصلاة ولم يدخلوا المسجد^(٤)، وحرم شرب

^(١) الحُكم بطل من لا يهتدى إلى المسجد، فيه خروج من التشديد، وهو أمر لا يخره الشرع بقرع من أي البلاد وما وصلت إليه من غلاة وحيد من الدين يتقلب فيها من التشديد، لكنه لا يميل إلى حد الغل لمن لم يلب الصلاة في المسجد.

^(٢) بعد لو نزل في لابل تسكن على ضفاف بحر البصرة الشمالية، في الجهات الحامية لبلاد أوروبا في الضفاف الجنوبية، وقد سكنت هذه المناطق منذ القدم، وكانت عاصمتهم مدينة رابا، ولهم سلطان يحكمهم حتى ظهور الشيخ عثمان بن فودي حيث كاد عليها حين ملكها، وانتشر فيها الإسلام مثل واسع، ثم نقلت العاصمة إلى مدينة بندا، ومن نعم ملكها بترقي ولا يصر، وخضع هذه للمملكة ضمن جمهورية بحريا الشمالية :

يقول : آدم عبد الله الفوري : الإسلام في بحريا والشيخ عثمان بن فودي الدلال الضمة الثالثة ١٩٧٨ ص: ١٢١ .
^(٣) نزل الأمير سعود بن محمد بن مقرن إمارة الدرعية في بداية القرن الثامن عشر الهجري (كانت الدرعية الحاضرة الإسلامية في نجد، السعودية) وأقيم فيها اتفاق بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التيمي الحنفي صاحب الدعوة الإسلامية في نجد، والأمير محمد بن سعود بن محمد، حيث انتقل إليه الشيخ في الدرعية فوجد منه تأييداً لدعاه الذي يدعو إلى إصلاح المجتمع المسلم بما وفق به من عادات وتقاليد بعيدة عن الإسلام وتعاليمه فادعاه إلى الصفات بالكتاب والسنة الطاهرة، وجميع آثار السلف الصالح، ففرقت حركته بالسلطة نبعاً لثقلته، ويحذر هذا الاتفاق بين الطرفين أساس النهضة الدينية والسياسية التي أخذت في الحرية العربية كلها، في السعي الحديث منذ ذلك الحين ككتب المهدي بالسنن والسنن على كل الشؤون له مؤلفات فكان النصر عليهما حيث انتزعا على يد محمد والمحقق وكان ذلك تمهيداً لنظام المملكة العربية السعودية التي أقيمت من الرياض عاصمة لها، فاستمع أهل القبائل في هذه البلاد ولأول مرة في تاريخها تحت راية دولة واحدة، وقد ساعد نمى النزول في تمكين أمر السعوديين، فاعكس ذلك بشكل واضح على الأماكن القديمة، فسهلت كل الصعوبات للمسلمين في أداء فريضة الحج والعمرة، مما جعلها مستمراً وحاملاً لهذه الحركة الإسلامية في نجد، سيما بعد الحركات المتعددة خاصة في الخليج مدعاه وداعيتها للشكوك بمحرد وفاة رعايتها وذلك مثل حركة الشيخ عثمان بن فودي في بحريا، وحركة الشيخ عمر القوي في البحر والسنن، والحركة الهدية في السودان.

يقول : د. حسين مؤنس، العقلي تاريخ الإسلام، ص: ٢١١.

د. عبد الله محمد كبر، المصدر السابق ص: ١٢٠.

^(٤) إن أمر حرم الشيخ محمد بن عبد الوهاب المسلمين على السكن بالمدن، وحرر أهلها من أي أداء فريضة فلو لم يصر من، وهو من قبل الأمر بالعرف والسنن على الشكر، وكان عمر رضي الله عنه بمصر الأسواق والطرق والعمرة في هذه الفترة وليس كسبل مستطيل متطوّر يسمى لأمنا الأمن في الحرس، ولدت العالم الإسلامي كله بمصر ثم للملكة السعودية في هذا الأمر. أما قرار الشيخ الأراكي بقتل من لا يهتدى إلى المسجد، فهو أمر لا يخره الشرع لأن الأرض كلها مسخرة للمسلمين لله تعالى على الله منه ومسلمين حطمت في الأرض مسجداً ونزعة ظهوراً فأبدا رحل الحركة الصلاة فليعلم، وبالتالي لا يجوز قتل المسلم الذي لا يهتدى إلى المسجد.

التبكي^(١) والدخلى، ونهى الناس عن قراءة الدلائل^(٢)، والتوسل بالاولياء والانباء، بل لايقول الانسان الا بالله، وكان اذا سمع انساناً يحلف بالنبي يضربه ويقول له: تب يامشرك، ويجلده^(٣)، فكانت عقيدة الزاكي هذا تشبه عقيدة الوهابيين في أمور كثيرة وكان خروجهما في زمن واحد.

ولما وصل الفقيه الزاكي الى مدينة نفه خرج اليه أهلها مصحبة ملكهم فقاتلهم وهزمهم واستولى على المدينة، وهي أعظم مدينة توجد في بلاد السودان، بما فيها من الخيرات وحسن اخلاق أهلها، لان أكثر أهل تجارة، يتوجهون الى تبكتو^(٤) والى كسنة وغيرها، فيأتون بالتاجر العظيمة، وهذه المملكة محاذية لمملكة مراکش من بلاد المغرب.

ومما اتفق من كثرة غني^(٥) أهلها، ان تاجراً حل بها (واراد ان) يمتحن أهلها بأمواله، وكان معه نحواً من ألف رأس رقيق وخمسمائة بعير، ولما دخلها جاءه التجار مسلمين عليه ومهنتين له بالتقدم، فلم يحفل بهم لعدم معرفته إياهم، فاحتفظ

^(١) التبكي: هو التمسك، ويسمى في دارفور "البا" ويسكن من ورق نبات برود في دارفور، ويحرق لم يعمل في شكل القاع لعمارة وعند الحاجة يذق في مفرس حتى يحدو دماغاً لم يضر مرة أخرى بعد خلطة بالخطرون ومواد أخرى، فصيح راحته كرهية صلبة الانسان بالدور القاسية وبالحال فهو نوع من التعذبات، وتلك التعذبات العظيمة مدى استمرار العسيرة بالاسك فهو من مسسات مرضى سرطان الدم، ولهذا في سرته لايتك فيها، لما الدليل في ذلك الرمان، فهو غير النقاء، ويطلق عليها اسم دماء، وقد يستعمل البعض وهو طازج في شكل شحات بالورق ويدهنها، ولذلك فان مايسرى من حكم على التبكي يسرى على الدماء.
ينظر: نسخة الانعام من ٣٠٠.

^(٢) الدلائل: المقصود هو كتاب دلائل الحوائج.

^(٣) لعل النسخ عن ذلك ليس الاسلام عن الخلف بغيره، حيث جاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من كان حاداً متحلفاً، بالله أو لهجت) وبالحال فان الخلف بالله أو التسويج أو الآله أو بالطلاق، كل ذلك مهيء له شرعاً.

^(٤) تبكتو: هو تبكت أو تبكت، مدينة اسمها طورق مشهور على الشعي الأعلى لهر النهر، وهي في مدخل الصحراء، وتبكت كلمة من مطلقين "تب" ومعناها مر على لغة الطورق، ويكنو اسم الزرك في كانت نهرها، أسست سنة ١١٠٠م وأصبحت مأوى للتجار المسلمين ولصدقا المشايخ، وشدة العلم من كل الآلاف، قال عنها السعدي: "ما دسها جماعة الاوثان، وما سعد على انبها لطف لهر الرحمن" فظورت سريعاً بتوكل العلماء والتجار عليها من قبل المرابطين ومصر والمغرب وحتى من بلاد فارس، فاصبحت مساعداً عمرة بالعلماء والطلاب خاصة مسجد سكوري، ومسجد سيدي يحيى القادري وغيرهما، وقد رارها الرحالة الحسن السوري في القرن الحاشر الطبري (١٦م) ووجد ان الكتب فيها أغنى من الذهب وقد بلغت تبكت شتواً بعداً في عالم العلم والتجارة في عصر امسكيا الحاج محمد حاكم دولة سني (١١٩١-١٥٢٨م) حيث رارها الشيخ محمد بن عبد الكريم النعيلي بعد ابعاده من الغرب والصحراء بسبب تورته على اليهود في الغرب، كما كان لحكمتها مراسلات مع الشيخ السوطي. واصبحت تبكت عمرة حتى ولدت في يد لراكنتون (١٥٩٠-١٧٥٠) لم التوالى ١٨٢٧م، لم ولدت أمراً في يد الفرنسيين عام ١٨٧٨.

ينظر: د. عبد الحى محمد كيو: الدور القوي للشيخ احمد بابا المبكي، تحت عنوان الدراسات العربية عدد ٩.
^(٥) في الأصل: "من كثرة غنا أهلها".

منه رئيس التجار وأخفى غيظه في نفسه ولم يبد، غير أنه تعمد أن يغيظه أيضاً، {فجاءوا} ^(١) وسألوه ما معه مما يباع، فقال لهم: معي هذا الرقيق لكن لا يبيعه إلا لشخص واحد، هو والابل والحيال والأجربة والأثبة كلها، فمن يقدر على ذلك يتقدم الي، ومن {لا يقدر فلا يتقدم} ^(٢) الي {فسمعوا منه ذلك، وقالوا له استرح الآن وسياتيك من يأخذ منك ذلك فمكث نحو ثلاثة أيام، وكان بلغه أن في هذا البلد شخصاً لا تعرف أمواله لكثرتها، وكان هو رئيس التجار الذي جاء ولم يحفل به مع من اتاه للتهنئة، فلما كان اليوم الرابع أرسل اليه الرئيس المذكور أحد عبيده أحقرهم لديه وأقلهم مالاً، وكان يسمى سعيداً، وقال له: اذهب واشتر جميع ما عند هذا الرجل، ولا تبق معه شيئاً، وأهل هذا البلد يتعاملون بالودع، فلبس العبد أفخر ثيابه وتوجه الي التاجر، فلما راه احتفل به، وظن أنه رئيس التجار، ولما استقر به الجلوس قال له العبد: إني أريد أن تعرض علي ما معك من الرقيق إن كنت تريد بيعه، فإني محتاج لأن أرسل شيئاً من الرقيق الي بعض الجهات، وبلغني أنك تريد بيعه كله صفقة واحدة، وهذا أحسن لي من أن اشتري من كل جهة بعضاً، فأنعم عليه بذلك وعرض عليه أحسن ما عنده فقال له العبد أترك أحسن ما عندك وأبيع ما عندك، وهات شيئاً من الوسط نقومه بقيمة تسري علي باقيه، وكان كذلك، فجاءه التاجر بعبد وجارية، فاشتري منه كل رأس بستين ألف ودعه، وأخذ يده علي ذلك، وكذا الحبال والأجربة والأثبة وجميع ما عنده ولم يبق له إلا أم ولده، ووعده بعد ثلاثة أيام يأتي ويقبض المال، فلما كان في اليوم الثالث لبس الرجل أفخر ثيابه وتوجه الي رئيس التجار ظناً منه أنه هو الذي اشتري منه الرقيق فدخل داراً تشهد لبانيها بالثروة، فرأى هناك لزججاً وأناساً ^(٣) كثيرين، وصاحب المنزل جالس كأنه ملك من الملوك والناس داخلون عليه وخارجون من عنده، فسلم الرجل علي صاحب الدار فرد عليه السلام وتشاغل عنه، ولم يحفل به حتي قضى جل لشغاله، ثم بعد ذلك توجه الي الضيف وقال له: أنك حاجة، قال نعم جئت لأخذ ثمن

^(١) ن الأصل: "نعمد أن يهدد أيضاً مائة".

^(٢) ن الأصل: "فمن يقدر على ذلك يتقدم الي ومن لا فلا يسر".

^(٣) ن الأصل: "فأرى هناك لزدججاً وأناساً كثيرين". وهو خطأ والصواب رأى لزدججاً وأناساً.

الرقيق، فقال له وما الرقيق الذي جئت تأخذ ثمنه، قال: الرقيق الذي اشتريته مني أول البارحة قال له يا هذا إنك غلطان، وأنا لي كذا وكذا سنة ما اشتريت رقيقاً، وإذا أردت أن تشتري مني فلما أبيع لك ما تريد، ولو عشرة آلاف رقيق، فتحسب الرجل وقال للتاجر: أنت^(١) رئيس التجار فلان، قال نعم، قال وهل يقبر غيرك أن يشتري مني ألف رأس من الرقيق بأدواتها صفقة واحدة، قال نعم إن لي نحواً من ثلاثين عبداً تاجراً، وأقلهم يقدر أن يشتري أعظم مما ذكرت، فأصبر الآن حتى نرسل وراء العبيد وننظر من الذي يشتري منك ذلك، فجلس الرجل متعجباً من تلك الحال، فلما بعد من عبيد التاجر قد أقبل على سيده وقبل يده وحكى له أنه في ذلك اليوم اشتري من الرقيق كذا، ومن الذهب كذا، ومن الودع كذا، وأنه يريد أن يرسل الرقيق إلى ناحية كذا، والرجل الغريب فزع^(٢) يسمع ولا يدي شيئاً فلما تم مقالة لسيده قال له سيده: هل اشتريت من هذا الرجل أول البارحة رقيقاً، فقال له العبد لا والله، وماذا أصنع بالرقيق وهو عندي كثير، فقال له سيده: أرسل إلى أخواتك حتى يلتوا ونسألهم أن كان منهم أحد اشتري منه الرقيق يدفع ثمنه، لأنه رجل غريب، ويجب علينا أن نسعى في قضاء مصالحه، فكان كذلك، وبعد ساعة جاء كثير من العبيد وكل منهم يعرض على سيده ما اشتراه وما باعه، وسألهم سيدهم عن من اشتري الرقيق، وكل منهم يحلف ويقول أنا ما اشتريت رقيقاً حتى طلق الحال على الرجل، وظن أن رقيقه قد ضاع، فقال: سيدهم انظروا من اشتري هذا الرقيق منكم، فقال: أن صدقتي حزري يكون سعيد هو الذي اشتراه، لأنه قد بلغني أنه اشتري رقيقاً كثيراً صفقة واحدة، فقال سيدهم لحضروه لعنه الله، هو الذي يفعل هذه الأفاعيل، فما كان إلا قليل حتى حضر، فسأله سيده هل أنت الذي اشتريت الرقيق، قال نعم، ومن أعلمكم بذلك، قالوا له هذا صاحب الرقيق جاء يطلب ثمنه، فالتفت إليه وقال له يا هذا بنس ما صنعت، جئت وشكوتني إلى سيدي من غير ذنب مني، فهلا أتيت إلي داري وطلبت مني ثمن رقيقك وأخذته بغير أن تشكوني، قم معي وأقبض مالك، وصار يوبخه على أتيانه إلى دار سيده، فقام معه،

^(١) في الأصل: كبير ريس التاجر.

^(٢) في الأصل: ولم يزل يسمع، معاً يسمع.

فلما وصل العبد الي داره رأي من الرجل ما أبهره من كثرة الرقيق والمال، ففتح العبد مخزناً له وابتدأوا يعدون الثمن، ولم يبرح {مكانه} حتى قبض جميع المال من ثمن الرقيق والحبال والأجربة والأبل، وبعد ذلك قال له العبد اني تبست الي الله ورسوله من اليوم أن امشري من متلك شيئاً، أنفتني وتفضحني وتكفوني^(١) الي سيدي مع اني اشتريت أضعاف ما اشتريته منك وسيدي لا يعلم، فعند ذلك صغرت عند الرجل نفسه، وحلف أن لا يقيم في هذا البلد، وعرف أن ماله بالنسبة الي مال أقل رجل فيها ليس بشيء، وجيز حاله وخرج منها مسرعاً، وحكي لي رجل من أهل فزان أنه توجه الي نفه ومكث فيها أربعين يوماً، فلم ير بلداً أحسن منها، ولا من أهلها، ولا أرخص من أسعارها، ولا أكثر من خيراتها، حتى أنه تعشقاها، قال: ولما إيت مكثت في الطريق أكثر من أربعين يوماً وأنا أري نفسي فيها، فتعلق قلبي بها.

ونرجع لحديث الفلان، ولما استولي الفقيه الزاكي عليها استخارها^(٢) وحسنت في عينيه، فأمر أن تبني له فيها داراً، ويجعلها دار ملكه وقاعدة سلطنته، فيتوجه الي أي محل أراد، ثم يعود اليها، فمكث فيها نحو عام لا يخرج منها، حتى أراح جيشه، ومهد الأمور ورتب قواعد الدولة، وأخذ الخراج وأعطى العطايات، وتوجه منها الي حضواء، وهي المدينة المشهورة بحسن الرقيق، لأنه لا يوجد أحسن من الرقيق الذي يجلب من هذه المدينة، وهي قاعدة إقليمها وهو عمل واسع، فحاربها الزاكي واستولي عليها كاستنائه علي غيرها، وتوجه منها الي لنكر، ومنها الي برنو، كما ذكرنا، ولما استولي علي المملكة أقام بها، وخرج ملكها فلراً بنفسه الي كاتم^(٣)، فلتقاء الفقيه محمد أمين الكاظمي وأنزله هو وعساكره خير نزل، وصار يجمع له العساكر من الأفاق ويرغبهم بالاعطاءات، ويرغبهم بأن عزيمته دفع العدو عن البلاد، {ولأخذ} يعظهم ويحرضهم علي قتال عدوهم، ويعرفهم أن هذا الفلاني باغ عليهم، لأنهم مسلمون ولم يرتكبوا محرماً يوجب

^(١) في الأصل: "وتشكن".

^(٢) "استخارها" بمعنى استعمل الله في امرها.

^(٣) كاتم: هذه الأحداث هي الثورة التي قادها الشيخ عثمان بن عودي في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر كما سبق تفصيله.

القتال، وأما ما يقوله من أنهم خالفوا الشرع وتبعوا أهواءهم، إنما هي على الترحيها
ليقال إنما قاتلهم على الدين، وهو في نفس الأمر طالب ملك، ومكث على ذلك سنة
كاملة، حتى جمع جيشاً عظيماً ثم أخذ السلطان وتوجه بالعساكر إلى برني برنو
بعد التوبة والاستغفار والتضرع إلى الله الواحد القهار، وطلب النصر على أعدائهم
الفجار، ولما وصل إلى البرني خرج لهم الفلان، ووقع القتال، وكان يوماً مشهوداً،
فهزمهم جماعة السلطان، واستلموا منهم ما لا يحصى كثرة، وفر الزاكي بمن بقي
معه، ودخل السلطان البرني مؤيداً منصوراً ببركة الفقيه محمد أمين الكاشي
المذكور وصار له الأمر والنهي على جميع القواد والأمرء، وجدد السلطان ما
لهم من الشرف والمجد، وقد كان سائر ملوك السودان خائفاً^(١) من الفلان، ونزل
الربع في قلوبهم، فلما هزمهم البرنو قويت قلوبهم، وذهب ما كانوا يجدونه من
الخوف. أ. هـ.

وأقول: إن جميع ما جرى لبلاد السودان من كثرته إلى برنو إنما كان سببه
الحضارة وما فيها من الشرف الذي ذكره العلامة ابن خلدون في تاريخه، فأنهم لما
أنفوا الأماكن الجميلة، والمأكلة الشهية، والمناكب الحسنة وتمكنوا منها، كرهت
نفوسهم القتال {وأنقلب} على الحياة خوفاً من فوات ما ألفوه، ورضوا بعمار
الهزيمة، وفاتهم التمدح بفخر الغنime.

فإن قلت: كيف تكون الحضارة بهذه المثابة مع أن طوائف الأقرنج لما
عظمت حضارتها اتسعت ممالكها، وأخافوا عدوهم، واشتدت شوكتهم وانقلبت على
أعدائهم وطاعتهم، ولو كانت الحضارة مودية لما ذكر لكانوا متفرقين أبادي سباً،
وأموالهم وأولادهم في يد أعدائهم نهياً، لأنهم بلغوا الغاية القصوى من الشرف،
وأخذوا من كل حذب وطرف.

قلت: نعم لما ما نكرتم من حضارة الأقرنج فأمر لا ينكر، لكن فرق بين
الحضارتين، لأن حضارة أهل السودان إنما هي مقصورة على المأكلة والمشرب
والمناكب والمباني والفرش والأواني والمراكب والأغاني مع الجهل بالعلوم العقلية
والرياضية التي لا يتميز الإنسان عن الحيوان بدونها، كالهندسة وقانون الحسرب

^(١) في الأصل: "مرا...".

والطبيعة والطب والكيمياء وحياة الحيوان، وعلم النبات وخواص الأشياء، بل من تفقه منهم اقتصر على كتب مذهبه فعرف ما فيها، وحضر قليلاً من علم التوحيد والنحو، وهذا هو الذي عندهم يسمى عالماً، وإذا رأوا من يمارس كتب الفنون التي ذكرنا بعضها نسبوه إلى الجنون والفلسفة أو الاعتزال، مع أن هذا ظلم منهم، حتى أن علم المنطق الذي يصبو الفكر عن الخطأ حرمه بعضهم، مع أن به تقام الأدلة وتتركب القضايا، وتؤلف القياسات، وتستنتج النتائج، وهذا جاء من أمرين: الأول: عدم اعتبارهم من أول الزمن، لأنهم لو كانوا رأوا أسلافهم يتدارسون هذه الفنون لرغبوا فيها.

والثاني: أنهم اعتادوا الراحة، والمعالجة في هذه الفنون تتعب قرائحهم وتذهب براحتهم، خصوصاً وولاية الأمور لم يمتدوا بهذه الأمور، ولا يجيزون بها، والناس على دين ملوكهم، فرق بين حضارة مع علوم حكيمية باعثة على حب الوطن والقتال عليه، مغرية على شرف النفس، جاذبة إليه، وحضارة ليس فيها إلا لذة المأكول والمشرب والجهل البسيط بالعلوم المذكورة فما كان هو إلا ببيمة ترعى، مهما جاعت ومهما شبع رقت، ومهما شبق جامع، وقصاري الأمر إن الإنسان منهم لا يعرف من الحرف إلا الحنية أو الفلاحة والتجارة مع عدم الانتقال، وأما الأقرنج فلتعلمهم العلوم المذكورة عرفوا طبائع الأشياء، فاخترعوا الآلات العظيمة، والتحف الأنيقة، فترى كل ما عملوه متقناً، سواء كان من آلات الحرب كالسلاح، أو من الملابس كالثياب، أو من الأواني، أو من التركيب النافعة للأمراض، وعرفوا أنواع السموم القاتلة، والتداول وعلم جر الانتقال^(١)، حتى أن العشرة منهم ربما أقلوا^(٢) ما لم تنقله المائة منا.

فإن قلت قد تقرر أن الأقرنج المذكورين عندنا معاشر المسلمين كفار، وحب الكفار كبيرة ربما جرت إلى الكفر، قلت: إن كان حبهم من جهة الدين والاعتقاد لا من جهة كونهم فعلوا كذا وكذا، أجمل من فعلنا، بل لا نسلم أن هذا

^(١) إن هذا المؤلف منهم من الانتقال، ربما رفع الانتقال إلى معنى الأسماء، فالمعنى من الانتقال، حيث أصبحت اليوم تنقل لها القوروت المثلثة، وإن عرفت باسم كالمات القوي ..

^(٢) كلمة أقلوا بمعنى رغبوا.

حب لهم، بل هو من قبيل حكاية الواقع، وأنا أعوذ بالله أن أكون مائل القلب إليهم في اعتقاد أو دين، فإن قلت: يمكننا أن نتعلم تلك الحرف والصنائع منهم، إما بالذهاب إلى بلادهم، أو بجلب معلمين منهم بالأجرة الوافرة، لكن إنما يمنعنا من ذلك أن علينا خمسة أوقات مفروضة، وإذا أوغلنا في تلك الحرف والفنون ربما شغلنا عنها، مع أننا مسئولون عنها، ومعاقبون على تركها، قلت لا نسلم أن الاستغفال بتلك الحرف والفنون يلهي عن الصلاة والعبادة، بل المتدين متى جاءه وقت عبادته ترك حرفه وبارأى إليها، وغير المتدين سواء كان فارشاً أو مشغولاً لا يعبأ بالوقت، ويسرف حتى تقوته العبادة.

ولنرجع إلى ما نحن بصدده فنقول:

وبالجملة فالخالق جل جلاله جعل أحوال العالم على حكم علمها، وجعل منهم الشجاع والتجبان والمتين، والمفرط والذكي والبليد، والجواد والبخل، في كل نوع من الأنواع، إلا أن بعضهم يغلب على كذا دون كذا، وبعضهم لا كذا ولا كذا، شأن الوداي في ذلك شأن النور، فهذا (نجد طبيعة حياتهم متقاربة) وبينهما مشابهة في الكلام والشجاعة والجبن، والكبر والتواضع، وحب الراحة والميل إلى الزينة، والافتخار والانتقام ممن قنروا عليه من الأعداء، وإهمال بعض الأمور المهمة، والاستغفال بسفاسف الأمور، إلا أن النور فيهم بخيل لا يكاد يوصف خصوصاً أعجامهم، ولما ملوكهم فكرائم^(١)، لأنهم ليسوا من النور على الصحيح^(٢)، وفي النور طيش وعدم تودة، وإن كان هؤلاء (أي النور) سود في إقليم أشعث أغبر، وهؤلاء (أي الوداي) بيض في إقليم عظيم الخيرات، ونجد طباع الوداي تشابه طباع الفرنسيات حتى في الكرائنة إلا في البخل فإن أكثرهم كرماء ولا يوجد مثل كرمهم إلا في العرب، وفي مجلس الملك فإن الأمر للكماكنة لأرباب الشوري، وهم أهل البلد، فإن خالفهم السلطان سطوا عليه كما تفعل أهل فرنسا،

(١) كرائم = أي كرماء، أو كرم.

(٢) عبارة أنهم ليسوا من النور = هذه جملة لأن الرواية القديمة تذكر أن هذه ملوك النور هو صفات صولون من أحد الفلاسفة وهو من نون، لكن صفات ولد من لم يورثوه وشفو من النور وروح منهم وأحب أناسه الذين قالوا في النور وأسمعوا حكمتهم ينفلون بنفادهم ويحذرون بنفهم وبالتالي أصبحوا من النور في واقع الأمر، أما السبب الذي ظهر بهذه وهي رواية فلسفة تكون صفة، لأن هذه ملوك العرب المسلمين يسرون أمورهم إلى العرب حتى في الإسلام.

وطبائع الباقرما والكتكو كطبائع الايطاليا، حتى في ادلال كلامهم واحوالهم، وطبائع البرقد والناما والزغاوة والميدوب كطبائع الاروام في الخيانة وعدم الأمن، وفي النذل اذا وقع في الأسر، وطبائع الغلان كطبائع الموسكوف^(١) في حب الغلبة علي سائر الأقاليم، وكثرة العساكر والجنود، لكن في الديانة كطبائع السينبول^(٢)، لأنهم ربما قتلوا المرء علي ترك فضيلة واحدة وحكموا بكفره، وطبائع البرنو كطبائع الإنجليز في المساواة والزينة وكثرة الأموال، وطبائع الداجو والبيكو كطبائع فلاحى الإقليم المصري، فأنهم يحبون الكسل والقدارة والأوساخ، ويتحملون للتكاليف الشاقة من الحكام، من السخر ولأخذ الأبناء والبنات، وهم لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا، بل لا خصوصية لهاتين^(٣) القبيلتين، بل البرتي والمساليت أكثر تحملاً منهم مع أنهم أكثر مالا ورجالا، لكن يخافون من قسعة السلاح كما تخاف الغنم من الذئب، فتجد الرجل من القور يسوق المائتين من البرتي أمامه بعصاه^(٤)، فسبحان من هذه حكمته لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

(١) ربما يقصد بالموسكوف "روس" من لعل موسكوف.

(٢) السينبول : ربما يقصد "السنبول".

(٣) في الأصل : "الطين" وهو خطأ.

(٤) لم يسبق مثل هذا الكلام في تاريخ مصر من قبل، ولا أعرف من أين وجدته المؤلف.

الفصل الثالث

في أحوال دار وداي وعواندهم

وعواند ملوكهم وأسماء مناصبهم

لما كان الخالق الأكبر تزهت ذاته وتقسمت صفاته مخالفاً لجميع مصنوعاته فلايمائته أحد في ذاته ولا في صفته ولا في أفعاله، نوع العوائد كما نوع العوائد، وجعل زينة قوم شينة آخرين، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة، ولكن بتسوع العادات واختلاف الاصطلاحات يعلم اللبيب الحاذق أن الحكمة الإلهية تقتضت لكل قوم ما اعتادوا عليه: ويشق عليهم تغيير عواندهم دينية كانت أو دنيوية، فإذا تقرر ذلك أقول: إن عادة الوداي تقرب من عادة الفور في بعض الأحوال وتخالفها في البعض الآخر، أما وجه التقرب ففي المأكل والمشرب وملابس النساء وزينتهن، فإنها وإن لم تكن بينهما مماثلة كلية في ذلك فهي قريبة منها مبتدأ، وأما وجه المخالفة ففي أسماء المناصب وعوائد الحكم وترتيب الديوان والكرام الذي لا يدرك مثواه، فكلهم كرام فقيرهم كغنيهم وكل يجود على قدر حاله، وقيل إن تذكر العوائد وأسماء المناصب تذكر السلطنة وبناء الملك، وكيف يتوارثونه وما عاداتهم في ذلك فنقول:-

لما استوطنت دار وداي وصليت الجمعة في مسجدهم الجامع سمعت الإمام يدعو للسلطان في الخطبة يقول: اللهم أنصر السلطان محمد عبدالكريم ابن السلطان محمد صالح بن السلطان محمد جودة بن السلطان صليح، فسألت من منيهم هل أحد يعرف كيف كان ابتداء أمر السلطان صليح، وإلى أي قبيلة ينسب، فاختلفت الآراء فبعضهم يقول هو مسناوي من قبيلة يقال لها المسناوية، نسبة لجبل عندهم يقال له لبو المسنون^(١)، وهذه للقبيلة أعظم قبائل الوداي شرفاً ورفعة، ثم أتت

^(١) أو المسنون: أب مسنون اسم يطلق على جبل في وادي وادي نسبة فيه المسنون أو أي مسنون، كانت هذه القبيلة على التولية لم أصح لمرادها الإسلام على يد السلطان صليح، واستطاع بواسطتهم أن ينشر الإسلام في وادي وادي فاصلة بين الضلعين منها ملحقاً مدداً ولزناً السلطان صليح هذه الضلعين الأربع برزخ المسنونة ومنها جميعاً شأت الأسرة المالكة في وادي كما ورد في أصل هذا الكتاب.

متر: الترجمة الفرنسية Voyage au Waday. PP. 69-73

رأيت في خاتم السلطان (عبارة) السلطان محمد عبدالكريم بن السلطان صالح
العباسي، فبحثت عن هذا النسب الشريف من أين وصل إلى هؤلاء الاعجام حتى
امتزج بهم وصار كأنه منهم، فمن قائل يقول: إن هذا النسب مفترى، وإبه لا علاقة
له بالعرب البتة، ومن قائل أن هذا النسب حق إلا أننا لانعلم وقت دخوله فينا، ثم
سألت العقيد احمد من رؤساء الدولة ودهاتهم فاخبرني أن القطار لما تغلبوا على
بغداد وخرّبوا بيت ملك العباسيين انتقلت الخلافة إلى مصر وبقيت كذلك حتى
تغلب الأتراك والمماليك على الخلفاء وذلك بعد دولة الفاطميين تفرقت أولاد
الخلفاء في البلاد وكان منهم رجل فر إلى أرض الحجاز واستوطن بها حتى ولد له
ولد فسمي ولده صالحاً، فلما كبر صالح اجتمع مع حجاج علماء سنار^(١)، وكان
فقيها ورعاً عابداً فأحبوه وكان رجلاً كثير السياحة في البلاد فحكوا له عن بلدهم
ومافيهما وشوقوه لرؤيتها، فتوجه معهم اليها ولم يطل الإقامة بها، لما رأى فيها من
الفسق والفجور فخاف على نفسه وفر وتقل في سياحته من بلد إلى آخر حتى نزل
بجبل أبي السنون بأقليم وداي، وكانوا مجوساً لا يعرفون الاسلام ولا الكفر، فتدخل
بينهم وصار يعبد الله ويصلي ويصوم ويكثر الذكر والقراءة فأحبه السيناويون^(٢)،
وسألوه لاى شيء يفعل ذلك، فقال: عبادة الله، فقالوا له: وما الله؟ فقال: الذى خلق
السموات والأرض والليل والنهار، والشمس والقمر والكواكب والأشجار والأنهار
فهذا هم الله على يده وأسلموا، فعلمهم سوراً من القرآن والصلاة والصيام، ومازال
بهم حتى تمكن الإيمان من قلوبهم، وكانوا طائفة عظيمة فسموه شيخاً، وكان يأخذ
الزكاة من أغنيائهم فيصرفها في فقرائهم، ثم قال لهم: إن الله أمرنا بالجهاد فهلموا
نجاهد من لم يوحد الله، فأجابوه فخرجوا معه إلى أقرب القبائل بجوارهم فلرسل
لهم رسولا يدعوهم إلى الاسلام فأسلموا وذهب إلى طائفة أخرى فأسلمت وهكذا

^(١) سنار هي عاصمة مملكة المروج وابن بطيطة فيها أملا مملكة سنار كما عرفت باسم السلطنة الأرغاة، قامت هذه المملكة على
البحر من مملكة دولة المسجلة لوقوع القرن العاشر الهجري فالتحق من الملاحى على يد رعيهم المروج عبادة دسيس وعقيدة مدته حجاج
البحر من مملكة سنار وحول القرن العاشر من القرن الهادى ولجنت مساحتها من سواكن شرقاً إلى النيل غرباً
ومن أقصى شمال دارو منى جنوباً إلى الشمال الثلاث بلاداً، وطغت بدور كبرى في نشر الاسلام وانتفاة العربية في السودان وكسبت
معصرة السودان السود والى في الغرب، واستمرت سنار في الخطاه المتعارى حتى حرقها الأتراك بقيادة محمد على باشا عام ١٨٢٠م.

^(٢) في الأصل "فأحبه السيناويون..."

حتى أسلم منهم أربع طوائف^(١) من أعظم طوائف السودان، وهم أهل المملكة الآن، ومن عاداتهم أن الملك إذا لم تكن أمه من هذه الطوائف الأربع^(٢)، لا يرضون بولايته، ثم جاؤوا ببقية طوائف السودان، فمن أسلم منهم بدون قتال عندهم يسمى حراً، ومن لم يسلم إلا بالقتال يسمى رقيقاً لكن المناويين^(٣)، وثلاث طوائف^(٤) هم أهل بيت الملك ولما اتسمت المملكة سموه سلطاناً وجعلوا الملك في عقبه، وأخبرني رجل يسمى الشريف مسيح أن سلطان الوداي ومسلطان الفور ومسلطان كردغان أولاد رجل واحد^(٥)، وأن صليح وسولون سلمان^(٦)، والمسيح^(٧) أخوان واتهم من عرب فزارة، وكانوا أصحاب ثروة وخير وصلاح فسكن كل منهم قليماً، فاماصليح فانه نزل عند المناويين كما تقدم، ولما سلون سلمان فانه

^(١) في الأصل أربعة طوائف. وهو خطأ والصواب أربع طوائف.

^(٢) في الأصل الطوائف الأربع.

^(٣) في الأصل ولكن السولون. وهو خطأ والصواب المناويين.

^(٤) في الأصل وثلاث طوائف.

^(٥) هذه الرواية التي تقول أن سليمان سولون سلطان الفور والسلطان مسيح سلطان السعادت والسلطان صليح سلطان الوداي أخوة لأب وأم، رواية حديثة وحديثة والبحث لا يورد في المصادر التاريخية هو أن سليمان سولون ومسيح اخوان ولم يمدح ما بين هذه الرواية الحديثة.

^(٦) سليمان سولون بنحس السبي هو أول سلاطين دارفور المسلمين والذي حكم حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي وأسس حكم أمجاد حتى عام ١٩١٦، ويحيط بسب هذا السلطان المعروف من هناك رواية نظرية تقول أنه عرب من من خلال أنه أصل الفور من طريق انصاره، وأنه ابن أحمد العنور الذي ترك موطناً لدى سلطان الفور الذي روى عنه أنه حوارة، وأن هذا من أصلها اسم الكروا الذين حكموا دارفور وأثبت حوارة سليمان الذي لقب سولونج، أي العرب على لسان الفور، مما يدل أنه ينحدر العربية والذي بالاسلام دين العرب، وورث سليمان وسلطان الفور واستطاع أن يفرغ إغناكم من البحر بعد حروب طويلة بلغت حوالي ثلاث وثلاثين معركة كما اصبح طائل دارفور القوية يومئذ كالعراق والجزيرة والعراق والاندلس والبلخ والبلخيات تحت الحكم العربي كالمسيح والعباسية والرشيدية والفاطمية وبالنال رسم معالم دولة ونفس على كل أشكال لشريعة لم تكن حاضرة من قبل البحر وبذلك عام دولة قوية فيها الاسلام، والذي اصل ينشر صورة في ربيع دارفور ونول في عام ١٦٧٠م وهو في طرفة، وعلمه انه موسى عيسى.

Macmichael OP. CT. P. 92

توم شلور، تاريخ السودان وحضارته، ص ٤٠٥.

^(٧) المسح: تذكر الروايات أن مسيح (جوسم) هو أخ السلطان سليمان سولون، وقد تقسم الدولة بعد تأميمها فكان سليمان مسيح دارفور ولاسيح مسيح (جوسم) القليم (كروا) (السعادت) تابعة لدارفور وظل الحكم في أمته حتى عهد السلطان نور الدين الذي أعلن فيه السلطان هاشم السعادي حياً على دارفور ولحق الأداة عنها مدخل من سلطان سار نظام السلطان نور الدين كروا وطبره السلطان هاشم ويمكن من حرية العداوات وأحد لياهم.

نزل عند الكونجارية^(١)، وحين تقوى بالرجال اخذ الملك من التتجر^(٢) وقد ذكرنا
 ذلك سابقا في الكلام^(٣)، عن دارفور والذي دعانا للاختلاف في نسب هؤلاء
 الملوك كونهم لم يحفظوا أنسابهم في كتاب، ولم يقع من علماء الفور ولا علماء
 النوداي تأليف في أنسابهم وإنما يخطبون خطب عشواء، وإذا سؤل احدهم عن ذلك
 قصارى أمره أن يقول بلغنى كذا وكذا، وهى دعوى بلا دليل، والله أعلم بحقيقة
 الحال، لكن القول بأنه من فزارة وابن جده وجد سلطان الفور وسلطان المسبغات
 واحد، يكون الجد الفزاري هو السادس للثلاثة لأن السلطان محمد عبدالكريم
 الملقب بصابون رحمة الله عليه ابن السلطان محمد صالح ابن السلطان محمد جودة
 الملقب بخريف التيمان ومعنى خريف التيمان عندهم: المزدوج الخيرات، لأن
 الخريف عندهم هو زمن نزول المطر والزراعة والتيمان هما التوأمين اللذان
 يولدان معاً في بطن واحد، فشبهت السنوات بالخريف الذى تأتى أمطاره قدر
 ماتت في خريفين لأنه كان جواداً كريماً، إذا وجه عنايته الى شخص اغناه كما اذا
 جاء الخريف عظيماً لصاحب الزراعة، ابن السلطان محمد عروس وهو صليح
 الأصفر بن الشيخ صليح بن الفزاري، وكذا السلطان محمد فضل الفوراوى بن
 المرحوم السلطان عبدالرحمن الملقب بالرشيد بن السلطان أحمد بكر بن السلطان

^(١) الكونجارية: يمتثل الموضع الرئيس الثاني من قبائل الفور وهما الكرا والكونجارية وهم الاصل الاول الذى نخرج منه الكرا بالمتابعة
 وهى الموضع الذى استطاع أن يؤسس دولة الفور على يد السلطان سليمان سونون.
^(٢) التتجر: اصلت الروايات التاريخية في أصل التتجر الذين كانوا يحكمون دارفور قبل سلطنة الفور هناك رواية تقول بأنهم من عرب
 بن هلال وأن جددهم هو رقصة (شاه ودرخيد) وهو أحد نعم ملوكهم وله قصر مبيت مزارع الفراء بجبال في صحراء شمال دارفور وهذه
 كتب لهم نسب بمصاحفهم الى أن زهد البدالي ولهم معترك كلامية وجمع لوحة في ذلك، وهناك رواية أخرى أن التتجر حليط من الفور
 ومن هلال، ولهم هاجروا من بلاد النوبة الى دارفور في القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلاد واستقروا في مملكة دولة كسرى
 اعتنق بن منهم تشاد وكردمان بعد أن استقروا دولة الدامو في شرق وجنوب جبل مرة واستقروا في حكم دولهم حسن ميميت
 واستطاعت أسرة كرا الصورية انتزاع الحكم منهم ولارات جماعات منهم موزعة بين دارفور ووداي ورو.

مطر:

Bonh, H. Travels and Discoveries in North and Central Africa, Vol. 3P.430

Arkel, A.J. the History of Darfur. S. N R Part 2 PP 207-218

Lampen, G d History of Darfur part. ١, P.183

^(٣) في الأصل "في الكلام على الفور..... والصلوات" عن الفور....

سلمان بن السلطان سلون بن السلطان سلمان الفزارى^(١)، وكذا السلطان هاشم
الذى كان على كردغان، الا انى لا أعلم أجداده الا المصبع بن الفزارة، واما على
القول بن سلطان الوداي من العباسيين فيكون كله جذ منفرد غير جذ سلطان القور
والمصبات، وهذا القول هو الايق به، وبكرمه وعلو همته لانه كان من مكارم
الاخلاق وعلو الهمة والتقوى والصلاح والجود بمكان عظيم، فكان فى مكارم
اخلاقه يضاهى المأمون بن الرشيد العباسى وكان فى كرمه يفوق الرشيد والبرمك
بل لو سبق حاتم بيوم لما ذكر حاتم على اسنة العرب فى الشعر والنثر، واما
شجاعته وبراعته فأمهر من أن تعرف وسأذكر كلا من هذه الأوصاف مفصلاً
فستان ما بين بخل القور وجبنهم وشجاعة الوداي وكرمهم، والعرق نسل فنل ذلك
على اختلاف أصل السلطتين^(٢) .

^(١) الفزارى نسبة الى بن فزارة وهم من العرب اعدنية كانوا يهتدون الى بواسط الفريعة عبرة بحوار مضارب لىلى جهة الخفائية
ولما كانت الفريعة من اهلل لىرا واسما كما كانت عبرة الميشتين الى مصر لم يحدث فى وقت واحد ومن مصر الى الخفائية
عربية فحدث نرسه من الامماج بعد الفريعة والوجه الخفائية، ولما كانت جهة من الاكثر مالا وعدداً وعتافاً دامت نرسها فسرارة
ولمست فرعاً منها حاسة الى الخفائية لىلى فاسرت الى السودان وانضمت لىلى فزارة برعى الاىلى الى دارفور وكردان.

مخر:

محمد مرفى محمد (السودان الشمالى من ١٢٢٠)

^(٢) يدعى بن لىلوان لم يخر من اهلل اسما من كرم وشجاعة دلىلى على الامانة والحرية ولما كان اسما لم يكون القور العباسى
وصهمه دلىلى والىلى احوه القور الى الدلىلى وصهمه بالاشجاعة والىلى كرم وهذه النماذج من صليمة دلىلى لىلى فيها الشجاع والىلى كرم
ومها اهلل والىلى دلىلى من حكمة دلىلى حصة، لىلى هناك صروف اشجاعة وسنة لم يخر الى دلىلى لىلى اهلل محمد اللىلى
وصورهما حد اخرى.

ذكر ما وقع بين الوداي والنور

من العهد وما وقع من قرض العهد والحروب والملاحقة

حكى لي الحاج نصر السناوي وكان من مسنيهم ناهز الثمانين، ان السلطان
سلون سلمان جد سلطان النور اجتمع مع السلطان صليح جد سلطان الوداي في
الخلا للكاتن بين الايالتين وتعاودا الايخون لخدمتهما صاحبه، وقاسما المسافة الكائنة
بينهما وقسماهما بالسوية، واخذوا مسامير كبيرة^(١)، من الحديد وضرباهما في
الاشجار العظيمة وجعلاهما حداً حاجزاً بين المملكتين وحين كنت متوجهاً من
دارفور الى دار وداي صحبة الفقيه احمد ابي سارة والجيش الذي كان يثيغنا
رأيت في وسط الغابة التي^(٢) ذكرت، ان الارانب والوحوش فيها كثيرة، ثلاث
شجرات على خط واحد في جذع كل شجرة منها قضيب من الحديد غاطس في
جذع الشجرة وبارز منه نحو شبر فتعجبت لذلك وسالت الفقيه احمد ابي سارة،
فاخبرني ان هذا هو الحد الكائن بين مملكة النور والوداي واثنان ان القضيب منها
لا اقل من ان يكون طوله ذراعاً ونصف لان جذع الشجرة منها من لا يعتقه
الرجل العظيم الباع، فلا اقل من ان يكون السمار دخلياً منه في سمكها نحو
ذراع، والبارز منه نحو الشبر ولخوفهم على المارين تنوء^(٣) حتى اعوج منه مع
طول الجذع ولطول العهد نمت الشجرة واتنمل جرحها حتى صار كائنه منها،
وحلف كل منهما لصاحبه انه لا يتجاوز هذا الحد بخيانة، وقرأ الفاتحة، ان كل من
تجاوزه قاصداً ضرر صاحبه لانصره الله عليه، واشهنوا على ذلك من حضرهما
من اكابر دولتيهما، وتفرقا على ذلك فلما ماتا وورث الملك ابناؤهما^(٤)، (طمع كل
واحد منهما) في أخذ مملكة الاخر وضمها الى مملكته لاتساع الايالة وارتفاع

^(١) في الاصل * واحداً مسامير كثيرة...

^(٢) في الاصل * الغابة التي ذكرت...

^(٣) في الاصل: * تنوء * اي تنوء - الانحاء - ومعناه الانواء

^(٤) في الاصل * ابناؤهما... وهو خطأ والصواب: ابناؤهما...

انصبت ونشر النكر، وهذه هي عادة الملوك فلرك الله ان السلطان أحمد بكر^(١) حين تولى في دارفور كان صغيراً لا يملك من نفسه شيئاً ولا يقدر على التصرف في الأمور وكان الحكم والامر والنهي لوزرائه، فبلغ خبره الى سلطان الوداي وكان اذاك السلطان محمد عروس، فتأقت نفسه أن يتوجه الى دارفور ويملكها، فمنعه أهل الرأي والحزم من وزرائه فأبى عليهم، وقال لابد من ذلك، ولا تترك ولداً صغيراً يتمتع في مملكة مثل هذه، فقال له أحد وزرائه: إيد الله مولانا انما الصغير (هو) الذي لارجال معه (ونرى) أن قادة الرجال مساعدون للصغير (انن) فهو غير صغير، أرأيت لو قدر الله عليك وخلفت ولداً بين طهرائنا وجامنا العدو، أفلا نذب عنه بأرواحنا فكيف (إذا سلمه الفور لنا) فقال: دعوا عنكم هذا الكلام فاني لابد لي من ذلك وحينئذ (لا) يمكنهم الا الطاعة، فخرجوا وكان له (أي سلطان وداي) ولدان، فخلف أحبيهما وأحبهما لديه ملكاً في بلاده وأخذ الثاني معه وخرج بنصف العسكر وترك النصف لحماية البلد والنذب عنها، ولما دخل في إيالة الفور صار لا يتعرض لأحد فيها بسوء ويقول: هذه رعيا لاعلاقة لي بها وانما أنا قاصد الملك فتوغل في دار الفور حتى قرب من بيت السلطان (الكائن) في المكان المسمى بقرلي، فنفر جنود الفور وذهبوا الى السلطان وكان صغيراً كما ذكرنا، وقالوا له ان الوداي قد جاءوا يريدون أخذ بلادنا فقال لهم السلطان أحمد بكر: ما حيلتي وأنا صغير ولا أقدر على مشاق الحروب ولا أعرف كيف أصنع فيها، فقالوا له: لا تخف بأش شيء فإنا نريد أن نركب معنا ونقف في القلب، ونحن نقاتل عنك وعن بلادنا فما أمكنه مخالفتهم فامتل وخرج من بيته، والتفوا عليه، وكان الوزراء قد كتبوا لجميع الأفاق بشحذ العساكر، للنذب عن البلد فحضرت جنود تملأ السهل والوعر، ومن جملتها أهل البلاد الذين تركهم سلطان الوداي

^(١) أحمد بكر: يقول الفور حول له حكم دارفور ثم بعد ذلك من عام ١٦٨٢-١٧٢٢ م. كان مسلماً فأصبحت وجهته إلى الخرطوم واليه رجع القصر في موسم الأضاح في بلاد دارفور حيث أقيم هذا المهرجان من الأضاح والذواجن واستفد منها من المتابعين من مختلف البلاد، ومنهم من أقيم من العساكر وحمل قاصته في فرق إحصاء أو حمل مرآة، ولما تم تسليح إحصاء العساكر واستطاع أن يهرم لقاتل العمر ويصعد بها لتوكة واستعان بأمره الشريك في حطب السلاح لواءه طارقات الوداي على دارفور.

وراءه وقال (عنهم) هؤلاء رعايا لأعلاقة لي بهم فاجتمعوا وأحاطوا به إحاطة الخاتم بالأصبع، ووقع القتال وكان يوماً عبوساً ولشوم القدر ووخامته جاء الناس لابن السلطان وقالوا له إن أباك إنما جاء بك إلى هنا وترك أخاك خليفة في البلاد كرامة فيك ومرامة أن تموت في الحرب ويتمك أخوك البلاد، فأخذ نصف العساكر وانهمزم بها إلى دار ودای وترك والده في أشد المضايقة فضاق الحال وقتل الجند، وتكاثر عليه الفور وفي كل يوم يزينون والسوداي في كل يوم ينتصون، وحلف السلطان أن لا يوجه وجه جواده لجهة المغرب لأن الفرار (عندهم) قبيح من رعايهم فما بالك بالملوك فوقع القتال بين السلطنتين سبعة أيام، وفي اليوم الثامن انكسرت عساكر الوداي من الجناحين وبقي السلطان ثابتاً في القلب وثار النفع وارتفع الغبار من حوافر الخيل حتى صار النهار كالجنس ورأى الوزراء وأرباب الدولة أن انهزامهم وترك السلطان في وسط الأعداء من أقباح المعاييب فأدبروا وجه جواد السلطان إلى المغرب ولم يشعر، وساروا بقية يومهم والعساكر محيطون بهم، يذبون عنهم، فألبوا بلاءً حسناً وكلما سأل السلطان وقال: إلى أين أنا سائر؟ قالوا: للمشرق ولم يزالوا كذلك مدة أربعة أيام، فلما كان اليوم الخامس انقطعت العساكر عنهم وخلا الجو، ظهر الحال للسلطان أنه انهزم وأنه متوجه لبلاده، فقال لهم خنتم يا ودای، فقالوا، لوخنا لانهزمنا وتركناك للعدو، لكن كثر علينا المدد، وقتل منا العدد فرجعنا بك سالمين فقال لهم: ماذا فعل فلان، يعني ولده فقالوا: أخذ نصف العسكر ورجع إلى دار ودای فاستشاط غيظاً، وعرض على أئامه وقال: حينئذ الحق معكم ثم انه توجه إلى إيلاته وحين وصل إلى فاشره المسمى بواره وجد ولديه يقتلان، ولم يغب أحدهما الآخر، لأن الذي في دار المملكة كان متمكناً في العدة والرجال، وكذا الذي فر من والده كان معه عسكر عظيم فتكافأ، ولم يغب أحد منهما صاحبه وحين جاء أبوهما بطل القتال وخارج الذي كان في دار المملكة واصطفا صفيين ومخل أبوهما في دار ملكه ودعا بولديه فحضرَا بين رديه، فقال للذي رجع عنه في الحرب، ما الذي حملك على ذلك؟ فقال حب المملكة وعدم عنتك، فقال له والده كيف يتصور العمل في ذلك؟ لأنني إن أبيتكما معاً في دار الخلافة كان ذلك جالباً للخراب لأن كلا منكما يريد أن يتناول

الحكم، ويقع مايقع وإن أخذت أخاك وتركك قتل أخوك كما قلت، ولايسوغ لى أن
أوكل اجنبياً ولى ولدان، ولكن حيثما خالفت أمرى ورجعت بالعساكر وكنت مسيئاً
فى خذلاتى وانهزامى أمام العدو، وأثبتت بى أعدائى لأفعلن بك مااستحقته، ثم أمر
بالتقبض عليه وتكحيله بمرواك محماة، فأعشى بصره وبقي كذلك الى أن مات.
أقول: وهذا قليل فى جزائه لانه تسبب بهذا الفعل (فى) مفاسد وأمسور عظيمة،
أولها العقوق وثانيها انهزام السلطان من عدوه وثالثها سفك الدماء الذى وقع حين
قتل أخاه ثم وقعت الهدنة بين الملكين حتى ماتا، فولى عوضاً عن السلطان
عروس ولده جودة الملقب بخريف التيمان، وولى عوضاً عن السلطان احمد بكر
ولده عمر^(١)، فملك عمر فى إيلاته فى أرغد عيش ثمان سنين ولما رأى كثرة
الجنود ورفاهة الحال حسنته نفسه بأخذ مملكة وداى، فخرج فى عسكر كثيف
ونصحه وزراؤه فلم يقبل (ولم) يزل سائراً حتى بلغ إيلة وداى فجعل لايمر بقرية
الاخر بها^(٢)، ولا بغلل الا أحرقها ولا بأناس الا قتلهم وعظم شره فالتجأ الناس
لسلطاتهم فلما تحقق السلطان جودة الخبر، ركب فيمن حضر عنده من الجيوش
وارسل لللاقى بحشد الرجال والسلاح والكراع، فاجابوه واتهلوا عليه كما ينهل
الغيث المدرار، فما وصل الى العدو حتى امتلأ السهل والوعر، و (كان) الفور
(قد) امتلأت^(٣) ايديهم من الغنائم وطعموا فى أخذ المملكة وظنوا عجز الوداى عن
ملاقاة مثلهم فما راعهم الا وقد طلعت عليهم نواصى الخيل تعلوها الرايات
السلطانية وتقاتل المواكب، وكلما جاء كردوس من الخيل أكبوا رؤوسهم على
فرايض سروجهم ودخلوا للحرب، فاحاطوا بالفور من كل جانب مع ما أعطاهم
الله من الشجاعة والاقدام، لأن الرجل من الوداى يقابل عشرة من الفور ولايسالى
ولمشجاعة الوداى كلن الرجل منهم اذا أراد قتال الفور اوى يرميه الفور اوى

^(١) السلطان عمر: اسمه حكمة لدار مور من ١٧٣٢-١٧٣٩ وله ذكر بعض التواريخ أنه لم يكن من السلطان احمد ايكرا، بل حفيده وانه
حلف لاه السلطان محمد دودة بن السلطان احمد ايكرا وبذكر لعم شقيقه فى عمر هذا من اعدال سلاطين دارمور وأكثرهم حرصاً على
الكتب والسنن، كما ورد أيضاً أنه كان قاسياً على أعدائه حتى لقب بعمر ليل أى عمر "الخنزير" لعناده وقسوته. ينظر لعموم ظهروا

تاريخ السلاطين، ج ٢، ص ١١٥-١١٦ Lampen G D.OP.Cit.PP.185-186

^(٢) فى الاصل "...لعمه..."

^(٣) فى الاصل "...مملات..."

بالسلاح عن بعد فيقول له الوداوى اصبر لا ترم فائنى لتيك، ويقتم عليه لا يخشى
من رميه حتى يعاقبه ويلزمه حتى يموت أحدهما وحين رأى عساكر الفور انهم
أبوا بما لا طاقة لهم به، رجعوا اتقهري، وتبعهم الوداى حتى كشفوهم ولم يسلت
السلطان جودة الا وهم منهزمون، وقتل السلطان عمر، وداسته الخيل، ولم يعثروا
على ثلوه^(١)، واشتم الوداى خيل الفور وأسلابهم ودوابهم وتبعوهم يقتلون
ويأسرون حتى اخرجوهم من ايالتهم، ولما رجع الفل^(٢) منهم السى ايالتهم ودلر
ملكهم ولوا ابا القاسم^(٣) ابن السلطان احمد بكر سلطاناً عليهم، وانقادوا له، فمكث
فى أرغد عيش سبع سنين (و) لانقضاء أجله تذكر ان يأخذ ثار أخيه السلطان عمر
من الوداى فعمد يجمع الجموع، ويببىء العدة حتى جمع جيشاً لا يعده العاد،
ولا يحصره الحاصر، وأصبح راحلاً بهذا الجيش الى دلو وداى وحين دخل فى
إيالة الوداى ارسل وزيراً من وزرائه الى جهة الصعيد^(٤) منها ومعه نحو عشرة
آلاف من الخيل والرجال (فقام) بنهب الأموال وفعل ما أقره به السلطان (ثم) توجه
السلطان ببقية العساكر قاصداً دلو ملك الوداى، ولما بلغ السلطان جودة ان
السلطان ابا القاسم توغل فى بلده، وفعل ما فعل ارتحل من محل مسكنه وتوجه
جهة الجنوب كأنه فار منها، ولما وصل الخبر الى السلطان أبى القاسم ان السلطان
جوده قد فر وارتحل من دلو ملكه، طمع، وأعجبتة نفسه، وأيقن ببلوغ الأمل،
وأصبح متوغلاً فى البلاد، وأما السلطان جوده فإنه سار ناحية الجنوب مدة يومين
وانعطف فى اليوم الثالث الى ناحية المشرق، واستمر مسائراً حتى حل بين

^(١) الثلوة: بالكسر، والجمع أتلاد، وهو العصور والمعد من كل شىء وكل سلوخ اكل من شىء ولغت من لغة: يطر: المنصور
المهبط ج: فصل الثلوة، باب التلو.

^(٢) الفل: والجمع ثلول، وهى المجموعات من العساكر لشهرتها.

^(٣) السلطان أبو القاسم: هو ابن السلطان احمد بكر: حكم سلطنة دارفور فى الفترة ١٧٣٩-١٧٥٢م وحده حكمه بعد ابيه السلطان احمد
السلطان عمر، وبداكر انقراضه ان السلطان ابا القاسم بدأ عهداً بمحاذاة جماعات احمد دون الاحرار، والمنسلات وطوائف الحكيم
والادارة بالعدل، فكره الناس حكمه، ثم دخل فى حرب مع الوداى فترماً اثار لاهيه، ومعه بعض الاعيان بالعدو اتاه الغرب لطلب
لعل دارفور اصبحت تحت نواب عرض السلطة وعندما ظهر الناس ان ابا القاسم لم يمت وإنما أخذته بعض القبائل العربية فربما وأولاه من
لحق وحده الى القنطرة، امر عليه رجال امولة ان يشارل لاهيه نواب عن السلطة، لكنه رفض وقبض عليه المكرة، فاستمر نواب
ورجعه الى حلفه حتى الموت ودهن فى مدافع سلاطين الفور بطرة. يطر: Lampen, G D.O.P.Cit P.186 تشمل الانعام.

السلطان أبي القاسم وبين دارفور، وكان حين فشى الخبر أن السلطان جوده (كـ) فر من مقر سلطنته، كان أحد وزراء السلطان أبي القاسم حاضراً فقال: لاظن ذلك، لأن الرجل لم يقاتلنا ولم يعاملنا، ولا رأى منا طيباً ولا خبيثاً، فكيف يفر ويترك بلاده وبلاده أبيه بغير ما يوجب ذلك، وسيتضح لمولاتنا الأمر إن شاء الله تعالى، ثم لما كان عند المساء أمر بنعجة حلوب فجيء بها وأمر بغسلها بالماء والصابون، فغسلت حتى لم يبق بها درن ولا وسخ، ثم أمر بآباء غسل، وأمر بحالب غسل يديه وحلبها، وأخذ اللبن ووضع على سقف عرش السلطان، ولما أصبح دعا باللبن فأحضر بين يديه فرأه أسود، فجاء به إلى السلطان وقال يا مولاتنا يقولون إن الرجل فر، وهو سار ليله لم يكتحل بنوم، فقال السلطان: ومن أين لك ذلك؟ قال: أما ترى اللبن بعد بياضه، وبلغني أن بعض جهال الفور رأوا مسيرة^(١) دخلت بعد حصاده وقبل دراسته وعندها امرأة عجوز، فصاروا يعبثون بالفلل ويعطون منها لدوابهم، فكانت تلك العجوز تقول لهم: مساكين يا أولادى افعلوا ما شئتم، فإن جوده لا يترككم هكذا، وسوف يأتى ويسوقكم كالغنم وكان (السلطان جوده) عندما رأى عساكر الفور، أمر أحد وزرائه المسمى بالعقيد قوت (أن يأخذ) قوة من اثني عشر ألفاً من الخيل وأن يكمن في محل ولا يتحرك منه ولو فئيت عساكره إلا إذا دعاه، فامتثل الأمر، وكمن المذكور في المحل الذي أمر بالكمون فيه (ثم) التقى الجمع، فباليه من يوم وما أصعبه^(٢)، ارتفع فيه القتال حتى أسود النهار ورؤيت النجوم نهراً، ولقد شاهدت موضع هذه الواقعة مجلبة حمراء من مستقع الدم، ورأيت رجالاً ممن شاهد هذه الواقعة، يفتخون ذلك من هول ما رأى يومئذ، وكان يوماً كان الضرب فيه يقد، والطمع يهد، ولما اختلط العسكران مع بعضهما كان من شدة الاختلاط لا يتميز التوداوى من الفوراوى، وحينئذ خاف السلطان جوده أن يغتاله أحد جند الفور وهو لا يدري، فأمر بإحضار العقيد قوت، فما كان إلا كلاً ولا^(٣) حتى حضر بجيشه كاميل إذا سال، والرمل إذا انهال، فوجد

^(١) مسيرة: عبارة عن عدد كثيرة بعد قطعها، ويطلق عليه اسم المرون أيضاً.

^(٢) ما كان أصعبه: ما كان أشده.

^(٣) لا: لما كان لا كلاً ولا عبارة بضمها المكسب، وليس لغير الله، أى لما كان لا كلاً ولا كلاً.

الاختلاط العظيم، فتحير أمره وتوقف عن الحملة خوفاً من مضرة قبيلته، ولما رأى السلطان أرسل إليه أن يحمل ولا تخشى شيئاً واضرب كل من كان أمامك فحمل بجيشه حملة عظيمة قتل بها عالماً عظيماً وانفرز^(١) الجيشان بعد الاختلاط ولما رأى الوداي أفراد جيش الفور عن جيشهم حملوا عليهم حملة واحدة، وحمل معهم العقيد قوت بجماعته وكانوا مرتاحين لم يلحقهم تعب، فبذلوا جهدهم في عنوهم، فلم يكن الاكلح البصر أو هو اقرب حتى انهزم الجيش الفوراوي، وقتل سلطانه وتضعفت أركانه وصاروا^(٢) بين قتيل وجريح وأسير، والسيف يعمل في أفتيتهم فلم ينجوا إلا برأس طمرة^(٣) وكانوا حين انهزامهم ينوون إلى باجة المغرب لذهول عقولهم عن جهة بلادهم، فأرسل لهم السلطان جوده فرسائاً على أنارهم ينادونهم بالفور ليست هذه طريقكم، حتى استيقظوا وتوجهوا إلى جهة بلادهم، وغنم الوداي أسلابهم وسلاحهم وأموالهم، ومن جملة ذلك نساء السلطان اللاتي كن صحبته لأن من عادة ملوك السودان سواء كان الفور أو الوداي لا يتوجهون إلى سفر إلا ويكون معهم جماعة من نسائهم ولقد شأخت حين كنت في دار وداي عجوزتين بلغتا من العمر نحو التسعين، وأخبرت أنهما من أسيرات الفور اللاتي كن مع السلطان أبي القاسم، وبعد انقضاء النثار رجع السلطان جوده إلى مقر سلطنته مؤيداً منصوراً، وامتلك أيدي العساكر بالاموال وبعد ثلاثة أيام من هزيمة الفور وقتل سلطاتهم قتم الوزير الذي كان (قد) أرسله ظناً أن سلطانه (قد) ملك البلاد وقتل سلطان الوداي، ولم يعلم بما وقع لسلطانه وعسكره، وذلك كان سبباً لدنو أجله وأجل من مات معه، فخرج إليه أحد وزراء السلطان واعترضه^(٤) وعاقه عن السير (ثم هجم عليه) وقتله وقتل جماعته قتلاً نريعاً ولم ينج من القتل إلا القليل، فبأياها من وقعة أنت حرب البسوس^(٥)، وأزعجت

^(١) انفرز المفضل أي تبارك

^(٢) في الأصل: وصاروا

^(٣) برأس طمرة أي لم ينجوا إلا بعد جهد جهيد.

^(٤) في الأصل: وعترضه

^(٥) حرب البسوس: هي تلك الحرب التي وقعت في المنطقة بين مكة والبصرة وهي المعركة صاحبة القلة جفأاً فلحقها حصار وحماه أهل البصرة وهربوا لطلب النجاة، واشتعلت الحرب بين المسلمين وكان من الخطأ كليب والتهليل واستمرت لأكثر من أربعين عاماً ليست لمرحل وحقت الاعتقال فاصبحت مثلاً يهرب لكثرة القتل في الحرب.

طيور البرواح من أشباحها بقد الأجسام وتطير الرؤوس، ولقد أخبرني نقاة عن
أموات تلك الواقعة المبهولة، أن الأرض كانت مغطاة بالأموات وأن الطيور
والسباع جررن منها الأكوات، وأنها لما جافت الأرض من لبن تلك الرمم، أمر
السلطان جوده بدفن تلك الامم، فما وجدوا لدفنها طريقاً إلا أنهم شقوا لها قليلاً
وركموهم^(١) فيه وهالوا عليهم التراب، وكانت عندهم في تلك السنة من أعجب
العجائب، وحين رجع الفور إلى بلادهم ولوا عليهم السلطان محمد تيراب^(٢) وكان
رجلاً يحب الخلاعة، ويميل للمجون كما تقدم فمكث ثلاثاً وثلاثين سنة لم يخطر له
غزو الوداي على بال، ف وقعت بينهما دنة وهدايا وسلكت الطريق بين المملكتين،
لأن السلطان تيراب لم يغزو في تلك المدة إلا غزوتين، الأولى غزوة العرب
الرزقات كما ذكرنا والثانية غزوة كردغان، ووقع الهدنة بين السلطانيين وتواصلت
بالتهدايا إلى الآن.

^(١) "وركموهم" من التراكيم أي وضع بعضهم فوق بعض.
^(٢) محمد تيراب: هو أحد أبرز سلاطين دارفور، تولى الحكم بعد أبيه أن القاسم، وبحول الثور حون بأنه كره الحرب وتقدم في هذه أمراً
لنعم سلطاناً مدة ثلاث وثلاثين سنة، ووصف بأنه كان كريماً طيماً واسع الصدر جود القدر كانت فيهم كلها حمياً ودهاً ورصاً
أشهر حق القوي "بدر من الشمس" لما هذه الأرض من حصونة وحضرة وحمال وحودة إنتاج كثافة من أعماله الخبيثة لعمامة مواسمه وعندما
أعطى سلطان السودان المدمر هاشم المعبد من دارفور وأحد خير على أنتمها الشرقية، وبعد ذلك، كره السلطان تيراب كتابة
جهنم وفاته بقية لأبى السلطان هاشم مبرمه وحرب هاشم واستحار تلك المذابح صار إليه وتوقع لهم جميعاً هراتم ملاحقة
والقرم الملك عدلان الثاني وحبوبه وركب غمامة للصورة صفة طيل المورة، ولما أصبحت رماً القوة الدولة تجعل لها كل مسلم عهد
للملحها ووالحل السلطان تيراب رجع في بلاد المذابح حتى وصل إلى المدينة الخالية وعسكر فيها، وحاول عبور النيل إلى الغرب فلم
يبلغ إلى صورا ضيقاً في المدمر، ثم مرض وأخذ في المورة لم يبق في باردة وحل إلى جبل مرة حيث دفن في طرة، بطر: لغوم المورة:
تاريخ السودان ج ٢، ص ١٣٧، تلخيد الأحداث، ص ٢٤-٩١.

الفصل الرابع

فى نبذة من سيرة السلطان عبد الكريم الملقب بصابون،
وكيف كان اول أمره، وكيف وصل اليه الملك، وما وقع بينه وبين اخوته، وكم
حارب من البلاد، وكم قهر من الملوك، وفى مناقبه وسيرته حسبما شاهدته
ورأيت، وبلغنى من الثناء.

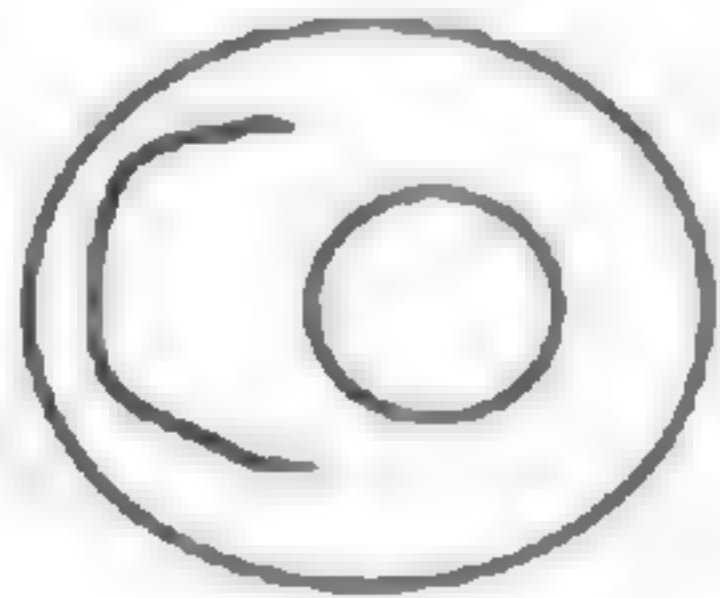
اعلم ان السلطان محمد عبد الكريم هو اول اولاد السلطان محمد صالح
وكانت أمه ساوية^(١)، وكان له اخوان أحدهما أحمد والثانى أصيل، وكان صابون
أحسن أخويه عقلاً وعلماً وصلاًحاً وديانةً وكانت أمه مبنوضة عند السلطان، وأم
أحمد هى المحظية، فغضب صابون لبغض أمه، لكن كان يكرم أباه ويعلى منزلته
بقلبه وذكائه وفطنته وكان يحبه لأم أحمد وأم أصيل ولى أقاربهما المناصب الجليلة
وجعلهم وزراءه وأرباب دولته حتى صار لهم الأمر والنهى بدار وداى وكان
السلطان لبغضه فى أم صابون أخرجها من بيته هى وولدها، وأجرى عليها رزقاً،
فتشا صابون على أكمل حالة، حتى بلغ مبلغ الرجال (وكان لرجاحة^(٢) عقله)
لايميل الى لهو ولا نساء ولا شرب خمر، بل كان مستغرقاً أوقاته فى القرآن
والمذاكرة والصلاة والعبادة، وكانت أماله معلقة بالمملكة فكان يهىء لها كل ما قدر
عليه من خيل وسلاح ورجال ودروع وسيوف، ثم رأى نفع البندق من الأغراب
الذين يسافرون الى وداى للتجارة، وذلك لأنه لما راهم حاملين للبندق وكان
لايعرفه، سألهم، ما هذا، فقالوا هذا السلاح نذب به عن أنفسنا فقال: وكيف يمكن
النذب بهذا مع أنه غير قاطع، فقالوا لن تضع فيه باروداً وتقوس^(٣) به هكذا، وأروه

^(١) ساوية، أى من السوء، S30 وهو إحدى قبائل القزلباش التى سكنت حول بحيرة تشاد، وكانت لهم ممالك فيها وصفت مراراً
مأخوذة من المصادر حسب الاكتشافات الأثرية القديمة ونصهم للمصادر التاريخية بأنهم صحن الأصنام لظروا، وكانت الشعوب الكاثوليكية
التي امتلأت دولة كاس رولو، وهى حول دولة إسلامية فى هذه المنطقة، قد قامت هذه القبائل بنهر نيل السوء وهاجمتهم فوطسوا إلى
الأسرى الخربة ودخل بعض منهم إلى الإسلام. ينظر تفصيل ذلك فى أولهم شرح - بحكمة القربى الإسلامية، - السليح الرافعي
صالح بن بونس: الترخيع الإسلام وحياة العرب فى لوانشورية كاس رولو.

^(٢) فى الأصل: لكن لينة..

^(٣) القوس: هى القوسب - سلاح الحاربى أى القوس - عند مقلاد الدار بخرى الأصالة.

التقويس وكيفية التعمير فتعلقت أماله بذلك وأراد تحقيقه، فخرج معهم إلى الخلاء ونقبوا غرضاً للتقويس وقوموا عليه وأصابوه فأعجبه ذلك فكان لا يرى بندقيّة إلا اشتراها من صاحبها بأقصى ثمن ولا يرى قوساً أو (نوعاً من السلاح) ^(١) إلا اشتراه كذلك، حتى جمع من ذلك شيئاً كثيراً واقتنى عبيداً (وجاب ^(٢)) لهم معلمين من الأعراب المذكورين يعلمونهم التقويس بالبندق، وحين راه وزراء أبيه يفعل ذلك خافوا من استيلائه على الملك بعد موت أبيه، فذهبوا إلى أبيه وحملوا عليه بأن قاتلوا له ابن ابنك صابون لم يبق بينه وبين أن يكون سلطاناً إلا أن يدعيها لأنه لم يترك شيئاً من الاستعدادات إلا استعد به من خيل وكراع وسلاح ورجال ونظفته عن قريب بقاتلك، فاستشاط السلطان غضباً وأمرهم بالقبض عليه ففرحوا بذلك وظنوا أنهم بلغوا مأمولهم فأرسلوا له ملكاً من ملوك التراقنة يقال لهم الغربان وهم رسل الغضب بمعنى أن السلطان إذا غضب على أحد الملوك وأراد القبض عليه يرسل إليه هؤلاء التراقنة، فذهب الملك مع طائفته إلى دار ابن السلطان وليخته ^(٣) كان جالساً على محل عال في بيته يقال له ^(٤) الترجة، وهو بناء مستدير أشبه بالمصطبة في البناء لاقي الاستدارة، ويبني بين الزريبة وحائط الدار، لأن لكل دار حائطاً وبعدها زريبة هكذا.....



والترجة تكون بينهما عالية يشرف من يجلس عليها على من يمر على الدار من الخارج ومن يأتيه، فرأى التراقنة قائمين عليه، وعرف مقصودهم فدعوا حينئذ بجنده وعبيده وأمرهم أن يخرجوا خارج الدار، وأن يصطفوا صفاً واحداً وأن يمنعوا التراقنة من الوصول إلى الدار، وبأدروهم أولاً بالسؤال فردوا واستلوا الأمر، وخرجوا متهمين بالآلات الحرب ووقفوا صفاً واحداً كأنه بنيان مرصوص،

^(١) في الأصل (ولا أنواع شيء من السلاح...)

^(٢) وجاب لهم معلمين، أي أحضر لهم معلمين وروى أن المؤلف يكثر من الكلمات بالدار ما لا ضرورة

^(٣) وليخته: أي لحسن خطه.

^(٤) في الأصل: يقال لهم الترقمة.

وحاثوا بينهم وبين الدار، وجاء^(١) الترافقة فوجدوا هؤلاء علي هذه الحالة، فما
 قدروا علي الوصول الي الدار، فوقفوا فسألهم جماعة ابن السلطان عن سبب
 مجيئهم فأخبروا أنهم مأمورون بالتقبض علي ابن السلطان، فقيل لهم لا سبيل الي
 ذلك إلا بعد موثقا أجمعين، فلما رأي الغربان أن لا سبيل الي التقبض علي ابن
 السلطان إلا بعد مقاتلة هؤلاء، استأذنوا السلطان في القتال وقالوا له ما وقع من
 ابنه، وأنهم لن يصلوا اليه إلا بعد تفرق جمعه، فارتبك عليه الأمر، وتحير، وعلم
 أنه إن أمرهم بالتقبض عليه {لا بد أن تسفك دماء^(٢)} {أفلس كثيرين، وربما توفد نار
 لا يمكن إطفائها، ففكر في أمره، ثم أمر باحضار العلماء، فحضر القارئ
 والخطيب والمفتون، فلما مثلوا بين يديه أمرهم أن يتوجهوا الي ابنه صابون
 ويحذروه عاقبة العقوق، ويعلموه أنه إن امتثل لأمر أبيه كان أحسن له، فتوجهوا
 اليه وأعلموه بما قتل أبوه، وحذروه من المخالفة، فقال أنا ممثّل لأمر الله مطلقاً،
 وأمر أبي إن كان من عند نفسه، وأما كون وزرائه ووزراء السوء يغرونه علي
 التقبض علي بغير ذنب، لا امتثل أبداً، فإن أرادني امتثل له يعرفني ذنبي وأنا مطيع
 لأمره، وأما كوني أسلم نفسي ويقبض علي إيتغاء مرضات وزرائه لا يمكن ذلك
 أبداً، وأنب عن نفسي حتي أموت كريماً، فلما ذهبوا الي السلطان وأعلموه بما قتل
 ولده علم أن الحق معه، فتركه وأمر برد العساكر الي محلها، ومكث ابن السلطان
 في بيته ساراً قلاً مدة أشهر، فاتفق أن السلطان مرض ونقل مرضه، وكانت
 أعظم نساؤه لا ولد لها، وخافت أن تولي أحد أولاد ضرائرها أهاتها وربما قتلها،
 وعلمت أن صابون وإن كان ابن ضررتها، إلا أنه رجل عاقل تقي حليم، إذا مات
 أبوه وولي مكانه بكرمها ويجل مقامها، فأرسلت اليه سرّاً أن استعد للسلطة، فبين
 أبك مريض، فأرسل صابون من وقته الي أتباعه في أفاق وداي أن يجتمعوا
 سريعاً، وكل من جاء منهم لا يدخل ولده، بل يقيم بالبلاد القريبة من ولده كالبلد
 المسمى بحجير ونمزو وعبالي، حتي ياتيهم أمره فكان كذلك، واجتمعوا سريعاً^(٣)،

^(١) في الأصل: وحاث الترافقة.

^(٢) في الأصل: "ولا بد يسفك دماء البشر كقول: ".

^(٣) في الأصل: " واجتمعوا في الأثر وقت: ".

وسارت الرسل تتردد بينه وبين امرأة أبيه مدة أيام حتى قضى^(١) السلطان نحبسه، وكان الوقت ضحى فأرسلت الي صابون تقول له: إن أباك قد توفي فاعجل وتلاقى أمرك في هذه الليلة، وإلا خرج الملك من يدك، فأرسل في الحال الي عساكره يعلمهم بأن يتأهبوا، وأن لا يأتي العشاء إلا وهم مجتمعون عنده، ونادي خواصه^(٢) واستشارهم، كيف يفعل في الدخول في دار السلطان، فتحيروا في الدخول من الباب المصنح بالحديد، وهذا الباب هو الباب الرابع لأن بيت سلطان الوداي له سبعة أبواب، كلها سهلة الدخول إلا الباب الرابع، لأنه مصنح بالحديد، ومحكم غلبة الاحكام، فانتدب الفقيه موسى أخ الامام بدر الدين إمام السلطان صابون، وكان خادماً عنده، {فسأله السلطان صابون قائلاً} أو تقدر علي ذلك ياسيدي؟ قال: نعم، قال انن فافعل ما شئت، فقام علي الفور وأخذ حجراً وشج به رأسه حتي سال دمه، ومزق أثوابه، ودخل دار السلطان، فلما رأي الخدمة والصابون ذلك قالوا له: ما شأنك يا موسى، ومن فعل بك ذلك؟ قال: لي خدمت ابن السلطان بنصح وكافاني بما ترون، فقالوا له، ما الذي فعلته حتي فعل بك هذا الفعل؟ فقال لا ذنب لي إلا أنني نصحته وحذرتني من مخالفة أبيه وحرصته علي الامتثال لأمره، فما وسعه إلا أن شجني ومزق أثوابي وأنا جئت لشكوه الي السلطان، فقالوا له: ألم تنهك عن خدمة هذا النوع الأحمق مدة وأنت تأتي، ذلك جزاؤك ما حل بك فقال: جزاكم الله خيراً، قد نصحتهم وأبلغتهم، ولكن إذا وقع القضاء عني البصير، فقالوا له: كن معنا حتي نرفع دعواك الي السلطان فقال: نعم ما أشرتكم به، وقعد معهم من داخل الباب الرابع، هذا ما كان من أمر صابون.

ولما ما كان من أمر الوزراء فإنهم اطلعوا علي موت السلطان، ولسوء بختهم^(٣) كان ابن^(٤) السلطان: أحمد وأخوه أصيل اللذان {يقربان ليوذا الوزراء} كانوا غائبين يتضيفان^(٥) في البلاد، ويظلمان عباد الله في أموالهم وأعراضهم،

^(١) في الأصل: "سأل السلطان علي أمره".

^(٢) في الأصل: "ونادي أخصامه".

^(٣) يريد: "وسوء حظهم".

^(٤) في الأصل: "كان ابن السلطان وهو معنا".

^(٥) يظلمون: أي يظلمون الضعفاء، وهو نوع من الظلمة يلزم لها ظلمة السلطان.

فأرسلوا لهما بالخبر وحرصوهما عليّ القدوم سريعاً، وكنتموا موت السلطان حتي يأتيّا، ولم يعلموا أن الأمور تحكمت، وربح من ربح وخسر من خسر، وما ورت الله صابوناً مملكة أبيه إلا لكونه صالحاً عاقلاً كريماً، وهذا مصداق قوله تعالى علي بعض التفاسير: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون"^(١) وعلي بعضها أن الأرض هي الجنة، وقولي إلا لكونه صالحاً عاقلاً ليس مرادي أن اللام لليلة، إذ أفعال الله لا تعلل، بل هي لام العقوبة كما في قوله تعالى: "وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون"^(٢) ولما لمسي المساء، وسدل الليل أسفاره، اجتمعت عساكر صابون حتي ملأت بطحاء القنائر وخرج صابون في زمرة من أصحابه، وتقدم حتي وقف علي باب دار السلطان، وكان التراقنة نائمين أمام الباب، لأن العادة أن كل ليلة يبيت أحد التراقنة بجماعته أمام الباب فخاف صابون أن يشعروا به، فمشي هو وجماعته حفاة علي رؤوس أصابعهم، حتي دخلوا من الباب الأول والثاني والثالث، وجاءوا الي الباب الحديدي، الذي هو الرابع، فطرق صابون الباب طرقة خفيفة فاستشعر موسى، وكان قد اتخذ البواب صاحباً، وأخذ منه المفتاح ووضع تحت رأسه وسام، فلما طرق الباب وأحس به، قام مسرعاً وفتح، فقال له البواب لمن تفتح الباب في هذا الليل يا موسى، فلم يمر^(٣) جواباً حتي دخل ابن السلطان وجماعته، ولتفت موسى ف رأي حربة من كبار الحراب صورتها هكذا... ←

فأخذها وقال للبواب النائم الذي قال له لمن تفتح الباب في هذا الليل يا موسى، أتدري لمن فتحت الباب؟ قال لا، قال فتحت لمينك وسيد أمك وأبيك، وطعنه بالحربة في بطنه، فأخرج إمعاءه وجذبها منه، وطعن بها آخر وآخر حتي قتل نحو خمسة عشر رجلاً، وكان السلطان قبل دخوله للدار أوقف الفرسان أمامها^(٤)، يمنعون الامدادات التي تأتي من أعدائه، وأوقف الرجل علي فم الباب أمام التراقنة، ودخل الدار بما ينوف عن خمسمائة رجل، ولما طعن موسى هؤلاء

^(١) سورة الأنبياء الآية رقم ١٠٥ .

^(٢) سورة النازعات الآية ٥٦ .

^(٣) في الأصل : "فلم يمر .."

^(٤) في الأصل : "لوقف الفرسان أمام الدار وهو تكرر على .."

الرجال تحرك ومساعدته يباكون بقتل جماعة السلطان واستيقظ جماعة السلطان من
منهم فوجدوا الطعن أحر من الجمر، فمنهم من قاتل حتى قتل، ومنهم من أسلم
نفسه لجماعة صابون وصار منهم وكان مع السلطان بندقية، فأطلقها في عريش
الحرم، فالتببت ناراً، وامتدت النار منها لغيرها، فأضاعت حتى صار الليل
كالتنهار، وكان هذا الفعل من لطف الله تعالى، لأن بذلك الضوء حصلت أمور
عجيبة، أولها أنهم عرفوا أعداءهم فقتلهم، ثانيها أن الأعداء اندحشوا حين رأوا
النار اشتعلت بغتة، ثالثها أن حرارة النار أخرجت من كان كامناً، وفعل به ما فعل،
ولولا ذلك لخيف على صابون من خائن يخونه، ولما ملك الجماعة الدار وأمن
السلطان صابون من الأعداء، دخل الدار حتى وقف على شلو أبيه وهو مسجى
والنساء محنقات^(١) به، فبكى قليلاً واحتسب مصيبتة بأبيه عند الله تعالى، ثم طلب
شارات الملك فأحضرت، وهي خاتم موروث من أبائهم، وسيف وحجاب وكرسي،
فأحضرت كلها إلا الكرسي لم يعلم له موضع، فاستشاط غضباً، وقبض على نساء
أبيه، وألزمهن به فأنكرن وحلفن أنهن لا يعلمن له محلاً، وأصررن على ذلك
فحبسهن ووكل بهن حرساً من الطوائف، وأمر بقية الجولري والخدم بالبحث
عنه^(٢)، ولأن كل من جاء به يعطي جعلاً عظيماً بعد عتقه فما كان إلا كلمح البصر
حتى جاء به بعض العلمان، وقال هاهو وجدته في محل كذا من الدار، فأخذه
السلطان وضمه لشاراته، ووضعها في المحل اللائق لوضعها، وكان ذلك كله
والقتال دافراً، ونار الحرب تضطرم، وما ذلك إلا لأن الترائفة أفاقوا من نومهم،
فراوا الرجال والفتن بأسلحتهم، فقالوا لهم من أنتم، فأتوا نحن جماعة السلطان
صابون، فأنكروا ذلك وقالوا متى صار صابون سلطاناً حتى تقولوا ذلك،
فغضبت^(٣) جماعة السلطان لقولهم وقالوا هو السلطان، وقد ملك الدار فأما إن
تسلموا أنفسكم، وإلا قتلناكم، فدار القتال بينهم، وبينما هم في تلك الحال إذ جاء
وزراء السلطان المتوفي مع أخوال أحمد وأصيل، فوجدوا الدار قد ملكت واستقر

^(١) في الأصل: "ونساء محنقات".

^(٢) في الأصل: "بالبحث عليه".

^(٣) في الأصل: "استغصوا جماعة السلطان".

صابون فيها، فلما رأوا الدخول عليه فمنعوا: فثبتت الحرب بينهم، ودام القتال بينهم حتى الصباح، ولما أصبح الصباح جاء الأمراء والملوك وبلغهم ما وقع، فاخذلوا صابون لحلمه وعدله، وماتوا معه وقتلوا أولئك، فتقوى السلطان صابون وتزايد مدده حتى صار في جيش عظيم، وما جاء الضمحي إلا والأعداء مغلوبون ما بين قتل وجريح وفار، وغنم أصحاب السلطان صابون أسلابهم وخيلهم وسلاحهم، ولما كان الغد حضر أحمد وأصيل أخوا السلطان صابون ومعهما جيش، وأرادا أن يفتحا الدار علي صابون، فمعهما عساكر صابون، فثار^(١) الحرب بينهم نهراً كاملاً وانهمزم أحمد وأصيل متفرقين، فلما أحمد فإنه توجه إلي أخواله في قبيلة يقال لها أبودرق، وأما أصيل فإنه كانت من مساكن وداي، الذين تحت حكم عقيد الصباح^(٢)، فتوجه إليهم، ومنهم سار إلي دارفور — وسيأتي خبر القبض عليه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ولما بلغ الخبر إلي السلطان صابون أن أخويه فرا وانهمزم جيشهما حمد الله الذي فرج عنه تلك الكربة، لأن الكماكلة الكبار والوزراء العظام، كانوا كلهم من أهل أم أحمد، وهو لغضب السلطان صالح علي أمه لم يول أحداً من أهلها منصباً، ولما انهزم الأعداء وراق الحال خرج السلطان صابون إلي^(٣) ديوانه وانعقدت له البيعة بحضور العلماء، وولي أقاربه في المناصب الجليلة، وأطاعته البلاد، وانقادوا له، منها ما انتقل له رغبة، ومنها ما انتقل له رهبة حين نظروا ما وقع لأخيه أحمد وجماعته، لأنهم لم يقدروا علي احصاء القتلى وكان النجم يوم قتاله لجيش أحمد يسيل كالنهر، وهو معني قول الشاعر:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذي حتى يرافق علي جوانبه الدما

وكان القتال المذكور في أواسط رجب الفرد أظنه من سنة ١٢١٩ (١٨٠٤م) فمكث في بيته ساراً قاراً بقية رجب وشعبان كله، وفي مستهل رمضان توجه لقتال أخيه أحمد، وذلك أنه بلغه أن أخاه جيش جيشاً عظيماً وساعده علي جمعه بعض

^(١) في الأصل: "دار الحرب...".

^(٢) عقيد الصباح، أي عقيد الشرق.

^(٣) في الأصل: "في ديوانه...".

أخواله ممن أنهزم يوم الواقعة، وكانوا من الوزراء العظام، فخاف السلطان صابون غب ذلك الأمر إن تراخي فيه أن (يفتن به^(١)) الناس، ويكثر جيشه، ويتسع الخرق على الراقع، وهذه عادة كل ملك حازم لرأيه، لأن أول الغيث قطر ثم ينهمر، فخرج في ثالث ليلة من رمضان في جيش كثيف، وكان بينه وبين أخيه أحمد يومين سफراً معتدلاً، فسري ليلة أجمع، وسار جل نهاره وقبل العصر وصل إلى محل معسكر أخيه، والتقى الجمعان، وكان الوزراء الذين مع أخيه أحمد قد أشاعوا أن السلطان صابون عاق لوالده، وأن والده حي وهو يريد قتله وأخذ الملك منه، فنفرت عن صابون طباع الناس واستبحروا فعله، وانحرفت قلوبهم عنه، وبلغ الخبر إلى السلطان صابون، فعلم أنها حيلة نبزت لتفجير الناس عنه، فلما وصل أرسل إليهم يقول لهم: أنه قد بلغني أنكم تقولون أن والدي حي، وأنا أريد قتله وأخذ الملك منه فإن كن قولكم صحيحاً لروني أبي، وأنا أسلم له نفسي بفعل فيها ما يشاء، وإن كنتم تخافون مني عليه فأنا عندي أناس أمناء أقياء ترضونهم وأرضاهم، فأبرزوه لهم، فإن أخبروني أنه هو أسلمت له نفسي بفعل فيها ما يشاء، فلما أبلغهم الرسول مقالته ردوا عليه أشنع رد، وقالوا له إنا لا نمكنك ولا نمكن غيرك من رؤيته بعد أن وقع ما وقع، فلما بلغه ذلك زحف عليهم بالعساكر وتوضأ وصلى ودعا الله أمام الناس وطلب النصر على الأعداء فنشب القتال بينهم، فلم يكن إلا كلمحة بارق أو خطفة باتق^(٢)، حتى ولوا الأدبار وركنوا إلى القرار، فلما رأى السلطان أنهم يريدون الانهزام أرسل أمامهم جيشاً قطع عليهم طريقهم، وأعطهم توقيفهم ونادى مناديه: أأكل من قبض على أحمد أخى فله عتقنا من الحمراء كذا وكذا ونكر لمرأً جميلاً، فما جاء المغرب إلا وأحمد في قبضة الأسر، وجيء به ثليلاً حقيراً، فأمر بتصفيده ثم جيء بأكثر اقارب أحمد مقرنين في الأصفاد فحملهم السلطان معه إلى أن حل ركابه بقاعدة مملكته وقصر سلطنته وبات في غبطة وسرور، ولما أصبح ضربت المطبول وجمعت الجموع وكان محفله ياله من محفل وخرج السلطان إلى الفائم والرايات تعلوه، وركب أهل

^(١) في الأصل: "يغتن به..."

^(٢) أو حظة باتق أي أسرع من حظة العلم الخارج للرب.

الملكة والرفيق، ووقف كل من الأمراء في موقفه وجلس كل من أرباب المراتب في محله المعد لجلوسه واصطفيت التراجمة وحضرت الغربان زمراً زمراً لابسين حلل الانتقام مزوجين بسماتهم جميع الأنام ووقفوا في المحل المعد لوقوفهم وأمر بمجيء أحمد وأقاربه وشيعته فجيء بهم في أسوأ حالة يحجلون فسى قيودهم، وأوقفهم أمام السلطان وأحمد أمامهم فقال السلطان لأحمد: يا أيها الفجار الخائن الفاسق الماجن القاهر الظالم الطاغى الغاشم أنظن أن متك يصلح لأن يكون أميراً أو رئيساً أو مشيراً حتى تطمع في إمامة الأنام ورأية الأحكام، كلا ساء ما توهمت، وبئس ما ظننت، أنت لا تصلح أن تكون راعياً لعباد الملك العلام، ولا تصلح لرعى الأغنام طالما ظلمت وتجبرت وطغيت وتكبرت، فكم من مخزاة^(١) هتكت، وكم من أناس ظلمت وكم من (نماء^(٢)) سفكت، لقد تعديت حدود الله التي قال فلا تعتوها ولا تركبت من الفواحش التي قال الله ولا تقربوها، فإن كنت كافراً فيما ادعيت، برهن عن نفسك وانفك^(٣)، فقال أحمد بقلب جريئ وجنان قوى: أسكت فمض الله فمك، وأهلكك وأعزمك يا أيها الجبان العاق لوالده المطرود من رحمة المنان، لقد غلط الدهر في مؤدبك وعن قريب يراجع عقله فيك، أنظن أني أخشى بلسك، أو أخاف مرامك، وأنا أعلم أنك لا تقدر (على) شيء أكثر من قولك أقتلوه والقيل عندى أهون من وقوفى بين يدي لنهم متك، فعند ذلك قال السلطان للعلماء ومن حضر من أرباب الشرع، أفنوني في هذا المارق، فقالوا جزاء الخارج عن طاعة الإمام الذي انعتقت له البيعة من الأنام أن يقتل أو يصلب أو تقطع يده ورجله من خلاف، لقوله الله تعالى إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض^(٤)، فعند ذلك أمر السلطان بأن تحصى مراود الحديد ويكحل بها، فكان كذلك ثم التفت إلى وزراء أبيه وقال لهم يا وزراء السماء أين ما كنتم تدعونه في حياة أبيي وتزعمون أني عاق لوالدي، وأسمعتم من ذلك ما أسمعتم وما قصدكم الاقضى وتولية

^(١) مخزاة هتكت... أي ربة حذر ومن العنة المنزلة.

^(٢) والنماء... م.

^(٣) والنماء... م.

^(٤) سورة المائدة الآية ٣٣.

ابن بنتكم، والآن والله الحمد قد ثبت كذبكم وتزويركم، ثم أمر الكبريتو وهم
الموكلون بقتل من يأمر السلطان بقتله، وهم الذين يضربون البوقات أمام السلطان
بأن يقتلهم فأحاطوا^(١) وشرعوا في قتلهم بعضى ذوات رؤوس عظيمة كالسماء
في عرف الترك بالدباير كما هي عادتهم، وسنتكم فيما بعد عن^(٢) عوائد الفـور
والوداي في القصاص والقتل والحبس وكيفية سجنهم وتعذيبهم لمن غضبوا عليه
إن شاء الله تعالى. فكانوا لقوة قلوبهم وعدم أكثراتهم بالقتل يتسابقون إليه وكل
منهم يمد عنقه للقتل قبل صاحبه رغبة في الموت وخوفاً من عار الجبن لأن
الجبان عندهم لا يعد من الرجال فلا يزوجه من أعظم النساء، بل يخرجونه من
حسابهم، ولم أسمع فيما سمعت بأشجع من هؤلاء، ولقد رأيت^(٣)، في بعض
التواريخ أن بعض الخلفاء خرج عليه خارج يقال له نعيم، وجيش جيوشاً عظيمة،
فعاقاه الخليفة حتى ظفر به، فلما أحضر بين يديه أمر بقطعه، ففرش له النطع،
وجرد السيف سيفه وقام على رأسه، وانفتحت الخليفة إلى نعيم فراه غير مكترث
ولامنزعج، ثابت الجنان لم يظهر عليه من أثر الرعب شيء، فاستنطقه الخليفة
ليختبر حاله، فقال له يا نعيم إن كانت^(٤) لك حجة فات بها، فقال نعيم أما إذا أذن
لي أمير المؤمنين بالحمد لله الذي جبر بك الدين ولم بك شعث المسلمين ولا عنز لي
إلا أن أقول وأشهد:-

أمرى الموت بين النطع والسيف كأنه	يلاحظني من حيث لا ألتفتُ
وأكسر ظني إنك البرمقائل	وأى امرئ مما قضى الله بيلتُ
وملنزعى من أن أموت وإني	لأعلم أن الموت شيءٌ مؤقتُ
ولكن ورائي صيته قد تركهم	وأحسازهم من وحشي نشتُ
كأنى أمرهم حين التى إليهم	وقد خشوا تلك الحدود وصوتوا

^(١) في الأصل "فاحاطوا بهم"

^(٢) في الأصل "لما بعد علي"

^(٣) في الأصل "ولقد كنت رأيت"

^(٤) في الأصل "إن كان لك حجة"

فإن عشت عاشوا آمنين بنبطلة (أخوذ^(١)) الردي عنهم وإن مت موتوا

فترفت عينا الخليفة رحمة عليه، وقال له: وهبتك لله ولصبيتك يا نعيم، ثم أمر
باطلاقه وفكه من وثاقه وأحسن إليه ورده إلى حبيبتة مغتبطاً مسروراً ومن هذا
القبيل ما حكى أن النعمان بن المنذر^(٢) بن ماء السماء كان ملك العرب بالحيرة
وكان قد قسم الأيام إلى يومين، يوم سرور ويوم بؤس، ففي يوم السرور لا يقع
بصره على انسان إلا أحسن إليه وجمله، وفي يوم البؤس لا يقع نظره فيه على
أجنبي الاقله فاتفق أنه قصده رجل من الأعراب يطلب لحياته فصانفه في يوم
بؤسه، فلما مثل بين يديه أمر بقتله في الحال، فقال الاعرابي: والله إن الموت أحب
إلي من كل شيء، ولكن أريد من الملك أن يمهني ثلاثة أيام أرجع فيها لأهلي
وأعلمهم بما حدث وعندي للناس وديع إن أنأمت الآن ربما ضاعت على أصحابها
فلرُدّها إليهم وإني ليفعل بي الملك ما هو فاعل، فقال الملك إعطني كفيلاً واذهب
فاتلفت الأعرابي إلى أحد وزراء الملك وخاطبه من دون الحاضرين، وطلب منه
أن يضمه وأنشده في تلك شعراً نسبته لا أعلم منه الاقوله:-

يا أخا الأخوان جُللي بضمان والنزار

فهزت الوزير لريحية الكرم وعلو الهمة وحسن الشيم، وضمن الأعرابي وأطلقه
فركب على دابته وتوجه إلى أهله وأعلمهم، وفعل ما يلزمه فعله، ثم رجع فكانه
تاخر قليلاً وأصبح النعمان في اليوم الثالث يقول للوزير إن لم يأت من كفلته
(فسوف) تمد مسدة، فقال الوزير: وهو كذلك، لكن لا سبيل للملك على الإبعاد
عصر هذا النهار، فإن لم يأت (فسوف) أمد مسده، فلما كان العصر قل للنعمان
لوزيره تيباً لوفاء ضمانك، فقال: وهو كذلك، فتبها الوزير ولوى السيف فحضر،
وأخذ الوزير إلى محل القتل، واجتمعت عليه الناس ما بين باك وصارخ وبينما هم
كذلك إذا بالأعرابي قد قدم وهو ينادي: خلوا من الرجل، ها أنا جئت أوفى بضمانه

^(١) في الأصل "أنا نواه الردي عنهم" وهو كلام لا يمتثل مع صياغ البيت

^(٢) النعمان بن المنذر، بن ماء السماء ملك الحيرة، وكانت الحيرة دولة عربية تابعة للترك العرب، مرامهة لملكة الغساسنة العربية في
الضام، التي كانت بدورها تابعة للروم وكانت الحروب بين المولىين متقطعة، استمرت حتى ظهور الاسلام وفتح بلاد فارس والروم
فانتهت المولىات في حسم الدول الاسلامية وكان النعمان من أشهر ملوك الحيرة.

فَأَمْسَكَ السِّيفَ يَدَهُ، وَأَعْلَمُوا الْمَلِكَ، فَأَمَرَ بِأَحْضَارِهِمَا، فَلَمَّا مَثَلَا بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لِهَـمَا:
مَا رَأَيْتُ أَعْجَبَ مِنْكُمَا فِي حَسَنِ تَوْفَاءٍ وَعُظُو لِهَـمَـةٍ، وَقَدْ عَفَوْتُ عَنْكُمَا وَأَبْطَلْتُ يَوْمَ
يَوْمِي إِكْرَاماً لَكُمَا.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَا حَكَى لِي الشَّرِيفُ مُحَمَّدُ بْنُ الشَّرِيفِ إِبْرَاهِيمُ الْمَلَقِبُ
بِكِتَابِ (الْعَشْرَى) أَنَّ أَهْلَ سِنَارٍ قَاتَلَ كَانَتْ عِنْدَهُمْ لِنَ الرَّجُلِ إِذَا قَتَلَ (رَجُلًا) آخَرَ
يُمْسِكُ الْقَاتِلُ رَجُلَ الْمَقْتُولِ وَيَجْلِسُ حَتَّى يَأْتِيَ أَهْلُ الْمَقْتُولِ فَيَقْتَصِمُونَ مِنْهُ، فَاتَّفَقَ لِنَ
رَجُلًا قَاتَلَ آخَرَ عِنْدَ عَشِيقَةٍ لِهَـمَا وَمَسَكَ رَجُلُهُ وَجَلَسَ حَتَّى جَاءَ أَهْلُهُ، وَكَانَ لِلْمَقْتُولِ
سِتَّةُ إِخْوَانٍ نَكُورٍ غَيْرِهِ وَأَبُوهُ وَأُمُّهُ، فَسَأَلُوا الْقَاتِلَ لِمَ قَتَلْتَ أَخَانَا، قَالَ قَتَلْتُهُ، قَالَ
أَفَرْضَى لِنَ نَفْسَكَ فِيهِ؟ قَالَ نَعَمْ، إِلَّا أَنِّي أُرِيدُ مِنْ أَفْضَالِكُمْ لِنَ تَمِيلُونِي ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ
لَأَذْهَبَ فِيهَا لِأَهْلِي وَأُودِعَهُمْ وَأَتِيَكُمُ فَقَالُوا لَهُ: هَذَا جَبِينُ مِنْكَ، وَتُرِيدُ لِنَ تَقْرَ مِنْ الْقَتْلِ
فَلِنَ^(١) كُنْتَ جَبَانًا فَلَسْتَ حِينَئِذٍ بِكَفُوٍ لِأَخِينَا، فَلَا نَفْسَكَ فِيهِ وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ لَا يَقْتُلُونَ
إِلَّا مِنْ شَجَاعٍ فَلِنَ كَانَ الْقَاتِلُ جَبَانًا تَرَكَوهُ وَنَظَرُوا أَشْجَعَ أَقْرَبَهُ فَقَتَلُوهُ فِيهِ، فَقَالَ
لِهَـمُ الرَّجُلُ: لَا وَاللَّهِ مَا أَنَا بِجَبِينٍ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ جَبِينٍ لَكِنِ عَنَرِي وَاضِحٌ هُوَ
الَّذِي أَلْزَمَنِي لِنَ أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، فَقَالُوا لِنَا بِكَفِيلٍ وَنَحْنُ نَتْرُكَكَ، فَاخْتَارَ مِنَ النَّاسِ
الْحَاضِرِينَ رَجُلًا تَوَسَّمُ فِيهِ الْخَيْرَ، وَسَأَلَهُ لِنَ يَكْفُلُهُ حَتَّى يَرْجِعَ فَهَزَّتِ الرَّجُلُ النَّخْوَةَ
فَضَمَّنَهُ^(٢) (ثُمَّ) شَرَطُوا عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَسَيَقْتُلُونَهُ بِأَخِيهِمْ، فَرْضَى
(أَيَّ الضَّامِنِ) وَأَشْهَدَ عَلَى نَفْسِهِ بِذَلِكَ، ثُمَّ رَكِبَ الْقَاتِلُ رَاكِلَتَهُ وَوَدَّعَهُمْ وَانْطَلَقَ إِلَى
أَهْلِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ وَأَعْلَمَهُمْ بِمَا جَرَى لَهُ وَكَانَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِعَرَسٍ، فَقَالَتْ لِهَـةُ
زَوْجُهُ لَا تَدْخُلْ عَلَيَّ وَلَا ذْهَبِ فَأُوفِ بِضَمَانِكَ وَقَالَ أَبُوهُ وَإِخْوَتُهُ كَذَلِكَ، فَاغْتَسَلَ
وَتَعَلَّيْبَ وَرَكِبَ رَاكِلَتَهُ وَقَتَلَ رَاجِعًا لِيُوفِ بِضَمَانِهِ، فَعَرَضَ لَهُ أَسَدٌ عَاقَهُ عَنْ
مَسِيرِهِ فَتَزَلَّ وَقَاتَلَهُ حَتَّى قَتَلَهُ، وَأَخَذَ قِطْعَةً مِنْ جِلْدَةِ رَأْسِهِ عَلَامَةً عَلَى صَحَةِ قَوْلِهِ،
فَلَمَّا كَانَ عَشِيَّةَ الْيَوْمِ الذَّلِيلِ جَاءَ أَهْلُ الْمَقْتُولِ لِلضَّامِنِ وَقَالُوا لِهَـةُ: قَدْ ظَهَرَ لِنَ
صَاحِبُكَ قَدْ خَلَنَ فَقَمِ وَأُوفِ لِنَا بِالضَّمَانِ فَقَامَ مِنْ سَاعَتِهِ وَتَوَجَّهَ بِهِمْ إِلَى مَحَلِّ الْقَتْلِ
وَبَيْنَمَا هُمْ مُحِيطُونَ بِهِ وَشَارِعُونَ فِي قَتْلِهِ إِذْ جَاءَهُمُ الْقَاتِلُ يَنَادِي يَا وَيْلَكُمْ خَلَوْا عَنِ

^(١) وَالْأَصْلُ: وَلَا كُنْ.

^(٢) وَالْأَصْلُ: وَضَمَّنْهُ.

الرجل، ها أنا جئت أوفى بضماني، فخلوا عنه وحين رأى أبو المقتول أن القاتل
(قد) جاء ولم يفر، دعا بأولاده كلهم، ودخل بهم داره وأغلقها عليه وعليهم وقيل
لهم: يا بني ماذا ترون في أمر هذا الرجل وهل هو أعلى همة أم الذي ضمنه،
فاتفقوا على أنهما كفرقنين في السماء، فقال لهم أبوهم الراى عندي (أن) هذا
الرجل لا يقتل لحسن وفائه، فقال أحد أولاده نترك دم أخينا يذهب هدرأ لا يكون ذلك
أبدأ، فحلف أبوهم بالطلاق ثلاثاً أن^(١) لا يقتل، وكل من ناله بسوء كان هو خصمه،
وأغلق عليهم الدار وخرج (ثم) دعا بالرجل وقال له: قد عفونا عنك فإذهب إلى
سربك، فأبى الرجل وقال: لا يمكن ذلك أبداً، أكون قاتل ولدك وثمره فؤادك
وأعيش بعده هذا مما لا يكون، فقال له أبو المقتول: قد عفونا عنك، والحمد لله إن
قتل مني ولد فقد بقي أولاد، وتركه ومضى، فمكث القاتل ثلاثة أيام وهو ينادي يا
أهل النار هلموا وخذوا بنثر إينكم مني، فلم يأت أحد، فلما أعياه الأمر ركب راحلته
وانقلب إلى أهله أغيبط إنسان.

ولما قتل السلطان أعداءه من أخوان أحمد وغيره، أظهر في الناس العدل،
وحسنت سيرته في الممالك، وهرع^(٢) العالم إلى مسنته من كل حنب ينسلون كأنهم
إلى نصب يوفضون، فقمع الجبابرة الذين كانوا يدعون بالعفاريات، وأمن السبل
التي كان يخشى من سلوكها كل قرن حزين حتى كانت المرأة تسلكها محملة^(٣)
في النهار لا تخشى إلا الواحد القهار، ومكث على ذلك مدة، لكن كان في قلبه من
أخيه أصيل ما يمنع الهدوء والمقيل، لكنه صابر حتى يحدث الله بعد ذلك أمراً،
فاتفق أن السلطان غزا دار تاما^(٤) وخرب^(٥) ديار أهلها، وشقت شملهم، ومزق

^(١) في الأصل: .. بالطلاق ثلاثاً ..

^(٢) في الأصل: " وهرعت العالم .. "

^(٣) بقصد أن المرأة تسلك هذا الطريق وهي تحمل حاملاً يكون خوف من أحد

^(٤) دار تاما: تقع غرب دار لير على حدود دماي، وكانت دماي مرة وصل إلى دارفور ودماي، وكانت حاصنة لدارفور، وأما دماي

دارفور ودماي وتسمى دارفور، ولما كانت منطقة صراع بين الدولتين ولما اشتهرت بمرافقها الواسعة، ورحلتها الطويلة

من:

سجل الأحداث من ١٢٦

١: " وأحرب .. "

جمعهم كما يأتي بيان ذلك، وكان ملك تامه ينتمي^(١) إلى سلطان النور { فأعاط هذا
 الفعل سلطان النور يومئذ، وهو السلطان محمد الفضل^(٢) } {وأخذ يفكر} في مكيدة {
 يكيد بها السلطان صابون، فاستشار^(٣) وزراءه في ذلك، فأشاروا عليه أن يلتفت
 إلى أصيل وينعم عليه باتعامات وافرة، ثم يفوضه في شأن توليته سلطاناً على دار
 وداي، فاتاه يرغب في ذلك { رأي أصيل } وبأخذ عليه العهد بأن يعطيه في كل سنة
 كذا وكذا من المال، فمضى أخذت عليه العهد بذلك أن تأمره بمكاتبة أمراء دولة
 صابون، {وأن} يهدم الوعود^(٤) الحسنة ليفسدهم عليه، فإذا أتته الكتب منهم بأن
 قلوبهم معه يهيء له جيشاً كثيفاً يذهب معه فيأخذ^(٥) منه وداي، وتصير من جملة
 ممالكه، وحينئذ إما أن يقبض على صابون ويفعل فيه ما يشاء، وإما أن يقتل فيسي
 الحرب فيكفيه الله شراً، وإما أن يبيع على وجهه فلا تقوم له قائمة، فقبل
 السلطان^(٦) محمد فضل ذلك {العرض} ودعا بأصيل بعد أن كان عنده في زوايا
 الإهمال لا يعتني به أحد، فأنعم عليه وأعطاه خيلاً ورقياً وحوله في دار حسنة،
 ووصله بأموال جزيلة، وأخذ عليه العهد على حسب ما قال وزراءه، وأصبح
 أصيل في أبهة وداموس، وارتفع جبينه بعد الخمول، وعرفته الناس، وشاع على
 السلتهم^(٧) بأنه ملك دار وداي، وكتب جملة كتب وأرسلها إلى وزراء السلطان
 صابون ليفسدهم عليه، ووعدهم بكل جميل، فأخذوا الكتب وأطلعوا السلطان

^(١) بقصد الكتاب : أن ملك تامه جمع لدولة النور.

^(٢) السلطان محمد الفضل: حكم دار نور في الفترة (١٨٠٢ - ١٨٣٩ م / ١٢١٥ - ١٢٥٤ هـ) كان يلقب بغير السلاطين، نظراً
 لأصله الخوة وشاع الدولة في عهده، تولى الحكم بعد أبيه السلطان عبد الرحمن فرجيه وكان صغيراً فلول الأب فتح محمد كراهر
 زمة وتولى العرش وكان حكيماً متقناً، وبذكر النور حول أن أمه، كانت حنيفة من قبله اليهو تسمى لم ترمه، وخذ توليه الحسرة
 سرر ليله أمه، وحرم استزلاتها، وكانت له حروب مع وهي النصر فيها ووجد حكمه في البلاد.

نظر : نغم خلوة : تاريخ السودان ص ١٣٠.

موسى المبارك، تاريخ دار نور السياسي ص ١١٥.

^(٣) في الأصل : * واستشار .. *

^(٤) في الأصل : * ووعدهم للواعد .. *

^(٥) في الأصل : * فاعاد لت وداي ونحو من جملة ممالك .. *

^(٦) في الأصل : * قتل ذلك السلطان .. *

^(٧) في الأصل : * وشاع على السلاطين .. *

صابون عليها، فلما رآها فرح واستبشر بقرب الفرج، وقال لعظماء وزرائه^(١) :
 كاتبوه بأنكم معه بالقلب والقالب، لأنني مضيق عليكم ومتعبكم غاية التعب، وكلكم
 مقيمون معي مع الكرامة، لعنم وجود غيري، وأخبروه بأنه غير محتاج إلي معونة
 السلطان محمد فضل، لأن في ذلك علواً عظيماً، لأن مملكتنا بعد أن كانت^(٢)
 مستقلة تكون تابعة ويفوز غيرنا بخيرها، ولا يصبح^(٣) من السلطنة إلا الاسم،
 وهذا عار يبقى إلي الأبد، فإن كنت تألف بلاتك، وتأخذك عليها غيرة، إياك أن
 ترضي بأن تكون^(٤) تحت سلطان الفور، وإنما الرأي عندنا أن تختلص نفسك ونأتى
 إلي المحل الفلاني وترسل إلينا^(٥) ونحن نأتيك بأجمعنا ونترك صابون وحده،
 وتأخذك وندخل بك البلد، ويبقى صابون في قبضتك تتصرف فيه كيف تشاء،
 ونقسم بالله وأياته لنن جنتنا بجيش الفور وسلطانهم لا تطيع لك أبداً ولو لم يبق في
 دار وداى الأرجل واحد، فاختر لنفسك ما يحلو (لك)، ونحذر معادتك من أن تطلع
 على كتابنا هذا أحد من الوداي أو الفور لأنك إن أطلعت عليه أحداً من الوداي
 لأنامن أن يبلغ ما فيه إلي السلطان صابون فيقتلنا وأنت تعلم ما عليه أخوك من الحدة
 والعتو، وإن أطلعت عليه أحداً من الفور لأنامن أن يفسد بينك وبين السلطان قبل
 أن تبلغ مقصدك، والموعذ بيننا محل كذا فنحن نمكث فيه حتى تأتينا فمتى قربت
 منه فالرسل لنا رسولا يعلمنا بقدمك ونحن تحت أمرك إن شاء الله تعالى، فلما
 وصل الكتاب إلي أصيل وراه اتخذع، وأطمأن بما فيه، لا سيما وقد رأي فيه اختام
 الوزراء الكبار والكمائلة العظام، ورأي أن ذلك أنفع له، فأغلق بابه وأمر الخدم
 والبوابين أن كل من سأل عنه يقولون له: إنه مريض، وترك جميع أمواله ورقيقه،
 ولم يأخذ معه إلا خاتماً واحداً، وركب بعيد العشاء وسار الليل كله والنهار، ولم
 يسترح إلا وقت القائلة، ثم ركب وسار الليل كله فقطع شقة عظيمة، وفي ثالث يوم
 وصل إلي المحل الذي سماه له الوزراء، فاخترني هناك، وأرسل إليهم كتاباً يعلمهم

^(١) في الأصل: "وقال لعظماء ووزراء كاتبوه..."

^(٢) في الأصل: "بعد أن تكون..."

^(٣) في الأصل: "ولا يكون ذلك من السلطنة إلا الاسم..."

^(٤) في الأصل: "بأن تكون في..."

^(٥) في الأصل: "وترسل إلينا..."

بأنه جاء علي حسب وعدهم، فما كان إلا كلع البصر حتى أقبل عليه جيش فسمعوا^(١) وأطاعوا، والتفوا حوله^(٢) وتوجبوا به الي المحل المعلوم، فرأي فيه من المراقق والخيول والعلامات السلطانية ما أدهشته وحقق ظنه، ورأي جيشاً يعجز العاد أن يعده، فأمل الخير والنصر، وجاء أولئك الوزراء وهأؤه بالسلامة، وأكبوا علي أقدامه يقبلونها وهو يعدهم^(٣) بكل جميل، وكان ذلك كله مكيدة من السلطان صابون، وهو الذي رتب هذه الأمور وأعدّها، وأخذ العهد علي الوزراء والكماكنة، بأنهم لا يخونوه^(٤) وحلفهم إيماناً بالغة، ووعدهم أن قبضوا^(٥) علي أصيل أن يكافئهم^(٦) بكل خير، وبعد أن استوثق منهم أرسلهم اليه في تلك الأبهة من الخيول والمراقق، حتي أنه أرسل اليه^(٧) مراققه نفسه، وكان من جملة وصاياهم لهم، أنهم لا يتوانوا في القبض عليه، وأنهم متى قبضوا عليه^(٨) يرسلوه في طائفة من الفرسان الأشداء ويأخذون عليهم العهد أنهم لا يخونوا^(٩) فيما استؤمنوا عليه، ولما دخل أصيل في المعسكر واستقر، أرسل الي كل جهات الوداي مناشير سلطانية، يحرضهم علي القنوم علي اعتابه، ويحذرهم الخلاف وعاقبته، ولم يعلم أن هذا كله حيلة دبّرت عليه، ليخرج من بين أظهر الفور ويسهل من قبضه.

أقول: ومثل هذه الحيلة لا ينخدع بها إلا كل غر أحمق، لأنه لو كان فيه أدنى عقل، وتأمل في هيئة المعسكر والعلامات السلطانية، والمراقق، وجميع ما هيء له، لعلم لفطنته أن الوزراء لا يمكنهم إخراج شارات الملك وسرائقه إلا بإذن منه، لكنه لغباوته لم يتأمل في شيء من ذلك ولقد اجتمعت معه في

^(١) في الأصل: "وسمعوا له وأطاعوا..."

^(٢) في الأصل: "والفوا عليه..."

^(٣) في الأصل: "وهو يعدهم..."

^(٤) في الأصل: "بأنهم لا يخونونه..."

^(٥) في الأصل: "أن قبضوا علي أصيل..."

^(٦) في الأصل: "أن يكافئهم..."

^(٧) في الأصل: "أنه أرسل له مراققه نفسه، وبه سرائقه الشخص..."

^(٨) في الأصل: "أنهم لا يخونونه..."

دارفور^(١) مراراً وتكراراً، ورأيت فيه من الكبر ما لو فرق علي أهل الأرض
لوسعهم، مع أنه كان في غاية من الفقر والمسكنة، وحين كان يضمني معه مجلس
كان ينظر إليّ بشر وأحد عداوة، ولم يكن بيني وبينه معاملة قط، لكنه لما بلغه أن
والدي وزيراً للسلطان صابون بغضني لذلك، وهذه غاية الجهل والحمالة، وحين
رأي أصيل إقبال الوزراء والكمالة عليه تيقن أن حاله صلاح، وأن الدهر ختمه،
ولم يشعر بأن الدهر أفسد حاله فساداً لا يرجي صلاحه، علي حد قول الشاعر:

عجوز غنت أن تكون فيتهً وقد يس الجنبان وأحدوب الظهر

فروح إلى العطار قبغي شباهها وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

فما كان في سعيه من دار فور إلى دار وداي إلا كالتباحث عن حقيقته بظلفه أو
الجادع مارن أنه بكفه، وكان رأي الوزراء أنهم يدخلون به إلى دار وداي حتى
يصلوا إلى واره ويقبضوا عليه هناك، فلأراد الله غير ذلك، وعجل له الفك من
جميع المسالك، وما ذاك إلا أن بعض الملوك صمم علي خيانة السلطان ونجدة
أصيل، لما قام في صدره من الفساد، لأن حضرة السلطان لا يمكن فلاحاً من
الظلم، ولا مفسداً من الفساد، وهذا البعض يعلم أنه ما دام صابون سلطاناً لا يتمكن
من {تنفيذ} أغراضه، ويتمكن منها مع أصيل، فجنح إليه بقلبه، وأفشي ذلك، وقال
لبقية الأمراء: أراكم غررتم بالرجل، وجئتم {به} لمقتله، مع أنه ابن ملككم، وفي
قلبي أنه أولى من صابون بالملك، لأنكم تعلمون ما عليه صابون من الجبروت^(٢)
والعتو وسفك الدماء وعدم قبول نصحكم، فإن^(٣) كنتم تسمعون نصحي تجعلون هذا
الهلز جداً، وتكونوا مع هذا الرجل بالقلب والقلب {ولن} تغيير الدول فيه رحمة
عظيمة، فحين سمعوا منه هذا القول علموا أنه صبا^(٤)، وإن لم يتدركوه {فسوف}
يفسد حيلتهم، فقبضوا عليه من غير سؤال، وقيدوه، ثم وكلوا به من يحفظه،

^(١) كان مولد الكاتب له دار فور بآحاً من والده فوحده قد رحل إلى وداي، فسكن في العاشر من الرمن بطبرستان
من سلطان الفور ظفر إلى والده فأمر الأول لسوت لأنه مرهون بالعلاقات بين الدولتين كما سبق تفصيله.

^(٢) في الأصل: "الجم".

^(٣) في الأصل: "وإن".

^(٤) صبا أي لونه وصريح من المصنف.

وقاموا كلهم ودخلوا علي أصيل وقبضوا عليه في تلك الساعة، خوفاً من أن يسري^(١) إليه خبر ذلك الملك، أو تسمع شيعه ذلك الملك فتشبه نار بعسر إطفائها، وبعد أن قبضوا عليه صفقوه وجمعوا يده الي عنقه بجامعة متينة، وأركبوه بعيراً، وأرسلوا معه ألف فارس بعد أن أخذوا العبيد عليهم بعدم الخيانة، وأمرهم أن يتوجهوا به الي واره، وجعلوا أمرهم الي كامكلاك كنزمني وهو ابن خالة السلطان صابون، وكان أشفق الناس عليه، فأخذ عسكره وتوجه وسري به الليل لجمع، (وفي ذلك) الليل ارتحل الوزراء بالمساكر وسرّوا خوفاً من أن يحدث أمر، فوجدوا الكامكلاك كنزمني قد وصل بمن معه الي قرية هناك فسألوه هل حدث شيء؟ فقال: لا، فتوجهوا وتركوه يأتي علي رسله، وتعجلوا السفر الي واره فوصلوها في ثالث يوم، ودخلوا علي السلطان وأخبروه بما وقع، فابتهج فرحاً، وأمر بسجن الملك الخائن، (وعند الصباح^(٢)) أرسل ملكاً من ملوك التراقنة (ومعه) مائة ألف ليلوا^(٣) بأصيل صحبة الكامكلاك كنزمني، فذهبوا، وفي اليوم الثالث^(٤) وصل أصيل مقيداً علي البعير، وخرج السلطان الي^(٥) الفاشر في أكمل زينة، وضربت الطبول والتجوقات، وخفقت الأعلام علي رأسه، وأصيل راكب علي البعير ثم أمر السلطان بدخوله في وسط الحلقة، وقال له يا خائن يا غادر أتريد أن تملك بلادنا لأعدائنا، لأجل قضاء شهواتك، ثم أمر بقتله في الحال، شر قتله، وأراح الله العباد والبلاد منه، وكان يوم سرور في وداي، لم ينظر مثله قط، ثم أمر السلطان بإحضار الملك الذي خان فأحضر، فأمر بقتله أيضاً، فقتل وطرح ملوه مع ملو أصيل في بطناء الفاشر من وقت الضحى الي المساء، ثم أمر بدفنهما، وهذه من أشرب التوفائع، ولم أسمع بملك خدع كما خدع أصيل، إلا جذيمة الأبرش ملك العرب فإنه اتخذ للزباء، وهذه كانت ملكة أيضاً مات أبوها ولم يعقب غيرها، وكانت في مملكة واسعة، فأحب جذيمة أن يتزوجها، وكانت تكره الرجال، فأرسل لها جذيمة

^(١) في الأصل: "أن يسري".

^(٢) في الأصل: "واصبح".

^(٣) في الأصل: "يأتون بأصل".

^(٤) في الأصل: "وبعد ثلاث يوم..".

^(٥) في الأصل: "في الفاشر".

أني خاطبك لنفسي، فعلمت أنها متى امتعت قاتلها جذيمة، وأخذ ملكها قهراً عليها، فخدعته بحيلها، وأرسلت تقول له: إن السيف أصاب القراب، ووالله أنك لكفؤ كريم، وطالما كنت أراد نفسي أن أخاطبك في هذا الشأن، لكن لا يخفى عليك الحياء الذي تتمتع به النساء من تمام أغراضهن، والحمد لله الذي أهلك لهذا الشأن، فإذا أتاك كتابي هذا فبادر بالتقدم، ليكون الشمل بملكك منتظماً، فلما قرأ الكتاب أعجب (به) وأصبح مرتحلاً، وكان له ابن بنت يقال له قصير، جاء الي الملك حين بلغه ذلك، وقال له أيها الملك أنتخدع من امرأة، فقال لا خدعة، فقال قصير: لا يسمع لقصير قول، فصار مثلاً، ولما وصل جذيمة الي الذبء تلقته أعظم ملقي، وأخرجت له العلقات والضيافات، وحضرت لديه وعقد عليها، فأطمانت نفسه، ووثق بها، ورد ما بقي ما معه من العساكر وبقي في نفر قليل، ولما دخل عليها في قصرها أعظمت ملتقاء وتأمل فلم يجدها تأهبت ولا تزينت بشيء، فأحس بالشر، وقد غلقت عليه الأبواب، وبقي وحيداً، ثم أنها غلبت عنه قليلاً وعادت اليه مكشوفة السوء وأرقه سوءتها، وقالت له أنظر متاع عروس فرأي عانة كاد شعرها أن يكون لمة، فقال لا أري متاع أمة بنظري، فعند ذلك دعت بجواربها وقالت (لهن) إفرشن نطعاً ففرشنه، وأمرت حاجماً أن يوضع راهشيتية^(١) فبضعهما وتركته دمة سائلاً حتى مات، وكانت في أثناء ذلك تقول لجواربها: أخنقن دم سيدكن، فقال جذيمة: دعينه فإنه دم أهله صاحبه، وهكذا معني قول الشاعر:

فتلست الألبم كراهية وألبي قولها كذباً وقمينا

ثم أن قصيراً أخذ بئار خاله منها وقتلها هي وقومها، ومع أن جذيمة وقعت مشهورة، فلا يقبل الحكام بها، وإنما ذكرنا صندرها لمناسبة الخدعة على سبيل الاستطراد وإنما قتل صابون أخاه والملك الذي كان صبا إليه، لأن الرجل الحازم

^(١) راهشيتية: القميص لها على الرزبة الذي يحمل الدم من القلب واليه.

صلى الله عليه وسلم: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتقين^(١) ومن هذا القبيل ما قيل أنه لما تزهد النعمان الأعور ملك بعده ابنه المنذر وانتهى ملكه في زمن فيروز بن يزدجرد، ثم ملك ابنه الأسود وهو الذى انتصر^(٢) على عثمان عرب الشام واسر عدداً^(٣) من ملوكهم وأراد أن يعفو عنهم، وكان للأسود ابن عم يقال له أبوزية قتل له آل عثمان أخا في بعض الوقائع، فقال قصيدته المشهور يفرى الأسود على قتلهم فمنها:-

ما كل يوم رجال المرأا ملطبا
 واتحزم الناس ما إن فرصة عرضت
 وأخف الناس في كل المواطن من
 وليس بظلمهم من راح بغيرهم
 والعدو الاعن الأكما مكرمة
 فلت عمرا ونبتى فزبد لقد
 لا قطع من ذنب الأقمى وفرسها
 ممر حردوا السيف فاجلهم لجزرا
 ان قلى عنهم قول الناس كلهم
 ممر أملة غان ومجدد
 وعرضوا جدا واحين لنا
 انلبون حمانا وظلها
 علام قبلهم فديعة وممر

وقد أن الأول أن نحبس القلم عن طغيانه ونرده عن الجموح بألواء عذاته، ونشرع في ذكر الوقائع التي جرت بين السلطان صابون وأقربائه والحروب التي حصلت منه إلى آخر زمانه.

^(٢) الحديث: أخرجه ابن ماجه في سننه، وصححه رقم (٢٩٨٢) ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي عن طريق إسحاق بن إبراهيم الحنظلي عن كثير بن عبد الله بن زياد، وعما ثبت في الروايات ٩٠/٢.

١٧٠ ن الأمل - نصر - وأمير - نصر

من الأصل "عند" وهو معنا والصواب: عندنا

الفصل الخامس

في ذكر ما وقع من السلطان صابون من الحروب

وقهر الملوك وملك البلاد

إعلم أن القادر الذي لا يعجزه شيء، تقست ذاته وتفرقت صفاته جعل الملوك في الأكلون كالرؤوس من الأبدان، والرأس هو الرئيس، وهو محل العقل على بعض الأقوال، وهو أشرف أعضاء الإنسان لأن فيه من الحواس الظاهرة وهي السمع والبصر والشم والذوق، وفيه الحواس الباطنية بتمامها، وهي: الحسن والخيال والمفكرة والمنيرة والمتصرفة، كما أن السلطان محل جمع الكلمة ومحل العدل والظلم والاتصاف والذب عن البلاد، والرافة والرحمة والانتقام من الظالم للمظلوم وإقامة الحدود والتجاوز والعفو، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (السلطان ظل الله في الأرض، يأوي إليه المسكين وبه ينتصر المظلوم)^(١) وقال عليه الصلاة والسلام: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)^(٢) إذا تقرر ذلك من حيث إن السلطان محل القوة والنجدة فمن الواجب عليه أن يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، وفي الحديث: من رأى منكم منكراً فليغيره لما بيده أو بلسانه أو بقلبه وهو أضعف الإيمان^(٣) ولا أحد أجد^(٤) من السلطان خصوصاً كسلطان السوداي فإن جميع أهل بلاده يتقانون لكلمته مطيعون لأوامره، متجنبون لنواهيه، ولذلك لما تمكن السلطان صابون في السلطنة، وثبت قدمه فيها لم يدع منكراً إلا غيرَه ولا معروفاً مع مستحقه إلا فعله ومن جملة ذلك تغييره للمنكر الذي ارتكبه الحاج

^(١) أخذت رواية البراء، وفيه سعيد بن مسكان أبو مهدي، وهو من روى صحيح الترمذي ١٩٦/٥ (صحيح).

^(٢) أخذت نسخة البخاري في صحيحه ج ٥ من ١٨١ وأخرجه الترمذي في المعجم وقال حديث صحيح ٢٥٨/٥.

^(٣) من الحديث: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده أو بلسانه أو بقلبه وذلك أضعف الإيمان رواه مسلم.

رواه الشيخان من ١٠٠.

^(٤) عبارة "ولا أحد أجد" أي لا أحد أكثر جدية من السلطان صابون سلطان ودي.

أحمد سلطان الباقمة^(١) وذلك أن السلطان المذكور طغى وارتكب الفواحش التي نهى الله عن فعلها منها أنه أباح الظلم لقواده يظلمون كيف شاءوا، ولا يقبل فيهم شكوى من أحد، فاتفق أنه لما كثرت الظلم على الرعايا اجتمع كثير من كبراء أهل القرى والضيايع وشكوا إلى العلماء مانابهم من عسف العمال وجورهم وأن السلطان لا يقبل فيهم من أحد شكوى، والتمسوا منهم أن يتوجهوا إلى السلطان، وأن ينهوه ويبالغوا في نهيه، عسى أن يرتدع ويأمر قواده بالكف عنهم فكان كذلك، واجتمع جميع العلماء وتوجهوا إليه فلما دخلوا عليه عرف مقامهم واحسن ملبسهم وبعد أن استقر بهم المجلس سألهم عن سبب اجتماعهم ودخولهم عليه، فسكتوا، وكان فيهم رجل ممن يسمى الفقيه التولي، فقال يامولانا السلطان إنا جئناك لننهيك عن أمور صدرت من قواك فإن كان لك بها علم نلتص من معادتك أمرهم بإبطالها وإن لم يكن لك بها علم تزجرهم وتردهم، فقال السلطان وما هي، فقالوا له الظلم لأنهم ما تركوا قلباً بارداً^(٢) وأنت السلطان وهم لا يظلمون إلا باسمك والرعايا لا تخشى إلا منك، وأنت المسئول يوم القيامة، ثم ضرب له مثلاً فقال: يامولانا السلطان أرايت أن كان لك زرع وقرب أولان^(٣) حصاده وهو في غاية من الخصب وكان في وسطه شجرة كبيرة قد عشتت فيها الطيور وصارت تأكل ما في الزرع من الحب ولم ينفع فيها التزجر وأعيانك الأمر. فلماذا تفعل بالشجرة فقال السلطان أقطعها، فقال الفقيه: أعلم يامولانا إن الرعايا هي الزرع وأنت الشجرة وعساكرك الطيور، وقد حصل منهم من فساد الزرع ما لا يتحمل، ونحن نخاف الآن على الشجرة من القطع لأن صاحب الزرع الذي هو الله لا يرضى بالظلم، أما سمعت قول الشاعر:-

^(١) الباقمة: أبو البرقي: هيئة عظيمة الدماء الخفية والرمية: احتظت مع ليلي الفلاح، واستورا دولة جنوب بحيرة لشدة في القرن العاشر للمحرى السادس عشر الهلادي، وسطروا سلطانهم على شعوب المنطقة من العرب والمولان وله تأثر الدولة بالاسلام انعدام اليها من روم ومن الشرق، وكانت عاصمتهم تسمى ميها عندما رزق ارحمة بارت Dardas المنطقة متصل القرن التاسع عشر الهلادي، وكانت معاصرة لدولة الروماني. مظهر: مقبرة للعارف الاسلاميه، مادة (محرى).

^(٢) ما تركوا قلباً بارداً أي لم يتركوا قلباً هائلاً لم يسأ هادئة وهو كلمة من الدمر والحرف الذي تدعوه في لغوس التي.

^(٣) أولان الأصل .. "قرب إنا حصاده".

لَا ظَلِمَ أَحَدٌ مَا كُنْتَ مُتَنَدِّراً فَالظُّلْمَ آخِرُهُ بِأُتَيْكَ بِالنَّدَمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمُظْلُومُ مُنْتَبِهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَقْمِ
وَفِي الْحُكْمِ الْمَأْثُورَةُ: ...

الظُّلْمُ إِنْ دَامَ كَثُرَ، وَالْعَدْلُ إِنْ دَامَ عَمَرَ ...

وقال الشاعر:-

أَلَا قُولُوا الرَّجُلَ قَدْ تَعُودُ عَلَى ظُلْمِي وَلَمْ يَخُشِ الرِّقْيَا
فَضَبْتُ لَهُ سَهَامًا فِي اللَّيَالِي وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَهُ مَصِيئًا

وفى الحديث: عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة^(١) فضحك السلطان منهم، وقال لهم: ترون أن هذه الطيور تعيش من غير طعام وشراب، قالوا: لا، قال لهم: هم لا يأخذون منهم إلا أتاواتهم قالوا له أتاواتهم عليك، وأنت معطيهم الاقطاعات من أجل ذلك، فقال لهم: كل إنسان أعرف بوسم قنحه، أما الرعايا فبهم رعاياي والعساكر عساكري وأنتم لا تدخل لكم فى ذلك، أنتم لا تدخل لكم إلا فى رجل يريد أن يتعلم شرائع الدين أو يسأل عن مسألة، أما هذا فلا يعينكم ولولا أن الناس يقولون إن السلطان بطش بالعلماء، لما تركت منكم أحداً، ثم دعا بأمرائه وقال^(٢) لأحدهم: أنت الصقر وقال للآخر أنت البازي، وقال للآخر: أنت الحداة، وللآخر أنت الرخم^(٣) وللآخر أنت النسر ووسمهم بأسماء طيور (جارحة) والعلماء جالسون ينظرون ذلك ويسمعونه، فخرجوا من عنده على غير صورة ذلمون لأفعاله، ومازاده ذلك إلا اعتوا فأجتمع العلماء مرة ثانية ودخلوا عليه، وذلك حين ضج الناس من شدة الظلم، وصار يقع بينهم وبين جند السلطان مقاتلات عظيمة وتسفك دماء الناس فخربت^(٤) لذلك عدة قرى وضياع، فقالوا ندخل عليه، ولو كان فى هذه

^(١) فى الحديث "عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة"، فام لها وصام قارحاً رواه الأصمهان بسند حسن ان مرسره، السرخس والزهري ١٦٧/٢.

^(٢) فى الأصل "قد".

^(٣) فى الأصل "الرخم" والضمير المرحب، وهو صخر حارح.

^(٤) فى الأصل "فخرت" لذلك عدة قرى.

المرّة هلاكنا فلما مثّوا بين يديه عرف حقهم وأنزلهم منازلهم فلما استقر بهم الجلوس مدّاهم عن سبب مجيئهم فأخبروه أنهم جاءوا يوفون بعهده الله الذي أخذهم عليهم في قوله تعالى: "وَأَذِ الْأَخْذُ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ" (١) فَقَالَ: قُولُوا مَا تَرِيدُونَ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "وَيُضَعُ ثَمُولُ زَيْنِ الْقِسْطِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَنْ كُنْ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ" (٢) وَقَالَ آخَرُ حَدِيثًا نَسِيًا وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) "يَا عَبْدَايْ إِنِّي خَلَقْتُ الظَّلْمَ وَحَرَمْتُهُ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظْلَمُوا" (٣) أَوْ كَمَا قَالَ، وَقَالَ آخَرُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: "أَنَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ لَا أَتَجَاوَزُ عَنْ ظُلْمِ ظَالِمٍ وَلَوْ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فَسَلْبًا تَجَاوَزْتَ عَنْ ظُلْمِ ظَالِمٍ فَلَنَا ظَلَمٌ" (٤) وَقَالَ آخَرُ: قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "الظُّلْمُ لِنِ دَمٍ دُمُرٌ، وَالْعَدْلُ لِنِ دَمٍ عُمُرٌ" وَكَانَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ قَالَ كَلَامًا فِي شَأْنِ ذَلِكَ، فَلَمَّا أُنْمُوا قَالَ لَهُمُ السُّلْطَانُ: أَفَى هَذَا اتَّصَدَدَ جَنَّتُمْ؟ قَالُوا نَعَمْ، قَالَ قَدْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، انصرفوا عني، وَإِنْ خَاطَبْتُمُونِي فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ بَعْدَ هَذَا جَزَّيْتُمْ بِمَا تَسْتَحِقُونَهُ، فَقَامَ الْعُلَمَاءُ مِنْ مَجْلِسِهِ مُغْضِبِينَ وَتَمَادَى هُوَ عَلَى تِلْكَ الْأَفْعَالِ وَبَلَغَ خَبْرَهُ إِلَى السُّلْطَانِ صَاحِبُونَ فَقَالَ: حَسْبُهُ اللَّهُ، أَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ حَتَّى أَنَّهُ أَبَاحَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَهُوَ أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ أُخْتُ مَتْرُوجَةٌ بِأَحَدِ الْوُزَرَاءِ فَغَضِبَتْ مِنْ زَوْجِهَا لِأَمْرِ حَدَثَ بَيْنَهُمَا وَجَاءَتْ شَاكِيَةً لِأَخِيهَا تَرِيدُ أَنْ يَخَاطِبَ زَوْجَهَا فِي شَأْنِهَا وَيَصَالِحَهَا مَعَهُ، فَلَمَّا رَأَاهَا حَسَنَتْ فِي عَيْنِهِ لِأَنَّهُ كَانَتْ مِنَ الْجَمَالِ بِمَحَلٍّ وَكَانَ هُوَ مُسْكِرًا (٥) أَيْضًا فَتَعَلَّقَتْ أَمَلَهُ بِهَا وَصَبَرَ إِلَى الصَّبَاحِ، وَلَمَّا أَصْبَحَ دَعَا بِزَوْجِهَا ثُمَّ أَمَرَهُ

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٧.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٧.

(٣) الحديث (بإسناده) أن حرمت الظلم على نفسي وحظه بكم محرماً فلا تظلموا، أي إلى حرمت على نفسي الظلم وعلى عبدي ولا تظلموا، نظر الأحكام القدسية ٢٦١/١ صحيح مسلم باب الحرمة الظلم ج ١ كد وما بعدها - حديث صحيح

(٤) من الحديث قال صلى الله عليه وسلم: يقول الله تعالى يوم القيامة: "أنا الملك الجبار لا أتجاوز عن ظلم ظالم ولو مثقال ذرة" فإن تجاوزت عن ظلم ظالم فلنا ظلم.

(٥) الأصل: وكان هو مسكرًا.

بطلاقها فطلقها وأراد أن يصطفيها لنفسه فخاف أن يقوم عليه التكبير، فجمع العلماء
وسألهم عن مسوغ يبيع له نكاحها^(١) فقالوا لامسوغ لك، وهذه حرمتها بنص
القرآن، فجعل لمن يلتصق له مسوغاً مالا عظيماً، فقالوا لامسوغ فغضب عليهم
وأخرجهم وكان أحد^(٢) العلماء الذين يميلون إلى الشهوات غائباً عن ذلك المجلس،
فلما بلغه الخبر جاء إلى دار السلطان واستأذن ودخل عليه، فلما استقر به
المجلس: قال بلغني خبر كذا وكذا، يعني قصة السلطان مع العلماء في شأن أخته،
فقال له السلطان قد كان ذلك، وكلهم قالوا: لامسوغ فماذا تقول، قال، إن لك
مسوغاً لذلك، قال له السلطان: (و) ماهو؟ قال: أما تعلم أن أباك كان متزوجاً بأكثر
من أربع، قال نعم، قال وما زاد عن الأربع فهو حرام، وأولادهن أولاد زنا ومساء
الزاني لا حرمة له في مذهب الشافعي، فيسوغ حينئذ أن تتزوجها^(٣) ففرح السلطان
فرحاً عظيماً وأجاز له على ذلك بجائزة سنوية وبلغ العلماء خبره، فأرسلوا للسلطان
يقولون: إن ما أفنأك به فلان باطل لا يحل في مذهبنا فقال لهم السلطان قد تقلدت
مذهب الشافعي فأجابه من أين لنا أن أم هذه (المرأة) من الزنيدات على الأربع
والتحري في مثل هذه أولى، فلم يلتفت إلى قولهم، ولا عيب به بل عقد على أخته
ودخل بها جهراً.

وبعد ذلك بمدة كانت له ابنة متروجة فجاءت من دار زوجها للسلام على
أبيها فدخلت عليه وهو سكران فتعلقت أماله بها وأرسل خلف بعليها فأحضره
وأمره بطلاقها فطلقها، لكنه خاف أن يسأل في شأنها أحداً من العلماء فصار يخلو

(۱۱) بحال لکھتے آجہاں اہل اسلوب الاثرہ من اجل نیر اعلیٰ الطریق مہاویں من الجامعہ الشریعہ.

(٣) في الأصل "وكان بعض العلماء"

في هذه القصبة وهي "روح الأوج من تحت ست الرزورد فيها" المتحلولة من ماء الرجل "رماه لعل له" عند الشهوة فقط لا لما أحس به، لا لاينت لما تورث ولا غيره من أحكام السب ولكن يكره له مكابها حروفاً من الخليل. لكافة الحاج شرح الطحاوي. الخطه

والله اعلم بالصواب، فمن لم يجد في هذا الكتاب ما يشوقه من مسائل فليبحث في كتب الفقه والحدود، والله المستعان.

این کتاب ج ۱ و ۲ در فهرست موجود است.

بها ويرادها عن نفسها فنقول له أنت أبى كيف يسوغ لك أن تسألنى فى مثل هذا، فيقول لها لئى أحبك، وأريد أن خيرى لا يكون لغيرى فتقر منه، ودأما على ذلك واختلف الناس فى هذا الأمر فمنهم من يقول إنه تمكن منها ومنهم من يقول إنها لم ترض أن تمكنه من نفسها، وبلغ خبره السلطان صابون، فقال حسبه الله تعالى، إذا أرك الله بأمر هيا لسبابه، وإذا أراد بقوم سوء فلا مرد له، وهذه الأفعال الصائرة من هذا السلطان هى مصداق قوله تعالى "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفينا ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً" (١) ولما أراد الله هلاك هذا السلطان على يد السلطان صابون قبض له وزراء سوء فتدخلوا عليه وقالوا له: يامولانا إننا أفقرنا البلاد وأفقينا العباد من الظلم والجور، وكان الأتيق ألا نتعرض لرعايا، بل نتعرض لغيرهم من رعايا غيرنا من الملوك، فقال لهم: وهل تعلمون أحداً من الملوك رعاياه أغنى من رعايانا أو قريب منا؟ فقالوا نعم، رعايا الوداي بقربنا، وهم (٢) أصحاب ابل وغنم وبقر ورقيق وفضة، فقال: أغزوها وهاتوا كذا فترسم عليه من الاموال فقام احد الوزراء المسمى بالفسا (٣) وهو عندهم كناية عن الأب شيخ فى دارفور وقال: يأنن لى مولاي ان أتوجه الى رعية وداى ثم بعدى يتوجه من يتوجه، فأذن له السلطان فى ذلك، فركب فى خيله ورجله، واقتحم بلاد وداى، على حين غفلة فقتل وسبى وغنم أموالاً عظيمة، ورجع مسروراً بما تحصل عليه فلما رأى السلطان ما أحضره (٤) الفسا من الأموال أعجبه ذلك وقال: لا يتوجه غيرك، وأمره أن يتوجه (٥) الى الوداي ثانياً وأن يتوغل فيها فمكث نحو خمسة عشر يوماً وكر راجعاً، فغنم أكثر مما غنمه فى المرة الأولى وحصل بينه وبين أصحاب الاموال مقاتلة فقتلوا (٦) منهم أناساً ورجع ملأً اليد، وذهب الناس الى

(١) سورة الاسراء الآية: ١٦.

(٢) فى الأصل: "... وهى أصحابه".

(٣) يذكر المؤلف ان الفسا بوزن موزنج وى سخطه دارفور وهو بمثابة رئيس الوزراء.

(٤) فى الأصل: "ما حمله الفسا".

(٥) فى الأصل: "من يتوجه منى".

(٦) فى الأصل: "وقتلوا منهم".

السلطان صابون فشكوا له ما حصل لهم من الفشا وما أخذ منهم من الأموال، فتعجب من ذلك وقال: كيف يغزوننا ولنا له بأعداء ونحن مسلمون وهم مسلمون، إن هذا لشيء عجاب ثم إنه كتب إلى سلطان الباقري يقول له: بعد السلام، أما بعد فإن الفشا قد اتحم بلادى وأخذ أموالى وعيالى وهتك حرمتى وسبى وغنم، وهذا شيء لم نعهده ولا يحل فى شرع من الشرائع، فإذا أتاك كتابى هذا فأمره برده الأموال إلى لربابها وإياتك أن ترسله ثانياً، وأرسله إليه صحبة هدية، فلما وصله الرسول لم يكن منه إلا أن حبس الرسول ولم يرد له جواباً، وبعد ذلك بليام جاء الناس إلى السلطان صابون يشكون له ما حل بهم من الفشا، وقد نهب أموالهم وسبى عيالتهم وقتل رجالهم، فاغتاظ السلطان صابون لذلك، وترقب الرسول أن يعود إليه فعاد^(١) فأرسل له رسولا آخر بكتاب من عنده يقول فيه: أما بعد فقد كنا أرسلنا إليكم كتاباً قبل هذا صحبه رسولنا فنكرتكم فيه ما حصل من الفشا من الظلم ونهب الأموال ونلتمس منكم رد ما أخذ الفشا لأنه مال مسلمين لا يحل لامريء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يأكل منه شيئاً وبينما نحن^(٢) فى انتظار الرسول ورد الجواب إذ جأمتنا الرعايا بحالة تسمى الصديق وتسرى العدو وشكوا إلينا أن الفشا أغار عليهم ثانية ولم يترك فى مراحهم صارخة ولا صاهلة، وقد عسر علينا هذا الأمر، فإذا أتاك كتابى هذا فرد علينا ما أخذ عاملك وإلا رددناه كرهاً.. والسلام فلما قرأ سلطان باقرمة كتاب السلطان ضحك وقال: كيف يطمع صابون فى استرداد مال أخذته من أصحابه^(٣) هذا لا يكون أبداً ثم إنه أرسل إلى السلطان صابون أحد الرسل بكتاب يقول فيه:- أما بعد... فقد وصلنى كتابك الأول والثانى، وفيهما ما تضمننا، والسلام. فلما قرأ السلطان صابون^(٤) الكتاب هاج غضبه وتزايد لهبه وحلف إنه لا يرجع إلا بعد انتحاره دار باقرمة، وإما له أو عليه، ثم دعا

^(١) فى الأصل ".. فاعاد.."

^(٢) هذه العبارة "وبينما نحن فى انتظار الرسول" تدل على أن المؤلف كان يكتب عن ربه وروى له هذه القصة، وإن أغلب يكون والله

الذى كان وزيراً فى حكومة السلطان صابون.

^(٣) فى الأصل "كيف يطمع صابون أن يأخذ مالا وقرده..."

^(٤) فى الأصل ".. طارأ الكتاب السلطان صابون.."

القاضي^(١) ووالدي واستشارهما في أمر سلطان باقرمة وتحليله لمحارم الله عز وجل، وذكر لهما كيف تزوج بأخته وماشاع عنه بأمر أبنته فقالا (له) إن صح هذا عنه فقد حل قتاله، ثم ذكر لهما قصة نهبه لأموال الرعايا بلا سابقية بينهما فاستكتمهما الخبر و(عندما) أصبح دعا بالكماكلة وقال لهم: إني ضيق الصدر مشغول البال، مبطل البلبال، قد سئمت نفسي المقام في هذه الدار، ولريد أن أتوجه إلى دار جدي السلطان جوده، وكان السلطان جوده قد اتخذ داراً بعيدة عن داره بنحو ثمان ساعات فاركبوا بنا إلى هناك فقالوا: سمعاً وطاعة، فأمر السلطان بخيوله فاسرجت وبتقله فحمل وأمر قائد العرب أن يخصر إيلاً كثيرة فاحضر ماكان عنده، وأرسل في طلب الباقي، وضرب السلطان الطبل وخرج في جيشه ولم يزل^(٢) سائراً حتى وصل إلى^(٣) دار جده فأقام بها ثلاثاً ثم أصبح راحلاً فظن الوزراء والعساكر أنه يريد الرجوع إلى دار ملكه، فما كان منه إلا أن وجه جواده إلى جهة الجنوب، وسار، فلم يكن لهم بد من أن يتبعوه، فتبعوه وهم لا يدرون أين يتوجه، فتقدم إليه أحدهم وقال: أيد الله مولانا، إلى أين القوم؟ قال: إلى دار جدي عروس، وكان جده السلطان عروس قد اتخذ داراً بينه وبين ولده، مسافة يومين، ولم يمكث بها إلا أياماً قليلة، فلم يزل سائراً حتى نزل بها وأقام {فيها} ثلاثة أيام أيضاً، ثم أصبح مرتحلاً إلى جهة الجنوب، فسأله بعض الوزراء، {قائلين}: إلى أين يتوجه مولانا؟ فقال: لريد أن أتجول في مملكتي وأنظر أحوال رعيتي، وإياكم أن

^(١) في الأصل:.. لم دعا القاضي..

^(٢) في الأصل:.. وملازل معراً...

^(٣) في الأصل:.. حتى وصل للدار...

تسألوني بعدها، فأمسكوا، وسافر يومه ذاك^(١) حتى أمسي، ثم^(٢) نزل،
وأصبح راحلاً يجد السير حتى أمسي ثم نزل^(٣)، ومشى بهم على تلك الحال سبعة
أيام، وفي اليوم الثامن أصبح مقيماً، ودعا بأكابر دولته ووزرائه وأجناده وقال لهم:
إعلموا أنني متوجه إلي باقرمة، وأني مقيم هنا سبعة أيام تستعدون فيها، فمن لم
يأت مع عسكره فليرسل، ومن لم يكن معه إيل فليأت ببله، ومن كان ناقص خيل
أو سلاح فليتم، وأني بعد ذلك متوجه إلي باقرمة، فقاتلوا: سمعاً وطاعة ثم خرجوا
من عنده وتفاوضوا في الأمر، وعظموه وقاتلوا كيف يخرج بنا غير مستعدين ويأتي
إلي هنا^(٤) ثم يقول لنا استعدوا، كيف نستعد من هنا في سبعة أيام، مع أنه لو أقام
هنا شهراً كاملاً لما أمكننا^(٥) الاستعداد، مع أن أعدائنا أقوىاء كثيرى^(٦) الجند، خيلاً
ورجلاً، وإذا لم نستعد لهم غاية الاستعداد لا يمكننا التوجه إليهم، وإذا توجهنا إليهم
على هذه الحالة لأفوتنا وقتلوا سلطاننا، وبقي مثلة بين القبائل، وهذه ليست من
أحوال الملوك، فمن منا يرجعه في ذلك ويرده إلي داره حتى نستعد وننتهي
للحرب، فقام الرسول الذي أرسله من قبل إلي دار باقرمة من طرف السلطان
صاهون وقال: لنا لرده إلي داره، ولكن ماذا تكفون لي إن رددته^(٧)؟ فقالوا لك
علينا مائة رأس من عناق الخيل، ومائة عبد، ومائة من الأبل، فرضي وأخذ عنهم
وثيقة بذلك، ولما كان المساء دخل علي السلطان وانتظر حتى خال المجلس، ودنا
من السلطان وقال: أيد الله مولانا، ماهذه الفعلة التي فعلتها؟ قال: وما هي؟ قال:
إنك خرجت بالناس علي غير أهبة، تريد أن تتحم به دواً ملائكة بالفرسان

^(١) في الأصل: وسافر يومه ذاك...

^(٢) في الأصل: ونزل...

^(٣) في الأصل: ونزل...

^(٤) في الأصل: إلي ما هنا...

^(٥) في الأصل: نعم شهراً كاملاً ما أمكننا...

^(٦) في الأصل: كثيرون الجند... وهو معاً لغوي وعرف لغواً شاعراً أكثر من العوام.

^(٧) في الأصل: وإن لم يردده فليأت إلي...

والرجال، أقوام أشداء أقوياء لا يخطر لهم الموت علي بال^(١)، فإني تريد
اتلاف عساكرك، وتمزيق جمعهم، علي أننا لو دخلنا ديارهم بهذه^(٢) الحالة،
وقابلنا^(٣) أحد وزراءهم كالغشا، لما قدرنا^(٤) علي قتاله، فقال له السلطان: أحق ما
تقول؟ فقال: إي والله، فقال السلطان: إنني نسعي^(٥) بحيث نرجع في الغد إن شاء
الله، ولا نلقي بأنفسنا الي التهلكة، فخرج الرسول من عنده فرحاً بمقاله، ظاناً أنه
نبطه، وبشر الناس بذلك، فبات المعسكر في سرور عظيم ولما جاء الصباح
ضرب السلطان مطبول الرحيل بعد أن كان ناوياً علي الإقامة ولما قُتِمَ له جواده
وركب دعا الرجل المذكور فحضر فلما مثل بين يديه قال: إني أريد أن أبتيك هنا
هنا، ولا أريد أن تكون معي في هذه السفرة، لأنك رجل جبان كما أخفنتي البارحة
(تريد أن) تنفذ قلوبهم ثم أمر بالتبضع عليه فتبضع (ثم) نظر الي شجرة هناك
وقال^(٦): قيسوه في أصل هذه الشجرة فقيدوه وجعلوا الشجرة بين ساقيه وأمر أن
يمكث معه من يطعمه ويسقيه حتى يرجع وجعل عليه حرساً وتوجه، وحين رأى^(٧)
الناس منه ذلك أرسل كل منهم الي وكيله أن يجهز له ما أراد وسافر السلطان
يومه ذاك، ونزل عند المساء وبات، ولما أصبح أمر بالرحيل وبعد أن كان متوجهاً
جهة الجنوب توجه الي جهة المغرب، وهي جهة دار باقرمه، وسافر يومه أجمع
وبات عند المساء، وأقام هناك سبعة أيام، ومن يوم خروجه من ولده {كانت}
والعساكر تلاحقه وتكثر جنوده، والعالم يزداد {حوله} حتي صار في جيش يملأ
السهل والوعر، هذا مع عدم الاستعداد، أما لو أخذ {الناس} واستعدوا للسفر لكان
الجيش لا يعرف أوله من آخره، لكن عساكر الوداي وملوكهم كانوا خائفين من

^(١) يريد أن يقول أنهم لا يفلون بالموت لشجاعتهم.

^(٢) في الأصل: مع هذه الحالة.

^(٣) في الأصل: "وقابل أحد وزراءهم كالغشا".

^(٤) في الأصل: "ما قدرنا...".

^(٥) في الأصل: "الآن سعي بحيث إن شاء الله نرجع في الغد...".

^(٦) في الأصل: "... فقال...".

^(٧) في الأصل: "وحيث رأت العسكر".

بأقرمه، لما سمعوا من قوتهم وكثرتهم، فكان كل منهم خائفاً علي نفسه، وقطع لفته مما كان فيه من نعيم، فاجتمعوا ثانياً وتفاوضوا في ذلك، وقالوا: كيف ينقلبنا الرجل وحده، السنا برجال، كيف لا نقدر علي رده، فقام ابن عمه السلطان، وكان يسمى الكامكلاك كدرمي وقال: علي أن أتحيل عليه حتي يرجع بكم إلي ولده، ويمكنك فيها أربعة أشهر، ثم إذا أراد أن يرتحل لا يمكنني أن أعارضه، فقالوا له إن قدرت علي إرجاعه إلي ولده ليملك فيها ولو شهراً فلك علينا^(١) جميع ما فكرناه لفلان، يعنون الرسول الذي حبسه السلطان، وبعد ذلك تدبر الأمر مائوي، فقال لهم علي {القيام} بذلك فظنوا أنهم بلغوا مأولهم، لكون كدرمي المذكور من ذوي قرابته، وكان في غاية الحظوة والقبول عنده، بحيث كانت له كلمة لا ترد، وبينه وبين السلطان محبة عظيمة، فدخل الكامكلاك كدرمي علي السلطان وقال: يا سيدي وسيد أبي أنت تعلم حبي فيك ونصحي لك، وأنت عندي خير من الدنيا وما فيها، وما يسوؤك يسوؤني، فقال له السلطان أعلم ذلك فقال: يا سيدي إني لك ناصح وعليك مشفق، وأريد أن أقول لك كلمة إن قبلتها مني كانت هي عين الفوز والفجاح، فقال له السلطان: قل فانك عندي لست بالدون، فقال: يا مولاي إنا خرجنا علي غير أحبة، وأعدائنا في غاية القوة والكثرة، ونخشي علي أنفسنا وعليك إن نحن توجهنا إليهم علي هذه الحالة، فقال له السلطان: وما نجني حينئذ وقد خرجنا وقربنا من بلاد العدو، فقال يا مولاي: لا أريد من تفضلك إلا الرجوع^(٢) بنا إلي ولده، ونملك فيها شهراً ثم نخرج في عدة وعناد^(٣) {حتي} نقاتل عدوك وأنت في غاية القوة، ونرجو بسعادة مولانا أن ينصرنا الله عليهم، فقال له السلطان قد سمعت قولك وعرفته نصحاً، وسأرجع في غد إن شاء الله تعالى، وبات الأمر علي ذلك، ولما أصبح الصباح ضربت طبول الرحيل، وركب السلطان، وكان

^(١) في الأصل: "مك من".

^(٢) في الأصل: "لا يرجع".

^(٣) في الأصل: "ن عدة وعناد".

الكاملات كدومي أشاع أن السلطان راجع في^(١) الغد، فبات العساكر في غاية من الفرح والمرور، وحين ركب السلطان توجه أصحاب الأعلام تجاه ولده، ورأى السلطان ذلك، فعرف أنه من إشاعة كدومي، فدعا باحضاره، فلما حضر قال لكبار {القول} خنوه^(٢)، فقبضوا عليه وأجلسوه للقتل فلما رآه أرباب الدولة ندموا، وجاءوا بأجمعهم ووقفوا أمام السلطان يقبلون الأرض، متشفعين فيه، فلم يقبل منهم شفاعته، فجاءوا إلى والدي وسألوه في ذلك، فتوجه إلى السلطان، وشفع عنده فسي كدومي فشفعه السلطان لكن قال له: خذه {بعيداً} عنا فلا يتوجه معنا، وليرجع^(٣) إلى ولده، لأنه يحب المكث فيها، ولذلك يحب رجوعي إليها، فأتا ولده إليها، فقال له والدي تم إحسانك وأنعم عليه بالذهاب معك كما كان، وقد تاب إلى الله ورسوله ألا يعود لمثتها ففعل، وسافر من وقته ذاك، ودخل في الخلاء الكائن بين باقرمه ووداي، وهو خلاء عظيم كله^(٤) إجام^(٥) شاتك الأشجار ضخمة، وإجامه مأوي للنبع والفيلة والكركن المسمى عندهم بأبي قرن وفي مصر بالخرتيت، وكان السلطان قد رتب لقطع الأشجار وإزالة الأحجار من الطريق وتمييدها عتيدين مع كل عتيد أربعة آلاف عبد يمشون أمام الجيش بنحو ساعة، {يحملون في} أيديهم الفؤوس والبطل، يقطعون الأشجار ويسهون الطرق، فصار السلطان والجيش وسار العبيد أمامه كما هي العادة، وبينما العبيد يقطعون في الأشجار، وكانوا في غيضة مشتبكة، إذ خرج عليهم كركن عظيم، وهاج فيهم، وقتل منهم أناساً، فانهزموا منه، وأوقع الله الرعب في قلوبهم، فلم يلو أحد منهم على آخر، ثم الذين بعدهم.. هكذا، وتوقف الجيش عن التقدم إلى الأمام، حتى أدي الأمر لوقوف السلطان، وحين^(٦) رأى السلطان أن الجيش متوقف عن السير سأل عن الخبر، فقالوا له قد

^(١) في الأصل: "أن السلطان في غد راجع".

^(٢) في الأصل: "ناحله".

^(٣) في الأصل: "مزمع".

^(٤) في الأصل: "كنها...".

^(٥) إجام: الأمام: جمع أجم، القصر الكبير المنقطع.

^(٦) في الأصل: "وسعد...".

خرج علي الجيش كركدن وهاج فيهم، والناس يريدون قتله، وهذا سبب الوقوف
 وبينما السلطان واقف فر الناس من أمامه^(١).. ولم يبق معه إلا القليل فتأمل
 السلطان وإذا بالكركدن قد أقبل نحوه، فقال السلطان لمن حوله: ألا رجل يخرج
 ويربحنا من هذا الكلب، وكان له عبد يقال له أجمعين، طويل^(٢) القامة حسن
 الخلقة، نيس بالغنيط ولا بالترقيق، وكان معه درقة وحراب، فرمى الحراب وخرج
 بالدرقة والسكين، وهذه السكين من طولها تكاد تكون^(٣) سيفاً، وهكذا سكاكين
 الوداي التي يلبسونها في أيديهم، فأصابت السكين في يده اليمنى، والدرقة في
 اليسرى، وقصد الوحش، فلما قرب منه رآه الوحش وقصده أيضاً، فتثبت له
 أجمعين حتى جاءه وأراد أن يطعنه بقرنه فاستلقى أجمعين على الأرض والسكين
 في يده، فهجم^(٤) الوحش عليه، فضربه أجمعين بالسكين فمقره (ثم نهض مسرعاً
 نحو حرابه) فأخذها ورجع إلى الوحش وطعنه بكبراهن في لبتة فالتبته، وحين رأى
 الجيش ذلك أقبل منهم أناس على أناس على الكركدن يطعنونه بحرايبهم وما علموا
 أن الأمر غير محتاج إليهم، وكان ذلك كله علي^(٥) مرأي من السلطان، فلما علم
 السلطان أن الكركدن قد هلك سار وسار الجيش، وأمر السلطان أن يُجرّ ثلثو
 الكركدن فجرّ، وما زالوا يجرونه حتى خلص السلطان والجيش^(٦) من الوعر،
 فساروا في محل سهل رحب، فوقف السلطان واستوقف الجيش، وأمر باحضار
 القواد الذين كانوا أمام الجيش فحضرُوا كلهم بين يديه، وذلي بالكبريتو والترافقة
 فوقفوا خلف الناس، فقال السلطان للقواد ومن حضر^(٧) {من الناس}: يا أهل وداي،
 أين شجاعتكم ومدافعتكم لعنوكم، قد ذهبت والله في هذا اليوم، ولم يبق منها شيء،

^(١) في الأصل: "فرت الناس من أمامه ومن بين يديه...".

^(٢) في الأصل: "وهذا العبد طويل القامة".

^(٣) في الأصل: "تكاد أن تكون سيفاً".

^(٤) في الأصل: "فهاجم الوحش عليه...".

^(٥) في الأصل: "مرأي...".

^(٦) في الأصل: "خلص السلطان بالجيش...".

^(٧) في الأصل: "ومن حضر...".

وإذا كنتم تفعلون هكذا أمام وحش لا سلاح معه ولا عقل ولا تدبير له، فكيف إذا صرتم أمام عدوكم، وجاءكم^(١) بخيله ورجله وسيفه وترسه، وحاولكم وطلب غرتكم أكنتم مسلمي له؟ فقالوا: لا، قال: لا بد أن تسلموني له وتتجرون بأنفسكم، والنيل على ذلك أنكم نجوتم بأنفسكم أمام الوحش فأمام العدو أولى وأحرى، وحينئذ أنتم منافقون غادرون، والآء من حيث أنكم^(٢) تضمرون الجبن في {أنفسكم} كنتم تنذروني لأكون على بصيرة من أمري، وأنا الآن لا آمن أن أكون معكم، ولا أن أنقي بكم عنوا، ثم قال: أين الكبريتو؟ فقالوا^(٣) ليبيك، فقال لهم: خذوا فلاناً وفلاناً يعني القواد الذين كانوا ساترين أمام الجيش، وكذلك قواد العبيديه، وكان فيهم قائد العرب {الذين} يسمون الجعائنه^(٤)، فأخذهم الكبريتو أخذه راييه، وقتلوه في تلك الساعة، ثم دعا بأجمعين الذي قتل الوحش، وكان من جملة الحجاب، وجعله عقيد الجعائنه، وهو منصب جليل يركب مع قائده أكثر من ألفي فارس، ويصحبه مثلهم من الرجل، وصاحب هذا المنصب يسمى عقيد الجعائنه، والجعائنه عرب من عربان البادية أصحاب بقر، وهم في الرفاهية ووسع الحال كالعرب الرزيقات في دار فور، إلا أن قائدهم في دار فور لا يقدر أن يأخذ كرائم أموالهم إلا برضايتهم^(٥)، بخلاف {تلك} في دار وداي فإنه {أي القائد} يأخذ منهم ما أراد، وقائد الرزيقات في دار فور كالرسول فقطع أعني أنه يعطي جميع مايتحصل معه من المال للسلطان، ولا يأخذ^(٦) لنفسه منه إلا مقداراً يسيراً، بخلاف عقيد الجعائنه ففي دار وداي فإنه يأخذ من المتحصل مقداراً عظيماً كما يأخذ السلطان، لأن مأكله وملبسه وخيله ومعاش رجاله كله منه، ثم قام السلطان بإجراء آخر {بأن ولي عبداً من

^(١) في الأصل: "وحاكم" ..

^(٢) في الأصل: "والأمن حيث أنكم تعلمون الخ من أنفسكم" ..

^(٣) في الأصل: "فقال ليبيك" وأصوابه: فقلوا، لأنهم جمع.

^(٤) الخفاف أو الخفاه: كما نورد في الكتاب بأنهم من القبائل العربية التي كانت تحت حكم وداي ولهم منصب في الدولة بولاية الخفاه.

وهو الخاكم، ويوزي منصب للنفوس في دار فور.

^(٥) في الأصل: "إلا برضايتهم" ..

^(٦) في الأصل: "ولم يأخذ" ..

عبيده أيضاً يقال له الله جابو {ولاه منصب} عقيد الصباح، وهو في عرف أهل مصر حاكم الشرقية، وفي عرف دار فور كالمقدم، إلا أن أهل دار فور ليس عندهم هذا المنصب، لأن الأقاليم الشرقية في دار فور كلها عرب بادية طوائف متعددة، ولكل طائفة حاكم، وإن نزل عليهم حاكم عمومي يسمى المقدم {فنصب الله جابو} عقيداً {عوضاً عن عقيد الصباح العربي سابق الذكر} ثم زاد السلطان {من عطاء العبيدية} وعرضهم عن جميع من^(١) قتلوا، وأمر بدفن القتلى، وحذر باقي الوزراء والأجناد من مثل هذا، خصوصاً من ولاهم في تلك الساعة، وقال لهم: كل من فر من حرب شيء ليس له جزاء عندي إلا هذا، يعني القتل، فاذعنوا له بالسمع والطاعة، ورضوا أن كل من فر منهم يكون جزاءه القتل، وعاهدوه على ذلك، ولم تنفر نفوسهم من هذا الفعل، لأنهم يعتقدون أن طاعة السلطان طاعة لله ورسوله، وأن مخالفه يكفر، وعندهم تعظيم السلطان أمر واجب كالعبادات بل ربما تهاونوا بالعبادة ولم يتهاونوا بأمر السلطان^(٢)، ولذلك لا تقام دعوي ولا خصومة، سواء كان في بيت القاضي أم في بيت غيره من الحكام إلا بعد قراءة الفاتحة للسلطان والدعاء له بالنصر على أعداءه، وحفظه من جميع الأفات، ومن أعجب ما اتفق أن في أيام السلطان محمد جوده جد السلطان محمد صابون خرجت إحدى نساء قواد السلطان لحاجة، فرأت السلطان في موكبه وأبهته، وقد خطه الشيب، فلما رجعت إلى سكنها، واجتمعت ببعضها بالليل، حدثته أنها رأت موكب السلطان، وأنها رأت السلطان وكان من جملة ما قالته له أن الموكب جميل والسلطان جميل لولا أن الشيب لعب بعارضيه، فليت له عمراً جديداً، فلما سمع منها ذلك، قام عليها وضربها ضرباً مؤلماً قائلاً لها: أنتولين أن الشيب لعب بعارضني سيدنا، ليسمعك بعض الأعداء فيحقره ويقول أنه صار لا يقر على الحرب، وبعد أن أوجعها ضرباً شديداً وثاقها وتركها كذلك إلى الصباح،

^(١) في الأصل: "من جميع ما قتلوا...".

^(٢) مهنة القواد، تسلط من على الناس العرب والإسلام، وليس حكرًا على دولة أو شعب دون آخر.

ثم توجه الى السلطان وأعلمه بالقصة، وختم قوله بأن قال: أنى^(١) تركتها مكتوفة
فمرنى فيها بأمر، فشكره السلطان على ذلك، وخلع عليه، وأمر بإطلاقها لكونها
جريمة، وأنه بتوبتها أن لا تعود لمثل ذلك فعل، وهذا الأمر وإن كان على غير
مراد السلطان إلا أنهم^(٢) يجب أن يغاثوا في منحه كل المغالة ويستغسل بعضهم
ببعض ليسلم هو، والا لو تركوا ذلك لانتقموا على السلطان وقتلوه.

فائدة:-

جميع أهل الوداي يعتقدون أن كل من تولى السلطنة عليهم يكون ولياً وإن
لم يكن ولياً قبل ذلك، بل وإن كان قبل ذلك فليقاً، وأصل ذلك ما روى عن غير
واحد أن السلطان محمد عروس كان (قد) منع جميع الناس أن يذكروا اسمه على
المنتهم^(٣) في حضر ولا سفر، وبث لمعرفة ذلك عجايز ولولاد أو شبناً يتجسسون
على الناس و (أن) من سمعوه ذكر السلطان على لسانه أخبروه به^(٤) فيقول له
السلطان: ألم أنهك عن ذكر اسمي؟ فيقول نعم، فيقول له: إنك قد ذكرته البارحة
في الوقت الفلاني مع فلان وفلان، وظننت أني لا أعلم بك فيصفر وجه الرجل
فيقول: نبت إلى الله، فاتفق أن رجلاً من القواد صعد على جبل ودخل مغارة فيه
مخافة أن يسمعه أحد، وقال فيه بصوت خفي: السلطان عروس، السلطان عروس،
السلطان عروس، وظن أنه لم يسمعه أحد، وكان بأمر القدر أن رجلاً من
الجواسيس رآه وهو صاعد الجبل، فتبعه^(٥) من بعيد بحيث لا يراه حتى دخل في
المغارة فصغى إليه^(٦) حتى سمع ذكر السلطان ثلاثاً، وأخفى نفسه حتى نزل
الذاكر فتوجه الجاسوس وأخبر السلطان بخبره فأرسل وراءه، فلما مثل بين يديه

^(١) في الأصل: أن قد تركتها...

^(٢) في الأصل: وإن كان على غير مراد السلطان إلا أن السلطان...

^(٣) في الأصل: .. على لسانه...

^(٤) في الأصل: ... أخبروا به السلطان فيقول له السلطان...

^(٥) في الأصل: .. فالتبعه...

^(٦) في الأصل: ... صغى له...

قال له: ألم أنيكم عن ذكر إسمي قال له نعم، قال له السلطان ولم خالفني وذكرني إسمي، قال لا لم أخالفك ولم أنكر اسم مولانا في شيء، فقال أتحلف أنك ما ذكرت إسمي أبداً، قال أحلف، قال له كيف تحلف يا كاذب، وأنت البارحة توجيبت إليّ الجبل الفلاني ودخلت الغار الذي (فيه^(١)) وذكرتي ثلاثاً فبُهِتَ الرجل، وانتقع لونه، وقال فعلت ذلك ولا أظن أن سيدنا وليّ وصاحب مكاشفة حتى يطالع عليّ أمرى، فقام أهل المجلس ولعنوه، وقالوا: كيف تشك في ولاية مولانا، أعلم أنه لا يتولى علينا سلطان إلا أن يصير ولياً. (ثم قال له السلطان) قد عفوت عنك هذه المرة وإن عدت إليّ مثلها فقتلك فخرج الرجل وهو يقول: سيدنا وليّ، فسمع بهذه القصة الغوغاء من الناس فاعتقوا أن السلطان وليّ أم.

ثم إن السلطان سافر من وقته إلى دار باقرمة حتى دخلها ولما صار في ليلة باقرمة امتنع عن التعرض لأهل الضياع والقرى، بل كلما حاذى ضيعة أو قرية أرسل إلى علمانيا ورؤسائها فحضروا بين يديه فيلين لهم الخطيب، ويحسن إليهم وإذا أتى معبداً أو محلاً ولي معتقد تصدق فيه، وأحسن إلى خنمه وكف أيدي العساكر عن ظلم الرعايا ما أمكن، فبسط الرعايا أيديهم بالدعاء له والنصر على عنده، وسار ولم يلق كيداً إلى أن بقى بينه وبين برنسى باقرمة (أي عاصمة باقرمة) سوى مسافة أربع ساعات فبات هناك وبعد العشاء دعا بقواد العبيدية وقال لهم: إني غير محتاج لكم في الغد، لأن الأرض الآن سهلة لا شجر ولا حجر، فإذا سمعتم طبل التحميل ضرباً تسيروا (وتستعدوا للحرب) وأرجو أن تكفوني شر الأعداء (لوجهكم^(٢)) ثم دعا بقائد الشرقية المسمى عقيد الصباح^(٣) وقال له: كم معك من الخيل؟ قال عشرة آلاف، قال قد أمرت العبيدية أن يتوجهوا وقت ضرب طبل التحميل، فتكن أنت بعساكرك خلفهم، ولا تتخلف عنهم وأرجو عند مجيئي

^(١) في الأصل: .. ودخلت الغار الذي فيه...

^(٢) في الأصل: .. وأرجو أن تكون في الأعداء ولا تخشون من عوكم.

^(٣) في الأصل: .. المسمى بعقيد الصباح.

اليوم^(١) أجد الأمر قد تم ما أحببت، فقال سمعاً وطاعة، ثم دعا بأجمعين عقيد الجعافنة وقال له: كم معك من الخيل قال: معي نحو الثلاثة آلاف، قال إني أمرت عقيد الصباح أن يتوجه خلف العبيدية بجيشه وقت ضرب طبل التحميل، وكن أنت خلفه واعلم أنني إذا أتيت ووجدتكم لم تفرغوا مما أنتم فيه قتلنكم، ثم نادى بالكاملات كنرمي وقال له: كم معك من الخيل؟ فقال: معي نحو أربعة آلاف، قال: أعلم أنك أسأتني في الطريق، وإساءتك لم تبرح مؤثرة معي ولا يحسبها من قلبى إلا فعل جميل، فلما أريد أن تتوجه بأصحابك وقت ضرب طبل التحميل خلف جيش أجمعين وإن لم تفعل ماأنت أهل له^(٢) لا تنفعك شفاعة شافع قط، وإن أتيتكم ووجدت الأمر على غير ماأحب فلا تلوموا إلا أنفسكم، فقال: سمعاً وطاعة، وبات العسكر على تلك الحالة وأمر السلطان بضرب طبل التحميل قبل وقته بنحو ساعة فضرب، ومافى ذلك الوقت كل من أذن له السلطان فى السفر، فلما أصبح الصباح ركب السلطان فى بقية العساكر وصار يمشى رويداً رويداً.

لقد أخبرنى جاب الله عقيد الصباح حين كنت عنده، إنه لما توجه صحبة العساكر خلف العبيدية ووصلوا إلى فائر باقرمة وجدوا الفسا وأكبر أولاد السلطان المسمى بشقمة معسكرين خارج الفائر، وحين سمعوا بوصولنا ركبوا خيولهم، وكان معهما من العساكر ماينوف عن عشرين ألفاً من الخيل عدأ الرجل، فصدمتهم العبيدية صدمة منكورة وحالت عليهم خيلنا ورأوا من جماعتنا ماتم يكن فى حساباتهم فلم تكن الاماعة حتى انكسرت اجنحتهما وخرج شقمة يقاتل ويحرض الجيش على القتال، وكان شجاعاً فاتكاً وسمع بقية العساكر بضجة القتال فلحقوا بأصحابهم واجتمع منهم جيش عظيم ظننا أننا لا نلحق معهم بشيء كل ذلك واندلنا نترايد، فلما لحقنا أجمعين بعساكره صاح صيحة واحدة وقال: والفرحاه سيظهر فى

^(١) فى الأصل .. ورحموا ان الله محكم بعد الامر قد لم.

^(٢) فى الأصل .. ماأنت له.

هذه النهار الشجاع من الجبان وأكب رأسه في قربوص مرجه، وفعل^(١) جماعته
كفعله ودخل في الحرب وطلعن فيهم طعنا أحر من الجمر، فلم يكن الاكلمحة يلق
حتى تضعضع جيشهم، ولما وصل الكامكلاك كتر مى فعل كفعل أجمعين فرأوا أن
المدد زاد عليهم، وكانوا أول مرة ظنوا أن الطليعة الأولى هي جيش الوداي فلما
رأوا الجيش يتزايد انكسرت قلوبهم وعلموا أنهم لا طاقة لهم بالقتال فولوا الأدبار،
وتبعهم عساكر الوداي يقتلون ويأسرون خصوصاً وهم لاسلطان لهم وأخبرني
جواب الله عقيد الصباح أن الباقمة لما بلغهم الخبر أن السلطان صابون غزى بهم
دخلوا على سلطانهم وأخبروه فقال هذا كذب صراح، كيف يغزونا صابون مع قلة
عساكره، وهو بخشنا دليماً فقاتلوا^(٢) قد سمعنا ذلك فقال لم تسمعوا شيئاً، واتمأهو
كذب اختلقتموه، فحلفوا له أيماناً مغلفة فلم يصدقهم وقال: إنما أردتم لزعاجي بهذا
الكلام، ترومون خروجي من مملكتي حتى^(٣) تفعلوا ما تريدون فسكتوا عنه، فلما
قرب السلطان صابون من أياتهم دخل عليه الفشا وقال له: ما (سبب) قعودك^(٤)
وقد جأنا^(٥) سلطان الوداي صابون طاقباً لقتالنا ونهب أموالنا فقال له السلطان
لكلكم كرهتموني حتى أنت أيضاً، وكنت واقفاً بك، والآن لا ألق باحد منكم وجاءت

^(١) في الأصل .. ومنه ..

^(٢) في الأصل .. ضاعوا لأنه سمعوا ..

^(٣) في الأصل .. من أكم ففعلوا ..

^(٤) في الأصل .. ما تعودك ..

^(٥) في الأصل .. والله مننا ..

القمصوا^(١) وهي أكبر نساء السلطان كياكري^(٢) في دارفور واليمنية^(٣) في دار
وداي، ومسكت^(٤) للفشا من أطواقه وقالت (له) يا عبد السوء أهكذا جزاء من ربك
ونصبك في المنصب الجليل أتريد أن تغدر به وتخرجه من وطنه حتى أنكم
تقتلونه^(٥) بالوداي يا أكذب العالمين هل سبق أن سلطان الوداي غزانا من مدة منين
من السنين^(٦) وكيف يغزونا وهو يتقى شرنا وخيلنا تجوس خلال دله في كل سنة
مرة ومرتين وتتهب أمواله وهو يخشى سطوة الملك دائماً فقال للفشا: أما إذا
وصل الأمر لهذا فاني والله لا أقول لكم بعدها كلمة، ولو جاء الوداي إلى البرني،
لكن لكم على حقوق^(٧) ويلزمني أن أؤدي حق العبودية، فها أنا خارج بجيش
ومعسكر بظاهر الفامر ومتى جاء العدو قاتلت (بقدر) طاقتي حتى أكون كافية
صنيعكم حتى إذا بليت بما لا طاقة لي به ذهبت على وجهي والسلام، فقالت
القمصو يا عمو نفسه اتسحرنا بهذه الألفاظ وأنت فيك كفاءة لمقاومة العدو وحشدك،
والاحتياج لأعلام السلطان، لك غزوات الوداي في بلادهم مراراً والرجل الذي
يقدر أن يغزو سلطاناً في مملكته كيف لا يقدر أن يدفعه من بلده، وإنما رأيتم أن
تولوا شقمة عليكم سلطاناً تريدون إخراج السلطان من دله، حتى إذا بقي بينكم

^(١) القمصوا أو القمصو هو لقب زوجة الأول سلطان، وهو مأخوذ من عظم دولة الفرد حيث تمنح القمصو بقوة كبير داخل القصر
حامية لها بعض نساء السلطان ولولادة هي بمثابة الرئيسة في إدارة شؤون الأسرة المالكة ولديها السلطات الكبرى لمولها مشور ملكها
الإدارية وتصدى للمعاملات التي تقرأ داخل القصر والتي يمكن أن تشمل السلطان من الأمور الخاصة في الدولة... بخسراً... وهو القمصو
محمد كبر: الدولة الإسلامية في غرب إفريقيا في القرن العاشر الهجري (١٦) رسالة دكتوراه هو مشورة حكمة الأهر جمهورية مصر
العربية، ص ٢٦٦.

^(٢) الكري: لقب يلقب به دارفور على السبيل الأول في القصر السلطان، سواء كانت هذه السبيل أم السلطان أو لحنه الكري: لو
زوجة السلطان المول وهو يلقب بملكة... ينظر لشجرة الألقاب ص ٩٣.

^(٣) اليمنية: حوت حامية في وادي بن شيخ القيلة لها رأي مآ حيلة في بلاده من يجرها للسلطان للدم له حيلة بنت بترعها وهذه البنت
البحرية يلقب عليها اسم "حياة" وبالتالي مع الغرب منها لو حيلها لو الزواج منها، فلما لمعت للسلطان كان البنت أحدها وهي لم
نعمه بعداها لأحد رجال حاشية، ويبدو أن لها نفوذاً كبيراً في الحرم.

^(٤) في الأصل: .. ومكنته.

^(٥) في الأصل: .. وتقتلون عليه بالوداي.

^(٦) حديث سلطان البحريه هذا يدل على مدى ضعف دولة وادي قبل تولي السلطان حانون ولقب لعل على ذلك من عسر القسرة
بلاد الوداي دون أكثر من لعل ذلك العود، وهذا كان عرو السلطان حانون ثم مقاداة كبرى كما واضح من سياق الحديث.

^(٧) في الأصل: .. لكن لا ولكم على حقوق.

فعلتم به ما أردتم وأوليتم شقمة ورجعتم به سلطاناً، فخرج مغضباً وسمع شقمة بهذا الأمر فدخل على أبيه وقال له: يا أبت إن العدو قد جاء فاخرج بنا إلى قتاله، فقال يا بني ما قدر أحد على إخراجي من دارى أتريد أن تخرجني منها بهذه الحيلة مع أنى أبوك وما انتقصت حقاً وقد صرفتك فى كثير من الأمور وأنا حتى فكيف ترضى لنفسك بهذه الفعلة الشنيعة، فتبرم شقمة وحلف له إن الأمر صحيح وأن التوداى قد أقبلوا فى جيش عظيم لأقبل لأحد به فلم يصدق، وقامت القمصر ومسكته من لحيته وقالت له: عار عليك تخدع أباك وتريد قتله وما هذا جزاؤه منك يا عاق، لغضب منها وخرج مغضباً وقال: أنا لله، ذهبت ملكة الباقمة، ولما رأى الناس أن الكلام لا ينفع مع السلطان أحمد منهم من فر ومنهم من بقى وعسكر الفشا وشقمة بظاهر الفاشر حتى جاء الجيش وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وماتهم من دونه من وال^(١) ولهذا لما أراد الله إهلاك سلطاتهم طمس على بصيرته وجعل الران^(٢) على قلبه على حد قولهم، إذا أراد الله بأئس سوء سلب أهل العقول عقولهم حتى ينفذ قضاءه فيهم، فقاتل الفشا وشقمة ومن حضر من العساكر وأبلوا بلاءً حسناً ومات من جماعتهم خلق كثير، وسمع أولاد السلطان فأتوا واصطلوا الحرب وقاتل كل منهم على حسب قدرته^(٣) وكان عسكر الباقمة يظنون^(٤) أن عساكر التوداى قليلة، وأنهم قسما لأول مرة^(٥) فأروا بعد ذلك أن الجيش كثير والمدد يتزايد ورأوا قوماً الموت أخب إليهم من الحياة ففروا وولوا الأدبار، فلما انكشفوا تبعهم التوداى وأخذوهم قتلاً وسبياً، فغنم التوداى غنيمة عظيمة ولم ينج من نجا من عساكر (الباقمة) إلا برأس طمرة، ودخل التوداى إلى مدينة باقمة حتى وصلوا إلى برنى السلطان وكان الأمر قد تحقق عند السلطان أحمد أن التوداى قد جاءوا ولراد أن

^(١) سورة الرعد الآية ١١

^(٢) وجعل الران على قلبه... أى جعل الغيب والغمزة على قلبه الناساً من قوله تعالى و جعل الفكر مكنى كل ران على قلوبهم ما كانوا يكسرون

^(٣) في الأصل... كل منهم على قدره...^(٤)

^(٥) في الأصل... بقوا...^(٦)

^(٦) في الأصل... ولهم هم الذين قتلوا أول مرة فرلوا.

يخرج إلى القتال فمنعته القمصو والنساء، وقلن له: كيف تخرج لأقوام عبيدك أشد منهم بأساً، وإنما يخرج الملك لمن يكون نظيره أو أعلى منه فسمع كلامهن، ومكث في البرنى وبينما هو كذلك إذ سمع جلبة العساكر وبلغات عساكره وقد انهزمت فصرخ في عبيده فأتوا فأمرهم بغلق الأبواب وأن يقعدوا فوق سور البرنى فاجتمع له نحو أربعة آلاف وقعدوا على السور بعد أن اغلقوا الأبواب ولما كسر العساكر النفا وثقمة وغيرهما أقبلوا نحو البرنى يهرعون، فلما دنوا منه لم يرعهم الاوقع الحمائم كالمنظر، فمات منهم خلق واجفلوا ثم رجعوا، فوقعت عليهم الحمائم كما امر فوقفوا على ذلك مدة فمات منهم خلق كثير، وبينما هم على تلك الحالة إذ أقبل السلطان بالجيش العظيم، فالتفت الدنيا من الجلبة وصهيل الخيل وصوت البندق والطبول حتى لا يسمع السامع من يناديه وكان السماء انقلبت على الأرض، ومن وقع حوافز الخيل وارتفاع الأصوات، ولأزال (السلطان) سائراً حتى وقف على باب البرنى (ثم) قال: أهكذا أوصيتكم ألم أقل لكم إن أنيت فوجدتكم^(١) ما أتممت أمراً فلا تلوموا إلا أنفسكم فارتجفت قلوبهم وصرخ كل عقيد في جماعته، فأقبلوا من كل حذب ينسلون كأنهم إلى نصب يوفضون، ووقع عليهم النبل كالمنظر ولم يبالوا به حتى وقفوا تحت الجدار وصار يركب بعضهم بعضاً حتى وصلوا^(٢) إلى شرفات السور^(٣) (ونظراً) لكثرتهم لم يبالوا بمن فيه^(٤) من العبيد (ولابكثرة عتادهم) فلم يكن غير ساعة حتى امتلأ البرنى بعساكر الوداي^(٥) ودلر القتال بينهم وبين عساكر البرنى لساعة ثم (انكشفت عساكر الباقرمة) وقُتل منهم من قتل (ثم) فُتح الباب واقتحم (عسكر الوداي) الدار وكانت ساعة يشيب لهولها الطفل الصغير وصاحت النساء والمسيبان، وحينئذ ضربت الطبول وزعقت الأبواق^(٦) كل ذلك

^(١) في الأصل: ما إن أنيت فوجدتكم.

^(٢) في الأصل: .. من لهم وصلوا.

^(٣) في الأصل: .. السور، بالهاء.

^(٤) في الأصل: .. لم يبالوا بمن فيه.

^(٥) في الأصل: .. من تتلاقون من عساكر السلطنة.

^(٦) في الأصل: .. وزعقت البوق.

والسلطان صابون واقفا^(١) على باب الدار وكان قد أمر العساكر ان كل من ظفر
بالسلطان احمد يأتى به حياً ولا يقتله وكان السلطان صابون ينتظر أن يأتوا به فلم
يأت به أحد، بل رأى العساكر راجعين باقفيء فسألهم أين السلطان فقالوا ما رأينا
ولا نعلم أين هو، فارتاب السلطان لذلك وظن أنه فر فأصابه القلق^(٢) لذلك لأنه لو
فر وخرج خارج البرنى متجتمع (حوله) من جماعته عساكر عظيمة وتتجدد
الحرب وتشب نار الفتنة ولا يرتاح^(٣) السلطان صابون فاختار عددا من القواد^(٤)
والفرسان وأمرهم أن يذهبوا كل مذهب ويلتمسونه في كل جهة، ومتى سمعوا به
في جهة ما أن يطاردوه وأليرجعوا إلابعد التقبض عليه، فكان كذلك ثم خرج
السلطان صابون من المدينة وعسكر بظاهرها وهو كاشف البالي، سيء الحال،
لا يقر له قرار، فنخل^(٥) عليه العلماء وأشرف الناس يهنئونه بما يمر الله له من
الظفر والفتح والنصر، فوجدوه على تلك الحالة فأنكروا حاله وتجاور عليه بعضهم
وقال له يامولاتا هذا يوم السرور هذا يوم التهنئة فما لنا نرى مولانا عليه أثر القلق
كأنه فاتته شيء يعز عليه، فقال: ولم لا يكون ذلك وقد فاتني مطلوبى، فقيل له ما
الذى فاتك، فقال: ملك هذه البلدة لا أعلم أين ذهب أقتل في من قتل أم فر في من
فر^(٦) فإن كانت الأولى فقد راح واستراح، وإن تكن الثانية فقد تعب وأتعب فقال
والدى: إن الاستقصاء في هذا الأمر لا يمر على مولانا فليرسل مولانا الآن
جماعة من أبنائه يأتون بأهل الرجل المشكوك في موته فيجلسن فى خيمة ثم
يأمروا بحمل جميع الأموات الثنين فى البرنى ويعرضوا^(٧) عليهن واحداً بعد واحد
فمتى رأينه عرفنه، فإن لم يعرفنه فى الأموات يحق لمولاتا حينئذ أن يرتكب،

^(١) فى الأصل: "والسلطان صابون واقفا".

^(٢) فى الأصل: "وكان قلقاً لذلك...".

^(٣) فى الأصل: "ولا يراعى السلطان صابون راحته".

^(٤) فى الأصل: "فأركب عدداً من القواد...".

^(٥) فى الأصل: "فدخلت عنه العشاء...".

^(٦) فى الأصل: "فدخلت من قبل لو لم يكن فر...".

^(٧) فى الأصل: "ويعرضهم عليهن...".

فارتاح السلطان لذلك، ودعا بالتقائد أجمعين وأمره بذلك فذهب التقائد أجمعين ففى الحال وأتى بنساء السلطان أحمد، وكان العساكر قد فعلوا بهن ما فعلوا^(١) من هتك الستر وانتهاك الحرمات^(٢) وتجريدهن من الملابس الثمينة، وذلك كان بغير إذن السلطان، وما (حدث) ذلك إلا من شغل بال السلطان صابون بأمر السلطان أحمد وعدم وجوده^(٣)، وحين رأت العساكر أن السلطان صابون غير ملتفت لضبط الأموال وحفظ حريم المملكة، فعلوا ما فعلوا، وجاء بهن أجمعين على غير صورتهم^(٤) المعروفة وتركهن على بعد، وجاء إلى السلطان وأعلمه بما حصل لهن وأتتهن عاريات، فأمر لهن السلطان بما يسترهن من الثياب الفاخرة، وكان كذلك فلبسن وجبىء بهن، ووضعن فى قبة ضربت لهن قريباً من سرائق السلطان، وجبىء بالأموات وعرضوا^(٥) عليهن واحداً بعد واحد يتأملن فيهم ولم يفعلن شيئاً حتى عرضوا عليهن رجلاً مسناً رقيقاً نحيفاً، فلما رأيته صحن كلهن بصوت عال وترايمن عليه يقبلن أقدامه ويديه، فعرف أنه هو السلطان فستلن فقلن هو هو، فجبىء به إلى السلطان فرأه وأمر بدفنه، وحينئذ حصل للسلطان مرور وراحة، وذهب ما كان بوجوده^(٦) من القلق، ثم دعا بالتصو فحضرت بين يديه، وسألها عن ابنة السلطان أحمد وأخته فعرفته إياهما فأمرهما من الجمال بمكان، ثم سألها عن أموال السلطان أحمد أين هي؟ فأخبرته أنها كانت فى البرنى وقد نهباها العساكر، وفى ذلك الوقت جاء الخبر إلى السلطان صابون أن العساكر رأوا فى دار السلطان أحمد بيتاً مربعاً عليه باب من حديد فكسروا الباب بعد جهد فوجوده ملأ بالريالات الفرنسية وأن العساكر الآن يتأهبونه ويقتلون عليه فأرسل السلطان قائداً بمسكره لمنع النهب من بيت السلطان أحمد، وأن تضبط تلك الأموال للدولة

^(١) فى الأصل: .. لما صلت من مصلته..

^(٢) فى الأصل: .. وانتهاك حرمة..

^(٣) فى الأصل: .. وعدم وجوده..

^(٤) فى الأصل: .. على غير صورة..

^(٥) فى الأصل: .. لم يرضوهم عليهن..

^(٦) فى الأصل: .. ولما كان بمكانه..

وكان الأمر كذلك، وفي الحال جاء أهل المدينة من العلماء والأشراف ووجوه الناس وهم حاثون التراب على رؤوسهم شاكين مما حصل لهم من نهب الأموال وحثك الحرائر فغضب السلطان لانتهاك حرمة الله تعالى، وأمر مناديه أن ينادى في المدينة أن كل من وجد داخلًا في الدار ينهب منها أو يفعل فيها قبيحاً فلا يلوم من إلا نفسه، وأمر بالعساكر التراقنة، أن يأخذوا عساكرهم ويدخلوا^(١) المدينة، وكل من رلوه من العساكر يفعل فعلاً غير مرضي يقبضوا^(٢) عليه ويلتوا^(٣) به إلى السلطان، فكان كذلك، فكنت^(٤) الأيدي عن النهب، أخبرني والذي عليه سبحانه الرحمة والرضوان أن السلطان صابون أخذ بيده صبيحة يوم الفتح ودخل معه دار السلطان الباقرمة حتى وقف على البيت الذي قيل له ملأ بالريالات^(٥) وكان مع السلطان بعض خواصه، قال: فرأينا بيتاً مربعاً مساحته نحو عشرين قصماً في مثلها، ملأ من جلود البقر المملوءة بالريات من جداره إلى سقفه وكان عليه باب مصفح بالحديد ورأيناه ناقصاً نحو عشرة جلود، فأمر السلطان ببقر جلد منها فبقر، فإذا هي من الريالات المسماة بأبي مدفع، فأحصيت فلذا هي أربعة آلاف، فعلم السلطان أن الذي ضاع نحو أربعين ألفاً وأمر بنقل ما بقى إلى خزينته وعثر على أماكن كانت مملوءة بالثياب ونهبت وأماكن أخرى أعمى الله عنها أعينهم فبقيت وتأم السلطان على فقد ذلك، وحكى لي الشريف سميح وكان حاضراً تلك الواقعة وهو رجل من الأشراف وذوى المعارف وهو من أهل البلدة المسماة بنمرو، وهي بلد بقرب ولره فيها يمكن التجار المستوطنون بدار ودای، فقال: إن عساكر اللودای حين عثروا على تلك الأموال كان الرجل منهم يملأ حجره من الريالات

(١) في الأصل: .. ويدخلون..

(٢) في الأصل: .. يلقطون منه...

(٣) في الأصل: .. ويلتوا...

(٤) في الأصل: .. فكنت الأيدي..

(٥) في الأصل: .. من الريالات..

ويأتى الى بعض التجار فيقول له (هل) عندك تابا^(١) فيقول له نعم، فيصيب مائة
حجره من الريالات ويقول خذ هذه واعطنى تابا، فيأخذها التاجر ويعطيه نحو
رطل من التابا وقطعة من النظرون^(٢) نحو أوقية فيفرح بها العسكرى ويظن أنه
غلب التاجر مع أن الريالات التى كانت فى حجره أكثر من أربعمائة ريال، وفى
ذلك النهار كل التجار كانوا مشغولين بجمع المال والارار و لا يدرى أحد منهم عن
الأخر، وعساكر الوداي كانوا يفعلون ذلك لجهلهم بالريالات وعدم معرفة قيمتها،
بل أخبرنى أنهم حين رأوها قالوا: وما هذه ولأى شىء تنفع، فقال أحدهم اصبروا
حتى أخذ منها شيئاً وأذهب به الى التجار فإن قبلوه أخذنا منها والآن كنا فقراء
نعم ما أشرت، فملا حجره منها وذهب الى أول تاجر ورمى بها إليه وقال له:
إعطنى تابا، فلما أعطاه التاجر ذهب اليهم وقال إن التجار يقبلونها فطفتوا يأخذون
منها وليس هذا بعجيب فى أهل السودان لعدم معرفتهم بالمعاملة، وقد وجد فى
العساكر المصرية ما هو من هذا القليل فقد شأنت فى فى غزوة الثورة^(٣) لما
فتحت مسلوجة^(٤) مثل ذلك وهو أن أحد العساكر المصرية تتبع للقتلى من الاروام
ليرى الملب الجيد فيأخذه فجاء الى قتيل فوجده متحزماً بمشع فحله من وسطه
ورآه ملأ بالريالات ففرح وترك الملب ولم يأخذ الا الحزام المشع، وذهب الى
محل بعيد عن الناس وعد الريالات فوجدها مائتين وخمسين ريالاً، ففرح غاية
الفرح، وكان الريال آن ذاك باثنى عشر قرشاً، فقال فى نفسه هذه والله نعمة

^(١) التابا: نوع من النباتات الشجرة يستعمله أهل السودان بكثرة ودرج فى ولايات غرب البلاد حرمية ولاية شمال دارفور ويطلق عليه
الجبك والمصوط... الخ وقد لقى بعض العلماء بحرقه لانه ضار بالصحة.

^(٢) النظرون أو النظرون وهو من المعدن لونه فى العريضة ومنحرج من الصخر الاربعة ويستعمل فى صنع الاسلحة وعلى الحيوانات
خاصة الجمال ويستخدم ايضا فى صنع السمك.

^(٣) الثورة: هى منطقة فى جنوب بلاد السودان وقد حارب محمد على باشا ملك مصر الحرب فيها ضد الدولة العثمانية عندما كانت
تسيطر عليه فكريا تكون دولة مستقلة عن الدولة العثمانية بدعم من بريطانيا ولهذا حارب حرب الثورة وحارب السعوديين بقيادة الشيخ
محمد بن عبد الوهاب وأسرة آل سعود، كما فتح السعوديون عام ١٨٢٠م وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب مؤلف هذا الكتاب ضمن
المجلد الذى ذهب الى الثورة وقد عين فى وظيفة واعطى فى الايام التى من منتهى الجيش لثورة مصر: هذا هو الرأى: مصر محمد
على ص ٢٥. نسخة الاصلية: ص ٢٥

^(٤) مسلوجة: مدينة يونانية تقع فى إقليم ثورة جنوب بلاد السودان وقد شارك مؤلفا فى حروبها لئن حاربها محمد على باشا ملك مصر
ضد بلاد اليونان.

عظيمة هذه ثلاثة آلاف قرش رزقني بها الله أنعيش عليها وأرسل الي أهلي منها،
وكان الوقت ليلاً فلما أصبح تأمل في أحد الريالات فوجده أصفر فظن أنه نحاساً
فرماه، فتأمل في آخر فإذا هو أصفر أيضاً فتأمل فيها كلها فإذا هي كلها صفراء^(١)
، وهي "قنة" رياتين، ولعمم معرفته بها ظن أنها نحاس، فصار يبكي وينتحب
ويقول: واسوء بختاء، فمر به رجل من أصحابنا لا ينبغي الإفصاح عن اسمه وقال
له: يا هذا مالك تبكي، فحكى له القصة وقال لسوء بختي رأيت الريالات كلها نحاساً
فقال له أرني إياها فلراه إياها^(٢) فعرفها إنها (قنة) رياتين، فقال له مسكين لا حول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأين تذهب بهذه ومن يأخذها منك، فقال له الرجل:
بالله عليك إن كنت تعرف طريقاً لبيعها فخذ منها مائتة وبعه لي فقال له صاحبنا
أتبيعي الريال فيها بعشرين فضة فقال له قد فعلت، فكان مع صاحبنا خمسة
وعشرون قرشاً فأعطاهما (إياه) وأخذ منه خمسين دبلوناً، ولو كان معه غيرها
لأخذها كلها، ثم قال للرجل اصبر حتى أذهب الي المعسكر وأتيك بمائة قرش
وأخذ بقيتها فقال له وهو كذلك فصار يهرول حتى بلغ المعسكر وأخذ مائة قرش
ورجع على عقبه يهرول فرأى الرجل اجتمعت عليه الناس وعرفوه أنها رياتين،
وكل دبلون منها بمئة عشر ريالاً فرأى خمسة فصار يتلف غيظاً على صاحبنا الذي
أخذ منه الخمسين، ولقد بلغني أنه لما ذهب صاحبنا يأتية بالمائة قرش رجع الرجل
الي مكانه ونواحه على نفسه، فمر به رجل آخر وسأله عن سبب بكائه فأخبره
بالقصة فقال له الرجل أرني هذه الريالات فلراه إياها فعرفها الرجل أنها رياتين
فقال له تعطيني منها خمسة وأنا أدلك على صفتها فقال له أعطيك، فأخذ منه
خمساً ثم قال له استقيظ وافهم واعلم أن كل ريال من هذه بمئة عشر ريالاً من
الفراسة فتلف الرجل حينئذ على الخمسين التي أخذها صاحبنا وحين سمعه
صاحبنا يتلف ويتحسر عليه اختفى ورجع من حيث أتى، وعلم أنه إن ظهر أخذت
منه الخمسون دبلوناً.

^(١) في الأصل: "كلها صفراء".

^(٢) في الأصل: "فلراه إياها".

ونرجع إلى سيطرة الخبر فصاروا يأخذون من الريالات ومن الثياب ويذهبون إلى التجار والتجار يأخذون ذلك منهم بأبخص قيمة، ولما منع السلطان صابون الذهب من بيت السلطان (أحمد) ومن بيوت أهل المدينة صار العساكر يتسلقون ضيق^(١) الأمراء والقواد وأجناد الباقمة، والسلطان صابون لا يشعر بذلك وأهل المدينة لا يتكلمون، ظنا منهم أنه بأمر السلطان فأخذوا من الأموال ما لا يحصر ووقع بينهم الفشل والمخاضات في شأن الأموال ووصلت الدعاوى للسلطان وأعظم بذلك فضبط^(٢)، جميع ما بقى من أموال القواد ومنع الذهب عنها (كما) أخبر (السلطان) أن التجار قد أخذوا من الأموال ما لا يحصر بأبخص ثمن، فكتم ذلك ولم يتقوه بشيء، ولما ضبط الأموال واستقامت الأحوال أرسل إلى كافة التجار فأحضرهم بين يديه وقال لهم: إنه قد بلغنى أن جميع أموال دولة باقرمة من سلطان وقواد قد حزنتموها واختتموها^(٣) بأمور تافهة، وأنا لا أحسنكم فى ذلك لأنكم تجار، خرجتم من المعسكر للمكسب، ولكنكم^(٤) تعلمون أن ليس لأحد أن يأخذ كل المال^(٥) أما ما اشتريتموه من رقيق وبقر وغنم وثياب وحلى كمرجلين وأما ما لكم لا يئازعكم فيه أحد، وأما ما كان من فضة كالريالات وآلات الحرب كالسيوف والرماح والبنق والدروع واللبوس أو زينة الدولة كالسروج وعدد الخيل فهى لى ولا اخذها الا بثمنها الذى اختتموها به، ثم انه وكل بكل تاجر أمناء وأمرهم أن يذهبوا أصحاب التجار وأن يستقصوا جميع ما عندهم من قبييل ما نكر ويأتون به إليه^(٦) وحذرهم من الخيانة والميل مع التجار، فذهبوا معهم وبعد ساعات جاءوا ومعهم أموال كثيرة^(٧) تكل عن الوصف، ولقد بلغنى انهم فتشوا

^(١) في الأصل "بما الأمراء..." والمعنى ضيق، وانضم صاع أو صبيح وهو النازل الحامدة...

^(٢) في الأصل "... وثنا علم ضبط جميع ما بقى..."

^(٣) في الأصل "... قد حزنتموها واختتموها..."

^(٤) في الأصل "... واما انكم تعلمون..."

^(٥) في الأصل "... واما انكم تعلمون ان المال كله ليس على حد..."

^(٦) في الأصل "... ويأتون به إليه بن يديه..."

^(٧) في الأصل "... ومعهم أموال غنية..."

جميع أمتعة التجار وبيوتهم وخيامهم وأنهم استأصلوا جميع ما وجدوه مما نكر، ولم يتمكن التجار من أن يخفوا شيئاً منها فلما جىء بها ضبعت للسلطان ووضعت في صينية^(١) وكانت كثيرة جداً وأوصى السلطان التجار وطيب خلطهم (ولهذا فقد رخص الرقيق في ذلك الوقت حتى أن الجارية الحسنة بيعت بثلاثة ريالات، وما وجد لها مشتر والعبد المدلس بريال واحد، وامتلك أيدي العساكر والتجار بالرقيق من السبي (ثم) أنبأ السلطان للتجار بالسفر بالرقيق وكذلك الأمراء والأجناد وندب قواداً من العساكر لذلك، وإن لا يمتنع أحد من جهة يريد التوجه إليها، فمن أراك التوجه إلى دار وداى يتوجه، ومن أراك التوجه إلى دار برنو^(٢) يتوجه، ومن أراك التوجه إلى مندره يتوجه ومن أراك أن يتوجه للكتكو^(٣) يتوجه، فأصبح^(٤) الناس مسافرين كل منهم إلى الجهة التي أرادها، وفي كل جهة عساكر من طرف السلطان صابون يؤمنون السبل خوفاً من عساكر الباقرمة الشاردين وقد أصاب العسكر مرض من كثرة العالم وازدحام الناس^(٥) فانتقل السلطان إلى مكان آخر حسن الهواء وصار بيت السرايا في كل جهة من البلاد لأجل الاتيان بعساكر الباقرمة أينما وجدوا^(٦) (كما) أرسل قواداً لضبط أموال القواد بالضيق الخارجة عن المدينة، وأمر مناديه أن ينادى في المدينة كل من كانت عنده أموال للقواد أو للسلطان أحمد من أهل البلد ولم يات بها للسلطان صابون ثم ظهرت عليه بعد ذلك لايلومن الانفسه، فاجتمع من ذلك مال كثير فبسط السلطان يده بالعطاء وأنعم على

^(١) ربما يكون القمود بأصيلة بالما وضعت في شكل داري.

^(٢) دار برنو: في عصر الخراف جعلت دولة البرنو التي كانت تحكم كل إقليم بحيرة تشاد والبحر والصحراء من غربي ومحمد لاريجها فزاع إلى القرن الحادي عشر الميلادي واستطاعت أن تشر الإسلام في كل روج السود الأوسط وأنتد حكمها من القرن العشرين عندما أسقطها الاستعمار الأوروبي. انظر: إبراهيم طر حكا، امبراطورية البرنو الإسلامية - أحمد علي موموفا، التاريخ الإسلامي ج ١ ص ٣٢٨.

^(٣) الكتكو: إقليم يقع إلى جنوب إقليم بزم وبمرور في شرقي ويضم إقليم ككتكو من إقليم بلاد السود الأوسط ولما حل حاكمه لقب سلطان وينتد حكمة حكيم ثلاثين يحمل كل منهم لقب ملك. انظر تشييد الامماد ص ١٣٥

^(٤) في الأصل: .. فأصبحت الناس وهم مسكرون

^(٥) في الأصل: .. وحصل في العسكر لذلك مرض من كثرة العالم.

^(٦) في الأصل: .. مهما وجدوها.

العلماء والأشراف وذوى الفاقات، وسمع السلطان أن الفشا قطع الطريق على الناس فأرسل خلفه جيشاً وكان قد مكث في الخلاء الكائن بين منكرة وباقرمة على شاطئ البحر^(١) فذهب الجيش وكان الجواسيس قد ذهبوا^(٢) إلى الفشا وأخبروه فأرتحل من ليلة وانتجأ إلى برنى لقون^(٣)، وكان به سلطان من الكنكو يسمى السلطان صالح وكان ملكاً جليلاً فأجاره (وسار جيش السلطان صابون) حتى مكان جيش الفشا فلم يجدوه، وأخبر أنه توجه إلى برنى لقون فرجع، وكان أبى إذ ذاك استأذن السلطان في التوجه إلى برنو فأن له وأعطاه أموالاً جمة من فضة ورقيق ومرجان وأصحابه جيشاً يحرسه حتى يصل إلى محل الأمن، فسار والجيش معه حتى خرج من إيالة باقرمة ثم رجع الجيش وسار والذي برقيقه وأهله فما راعه إلا ونواصي الخيل مقبلة عليه وانتهبوا جميع ماله من الأموال ولم يبقوا له إلا أهله برأسها، ولم يمدوا إليه يد الموء، والسبب في ذلك أنهم سمعوا أنه صهر السلطان صابون، فقالوا إن قتلناه لن يترك السلطان ثأره، وأما الأموال فإن السلطان لا يتأثر بها^(٤) إذا بلغه الخبر وكان معه عبدان رباهما فأراد الأعداء أخذهما فقتل لهم هذان حران وليسا برقيق فتركوهما، وكانت هذه الخيول من جماعة الفشا فأرسل أحدهم بكتاب إلى السلطان صابون يعلمه أن جماعة الفشا قد أغاروا على^(٥) وأخذوا جميع أموالى وتركونى لا أملك شيئاً فأرسل السلطان من وقته جيشاً كثيفاً وقال لقائد الجيش لا بد وأن تعينوا جميع ما أخذه من الشريف عمر، وإلا فإني أغزو برنى لقون، فذهب الجيش إلى برنى لقون وأرسلوا للسلطان صالح وأعلموه بما قال السلطان صابون، فقال السلطان صالح للفشا: إن أردت أن تكون في حمايتى فسر جميع الأموال التي أخذتها من هذا الشريف وإلا فأرحل عني بسلام، فإني أخاف

^(١) القمودة بالبحر ما شاطئه إحدى الأطراف التي نصب في بحيرة قلعة.

^(٢) في الأصل: .. وكانت الجواسيس قد ذهبوا إلى الفشا.

^(٣) برنى لقون: أى مدينة لقون وهي مدينة منهم كنكو ومنهم جماعة السلطان وتقع جنوب برمن.

^(٤) في الأصل: .. لا يتأثر بها.

^(٥) كرواية ما على لسان والده لوكاه.

لأن يأتي السلطان صابون الي هنا ويخفر^(١) نمتي، ولا طاقة لي به، فرد {الفشا} جميع ما أخذه عسكره، وأرسل لوالدي في مدينة برنو.

ثم أن السلطان أراد الرجوع الي وداي، ومل الإقامة في دار باقرمه فأخذ أحد أولاد السلطان أحمد تسميت اسمه^٢ وولاه سلطاناً مكان أبيه، وشرط عليه أن يدفع في كل سنة ألف رأس من الرقيق، وألف جواد وألف جمل وألف ثوب من النوع المسمى بالتقذاتي^(٣) أو التيكو، وعاهده علي ذلك، وأصبح راحلاً بعد أن جمع له من عساكر الباقرمه جيش عظيم، ونصب له المناصب وجعل له منها أبواب دولة وأمناً وعساكر، ولما رحل السلطان صابون الي دار وداي رجع شقمة، وكان فاراً في جهة كاتم، وحين بلغه الخبر بقول السلطان الي داره كر راجعاً علي البلاد، ودخل البرني وجاءه الفشا واجتمع معه^(٤)، وقبض علي أخيه الصغير وسجنه حتي مات صبراً، وبلغ السلطان صابون ذلك، فغافله وأرسل من وقته العقيد أجمعين بجيشه، وضم اليه جيشاً آخر وأمره ألا يرجع إلا بعد القبض علي الفشا وعلي شقمة، وكان قد أخذ بقية أولاد السلطان أحمد معه الي دار وداي، فأرسل أكبرهم مع العقيد أجمعين وأوصاه أنه هو السلطان، فتوجه العقيد أجمعين من مساعته تلك وجدة في السير حتي وصل الي دار باقرمه، وحين بلغ شقمة والفشا أن العقيد أجمعين جاء بجيش كثيف، فرا وتركوا البرني خالياً، فدخل أجمعين الي البرني وأرسل الجيش خلفهما فلحقهما الجيش فقاتلاه قتالاً شديداً ثم انهزما، واقترب شقمة من الفشا ومن العساكر.. ورجع الجيش الي العقيد أجمعين غنائماً بالسلب والخيل والأسري، فأقام أجمعين وابن السلطان {أحمد} سلطاناً مكان أبيه بحكم أمر السلطان صابون، وأقام معه نحواً من سبعة أشهر في كل وقت منها يرسل

^(١) ورد في من مده المخطوط لعلق علي كلمة "وتخفر" جاء فيه قوله يخفر بحسب الياه من الحفره بالألف فما لزال حفرته وعمره ...

وأما يخفر فتح الياه فهو حفره الثلاثي بمعنى حنطة وأعماره وسعة كما لوحده من القاموس لعل.

^(٢) الفشا: أو التيكو: لعل للطلب من الغرب، ولاد برنو لكه غير محقق من بعض النسخة من ليرافا، ولولها أسود، لكن الفشا يري

في سواده بعض حمره، فهو كقول رطب الحما، وقد لاحظت الفرنسي أن لاسه إذا لمع حرج محامه مسوداً من لون الفشا الذي

يلسه، يطر للحمض الأنفاز من: ٢١٢.

^(٣) في الأصل: "واجتمع عليه".

للسلطان صابون أموالاً جمة، من رقيق وخيل وثياب، وجبى الأموال التي عاهد عليها وأرسلها، وأرسل للسلطان يستأنفه في العود أو الإقامة فأن له السلطان في العود بعد أن بقي مع السلطان من يذب عنه إذا قدم عليه عنو، سواء كان شقمة أو الفشا أو غيرهما، فكان كذلك، فانتخب نحو أربعة آلاف فارس من المعنوديين وأبقاهم مع السلطان وأمرهم أن يكونوا تحت أمره ونهيه، وكانت قد اجتمعت عليه من عساكر الباقرمة لم عظيمة واستقامت أحواله، فارتحل أجمعين ببقية العساكر إلى دار ودای سالماً غانماً، وبعد رحيله أرك شقمة أن يدخل البرني فقال له أرباب دولته إن العقيد أجمعين أبقى في البرني نحو أربعة آلاف فارس من المعنوديين، ولا يمكننا الدخول إليها إلا بعد قتلهم، وهم في غاية من الشجاعة، فلا يقتلون إلا بعد أن يقتل منا مثلهم أو أكثر، فقال لهم: وكيف الرأي فقالوا الرأي أن ترسل إلى أخواننا المقيمين في البرني أن يحرضوا ^(١) سفهاءهم يتخاصمون مع عساكر الوداي ويضاربونهم، وتبقى دعاوهم أمام السلطان باستمرار، مع أن الوداي لا يرضون أن تعلموا عليهم عساكر الباقرمة ^(٢)، فيقولون للسلطان نحن ما مكثنا معك هنا لنضام، وما مكثنا إلا لنعز، (والآن) أصبح عساكر الباقرمة يتعدون علينا، فإما أن تمنعهم أو أن تقع الحرب ^(٣) بيننا وبينهم، فعند ذلك سيقول وزراء الباقرمة للسلطان، نحن الآن في قوة وجمع عظيم، وكنا محتاجين لمكث عساكر الوداي معنا، أما الآن فلا حاجة لنا بهم ^(٤) ولا تعود علينا إقامتهم إلا بالضرر ووجع الرأس، وهؤلاء في قلوبهم قساوة فربما ثاروا على عساكرنا وقتلواهم، وعساكرنا لا ترضى بالذل فيقع بينهم قتال عظيم ويموت منا خلق، فيكون موتهم سبباً لخراب ما بقي من بلادنا، لأن سلطان الوداي إذا سمع بقتل عساكره يرسل إلينا جيشاً فيحصد شوكتنا، ويستأصل شأفتنا، وإذا صار الأمر كذلك وارتحلوا دخلنا البرني

^(١) في الأصل: "لعم يرحلون عليهاهم".

^(٢) في الأصل: "مع أن الوداي لا يرضون أن عساكر الباقرمة تعلم عليهم".

^(٣) في الأصل: "فإما أن تمنعهم ولما أن يقع بيننا وبينهم حرب".

^(٤) في الأصل: "والآن لا حاجة لهم".

وفعلنا فيه كما نحب، فقال شقمه: نعم الرأي هذا، وكتبوا من حينهم الي وزراء سلطان الباقرمه بذلك، فأجابوهم لما سألوا حباً في شقمه وبغضاً في المتولي عليهم، وحرصوا السفهاء على مخاصمة عساكر الوداي، فصاروا يتعرضون لهم بالسفاهة، والوداي لا يرضون ذلك، فتقع بينهم ثورات، ووصل الأمر بينهم الي الضرب بالسلاح مراراً، فتحير السلطان في الأمر، لأن كلا المعسكرين يدعي أنه مظلوم، أما عساكر الباقرمه فتدعي أن عساكر الوداي يرونها كالأرقاء، لكون سلطانهم مغتلباً علينا، وأنهم يأذوننا بلا سبب، وعساكر الوداي يقولون إن هؤلاء يتعرضون لنا ويسبوننا ويسبون ملكنا بغير سبب، وما ذاك إلا لأننا قليلون في أعينهم وأغراب لا ناصر لنا، مع أننا لو لم نخف من سلطاننا أن يقول لم فعلتم ذلك، ما تركنا منهم أحداً، وحين رأي وزراء سلطان الباقرمه حيرة السلطان قالوا له: يا مولانا ماذا تريد ببقامة هؤلاء عذفاً، إن كان خوفاً من شقمه أو ثقفاً فنحن الآن في جند عظيم، لا يقدر أحد منهما أن يصل اليك بسوء، وليس في مكشهم إلا الضرر، وقالوا له: أرسل لهم (وأمرهم بالعودة الي بلادهم) وفي الحال^(١) أمر السلطان بعودة عساكر الوداي الي بلادهم، وأعطاهم كتاباً للسلطان يقول فيه، بعد ما يليق بالمقام العالي، إن أجداد الباقرمه قد كروا ودانوا وأذعنوا بالطاعة، حتى أنهم الآن في جمع عظيم، ونعلم أن سيدنا إنما أمر بإبقاء عساكره معنا خوفاً علينا من غائلة المارقين، والآن قد أمانا غائلتهم بسيادة سيدنا وكثرة عساكرنا، فرأينا من الرأي أن نردهم الي معادتك سالمين، لأنه قد حصل بينهم وبين عساكرنا ما لا يليق ولا نعلم الغلاتم منهم أحد.

وأرسل بصحبة قائد الجيش خدية للسلطان صابون، وجهز الجيش أحسن جهاز وأمرهم بترحيل فارتحلوا حتي وصلوا الي دلو وداي، فلما قدموا على السلطان ارتاع لقدومهم بغير إذن، وأرسل للقائد {أن يأتيه} فلما مقل بين يديه سأله عن سبب مجيئه فأعلمه بالقصة، وأعطاه كتاب السلطان، فلما قرأه فهم أنها حيلة عملها

^(١) في الأصل: "لمعند امر السلطان بمرء عساكر الوداي".

وزراء سلطان الباقرمه علي ملكهم، فدعا في اتحال بأربعة قواد من أكابر دولته،
لأحدهم العقيد أجمعين والثاني العقيد مقش والثالث العقيد موسى عقيد الزبده،
والرابع الترقنك محمد، وأمرهم أن يتأهبوا للسفر وأن يكونوا في رأي^(١) العقيد
أجمعين وأن يبحثوا عن شقمة في أي محل هو، ومتي قبضوا عليه أن يأتوا به
أسيراً وكذلك النفسا، وأعجلهم في السفر فتأهبوا في نحو خمسة عشر يوماً،
وخرجوا بعساكرهم يجنون السير حتى وصلوا إلى دار باقرمه، فوجدوا النفسا
وشقمة قد دخلا البرني وقبضا علي السلطان، وحلباهما لعساكر المقيمون معه،
ولم ينفعه منهم أحد بشيء، وحين بلغهم هذا الخبر ارتحلوا وجنوا في السير حتى
دخلوا البرني، فوجدوا الجو قد خلا وشقمة والنفسا قد جفلا^(٢)، فخرج أجمعين
بنفسه وتوجه خلف شقمة وأرسل العقيد موسى خلف النفسا وأكد له^(٣) ألا يرجع إلا
به، وترك الترقنك محمد ضابطاً للبرني وما والاه من الخارج، وأخرج العقيد
مقش بجماعته خارج البرني^(٤)، لربما يأتي عدو من الخارج فيستفاد، حتى يستعد
الترقنك ويخرج إلى لقائه، وخذ في السير أجمعين {حتى} وجد شقمة بعساكره مقيماً
بطرف كاتم، فسري ليله وأصبح {فإذا} هو بجوار عساكر شقمة فأحاط به ودلرت^(٥)
الحرب بينهما فركب شقمة ودخل الحرب، وقصده أجمعين حتى وافاه فتضاربا
وعثر بشقمة فرسه فسقط علي الأرض فأخذه أسيراً وانتهزمت عساكره وتبعهم
عساكر أجمعين قتلاً وأسراً وسلباً ولم ينج من نجا منهم إلا برأس من طمرة،
ورجع أجمعين كاراً علي البرني فمكث أياماً قلائل فإذا بالعقيد موسى قد أقبل
بغنائم عظيمة، ومعه أكثر جماعة النفسا وأولاده أسري، وأخبر أن النفسا لم ينج إلا
برأسه، ولقد أخبرني العقيد موسى المذكور وهو أخ الإمام بندر الدين إمام السلطان

^(١) أي يكونوا في رأي العقيد أجمعين أي في يكونوا تحت أمره ويأمره به.

^(٢) في الأصل: "أطلا".

^(٣) في الأصل: "وأكد عليه".

^(٤) في الأصل: "مخرجاً من البرني".

^(٥) في الأصل: "وتنزل الحرب".

صابون، وقد كنا أخبرنا عنه سابقاً، أنه هو الذي فتح الباب الحديدي^(١) ليلة دخول
السلطان صابون في دار المملكة، وفعل ما فعل، فقال لي: لما توجهت إلى جهة
الكتكو في أثر الغشا أخبرت أن الغشا توجه إلى برني لقون ليحتسي بحماة، فطرده
السلطان صالح سلطان لقون، وقال له أرحل عني وإلا قبضت عليك واسلمتك
لعنوك، فارتحل وقصد غيره من ملوك الكتكو، فأبوا أن يجيروا، وقالوا: لو جئنا
من أول رحلة^(٢) أجرتك، فذهب إلى من أجارك أولاً يجيرك ثانياً، فخرج من
عندهم متوجهاً إلى مندره، فتلاقينا معه {وبصحبتة} أولاده ونقله فأحاط به الجيش،
فقلت والفرحاه هذا مطلوبي، وصفت عساكري للقتال وفعل هو أيضاً، واصطدم
الجيشان، فنخلت القلب أبحت عنه فما وجدته، فقلت لعنه في ميمنة العساكر فذهبت
إليه فلم أجده، فقلت لعنه في الميسرة فذهبت إليه فلم أجده، وبينما أنا أبحت عنه إذ
انهزم عسكره، وتبعه عسكرنا يقتلون ويأسرون ولم أتر له علي خير، فحزرت
نقله ونساءه وأولاده، ولم ينج إلا بنفسه مع بعض خدمه، هذا ما كان من أمره، ثم
أن العقيد لخوفه علي شقمه أن يقتل أخذه في كفالته وارتحل به إلى دار وداي هو
وجميع العساكر، ولم يترك في برني باقرمه إلا الترفات محمد، وجد في السير
حتى دخل على السلطان صابون، فخرج السلطان للقاءه، وقام بعمل مهرجان
عظيم، تزين فيه الملوك والأمراء بأحسن زينة، ولما اصطف^(٣) الجيش أمر
السلطان بإحضار شقمه فأحضر والأغلال في عنقه والعقيد في رجليه، وحسن رآه
السلطان علي تلك الحال أمر بنزع قيوده وأغلاله، وأدخله عليه مكرماً معظماً،
فنخل والعساكر علي طبقاتهم واقفين^(٤) في أحسن زينة وأكمل زي، فصار يتأمل
فيهم إلى أن وقف بين يدي السلطان، فسأله السلطان لم فعل هذه الأفعال كلها،
فقال: أدام الله عز مولانا، إني أكبر أولاد أبي، وكنت مترقياً لهذه المملكة منذ

^(١) في الأصل: "الذي فتح باب الحديد".

^(٢) في الأصل: "ولما لم يحسن أول رحلة لنا المروءة".

^(٣) في الأصل: "ولما تم الجيش".

^(٤) في الأصل: "والعساكر على طبقاتهم واقفين".

زمن، لأنني أعلم أن أبي رجل كبير، وكان في حياته قد أوصي لي بالملك بعده،
 وأنا ولي عهده، فكيف ترضي نفسي أن يتولاها غيري من الأولاد الصغار الذين
 لا يتفكرون على سياسة أنفسهم، فضلاً عن سياسة المملكة، {أأرجو من مولاي أن}
 يكرمني^(١) بطريق المروءة لأفعل جهدي وطاقتي حتى أصل إلى مقصودي، ومولاي
 لا يلومني في ذلك، فقال له السلطان صابون: لم لم تنه^(٢) أباك عن أفعاله الكريهة
 التي لرتكبها، فقال: أعز الله مولانا ابن والدي لما كبر سنه نقص عقله، وكان ممن
 عادته أنه إذا أراد أمراً لا يستطيع أحد أن يرده عنه، وأنا ابنه فلو نهينته عن شيء
 استحسنه، فربما كان ذلك سبباً للعداوة والبغضاء {بيننا} لأنه لا يراني إلا صغيراً،
 ويقول في نفسه كيف أخذ بقول ولد كان بالأمس طفلاً صغيراً، وأنا الذي ربيتـه
 حتى كبر وبلغ مبلغ الرجال، فيحقد عليّ، لأنه لو كان يسمع نصيحة أحد كان يسمع
 نصيحة العلماء، طالما وعظوه وبالغوا في وعظه، وهؤلاء لا يصغي ولا يلتفت
 إليهم، فقال له السلطان أين أخوك الذي قبضت عليه، فقال له شقمه قد قتل، فقال
 السلطان ومن قتله؟ فقال قتله العساكر حين دخولهم عليه، فقال السلطان: فما تظن
 أنني فاعل بك الآن فقال: عبك وأسيرك وفي قبضتك، ومن عادة الملوك إذا قدروا
 عفواً، فقال له السلطان صابون: أما إذا كان هذا ظنك فقد أصبت وعفوت عنك،
 وجعلتك سلطاناً مكان أبيك، على شرط أن تدفع لي ما قررتـه عليّ أخيك قبلك فسي
 كل سنة فقال يا مولانا إن الصديق لمنجاة والكذب لمهلكة، وأنا الآن ممن بعض
 خدمك^(٣) ولا أريد أن أقول قولاً ولا أوفي به، أما ما جعله مولانا عليّ أخي وقبلة
 فإنه لم يقبله إلا خوفاً، ولو كان في طواعية نفسه لما قبله، ومولانا يعلم أن دار
 الباقرمة قد تلت تماً لا ينحبر إلا بعد سنين عديدة، وهذه ثلاث سنين والحروب
 فيها {مشتعلة} وأهلها منزعجون، وأموالهم منهوبة فمن سلم من عساكر معادتك لم

^(١) في الأصل: " فضلاً عن سياسة المملكة يكرمني".

^(٢) في الأصل: " لم لا تمنعك من فعله".

^(٣) في الأصل: " وأنا الآن ممن بعض خدمك".

يسلم^(١) من يدي، ومن سلم مني لم يسلم من غيري، وهذه الضريبة لو كانت باقرمه على حالها الأول لكانت خفيفة، والآن بيت مالها خراب ورعاياها ضعاف، فأسأل مولانا بمكارم أخلاقه أن يخفف عنا فنحن عبيده وخدمه وليس لنا ملجأ سواه، فأعجب السلطان من فصاحته وصواب قوله فخفف عنه نصف الضريبة، وقرر عليه النصف، أعني أنه قبل أن يعطيه من كل ألف خمسمائة، وعاهده على ذلك، ثم أمر أن يتوجه إلى دار الاتزال، فأنزله السلطان وأكرم نزله، وأعطى مقامه، وأذن لجميع القواد والأمرأ أن يزوروه ويؤانسوه، وأرسل خيلاً مسومة وآلات البيت من فرش وأهدي إليه جواربي من محاطيه، وأحسن إليه غاية الاحسان، واجتمع معه اجتماعاً خاصاً مرتين أو ثلاث، واستشفع شقمه عنده في الفشا وأولاده فشفعه فيهم، فأرسل شقمه إلى الفشا فحضر، وأدخل على السلطان فأكرمه احتراماً^(٢) لشقمه، وأنزله في دار الاتزال، وأجرى عليه أرزاقاً عظيمة حتى أرضاه، وولاه منصبه الذي كان عليه، وبعد أن استراح الفشا دخل شقمه على السلطان واستأذنه في الرحيل والسفر إلى بلاده، فأذن له في ذلك، وعين له يوماً معلوماً وأخرج معه عسكرياً عظيماً، وجهزه بجميع ما يحتاج إليه من إبل وخیل وخيام، وأخرج له سرانقاً من سرانقاته^(٣)، وخیلاً مسرجة بسروج الذهب، وأعطاه مظلة عظيمة وريشاً {كما منحه} شارات الملك وأمر الوزراء وأرباب الدولة أن يركبوا معه ويشيعوه مسافة ساعتين أو ثلاث^(٤)، وأمر قائد الجيش الذي أمر بالتوجه معه أن يكون تحت أمره ونهيه بحيث لا يخالف له أمراً، وأخرج السلطان صابون لديوانه وأمر بإخبال شقمه والفشا عليه فأخبالاً، فكما شقمه كسوة جميلة فيها كشير أحمر وسيف مذهب في غاية الحسن وكما الفشا كسوة الوزراء، وقنده سيفاً وأعطاه جواداً مسرجاً بسرج مذهب، وأخرج من عنده في غاية السرور

^(١) في الأصل: "فمن سلم من عساكر سعادتك ما سلم من يدي".

^(٢) في الأصل: "رعاه للفق".

^(٣) في الأصل: "سرانقاً من سرانقاته".

^(٤) في الأصل: "أو ثلاث".

والاعتباط، شاكرين لنعمة، وخرج معهما الوزراء وأرباب الدولة وكان يوم
خروجهما يوماً عظيماً ضربت فيه الأبواق والطبول، وخرجت في ذلك اليوم ربات
الحجال والخدور، فأشرف السلطان من قصره ينظر ذلك المحفل العظيم، وكان
يوماً مشهوداً كيوم دخوله بل أعظم، فمشى معه الوزراء وأرباب الدولة كما أمر
السلطان ألا يرجعوا إلا عشية النهار، وبعد أن رجع عنه أرباب الدولة وودعوه
بات في محله وأصبح مرتحلاً إلى بلاده وجد في السير حتى وصل إلى بلده،
فخرج لتلقائه الترقنات محمد وقال له إني استلمت هذا البرني من وكيل السلطان ولا
اسلمه إلا بأمر، وكان السلطان صابون قد كتب له منشوراً بالولاية {جاء} فيه: من
حضرة السلطان المعظم والملك المفخم المكرم خادم الحرمين الشريفين المتوكل
علي السميع العليم السلطان محمد عبد الكريم صابون، العباسي، التي كل من يقف
علي أمرنا هذا من الأمراء والأجناد والعساكر والقواد وأرباب الدولة أجمعين.
أما بعد فأنا استخرنا الله تعالى الذي لا يخيب من استخاره وولينا ولدنا
ثقة ابن المرحوم السلطان أحمد سلطان ملكة باقرمه، سلطاناً عوض أبيه،
وجعلنا يده مطلقة^(١) في الأحكام، وأوصيناه بالتعل والإتصاف، وإتباع شريعة
{ابن} عبد مناف، وقررنا عليه كل منه ضريبة يدفعها إلى خزينة المعمورة،
وأخذنا عليه خطه وإشهاده بذلك وأيدناه بعبد الله الفشا وزيراً كما كان لأبيه، وعلي
ذلك صدر أمرنا الشريف هذا، فلا يعارضه أحد من أهل الملكتين، والحضر ثم
الحضر من الخلف، وأسأل الله التوفيق لي وله ولكافة ولاية الاسلام والسلام عليكم
ورحمة الله وبركاته.

فحين طلب منه الترقنات محمد أمراً باستلام البرني أخرج له هذا المنشور
وقراه عليه، بحضور كافة الجند، فقام حينئذ الترقنات محمد وعائقه وحنا ودخلوا
البرني جميعاً، وفرح بذلك جميع الباقمة فرحاً شديداً وكان يوماً مشهوداً وخرج
الترقنات محمد بجماعته وعسكر بظاهر البرني مع العساكر القائمة مع السلطان

^(١) في الأصل: "وسلطاً يده مطلقة".

محمد شقمة، وبعد أن استراح الجيش جهزهم السلطان محمد شقمة بجهاز عظيم
وأرسل للسلطان صابون من الأموال مالا يحصى، هدية وضريبة وأهدى للترقعات
محمد هدية جليلة، ولجميع القواد والأمرأء على قدر مراتبهم وأنن لهم فى التوجه
الى بلادهم.

قبيلة-

قد رأيت كلا من شقمة والنشا جاء الى السلطان صابون، لما شقمة فكان
رجلاً طويلاً^(١) جسيماً فى غاية من الموك، قد وخطه الشيب، كث اللحية كان
عينيه مراحان يتوقدان، ولما النشا فكان بعكس شقمة فى جميع الصفات فكان ربعة
نحيف الجسم سواده الى الحمرة، خفيف اللحية تظهر عليه شهامة الرجال وحسن
التعبير وبالجملة فالملوك العظام من السودان كلهم أصحاب تدبير مهابون، ترتعد
فرائص من يقف بين يدى أحد منهم لما يرى من الجبروت وناموس الملوك، وذلك
غير مخصوص بملك دون آخر، فأولهم ملك الفور، فهو فى أبهة وحشمة ووقار،
لا يقدر الانسان أن يفصح بين يديه بثلاث كلمات الا المعتاد عليه، كالوزراء
وأرباب الدولة ووجوه الناس الذين لهم منزلة، ولما غيرهم وإن كان ذلق اللسان
ثابت الجذان متى وقف بين يديه يندمش وتذهب فصاحته، فقد حكى لى أن السلطان
محمد تيراب أعطى قبيلة من عرب التبادية فيلاً تربيه له، فلما حل الفيل بين
ظهر انهم عسف فيهم، فصار يأكل أوقاتهم ويختطف مابلديهم ولا يمكنهم قتله،
لخوفهم من السلطان، وضاقوا به ذرعاً فجاءوا الى شيخهم وقالوا له: بنس ما فعلت
بنا (فقد) أعطاك السلطان هذا الفيل فلم تعثر إليه بشيء بل أخذته وأتينا به،
فسامنا فى أوقاتنا وأضر بنا غاية الضرر، فخذ وردة إليه والافتناء، فقال لهم
الشيخ أنا لا يمكننى أن لأخاطب السلطان فى رده، فقام رجل منهم وقال خذنى معك
إن كنت تخاف وأنا لأخاطب السلطان فيه وإنا عليك أن تفتح الكلام بأن تقول له:
الفيل، فإذا سأل وقال: ما الفيل، أرد أنا الجواب وأقول: فعل بنا كذا وكذا، فقال له

^(١) والاصل: "رسلاً غزاة".

الشيخ أتذهب معي إلى الفاشر^(١) قال نعم، فتأهبوا للسفر وتوجهوا للفاشر، فصانف
 دخولهم يوم الجمعة، فلما وقفا على باب دار السلطان إذا بأحد الوزراء راكباً في
 مركبه والطبول تضرب والصفافير تغنى وهو في أكمل زينة، فقال البدوي للشيخ
 أهذا السلطان، قال لا، هذا أحد وزرائه، فارتج الرجل ونثم على قدميه وقال إذا
 كان هذا أحد الوزراء فكيف بالسلطان نفسه؟ وبينما هما كذلك إذا بوزير كبير
 كباديما قائماً^(٢) وبين يديه من العساكر والأمراء جمع عظيم، وهو في أكمل زينة
 والطبول والصفافير تضرب على رايته والفرسان تتراكم أمامه والجنائب تقاد
 بين يديه، فارتاح البدوي وقال أهذا السلطان؟ فقال له الشيخ لا هذا أحد الوزراء
 العظام، فرجف فؤاد البدوي ونسى ماكان مستحضراً له من الكلام وبينما هو يفكر
 فيما وهمه إذ أقبل الشيخ عبدالله أوردكا الأب في كتيبة عظيمة من الخيل والرجال
 والجنائب والطبول والصفافير حتى أخذ بمنازع العالم، فقال البدوي أهذا السلطان
 قال له لا هذا أكبر وزراءه فانقطع نفس البدوي وبقي مذعوراً^(٣) لا يرى ما يصنع،
 وبينما هو كذلك إذ خرج السلطان وانقلب الأرض بأصوات الطبول وارتجت
 بركض الخيل وأحس بأن الخضراء انقلبت على الغبراء ووقف السلطان واصطففت
 العساكر فتقدم الشيخ ونادى بصوت عال: أيد الله سيدنا ونصره على عدوه،
 الفيل!! فقال السلطان، مالفيل؟ فغمز الشيخ البدوي وقال له، قد فتحت لك الباب
 فتكلم، فانقطع وما قدر أن يجيب جواباً، فقال السلطان مالفيل؟ فخشى الشيخ أن
 يبطش به السلطان لعدم رد الجواب، فقال: إنه مستوحش لوحشته فنريد من سيدنا
 أن يعطينا فيلاً آخر يؤانس، فقال السلطان أعطوه فيلاً آخر يؤانس، ففي الحال
 جين^(٤) بالفيل (وسلم للشيخ وصاحبه البدوي) فرجعا به إلى ياديهما، فلما رأى
 العرب ما جاء به قاتوا لهما: ما هذا؟ نحن أرسلناكما لتريحنا من واحد فأتيتما

^(١) ربما قصد المؤلف بالفاشر عاصمة السلطان لأن مدينة الفاشر لم تنشأ بعد لافتا إلى عهد السلطان "عبد الرحمن الرشيد" كما
 سلطان تروان الذي ذكره المؤلف فكانت عاصمته "كرويل".

^(٢) في الأصل: "... قائم".

^(٣) في الأصل: "... وهو يهتف".

^(٤) في الأصل: "... في الحال جاء الفيل".

بآخر، فقال لهم صاحبهم البدوي: إعلموا أن شيخكم هذا رجل لا يوجد على ظهر الأرض أثبت منه جناحاً فاحتموا الله على توليته عليكم شيخاً فرضوا بالفيلين وسكتوا أمم.

ثم إن الناس^(١) في هذا الزمن ليسوا كما في الزمن السابق، فقد كانوا في العصر الأول من المذاجة^(٢) بمكان، سواء كانوا ملوكاً أو رعايا، فما حكى في ذلك أن جماعة من الفقراء بدار ودای كانوا يسمعون أن العسل حلوة، ولم يتيسر لهم أن يأكلوا منه، بل لم يروه، فاتفقوا مع بعضهم أن يتوجهوا إلى السلطان ويسألوه في ذلك، فذهبوا إلى ولده وتحروا خروج السلطان فلما خرج تعرضوا له، فقال لهم، من أنتم وماذا تريدون، فقالوا نحن من فقراء رعيتك، وسمعنا أن العسل حلوة ومارأينا قط، فأتينا نسأل مولانا أن يشبعنا منه، فاحتاط منهم عيظاً عذيباً وقال هؤلاء احتقروني حتى أنهم ماسألوني إلا العسل إننوني قربة مليئة بالعسل، فجاءوا بها فحكم عليهم أن يشربوها كلها وإن لم يشربوها سيقطعهم^(٣) فشربوا منها مقداراً يسيراً ثم سئموا منه، وتحيروا في أمرهم، فسجنهم السلطان في محل وأمر بوضع القربة بينهم، وأن لا يخرجوا من السجن إلا بعد فراغها فكلن كذلك.

ومما يحكى أن ثلاثة أنفار زرعوا بصلاً وفلفلًا وثوماً فأخذ كل واحد منهم حمل بعير من نوع منها ووفنوا بها إلى سلطان ودای وانخلوها إليه^(٤) هنية فلما رأى الفلفل والبصل والثوم، وكان لا يعرفها^(٥) فقال وما هذا، فقالوا له هذه مما تصلح به الأطعمة فرأى الفلفل أحمر جميلاً فأخذ منه قليلاً ووضع في فيه، فأحرقه، فقال هؤلاء قوم أصحاب غش وقد جاءوا بهذه الأنواع ليقتلونا بها، فقال: انخلوهم

^(١) في الأصل: .. ثم إن هذا الناس.

^(٢) في الأصل: .. من المذاجة.

^(٣) في الأصل: .. وإن لم يشربوها قطعهم.

^(٤) في الأصل: .. وانخلوها هنية عليه.

^(٥) حديث المؤلف في سلامة لال هؤلاء القوم ثم يكونوا من السلامة والعالى بحيث لا يعرفون حتى البصل والثوم هنية والله أعلم بالصواب
ضمن مزيوعات بلادهم.

السجن واجعلوها^(١) طعامهم حتى يستوفوها قيل فماتوا في محبسهم ثلاث سنين،
 وخرج واحد منهم (شكله) أبرص، والثاني أجنم، والثالث سليماً.
 ومما حكى من مذاجة الناس وبلاعتهم أن في دارفور قبيلة تسمى البرتي
 وهم قبيلة عظيمة من أعاجم السودان، لكنهم موصوفون بالجبن والخوف في
 الحروب دون قبائل السودان^(٢)، وكان لهم ملك يعصفهم ويأخذ من أموالهم
 ما يريد^(٣) ولا يرفعون أمرهم إلى السلطان خوفاً منه، فكانوا يظنون أنه هو
 السلطان ولا يد فوق يده، فاتفق أنه ظلم رجلاً واستصفي جميع أمواله ولم يبق له
 شيئاً، فخرج الرجل على وجهه هائماً، فاجتمع برجل من أهل الفاشر، خرج في
 حاجة وعائداً إلى الفاشر فسأله البرتاوي قائلاً^(٤) من أين أتيت وأين تريد؟ فأخبره
 الرجل بخبره ثم سأل البرتاوي قائلاً: من أنت ومن أين وإلى أين؟ فقال له
 البرتاوي أنا من البرتي ولا أرى أين أذهب^(٥) فقال له الرجل كيف ذلك؟ فحكى له
 ما وقع عليه من الظلم من الملك وأنه خرج فاراً بنفسه من العنف والجور، فقال له
 الرجل لم لا تستكيه إلى السلطان يخلص لك حقتك منه، فقال البرتاوي أذاك سلطان
 غير ملكنا، فقال له الرجل نعم، فقال البرتاوي ومن يدلني عليه، فقال له الرجل أنا
 (أناك عليه) فقال له الحق ما تقول؟ قال له اترجل أي والله، فسانر معه حتى وصل
 إلى الفاشر وأوقفه الرجل بين يدي السلطان تيراب، وقال له قل ما تريد فسلم على
 السلطان سلام الأكفاء بأن قال له: صباح الخير يا أبا اسحاق، أنه قد بلغني عنك

^(١) في الأصل: "فقال لا تتركهم إلى السجن واحبسوا طعامهم".

^(٢) البرتي: قبيلة كبيرة من أصل عشتي تسكن جنوب للال المهدية في شرق دارفور هموا موطنهم الأصلي في للال الفاشر بسبب صعد
 سلاطين النور واستولوا الآن في كل منطقة شمال وشرق دارفور وهم من أكثر القبائل استقراراً وتعلماً ومساكنة، لما حدثت المراسد
 معهم بالغت حياء قلبه ملاحمة والصحة، فالتوى مثل غيره من قبائل دارفور فهم النحمان وهم عموماً في مهم فرسان فاموا صوب
 دولة النور في دعم الممرك مثل الأمير فمرادى من الفاشر وسروبه قسرة مع الملك سبي التوى حتى جت السلطان إلى دار مسكن
 لمباركة السلطان تاج الدين حيث قتله السلطان تاج الدين في ماردة شهيداً بطراً: فربط كاسيت للتحقق برواية الشيخ محمد طلي
 الشيخ لمرة كيم عد الفرسان لوفى ١٩٩٨م.

^(٣) في الأصل: "و يأخذ من أموالهم ما أراد".

^(٤) في الأصل: "فسأله البرتاوي وقال له..".

^(٥) ولا أرى أين أذهب، حيلة تشير إلى الغربة واليهول الذي يملك قلبه بأن له لعبة كبرى...

لأنك تخوف ملكنا وقد ظلمني وأخذ مني كذا وكذا من المال، فلن كنت تقدر على خلاص حتى منه كما زعموا فخلصني، فضحك السلطان من كلامه وعرف أنه غر وفي تلك الساعة أمر باحضار ملك البرتوي فأحضر، ولما دخل على السلطان التفت فرأى البرتوي الذي ظلمه واقفاً، فنظر إليه نظرة غضب فلما رآه البرتوي (غاضباً^(١)) خاف منه ورفع يديه ووضع ظهر كفيه مماسلي وجهه، وراحته ماسلي الملك ووضع يديه الى جهة الملك كأنه يتقى بهما نظره، وقال له غطيت عينيك برباعيتين أنا مالي، قد ضحكوا على وجاءوا بي الى هنا، ومعنى قوله غطيت عينيك برباعيتين أي جعلت لك بقرتين رباعيتين نظير غص بصرك عني، والرباعية هي البقرة التي لها أربع سنوآت، فضحك السلطان من كلامه أكثر من الأول ثم أقبل السلطان على ملك البرتوي وقال له: ألا تتقى الله في المسلمين عشت بهم وجفوت عن طريق الحق وهم قوم غفل، لا يعرفون غيرك حتى (الصغار) يخافون منك، ثم سأل السلطان البرتوي عما أخذ^(٢) منه الملك، فقال: أخذ مني كذا وكذا، فأمر السلطان برد جميع أموال البرتوي له في تلك الساعة، فرد الملك ما كان حاضراً منها في بيته بالفائز^(٣) لأن كل ملك له بيت في الفايض يجلس فيه مدة إقامته بطرف السلطان، وإذا غاب تبقى فيه جماعته حتى ياتي، وأعطى السلطان جواد ملك البرتوي بمرجه وعدته للبرتوي رهناً يبقى في يده حتى يأتيه الملك بباقي المال، وكان جواداً من عتاق الخيل وأمر السلطان البرتوي أن يركبه، فخاف البرتوي من ركوبه، فأمر السلطان خدمه أن يركبوه عليه، فلما ركبه ومشى به خطوات صاح قاتلاً: يا أبا اسحاق قتلتي ما هذا عدل منك، لأنني امرؤ ماركت جواداً قط^(٤)، فضحك السلطان من كلامه وأمر بتزايده من الجواد^(٥) وأعطاه عوض ماذهب منه، وأحسن اليه، فلما رجع البرتوي الى قومه قال: يقوم

^(١) في الأصل: فلما رآه البرتوي غرجه..

^(٢) في الأصل: .. عما أخذ منه الملك.

^(٣) في الأصل: .. فرد الملك ما كان حاضراً منها بيت الملك الذي في الفايض

^(٤) في الأصل: .. لأنني امرؤ ماركت جواداً قط.

^(٥) في الأصل: .. ولم يترك من العرب.

إني وجدت أبا إسحاق يخوف ملكنا، وفعل معي كيت وكيت، وصار صاحبي فمن كان فيكم مظلوماً فيذهب إليه ومن لا يقدر على الوصول إليه فإني أوصله لأن الرجل الآن صاحبي، ثم اته كانت له ابنة جميلة (فذهب بها إلى السلطان) ثم قال له: يا أبا إسحاق إن هذه إينتى وأعز الناس على وخطبنى فيها أناس كثيرون^(١) وأبيت أن اعطيها، وقد صنعت معي معروفاً كثيراً فأحببت أن أريك إياها، فإن كان لك بها حاجة فقد زوجها منك، فنظر إليها^(٢) السلطان فأعجبته، فعقد عليها وهي أول امرأة من البرتى تزوجها سلطان، ثم بعد ذلك تزوج منهم الملوك حتى أن السلطان محمد فضل يرى أنهن من الإماء^(٣) فيتسرى منهن ما أراد بغير عقد^(٤).

ومما ينخرط في مذاجة الملوك والرعايا ووحشيتهم وعدم معرفة الآداب والقوانين أن أناساً من الوداي كانوا يشربون الدخان، بشيق^(٥) وكانوا قد اتفوه، ولا يقدر على إبعاده^(٦)، أعنى أنهم صار لهم عادة لا يمكنهم التخلي عنها (ثم) أسروا فلم يجدوا ما يشتروا به الدخان فاجتمعوا وشكوا حالهم لبعضهم وتشاؤروا مع بعضهم، فالتفتى رأيهم أن يذهبوا إلى السلطان ويطلبوا منه أن يعطيهم شيئاً من الدخان أو شيئاً يشترون به الدخان، فذهبوا إليه فلما مثلوا بين يديه ومألوه في ذلك اعتاظ غيظاً شديداً^(٧) وقال: هؤلاء احتقروني حتى أنهم ماسألوني إلا التابا ثم أمر ببناء دز من طين علوه أربعة أذرع، وكان عدد الرجال عشرة، فأمر بأن يملأ الدز بالدخان وأن يوضع عليه جمر كثير، وأن يتقوا عليه عشرة نقوب دائرية ويوضع في كل نقب أنبوبة من القصب وأن يجلس الرجال ويشربوا الدخان من

^(١) في الأصل: .. وطين لها نمر كثر..

^(٢) في الأصل: .. فنظرها السلطان..

^(٣) في الأصل: .. يرى لهن من الاموات..

^(٤) حديث الكتف من رواية السلطان محمد فضل لسان القزويني بألف من الإماء حديث در صاحب، لأن القزويني معروف في دارفور وهم من أكثر القبائل في دارفور وكانوا من النشركين في تأسيس دولة الفور ولم تمكن في القدر والعلم قديماً وحديثاً.

^(٥) هكذا في الأصل "بشيق" أي بملح.

^(٦) في الأصل: ولا يقدر على بعه.

^(٧) في الأصل: اعتاظ غيظاً شديداً.

تلك الانابيب حتى يفرغ ما في الدن، وإن لا يسمع^(١) لهم بالذهاب حتى لا يبقى شيء من الدخان في الدن، فكان كذلك (حيث) ملئ الدن دخاناً ووضع عليه قنجر حتى التهاب الدخان وأجلس الرجال العشرة وأمروا بشرب ما في الدن من الدخان، فجذب كل واحد منهم نفساً أو نفسين ثم سئموا وأرادوا الانصراف، (فمنعوا) وأجبروا على الشرب (حتى) أخذهم الدوار ووقعوا على الأرض مغشياً عليهم كأنهم أموات وأعلم السلطان بذلك فخلى سبيلهم.

ومن بلاهة الوداي (أيضاً) أنهم لا يمكنون سلطانهم من شرب اللبن الحليب ويقولون إذا كان السلطان يشرب اللبن فماذا تشرب الرعية، وافق أن أحد السلاطين اقتنى بقرأ حلوباً فسمعوا به فهاجوا عليه وقالوا له لما لن تخلي سبيل البقر وتتوب من شرب اللبن والاعتكاف، فلم يمكنه الامطاعون^(٢)

ولفرجع إلى إتمام سيرة السلطان صابون وغزواته - حدثني عمي السيد أحمد زروق قائلاً: - ولما تمهدت للسلطان صابون ملكة الباقرمي وارتاح من عنائها مكث في داره سارا بلراً أمناً فما راعه إلا أن دخلت عليه جماعة من رعاياه مجروحين ممزق^(٣) الثياب، وأعلنوا بأعلى صوتهم: مظلومين يامولانا السلطان: فقال لهم: ومن ظلمكم، قالوا ملك التاما أغار علينا على حين غفلة واستاق مواشينا وأولادنا فخرجنا لتخليصها من يد عساكره فقتلوا منا جماعة وأسروا آخرين وفعلوا بنا ما ترى، فاعتطف السلطان لذلك وأرسل من حينه للسلطان محمد فضل سلطان الفور هدية وأصحابها كتاباً يقول فيه: مامعناه بعد التحية - لن سعادتكم يعلم أن لنا مدة مدينة لم تقع بيننا حرب، ونحن كالأخوين ورعاياك ورعايانا واحدة وكلمتنا واحدة وأمرنا واحد، وملك التاما من جملة أتباعك، وقد أغار على إيالتنا واستاق أموال رعيته وقتل منهم جماعة وأسر آخرين وجرح

^(١) في الأصل " وإن لا يسمعوا من الذهاب حتى لا يبقى شيء في الدن "

^(٢) حديث للزائف فيه شيء من الغلط وعدم الصواب لأن من أحب التاكولات والشروبات لثمة والحكمة في هذه البلاد هي المنع

ومستندة فلا يخل أن يترك سلطان ودمى حرب الدن هذه الطريقة.

^(٣) في الأصل " ..ممزقين الثياب "

منهم مثلهم، ولولا ما بيننا من المصالحة والهدنة لكنا فعلنا به ما هو أهله لكن إكراما
لك تركناه، وما نحن أعلمك، فالمقصود من على منكم أن تأمروا ملك التامنا
بربما أخذ من رعتي عاجلاً، وأن تبالغوا في نبيه^(١) بأن لا يعود لمل هذا، ولولا
لنى خفت من ملامك على وراعت خاطر ك الشريف لوجهت إليه من ينكل عليه
ويمثل به،،، والسلام.

فما وصل الكتاب الى يد السلطان محمد فضل وقراه وفهم ما فيه، قام
وقعد^(٢) وتوقل^(٣) واسترجع^(٤) وأظهر أنه استشاط غضباً فكتب الى السلطان
صابون كتاباً يقول فيه - بعد ما يليق بالمقام العالى من التحيات الوافرة والأشواق
المتكاثرة.

إنه قد وصل اليها كتابكم وسررنا منه بصحتكم وساعنا ما فعله ذلك المارق
ملك التامنا، وما نحن قد أرسلنا إليه أن يرد جميع ما أخذته عساكره من إياتكم
وشددنا عليه في ذلك غاية التشديد ونرجو أن لا يتغير في خاطركم من جهتنا لأن
هذا الكلب قد فعل ما فعل بغير اطلاعنا،،، والسلام.

فما وصل الكتاب الى السلطان صابون وقراه، فهم أنها حيلة من السلطان
محمد فضل فقال: كذب عدو الله لو كان قوله صحيحاً ولأن ما فعله بغير اطلاع
لكن عزله من شدة الغضب، لكنه خدعنا بهذا الجواب وسنصبر حتى ننتظر
ما يؤول اليه الأمر فبعد مضي أيام قلائل وبينما السلطان صابون جالساً^(٥) على
سرير ملكه إذ سمع ضجة وقعت وأصواتاً ارتفعت فنظر الى البطحاء التي هي
أمام داره فوجدها مملوءة (بالناس^(٦)) مابين جريح وسليب وهم ينادون بالتويل
والحرب، فقال السلطان من هؤلاء وما دهمهم؟ فأخبر أنهم مساليط، وأنهم جاءوا

^(١) في الأصل "وان تبالغوا في نبيه بان لا يعود..."

^(٢) قام وقعد، كلمة عن الغضب الذي انتاب.

^(٣) وتوقل أى قال لا حول ولا قوة الا بالله.

^(٤) واسترجع أى لعل الله والى الله راجعون.

^(٥) في الأصل "جالس".

^(٦) في الأصل "لموجدها مملوءة من الناس".

يشكون ما حل بهم من ملك القاما، فأحضرهم بين يديه وسألهم فأخبروه أن عساكر ملك القاما قد هجموا^(١) عليهم واستاقوا مواشيهم وأولادهم (ثما) خرجوا لخلصها من أيديهم قتلوا منهم ما قتلوا وجرحوا أناساً كثيرين، وها نحن جئنا نشكر حالنا إلى حضرة سعادتك، فغضب السلطان وكاد يتميز غيظاً، فكتب من حينه إلى سلطان القور (كتلاً) يقول فيه:

بعد السلام إني قد أخبرت سعادتك سابق تاريخه بأن ملك القاما قد اغار على إيالتي واستاق مواشي رعيتي وقتل من قتل وأسر من أسر، ولولا أنه من أتباعك لفعلت به ما يستحقه وجاعني من عندك كتاب تذكر فيه أنك زجرته غاية الزجر، وأمرته برد جميع ما أخذه من إيالتي فكان الأمر بالعكس، فإنه لم يرد شيئاً^(٢) مما أخذه بل عاد وأغار وفعل أكثر مما فعل في المرة الأولى، وأقسم بمن جعل سيفي قاطعاً ورمحي خارقاً لنن لم تنبه من غيه وترجره عن سوء فعله، وتأمره برد جميع ما أخذه من السبي لأنككن به ولأجعلنه مثلاً بين يدي قومه وحزبه، وهاتان^(٣) مرتان قد أرسلت إليك فيهما، فإن عاد الثالثة علمنا أنه مخالف لسلطانة فغزوانه وطالب^(٤) لهتك أستاذنا فهتكناه... والسلام،،،

وأرسل الخطاب صحبة تجار، وأخرج من العساكر جنداً كثيراً وأمرهم أن يقيموا بالأطراف على أهبة (الاستعداد) ومتى سمعوا بقوم القاما يكونوا على ظهور الخيل راكبين، ولصدور الأعداء طاعنين، ولخلص السبي فاعلين، وأرسل إلى العقيد جاب الله عقيد الصباح وأمره أن يجمع خيله ورجله، ويكون على أهبة من أمره، ومتى سمع بإغارة القوم (أن) ينجدهم ويمعن في قتل (أعدائهم)^(٥) فكان كذلك، ومنذ ذلك الوقت تأهب السلطان للغزو واستعد وجند الجنود وأعلن السفر^(٦)

^(١) في الأصل "أن عساكر ملك القاما قد هجمت عليهم واستاقوا منهم"

^(٢) في الأصل "فانه لم يرد مما اخذه شيئاً"

^(٣) في الأصل "وهاتان مرتان"

^(٤) في الأصل "وطالباً وهو حثا والصواب طالب"

^(٥) في الأصل "ويمعن في قتلهم"

^(٦) في الأصل "وتعلن السفر"

ولما وصل الكتاب الى سلطان الفور وعلم بما فيه، تحير (فى) أمره، وأخبر
الغضب على ملك التاما، وأرسل للسلطان صابون كتاباً يقول فيه بعد ما يليق
بالجناب الكريم:

إنه قد وصلنا كتابك وسامناً (كثيراً^(١)) ماسعك وقد كنت كتبت الى ذاك
الخائن الناكث المارق عن الطاعة برد جميع ما أخذه وحذرتة غاية الحذر عن العود
الى مثلها، ولكن عاد عليه لومة وقاده الى الغدر ظلمه وأرجو من أخى وصديقى
أن لا يؤاخذنى بفعله، وإن عاد الى مثلها ليعلمن عاقبة بغيه، فإن هذا الظالم ظن أن
حصنه يقيه، وجبله يحميه، فلأنكأن به أتم النكال، ولا سقينه كزوس الخبال، بدون
أن يتعب أخى ويذهب اليه، فأرد جميع ما أخذه الظالم اليه، وهاتحن قد أرسلنا اليه
من أتباعنا الملك أحمد جراب بكتاب منا، فإن خالفنا فيما أمرناه به أمرناه عاقبة
وبال أمره... والسلام..

ودعا السلطان محمد فضل بالملك أحمد جراب وأمره بالتوجه الى الحال
الى جبل تاما وكتب اليه كتاباً لا يدرى ما فيها، كما سلم (رسول) السلطان صابون
كتاب سيده وأمره بالتوجه اليه، فلما وصل الكتاب الى السلطان صابون وفهم
مضمونه تردد فى أمره، ولما أن يفرق ما جمعه من العساكر، فأشار اليه بعض
أرباب الحل والعقد بإبقاء الأمر على ما هو عليه، وكان والدى قد قتل من دلو برنو
الى وداى واستقر فى ظل السلطان صابون ورجع الى وزارته فكان من جملة من
أشار على السلطان بإبقاء الأمر على ما هو عليه، وذهب الجواسيس الى السلطان
محمد فضل وأخبروه أنه (أى السلطان صابون) متجه الى السفر الى جبل تاما
وأنه ينتظر عودة أموال رعاياه، وإن لم تعد على الفور سافر اليه، وبينما السلطان
منتظراً للأخبار ورد اليه الخبر بأن ملك التاما قد أغار على طرف الإيالة بجند
كثيف وفيهم عساكر من الفور^(٢) وأخذوا من الماشية (عدداً كبيراً) وحين (ارتفع^(٣))

^(١) فى الاصل "وسامناً واسماً ماسعاً"

^(٢) فى الاصل "ولهم عساكر من عساكر كاتور"

^(٣) فى الاصل "رحل وفتح اصباح"

الصباح ركب عساكر الوداي وتعرضوا لهم فوق بينهم قتال عظيم وكثروا على عساكر الوداي حتى كشفوهم^(١) بعدما قتلوا منهم قتلى كثيرين، وبلغ الخبر إلى جاب الله عقيد الصباح فركب في خيله ورجله وتعرض للناما، وحال بينهم وبين بلادهم وخلص السبي من أيديهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً^(٢) وأسر منهم من رجالاتهم عدة أناس منهم من هو من جماعة الملك أحمد جراب، فلما سمع السلطان صابون هذا الخبر أمر بالترحيل، فرحل بجيش يملأ السهل والوعر، وتوجه إلى جبل ناما، ومازال يجد (في) السير حتى وصل إلى إيالة الناما فوجد بها إيالة عظيمة، لكن أكثرها جبال وشجر مثبك وأهل الناما لا يعسر عليهم السلوك فيها، لانفتحهم بها، وعساكر الوداي لا يمكنهم سلوكها لانفتحهم السهل، فصار الناما يكمنون^(٣) بين الأشجار وكلما عثروا على قوم من الوداي قتلوهم، فقتلوا من عساكر الوداي مجموعة^(٤) عظيمة، ففطن^(٥) السلطان (صابون) لهذا الأمر، فأمر بقطع جميع الأشجار وجعلها أكداً وأحرقها بالنار، ولم يبق في الإيالة وعر إلا الجبل، فزحف على الجبل وأحاط به من كل الجهات (ثم) خرج عساكر الناما ووقفوا في أعالي الجبل يرمون عساكر الوداي بالحجارة^(٦) فمات من الحجارة خلق كثير، ووقف بقية عساكر الناما يحرضونهم على قتال عساكر الوداي، وكلما أراد عساكر الوداي الصعود إلى الجبل من جهة دحرجوا عليهم الحجارة فيموتون، وكان والدي إذ ذاك (تد) جمع طائفة من المغاربة من أهل فزان وطرابلس الغرب وابن غلزي، فلما أعياهم الأمر قال لجماعته كل منكم يأخذ بندقيته (واذهبوا) مع العساكر ووقفوا أنتم بعيداً من رمي الأحجار وكلما رأيتم رجلاً من عساكر الناما يدحرج حجراً على العساكر قوموا عليه حتى تطلع العساكر (الجبل)، فكان الأمر كذلك وكانوا

^(١) في الأصل "من لهم كشفهم"

^(٢) في الأصل "وقل منهم خلقاً كثيراً"

^(٣) في الأصل "فصار الناما يكمن بين الأشجار"

^(٤) في الأصل "فقتلوا من عساكر الوداي حنة عظيمة.."

^(٥) في الأصل "فوتطن السلطان صابون.."

^(٦) في الأصل "يرمون عساكر الوداي بالحجارة لاغزو.."

اثني وعشرين نفرأ، فخرجوا مع العساكر حتى وقفوا أسفل الجبل تحسب شجرة كبيرة وعملوا حائطاً صغيراً أشبه بمتراش وكنوا خلفه، وكلما رأوا أحداً من الناما على الجبل يدحرج الحجارة أو يحرض على ذلك قوسوا عليه، فقتلوا منهم جماعة، وانتبه لهم الناما وقصدوهم بالأحجار فشذخوا منهم رؤوس جماعة، وكان عمى السيد أحمد باشا رئيسا عليهم، فلم يبق سليماً غيره، وستة أنفار واستقروا بجذع الشجرة وصاروا يقوسون بالبندق على التعاقب، وكان الناما^(١) يتعجبون من الرصاص كيف يصل اليهم إلى أعلى الجبل ويقتلهم، فمات منهم خلق كثير، وصاروا كلما رأوا دخان البارود هربوا وربما ناموا على الأرض فرصدتهم^(٢) المغاربة، وصاروا كلما رفع الثباب من الناما رأسه قوسوا عليه وأصابوه، ودلهم الأمر على ذلك إلى قرب العصر، فأنكشفوا، وصعد الوداي إلى أعلى الجبل، وفي صدر النهار جاء انسان إلى السلطان صابون وأعلمه أنه يعرف للجبل طريقاً سهلاً يمكن منه صعود العساكر بدون مشقة، فعين معه جنداً عظيماً وأمرهم بالتيقظ والاحتراز فتوجهوا معه فكان وقت صعود العساكر من جهة المغاربة هو وقت صعود العساكر الذين ذهبوا مع الجاسوس، فقتلوا من الناما خلقاً لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، ودخلوا بيت ملكهم فوجدوه بلقياً لم يجدوا فيه شيئاً، وفر الملك فلم يقع له على خبر، وحين سمع السلطان بفراره تأسف غاية التأسف وحزن واغتم، إذ لم يقع في يده، وأنزلوا من الجبل النساء والأولاد والبقر والغنم ما لا يحصى كثرة، وأمر السلطان صابون بهدم بيت الملك وإحراقه هو وجميع ما على الجبل من الأبنية (كما أمر) بكسر الأواني وقطع الأشجار وإن لا يتركوا للناما شيئاً ينتفع به، فمكث العساكر في الجبل نحو سبعة أيام يحرقون الدور ويكسرون الأواني ويحفرون في البيوت ويأخذون^(٣) الغلال حتى تركوا الجبل بلقياً كأن لم يكن به إبليس، ثم نزلوا من الجبل، فأرسل السلطان السرايا في الإيالة من كل جانب،

^(١) في الأصل .. وكانوا الناما تعقب من فرسان ..

^(٢) في الأصل .. فرصدوهم للمغاربة ..

^(٣) في الأصل .. ويأخذون الغلال ويحفرون البيوت ..

فمكثت قليلاً ثم رجعت ومعها من الغنائم شيء كثير، ومعها رؤوس القتلى على أطراف الرماح، ثم ذهبت مرات وعادت ودام هذا الحال مدة ثلاثة أشهر وعساكر السلطان يخوضون في دار تاما ويقتلون ويأسرون ويحرقون البنيان ويهيمونه ويكسرون الأواني ويأخذون كل ما وجدوه نافعاً حتى تركوها بلاقع، ولما حل السلطان بعد ذلك إلى بلده منصوراً مزيداً.

تبيية:

جبل التاما هذا ليس عالياً جداً^(١) وإنما يمر ملوكه لضيق طريقه ووعرها إلا ما كان من الطريق التي ذهب منها الجيش مع الجاسوس، وهو جبل واسع فيه أنهار دافقة وعيون بالسفة وأشجار مثقفة، وسعته فرسخان في مثلها ولها عدة بلاد غير بلد التامك.

تبيية أخرى:

قد قاسى أهل الوداي من التاما ما لم يقاسوه من غيرهم لأن في التاما من المكر والحد ما لا يوجد في غيرهم، فكان لا يقبل الرجل منهم حتى يقتل من الوداي اثنين أو ثلاثة، وكان التاماوي يخرج فيجعل نفسه ميتاً^(٢) فإذا اقترب منه الوداي يريد سلبه يصير التاماوي حتى يصل^(٣) الوداي عنده فيضربه بالسكين فيقتله، ولو كان التاماوي في آخر رمق من الحياة، ولولا كثرة الوداي وقلة التاما لما قتلوا عليهم^(٤)

تبيية أخرى:

لما خرج السلطان صابون إلى جبل التاما وبلغ ذلك السلطان محمد فضل فلن أن التاما يغشون الوداي، لما بلغه من حصانة جبلهم ووعر أرضهم، فجمع عساكره هو الآخر واستحضر أدوات السفر وبقي منتظراً^(٥)، وفي كل يوم يرسل أناساً ويأتيه آخرون، فكان كلما بلغه أن التاما قتلوا من الوداي أو غلبوهم يصر بذلك، وكان قصده أن التاما إذا غلبوا الوداي فسيرحل بجيشه ويدخل دار الوداي.

^(١) في الأصل: .. جبل التاما هذا ليس عالياً...

^(٢) في الأصل: .. وكان يخرج التاماوي فيجعل نفسه ميتاً...

^(٣) في الأصل: .. حتى يلقى الوداي عنده...

^(٤) في الأصل: .. لما قتلوا قتلوا عليهم...

^(٥) في الأصل: .. وعلى منتظرته...

وهم على ضعف، فيأخذ المملكة منهم ويجعلها تابعة لمملكة الفور، ويحتج على السلطان صابون (بقوله) إني كنت أريد أن أخذ لك حقتك من ملك اللاما فما صبرت بل حقرت ذمتي في رعيتي وغزوتهم بظلمك وتعديك لم تنصّر عليهم، وكان إذا سمع بأن الوداي غلبوا يغتم لذلك فما راعه الا والمنهزمون داخلون عليه أفواجاً أفواجاً يقولون: أغثنا يامولانا السلطان من السلطان صابون، فانه قتل رجالنا وسبي نراريانا ونساءنا ونهب أموالنا، وهدم دورنا وقطع أشجارنا وترك بلادنا بيتاً كأن لم تغن بالأس على حد قول الشاعر:-

كان لم يكن بين الحجون الى الصا أنيس ولم ير من مكتة سامر

فقام وقعد وعسر عليه، وكبر لديه، وقال حقرتي وحقرت ذمتي في رعيتي ونادى في عساكره بالأحبة، فاجتمع عليه أرباب دولته ومنعوه من الذهاب وقالوا له: الحق مع الرجل، فإنه اشتكى مراراً فلم تشكه فدعه يفعل ما أراد بخصمه ولا تتعرض له بسوء، الا إن دخل في إيالتنا فحينئذ يجب أن ندفع عن حريمنا وبلدنا فشطوده، وأنا إذ ذاك كنت في دارفور^(١)، وأن أباي أرسل لي بالتقدم عليه، وبعثنا تهيأت للسفر ومنعني (أي السلطان محمد فضل) عن السفر ولم يأن لي إلا بعد رجوع السلطان صابون من تاما الى بلده وقد ذكرت ذلك سابقاً فلا فائدة في الإعادة وحين بلغ الخبر الى السلطان صابون بأن السلطان محمد فضل اغتم لما حصل للتام من الخذلان والقهر، وعلم أن كل ما كان يرسله من الكتب كان خديعة ومكراً منه، وأراد (السلطان صابون) المبالغة في (اذلال اللاما) فمسير حتى رجع اهل الجبل الى جبلهم ورجع الملك الى مقره، وبنوا وسكنوا وزرعوا حتى قارب الزرع وقت الحصاد فأرسل أربعة قواد من أمرائه مع كل قائد أكثر من عشرة آلاف من الخيل والرجل وأمرهم بفساد زرع اللاما، وقطع ما خلف من الأشجار، وإحراق البيوت وكسر الأواني وأسر ما قدروا على أسره، وقتل من أمكنهم، وأن لا يغفلوا عن التيقظ والاحتراز، وأن لا يمشوا إلا ليلاً، ولا يخبروا أحداً بمقصدهم، وأن يتفرقوا في الجهات الأربع وأن كل قائد يفسد جهة، وأن الرسل تتردد بينهم ليكونوا على

^(١) أي من تلال كاتالانا في دارفور قبل أن يسير الى دهمي حيث كان يومه وروى السلطان صابون، كما سبق في نسخة في العمل

بصيرة من امرهم، فصار الجيش حتى نزل بدار تاما فعبث بالزرع وأتلفه وأحرق
 الأماكن وأغار وسبى (ثم) نزل لهم التاما^(١) وقتلهم قتالا عظيما، وباع السوداى
 أنفسهم فألبوا بلاء حسنا ونصروا على التاما، فهزموهم وقتلهم قتلا ذريعا وسبوا
 نساءهم وأولادهم وأتلفوا زراعتهم غاية التلف، وكروا راجعين ومعهم من الغنائم
 مالا يحصى، فضاق نزع ملك التاما لذلك، وساء حاله، وصار يأخذ الميرة من
 دارفور، وجلا عنه جل أهل البلاد حتى صارت البلدة التى فيها مائة رجل ليس
 فيها عشرة من الرجال، فلما رأى ملك التاما ذلك شكى حاله الى سلطان الفور،
 فأرسل له حبا^(٢) وبقرأ وغنما وأمره أن يفرقها فى جماعته وأن يأمرهم بعمارة
 البلاد وأرسل الى السلطان صابون كتابا يقول فيه بعد اهداء ما يليق بالملك
 السعيد:-

إن ملك التاما قد جوزى ببغيه وظلمه، وعوقب على تعديه وجرمه، والآن
 قد فاء الى أمر الله، وندم على ما فرط فى جنب الله وجاء تائبا، فأرجوك أن تتجاوز
 عن ذنبه، وتكف عن إذليته وعقبه، فلما وصل الكتاب الى السلطان صابون أرسل
 (اليه خطابا) يقول فيه:

قد وصلنى كتاب أخى بالاعتذار عن الخائن الغدار وقبل ذلك فرط منى يمين
 ولست فيه أمين أن أكرر عليه العقوبة حتى يعلم أن فى البيدا رجالا، من تعرض
 لها يلقي أمولا والخير بالخير والبيادى لأكرم، والشر بالشر والبيادى لأظلم ورحم الله
 الشاعر حيث يقول:

فبالنيل قتل والسوا امر عظم
 وبالنيل شل الغانط المنصوب

وليت شعرى اذا كنت تعلم أنه من اتباعك ويرعوى لأحكامك لم لم تقتر^(٣) على
 منعه حين رسلتك فيه مرارا وشكوت اليك سرا وجهارا أما كتبت لى تقول انه
 خالف أمرك السامى، وتعدى طوره وركبه متن النعامى فكيف ترجع الان بالشفقة
 والحنو عليه، وهل هو إلا لنيم قال فيه الشاعر العظيم:-

^(١) و الأصل .. و نزل التاما لهم.

^(٢) نزل ما غلبه من الحب، وهو القربة

^(٣) و الأصل لم لا تقتر.

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم ضحكته

وانى لحلف بأبائى الكرام ولجداى الفخام لا بد أن أعرفه^(١) قدره حتى أنه لا يتعدى
طوره، فالمعذرة إليك والسلام.....

فلما بلغ الكتاب إلى السلطان محمد فضل أحنافه لشدة الغيظ، وشارر لأرباب
دولته فيما يفعل مع السلطان صابون، فاخلفت أراؤهم فمنهم من يقول نغزوه
ونعرفه قدره، ومنهم من يقول نصالحه ونتركه مع صاحبه^(٢)، فأرسل إلى ملك
الناما يخبره بما حصل بينه وبين السلطان صابون، ولم تفت إلا أيام قلائل حتى
أرسل السلطان صابون جيشا كثيفا يتوف عن خمسين ألف فارس ورجال ودخلوا
دار الناما من عدة جهات واستاقوا جميع ما عرض لهم من الموالى، وأسروا من
النساء والأولاد، وقتلوا من الرجال ما الله به عليم، وكان من جملة الموالى
مولى ملك الناما وعبيده، فثار الصباح وبلغ الخبر إلى ملك الناما، فخرج بجميع
جيشه وقصد المعركة، وكان أحد ثوك الوداى ومعه نحو سبعة آلاف من الخيل
جاء من ظهر الجبل من الطريق السهلة الارتقاء فصادف نزول ملك الناما (مقنبا)
أثر الوداى (تاركا ذراريه وأمواله فأعقبه هذا القائد) بجماعته وصعد الجبل
واستاصل جميع ما وجد فيه من النساء والأولاد والماشية، ونزل سريعا وأوقد النار
فى البيوت واشتد^(٣) فى النكاية بهم.

وأما ملك الناما فإنه لحق الجيش وناوشهم القتال، فنفخوا الأموال أمامهم مع
بعض الجند ووقفوا لقتاله، فصدمهم بخيله ورجله فكانت بينهم ساعة بالها من
ساعة، وبينما هو فى المعركة إذ بلغه الخبر أن جميع مافى الجبل قد أخذوا
وأحرقت البيوت فتحير فى أمره فقسم جماعته حيث أخذ بعضها وتوجه إلى جهة
العسكر (الذين أخذوا الأموال والأولاد فى الجبل) لكنه لم يصادفهم لأنهم سلكوا
طريقا غير التى ملكها، وأما الجماعة الذين أبقاهم أمام الجيش فإنهم انهزموا بعد
ذهاب ملكهم وقتل منهم رجال كثيرون ثم تبعهم الوداى يقتلون ويأسرون ويأخذون

^(١) والاصل: لا أعرفه قدره....

^(٢) والاصل: ونتركه به ومن صاحبه....

^(٣) والاصل: واشتد النكاية....

الأسلاب، واقتحم ملك الناما المشقة وذهب يقص أثر القوم فلم يعثر عليهم حتى (تجاوزوا الحدود ولقيهم) في أول إيالة الوداي فلما رآهم خرجوا من إيالته خائفين لحق بهم وسمع به عقيد الصباح (سيقوم بتجيش الجيوش ومن ثم) إما أن يواجهه^(١) القتل أو الأمر، فالتكفأ راجعا وما استفاد من حركته تلك الانتقام، ولما رجع إلى الجبل وجد القوم قد اتوا خرابه^(٢) وأخذوا لبابه، على حد قول الشاعر:

كأن لمن بك رمعا ولم يك آملا وما خطرت يوما على قلبه منذ^(٣)

فعظم (الأمر) عليه وكبر لديه فجمع لأرباب شوره وقال لهم لروني كيف أصنع، قد فتحنا على أنفسنا باباً من الشر بمعادة هذا الرجل، كما أن سلطان القور قد خلى بيننا وبينه ولم يفعل^(٤) شيئا، فاتفق رأيهم أن يصالحوه ويجعلوا له عليهم مالا معلوما يؤدونه له في كل سنة (مقابل) أن يرفع عنهم الغزو، فكتب إلى السلطان صابون كتابا يقول بعد تقبيل الأقدام....

إن العبد اعترف بذنبه وأب إلى ربه والعفو من شيم الكرام، وقد رأيت أن أكون خائما للمدة الشريفة، وأريد أن تقرر على مالا أنفعه في كل سنة، وتؤمنني على أهلي ومالي كما تفعل مع بقية ملوك الطوائف الذين خدموا اعتابك وقاموا على بابك، وأطلب من مراحم مولاي أن لا يشتط علينا في الطلب ليوردنا بحار العطب، لأن الحال قد حال، والمال قد مال، والكف صفر والديار قفر، وأمل من الفضل مولانا نواله ومكارمه واجلاله أن لا يأتي رسولنا منه إلا بكتاب عهده لنا من الغارة الشعواء والمصيبة الدهماء، والسلام....

فلما وصل الكتاب إلى السلطان صابون وقراه وفهم مضمونه اجاب مؤاله وكتب له (قائلا):

^(١) في الأصل: "حارب" أي غلبهم وسمع عنده الصباح بنزولهم وتبعثوا به مائة من الغنم أو الخمرة منه..

^(٢) في الأصل: "لجأ" أي اتوا خرابه..

^(٣) البيت: كتابا من الكراب الذي خل بطار حيت هذا حيث ارتفعت من الربيع مع قومها لعماء وولف على مغلظة...

^(٤) في الأصل: "يؤمضل شيئا"...

أما بعد فقد وصلني كتابك وفهمت ما انتطوى عليه ومن جاعنا ثانيا قبلناه ومعتذرا
عزنا، وقد فرضت عليك في كل سنة مائة فرس وثق رأس من الرقيق شرط
أن تؤمن السبل وتعطي الطاعة حقها، وقد اجبتك الى سؤالك لقتاء بقول الشاعر:

اقبل معاذير من ياتيك معتذرا إن كان قد برّ فيما قال أو فجرأ

والسلام....

فلما وصل الكتاب الى ملك التاما وفهم مضمونه كتب الى السلطان صابون (قاتلا):
قد دخلت تحت طاعتك وصرت واحدا من جماعتك وأمل مولانا من مرحمه أن
يخفف عنا من عدد الرقيق فانا لا نقدر عليه لأننا في أرض ليس بجوارها فريت وأن
كان عندنا شيء من الرقيق فكله من الشراء لأمن الكسب، ولا تطيق أكثر من مائة
رأس في كل عام والسلام....

فلما وصل الكتاب الى السلطان صابون علم صحة قوله، فصنف عنه وقال يكفيني
أنه صار من أتباعي، وكتب له كتابا يقول فيه:

من حضرة عبدالله أمير المؤمنين^(١) السلطان محمد عبدالكريم صابون العباسي إلى
كل من يتف على كتابنا هذا من الوزراء والأحفاد والأمراء والقواد، دلم إجلالهم،
أما بعد... فإن الملك أحمد ملك التاما قد التمس من مرحمنا أن نكف عنه الغارة
ونأمنه في أهله وأولاده ورعاياه وبلاده وأن يكون واحدا من رعايانا وشرط على
نفسه أن يدفع لنا كل سنة مائة فرس ومائة من الرقيق، واعتذر عما مضى من
أفعاله فقبلنا عذره ورضينا شرطه، وشرطنا عليه أمن السبل وأن يكون مواليا لمن
والانا ومعاديا لمن عادانا، فإذا فعل ذلك فعليه منا أمن الله وأمان رسوله، فلا تلج
خيلنا دياره ولا تنزع آثاره، وقد أرسلنا اليه على وجه الهدية سيفا وخلعة علامة من
مكارمنا على تثبيتته في ملكه مادام متبعا للسنة والكتاب واقفا على قدم العبودية
على الأعقاب مؤديا لما فرضناه عليه ممثلا لأوامرنا العلية التي تصدر إليه..
والسلام.....

^(١) هذا القبط ملحق من دولون مصر العباسي وكذلك مصر الرشدي حامية كتابات الخلفاء مصر من الخطب رضى الله عنه لهذا لقب "العباسي" فكما ورد من قبل بأن سلاطين الروم يدمرون الانساب الى العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأخرج والمسلطان سيفاً وكسوة وأرسلها (إليه) صحيفة الكتاب فلما وصل الكتاب
إلى ملك التاما فرح غاية الفرح، وجهز المائة فرس والمائة رأس من الرقيق ففى
الحال وأرسلها مع أحد نوى قرابته فلما وصل إلى والده وأخبر بها السلطان أمر
بحضوره بين يديه وإذا بيده كتاب (جاء) فيه:

من عباده أحمد ملك التاما خادم أمير المؤمنين إلى حضرة أمير المؤمنين وخادم
الحرمين الشريفين سيدى وابن سيدى السلطان محمد عبدالكريم صابون بعد تقبيل
مواظىء أقدامه، والدعاء له بنصر أعلامه أن التواصل لحضرة سعادتك ابن عمى
وأعز الناس عندى وصحبته ما هو مقرر على عبدك من الخيل والرقيق، وأرجو
من مكارم سيدى وتفضلك أن ينعم بقبولها مع غض الطرف عن قبحها وحسنها
وأسال مولاي أن ينمى سعادتة ويؤيد سيادته والسلام.....

فلما قرا السلطان كتابه أعجبه منه تواضعه، وقبل المال وكان كله مختاراً من
الخيل المسومة والرقيق المنقح، فأكرم الرسول وأنزله أحسن نزل، ثم كتب له كتاباً
بوصول الاموال، وكساه وأرسله إلى ملكه.. اهـ.

ولما بلغ الخبر إلى السلطان محمد فضل بأن ملك التاما قرر على نفسه فى كل
سنة مائة رأس من الخيل ومائة رأس رقيق أشتاط غضباً وقال كيف يكون تابعى
ويجعل على نفسه لغيرى مالا، هذا شيء لا أرضى به، إما أن يكون تابعى
خاصة، أو يكون تابعاً لغيرى، خاصة، وفى الحال كتب إلى ملك التاما يقول له:
إبه قد بلغنى أنك قررت على نفسك مائة رأس من الخيل ومائة رأس من الرقيق
للسلطان صابون ودفعت له مال سنة وجاءك منه كتاب بالعهد والتثبيت فى مملكتك
والحال أنك لى تابع، ولأعتابى منسوب فقل (لى) أقدر على دفع ديوانين، أم تريد
أن تنزع طاعنى وتكون للسلطان صابون خاصة أم كيف الحال. فلما وصل الكتاب
إلى ملك التاما أرسل إلى السلطان محمد فضل كتاباً معناه أن سيادتك أرسلت
تستفهم منى فاعلم سعادتك أن ما بلغت صحيح، وأنى على ما تعلم من دفع المبلغ
لأعتابك كما كتبت (وانى) إنما دفعت هذا المال وقاية لعرضى ومالى وفداء عن
نفسى لأنى الآن ضعيف، وقد نهكتنى الحرب، وهذا الرجل لا أقدر على محاربته،
فلما أفعل ذلك مهانة حتى أقتوى وأقطع يد الطاعة بعد ذلك ولا أبالى والسلام...

فلما وصل الكتاب الى السلطان محمد فضل اعلمان وصفا خاطره بعد التكرار
ولما السلطان صابون فانه بعد ان علم ان ملك الناما صار من اتباعه امر التجار ان
يذهبوا الى بلاده ويبيعوا بضائعهم للناما^(١)، إما نقدا وإما نسيئة^(٢) وكل ذلك قصده
ان يعرف هل هذا الصلح صحيح، أم هو أمر ظاهري فقط، فسلكت الطريق ووقع
الامن وزال الخوف، ودخل الناما بلاد الوداي ينادون من وجدوه من أولادهم
ونسائهم ونوى قرابتهم ومن قتلوا على سرقته مرقوده، ومن قتلوا على إغرائه
على الفرار أغروه حتى خلصوا من أولادهم ونسائهم جمع غفير، (وحيثما) علم
السلطان صابون بذلك لم يمنعهم^(٣) لما بينهم من عقد الصلح، بل قال لهم كل من
وجدتموه سارقا لاحد من الرقيق (الناما) اذنتكم بقتله، لأن هذا خيانة والخيانة ضد
العهد لما من أظهر نفسه وطلب الفداء فلا لوم عليه، واشتغل السلطان صابون
بأحواله.

وفي تلك الايام جاء^(٤) الى السلطان صابون أعرابي من عرب بلدية درنا
وابن غازي جاء به اتلس^(٥) من القبيلة المسماة بالبنديات^(٦) وهي قبيلة من الأعاجم
يسكنون أطراف الوداي وهم بأعراب البادية أشبه فاخبروا أنهم وجدوه ضالا
يلتدري أين يتوجه وقد أثر فيه العطش تأثيرا شديدا وأنهم مارأوه إلا في آخر
رمق من الحياة، فسقوه الماء وأراحوه في بلديتهم نحو شهر، ثم قنعوا به الى

^(١) في الأصل: "على الناما".

^(٢) نسيئة: "أي مديونة وهو أسلوب متبع في المظلية ثم حرمه القرآن..."

^(٣) في الأصل: "يوعلم السلطان بذلك لما حذر عليهم".

^(٤) في الأصل: "وصل الى السلطان".

^(٥) في الأصل: "قدموا به على السلطان".

(٦) البديات: من مجموعات الرعثة كانت معارهم الأولى في وادي Wun ووحدة Wanyanga على الحدود الميمنة الشاذية لم
هاجروا تدريجيا من الشمال الى الجنوب وتغير مظهرهم لم حرم المركز الرئيسي الأول لبديات بعد هجرتهم، لم يوسعوا أحواض
مطقة هي في الغالب وتتكون مجموع البديات من عدة عشائر تنقسم بقورها الى قسمين رئيسيين هما: البليات Bilil وبنواحمسون
فريق لما والبرولت ويسكنون غرب وادي، والبرولت اعلمت عدة البديات في ابيدي في السهول من القرن التاسع عشر محسوس
عشرين ألف نسمة ولكن هنا العدد قد قلص وهاجر عدة منهم الى نيسن وسكنوا وسط القرع ورج آحرون الى وادي هبور
كما هاجرت أعداد مغيرة منهم الى قار زعرة واستقروا في الماء القرموز واليوم اعتداهم في السودان اكثر من أعدائهم في تشاد.

مطبعة: Nachtigal, Sahara and Sudan, iv Wadai and Darfur, London, ١٩٧١. P. ١٣٧.

السلطان فسأله السلطان ممن أنت^(١) فقال أنا من القبيلة المسماة بأولاد علي^(٢)
خرجنا نحو خمسين فارساً طائيين المكسبة والغزاة على السودان، فضللنا الطريق
ونفذ الماء، فأرسلوا منا ثلاثة يبحثون عن الماء فكنت أحدهم فضلت وهمت
وصرت لا أرى أين أتوجه فركض فرسى حتى كل وتعب وما بقي به حراك،
فنزلت عنه وتركته وصرت أسمى راجلاً بعد ذلك ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع اشتد
بى الحر وعطشت وكنت أموت ظمأً ولولا قيض الله لى هؤلاء السودان لميت،
فقال له السلطان كم مكنت بدون شرب ماء فقال له: ستة أيام ماذقت فيها ماء^(٣)
فصار الناس مابين مصدق ومكذب.

وكنت اذ ذاك خلصت من سجن سلطان الفور وقدمت على وداى فاجتمعت
على ذلك البدوى وكان اسمه علياً^(٤) فسألته عن قصته فأخبرنى كما سمعت، فأنعم
عليه السلطان ببعض الرقيق وأربعة خيول^(٥) وأعطاه عشرة من العبيد علمهم
التقويس بالبندق وأصابة الغرض، فكثيراً ماكان يقول لو أعطيت إننا بالذهاب من
الطريق التى جئنا منها لكثير الخير على السلطان، اذا سلكت، لأنها أقرب الطرق
الى بر العرب، فلما سمع منه السلطان هذا الكلام أخرج قافلة ونادى فى الملأ^(٦) الا
كل من يريد التجارة الى درنا وابن غازى فليجهز نفسه ويخرج مع هذه القافلة
وأرسل وراءه مشايخ البديات فاحضروهم وأمرهم أن يتوجهوا بالقافلة (عبر بلادهم)
وأن تكون فى ضمانهم الى المكان^(٧) الذى وجدوا فيه البدوى والى التزم البدوى
بإستدلال القافلة بعد ذلك الى الطريق (التي سلكتها) فخرجت قافلة عظيمة وصحبها
السيد الشريف احمد الغامسى الذى كان استوزره السلطان عوضاً عن والدى وهو

^(١) فى الأصل من أنت " أى من أى قبيلة أنت وهو نحو معارف عليه فى نسخة ودارفور

^(٢) أولاد علي : قائل مرة تسمى فى الواحات الشرقية ليبيا على الحدود المصرية ومحمد معارهم الى الغرب العرب والصحراء مصر.

^(٣) هذا الخبر قد شىء من الشائعة لأنه بحسب القاموس الطبية فى الأصل لا يستطيع أن يمشى ستة أيام دون شربة ماء خاصة فى مثل تلك
البيئة الصحراوية القاحلة.

^(٤) فى الأصل " وكان اسمه علي... وهو خطأ والصواب علياً..

^(٥) فى الأصل ".. وأربعة سواد..."

^(٦) فى الأصل " ونادى فى حشود وجمود..."

^(٧) فى الأصل ".. الى حيث ملو عدوا به البدوى.."

رجل من فضلاء ^(١) اهل العلم وأجلهم، جيد الحفظ والرواية متعمقا ^(٢) في الفقه وكتب الحديث، يحفظ موطأ الإمام مالك عن ظهر قلب ^(٣) وله إمام بفن التشريح ^(٤) ولقد رأيته يقرأ في الدروس وحضرته في تشريح العين، وتكلم عن ذلك كلاما جيدا وأما علم المعقول فله فيه ما يقوم لسانه ويصح فكره لكن مع ما أعطاه الله من الفضل كان أحق وحر الصدر، فاستوحش فيه أهل البلد ونقل عليهم أمره حتى أدى الأمر إلى أنهم قتلوه كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى..

تبييض:-

لما فرح السلطان صابون باكتشاف ^(٥) هذه الطريق مع أن أهل الوداي من قديم الزمان لا يعرفون إلا طريق فزان، ومنها تجلب لهم جميع المصالح (وذلك) لما حصل من السلطان المنتصر الشريف ^(٦) في حق والذي حين سافر بأموال السلطان صابون وأراد الذهاب بها إلى طرابلس المغرب، وأراد المنتصر قتله فلما بلغ السلطان صابون ذلك تكرر خاطره منه، ولو لا مشقة البعد وما بينهما من المفازات المعطشة لغزاه، وحين سمع بهذه الطريق فرح واجتهد في سلوكها (وكان) سبب تغيير السلطان المنتصر على والذي (هو أنه) لما أراد التوجه إلى تونس تذاكر مع السلطان صابون في شأن ذلك، والتبس منه الآن في السفر ^(٧) فماله السلطان

^(١) في الأصل وهو رجل كان من فضلاء أهل العلم...

^(٢) في الأصل "متعمقا في الفقه.."

^(٣) في الأصل "عن ظهر قلب.."

^(٤) التشريح: الذي قصده الباحث هو علم الجراحة الطبية

^(٥) في الأصل: باكتشاف هذه الطريق..

^(٦) السلطان المنتصر الشريف: هو من السلاطين الشافعيين في حكم فزان، دلت أن مدغم الكبر وبذم المنتصر محمد العباسي بحسن من أسرة مغربية حكمت فزان، منذ عام ١٥٧٨ في عهد الأتراك بعد أن انتشر إليهم ضرورة الاستيلاء على فزان لأن ذلك سيسكنهم منس التحكم في أهم طرق القوافل التجارية وبلغ لهم الأثر في الطريق واسعة التوغل في بلاد السودان ليرتد إلى أن الولا رأى في الحملة على فزان فرصة للتخلص من شعب الغزو وعزلهم إلى مبادي بعيدة من العاصمة طرابلس بعد أن بلغت تعددهم هنا حول الوصف بعد موت درطوت غرفت طرابلس في موجة من القوم والأرباب وكانت الاخلاصات العسكرية والقب رزوز الولا النما المنطقة لدى حد الانكشاف ولما انتصرت الولا هذه الحملة ونزل المنتصر حكم فزان واستمرت في عدة لمدة ثلاثة فزون حيث كسب مؤامرا تونس عن لحياتها في هذا الكتاب. يتر: مصطفى حرملة، الربيع فزان، لحنق حبيب وداعة الحلووي جامعة الحاج-ليبسا- ١٩٧٩، ص ٥١.

^(٧) في الأصل "في السفر في السفر.."

صابون (عن) أى البلاد بعد فزان، فقال له والدى طرابلس، فقال له السلطان لابد
 أن أثمان الرقيق فى طرابلس أعلى من أثمانها فى فزان، وأثمان البضائع فى
 طرابلس أرخص من أثمانها فى فزان، فقال له والدى نعم، فقال له السلطان هل لك
 فى أن أرسل معك رجلا من أمانتى ومع رقيق لى فتبيعه لى فى طرابلس
 وتشتري لى ثمنه كذا وكذا من البضائع، فقال له والدى حبا وكرامة، فعين السلطان
 صابون رجلا من أمانته وأرسل معه ماينوف عن ثلاثمائة من الرقيق وأمره أن
 يكون تحت طاعة والدى، ياتمر بأمره وينتهى بنهيه، فلما وصلا الى فزان وكان إذ
 ذاك متوليها السلطان محمد المنتصر فرح بقدم القافلة لأن أكثر مذاقها منها، فباع
 التجار رقيقهم فى بلده وأبى أبى أن يبيع فيها وكذلك أمين^(١) السلطان صابون، فلما
 بلغ الخبر الى السلطان المنتصر دعا بوالدى وقال له، أنت الذى نالست سلطان
 الوداى على إرسال رقيقه الى طرابلس وعدم بيعه هنا، فأنكر ذلك والدى، وقال له
 إن السلطان صابون بلغه الخبر أن الرقيق فى طرابلس أغلا منه فى فزان، فأرسل
 رقيقه مع خادمه وأمره أن يتوجه الى هناك، فقال له: لم تجر عادة بذلك، ومواقع
 هذا الاستدلال وأظهر له عين الغضب، ولو لا أن الله أمسك لسانه لقل خنوه،
 وخرج والدى من عنده فى غاية الغم والخوف على نفسه وماله، ولما كان عند
 المساء جاءه الحاج عثمان وزير المنتصر وقال: يامولاى تدرك أمرك بهدية
 وقمها الى السلطان عسى أن تنفعك، فإنه مضمرك لك سوءاً، فلما سمع والدى منه
 ذلك أخرج من أحسن الجوارى متناً، فادخلين عليه هدية، فرفض أن يقبلين، فشفع
 فى قبولين الحاج عثمان المذكور، فحصل منه الصنف وإن كان بقى فى نفسه
 مابقى، وتلافى والدى أمره وخرج مساقرا الى طرابلس، فدعاه السلطان وأمره أن
 يأخذ تابع السلطان صابون ورقيقه معه فأبى وقال معاذ الله أن أخذه معى، ومالى
 وله، هو رجل من طرف السلطان وأنا رجل غريب لاعلاقة لى به، فاصر^(٢) عليه
 السلطان المنتصر أن يسافر معه، فأبى والدى وحلف إلا يصاحبه فى طريق،
 وخرج والدى الى طرابلس وترك أمين السلطان صابون فى فزان ليلاحقه فى

^(١) فى الأصل "وان ان كان مع لها هو أمين السلطان كذلك".

^(٢) فى الأصل "فأصر عليه السلطان".

طرابلس بعد أيام حين بلغ الخبر إلى يوسف باشا^(١) حاكم طرابلس أن المنتصر فعل كذا وكره قدوم هذا الرقيق إلى طرابلس أضمر له سوءاً، لأن فزان من أعمال طرابلس والباشا هو الذي ولي المنتصر عليها، ثم عظمت الأمور بينهما إلى أن آل الأمر إلى قتل المنتصر واستيلاء محمد المكنى^(٢) حاكماً عليها من قبيل يوسف باشا.

وبين ذلك أن يوسف باشا بعد أن وصل إليه والذي وأعلمه بما حصل من المنتصر، حقد عليه وفكر في حيلة يكيد بها، ليظهر عصيانه، فاستشار بعض أرباب دولته في ذلك فأشاروا عليه بأن يرسل بضاعة إلى برنو على طريق فزان مع أمين له بكتاب معه من عنده على عامل فزان وكتاب إلى سلطان برنو فتدب محمد المكنى إلى ذلك وكان محمد المكنى قبل ذلك أحد حبابه، فأرسل معه أربعة أحمال من البضائع خلاف الهدايا وجهزه وأمره أن يسافر إلى برنو عن طريق فزان، وكتب إلى المنتصر كتاباً يقول فيه:

^(١) يوسف باشا فرماشي: جاء بعد حكم والده الطويل والذي استمر من ١٧٤٥ وحتى بداية عام ١٧٩٣ حيث سادت الأحوال المضطربة بسبب الثورات التي بدأت في عهد أبيه، وانسدت في أيامه حيث عرفت الدولة في العيون الاحية لعمل ذلك من غاية حكمه وولته انه على باشا امر صلافة الاسرة التي كانت مصر من دفع العيون الاوربية، فتمت مرسة والعقرا الى صرب طرابلس بالافاق معول على انهاء من افكره، وبذلك انتهى عصر الاسرة التي كانت في الدولة العثمانية من ناحية الرعية والسياسة والسياسة والسياسة.

ولت حق بها العرو الايطالي عليها عام ١٩١١م.

بشر: مصطفى حرمه، لرحمة من ٥٩.

^(٢) محمد المكنى: جاء في رواية في العلون: (وكان بالخطا لولاد المكنى على محمد المكنى) ومما ينبغي ان اسره المكنى المكنى حواء بعد الاسرة الى طرابلس في ولاية درموت باشا في مجموعة من المصنفين لسلطانها بالبحارة والرياسة والاصافة لهما لم في ذلك ومن المكنى رئيسا لمرميه واستطاع المكنى ان يجمع حوده وبكس قلة الوالي ويعمل على عبودية المكنى لمرميه الاولى، ونحو اسرة المكنى من كبار اشراف طرابلس ولهم بها الحود سياسي واقتصادي كبير، وهم اقلية راحة مع السود وكنوا يجهلون المرميه دائما لكون لهم حود وسهولة على الطرق البحرية بين طرابلس والسودان، ول محاولة احتكار هذه البحيرة حللوا المصالح السلطنة العثمانية في طرابلس لاصحابهم حكم في مطالب تلمون لمرميه القوي في تلك الاثناء ودفع حراحيها بصورة متخمة لمرميه الاولى، ذلك الخسار الذي كان يشكل موردا دائما من مورده الاولى، وقد رز محمد المكنى كأحد كبار مساعدي باشا طرابلس ومن الطريق اليه، وكانت له اليد الطولى في جمع الثروات ولحق صاحب تول يوسف باشا ولاية طرابلس فكان يمنع منعية كوي وعندما تول والده لقتل عليه لقب "بن التوبة" في السلون من جمع الخراج من فرقة فكان يسفر اليها في كل عام لتسلم الخراج حتى حدثت هذه القصة التي ذكرها كتابا واستولى بذلك المكنى على حكم فرقة بشر مصطفى حرمه: تاريخ فرقة من ٧٥.

بشر: مذكرات الرحالة الايطالي جون فرانسيس ١٨١٨، ترجمة د. مصطفى حرمه، الدار العربية للكتاب طرابلس ١٩٩٠م.

الى حضرة ولدنا العزيز محمد المنتصر وثابتنا بإيالة فزان أما بعد: فإنه قد تعينت
لرأيتنا بتوجيه تابعنا المكرم الأجل محمد المكنى الى دار برنو ببضائع للسلطان
البرناوي^(١) وكتاب وهدية، ولما ناه أن يتوجه بها عن طريق لياتكم فهو ولود اليكم
وواصل ان شاء الله بين يديكم، فإذا وصل اليكم المذكور يتسنى أن تلقوا نظركم
عليه، وترفقوه بقائلة متوجهة الى دار برنو، وإن أحتاج الى ظهر أو دراهم
فاعطوه على طرفنا ونرجو ألا يكون منكم في ذلك تقصير... والسلام...،

فلما وصل محمد المكنى الى فزان أنزله السلطان المنتصر في دار الانزال
وأكرمه ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع توجه اليه المكنى وأعطاه كتاب الباشا، فلما
علم ما فيه غافله ذلك، وسكت على مضض، وصانف حلول المكنى في فزان
خروج قافلة متوجهة الى برنو، فصحبها المكنى وتوجه معها، وغلب نحو ستة
أشهر، وجاء معه من الرقيق شيء كثير، فدخل فزان وملاً أربع دوز^(٢) بالرقيق،
فلرسل السلطان محمد المنتصر الناس للمكنى يلتمسون منه شراء الرقيق، ليأخذ
المكسب من المشتري، فلبى المكنى أن يبيع منه شيئاً وقتل: هذا مال الباشا ولم
يأذن لي في بيعه هنا، ثم طلب من المنتصر أزواجا يثوبت بها الرقيق وشدد في
الطلب، فاشتاق المنتصر منه وكتب له أوامر الى عامل سبها^(٣) أن يعطيه ما يطلبه
وقال له: أرحل والافتك، فخرج المكنى على غير صورة^(٤)، وتوجه بالرقيق الى
سبها، وطلب من العامل أن يعطيه الأزواج، فلبى وقتل: ليس للسلطان شيء
عندي، فالتح عليه المكنى في الطلب، وقال له: أعلم أنك إذا لم تعطني ما طلبته
ومات (عدد من^(٥) الرقيق) سيفرمك الباشا ضعفه، فخاف العامل وجمع له من
الزاد ما لرك، وطلب منه ظهراً^(٦) فاكترى له ما يقبله، وسافر حتى لقي الباشا، وقد
مات له من الرقيق جملة، من التعب وعظم الراحة فسأله الباشا عن سبب موت

^(١) كانت أعمال البحارة من برنو وطرابلس وغيرها من العصور الوسطى فند كان طريق طرابلس من برنو أحد الطرق المهمة التي
يسلكها التجار برنو وطرابلس وغيرها.

^(٢) دوز: هو نوع من الخمر التي تحت تدون لبرنو الرقيق، ويسمى منها سبها من الرقيق، وكانت برنو أحد الأسواق المهمة خلف الرقيق من برنو.

^(٣) سبها، أو سبها: إحدى المدن القريبة الكبرى في وسط الصحراء صحراء، وهي الحطة الرئيسية للتجارة في بلاد السودان.

^(٤) كلمة عن التعب والخوف والذي لحق به بعد تحديه للتصحر.

^(٥) في الأصل: ومات له شيء.

^(٦) الظاهر: هو دابة الركوب.

الرقيق، وعما فعل معه المنتصر فأعلمه بجميع ما حصل، فأغتنظ الباشا لذلك وأضمر له سوءاً، وبعد أن راق بالله (أي المكنى) لرك الباشا أن يجرد عسكريا لفران يقاتل المنتصر ويملكها له، فسمع محمد المكنى بذلك فحضر أمام الباشا واستأذن في التكلم فأنن له، فقال: إنه قد بلغني من سعادتك أنك تريد أن ترسل عسكريا لفران، قال نعم، قال كم ترسل من العساكر، قال الباشا نحو أربعة آلاف، قال ليحسب مولاي كلفة الأربعة آلاف من أرزاق ولقوات وظهور وحافر وسلاح وبارود (فقام الباشا بحساب ذلك) فكان أكثر من خراج فران، لأن خراج فران إن ذلك نحو خمسة آلاف فراتسة في كل سنة، وكلها ليست عينا بل العين منها الثلث والثالث الثاني رقيق، والثالث جنازير وقيود وجلود ونحو ذلك، وذلك لكون الجنازير والقيود ياتي^(١) أهل القوافل بكثير منها لأنهم يجعلون العبيد الكبار في الجنازير بالنهار حتى وهم سائرون ويقيدونهم بالقيود في الليل، فعندما^(٢) يأتون إلى فران ويبيعون الرقيق تبقى عندهم القيود والجنازير بلا منفعة ولا فائدة في عونتهم^(٣) بها إلى السودان، فيبيعونها بلرخص ثمن، وكذلك الجلود، لأنهم يأتون بأجربة^(٤) من جلود البقر فيها لزود الرقيق، ومتى باعوا الرقيق باعوها أيضا، فقال أي المكنى كيف يصرف مولانا من المال ما يزيد على خراج ستة سنين، فقال الباشا وكيف اصنع، فقال المكنى إن أنعمت عليّ بحكم فران ثلاث سنين دبرت لك أمراً لا تكون فيه خسارة عليك: فقال الباشا قل له فإن كان صوابا حكمتك في فران ست سنين، فقال المكنى: الرأي عندي أن تكتب أوامر لجميع من له شوكة في فران بأن ولينا أحمد ابن عم المنتصر سلطانا عليكم، فإياكم أن يستفزكم المنتصر وتقاتلوا معه، والحذر من الخلاف (ولن) تكتب لأحمد منشورا بالتولية وعزل المنتصر، ثم تكتب لي فرمانا بولايتي وتعطيني مائتي فارس وألفي ريال فراتسة^(٥) وعشرين كسوة وخلعة للسلطان أحمد وخلعة لي، وأن ادبر أمري في ذلك، ففرح

^(١) في الأصل مخرج

^(٢) في الأصل "فما..."

^(٣) في الأصل "في عونتهم"

^(٤) الأجرة: جمع حربة، والحرب إزاء، يصح من عند المراد النسب والخط في الأمانة حربة الحروب والحمل في الجمع التهمة.

^(٥) ريال فراتسة: هو الريال الفرنسي الذي كان يعد أحد العملات الرئيسية في خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

يوسف باشا وأخرج معه مائتي فارس، ووازره بكاتبه الخاص المسمى بالزروق، وأعطاه ثلاثة ألف فراتمة وثلاثين كسوة، وخلعتين ملوكيتين وأعطاه من الجمال ما يقبله ويقل عساكره، وأخرج من طرابلس وتوجه إلى قزان وما زال ينجذ في السير حتى وصل إلى البلد المسمى بسوكنة^(١) وهي أول بلاد القزان فنزل بها وأرسل إلى رئيسها فأحضره، وبمجرد حضوره التقى عليه كسوة جميلة وقرأ عليه المنشور الخاص به وفيه الإنذار والتحريض على عدم مساعدة السلطان محمد المنتصر، وأن الولاية لابن عمه أحمد، فقال رئيس البلدة ووجوه أهل البلد سمعاً وطاعة وأصبح مرتحلاً من هناك بعد أن كسا من وجوه أهل البلد ما يستحق الكسوة، التي أن أتى للمحل المسمى بسببة، فأحضر رئيسها وعالمها الشيخ عبدالرحمن، وأخلع عليهما^(٢) وقرأ لهما فرمان الباشا، فاذعنا بالسمع والطاعة، وأصبح راحلاً إلى أن حل قرب المدينة، وهي قاعدة المملكة وتسمى مرزق^(٣) فأرسل إلى المنتصر يقول له، إني جئت بأمر من الباشا لريد أن تحضر عندي لتسمعه، أو تأذن لي بالدخول إلى عندك، وكان المنتصر قد بلغه الخبر قبل وصول العساكر فاشغق أبواب المدينة ووضع الحراس بالبنق وأمرهم أن يضربوا كل من دنا من السور من العساكر، وأن يبذلوا الجهد في الاحتراس ففعلوا، وجاء المكنى بعساكر فلم يدعه^(٤) يقرب من السور، وكان المكنى قد جلب معه مدفعين صغيرين بعجلتهما (حملاً) على الجمال فوضع المدافع وركبها على العجل ورمى بهما على السور، فأثر فيه، وأصابته إحدى الكرات^(٥) يد رجل فذهبت بها، ولما كان من الليل دعا

^(١) قرية سوكنة تقع على الطريق التجاري بين طرابلس وقرية القوم على وادٍ رحب تحدها من الجنوب الجبال السوداء، ومسال ودان من الشرق ومن الغرب سلسلة جبال بعلقة وكانت تتبع لولاية طرابلس.

انظر: كتاب من طرابلس إلى فران مذكرات الرحالة الألماني جونا فرنسيس ليون من ٥٧ - ٥٨.

^(٢) وأخلع عليهما "أي كساهما بالخلع السلطاني".

^(٣) مدينة مرزق هي مدينة إقليم قران، وتبعد عن طرابلس مسافة حوالي شهر بالجمال، وتعتبر أهم محطة تجارية بين بلاد السودان وطرابلس، وله أهميتان لكونها عتفاً على من الفصل في هذا الكتاب.

انظر: من طرابلس إلى فران ومذكرات الرحالة الإنجليزي فرنسيس ليون من ٧٢.

^(٤) في الأصل "فلم يدعه".

^(٥) إحدى الكرات "أي إحدى القنابل المدفعية".

المكنى برجل وأعطاه كتاباً وأمره أن يتصور السور ويذهب به إلى أحمد، وكان الرجل عياراً سلالاً، فاخذه وتسلق من السور

ولم يره^(١) الحرس، فتوجه به إلى أحمد وأعطاه إياداً، فلما فضه وجد فيه:

إلى حضرة السلطان أحمد، أما بعد.. فإنا جننا بأمر من حضرة الباشا وإبك أنت السلطان، وأن المنتصر معزول، فإذا أتاك كتابي هذا فقم واجتهد في إطفاء الفتنة وافتح الأبواب وخالف المنتصر في كل مايفعله.. والسلام،،،

فلما علم مضمونه قام قائماً ودخل على ابن عمه المنتصر وقال له: أنت ابن عمي، وأنا وأنت رجل واحد قال له نعم، فقال له أحمد فإذا كان كذلك لم أفتحت الأبواب ووضع الحرس وأمرته بالقتال، فقال (المنتصر) يا ابن عمي إني أخاف أن تكون حيلة دبرت علينا وعاقبتها تكون سوءاً، فقال أحمد دع عنك هذا الفعل وافتح الأبواب والاقبلتك، (ثم) نادى في العسكر فأقبلوا عليه^(٢) وقال لهم: كل منكم في رتبته التي هو عليها يزيد ولا ينقص وقد آل الملك إلى فافتحوا الأبواب وأنزلوا الحرس، فقالوا سمعاً وطاعة، وقاموا وفتحوا الأبواب وأنزلوا الحرس، وخرج السلطان أحمد بنفسه وأدخل المكنى بعساكره وأنزله بدار الضيافة، واستضافه تلك الليلة، ومن الغد أرسلوا لأرباب الدولة كلهم، فحضروا إلى الديوان وجاء المكنى والزروق وقام الزروق واقفاً على قدميه فقام كل من في الديوان (ثم) قرأ عليهم كتاب تولية أحمد، وعزل المنتصر وكان مضمونه (بأن):

صدر هذا الأمر العالي من حضرة الوزير يوسف باشا قراماتلي إلى حضرة علماء فزان وأمرائها وعساكرها ولجناتها، أما بعد، فإن محمد المنتصر قد أعطى نعمة فلم يرعها، وولى ولاية فلم يرد إيقاءها وأطلق لنفسه هواها، فرعت في أوخم المراعي ونسي قوله عليه الصلاة والسلام: "كلم راعٍ ولم يكنه ذلك حتى عصي أمرى مراراً، وقد نصحته مراراً وجهاراً، وحين لج في طغيانه وعصى عن إصلاح شأنه عاقبته بعزله عن منصب فزان، ووليت عوضاً عنه أحمد الناصر العظيم الشأن، فاسمعوا له وأطيعوا وقد أمرناه بتقوى الله فيما ولى عليه، وإن يعاملكم

^(١) في الأصل "ولم يره"

^(٢) في الأصل "مقبلوا عليه.."

بالتشرع الشريف في جميع الأمور لديه، وبذلك ينجو من القصاص يوم يؤخذ بالتواصي، والحذر ثم الحذر من الخلاف والسلام.. ولما أن أتم الكتاب قام هو على النيران ودعا للباشا وللسلطان، وضربت النوبة السلطانية وأطلقت المدافع ووقد^(١) الناس لتهنئته وقام الزروق والمكنى وخرجا إلى محل سكناهما، وأقاما فيه ثلاثا ثم اجتمعا بأحمد الناصر وقالوا له: إعلم أننا نريد الرجوع إلى طرابلس ونخشى عليك عائلة المنتصر بعد ذهابنا، ونحن لك من الناصحين وعليك من الخائفين، فإن كنت تقبل نصحننا فاقبض على المنتصر واستصف أمواله، ثم اقله، وإلا فما دام حيا فإنه يتنصص عليك ولا يستقيم لك أمر والسلام، فلما سمع أحمد كلامهما قام من وقته وساعته وقعد في ديوانه ودعا بالمنتصر فلما حضر أمر بالقبض عليه، فقبض عليه، فقال له المنتصر: لم قبضتني، فقال له إعلم أنني وليت هذا الأمر، وليس في خزينتي من المال شيء ومال المملكة كله عندك، فإن أردت أن أطلق (صراحك) لنفخ جميع المال الذي عندك، ثم أمر به إلى السجن فسجن حتى دفع جميع ما عنده من المال والمتاع، ولم يبق في بيته شيء، ثم أمر بخنقه بالليل (فقتل) ولما شاع الخبر بموته دخل المكنى مع الزروق على السلطان أحمد وهو جالس في ديوانه، فطلب منه المكنى المال الذي أخذه من المنتصر وقال له هذا (المال) للباشا، فدفعه إليه السلطان أحمد بقوائمه ثم قال له المكنى: اننا نريد السفر لأن قران ليست بدار إقامة فهبىء لنا ماصرفه الباشا على العساكر، فقال له السلطان أحمد ألم تكن قد أخذت جميع أموال السلطان المنتصر، قال نعم أخذتها، فقل له أما فيها كفاية لك وللباشا، قال المكنى: لا، لأن العادة أن مال المعزول والمقتول يأخذه الباشا بدون أن يحسب عليه وأما ماصرفه على العساكر فيؤخذ من المتولى، فإما أن تدفع لى جميع ماصرفه الباشا على هذا الجيش وإما أن تترك المملكة لصاحبها يديرها براهه فامتثل السلطان أحمد وقال له، كم تُنر هذا المال، فقال (المكنى) بأنه قد صرف على هذه العساكر من أرزاق ومأكّل وملبس ومركب ومحمل وخدمة ماينوف على اثني عشر ألف ريال فرانسا^(٢) فإما أن تدفعها أو تدفع ستة آلاف متقال من الذهب،

^(١) والامل * وولدت القسيسة

^(٢) والامل * من الفرنسا

فقال السلطان أحمد إني دخلت في هذا الأمر على خزينة فارغة، وأريد أن أقرر على البلاد ما فرضته على قامهلي حتى أجمعه، فقال له العجلة العجلة، فقال له السلطان أحمد إذ لا أقل من خمسة عشر يوما فقال له المكنى لك ذلك، لكن بعدها لا أمهلك يوما واحدا، ثم طلب^(١) السلطان أحمد دفتر أسماء البلاد، فوجد فيه^(٢) مائة بلد غير المدينة، ففرقوا الاثنى عشر ألف دينار على البلاد من موكنة التي هي أول البلاد من ناحية الشمال إلى القطرون التي هي أول البلاد من ناحية الجنوب، وهي ناحية الوداي، ومن زويلة التي هي في المشرق إلى الشباطي التي هي في المغرب، كل بلد بحسب ما يليق بها، وكتب السلطان أحمد أوامر إلى جميع البلاد، كل أمر مضمونه:

إلى فلان رئيس البلد الفلانية أما بعد، فإننا التمسنا الاعانة منكم على المبلغ الذي صرفه حضرة الباشا على العساكر الذين^(٣) قدموا صحبة المكنى والزرور وخصكم منه كذا وكذا ريالا، فحال حلول أمرنا إليكم تجميعوا المبلغ المذكور وترسلوه صحبة أمين من طرفكم مريعا بدون تلكؤ، والحذر من المخالفة والتعطيل، والسلام..

ثم ختم الأوامر وأمر النجابين^(٤) بتوصيل كل كتاب إلى من هو له فركب النجابتون في الحال، وذهبوا بالكتب كن مذهب وكان المكنى قد نسخ من دفتر أسماء البلاد نسخة ثم ذهب إلى دلو نرله وكتب منها مائة كتاب (جاء فيها):

إلى رئيس البلد الفلانية أما بعد، فإن السلطان أحمد أرسل يلتمس منكم دفع ما هو كذا وكذا ريالا فإياكم أن ترسلوا له شيئا من ذلك لأن المبلغ المذكور (يمكن أن ينفعه هو) ومن بخله أراد أن يفرمكم إياه والسلام

وكان أهل البلاد حين جاءهم النجابتون الأول بالكتب اهتموا وجمعوا أنفسهم ووزعوا المبلغ على الرجال كل بحسب طاقته فما راعهم الاورسل المكنى قد اتهم بالكتب فلما قراوها تربصوا وتراخوا ولم يظهروا عصيانا (وتوقفوا) حتى ينظروا

^(١) في الأصل * لم دعا السلطان أحمد دفتر أسماء البلاد *

^(٢) في الأصل * فوجد فيه *

^(٣) في الأصل * الذي قدموا *

^(٤) النجابتون: هم الذين يركبون الفيلة لخدمة توصيل الاوامر السلطانية *

الى مايذول اليه الأمر، فمضت الخمسة عشر يوما ولم يأت أحد بشيء، وفي اليوم السادس عشر أمر المكنى جماعته أن يلبسوا سلاحهم ويأخذوا اهبتهم كأنهم يريدون الحرب واصطحبهم معهم الزروق ودخلوا على السلطان أحمد وهو جالس في ديوانه، فرحب بهم وأكرمهم فقال له المكنى يا أحمد هات الدراهم التي جمعتها، فقد طال^(١) بنا المقام ونريد السفر ووعدنا قد تم التباحة، فقال السلطان أحمد لم يأتني شيء الى الآن، فإظهار المكنى الغضب وقال: يا بلرد أتريد أن نمكث معك طوال الدهر ونترك حديث سيدنا الباشا لأجل خاطرك، ثم نادى بالزروق ماذا عنك من الأمر، فقام الزروق واقفا على قدميه وقال: يا أرباب الديوان اعلموا أن السلطان أحمد رجل لا يصلح للسلطنة وهو معزول كما أمر بذلك سيدنا يوسف باشا، ومد اليه يده فجذبه من كرسیه فأكبه على الأرض وقال لأعوانه الواقفين خنوه فأخذوه الأعوان في الحال، ومزقوا ما عليه من الثياب وقتلوا (المكنى) مر فيه بأمره، فقال المكنى لأهلبوا به الى السجن ونقلوا أغلاله وقيدوه فجمعوا يده على عنقه وسحبوه مهانا ذليلا ثم فعلوا به ما أمرهم المكنى، وفي الحال^(٢) جلس المكنى على كرسی المملكة وأرسل الحجاب والأعوان ودعا جميع أرباب الديوان كاتلأضي والمفتين وكبار التجار والوزراء وأرباب المناصب فحضروا وجلس كل في المحل المعد لجلوسه وأخرج الزروق فرمانا ووقف على قدميه ووقف كل من كان حاضرا ثم قرأ الزروق المنشور بتولية المكنى حاكما على فزان وعزل المتولي^(٣) عليها، وكان قد اجتمع في دار المملكة أناس كثيرون، وبعد أن قرأ المنشور ضربت النوبة السلطانية وأطلقت المدافع ووقع في تلك الساعة ازدهام فاختلف أحد العسكر الفقراء عمامة رجل وراه المكنى فأمر بمجيئه بين يديه، فلما مثل بين يديه سأله لم خلعت العمامة، هل احتقرا^(٤) لي حتى يقال أنني غير عادل، ثم أمر به فضرب خمسمائة كرباج، وأخرج الناس يرتجفون^(٥) خوفا، وكان

^(١) ن الأصل * لاه طال ما

^(٢) ن الأصل * وكان تكون بعد ن الحال

^(٣) ن الأصل * الشرايين

^(٤) ن الأصل * لم خلعت العمامة احتقرا لي

^(٥) ن الأصل * وخرج الناس يرتجفون

هناك جماعة^(١) من أولاد ملوك فزان فحينما^(٢) رأوا عسف المكنى وما فعل فسروا،
 (حيث) فر بعضهم إلى بلاد السودان وبعضهم إلى ابن غازي، ثم بعد ذلك جاءت
 أم أحمد الناصر إلى المكنى وسأله في إطلاق ولدها من السجن، وتوسلت إليه
 بجماعة من أمراء الدولة، فقال لن أطلقه حتى أخذ منه كلفة العساكر، وكان قد
 بلغه أن أمه لديها^(٣) مال عظيم اكتنزته من مال أبيه، فشدد في طلبه، وعلق
 إطلاقه على حضور المال، فصارت العجوز تحضر له المال شيئا فشيئا حتى لم
 يبق عندها شيء ينفع، ثم أمر بخنقه ليلا فخنق، فجاءت أمه تطلب فكاكه فأمر
 باعطائه لها، وأخرجوه لها ميتا فطار عليها فقالت له، بأى جرم قتلته، قال قتلته
 قصاصا بالمنتصر^(٤) قتله (ابنك) بغير حق، ثم قبض على وزيرى المنتصر
 الحاج عثمان وأخيه الحاج يوسف واستصفا لموليها وأطال سجنهما، ففر الحاج
 يوسف (بواسطة) حيلة دبرت له وبقي الحاج عثمان في السجن إلى أن مرض
 وأشرف على الموت فأخبر المكنى بشدة مرضه فأمر بإخراجه إلى داره، فأخرج
 ثم مات بعد أيام قلائل، واستوزر المكنى بعدهما الوزير الكامل المرحوم أبابكر بن
 خلوم، وكان فتى عاقلا رئيسا جوادا سخي الكف، من عرب أوجلة.
 ثم عسف المكنى بأهل فزان عسفا قبيحا، وجعل على كل بن من أبنائهم
 ريبالا فرانسا وجعل على كل مائتي نخلة ريبالا كذلك، وتحسب من أصل المائتين
 كل جبارة لها جراند، وهذا خلاف ما يأخذه من الجنائيات، وكان لمرزق قاعدة
 مملكة فزان مبيعة أبواب فأغلقها، ولم يبق إلا بابا واحدا، وأوقف^(٥) على الأبواب
 مكاسين^(٦) يأخذون على كل حمل من الأحمال الداخلة ريباتين فرانسا، سواء كان
 مملوءا خيشا أو حريرا، وزاد في مكس الترفيق منس متقال ذهبيا.

^(١) في الأصل * وكان هناك من أولاد ملوك فزان جماعة

^(٢) في الأصل * حين رأوا

^(٣) في الأصل * وكان له بلدان له عددا

^(٤) في الأصل * وأخذت على الأولاد

^(٥) مكاسين أي منس الخراف في الخرافات

ثم غزاه أولاد سليمان^(١) وهم قبيلة عظيمة من أعراب البادية فقتل منهم كثيراً وهزمهم (وكان) سبب اغارتهم عليه أنهم كانوا أمنين^(٢) ليوسف، وكان الباشا واكلاً لبهم طريق فزان يؤمنونها من كل قاطع طريق، ولهم عليه عوائد وخلق في سنة، وكان كبيرهم يسمى سيف النصر، وكان منهم بطون يسمون أولاد بشر، فتحيل يوسف باشا وألقى العداوة بين جماعة سيف النصر وأولاد بشر، وأراد قتل أحمد بن سيف النصر، ففطن (أحمد لذلك وخرج من طرابلس ليلاً بحيلة تمت له) وعصى أمر الباشا، وصار ينهب القوافل ويقطع الطريق على العارفين، فدعا الباشا أولاد بشر وكساهم ووعدهم^(٣) خيراً وأسنى جائزتهم، وأخرج معهم عسكرياً لقتال أولاد سيف النصر، فذهبوا أصحابه العساكر وقاتلوا أولاد سيف النصر وتلفت الوطأة على أولاد سيف النصر فانكشفوا وأجلوا إلى فزان، ففطنوا أنهم يملكونها من يد المكنى ففعل بهم ماكرنا وانهزموا في البراري والقفار ثم إن يوسف باشا غدر بأولاد بشر وقتل منهم ألفاً من كبارهم، فأقلت منه من أقلت وبقى الحيان عدوين له، وذلك من طمعه وسوء تدبيره وغدره، وأول غدر وقع منه (كان) بأخيه أحمد باشا، وذلك أن السلطان سليم خان^(٤) عليه سبحانه الرحمة، أعطى مملكة طرابلس

١. أولاد سليمان قبيلة عربية كبيرة كانت تسيطر على الطريق البحري بين طرابلس وهران، وكان لبرابرها مرمون الخشب ولا يستطيع أحد المرور على هذه الطريق إلا بعد دفع الأثوة لهم، ولهذا كانت الحرب بينهم وبين والي طرابلس وحاكم تونسي فكان لا يتوقف عن حملات الحرب على والي طرابلس فوضع التواقي حطة حرباً وهاجمهم بقوة كبرى فغلبهم وهدموا إلى الحدود المصرية ومن هناك أخذوا يشتدون الحملات على الطرق، لكن التواقي شدده عليهم بعد حركتهم إلى ديارهم وأباد معظمهم وتفرق الباقون بين القبائل ولكن لا زال لعل النصر، يخطرون موطنهم وعقولهم.

متر: الرحلة من تونس فرانسيس ص ٤٥-٤٦.

^(٢) أمنين * أي مطمئنين ومطمأنين.

^(٣) في الأصل * ولوعدهم.

^(٤) السلطان سليم خان، هو ابن السلطان بايزيد الثاني حكم الدولة العثمانية في الفترة من ١٥١٢ إلى ١٥٢٠ بعد أن تنازل له أخوه مسين الحكم واستطاع التخلص من أخيه أحمد عام ١٥١٣ وكانت الدولة العثمانية تشهد صراعات وتورات في الشرق والغرب فقد حاولت واثمة نحو بلاد فارس، وفي مدينة نور التي يحويها الشاميل المصري في سهل تشاد في مصر واستولى على بلاد فارس عام ١٥١٤م وفي شرق حركه مع خروج السلاطین العثمانيون إلى مصر فقام السلطان سليم خان في مرجع دانيال فغلبهم وقتل السلطان المصري في معركة، ومرت طرقة إلى مصر فقام السلطان سليم خان في مرجع دانيال فغلبهم وقتل السلطان شرمات في معركة السلاطین ودخل السلطان سليم خان القاهرة عام ١٥١٧م وفرض على شرمات في وقته لمسلط دولة السلاطین والتمسك إلى الدولة العثمانية كل من مصر والشام والجزيرة واستمر السلطان سليم خان في جهوده لضرب حتى توفي عام ١٥٢١ وعنده أنه الوعيد السلطان متبحراً.

متر: د. عبد الحزق الشلوي، الدولة العثمانية دولة مغربي عليها ج ١ ص ٣١٠.

المغرب لعلى باشا برغل ووجه معه العمارة السلطانية صحبة قبودان باشا وكان إذ
ذاك حسين باشا، ولما قدم الأسطول إلى طرابلس وكان واليها هو أحمد باشا
قرمانلي^(١) أخو يوسف باشا، فأرسل على باشا كتابا إلى علماء أهل البلد ولرباب
الحل والعقد فيها مضمونه:

إن مولانا السلطان سليم خان، عز نصره تفضل على وأعطاني طرابلس
مملكة لي وها أنا قد جئتم بأمره، فانظروا ماذا ترون وردوا لي جوابي سريعا
وأن ابطأتم بعد ست ساعات خدمت عليكم سور البلد بالمنفع واختلتها غنة وأفل
بكل منكم ما يستحقه، وحين وصل الكتاب إلى يد أهل العلم افتوا أنه لا يجوز قتال
عساكر السلطان فإن قتالهم كفر، فدار أحمد باشا وأخوه يوسف باشا على الناس
يسألونهم النجدة فأبوا عليهم، وقالوا لا يمكننا قتال عساكر السلطان، ونحن مأمورون
بطاعته من الله ورسوله، وحين رأيا ذلك خافا أن أقاما بالمدينة (أن) يدخل عليهما
على باشا ويقبضهما ويرسلهما إلى القسطنطينية أو يقتلها أو يؤبد سجنهما، فخرجا
ليلا إلى تونس بنسائهما وأولادهما وخنمهما وأتباعهما، وأرسلوا إلى المرحوم
حمودة^(٢) باشا يعلمانه بقصومهما، فأرسل لمقابلتهما الوزير مصطفى كاهية فأدخلهما
(تونس) في موكب عظيم وأنزلهما دارا واسعة جميلة، وأجرى لهما من الأرزاق
ما يزيد عن كفايتهما فمكثا في تونس (مدة) في لرغد عيش وأهنة (وكانت منتهما)
سنة وستة أشهر ثم إن على باشا طمعت نفسه فأخذ جزيرة جربة، ومع أنها كانت
من أعمال طرابلس وأن صاحب تونس أخذها ظلما (الا أنها أصبحت تتبع لتونس)
حتى أرسل إليها على باشا أسطوله فملكها، فوقع الخبر على المرحوم حمودة باشا

^(١) أحمد باشا قرمانلي: هو مؤسس الأسرة القرمانلية التي كان لها العمل في تأسيس الدولة القبا في حدودها الحالية، وكان أحمد
ركن الأصل عمل حديدا في الأسطول التركي في طرابلس، واستقر فيها، ودخل في أهلها ونزوح منهم واستقر وكان لها موهوسا
طموحا، وكانت البلاد له كانت الكبر من فساد الحكم التركي خلال القرن السادس عشر والسابع عشر الهلاليين، فقرر ضرورة أن
يملك البلاد، وبعد مقتل الوالي حليل باشا عام ١٧١٢م تمكن أحمد باشا من أهل البلاد وسقوط السلاطين أثمان دولة لمر ليا
مواقع السلطان على ذلك فسارع أحمد بالانهاض على العناصر العسكرية التي لم تكن البلاد من در علم مدحمة كبرى، وأسس أسرة
عسكرية لينة واستطاع هذه القوة أن تمت تحته في الحكم، وأن يجمع ثروات عظيمة من الشراعية على التجارة التي تهي من السور،
وورث واليها أسطولا قويا في البحر المتوسط، ولقد به الغهاد البحري ضد الأسطول الأوربي، فسارعت أوروبا والبريكا لكسب وده بما
يسير السلطات العثمانية على الاعتراف له بمرور السلطان في أسس من بعده فاستمر حكمهم عليها حتى عام ١٧٩٣م.

^(٢) حمودة باشا هو (والي تونس من قبل الدولة العثمانية في ذلك التاريخ).

فعملم عليه وكبر لديه وقال: هذا الرجل أخذ طرابلس بغير حق، وأن مولانا
السلطان سليم ما أعطاه طرابلس هذه، بل أعطاه طرابلس الشام، وعلى سبيل الغلط
جاء وملكها، وماتاز عناء فطمع فيما في أيدينا ثم دعا لأحمد باشا صاحب طرابلس
وأخيه يوسف وقال لهما، إني أريد أن أخرج معكما عسكرياً بأخذ لكما البلد من يد
علي باشا برغل ويمكنكما من البلد، لكن لا أفعل ذلك إلا إن ضمنتما لي مصروف
العساكر التي تذهب معكما، فضمننا له ذلك، وكتب أحمد باشا بذلك كتاباً شهد فيه
على نفسه وجميع من حضر من أرباب الدولة وختمه بخاتمه وكتب بعده أخوه
يوسف وكان يسمى إذ ذاك يوسف بك، وقال إني أشهد على نفسي أنني التزمت
بجميع المصاريف التي لزمت العساكر من جزية والدنا العظيم من خزينة والدنا
العظيم حمودة باشا وأن ادفعها إليه إن قدر الله على أخى أحمد باشا بالذى لا بد منه
فأكون أنا المسئول بدفع المبلغ بعده... والسلام

وختمه بخاتمه، واتخذ الأمر على ذلك ثم أخرج المرحوم حمودة باشا طانفتين
عظيمتين من الترك ومن طائفة البربر المسماة بزواوة، وجعل نظير الجميع
للمرحوم مصطفى كاهية وأمر أحمد باشا صاحب طرابلس أن يكتب أكبر أهل
بلده ووجوه الدولة سرا ويعلمهم أنه قادم إليهم^(١) بالعساكر التونسية، فكان كذلك،
ولما وصلت الكتب إلى طرابلس وقراها أربابها فرحوا غاية الفرح، لأن أحمد باشا
كان رجلاً حليماً، وعلي باشا برغل كان رجلاً جباراً وثقلت وطأته على البلد وجار
وقبض على كثير من وجوه الناس واستصفى أموالهم، وحين جاءت العساكر إلى
طرابلس أراد علي باشا برغل أن يقتل فخلوه واستعوا عن القتال، ولما رأى
الأمر آل به إلى ذلك ركب في سفينته وهرب إلى ثغر الاسكندرية ودخل أحمد
باشا إلى دار ملكه، وأحسن إلى مصطفى كاهية وإلى أمراء العسكر، فأرسل
صحبتيهما هدية سنية إلى المرحوم حمودة باشا ورحل المرحوم مصطفى كاهية
بعساكره إلى تونس وبقي أحمد باشا وأخوه يوسف بك فلبقى يوسف أخاه نحو
أربعة أشهر وأحسن إلى الطوبجية وربط معهم^(٢) وجعل أمره مرأً وفي يوم من

^(١) في الأصل "قادم إليهم"

^(٢) وربط معهم: أي ربط معهم على استلام الحكم من أمه أحمد

الأيام خرج أحمد باشا إلى النزهة في المنشية، وهي بك عاصمة أمام طرابلس، كلها
بساتين وكل بستان فيه بيت أو قصر على حسب أحوال الناس، وكل رجل من أهل
طرابلس له محل في المنشية يتنزه فيه، وأكثر أهل طرابلس يمكثون في المدينة
للبيع والشراء والأخذ والعطاء، طول نهارهم، وعند المغرب يتوجهون إلى دورهم
بالمنشية وهي أنزه مكان يوجد بطرابلس.

ولما خرج أحمد باشا إلى المنشية تخلف عنه أخوه يوسف، وكان من عائقه
أن يذهب معه أينما^(١) ذهب، فتعلل بوجع في رأسه وتخلّف وترك أخاه وعندما
ابتعد (أخوه) عن المدينة أطلق (يوسف بك) باب المدينة، وأمر الطوبجية أن
يوجهوا المدافع إلى جهة المنشية، وبلغ الخبر إلى أحمد بأن المدينة قد أغلق بابها،
فكر راجعا خوفاً من^(٢) أن يكون قد طرقها عنوة، فلما قرب من السور مراعه إلا
المدافع قد أطلقت عليه وعلى أصحابه، فمات منهم جمع غفير، فالتفت أحمد باشا
بمن معه من أولاده وبعض العساكر، وجعل يجذو في السير حتى نزل بمبراتا وهي
بك عاصمة كلها عساكر، لأن أهلها كلهم أولاد أتراك، وأكثر عسكر طرابلس منها،
فاستجدهم أحمد باشا أن يرجعوا معه إلى طرابلس لحرب يوسف أخيه فلم يجد
عندهم مايسره، ولرتحل عنهم وجد في السير إلى أن وصل إلى مصر، ودخل
على واليها صاحب السعادة الحاج محمد علي باشا، وكان إذ ذاك مقبلاً بالثغر
الاسكندري، فأعظم لقاءه وأجرى له أرزاقاً، وبعد أيام من ذلك وصل الخبر إلى
يوسف باشا بأن أخاه في مصر، فاحضر سفينة وأنزل فيها حريم أخيه وبقية عياله
وزودهم وأمر قبوذي السفينة أن يوصلهم إلى أخيه أحمد باشا بالثغر الاسكندري،
ثم إنه قطع يده من المرحوم حمودة باشا ولم يوف بالمبلغ الذي كان (قد) أشهد به
على نفسه وجحد إحسانه وظلمه والله نر القائل حيث يقول:-

والظلم من شير الثوم فان خد
ذا عتة فاعلم لا يظلم

(١) في الأصل "مهما ذهب".

(٢) في الأصل "مروا أن يكون".

لكن المرحوم حمودة باشا لم يعامله بأفعاله، بل حين رأى منه ذلك تركه ولم يعاقبه ولم يطلب^(١) منه مالا ولا نوالاً، وأغرب ما وقع من يوسف باشا المذكور أنه لما مات إلى رحمة الله تعالى المرحوم حمودة باشا جاء رجلٌ من الحمارنة إلى يوسف باشا وهم من أعراب بادية تونس وبشره بموته، فخلع عليه وأكرمه وفرح غاية الفرح كأنه بشر بموت أعظم أعدائه.

ونرجع إلى سياق قصة السلطان^(٢) صابون، وهو أنه لما فتحت له طريق أوجله اعتمد عليها وأرسل قوافل منها مراراً، ولما كانت مصر من أوجلة أقرب من طرابلس، جاءت إليها القافلة وذهب بعضها إلى ابن غازي لقربها أيضاً، وبلغ الخبر إلى السلطان صابون أن قافلته تلج مصر وأن بها حاكماً عادلاً جليلاً، فأرسل إليه هدية وكتاباً يطلب منه العودة واتصال القلوب، فأرسل حضرة ولده عمر عسكر باشا هدية للسلطان صابون وأصحابها تقاووش^(٣) ونفرين من أتباعه وكتاب ينل على ما التمس السلطان صابون من والده^(٤) وفي أثناء ذلك^(٥) فطنت القبيلة المسماة بزغاوة^(٦) بمرور القافلة عليهم، وعلموا أنها ليست بذات شوكة فاعتنوا لنهب القافلة ووصل التقاووش بالكتاب إلى السلطان (صابون) فأكرمه^(٧) ومن معه، {ثم} أرسل قافلة صحبة التقاووش {نفسه} وأعطاه هدية جلييلة، {الحاكم مصر} ولما جازوا بلاد الزغاوة خرجوا عليهم وكبسوهم وقتلوا التقاووش والمقاتلة من أهل

^(١) في الأصل "ومطلب منه مالا."

^(٢) مراد الكتاب على الحاكم لعمري وأحداث طويلة يطلع لها هناك الحديث ثم يعود إليه بعد حديث طويل.

^(٣) التقاووش: أحد القوادش الذين إلى السلطان.

^(٤) وهذا دليل واضح على أن العلاقات بين وادي ودول شمال إفريقيا خاصة مصر وطرابلس وكذلك التجارة تقوم بدور كبير في توطيد العلاقات بين شمال إفريقيا وسوريا.

^(٥) في الأصل "وكان له ذلك"

^(٦) الزغاوة: من قبائل البربر الأصلية التي هاجرت إلى إفريقيا منذ عصور قديمة، كان موضعهم الأصلي شمال إفريقيا والصحراء الأفريقية ثم انتحلوا جنوباً حيث وادي البحر ونجدة لنجد وديال دفرور وذلك نتيجة للعوامل سياسية وظروف طبيعة واحتلوا بالروح في هجرة البلاد هجرت أنسكلم والوثلم والآلات هجرتكم مستمرة من الشمال إلى الجنوب وهم في حركة دائمة يحاربون بالحموية والانتقام يسلطون بالزراعة والتجارة والرعي، واستقر معظمهم في شمال دفرور وينشر القبور في كل اتجاه السودان وظم القبائل ويتحدثون العربية بحسب لغتهم المحلية وهم عربون في الإسلام.

محرر: Macmichael OP.Cit P. ٥١ عبدالله محمد كبر. القبول الإسلامية في غرب إفريقيا في القرن العاشر الهجري ص ٤١.

^(٧) في الأصل "وأكرمه"

العقلة، واخذوا ما فيها من الاموال، (وحينما) بلغ الخبر الي السلطان صابون ارسل جيشا كثيفا فقتل من الزغاوة مقتلة عظيمة، وحين بلغ الخبر الي حضرة الوزير الحاج ابراهيم باشا ووالده المعظم، اخطافا لذلك وجهزا جيشا كثيفا على كردغان لنصر المرحوم محمد بك الدفتردار وقصد بذلك نكابة السلطان محمد فضل فأرجف في دارفور أن عساكر مصر قادمة، وخافوا أشد الخوف فقصد الدفتردار كردغان^(١) وعارضه عبد السلطان المقيم بكردغان وهو المدعو مسلم، فقتله العسكر في الحرب، وملك كردغان وما والاها وبقيت في يد حضرة ولي النعم الي الآن، وهي سنة ١٢٥٣هـ (١٨٣٧).

ثم أن السلطان صابون جهز قافلة عظيمة خرج فيها المرحوم السيد أحمد القاسي ومعه من الاموال ما لا يحصى كثرة، وأمرهم بالتوجه الي مصر عن طريق^(٢) أوجلة، وأخرج معهم جندا كثيفا لحمايتهم حتى دخلوا دار الزغاوة، ودخلوا بلاد البديات، ومنها ضربوا البر فضلوا الطريق وتقد ما عندهم من الماء حتى أن الشربة من الماء الفواح بيعت بسبعين فرانسا، وذبحوا إبلا كثيرة وصاروا يعصرون الفرث ويأخذون الماء الذي فيه ويعرضونه للهواء حتى يبرد (ثم يشربونه) وبيعت الشربة فيه بسبعة فرانسا، وهكذا حدثني الم رابط عمر المصراتي ومن كان معه والعهد عليهم، ولما أشد العطش بالناس مات رقيقهم وكثير من أحرارهم وأيقنوا بالهلاك، وكان الشريف أحمد القاسي معهم كما ذكرنا وكان عنده ماء كثير فطلبوا منه ماء^(٣) (لانتقاذ حياتهم^(٤)) من الهلكة، فأبى وقال أنا صاحب عيال وفي هذا الماء حياة لنفسي وعيالي وهؤلاء العيال صغار، وأنا مسئول عنهم يوم

(١) ورد في بعض المخطوطات عبارة القول: "ألف علي أن استهلك محمد علي باشا لكردها من السودان" ولعل هذه العبارة مأخوذة من القتل وهي إشارة إلى تصحيح الخطأ التاريخي الذي وقع فيه المؤلف ذلك أن حنة الدفتردار كانت علي سودان وليس قاتل وكانت رنا القضا من محمد علي باشا علي المعلنين والشاهنة التي قلنا انه اسمها باشا في نسخة خدي بالسودان بقيادة ذلك ثم منعت المعلنين.

مصر: في ذلك كل من: عطار من الراسي، عمر محمد علي، ص ٣١١.

مكن شبكة السودان عبر الحدود، ص ١٥١.

نعم خلوا: تخرج السود وجمعهم، ص ١٦١.

(٢) في الأصل: "على طريق".

(٣) في الأصل: "لطلبوا منه ماء لخدمة أنفسهم من الهلكة".

القيامة ولن^(١) أكون سبباً في موتهم، فقالوا له بع لنا الماء بما تريد من الثمن
واكتب علينا وثائق، فأبى أيضاً ولما رأى أهل القافلة أن العطش قاتلهم لامحالة،
قالوا للشريف إما أن تعطينا الماء طوعاً أو نأخذه كرهاً عنك، ثم أفلح ما تريد لأنه
لا يحل لك من الله أن يكون عندك الماء وتموت (نحن) عطشاً، فأبى أيضاً وحين
رأوه مصماً^(٢) على الإباء اقتحموا عليه الخيام وأخذوا منه الماء كرهاً عنه،
واقتسموه بينهم وتركوا له (نصيبه^(٣) من الماء) كواحد منهم، فمات جميع رقيقه من
العطش ثم سهل الله عليهم ووصلوا إلى جاثوا بالسلامة، واكثروا جمالا ورجعوا
إلى المحل الذي ماتت فيه أبليهم وذهبوا في البر فجاموا بحمول الصمغ ومن الفيل
ودهن^(٤) النعام، وذهبوا بها إلى بنى غازی وباعوها هناك، وانتقل الشريف أحمد
إلى طرابلس واستفتى العلماء في من غصب منه الماء حتى مات رقيقه كله، أيغرم
أم لا، فأفتوه بأنه يلزم أهل القافلة غرم ثمن جميع الرقيق الذي مات، فأخذ الفتوى
منهم وسكت على ما عنده (ثم) رجع إلى دار وداى، ولما دخل على السلطان أكرمه
ورده إلى وزارته، فأخرج الفتوى وضبط من أتى بصحبته من أهل القافلة وأخذ
منهم جميع ما عندهم من المال، وصار يترقب كل من جاء منهم فيضبطه
ويستصفي أمواله، بمقتضى مامعه من الفتوى، حتى أخذ عوض ماله بل أكثر منه
بإضعاف مضاعفة، وذلك كان سبباً في^(٥) موته بعد موت السلطان صابون، ذلك
أنه كان شديد البأس عنيف المواقف على ملوك الوداي، يؤذيه ويُسبهم ويلعنهم
ولا يقضى لأحد منهم حاجة إلا ويأخذ منه رشوة، فلما مات السلطان صابون اتفق
أهل الوداي على قتله لتلك الأمور، ولكون أمراء الأجناد كانوا يتوسلون إليه
ويستشفعون لديه في التجار الذين كان يسجنهم ويستصفي أموالهم، فكان لا يقبل لهم
شفاعة، (فاحتدوا^(٦))، عليه فلما أجمع أمرهم على قتله تسوروا عليه الدار وقتلوه

^(١) في الأصل * ولا أكون *

^(٢) في الأصل * حين رأوه مصمماً على الإباء *

^(٣) في الأصل * وتركوا له ما كان لهم *

^(٤) دهن النعام هو دهن يستخلص من لحم النعام ويستعمل في معالجة الخروح والكحة والحرور لشفة اللحم *

^(٥) في الأصل * وذلك كان سبباً لموته *

^(٦) في الأصل * فاحتدوا عليه *

ليلاً وانتهبوا جميع ماله وأنخلوه دار السلطان، وكان في مصر رجل من أهل طرابلس الغرب يعمل أغشية^(١) السروج بتفضة السمسة في عرف أهل مصر بالتصيب، فكان يعمل غواشي جيدة وكان ذلك في ابتداء دولة ولي النعم الحاج محمد علي باشا، فقدم من صناعته هدية لسعادة الوزير فأعجبه صنعه فأمره أن يصنع له وللمماليك غواشي (مماثلة) وأن يأت بها لأرباب دولته فأكبوا عليه، فاستفاد منهم فائدة عظيمة، وذلك قبل أن يغشوا السروج بصفائح لفضة، فكثر مال هذا السروجي وكان يسمى السيد محمد الطرابلسي وحين جاءت القافلة الوداوية إلى مصر عن طريق جاثو كان فيها رجل من المجاورة والطرابلسية فاجتمعوا على السيد محمد السروجي وأخبروه بكرم السلطان صابون ومكارم أخلاقه، فشرحت في نفسه للذهاب إلى وداي فصنع غاشيتين متشبتين^(٢) واشترى جارية بيضاء جركسية بعشرين كيساً، وأخرى حبشية بكرأ، وأخذ الجميع معه هدية للسلطان، وتوجه صحبة القافلة، وتوجه بها أيضاً عمى المرحوم السيد الطاهر بن سليمان شقيق والذي وصحبه الطيب بن جلون، تاجر بالغورية، وأصله من المغرب، وصحبها السيد محمد البنزرتي، وكانوا الثلاثة شركاء في مال واحد، وكان بينهم وبين السروجي حيلة حين كانوا في مصر، فكان إذا مر بهم جالسين أو راكبين سائرين^(٣) قال لمن حوله أنظر واليهود تغورية، وما زال يسبهم وهم لا يعيرون له جواباً، حتى وصلوا إلى دار وداي، ولما دخلوا عاصمة وداي^(٤) أدخل محمد السروجي على السلطان الجاريتين والغاشيتين فوكت هديته من السلطان أعظم موقع، وأحبه حباً شديداً، وأستوزره وأعطاه ماينوف عن مبعائة رأس من الرقيق، وأعطاه إيلاً وبقراً لأتخصي، وصار مقبول الكثرة، ومكث في دار وداي أكثر من خمسة عشر يوماً، حتى توفي والذي إلى رحمة الله تعالى وغفرانه، وكان السروجي لما دخل دار وداي سمع بصيت والذي عند السلطان، فهاب عمى وصاحبيه فقصر لسانه عنهما، ولما مات زال عنه الخوف وبسط لسانه حتى أنه

^(١) الأغشية: جمع غاشية وهي من التصويغات الغشبية التي توضع على سروج الخيل وروان إحساناً بالحملة والمخلو للثوب.

^(٢) متشبت: مثابة من الدرجة السوداء لوانته على المعنى أي ماتت التي حلة كناية عن الخردة.

^(٣) في الأصل "لو راكع وهم سائرون".

^(٤) في الأصل "ولما دخلوا دار وداي".

إذا كان في بعض المجالس ونكرت سيرة والذي قال إنه دخل جسه بمسبحة
 مشاعل، وجاء الحاضرون وأخبروا عمى السيد أحمد زروق بذلك، فاحتفظ لذلك
 واضمر له سوءا (لكنه) خاف إن ضربه أو أهله بغير سابقة بينهما (أن)
 ينحرف^(١) عنه السلطان، فاتفق أنه كان جالسا في مجلس وذكر فيه السروجي فقال
 بعض أهل المجلس: (إن) هذا السروجي لا يعلم أبو مسلم أو نصراني، فقيل له ولم
 ذلك؟ فقال: إنه لا يركع لله ركعة، ومعناه أنه لا يصلي، فسرى الغم عن عمى بسماع
 هذه الكلمة، (ثم سأل الراوي قائلا) أحق ما تقول؟ قال أي والله، فقال له عمى أتشهد
 بذلك أمام القاضي بن طليبت للشهادة قال نعم، فقال له عمى وهل تعرف من يشهد
 معك على ذلك، قال كثير، فلان وفلان وفلان، وسمى جملة أناس من المخالطين له
 في الأوقات، فلما أصبح عمى توجه إلى المحكمة وطلب السروجي فأحضر، فلما
 حضر قال (عمى) أيد الله القاضي إني أدعي حصة لله عز وجل إن هذا الرجل
 تارك للصلاة^(٢)، فلا يركع لله ركعة، قال القاضي للسروجي^(٣) أحق ما تقول هذا
 الرجل أنك لا تصلي، فأدعي السروجي أنه يصلي، وإن هذه الدعوة لا أصل لها،
 فطلبت من عمى البيعة على صحة دعواه، فأحضر جماعة ممن ذكر فشهدوا بأنه
 لا يركع لله ركعة، وأنهم عاشروه سافرا وحضرا مارا أو صلى فرضا من فرائض
 الله، فخاف القاضي إن أجرى عليه^(٤) القصاص ولم يعلم السلطان ربما احتفظ
 لذلك، فكتب الدعوة بتمامها وأرسلها إلى السلطان، فكتب السلطان بأجراء حكم الله
 ولو على والده، ففرح القاضي بذلك، وأمر بضربه الضرب المؤلم فعززه وأهله،
 وبسبب ذلك كرهه السلطان وحجبه عنه^(٥) ولما رأى ذلك طلب السفر إلى بسلاطه
 فلئن له السلطان في ذلك، وكانت (هناك^(٦)) قافلة متوجهة من الطريق الجديد
 فسافر، فيها وثمانوا السلامة فوصلوا سالمين لم يصيبهم من المشقة شيء، وتوجه

^(١) إن منحرف من السلطان أي أن يمتنع عن السلطان ويحاربه.

^(٢) في الأصل "إن هذا الرجل تارك الصلاة...".

^(٣) في الأصل "قال القاضي للسروجي وقال له احمل ما حمل هذا الرجل...".

^(٤) في الأصل "فكتب القاضي أنه إن أمره...".

^(٥) هنا التوقف بدل على مدى تمكن مولاه الخدم بالدين....

^(٦) في الأصل "وكانت القافلة متوجهة...".

المروجي بماله إلى ابن غازي فقر به محمد بك بن يوسف باثنا^(١) (ثم قبض عليه وأخذ جميع ماله وتركه لأيمك شينا فتحيل حتى وصل إلى مصر^(٢) وهو فقير الحال من المستضعفين الفقراء، ثم أن محمد بك المذكور وقع بينه وبين والده وحشة فنفر إلى مصر واستجار بصاحب السعادة فأجاره، وعين له الأسزالات وأترواتب وكتب المروجي إلى صاحب السعادة يشكو^(٣) محمد بك وأنه ظلمه وأخذ أمواله في ابن غازي، فلم يقبل ولي النعم (الشكوى) في محمد بك المذكور وقال: رجل في محل ولايته وفعل في أحد رعاياه، فإنه لا علاقة لي به فأتى أمر المروجي إلى أن مات وهو يكفئ الناس، نسأل الله السلامة والعافية في الدين والدنيا والآخرة، لأن من أعطى نعمة ولم يشكر خرج منها ولم يشعر والله در القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها فان المعاصي تزيد النعم

وداوم عليها بشكر الإله فان الإله سريع النعم

ولنمسك عن القلم عن السباق في ميدان هذه الأوراق إذ التطويل مورت للكسل جالب للملل، والله ورسوله أعلم بما كان وما يكون.

^(١) هو محمد بك بن يوسف باثنا المرملي ولاه أمه حاكمها على بن غازي وما حاورها حتى حدث له ذلك.

^(٢) في الأصل: "من وصل إلى مصر وجاء وهو فقير الحال".

^(٣) في الأصل: "يشكو ل محمد بك".

الفصل السادس

في عوائد^(١) ملوك الوداي واسما من انهم ومناصبهم

وفعل السلطان معهم وسلوك الأمراء والتواضع

إعلم أن المنفرد في سلطانه بالتأثير، الغنى عن الوزير والمشير، أنهم كل أمة بما يصلح أحوالها وينفي عنها وبآلها، ولما علم جل جلاله أن رعاع الناس لا يتبعون المحجة المستقيمة إلا بقهر من سلطان قوي الشكيمة، وأنهم لو تركوا مذى لظلم قلوبهم ضعيفهم، ولم يتبعوا سنن الهدى، أفاض عليهم المعارف، وأبسمهم حلل العوارف، حتى اتفقت كلمة كل أهل إقليم على أن يجعلوا لهم زعيم، يحكم فيهم بالإتصاف، ويتجنب طريق الاعتصاف، فيواسيهم بعنله، ولا يرغب عنهم بفضله، ويأخذ حقهم من ظالمهم لمظلومهم، ويقتص من كاتمهم لمكنومهم، وإن لقوي ملوك السودان شكيمة وأعلام عزيمة وأكرمهم شيمة ملك الوداي، لأنه إن جاد ساد، وإن وهب أفاد، وبلغ الموهوب له من الغنى المراد، لكن من شروط أهل الوداي أن لا يتولى عليهم إلا من كانت أمه من ذوات الأحساب، عريقة النسب، شريفة الحسب، وابن الأمة لا يكون عليهم سلطاناً البتة، بخلاف الفور، فإنه يتولاه (أي منك) من كان أبوه سلطاناً سواء كانت أمه شريفة أو أمه وضيفة، وحين كنت في دار وداي كان السلطان عليها المرحوم السلطان محمد عبد الكريم الملقب بصابون، ابن المرحوم السلطان محمد صالح ابن السلطان محمد جودة الملقب بخريف التيمان، ابن السلطان محمد عروس الأصغر ابن السلطان محمد عروس الأكبر، ابن السلطان صليح، هكذا سمعت من الإمام بندر الدين إمام السلطان صابون المذكور بناء نسب السلطان صابون على المنبر يوم الجمعة وقت الدعاء له.

^(١) التمره بكلمة "عوائد" مما هو المعاني والمجاهد لشمس في الحكم.

وأما ترتيب مناصبهم ومراتبهم فعلي خلاف ترتيب الفئور، لأن الفئور راعوا
أعضاء السلطان فسما بها كما تنم^(١)، وأما أهل الوداي فراعوا عبارة إياتهم،
وحب وطنهم، فرتبوا مناصبهم بحسب البلاد، فأول المناصب عندهم وأعلىها
مناصب الكماكلة، وهم ثمانية، أربعة أكبر من أربعة، وهؤلاء الكماكلة هم الذين
يقضون الدعاوي وعليهم مدار الشوري، فلا يبلغون السلطان إلا أهم الأمور، لكن
الأمور التي يقضون فيها يكتبون فيها جرنالاً^(٢)، ثم يعرض على السلطان ليعلم ما
فعلوا، ومن عانتهم أن السلطان لا ينقض حكمهم وإن ظهر خطؤه، ونهاية ما يفعل
معهم أنه ينبيههم إذا رأي منهم خطأ، بأن لا يعودوا لمثله، وإن تكرر ذلك منهم
عزلهم، وأمضي ما حكموا به إكراً للمنتصب إلا إذا كان الحكم خطأ محضاً، فإنه
يرسله إلى القاضي ولا ينقضه بنفسه، ويليه في العظم منصب المرمو^(٣)، وهي
لم السلطان إن كانت علي قيد الحياة، فإن لم تكن فالهبة^(٤) هي أكبر نساء السلطان

^(١) تحدث المؤلف في كتابه تنجيد الأعداء بأن أهل دار فئور يعضون معانهم ولهذا سوا منصب الدولة بأعضاء جسم السلطان
فمثلاً: أول مناصبهم "أرودولونج" بمعنى رئيس السلطان، وهو منصب عظيم القدر، وهو الوحيد الذي هو بمنزلة إمام السلطان، أما
كان مسعراً أو منزلاً للصيد، لم يلقه منصب "الككة" بمعنى رتبة السلطان، وهو أكثر تعظيماً من سائر الألقاب التي للسلطان،
وغدا من عاهلهم إلا أهل السلطان في الحرب، وأما الككة فيسمى به من أحرار السلطان المذهب، وأما إيا منات
السلطان على فرانه، فلا يخل الككة، ويقتونه بقية: البوري، أي لب الفئور، وبمنى بمنزلة حلف جهل "أرودولونج" لم يسان
بعدها "آلو منج" وهو فرس الككة، بمعنى العمود القوي للسلطان، ووظيفته أن يمشي بمنزلة حلف الخوف لا يخش أحد. وراهمهم :
"أهريو" : بمعنى المساعدة الأمير للسلطان ويحكم على من غير ملكاً من مشرك الفئور، ويحكم في جميع الشرائع والأحكام التي للسلطان ما
عدا الحسن، لم يأن منصب الككوي : وهو فرس البيرما في كل شيء، وهو كتابه من ساعد السلطان الأمير، لم يأن منصب الأب
ضبح وهو أعلى المناصب، وليس به وبين السلطان فرق يذكر في القلا القراوات وغيرها، وهو كتابه من صخرة السلطان، وهكذا
يرى لحسد المناصب وتواليها حسب جسم السلطان كما هو وارد ومشتق إليه من المؤلف، بهذا الخلف الوداي في ذلك. ينظر تنجيد
الأعداء من ١٨١ وما بعدها.

^(٢) لفظ الفريال مأخوذ من اللغة الفارسية بمعنى مرشد، لكن المقصود بالتأليف هنا كلمة حرمان أي تقرير من المحدث.

^(٣) المرمو في ودي، والناحوا في رنو، وأهل هذا النظام قد انقل من رنو إلى ودي ودار فئور، فقد كان لناحوهم لم السلطان في رنو
دور كبير في إدارة الدولة بما تملك من حواكير وأموال ومباني وشعالي في كل بقول الإسلامية التي دخلت في السوريات الأوسط
تأثرت بنظام حكمها بنوالة الرنو. ينظر د. عبد القوي محمد : بقول الإسلامية في حرب ترمذ في القرن العاشر للهجري، رسالة
دكتوراه (لم نشر) من ٢٦٦.

^(٤) الهبة: هي راحة السلطان الكوي كما هو في نظام الفئور، لما في رنو قسمي القسود: وكان هذه طريقة دور كبير في شؤون الدولة
ويمكن أن تدخل في أي وقت إذا رأيت صفاء في نظام الحكم، كما لها تصدي بجميع مشكلات القصر التي تقرأ في حريم السلطان
وأبنته. ينظر د. عبد القوي : القصر السابق من ٢٦٦.

وأجلين، ويليه في العظم مناصب العقدة، كعقيد^(١) الصباح، وهو حاكم الولاية الشرقية، وعقيد الغرب وهو حاكم الولاية الغربية، وكل منهما تحت يده ملوك، وهما في دار وداي عوضاً عن أباديمانق والتكنياوي في دار فور، ويليهما في العظم مناصب الوزراء.

والكامنة^(٢) ليس مثل^(٣) الكامنة في دار فور، بل هو مثل أرنندلون^(٤) أي إذا ركب السلطان يكون أمام الجيش، ويليه هذه المناصب كلها مناصب التراقنة، وهم رسل الغضب، هم المحافظون على جسم السلطان ودلره، وتخالف هيئة ملابسهم ملابس عساكر الوداي، لأن جميع عساكر الوداي يلبسون ثياباً واسعة الأكمام كثياب نساء مصر المسماة بالبداوية، وهؤلاء التراقنة عالم كثير، ثم بعد ذلك ملوك

^(١) العقيد : والمجمع علماء ، وهو لقب الذي يحق له فعل ودای لحكم الأقاليم الأربعة ، حيث كانت الدولة مقسمة إلى أربعة أقاليم مثل إقليم بمكة عليه ، ومولاي في دار فور نظام محلي حيث قسمت دار فور إلى أربعة أقاليم يحكم كل إقليم نائب عن السلطان ولديه نائب خاص مثلاً : الكيلوي يحكم المنطقة الشمالية ، والبرنج يحكم المنطقة الجنوبية الغربية لدار فور ، وألومنج يحكم منطقة جنوب شرق دار فور ، ثم الأب شبح ، ويحكم المنطقة الشرقية ، وبعد أن هذا النظام قد انتقل إلى ودای ودار فور من روح التي سبقت هذه القبول في الشقة والعظم الإداري السابق فقد كانت تروى مفسمة إلى أربعة أقاليم ولست الأقاليم إلى ولايات مع اختلاف في الطب الحكيم ، وفي هذا تنريد ودای بأن نظامها هو الأقرب إلى نظم الحرية من حيث السمة لأن لمط عقيد وحب وردت في العظم الحرية الإسلامية والعقيد هو الذي ينفذ له لواء الحرب : ينظر تشيخ الأدهن من ١٥٠ . د . د . عه القوي : معبر صافي من ٢٦٦ .

^(٢) الكلمة : أو الكيموغة : يذكر ماكنا بكل Macmichael أن النمط على لغة الكيموري من رتبه ، ويكول من مقصود : "كسار" ومعناها "شخص" و"في" ومعناها "ملك" وهو هذا الذي يعني مثل السلطان أو حبه أي المسئول أمام السلطان من المشاكل التي تحدث في الدولة ، وهو يمثل السلطان في كل المحل ، وفي دار فور يمثل فيه أيضاً لقب "مورج" أي أي "قو الصور" ويرجع إليه إلى بيت مورلوي لدم ، وكان يمنع دتما في السلطة مما يؤدي إلى تراخات في الدولة ، ومن ذلك ما أثار إليه ما كما بكل ذلك السراج الذي نسب إلى السلطان أحمد بكر والكيموغة ، ولما كان يمثل ممثلاً رمزاً في الدولة ، ويسطر مثلاً في العاصمة ، وفي عرف المسورة ، إذا مات السلطان فلا يخل منه الكيموغة كما سلك الأترة . CF. Macmichael late on the Brvial place of fur. sultans of tura in jebel Marra S.N.R. ox. (1926) part ٢ PP.171-178

^(٣) في الأصل : ٧٠ مثل الكلمة .

^(٤) أرنندلونج : وهو منصب عظيم القدر ، وصاحبه يكنى رتبه السلطان وفقاً لخصب نطاق وبلاده مثلية وصاحبه لا يعلم عليه إلا من "روموي روميا" بمعنى سلام سلام ، وترفع السجدة أمامه كالسلطان ، وصاحب هذا المنصب إذا كان السلطان مسافراً لم يأتها وحيداً أن يمشي بحاكره لم يمشي كونه لا يسفه أحد .

ينظر تشيخ الأدهن : من ١٨١ .

الجبال وعتدة الأعراب، كعتيد الجفانية، وعتيد الزبدة^(١)، وعتيد بني هلبة^(٢) وعتيد المحاميد^(٣)، ثم بعد العتدة الملوك، كملك ابرقة^(٤)، وملك الداو^(٥)، وملك كوكة^(٦) ونظائره ومن عادة سلطان الوداي أن يجلس لعموم الناس في كل يوم اثنين وجمعة، أما يوم الاثنين فإنه يجلس في قصر في داره مطلقاً على الرحبة التي هي أمام دار السلطان المسماة بالفائر وفي هذا الفائر أشجار كبار ذات شوك

^(١) الزبدة : ذكر القوس في نسخة الرينة من ريد، وتكم من حو داهين وهي منس المجموعة العربية التي كانت تسكن في وادي والشهر الرينة بالمروسة وزيمة الخيل وميد الررب والعام في وديته ولما كرههم القوي كان لهم عتيد بمكهم منقسم

نسخة الامعان من ١٩٢ .

^(٢) بني هلبة : أو هو حلة من مجموعة قبائل جهة الصحابة التي دعت السود من طرق العرب والصحراء واسوطوا في اقليم تشاد ودارفور واسير معظمهم في منطقة حد القرباء جنوب غرب جبل مرة، فاحتلوا بالقبائل الحلة كالنور والناحو والبرنو وغيرهم وهم من اكثر القبائل العربية استقراراً، ينقل معظمهم بالمرى والاراضة ولهم بحيرات اخرى على شرف دارفور وجنوب قبيل الاررق بعد ان فرغهم حروب الهندية، ينظر : احمد حسانة ادم - المراجع السابق - ص ٢٥١ . وما بعدها .

^(٣) الحاميد : فرج من الررباطات استوطنا تشاد ودارفور، وينسبون الى قبيل كيون : ثم احمد وأم صبية، ولكن فرج بنون والعمارة، وكان لهم ثلثو كيو في دولة الوداي لاقتلهم بزيمة الخيل والقرومية.

^(٤) ابرقة : بنو برت Bath لهم من اصل راسي، وينسب ما كما يهكل الى لهم من اصل بنو القشاش بن لمحتهم الظفرية والمجسة البوية، وهناك كتابات ماهرة تروى لهم مروج عرب بنو زحوا الى دارفور، وشبهه ابي مطرقت ثمانت البوية المسيحية، ونفع بالادهم في الوسط بين الناحي في الجنوب الغربي والررباطات في الجنوب والبرني في الشرق والتمور في الغرب، ولهم شعبة عظيمة في وادي بمكهم ملك وهم من القبائل المستقرة ولهم قدم راسحة في الاسلام، ينظر : Macnical History of Arab in the Sudan Vols. PP. 77-79

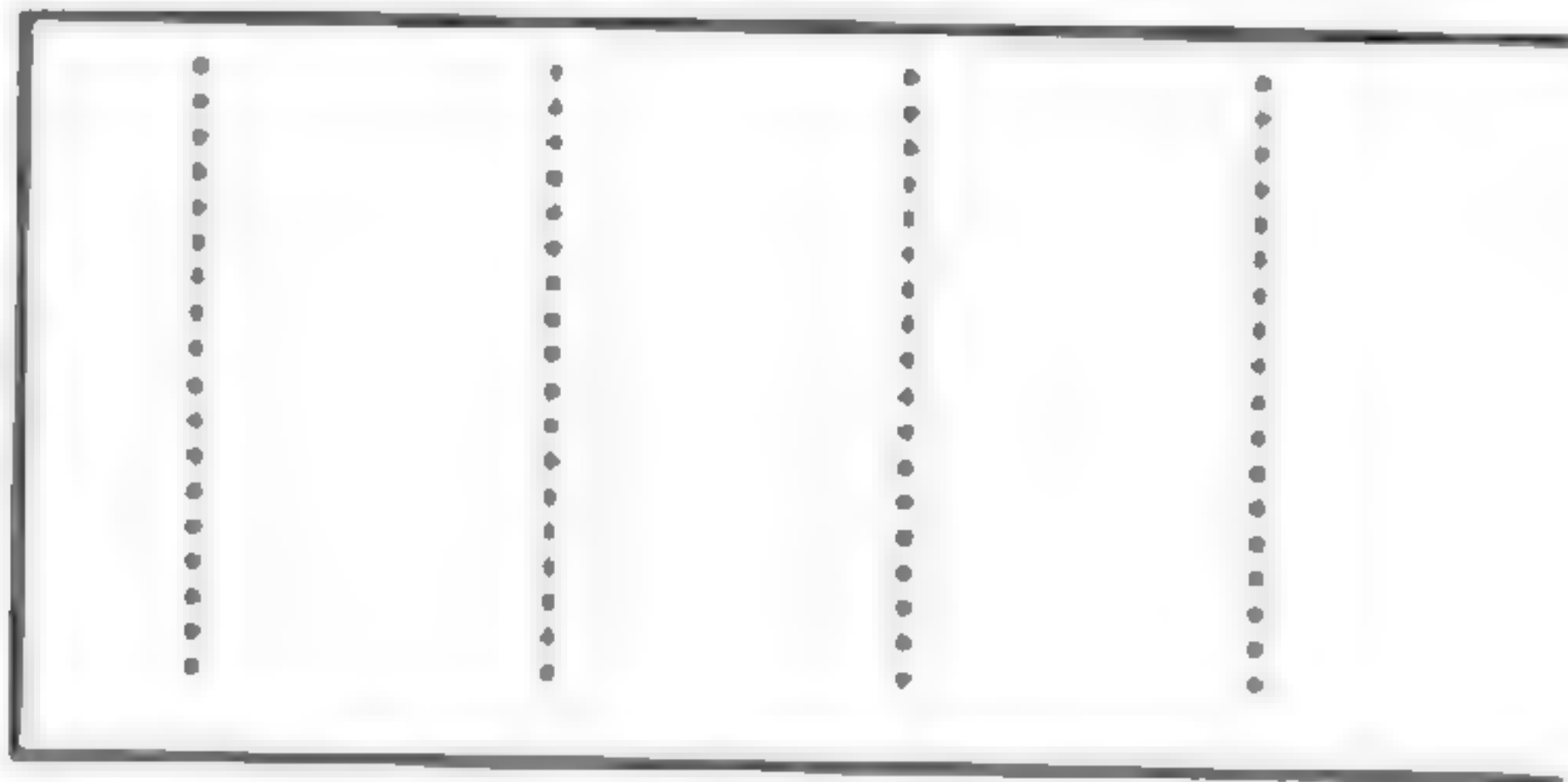
^(٥) الداو : من تقدم الحاميد السكانية في دارفور، يرى ما كما يهكل لهم هامروا حسن السيل الى دارفور، وسرى بنظر Palmer واركى الكا Arkai من الناحية هم الناحوس الذي ورد ذكرهم في مؤلفات الاندلسيين وابن سعيد وابن خلدون، وموطنهم يسكن الكساح والبوية، واسسوا دولة ما بين القرن الثاني عشر والرابع عشر الميلادي، وسقطت على يد البحر والناحو العربية التي بدأت هجرتهم لتكنة اصل الى لغتهم تشاد ودارفور، فعرف الناحو في كل الاماكن فحدثهم في وادي في طور بيطا وسليو في تشاد، ولهم في ببالا وام كرموس وكثوة، وفي القوية وشرق كرموس جنوب كرموس، ينظر : Palmer. Bornu Sahara and Sudan P 212

Arkeil, A. J. History of Darfur S N R part I PP 62-70

^(٦) كوكة : يسكنون جنوب غرب وادي، وهم ثلاث طوائف : بنو القوس لها كايا البوية الذي لعل وادي ودارفور والناحو والناحو، ولهم حيرة وموطنهم حيرة، ومعظم سوري الطوك والناحو من هذه القبيلة. ونظراً كائنة كوكة ايها على حيرة دولة بنو في عصرها الناحو ونفع في شرق البوية تشاد، ذلك ان حاصمهم الاول كانت تسمى عرب البوية لم ينقلوا الى حيرة ودارفور حاصمهم الجديدة وهي بنو حيرة حيرة، وذلك بعد حروهم مع القبائل، لم ينقلوا الى مدينة كوكة وانسحبوا الى شرق وادي مدهوري وهي حيرة ولاية بنو الالفة

ينظر : صفحة ٢١٨ من هذا الكتاب، القوس طر حانة المراجع السابق، ص ٢٧٥ .

ليبيض يسمى السيل^(١)، وهو سطران^(٢) بقرب دار السلطان، وسطر في آخر الفاشر، أما الذي في آخر الفاشر فإنه محل جلوس الكماكلة يوم خروج السلطان، والمعروف^(٣) أنهم يغرسون حرايبهم أمامهم فتصير كسطر من الحرايب أمامهم هكذا:-



وهم يجلسون مقابل السلطان وأما السطر الذي يكون بقرب دار السلطان فإن السلطان يقف في ظله يوم الجمعة، ويكون راكباً، ويجلس أمامه القاضي والمفتون والعلماء والأشراف وأعيان الناس على حسب طبقاتهم، وتصطف الترجمة واحداً بعد واحد، {وهم} سبعة كما هو اصطلاح الفور، لكن عادة الفور أن يسلموا على السلطان كما تقدم، أما الوداي فعانتهم بخلاف ذلك، فإن للترجمان يقول: السلطان يسلم عليك يا قاضي، السلطان يسلم عليكم يا علماء الاسلام، السلطان يسلم عليكم يا أشراف، السلطان يسلم عليكم يا كماكلة، السلطان يسلم عليكم يا تراقنة، السلطان يسلم عليكم يا أمناء، السلطان يسلم عليك يا كامنة، السلطان يسلم عليكم يا ملوك التجبال، وهكذا إلى أن يقول: السلطان يسلم عليكم يا حوالسي واره كلكم، لعلكم طيبين، بارك الله لكم بالعافية، وكل من سلم عليه السلطان يصفق بيديه ويقع على الأرض على شقه الأيمن، ثم الأيسر، حتى يصل صدغه إلى التراب، وفي تلك الحال {يكون} مع السلطان طبل صغير أشبه بالكوبه الممساء في عرف مصر بالدربةكة، لها صوت حاد يسمع من بعد، ويسمي بالبردية، ومتى ضرب هذا الطبل

^(١) السيل : ماء في الفاسوس : السيل جمع سيل وهو لسان له ذنوب أو هي طوفى لها أربع مراح منه الماء، وماء في ترجمة الفرنسية هذا الكتاب خلافاً من مؤلف الكتاب: أن السيل نوع من شعر السعد، متوسط الارتفاع، ذو لحاء أحمر مثل الـ السعد، وكثير في الفاشر وداي حرق زارها الشيخ التونسي تلك الأشجار التي ذكرها. سفر الرحلة Voyage au Waday, p. 193

^(٢) سطران : يتخذ شكلان، وقد اعتاد على تسمية السطر بالسطر.

^(٣) في الأصل : * وعلمهم يعرف بأنهم يغرسون حرايبهم *

يصفق جميع من في المجلس وأما العساكر الواقفون من ورانهم فمعهم^(١) قطع من الحديد المسماة بالكرابيج مع كل إنسان كرباجان فيبزونها فتضرب بعضها فيحصل منها صوت، وفي أثناء هز الكرابيج والتصفيق يشنون على السلطان بصوت واحد قائلين: جاموس، الله ينصرك ياسيدي، فيسمع لذلك ضجة عظيمة، وهناك طائفة يسمونها الكبرتو^(٢) وهي التي تضرب النغير، وهذه الطائفة كناية عن الجلادين الذين يقتلون من أمر السلطان بقتله، فيجتمعون في ذلك اليوم، وهم جمع غفير، ويجلسون في محل عال، ويبدأ عليهم البوقات، وهي بوقات طويلة طول البوق منها عدة أشبار، كبوقات الموزيكة الفرنسية، ولها أصوات كأنها هي، ويبدأ باقيهم بطول، كالطنبور الفرنسي، المعبر عنه في مصر بالترنيطة، فيضربون تلك الطبول، وينفخون في البوقات، وهي نحو خمسين بوقاً، فيسمع لها صوت عظيم، وتلك البوقات صوت غليظ مرتفع، وبعد ضرب البوقات سوياً^(٣)، يتفرد رئيسهم وينفخ وحده في بوقه، ويقول كلاماً، فإذا سكّت الكبرتو خرجت طوائف التراقنة وهم لابسون ثياب الحرب، وبأيديهم مقامع من حديد، وهذه المقامع هي المعبر عنها بالدبابيس، وعلى رؤوسهم طامسات من الفولاذ، وهي المعبر عنها بالخوذة، وعليهم دروع غير مصبوغة، لا تصل إلا لأوساطهم، لأنهم راجلون، ومن لم يكن له درع، له شاية، وهي كناية عن زبون، المسمى في عرف مصر الآن بالعنتري، وهو من جوخ أحمر، محشو بالقطن، مضروب كالدحاف، وهذه الشاية يلبسونها في الحرب، فتقيهم من السهام والسيوف، ومع كل طائفة منهم طبلان، كطبول الكبرتو، يضربون عليها ضرباً مزعجاً، فإذا ضربت طبول تلك الطوائف يخرجون من أماكنهم، ويخترقون الصفوف ويطوفون على الحلقة مشيرين على الجالسين كأنهم يرومون ضربهم قائلين: توبوا إلى الله وإلى الرسول. وإمام الفاشر جبل صغير يسمى الثريا، عليه بناء {توضع} داخله الشقاقير والنحاس السلطانية، كما للفور، لكن أهل الوداي لا يعظمونها كما يعظم الفور

^(١) في الأصل: "فان معهم".

^(٢) الكبرتو: هي طائفة المملاة القديمة بالسلطان ويرومون حيط المجلس السلطاني وتلبس بعض الأحكام الخاصة.

^(٣) في الأصل: "سواء".

نفاقيرهم، ولا يجلدونها في كل عام كما تفعل الفور^(١) وإن جلدوها لا يعلم بتجليدها أحد، فمتى خرج السلطان إلى الفاشر، تضرب نفاقير النحاس وهي في أعلى الثريا، فإذا اجتمع صوت النفاقير^(٢) والبردية^(٣) وطبول الكبرق والتراقفة والبوقات، وهزت الكرابيج، وصفق العالم بالأيدي، فيصير لذلك ضجة عظيمة.

ثم إن كان في يوم الجمعة بعد أن يسلم السلطان على أهل الفاشر، إن كان هناك مظلوم تقدم واشتكى ظلامته.

وكيفية تقنمه هي أن ينزع ثيابه من على صدره، ويربطها في وسطه وينخل في الحلقة من الجهة اليمنى للسلطان منحنيًا، ويصفق بيديه، ولا زال ملتصقًا بهرول حتى يصل إلى آخر الحلقة، فيكون قد مر على السلطان فلن لم يره رجوع إلى الموضع الذي ابتداء منه، وحينئذ لابد أن يراه السلطان، فيسأله عن ظلامته، ويحيله على الكماكلة إن كانت ظلامته بسيرة، فإن كانت ظلامته جسيمة تولاهما بنفسه حتى يظهر له الحق فيها.

^(١) لفعل دولة الفور في كل عام يتم تجليد النحاس، حامية الصورة التي عليها السلطان نواب من العبدان بعد أن حرّمهم بالغرب من ثم درمهم، فهذا الاحتفال عادة في الأسبوع الأول من شهر ربيع الآخر، وتستمر لمدة ستة أيام لو عترة، حيث يأمر السلطان برفع حنود الطبول كلها في يوم واحد، ثم يأتى بخنود نواب حضر القوم من مروج لهم معروف عندهم، ويتم التجليد وسط حانة كسوي بمصرها السلطان وجميع الثوب والوراء في المولة ويقدم هؤلاء النساء المعظمة للسلطان، ويتم استعراض الجيش والقوة في هذا المناسل ويخرج السلطان في كامل رايته لشاهد استعراض كل ملك على حدة، وللمسح المدهج، ويستمر العرض للثلاث لثقة لكسوة، ثم يعود للثوب إلى ممالكهم وولاياتهم.

مطر: تشييد الأفعان من ١٧٤ وما بعدها

نعم للمو: تزيين السوردة، ص ٢٠٤، ص ١٤٤

^(٢) المذفر: جمع المذفر، وهي في دار نور حارة من طبل كبر من حنق، يمد من جهتي شكة بخنوي: ويمد في العلب يمد نور، وله صوت عال، وتتمثل المذفر في الأراج عالياً، حيث يقوم بصرها ألس متعصرون.

^(٣) البردية: وهي مثل، ذو شكل هرمي، تمل من المذفر، لكن صوته أقوى من المذفر وله حدة وهي كالكتابة المروية في مصر باسم البريكة، وتتمثل عالياً في المسرات السلطانية.

تبيينه:

إعلم أن أهل الوداي فيهم من طباع أهل أوربا^(١) لمور، منها: أن القادم عليهم من بلد آخر لا يدخلونه في بلدهم إلا بعد إقامته في البلد المسمى بعبالي (مدة) ثلاثة أيام، وهذا نوع من الكرائنة كما تقدم ذلك، ومنها أن اجتماع الكماكلة في الفاشر في كل يوم، ونظرهم في مصالح الناس، وكتابتهم الدعاوي في جرنال، وعرضها على الملك، أشبه بالمشورة.

تبيه آخر:

أعلم أن أهل الوداي يعظمون السلطان حتى يكادوا أن يعبدوه^(٢) من دون الله تعالى، بلغ لشدة تعظيمهم له لا يفتحون دعوة إلا بعد أن يقرأوا الفتحة للسلطان ويدعون له بالنصر وطول العمر، وشددوا على أنفسهم تشديداً بحيث أنهم اتفقوا على أن جميع طيبات الملابس والحلي الجميل، لا يكون إلا للسلطان ونسائه ولذلك لا يمكن لوزير^(٣) من الوزراء، أو أمير من الأمراء ولو عظمت منزلته، وعلت على جميع الأمراء كلمته، أن يلبس حريراً أو يضع على مخرج فرسه غائبة حريراً^(٤) وجوخ، وأولى أن كانت مطرزة بشيء من الفضة كالعقب الذي تطرز به الغواشي في مصر، وأولى من ذلك مروج الذهب والفضة والركبات المطلية، ولم يرخص لهم إلا في غائبة من السختيان^(٥) الأحمر، فأعظم أمير منهم في ذلك كأهلهم، ولا يقدر أحد منهم أن يجلس على بساط أو سجادة ولو في بيته، ولا يصيغ لأهل بيته حلياً من الذهب، ولا يروح على نفسه بمروحة من ريش النعام، ولا من الورق المنقوش التي تطوي وتشر كما يفعل أهل أوربا، بل لا يلبسونه إلا الثياب السود والبيض من القطن، أو البفت أو الشاش، نساء ورجالاً، وكلهم في ذلك سواء، وحلي نساء أمرائهم وإن عظموا من الفضة، ولما أوساط الناس فمن

^(١) في الأصل: "أهل الأوربا" فقد تعود على ترجمة الألف والهمزة لكلمة أوربا.

^(٢) في الأصل: "أن يعبدوه".

^(٣) في الأصل: "لا يمكن أن وزيراً من الوزراء، لو لمراً من الأمراء".

^(٤) في الأصل: "غائبة حريراً".

^(٥) السختيان هو حلة القم للشيوخ والصغار.

النحاس، (وكذلك) ^(١) فقراء الناس (عليهم) من النحاس إن أمكن، وإلا فمن الحديد، ومتى تعدي أحد منهم وقتلي شيئاً مما هو محرم عليهم، قتل أشرف قتلة، وإن كان أعظم عظيم فيهم، وإنما فعل بهم ذلك لتكسر حدة قلوبهم، لأنهم لو أطلق لهم القيد في ذلك، كانوا يرون أنه لا فرق بينهم وبين السلطان، ويكون ذلك سبباً لطغيانهم، فربما قتلوا السلطان واقتلوا على الملك وفست أحوالهم، ومن شدة الضيق عليهم وتعظيمهم للسلطان إن الإنسان لا يقرر أن يثني على رجل أمام الجمع، لأنهم يقولون: لا ينبغي لأحد أن يثني على أحد إلا على السلطان، فلا يوصف أحد عندهم بالكرم ومكارم الأخلاق إلا السلطان، ومن شدة الضيق عليهم أنه لا يسمى أحد باسم السلطان، فإذا تولى السلطان وكان اسمه صالحاً ^(٢)، مثلاً فجميع من كان اسمه صالحاً يغير اسمه في الحال، والتفق في أيام السلطان صالح أن دخل عليه أقوام من البلاد، فراك الترجمان أن يسميهم ^(٣)، ليبلغهم سلام السلطان، فصار يأخذ أسماءهم واحداً بعد واحد، وكان فيهم رجل يسمى صالح فحين وصل إليه قال: السلطان يسلم عليك يا فتية صالح، وسمع السلطان بذلك، فاحتاط وزعق على الترجمان زعقة أدهشته بصوت أشبه بصوت الطاووس، وهذه الزعقة غير مختصة بالسلطان، بل يزعقها كل من ناز غضبه منهم، فقل الترجمان بسرعة: السلطان يسلم عليك يا فتية فاتح، وكان بلزاء دلره بنر يقال لها بنر صابون، فلما تولى السلطان صابون غير اسمها وسميت بنر غشيرة.

ومن عادتهم أن السلطان لا يشرب من بنر معينة بل يتوجه السقا إلى (أي) بنر من الآبار ^(٤) حوالى وارة على حين غفلة من أهلها، فيضربون من كان باتبئر بسياط في أيديهم فيهرب الناس ويحتاط السقا ببنر من الآبار، فيمضون أوائلهم ومتى ملأوا ^(٥) الأواني لا يتركون أحداً بقربهم، بل كل من دنس منهم يضربونه فينتحي الناس عنهم، حتى يصلوا إلى محلهم، وذلك خوفاً على السلطان من السحر

^(١) في الأصل: "ولما طرد الناس من النحاس".

^(٢) في الأصل: "وكان اسمه صالح".

^(٣) في الأصل: "يسمهم" .. وأصوات يسمهم: أي يذكر اسمهم أمام السلطان.

^(٤) في الأصل: "نهر من النهر".

^(٥) في الأصل: "ممتلئاً".

والسم، فإذا عرفت للسلطان بئر معينة لا يشرب إلا منها، فربما ألقي^(١) الأعداء فيها شيئاً من السم أو السحر فيفعلون ذلك للاحتراز، ولذلك لا يربون للماء إلا بعد أيام لأنهم يملأون جراراً كثيرة نحو العشرين أو أكثر، وكلما ملأوا جرة سدوها سداً محكماً وغطوها بقماش نظيف، وهذه الجرار من حيث أنها للسلطان تسمى بالبلك ومعنى البلك عندهم ماء السلطان.

ومن تعظيمهم للسلطان لا يدخلون عليه بشيأهم ولا ببنعاليهم ولا بعمائمهم بل أى إنسان منهم جاء إلى دار السلطان عليه أن يخلع نعليه عند أول باب ويدخل حافياً، وعند ثلثى باب يخلع عمامته إن كان متعمماً وعند ثالث باب يخلع ثيابه من الجهة اليمنى إلى الجهة اليسرى، وعند رابع باب يخلع طربوشه إن كان لابساً طربوشاً، وعند خامس باب يتحزم، وعند سادس باب يخلع الثياب من شقه الأيسر، وعند سابع باب يتحزم بثيابه وحينئذ يدخل على السلطان، وفي هذا مستوى أعظم وزير بأحقر إنسان، فيدخل على السلطان وجسمه عريان إلا ما بين السرة إلى الركبة.

ومن عادتهم أن السلطان إذا خاطب أحدهم بالعبودية لا يأنف من ذلك بل يفرح وينشرح صدره، ويحييه بقوله: نعم ياسيدى وسيد أبى وسيد جدى، وإذا أمره بأى^(٢) أمر صفق على يديه وأما شقه الأيمن على الأرض حتى يمس السراب بصدغه الأيمن، ثم ينقلب على شقه الأيسر ويفعل كل ذلك، وهو يقول مسمماً وطاعة ياسيدى وسيد أبى وسيد جدى، جاموس، الله ينصرك ياسيدى...

ومن عادة ملوكهم أنهم لا يجتمعون مع الناس^(٣) مباشرة، بل إذا كان جالساً بجماعة يجمل بينه وبينهم حائلاً كمستارة، ويخاطبهم من داخلها وهم من الخارج لا ينظرونه الإنسان إلا إذا كان فى خلوة واختلى مع من يريد الخلوة به.

(فائدة) من شدة تعظيمهم للسلطان إن الإنسان منهم إذا كان له دين على آخر ومأطله فى دفعه له جاء به إلى مكان ما، سواء كان خالياً من الناس أو فيه أناس، ثم يقوم يرسم خط دائرى^(٤) حوله، ثم يقول له: أقسمت عليك بالله ورسوله

^(١) فى الأصل: .. ربما ألقوا السم.

^(٢) فى الأصل: .. ومنها امره السلطان بامر مطلق.

^(٣) فى الأصل: .. يجتمعون على الناس.

^(٤) فى الأصل: .. بخط له مستطاب كدائرة...

الحربية، وينظر هل زادها أم نقصها، ويسأل عنه رجال المنصب فإن رضوا^(١) عنه ومنحوه وكانت الأموال موفرة، وعرف عنه أنه شجاع كريم غير لاه عن مصالح الدولة (في هذه الحالة) إما أن يبقى على حاله، أو يعلى منصباً أعلى منه، وكيفية ذلك أن للمنصب رجالاً قائمين بشئونه وهم الذين يكون عزل المتولى من قبلهم، لأنهم كلما رأوا في صاحب المنصب خلا كتبوه في جرنال^(٢) حتى تجتمع عليه جملة دعاوى ثم يتوجهون (بها) إلى القاضى ويشكون صاحب المنصب عند الكماكة، فحينئذ يقوم الكماكة باخطار السلطان فيأمر بإحضاره، ومتى حضر يعرض مامعه من الخيول والآلات الحربية على السلطان فى يوم جمعة، وتكتب كلها فى قائمة، وينظر فى الدفتر مقدار ما استلمه يوم التولية، وينظر الفرق بينهما فإن وجد أنه أكثر من الذى كان قبله يسأل عن دعوى رجال المنصب، وإن وجد أقل مما كان استلمه يسأل عن أين ضاعت هذه الأموال وكيفية استغلالها^(٣) وفى أى شى صرفها، فإذا أن يأتى بحواب سديد يقرأ عنه العذاب، وإلا كُنَّ عذابه شديداً، ورجال المنصب هؤلاء لاخير لهم فى المتولى أبداً، بل يخدمونه ويمسكون لأمره فى الظاهر ويلقونه فى المهالك فى الباطن، وفى ذلك باملاء^(٤) من السلطان وهم يقولون نحن خدام السلطان لا خدام العقيد لو الملك بل لو فعل معهم من الاحسان ما فعل وراوا عليه خلا أو تقصيراً يبادرونه بالشكاية ولا يعتبرون احسانه اليهم ثم إذا كان المعزول عزل عن منصب يبقى مدة ومتى رضى عنه السلطان أرسل إلى صاحب المنصب الجديد فأحضره ثم قال له: خذ هذا عندك واكرمه لأنه شريكك فى المنصب، وهو الذى يطلعنا على أمرارك فيتوجه معه شهراً عنه، ومتى رأى منه تقصيراً شاكاه وعزله عن المنصب وتولاه ثانياً، والمر فى ذلك أن الوداى أناس لا يطمأن^(٥) اليهم، لذا أهدى السلطان أمرهم يبطرون النعمة ويعصون

^(١) فى الأصل: "فإن رضوا عنه..."

^(٢) (ال جرنال) هكذا وردت والله يتعبد كسوه فى دولة فى شكل دفتر لا كلمة جرنال فرسية ونحو المربعة اليوم كما كانت القديمة.

^(٣) فى الأصل: "... وإن ما سئل..."

^(٤) فى الأصل: "... باملاء من السلطان..."

^(٥) فى الأصل: "... ليس لا يطمأن اليهم..."

على السلطان، فرأى السلطان أن في انتباههم لبعضهم راحة له، فدير الأمر وأوقعهم في بعضهم وصار ذلك سنة عندهم لا ينكرونها.

ثم إن الغضب يتفاوت بعظم الذنب وحقارته فأعظمهم ذنباً من يفر في الحرب فمن ثبت لدى^(١) السلطان أنه فر من القتال يقتل أشرف قتلة، ويليه الذي يخون في الأموال الميرية، ويضعف الشوكة السلطانية، لأن السلطان بالرجال، فمتى كان رب المنصب منتبها لقوة الدولة فهو العزيز عند السلطان والمرضى عنه.

ومن عانتهم أنهم لا يركبون حماراً، ولو كان (الرجل) فقيراً، ومن ركب منهم حملاً عابوه واحتقروه، وإن الحمير في بلادهم لاتصلح إلا لحمل الأثقال. ومن عانتهم أن السلطان مطلق الحرية، يفعل ما أراد، لكن لا يغير شيئاً ما جرت به عانتهم فإن غير شيئاً حرمة العادة عندهم ربما قتلوه لذلك، ولقد بلغني من لكبر أهل الوداي أن السلطان المرحوم محمد صابون أراد أن يغير عانتهم في المكيل الذي يكتلون به وقال أريد أن يكون المد الذي يكال به كمد النبي صلى الله عليه وسلم فأبوا عليه وقالوا لا يمكن ذلك، ولولا والذي تطف بالسلطان وتوسل إليه في إبقاء ما كان على ما كان لوقت^(٢) فتنة عظيمة، وكذلك بلغني أن السلطان أراد أن يحدث سكة يتعامل بها الناس كمسكة مصر، بأن يجعل له محلاً لضرب الدراهم لكثرة الفضة عنده، فأبوا عليه وقالوا: إن جحك خريف التيمان خاطبه بعض المغاربة في ذلك فلبى وقال: إن أهل بلادى قوم غفل ومتى ضربت الدراهم وذلقوا حلاوتها ذهبت غفلتهم وانتبهوا لجمع الدراهم، فتشع أنفسهم ويتحاسدون ويتشقى البخل فيهم، وذلك يكون سبباً للخراب، ولا أرضى أن يحصل ذلك في مملكتي^(٣) والعجب منك كيف يقول جحك هذا وأنت تقول بخلافه، فاستصوب السلطان رأيهم وترك الأمر كما كان.

^(١) في الأصل: "من ثبت في السلطان".

^(٢) في الأصل: "لكن لم تفت".

^(٣) في الأصل: "ولا أرضى أن يمكن بمثل هذا ذلك".

ومن عانتهم انهم يكبرون العمائم في المواكب والمحاقل، مع أن أهل أمير
 في بيت لا يلبس على رأسه الا عرقية سوداء أو طربوشاً، ولبسهم في الطربوش
 مخالفاً للبس الفور، لأن الفور يحبون أن يكون الطربوش مستطيلاً، فيبقى على
 رأس أحدهم كالطرطور المنصب، أما الوداي فانهم يثنون قرص الطربوش حتى
 يصير القرص الذي فيه الشراية منخفضاً وله (جزء) دائري^(١) مرتفع نحو
 قيراطين، ويلبسون الثياب الواسعة التي تلبسها حريم مصر، وهو المسمى عندهم
 بالبدوي والسبلة كما قلنا ذلك، لكن السبلة في مصر لا يكون الاخرأ ويكون ملوناً
 إما احمرأ أو اصفرأ أو أسود، أو غير ذلك من الألوان، ومسمى السبلة لأنه يسبل
 فوق جميع الملابس، وأما البدوي فيكون من الكتان، وهو الغالب، وقد يكون من
 البرز كاليفت والشاش، والغالب فيه أن يكون أسود حالكاً، فكنالك أهل الوداي
 يلبسون الثياب الواسعة، والغالب على ثياب الأكابر أن تكون سوداء ويعتقون في
 خياطته اعتناءً عظيماً، لأن الثقة منه عرضها لا يتجاوز قيراطين، وهي على
 أجناس منها التكاكي^(٢) ومنها التيكوة^(٣) ومنها القداني، وهو المسمى عندهم برفقة
 الكنجو^(٤) وهو أسود لكنه يرى من خلال سواده احمرار، وأهل مصر يسونه رقبة
 الحمام كما ذكرنا ذلك سابقاً.

وأن سيوفهم كسيوف أكثر الفور معتلة ويصبغون مقبضها من الفضة
 ويطلونه بالذهب ويجعلون المقبض ينتهي بكرة مجوفة يضعون فيها^(٥) صفار

^(١) في الأصل: "دولة دهر مرتفع".

^(٢) التكاكي: مفردة تككة وهو فلفل من صبح على صبح من الفلفل حيث يضاف الفلفل ويخلج في أنه مصبغة من احب يسمى
 "الحواصة" نظراً لصلوها لم يصبغ في شكل حوط مطبوعة بواسطة آلة حادة تسمى "الفرار" أو "الفرار" نظراً لحرارة الحادة السريعة، لم
 يصبغ في الفضة يتحكم الصانع في مظهرها بواسطة آلة تسمى "التكاكي" يلمس فيها النحاس ويحمل بكثافة ودرجته وحده لا يربط
 عرض الفلفل من نصف المراح وتحت مع الفلاس الرحالة والساعة لنصوغها.

^(٣) التيكوة: أو التيكوة: فلفل ملون أسود يلمس في وادي وفلور من روم أو بفرقة عرض الفلفل في فلور - بفرقة الفلفل
 من ٢١١.

^(٤) الكنجو: نوع من الفطور الناعمة التي تأتي في بلاد السودان في فصل الخريف لأهل البلاد حيث يزرعها العباد والفقير والضعاف
 الدال ونسب في السودان السوداء والولما أسود مع صوف من ناعم لامع يكتسب رطوبتها من كلاً حياً.

^(٥) في الأصل: "يخسرون فيها دمل الحصى".

الحصى، فإذا قبض أحدهم السيف وهزه يسمع للحصا في الكرة صوت وهذا لا يكون إلا لأكابر الدولة من الفور والوداي.

ومن عاداتهم أن الرجل منهم يلبس في خنقة يده مكينة ذات حدين طولها نحو ثلاثة أشبار تسمى في عرفهم الكرداوي ويلبس في ذراعه مكينة صغيرة. (أما) ولاية المنصب عندهم (فتكون) بلبس العمامة، أعنى أن السلطان إذا أرك أن يلق^(١) واحداً منهم منصباً يعطيه عمامة ويسمى له اسم المنصب، وأما الفور فولاية المنصب عندهم بالفير وهذا الفير عندهم هو ملحفة ذات أذنان طولها من الحبرير يحزم بها للمتولى أمام السلطان ويجعل جنبها من الأمام.

وليس عند الوداي من آلات الطرب كما عند الفور لأننا قدمنّا أن الفور عندهم للمصفاير^(٢) والتكجل^(٣) والغزو والتنقل^(٤) والتفاير النحاس وأما الوداي فما عندهم سوى البردية والنحاس وهما خاصان بالسلطان أما التكجل وطبول التكبرنو ونفيرهم فهي عند جميع الأمراء.

ومن عوائد الوداي ومثلهم كالقور^(٥) يجعلون على وجوه الخيل شيئاً يسمى بلغة الوداي الوجه وبلغة الفور "كارجل" نسبت لأن أنكره هناك^(٦) في عوائد الفور وتذكرته هنا وهو صفيح من تلك^(٧) أصفر، وهو الأحسن عندهم والأعلى ثمناً، أو من صفيح تلك أبيض وهو الغالب في دار وداي مبعطن بجوخ أحمر، تجعل منه صفيحة على وجه الجواد وصفيحتين على صدغيه، لكن في دارفور ينقبونه^(٨)

^(١) في الأصل: "أما أراد أن يعطى لواحد منهم مصفاً".

^(٢) المصفاير: جمع مصفارة وتصح في ذلك الزمن من الزمن أو الصا أو هو ذلك من العادات التي تكون حلوسها مازجة المس ويحكمون في أصولها بواسطة نقوب عليها، ولها صوت موسيقى خاص.

^(٣) التكجل: نوع من الطبل له صوت يمر من الفلابة والبردية

^(٤) التنقل: وهو طبل عظيم من حديد، يمد من جهة واحدة لعماس الشكل، له صوت عال ويسعمل في سلطة الفور عند استقبال السلطان.

نظر: نسخة الأفعان من ١٢١.

^(٥) في الأصل: "كقور".

^(٦) عبارة: "نسبت لأن أنكره هناك أي أنه سي يذكره في كتابه نسخة الأفعان وجاء ذكره هنا ممازجاً من أنه هنا المكسب والرمات الوثيق بالكتاب الأول بل هو مكمل له.

^(٧) الشكل: "مادة مطانة كثر من..."

^(٨) في الأصل: "لكن يلبس في دارفور أكثر من الوداي".

أكثر مما في ودای، والأصفر منه غالى الثمن حتى أنه ربما يبيع برأسين من الرقيق، وهو أحسن ما يتزين به عندهم، كما أن حراب الفور أنقن من حراب الودای وأجمل رؤية، وبالجملة فإن أهل الودای أقل تمدناً من أهل دارفور، لكنهم أشد منهم بأساً وأقوى مراساً، حيث إن الرجل من أهل الودای لا يعبا بمشرة رجل من الفور ولقد قمنا ذكر شجاعة الودای فيما وقع بينهم وبين الفور من المحاربة.

وأما زى نسانهم فقريب من زى نساء الفور إلا أنهم لا يضعن الخزام^(١) في اتوفين^(٢) بل المرأة تنقب أنفها نقباً واسعاً وتضع في النقب مرجاة من الطبخ المسمى عندهم بالتفاو، وإن لم تنقر على ذلك وضعت عوداً، ومن عادة النساء أنهن لا يطرحن السواك من أيديهن ويستكن بكل شجر وجننه، ومتى ما أكلت الصبابة منهن طعاماً فزعت إلى السواك، فتستاك قائمة وقاعدة وسائرة، ولا يمنعها من السواك إلا النوم أو شغل مهم، ولذلك ترى أسنانهن نظيفة ورائحة الفواهن جميلة جداً، ومن عاداتهن أن المرأة منهن تلبس في رقبتها ثوباً من غير خياطة وهي إن تعد إلى شقة عرضها ذراعاً مثلاً، وطولها نحو خمسة أذرع أو أقل فتشقيها من الوسط وتلبسها في عنقها، فتصير مستورة من الأمام والخلف وجانبها باديان لكنها تتحزم بفوطاة، ولولا ذلك لبانت فخذها وأكثر حليهن حلى نساء الفور، إلا أن حلى نساء الفور أنقن وأجمل لثمن أهل الفور أكثر من ثمن الودای ويلبسن في أوساطهن الخثور وهو خرز مستطيل أحمر وأبيض ولزرق ليس بالغليظ كالمنجور الذي تلبسه نساء الفور.

ومن عادة النساء في دارفور كنساء الودای أن يتحزمن بخيط ويوتين بخرقاة عرضها نحو من شبر وطولها أكثر من ذراع فتدخل المرأة الخرقاة بين فخذيهما وتدخل طرفها في الحبل المتحزمة به من الأمام ومن الخلف، وتفرده فيها ليغطي سوعتها من الأمام والخلف، بحيث لو وقعت الفوطاة المتحزمة بها تكون مستورة

(١) الخزام: هو نوع من الحلى يسمى بالسناء وهو اللاصق من المعص والشمس من النعنة والعمارة من النعارة وهو على نوعين: حلى وشوكى، فالنعلنى عبارة عن حلقة لها ثقب، وهذا الثقب يعمل فيه مرجاة لها شوكى فهو عبارة عن حلقة عليها غليظ والنعلنى الآخر رفيع كالشوكى يعمل فيه أربع مرججات بها حبات ذهب.

محر: نسخة الأمان من ٢١٣.

(٢) في الأصل: في اتوفين.

العورة، وهذه الخرقعة عندهم تسمى الكنفوس وبلغه العبيد تسمى الجوكو ومن عادتهم أن يكثرن من لبس النماذج^(١) والخلخل^(٢) وهي نحاس أصفر. وطيب نساء الفور الذي يتطيبن به أحسن من طيب نساء الوداي ثم إن أهل الوداي أعظم أجساماً وأطول قامة من أهل دارفور، بل ومن غيرهم، وليسوا حالكين في السواد كاهل الفور والباقرمة، بل الغالب على ألوانهم الصفرة، فلا يوجد فيهم من هو حالك السواد الاقليل، وأكثر قبائلهم كذلك، كما لا يوجد فيهم من هو صغير الجسم الا القليل^(٣) بخلاف الفور فغالبيتهم سود، وليس فيهم من هو ضخم الجسم الا القليل، وأعراب بانيتهم أصفى لوناً من أعراب بلادية الفور^(٤) خصوصاً القبيلة المسماة بالمحاميد فإنها تكاد تكون في ألوان أهل مصر، ولا يعيرون احمرار اللون كما يعيرونه في دارفور بل عندهم الألوان كلها متساوية، وهي فطرية الله، والأسود والأحمر والأصفر عندهم على حد سواء، بل كلما قل سواد المرء كلما حسن عندهم وتمسحوا به وقالوا إن هذا من حسن الأصل، لأن عندهم إحليلات^(٥) السواد من التوشل في الرق، وكلما خلص من السواد كان أقرب للحرية. ومن عادة الأبقار أنهم لا يبالغن في أكل الطعام بل منهن من لا تأكل الا الحريرة^(٦) وهي المسماة في عرف الأوربيين بالكريما، وذلك خوفاً من كبر بطونهن ولهذا تجدهن ضامرات، ويشدن أوساطهن شداً قوياً قصد الضمور، ولا يبالغن في أكل اللحوم أيضاً، وعليهن أكثر الأعمال كنساء الفور، بل أكثر لأن النساء في دار الوداي من اللاني يذهبن الى السوق ويشترين ما يحتاجه المنزل،

^(١) النماذج: جمع منطج وهو السور ويصنع من قطعة Macmichael: OP. Cit P 104

^(٢) الخلخل: هو الخلخل: نوع من الاسود تزين به النساء في دارفور ووداي وليس في الاراضى حارة ويصنع من النحاس للسادة المنيرات والذات الاعضاء يخلط النحاس بالنوبا الصلابة فيمل لونه الى الاصفر القرب من الذهب.

مطر: تلمحة الامعان من ٢١٨.

^(٣) في الأصل: .. الاقليل...

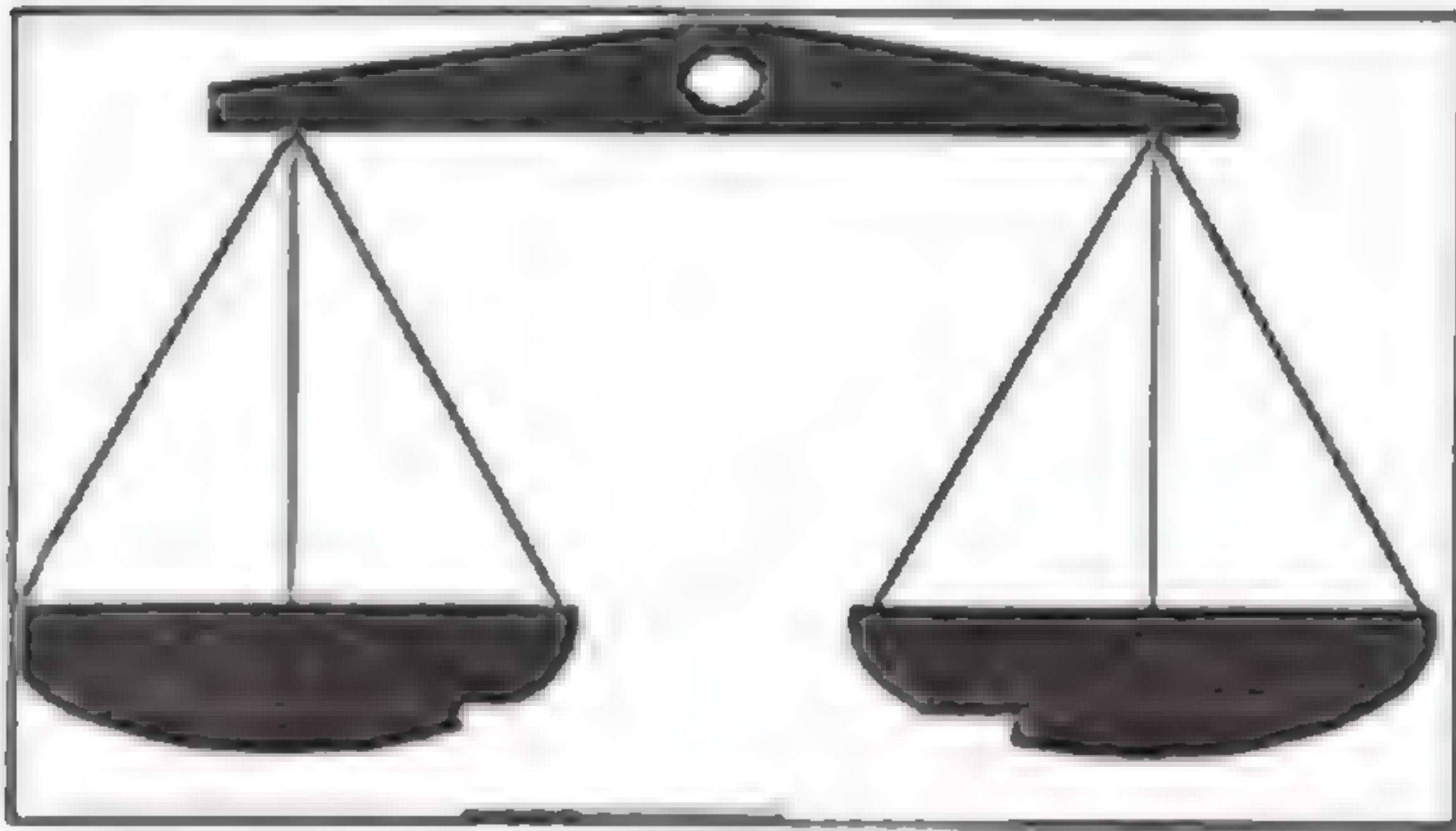
^(٤) حديث المؤلف من ألوان الوداي أنهم أكثر صفرة من أهل دارفور حديث في بحث في قبائل الصحراء والبلدية السودانية، مثلاً في بعض على ألوانهم الأصلية قللة احدا منهم لا يفرق بينا نجد عكس ذلك في بلاد دارفور وكردستان حيث القليل أكثر احداً كما في القليل فتمت ألوانهم وانكسارهم حادة لقل من السادات وفي هذه النسبة... وغيرهم.

^(٥) لونه "اسهلون السواد" يفسد شدة السواد من قوله: فلان حاله السواد أي - شدة -

^(٦) الحريرة: وتعرف في دارفور بالندبة نو النساء وتقدم كوحدة حفلية في رمضان، لو بعض الحالات المرضية وشعره الواحد.

والرجال لا يعلمون ذلك، ومن عجيب صنعهم أنهم يحملون البضائع من بلد إلى بلد، ولكل امرأة منهن ريكتان، والريكة^(١) أشبه بالقفة في عرف مصر، ولكل ريكة كفة من الحبال لها أربعة أحبال، فتأتى (المرأة) بعصاة غليظة وتضع طرفها في رؤوس الحبال من أعلى والطرف الثاني كذلك، فتبقى الريكتان والحبال والعصا على هيئة ميزان هكذا

الرسم:-



أي ذى كفتين، وذراع، فتحملة المرأة من الوسط حتى تعادل الكفتان، وهذا هو المسمى كراتنقى، فيجعلون في الريكتين ما يشاءوا من لحم ولبن ونقيق ومأكّل ومشرب وبضاعة، ويتجّرّ فيها وتحمله المرأة وتساقر به السفر البعيد كما نكرنا، ومن يحرثن ويحصنن ويقمن بالزراع وعليهن لشق الأمور وأسيها كالماء والحطب وجمع الأرز والتمر هندي والخروب^(٢) والنبق، ولما الرجال فطيرهم^(٣) مقاتلة الأعداء والحياسة والغزل وجميع الأمور المهمة، (كرعاية) البقر والرقيق وعليهم الغزو لبلاد الفرتيت وخدمة السلطان وبناء البيوت واقتحام الأمور العظيمة بالجملة، فتقى دار الفور والوداي (الرجال) اختلاط عجيب بالنساء في الليل والنهار لأن بناتهم يختلطن مع الشبان بالليل ولا يمكن حجب المحبوبة عن محبها، ويتحيلن

^(١) الريكة: تطلق المرأة الرء، وهي آلة واسع كالمقلاة لكنها أكثر منها وتجمع من حديد فحار الحلب والحقا وتسمى بشكى دليل ونسج

موايل حصة لأربع من الفرة، وتتمثل طريقة واسعة في دارفور ووداي

^(٢) في الأصل... الخروب* والخروب الخروب وهو نوع من ثمار الشجر لكنه الحيوانات لغير لنا كثيراً وأحياناً يأكله الناس لأن طعمه لذيذ وفيه حصة.

^(٣) في الأصل... لما الرسل فعلها...

فى ذلك بكل حيلة يقدرن عليها^(١) ولقد كان أحد الترافقة بدار ودائ يهوى جارية من محافل السلطان صابون، وكانت هى أيضا تبواه وكانت لها عند السلطان منزلة عظيمة، ومن حب السلطان فيها أنه أخذها معه فى الغزو حين توجه لقتال التما الذى أسلفنا ذكره، فبرطلت^(٢) الخدام والجواري وصارت تخرج اليه من أخبية السلطان، فتبيت عنده كما قمنا ذلك ولقد رأيتهن فى دارفور يتحيلن بالمعائن فتأتى المعجوز للغلام الذى تريد أن تدخله دار السلطان فتضفر شعره كالمرأة^(٣) وتلبسه العقود والخلاخل والدمالج وتبهينه بهينة الجوارى وتضمخه بالعليب، بحيث لا يشك رائية أنه جارية، ثم تدخله دار السلطان مع ما فيها من الحجر والتضييق على النساء الداخلة، خصوصاً من الطواشية الذين يقتلون الاتسك ويسألون ولا يسألون لم قتلتموه، وأقول إن الأمر الذى دعا النساء لهذه الأعمال كونهن مظلومات مع سلاطين السودان وملوكها، لأن السلطان فى داره أكثر من ألف امرأة جميلة تصلح لأن تكون ضجيرة له، بخلاف الخدم والمعائن بل يوجد فى بيوت الملوك من عنده خمسمائة امرأة ثابتة^(٤) من ذوات الجمال، وبالضرورة من حيث أنه آدمى لا تقرة له على الامام بجميعهن ومن شابات قويات الغلظة وعندهن المأكول والمشارب خصوصاً ويشربن من المسكر فيبهيج عليهن الشهوة، فيتحيلن بكل حيلة كما ذكرناه ولولا أنهن يظلمن، لما فعلن ذلك الأمر المنكر حتى أنه ربما كان سبباً لقتل الرجال وقتلن وقتل من أنخلهم، فلقوة الشهوة يرمين أنفسهن فى الهلاك وسوء الارتباك، وبالجملة فهن سبب لأكثر مصائب الرجال لكن العقائل من الرجال يحزم رأييه ولا يعطينهن زمامه وقيادته، وقد اتفق أن رجلين عاقلين قتلا امرأة وماذا لك إلا أن العرف الجارى عندهم أن المرأة لا تجبر على أحد بل كل من أحبته تركوها وإياه، ومن اصطلاحهم أن المرأة إذا أحببت رجلاً وأختارته صارت

^(١) الواقع الاحتمالى فى دارفور وما حولهها لم يكن هذا الوضع من عادته كما ذكره المؤلف وإن وجد فهو لغوامز الحياة ومتعطلة من نعوت بن الرجل والمرأة وقد بقا ذلك غريباً على بعض المجتمعات العربية.

^(٢) (برطلت) وهى كلمة عربية مغربة والضمود تركبهم وأصلهم.

^(٣) فى الأصل "فصل شعره كالسهم".

^(٤) هذا العدد صالح به لكه يمكن كثرة النساء السلاطين من العرائر ومادة ما يخدم السلاطين فى دارفور وودى ما يبيع النساء حسب ما يحدث من هذه الامانة.

له فإن كانوا عشرة رجال أصحاب وبينهم امرأة واحدة (يطلبونها) خيرت، فإذا اختارت أحدهم صار^(١) التسعة كإخوان لها، يناديها كل منهم (بكلمة) يا اختى، وهى أيضا كذلك، فإن مالت بعدها لرجل آخر منهم ربما أوقعت بينهم عداوة لشدة الغيرة، خصوصاً إذا كانت من ذوات الجمال، وقد اتفق أن صاحبين عثرا على^(٢) شابة جميلة أو تعرضا لها لتختار واحداً منهما كما هى عانتهم، فاختارت أحدهما فقال لها الآخر أنت قد صرت اختى، وبقياً كذلك مدة، فملت صاحبها الأول، وأرادت أن تصاحب الثانى ومالت إليه بكليتها، وكانت جميلة كما ذكرنا فمال إليها هو الآخر ولكنه^(٣) خاف من اللوم والعار، وأن تقع العداوة بينه وبين صاحبه فتكون سبباً لهلاكها، أو هلاك أحدهما فاختلفا بصاحبه وقال له بنى عارض لك رأياً لاأنتق أنا وإياك فيه على ما فيه الخير، وماذا لك إلا أنك تعلم أن النساء فتنة للرجال وأن ثلاثة قد ظهرت خيانتها وتقت نفسها على، واخشى أن تكون سبباً للعداوة بيننا، وإن كنت فى شك مما أقول فاختلف بالليل فى موضع كذا وأنا أتى كائى أسأل عنك وأنظر ما يحدث بيننا، ولكن اشروط عليك أن رأيت مايسوءك منها فإن^(٤) استغثت عنها فسبها واتهرها، وقل لها يا خائنة إياك وإن تعودى لى أو لصاحبى واعلمى أننا لاتعاضى بعضنا لأجل امرأة خائنة مثلك وإن لم تستغنى^(٥) عنها وتمكنت محبتها منك فلا تظهر لها، وأنا اتخلص منها بجميل وأبعد عنكما مدة حتى تسلوها، فقال له صاحبه نعم ما به أشرت، ثم انه صار حتى كان الوقت الذى وعد صاحبه أن يأتى فيه فأتى ودخل الدار وكان عشيقها قد جاء أولاً واختفى فى مكان ما ليشارك مايقع بينهما، وهل كلام صاحبه حق أم لا^(٦)، وحين دخل الرجل الدار وشعرت به قامت إليه وتلقته وبشت فى وجهه وعرضت عليه الجلوس معها: فقال لها: ابن أخى، فقالت له لا أعلم وبالله عليك لاأنتل أخى فإنه والله لايجبك ولايألفك

^(١) فى الأصل * صارت خمسة..

^(٢) فى الأصل * عثرا مثله..

^(٣) فى الأصل * هو كانه حال من اللوم..

^(٤) فى الأصل *.. لأن كان لك من هذا..

^(٥) فى الأصل *.. وإن لم يك من هذا..

^(٦) فى الأصل *.. وهل كلام صاحبه حق أو لا..

وأنت تضع الود وتصنع الصنعة في غير محلها، فقال لها أنا لا أعلم من صاحبى
الأوداء ووفاء فقلت له إن كنت لاتصغى للكلام فيه فشأنك وإياه، ثم نلت منه
ورمت نفسها عليه، فامتنع عنها وقال لها اعلمى أنك صرت الآن لفلان^(١) فإن
تركتيه واتبعته كنت هذه خيانة^(٢) منك وإن قبلت كنت خائناً أيضاً وما الذى
منعك أن تختارينى أولاً، فقلت: إبنى أخطأت وظننت أنه يعادلنى فى المروءة فظهر
لى ضد ذلك، وقد ندمت الآن والقيت اليك زمام أمرى وها أنا بين يديك، فقال لها
أما من جهة فلان صاحبى فلا أخونه وأما أنت فإن كنت محتاجة لأمر ولم يوفه لك
فعلنى وفازة فقلت قد زهنته^(٣)، ولأحاجة لى به، فإن كنت تقبلنى والاهمت على
وجهى ولن أعائره، ولما سمع عشيقها مدار بينهما من الكلام أخذ الغضب
وظهر عليها، ولم يخاطبها بل مسكها وضربها بسكين فى أحشائها فخرت ميتة
فقال له صاحبه ويك ولم فعلت ذلك فقال: أرحت قلبى لأنى أحبها ومن حيث أنها
تبغضنى فلا آمن أن أقع فى بعض المهالك بسببها ولما ماتت تحير فى أمرها فاتفقا
أن يقطعاها ويحفرأ لها حفرة ويلقياها فيها وكتما أمرها حتى مات القاتل ثم حكى
الرجل الآخر (القصة) ولولا إخباره لما ظهر الأمر، وخائفات النساء كثير فلا
بارك الله فى كل خائنة ورحم الله من قال:-

فبين من تغلر بجلد حورارة	فبين من تسوى ثمانين بكرة
إذا غاب عنها الزوج راحت لجمارة	فبين من لم يستأ الله عرضاً
وأعرق كل الخائفات جارة	فلا رحس الله خائنة النساء.

وافكر فى هذا السياق ماجرى لأحمد بن طولون مع بعض محافظى أبيه ذلك أن
أحمد أرسله أبوه داخل الدار لحاجة، فرأى محظية والده مع عبد من العبيد فخافت
أن ينم أحمد لأبيه عنها^(٤) فيقتلها، فسكت على مضض حتى دخل طولون الدار

^(١) والاصل ... على اسم فلانة.

^(٢) والاصل .. كنت ملك محبة.

^(٣) ولاد زهنته. أى كرهت على نساء لعل ورفور ورواها.

^(٤) والاصل .. فعاتت أن ينم أحمد عليها لأبيه.

فقامت الجارية وهي باكبة العين، فلما رآها على تلك الحال تألم قلبه من ذلك وكان يحبها فقال لها مادهاك، فقالت بمكرها ودهانها أيسرك أن أحمد ولدك يراودني عن نفسي، ولولا أنني تحببت عليه ووعدته وقتاً آخر لفعل^(١) ما أريد أو قتلني، فاحتفظ طولون لذلك وعزم على قتل ولده، لكن لم تطاوعه نفسه بذلك فكتب إلى^(٢) أحد عماله كتاباً يقول فيه: إذا أتاك كتابي هذا فاقطع رأس حامله من غير مشورة والسلام، وطوى الكتاب ودعا بولده أحمد وقال له اذهب بكتابي هذا إلى عاملنا فلان ليعمل بمافيه وأنتى عاجلاً، فامتلأ أمر والده وأخذ الكتاب وأمر بالسراج دابته فراه العبد الذي كان وجده مع الجارية، فأراد أن يتخذ له بدأ عنده ويبغض فيه أباه لما يرى من تهاونه في قضاء حاجته فقال (له) إلى أين ياسيدي فقال: إن والدي أرسلني إلى العامل فلان بكتاب يأمره بأن يعمل^(٣) بمافيه، فقال له هل يتفضل على مولاي بهذه الخدمة ويكون هو في راحة وأنا أقضي عنه هذا (الأمر) المهم^(٤) فأجابه أحمد لذلك وأعطاه الكتاب، واغتم الراحة، فلما كان ثاني يوم دخل على الملك رسول وكتاب من طرف العامل ومعه مخلاة وكتاب يقول فيه: بعد تقبيل الأيدي هاأنا قد امتلأت أمر سعادتك وهاهو رأس من أمرتني بقتله صلبة حامل الأمر، فلما رأى الملك طولون الرأس وجدها رأس عبد من العبيد، فأرسل خلف أحمد ولده، فلما حضر قال له ويلك ماذا صنعت بالكتاب الذي أمرتك أن تذهب به إلى فلان العامل، قال: قد أخذه مني فلان العبد، وأقسم عليّ بحقك أن يذهب هو، فقال له هل كان بينه وبينك شيء قبل هذا، فسكت فقال له أخبرني على الصحيح فأخبره أنه راه مع فلانة المحظية وأنه ستر عليهما خوفاً من الهلاك، فعند ذلك تحقق والده صدقه وقتل الجارية التي كانت وشت فيه، ورحم الله ابن عروس حيث قال:

^(١) في الأصل: .. لكن فعل ما أراد..

^(٢) في الأصل: .. فكتب إلى بعض عماله..

^(٣) في الأصل: .. إن والدي أرسلني إلى عامل فلان بكتاب يعمل بمافيه..

^(٤) في الأصل: .. القس على هذا المهم..

ياخوي قلت لي مالك وبيلوسك جينها لك

اللي يعمل الخير لفلان واللي يعمل الشر هالك

وسبب إنشاء الشيخ ابن عروس هذين البيتين انه كان صغيراً ومات أبوه وتزوجت أمه برجل كان يفضض الشيخ ابن عروس لكونه ربيبه، فأتى في يوم من الأيام بفاكهة، وكان يريد أن يأكلها وحده، فأتى ابن عروس ودخل عليه في ذلك الوقت فتغصص عليه وأراد أن يتحيل عليه ويبعده عن وجهه، بحيلة حتى يأكل تلك الفاكهة فدعاه وقال له: يا أحمد خذ هذا الدائق^(١) واذهب به الى العطار والتقى منه^(٢) الذي يقال له هاك، فصدقته الشيخ وأخذ الدائق وذهب يسأل العطارين واحداً بعد واحد، وكل من قال له أعطتك هاك، يجيبه بلا، فمر على أطفال صغار معهم عترب عظيم مربوط بخيط وهم يلعبون به ويقولون هاك، هاك، فقال لهم الشيخ هذا الحيوان هو المسمى هاك، فقاتلوا له نعم، فقال لهم خذوا هذا الدائق واعطوني إياه لأنى بحثت عنه^(٣) عند العطارين فلم أجده فرضيوا وأخذوا منه الدائق فآخذ العترب ولم يعلم أنها قتالة فسلمه الله (منها) حتى وصل الى زوج أمه فقال له: هل أتيت بهاك؟ قال نعم قال: أين هو؟ قال هاهو قال هاته ومد يده فأعطاه العترب فلما صارت في يده لسمعه بزنا بها^(٤) لسعة عظيمة فسقط ميتاً، فأنشد الشيخ البيتين المذكورين، فويله^(٥) يعلم مصداق قوله تعالى: 'ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله'^(٦) وقوله تعالى: 'ومن يعمل سوءاً يجز به'^(٧) وقوله صلى الله عليه وسلم: 'المرء يجز بعمله إن كان خيراً فخير، وإن شراً فشر' ولهذا قالوا: من حفر حفرة لأخيه أرقعه الله فيها.

^(١) الدائق هو عسل معدة مصرة ويسمى عسل الحرص.

^(٢) في الأصل: "خذ هذا الدائق واذهب به الى العطار واتق من فلان الدائق".

^(٣) في الأصل: "بحثت عنه...".

^(٤) وثمنا: أي بلغها الذي به الشركة المسماة.

^(٥) في الأصل: "ومن هاهوله" وهارة من هاهوله.

^(٦) سورة طه، الآية ٤٣.

^(٧) سورة النساء، الآية ١٢٣.

ومن هذا القليل ما حكى أن ملكاً من الملوك كان له نديمان وكان أحدهما يحسد الآخر لمكانه من الملك، وكان المحسود حديث عهد بصحبة الملك، لكن لفصاحته ونباخته أجل للملك قدره، وأحبه محبة عظيمة، ومن شدة حسد النديم القديم أنه صنع طعاماً جميلاً وأكثر فيه من الثوم، ثم دعا النديم الجديد إلى بيته وأحضر له ذلك الطعام، وكان جميلاً، فأكل منه بقدر الكفاية، ثم بعد فراغه من الأكل قال له ابن مولانا يكره رائحة الثوم غاية الكراهية^(١)، فإياك أن تنو منه قبل زواله، وإذا قدر ودعاك، فأحترز أن يشمها منك، فيكون ذلك سبباً لبغضه فيك، فتقبل^(٢) الرجل قوله، وذهب إلى داره، ثم توجه الحاسد إلى الملك وقال له: إني لك من الناصحين، فقال له الملك وما نصيحتك، قال له إنك ظننت الخير في غير أهله وقربت من لا يستحق التقرب، فقال له الملك ومن تعني بذلك، فقال: ابن فلان الذي اتخذته نديماً يقول أنك أبخر النعم وأنه ينادمك على كراهة، لتبج رائحة فمك، وإن كنت في شك مما قلته لك فادعه الآن وأمره بالذنو منك كأنك تسارره، وتري كيف يصرف وجهه عنك، فأعْتَظَ الملك لذلك، وأمر بإحضار النديم المذكور، وهو لا يعلم شيئاً مما كان من صاحبه، فلما جاءه رسول الملك لا يمكنه^(٣) إلا الإجابة، فلما مثل بين يدي الملك هش الملك في وجهه وترحب به واستدعاه، فخاف النديم أن الملك يشم منه رائحة الثوم، فصار يصرف وجهه عن الملك، فلما رأى الملك منه ذلك تحقق صدق مقالة صاحبه، فقال للنديم المذكور بت عندي في هذه الليلة لأني أريدك في أمر مهم، إذا دعوتك فأتني من باب السر الفلاني، وكان نديم السوء حاضراً، فلما سمع من الملك ذلك القول زاد حقه وقال: (في نفسه^(٤)) أنا وشييت فيه لأبعده عنه وما زلت الوشاية إلا تقرباً، وتركه حتى خرج من مقر الملك وقال له: أريد أن أكون معك في هذه الليلة، فقال النديم المحسود: حباً وكرامة، وتوجهها معاً إلى المحل الذي أمر السلطان أن يبيت فيه، وكان بين المحل ومحل^(٥) السلطان

^(١) في الأصل: "ابن مولانا يكره رائحة الثوم غاية الكراهية لرائحة".

^(٢) في الأصل: "فأخذ الرجل قوله بحول".

^(٣) في الأصل: "لم يمكنه إلا الإجابة".

^(٤) في الأصل: "رأى حقه وقال أنا وشيت به لأبعده". ومهم من هذه العبارة كأنه يطلب السلطان لو الحضور ولكه يملك نفسه.

^(٥) في الأصل: "وكان بين المحل وبين محل السلطان..".

مجاز طويل، فأمر السلطان أن يحفر سرانيب في المجاز، وأن يغطي^(١) بشيء واد، وأمر بعض العبيد أن يرصدوا^(٢) هذا المحل ومتى سمعوا بوقعة انسان فيه أن يطموا عليه التراب، فمكث النديمان مع بعضهما يتحادثان زمناً من الليل، ثم إن الحاسد أظهر التناوم وتناعب مراراً^(٣)، (أما المحسود فقد أخذ النوم فنام بالفعل، فانتبه الحاسد وقال في نفسه: هذه فرصة لا أضيعها، بسل أبقى ساهراً حتى يدعوا الملك فلاناً فأذهب أنا إليه وأقول له يا مولانا إن فلاناً متهاون بأمرك، فإني أمرت أن يستيقظ حتى تدعوه فلم يمتثل^(٤) بل نام وحين سمعت نداءك أحببتك ليغضب عليه غضباً كلياً، فمكث ساهراً حتى مضى معظم الليل^(٥) فلما كان ثلث الليل الأخير سمع نداء الملك يا فلان، فقام الحاسد وأجاب النداء والمحسود مستغرق في النوم لا يشعر بشيء من ذلك، ثم فتح باب السر فصار الرجل يهرول في الظلام حتى وقع في الحفير وسمع^(٦) العبيد الواقعة فطمعوا عليه التراب فهلك، ولما أصبح الله الصباح استيقظ النديم فلم ير صاحبه، وعلم أن السلطان ناداه ولم يشعر بدائه لنومه^(٧) (فقام) وأصلح حاله وتغليب ودخل على الملك فلما رآه تعجب، ثم دعا بالعبيد وقال لهم (ماذا فعلتم فيما أمرتكم به البارحة، قالوا قد فعلنا وطمعنا التراب على الذي سقط في الحفير فسأل السلطان النديم عن صاحبه فقال: أيد الله مولانا إنه كان معي البارحة وحادثني حديثاً جميلاً حتى غلبه النعاس فنعس ونعست أنا بعده، وما أدري ما فعل، غير أنني أصبحت فلم أجده، فتشكك السلطان وأمر بنيش من في الحفير فنبتش فإذا هو النديم المذكور، فحينئذ قال السلطان للنديم المحسود ما شأنك أنت وهذا الرجل قال لا أعلم بيني وبينه الاخيراً، إلا أنه دعاني إلى داره وأحضر لي طعاماً جيداً فيه ثوم كثير فأكلت منه ثم حذرنى من الدنو منك، وأخبرني إنك تكره رائحة الثوم فلما دعوتني لم أجد بداً من الحضور إليك،

^(١) في الأصل: "أن يجر سرانيب في المجاز ويغلبه..."

^(٢) في الأصل: "أن يرصدوا..."

^(٣) في الأصل: "وتناعب مراراً فلما المحسود..."

^(٤) في الأصل: "فما يمتثل أمره..."

^(٥) في الأصل: "من مضى عمدة الليل..."

^(٦) في الأصل: "... وسمعت الحسد..."

^(٧) في الأصل: "... ولم يشعر بدائه لمكان النوم..."

لكن لما أنيبتني خفت أن تشم رائحة الثوم فصرت أصرف وجهي عنك، هذا ما أعلمه، فعلم السلطان أن الرجل صادق وأن الذي ملك كان حاسداً له، وأن حسده قد أهلكه فأخبر السلطان الرجل المحسود بمأقاله الحاسد فيه وقال له إنما حشرت هذا الحفير لك، لكن لحسن نيتك نجوت ولخبث نيته وقع هو فيه. فيما تقرر يعلم أن الحسد من أكبح الأمور ولهذا قال صلى الله عليه وسلم 'الحمد ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب' (١) وقال الشاعر:

الأقل لمن بات لي حاسداً أنتدري على من أسأت الأديب
أسأت على الله في فعله كأنك لم ترض لي ما وجب

ولنرجع إلى عوائد أهل الوداي فنقول: قد تقرر أن أهل الوداي أقل تمدنا من أهل الفور وأكثر شجاعة ووحشية وعدم استئناس، حتى مع بعضهم البعض، وشبانهم أقوى في ذلك، خصوصاً إذا شربوا مسكراً لأنهم بعد أن يكونوا يتحاشون بليين يغلظون القول على بعضهم فيقتلون وتسفك الدماء بينهم، ومن عاداتهم أن الرجل منهم إذا تقوى (٢) على أقرانه ووصف بالشجاعة يسمونه عفريتاً، وقبل تولية المرحوم السلطان محمد عبدالكريم صابون كان للعفاريات شوكة قوية حتى كان القتل والنهب يقع بعد غروب الشمس في البئر المسمى ببير صابون، وهي قريبة جداً من الفاشر (٣) بحيث لو كان أحد في البئر (٤) يسمع صوته من كان في أول ولاره كالبيت الذي كنا فيه وماحداه (٥) فإذا كان ذلك يقع في أقرب المواضع من

(١) أخذت رواية ابن دونه واليهي وابن ماجة القرطبي ٢٥١/٥ ورواه أيضاً ابن دونه في مسنده من حديث ابن عمر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: 'الحمد ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب' (٢١٠)

(٢) في الأصل: 'أما على على لقرانه'.

(٣) القصيدة بالفنن حاشية الفاشر هي التي فيها السطوح لراه الشهرة لعدة دونه..

(٤) في الأصل: 'بحيث لو كان أحد في البئر لسمع من صابون وهو تكرر عمل'.

(٥) حديث الطول ما علم، لسان الله في الذي حلف له التكان.

واره فمن باب أولى أن يقع في المحال البعيدة^(١) ولقد بلغني أن التجار كانوا لا يقترون على السفر بالتجارة من بلد لآخر إلا إذا كانوا جمعاً عظيماً، وكان العفريت إذا تعشق امرأة منع غيره^(٢) منها، وقتل كل من صاحبها (ويمكنه أن يتزوجها) فها رغم ألف جميع من عارضه ولقد بلغني أن أحد العفريت^(٣) حجر على صبية كانت تكرهه وهو يحبها محبة عظيمة فكان يأتي إلى ديارها كل ليلة، ومضى وجد عندها أحداً قتله حتى هلبه الناس، وتركوا تلك الصبية ثم خطبها فرضى أبوها وأبت هي أن تكون له أهلاً، فبقيت على ذلك مدة ولم^(٤) يتجاسر أحد على خطبتها بل ولا على مصاحبتها، وعافيا^(٥) الناس حتى مضى^(٦) وقت تزويجها، وعانت هي فأبت أن تتزوج به، وبقيت كذلك إلى ما شاء الله، وفي أحد الأيام ذهبت إلى السوق لتتضي بعض شئونها وكانت من الجمال بمكان، فرأها رجل غريب فأحبها، وكان شجاعاً فتأكلاً لا يهرب الموت، ولا يخشى من الفت، فأحبها وهام بها، ورصدها حتى قضت شئونها وخرجت من السوق فتبها^(٧) وسألها الصبية والوداد، وشكا إليها ما يجد من ألم الجوى وتباريح الهوى فقالت له: والله أنك لظريف وأنى والله أحبك مثل حبك لى أو أكثر، ولكن قد حيل بين العير والتروان^(٨) فقال لها ولم ذلك؟ أأنت ذات بعل، فقالت لا، فقال وما يمنعك، قالت: يمنعنى رجل جبار حجر على وسلط على كل من دنا لى، فقال: ولم لا يتزوج بك، فقالت: أنى والله لا أحبه ولا أريده، فقال لها: أهو ذو قرابة منك؟ قالت لا والله، قال إذن لا تخافى فلما أخلصك منه إن شاء الله تعالى، فقالت له حيات هيهات

^(١) في الأصل: "وما كان في قرب التروان أن واره بلغ ذلك مبلغ في المحال البعيدة من باب أولى.."

^(٢) في الأصل: "لما تعشق امرأة حراماً من قوم.."

^(٣) في الأصل: "وقتل كل من صاحبها وتزوجها امرأة على ألف جميع من عارضه.."

^(٤) في الأصل: "بلغني أن بعض العفريت.."

^(٥) في الأصل: "ولم يتجاسر أحد.."

^(٦) عفاها الله.. أى كرمها..

^(٧) عارة: "حين مضى وقت تزويجها.. المصود مهلهل كبرت وأصبحت عالة لأن حارة أهل تلك البلاد قد تروح البست وهي صيرة.."

^(٨) فيها: "كثما منعت في لوساط الشباب المرافقين حارة في وداى ودرغور ونحو نودد إليها وأصمها بمصاحبه"

^(٩) لد حيل بين العير والتروان وهو مثل يضرب ويضرب به إبعاد الشيء عن قريبه.

الخلاص، من ضيق الأقداس، أعلم رحمك الله انى لست خائفة منه على نفسى بل خائفة عليك لأنك رجل تظهر عليك آثار المروءة والمكارم، وذلك رجل غاشم ظالم اذا تمكن منك ربما قتلك، فقال لها: لا تخافى على من ذلك، بل اربى موضعك، ولا يحصل لى شاء الله إلا ما يسرك، فعند ذلك أرتته دارها، فلما كان بعد العشاء جاء ودخل الدار وجلس يحدثها مع أعتاف، فلما كان بعد ساعة أقبل ذلك الرجل الذى حبر عليها، وقد بلغه أن رجلاً^(١) مع محبوبته، فلما دخل عليها كان الرجل جالساً معها واضعاً فخذه على فخذه، فأرابت أن تسل فخذه من تحت فخذه وتتجو بنفسها وتتركهما يفعلان ما لارادا، فلبى عليه صاحبها واتكأ عليها بفخذه فلم تقدر أن تخلص نفسها منه، وتماذى معها فى الكلام الذى كانا فيه ولم يكثر بالرجل الداخل عليهما حتى وقف^(٢) عليهما وقال للجالس ما الذى جاء بك الى هنا^(٣) فلم يرد عليه جواباً فسأله ثانياً فلم يرد له جواباً، والثالثة كذلك، فاغتاظ وسل المسكين المسماة بالكرداوى وضرب بها الجالس فى فخذه حتى وصلت ذبابة المسكين الى فخذ الصبية فأرابت أن تسل فخذه منه فلم تتمكن^(٤) فبهت الرجل (الضارب) من الجالس لقوة قلبه وعدم اكترائه^(٥) (بالضربة) فاخذ مسكينه وأراد الذهاب فقام اليه الرجل الجالس ومسكه من ثوبه فجذب نفسه منه، فتمزق الثوب وبقيت قطعة منه فى يد الرجل، والباقي على جسد الآخر، ثم إن الرجل أراد أن يمضى وينجو بنفسه فصكه الرجل الذى كان جالساً برجله فى ظهره، فوقع على وجهه فتمسلخت جيبته وأثفه وبقي طريحاً على الأرض مدهوشاً لا يعق^(٦) نفسه، فصبر عليه الرجل حتى أفاق ثم سل مسكيناً وأراد نبحه فقال له، الرجل أكلنى أذاك الله فقال له إن تبى وحلفت لك لا تتعرض لها ما نمت حيا ابقيتك^(٧) حياً والإقتلتك

^(١) ن الاصل: "وقد بلغه ان عد مورته رجلاً".

^(٢) ن الاصل: "حق ان الرجل وقف عليهما وهو نكرار على".

^(٣) ن الاصل: "ما الذى جاءك هنا".

^(٤) ن الاصل: "لما مكها".

^(٥) ن الاصل: "لم ان الرجل سل مسكه وامت و عدم اكترائه الملقى وقوة لثمه".

^(٦) ن الاصل: "لا يعقل على نفسه".

^(٧) ن الاصل: "لمت عليك حياً".

الآن فتأهب وحلف أنه مابقى (حيا فلن^(١)) يتعرض لها، فجذبه من لثفه كالشاه حتى أتى به إلى الصبية وكانت جائمة تنظر ما يحصل بينهما ومن سيفلتر بصاحبه^(٢) فأوقعه بين يديها وأخبرها أنه حلف (بعدم) تعرضه لها^(٣) (مرة أخرى) فسأته الحق مايقول: فقال نعم قالت له خلى سبيله، فلن عاد وتعرض لى مرة أخرى افعل به ما تريد فأطلقه فذهب ينفض عبرات الموت، ثم إن الرجل الذى خلصها من يد ذلك الغاشم خطبها من أهلها وتزوج بها فقامت معه حتى قضى نحبها، وأمثال هذا كثير.

تنبيه:-

مما اتفق أن رجلاً وامرأته (كانا)^(١) مسافرين فجاءا فى طريق منقطع عن العالم وكان فى هذا الطريق عفريت قاطع، فجاء عليهما، ولما صار معهما رفع ثيابه وسلح سلحة^(٢) كبيرة فعف الذباب^(٣) على الغائط فجاء بزواج المرأة وقال له: اجلس أمام هذه السلحة وإياك أن يقع الذباب عليها وإلا فسأقتك^(٤)، فذاف الرجل وجلس يذب عنها الذباب ثم عمد العفريت^(٥) إلى المرأة أمام زوجها وجامعها، ولما قضى وطره منها أطلق سبيلها فصارا، فلما بعدا عن العفريت قالت المرأة لزوجها: لما فيك مروءة تترك الرجل يفعل بى هذا الفعل القبيح أمامك وأنت تنظر وماكفك ذلك، حتى أنك أطعته وصرت تذب الذباب عن سلحته، فقل لها زوجها ويلك أنظنين أنى أطعته وذببت عن سلحته الذباب، قالت نعم، قال لا والله، بل تركت الذباب الكبير يأكل منها ماشاء، ولو أنى خفت منه كما تزعمين لما فعلت ذلك، فضحكت عليه وعلمت أنه جبان قليل الحيلة.

^(١) فى الأصل .. فاعف وحلف أنه مابقى يتعرض لها..

^(٢) فى الأصل .. ومن بشر بصاحبه منهما..

^(٣) فى الأصل .. وأخبرها أنه حلف لا عاد يتعرض لها..

^(٤) فى الأصل .. إن رجلاً وامرأة مسافرين..

^(٥) فى الأصل * وسلح سلحة اكوم ما يكونه * وسلح بمن لغوط

^(٦) * فعب الذباب * بمن قول وراكب..

^(٧) فى الأصل .. وأما أن يقع الذباب عليها فلفظه..

^(٨) فى الأصل * لم أن العفريت عمد إلى المرأة..

لكن من العجب أن الواحد منهم يغار على معشوقته، وأن يلم بها غيره، ولا يغار على أخته وأبنته أن يلم بها غيره، لأن منهم من يجلب لأخته ويصفها بالوصاف الجميلة ليشتوق إليها قلوب الناس بل منهم من إذا عنت أخته ونفرت من محبتها وبلغه ذلك زجرها وردّها إلى طاعته، ومنهم من يتغالى في فعل المعروف حتى أنه يدخل الرجل الأجنبي على أهله ويتركها وأياها^(١) على حد قول القائل:

أقود محمد الله لكن كرامته وغيري قواد على مرغم أمه^(٢)

وكنك النساء لكثرة الغلظة والشبق لا يردن^(٣) قاصداً فتجد أكثرهن لئيبين اصحاب غير رجالهن ولا يقنعن بأزواجهن ويعرفن من بعضهن ذلك وينكرنه ولا تقدر المرأة منهن أن تعير جارتها بذلك لأنها هي الأخرى^(٤) مثلها، كما قال القائل:

قالت لجارتها يوماً تعانينها قرنت زوجك والتربين بنضحة

قالت أتركي جأ بلا قرن يأتيه زوجك ذو التربين بنضحة

على أن منهن من لها زوج ولها جملة أخلاء على حد قول القائل:

أيا من ليس يرضيها خليل ولا التي خليل كل عام

أراك بتيته من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعير

وبالجملة فطوائف السودان مشتبكون بحب النساء كاشتباك العصارة بالأمجار، وكل منهم يصرح باسم محبوبته على حد قول القائل:

فصرح بمن تهوى ويسعى من الكنى فلا خير في اللذات من دونها منى

^(١) هذا الحديث من عدم غيرة أهل ودي على برائهم ونسبتهم غير صحيح على إطلاقه، بل أكثر أهل مدغم على النساء التزويجات ما كانت تفرح من ليس له سوى أهل لها واحد رجلاً غريباً مع روحته، وأحياناً تغفل لثراء حسنها مع حبيلها ومسال عنها أحد وكما سلك الأمر بالنساء فلاب أن الأح لها فأكده من لسان أهلها لئلا يروا أنه فرما قلها صيانة لمرحم

^(٢) البيت * بمن أن يجلب الرجال للنساء نظراً منة ومكرمة لها الآخرون ليعطوهم حواء منهم

^(٣) في الأصل * لا يردن لاسناً *

^(٤) في الأصل * لا لها هي الأخرى كمللته *

إلا إن أخاف الإنسان منهم من التصريح أن يعرض نفسه للتلذذ مثلاً إذا صرح
باسم بنت ملك أو زوج ملك (بأنه يحبها)^(١) فإن يخشى على نفسه من القتل، فلذلك
العاقل منهم يكتم عند ذلك هواه، ويصبر على بلواه إلا إذا عدم رشاده وأصبح
صلاحه فساداً فقد يبيح سره، يرجو بذلك كشف ضرره، ولا يخشى ملامة العزّال
وإن أوقعه التصريح في النكاح، على حدّ قولى فى بعض الأحوال:

ومن فرط حبيّ بك يا نور مقلنى خلعتُ عِدَامِيْ بك والخرق السق
وهمتُ فلم أخش الملامر لما ذل لأن مماتى فى هواك هو الدخْر
وأما الذى يتستر فى الحب فيقول لكى يبلغ المأمول

خبأتك فى عيني مخافة عاذل وقد شَرَفْتُ بالذات تلك المراضع

ومن فرط حبيّ فى جمالك إنشيت رقيباً فى هواك بصارع
وبالجملة فهذا باب واسع وبحر زاخر لو ولجنا فيه يطول الحال، ويحصل الملل،
ولنرجع لما نحن بصدده ونفرق الأغنة الى ما التزمنا بإيراده وقصده.

^(١) فى الأصل :.. كما لنا صرح باسم بنت ملك أو زوج ملك فانه يمتنع.

الفصل السابع

في وفاة السلطان صابون وماتلى ذلك من الأحداث^(١)

يعود الفضل في معرفة المعلومات التي تتعلق بمقتل السلطان صابون والأحداث التي ظهرت بعد ذلك إلى الفقيه دليل من كبار القضاة في وداي. مر على القاهرة عام ١٢٥٧هـ (١٨٤١م) ففى وداي يذكر موت صابون بطريقتين. يرى بعضهم أنه مات بالمرض، ولكن البعض الآخر وهم الأكثرية يؤكدون أنه مات ميتة شنيعة، وهذا ما حكاه لى الفقيه الهلالي ورفاقه الذاهبون معه إلى الحج، أنه في أحد الأمسيات وبعد نزول الليل خرج صابون لزيارة والدته في قرية مومو حوالي ربع ساعة من واره في اتجاه الشمال والشمال الشرقي من المدينة، وحتى لا يعرفه أحد خرج من منزله ومعه عبيد فقط ومكث مع والدته عدة ساعات ثم ركب حصانه عائداً إلى واره، وفي الطريق لاحظ لصين يتودان بقرة، فأسرع نحوهما فترك اللصان البقرة وفراً، فأمر عبيده بأن يقبضا على البقرة واتجه هو لملاحقة اللصين خاف اللصان وافترقا ذهب أحدهما جهة اليمين والآخر جهة الشمال قصد صابون أحدهما وضيق عليه وكاد أن يقبضه، فلما رأى السارق ذلك وهو جار بأقصى سرعته، استدأ إلى السلطان وصاح قائلاً له: ماذا تريد منى؟ لقد تركت لك فريستى، فقال له السلطان: أريد أن أقبض عليك فرد عليه قائلاً: إبنى أنصحك أن ترجع، ولكن هذا النداء لم يجد استجابة من صابون، وانطلق نحو السارق الذي بدأ يجرى فكاد صابون أن يلمسه ويمسكه فاستدأ السارق وأرسل له حربة ثبته في كليته، فتهاوى صابون وكاد أن يسقط من حصانه فأسرع العبدان نحوه فوجداه مغشياً عليه فحملاه وتركوا البقرة، وأمرعا به نحو واره فأوصلاه إلى القصر لكن السلطان كان ينزف بغزارة فنقد الكثير من الدم، فكان الجرح غائراً لأنه فتح الكليتين على الجانبين.

^(١) هذا الفصل مطرد تماماً من المخطوط العربي، ولما ترجمته من الأصل الفرنسي، وكل معلوماته جاءت من الفرنسي عنه وهو ما يؤكد أن الأصل العربي قد تعرض لمشكلات عدة من النسخة والترجمة.

وهناك رواية أخرى تقول إن الضربة كانت في صدره فتقبته وبعد ثلاثة أيام مات صابون وخلفه ابنه عبدالقادر، ولكنه مرض بعد ستة أشهر فقط من تنصيبه ومات، وخلفه أخوه محمد خريفين.

وكان خريفين عندما نصب للعرش صغيراً جداً على الحكم، فذهبت إدارة شئون السلطنة إلى أعمامه الذين أصبحوا أوصياء عليه، وظل الأمر على ذلك حتى بلغ خريفين أمده واستولى على العرش، وأصبح حاكماً مطلقاً فاستعمل خريفين في البداية الرفق مع أعمامه، لكن وكالعادة فإن السلطة المطلقة دون رقابة أو حدود أسكرته وحملته فيما بعد على إساءة استغلال سلطاته، فكان كثير الحركة وكان يعذب ضباطه ووزرائه بطرق عجيبة وكان يقود بنفسه الحملات لصيد العبيد من الجناخرة، وذهب يوماً ما إلى دارسلا ليعاقب حاكمها، لأنه لم يدفع الضريبة التي فرضت عليه كاملة، وبعد تمام مهمته بدلاً من أن يعود إلى ولده استقر في دارتاما، وهناك بدأ في مواصلة مكائده وأشياءه الغريبة الأخرى، فمثلاً عندما يجلس أمام منزله وتهطل الأمطار بكثرة لا يدخل البيت، وإنما يأمر ضباطه بأن يأخذوا قطعة كبيرة من القماش ويرفعونها فوق رأسه ليستظل تحتها من المطر حتى يتوقف وعندها يدخل منزله.

وعندما يعلم أن هناك امرأة جميلة في أي بيت متزوجة كانت أم غير متزوجة يأمر باحضارها إليه، وكان من طباعه أيضاً السكر وكان يعذب الناس أحد مطالب خريفين اليومية، وعندما يعود أحد القواد من حملة يرسله فوراً إلى حملة أخرى وعملياته الاحتشائية تكاد لا تنتهي، وبدون أي سبب كان يصادر أموال أحد الأفراد ليعطيها لآخر، ثم يأخذها من هذا ليردها إلى الأول أو يمسلمها لثالث.

إن هذا الجنون والاستبداد الشديد قد أزهق الناس ونفذ صبرهم فحدث أن اجتمع اثنان من الكماكلة أحدهما يسمى ديني والآخر يسمى قسايي حاكم بنسي سلامات، فتآمرا وقررا أن يضعا حداً لهذه الأشياء الغريبة وهذا العنف الذي يقوم به السلطان ويتخلصا من هذا السلطان الكريه، وفي إحدى الليالي دخلا خلعة إلى منزل خريفين أنبحه، ولكن النساء شعرن بذلك وخبأنه عندهن، فاشعل المتآمران

النار في المنزل، وفي اليوم الثاني ظهر السلطان وسط جيوشه وكبار رجالاته وارسل للبحث عن قبية وديبة، ولكنهما هرباً ولا أحد يعرف لهما أثراً، فصاير خريفيين ممتلكاتهما وقتل كل من له علاقة بهما، أيا كان نوع هذه العلاقة، وأنخل في هذا الحكم الجائر الكثير من الرجال المحترمين مثل الشريف أحمد المغربي، فكان هذا العنف الذي ارتكبه مع هؤلاء الأبرياء سبباً في مؤامرة جديدة بعد حوالي شهر من المؤامرة الأولى.

فاجتمع في مؤامرة سرية كل من الأمين شريف بن مرشدي الذي كان يقوم بوظيفة الكرسي، أو نائب مسئول الإدارة وجقردي أمين الخزينة والأمين توشا، والخصي بانقول كبير تجار العبيد وقرقر، الخصي الأول للسلطان، وقرروا في الاجتماع بأنه طالما عاش خريفيين فليس هناك سلام أو أمن لأحد فهو رجل دم وسكر، وبالتالي سيعاقبنا جميعاً، فيجب أن نقله بدون أي تأخير، وقبل أن يضع يده على هذا المخطط ونجحوا في وضع السم في الشراب الذي كان عادة يسكر به خريفيين فشرب السم بعد لحظات قليلة من صبه في الشراب فداخ وقد وعيه، ثم أجهز عليه المتآمرون وقتلوه في الحال، وبعد ذلك أرسلوا باسم السلطان في طلب أخويه لدريس وداقوي، وعندما دخل الأخوان القصر رأيا أخيهما ملقياً على الأرض وجسمه مغطى، ولكنهما لم يعلما بأنه قد مات، ثم قال لهما المتآمرون بأننا قد تلقينا أمراً من السلطان بتقب عيونكما فاستسلم البائسان للقرار دون أي مقاومة، وكان لخريفيين عدد من الأبناء تحت مسئولية بانقول الذي كان يعلمهم القراءة، فأحضروهم واختاروا منهم واحداً يدعى راغب، وأعلنوه سلطاناً ثم تقبوا أعين الباقين وطردوهم، ووضع راغب في القصر وأعلن في الحال بأنه سلطان ودأى وتركوا جثة خريفيين لنساء القصر ليقرن بدفنه.

تعرض راغب لرقابة شديدة من طرف المتآمرين ومنعوا الناس من الاقتراب منه، هذه المؤامرة التي تحدثنا عنها تفجرت ونجحت دون مساعدة من يعقوب أحد كبار قادة الجيش، وكان وقتذاك في البطيحة وكان يعقوب من أصل ملنقي وهي أحد القبائل الخمس التي تحكم ودأى، وعندما علم بموت خريفيين جمع جيوشه وتوجه نحو واردة، ولكنه أرسل قبل ذلك مبعوثين كلهم بأن يقولوا

للمتأمرين: أنا قادم مع جيوش وأريد القتال، فقالوا له (أى المتأمرين): عليك أن تحضر ونحن نستقبلك، فظهر يعقوب وأقام معسكره فى وجهة واره، وتحدى مناصرى راغب بأن يأتوا لقتاله فرفضوا تحديه، وقالوا له: نحن فى انتظارك، فوصل يعقوب ودخل واره وفجأة برز له فرسان الفائر ومثاقه، وانتشر الذعر والخوف فى القصر فخشيت والده راغب من نتائج هذه الحادثة القاتمة فلرسلت رسالة سريعة الى يعقوب قالت له فيها: ان راغباً ابنى هو ابنك أيضاً وإن مصير الأمور بين يديك نحن لا نريد مقاتلتك إطلاقاً فإن وافقت بأن تترك السلطنة لراغب فذلك سيده، ونحن نعتزف لك بذلك، وإذا قررت أن تعطى الحكم لشخص آخر فنحن نقبله مقبلاً، فعين السلطان الذى تريده.

هذا الخطاب بكلماته الودية ضللت يعقوب والتي منحت حبه الشخصى، فرد قائلاً: إن ابنك بالنسبة لى مثل لىنى وأنا بالنسبة له خادم المخلص ومسوف أقبل ما تقررينه، ثم أرسلت ليعقوب رسالة أخرى قيل له فيها: إن السلطان قد عفا عنك ويمكنك أن ترجع بهدوء.

وبعد ذلك ذهب يعقوب للتباحث مع والده راغب، وذلك حتى يرتب معها وسيلة للتخلص من منافسيه، وعند اجتماعه بها، قال لها: هل تعتدين أن الذين خانوا الأب وقتلوه سيتركون الابن؟ قالت الأم: لا أعتقد ذلك، فقال لها: كيف تتركين هؤلاء الرجال الخطيرين يعيشون بسلام؟ فقالت: وماذا نفعل؟ فقال: يجب أن نقتلهم جميعاً، فقالت: لك مطلق الحرية، تصرف كما يحلو لك، فنظامر يعقوب أولاً بأن يعامل قتلة خريفيين بمثل تعاملهم معه، وفى أحد الأيام جمع كل المتأمرين الخمسة وفى حضور الجنود المجتمعين والمسلحين أعدم الأمين شريف ونوشا وقرقر، وسجن جقردى وياقول، وتحولت وظائفهم الخمس الى خمسة موظفين جدد.

وظلت الأمور هكذا رشحاً من الزمن، ولكن لم راغب شككت فى الأهمية المتزايدة ليعقوب، فعملت على التخلص منه، ونجحت فى مفاجاته والتبض عليه وقتله، ولكن بعد ذلك الحدث بأيام مرض راغب بالجدرى الذى انتشر فى تلك الأيام فى وداى ومات راغب بهذا المرض ودفن سراً فى الليل فى مقبرة

السلاطين (وكانت مقابر السلاطين في مكان مسور شمال واره) وهذا المكان محدد
بزرية وكثير من شجر الهجليج.

وقد علم أنصار وأقرباء وأصدقاء يعقوب بما حدث، وفي الليلة التالية ذهبوا
إلى المقابر ولاحظوا أن هناك قبراً جديداً قد رفع، ومن ناحية أخرى فإن الوزراء
قد تسقروا على الأمر، وجاءوا ببديل للسلاطين الشاب المرحوم، فأختاروا ابن أحد
العتداء يدعى جراماً ويدعى الشاب بقوري، وكل ذلك ليعتقد الناس بأن راجباً
ما زال حياً، وكان يأتي لراجب فقيه يعلمه القراءة وقد خباوا وجه راجب الدخيل
وأرسلوه إلى اتفقيه (وكانت هناك عادة شبه ثابتة تقريباً) بأن السلاطين لا يظهرون
الأوجوه ملفوفة من النفن إلى قرب العيون بطرف عمامتهم، وبقطعة توضع
على الرأس والكنف، ويلفونه مرة أو مرتين حول الوجه، وهذا النوع من التخفي
يسميه العرب اللثام.

وهكذا ظهر التمييز المتخفي إلى أسناده ولكن اتفقيه ومن الكلمات الأولى
عرف الاستبدال وكان هذا اتفقيه من الملنقى فكلم زعماء الملنقى بأن التمييز الذي
قدم له لم يكن السلطان هذا الاعلان ذكرهم خاصة أولئك الذين كانوا مرتبطين
بمعقوب بالقبر الجديد الذي رأوه في مقابر السلاطين وبعد مقارنتهم بين الحاضرين
تأكد لهم حادث الاستبدال فقرروا أن يكشفوا هذا الخداع ويعاقبوا الذين يقتلون
وراءه لأنه لا يحق لأحد أن يأخذ لقب وسلطة السلطان إذا لم يكن من دم السلاطين
الوداي، أي إذا لم تكن أمة من القبائل الخمس المختارة، ومن هذه القبائل الخمس:
الملنقى والمنونيين وفي وقت المناقشات والمعارضات أو الصراع في انتخاب
السلطان كل واحدة من هذه القبائل الخمس تبحث في أن تقدم سلطناً للدولة وذلك
لأن السلطان يعامل قبيلته باحترام ويختار العديد الكبير من ضباطه ووزرائه من
قبيلته، وكان وزراء المدعو راجب يفكرون في التخلص من أهم رجالات الملنقى
الذين يقتلونهم وقد تذكروا كيف قتل يعقوب الأمراء، أحلاف راجب وأولادوا
تطبيقها، فأرسلوا كبار رجالات الملنقى بأن يحضروا كالعادة للاجتماع السنوي،
وذلك لإصلاح ماخرب من منزل السلطان، وكانت الخطة أن يجمعوا هؤلاء
الملنقى في واره، ثم يقتلوا عليهم ويقتلواهم، ولكن الملنقى لم يستجيبوا وشككوا

فى هذه الدعوة التى قدمت اليهم فلما رأى الوزراء قتل حيلتهم أرسلوا اليهم كتيبة من الجيش تحت قيادة جراسى قيصر، وبلال عقيد، او حاكم قوز، وتحرك القائدان الى ملنقى للقبض على كبارهم وفى الطرف الآخر تحرك منهم قائدان هما: بدلا يعقوب ودينه كل منهما على رأس قوة لمقابلة جيوش الوزراء فالتقوا وتقاتلوا، فقتل جيش الملنقى قد جيشوا عدداً كبيراً من جيوش الوزراء وقتلوا قائدى الجيش قيصر وبلال وأخذوا كمية كبيرة من الخيول والأسلحة، وبعد هذه المعركة مباشرة أرسل الملنقى خبر نصرهم الى السنونيين وشرحوا لهم سبب هذه المعركة الدامية والغير متوقعة.

وفى ذلك الوقت كان مع السنونيين طفلان من دماء السلاطين فاختاروا واحداً منهما يسمى: محمد عبدالعزيز داهوبه وأعلنوه سلطاناً، فحكم مدة من الزمن ثم انتقل الحكم من بعده الى شريف أخ صابون، وهذا الشريف هو الذى يحكم الآن فى وداى (١٢٥٩هـ - ١٨٤١م)^(١)

وقد حكى لى حبيج الوداى أخيراً عندما مروا بالقاهرة فى بداية شهر محرم ١٢٥٧هـ (فبراير ١٨٤١م) أن وداى تحكم بعزل من السلطان شريف حفيد السلطان صالح وأخ الشهير السلطان عبدالكريم صابون، وقد هرب شريف من وداى عند تنصيب ابن أخيه عبدالقادر وذلك لخشيته من أن تشمل عيناه، وهو ممن يخشى منهم، كما أنه كان يطمع فى العرش، فهرب الى سلطان الفور محمد فضل ليعينه بالتجيش لدخول واره واستلام الحكم، ومكث كثيراً فى دارفور، وأخيراً حظى بدعم السلطان محمد فضل بالتجيش بشرط أن يدفع له جزية سنوية مقررة، فقبل شريف الشرط وغزا السلطنة دون أن يلاقي أى مقاومة وبعد ذلك تجمع الوداى بكثرة وتقدموا للسلطان الجديد بطلب مفاده أنه اذا أراد أن يبقى سلطاناً فعليّه ان يتخلص من أى ارتباط مع الفور، وان لا يحمل اليهم صاعاً واحداً فاضطر شريف لأن يكتب الى السلطان محمد فضل قائلاً: إبنى مجبر من قبل رعيتى أن ألقى تعبدى اليك، ومن المستحيل على أن أظل وفياً للشروط التى قبلتها فى

^(١) هذه السمة من الوثق كتب فيها هذا الكلام الذى نراه على الترسى بعض نحل وداى فى القاهرة بمصور السيد بوزل فوجدت اهتماماً به ولا يرى كتب سقط من المنطوق وشعر فى الأصل الترسى.

السابق، وبعد ذلك بقليل جهز شريف حملة الى باقرمي واستولى على هذا البلد الذي خضع للوداي متغماً كان من قبل، وعندما رأى سلطان ودای أن حكمه قد رسخ وزادات قوته حاول أن يغزو كانم، واستولى على هذه الولاية وطرد منها الوزير الحاكم المسمى: اليفاء، وطرد أيضاً الامين القائد الاعلى للولاية والفقير محمد الذي كان الاليفاء يأتمر بأوامره، فأصبح شريف عندئذ حاكماً على كانم كما كان أخوه صابون.

(والله وحده يعلم الحقيقة لأننى كتبت هذه المعلومات عن طريق أحد الأجانب وكل خبر تم الحصول عليه من الانسان يحتمل الصواب والخطأ).

وهامى القصة: كيف حكى لى الفقيه دليل وهو قاض كبير فى ودای حكى لى هنا فى القاهرة عن الملابسات حول بداية حكم السلطان شريف.

فعندما وصل صابون الى الحكم كان يحكم بالعدل والانصاف وبفضل الحكمة الادارية لهذا السلطان، وكانت الحاجيات الضرورية للحياة تباع بأسعار رخيصة وكان صابون يخرج منتصراً ومجداً من كل معاركه، وبعد مماته آل العرش الى ابنه عبدالقادر، ثم جاء بعد عبدالقادر أخوه خريفين والذي كان صغير السن فاستولى اعمامه على تدبير الامور، وقد اساءوا تدبيرها، فقد كانوا طغاة متقلبين، وانتهكوا حقوق الانسان الأكثر تقدساً، فعندئذ ارسل الله الى ودای وباء الكوليرا بشكل كبير وشديد، فاجتاحت البلاد، وكان ذلك عام ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م).

وبعد الكوليرا ارسل الله القحط والمجاعة وكانت الأمطار قليلة، فقر عدد من الوداي الى البلاد المجاورة لدار سيل، أما الذين بقوا فيها فكانوا فريسة لمجاعة كبيرة وصل بهم الجوع الى أن أكلوا جثث الحيوانات النجسة، وكان أخو صابون الصغير ويدعى شريف قد هرب عندما نصب صابون على عرش، وقد انسحب الى دارفور، ومن هناك الى كردفان وظل فيها حتى علم بأن البؤس قد ألهق ودای، وإن المجاعة والموت قد قلا من سكان البلاد، وعندئذ سافر شريف الى دارفور ونجح فى أن يجلس مع سلطان الفور محمد فضل فتحدث شريف اليه عن نواياه وعبر له عن رغبته فى استرجاع سلطنة الوداي وقال له: إن الوقت مناسب الآن، وأن ودای أصبحت بدون مولود وأصبح جزء منها خالياً من السكان

وعندئذ أرسل محمد فضل رجالاً لبحث حالة ودای فعلم بعد ذلك الحقيقة أن البلد في أشد حالات العوز، ولا يوجد شيء في واره سوى السلطان وبعض القواد، وعلى حسب ماأكده لى القاضى دليل بأنه لا يوجد الاعقين أو قواد الجيوش، أو محافظوا المحافظات، وللإستفادة من هذه المساحة جمع محمد فضل جيشاً وسلم قيادته لى عبد السيد أحد العبيد الذين تمت تربيتهم فى القصر، فتحرك الجيش وتبعه شريف بعد أن حددت شروط المعاهدة وقبلها شريف، وقد كتب المعاهدة بيده والتزم بدفع الجزية السنوية لسلطان دارفور وتابع الجيش مسيرته حتى دخل ودای دون أن يواجه أى مقاومة، ثم قبض على السلطان فى واره، وقتل ونصب شريف على حكم السلطنة ووضع على عرش أبائه.

وكان الفور بمجرد دخولهم ودای أخذوا يهاجمون القرى، فدمروا ونهبوا الكثير منها، وأخذوا النساء والأطفال، وعندما علم الودای المهاجرون فى البلاد الأخرى بما يحدث فى بلادهم نسوا حالة البؤس التى أخرجتهم وعادوا مسرعين حتى يراقبوا عن قرب الظروف التى عزا فيها الفور بلادهم، ولكنهم وجدوا السلطان قد قتل وتولى شريف الحكم بدلاً عنه، فقبلوا حكمه وخضعوا له، ولكن قالوا للسلطان الجديد: يجب عليك أن تخرج الفور فى الحال من بلادنا والاقسوف نذبهم جميعاً فقام السلطان شريف وجيز القائد عبد السيد بميلزم ثم أرسله مع جيوشه.

وفى نهاية العام فكر شريف فى أن يوفى ماوعده به السلطان محمد فضل ويدفع الدين الذى فرض عليه، ولكن اعترض الودای على هذا المشروع وقالوا له: نحن لا نريد أن نعالى مرة ثانية، فيجب ألا تنفع شينا لسلطان الفور، ولن نعطيك ما نريد لرسالة الله، لأننا لا نعتزف بشيئك، وإذا كنت لا نريد هذا الحل فنحن أيضاً لا نريدك أبداً.

فدش شريف من هذه المعارضة القوية، وقام بإرسال سفراء الى السلطان محمد فضل، وأمرهم أن يوضحوا له كيف أنه عورض فى إرادته وأن يقولوا له بأنه بات من المستحيل عليه مقاومة ما طالبت به رعيته، ولهذا قامت فى تلك الأيام العداوة بين الفور والودای وقال القاضى دليل إن هذه العداوة ملازمت الى اليوم

قوية، ولهذا السبب فإن قافلة حجيج وداى لهذا العام ١٢٥٧هـ (١٨٤١م) اتجبت
شمالاً إلى المغرب وأخذت طريق أوجلة للذهاب إلى القاهرة، وفي العادة كانت
القافلة تتجه شرقاً تمر بدارفور، ومنها عبر السودان إلى البحر الأحمر، والآن
نوقف الأحداث للتاريخة إن التفاصيل الدقيقة تسبب التعب والتلق والله ورسوله
أعلم بما حدث.

الفصل الثامن

في قصاص الجنايات

لما كان الحق جلّت قدرته وتعالى كلمته غيوراً على عباده محباً لأهل وداده فمن حبه أنر عليهم الاتعامات وجعل من أحسن اليهم في لرفع الدرجات، ومن غيرته عليهم حرم الظلم بسائر أنواعه وأنزل علينا قرآناً وأمرنا باتباعه وحدد لنا حدوداً وأمرنا بالاعتدائها ورب القصاص على من تجاوزها إلى سواها، لكن لما كان النوع الانساني لا يمتثل إلا لمن هو أقوى منه، ولا يذعن إلا لمن كان أعلى درجة منه جعل لنا الولاية لانصاف المظلوم من الظالم، ونوع القصاصات ليرتدع المجرم عن المأثم، ولولا ذلك لسفكت الدماء جواراً ونهبت الاموال، وكان ذلك جالباً للخراب وفساد الأحوال، وهذا مصداق قوله تعالى أولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون^(١) اذا علمت ذلك فنقول: إن القصاص نوعان شرعى وسياسى فأما الشرعى فهو ما ذكر في كتاب الله تعالى في قوله يا أيها الذين امنوا كتب عليكم القصاص في القتل الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى^(٢) الآية والقصاص الشرعى قسمان: ما ذكر في هذه الآية في القتل وكذا قوله تعالى وكتبنا عليكم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص^(٣) والقسم الثانى الحدود وهى ما ذكر في قوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم^(٤) ومنها ما ذكر في قوله تعالى الزانية والزانى فاجزوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين^(٥) وهذا فى الزانى البكر، فأما من أحصن وزنى فانه يرمم حتى يموت، وقد فعل ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فى

^(١) سورة المائدة، الآية (١٧٩)

^(٢) سورة المائدة، الآية (١٧٨)

^(٣) سورة المائدة، الآية (٤٥)

^(٤) سورة المائدة، الآية (٣٨)

^(٥) سورة النور، الآية (٢٤)

من زنى، ونكر العلماء أن الرجم كان في القرآن ونسخت تلاكوته وبقي حكمه، لأن النسخ على ثلاثة أقسام: الأول نسخ الحكم والتلاوة معاً، والثاني نسخ التلاوة وإبقاء الحكم، والثالث نسخ الحكم وإبقاء التلاوة وملحق فيه من القسم الثاني، لأنه روى أنه كان يقرأ في القرآن والشيخ والشيخة إذا زنيا فلرجموهما البتة نكالا من الله^(١) وهذا القسمان في القصاص الخالص ومن الحدود ما لم ينزل فيه قرآن ولا حكم فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم بشيء، كحد القنف وخذ شرب الخمر، وحد شهادة (الزور) فاجتهد الأئمة المجتهدون فجعل حد القنف ثمانون جلدة وحد شرب الخمر ثمانون أيضاً على قاعدة مذهب مالك وأما الشافعية فقالوا أربعون فقط، ولما قطاع الطرق فحدهم القتل كالمرتد، وكذا من خرج على الإمام العادل وعاش في الأرض مفسداً لقوله تعالى: إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض^(٢) ثم ما كان أدنى من ذلك فهو تعزير باجتهاد الحاكم وبما يليق بحال المستوجب له.

ولما السبيل فاختلوا فيه باختلاف الممالك، واختلاف الأمم فأما الأقطار المصرية والشامية بل جميع بلاد العرب والترك فإنهم رتبوا قصاصات بعضها موافقة للشرع وبعضها مخالفة، ونظروا في ذلك لما اقتضته المصلحة فنوعوا القتل إلى القتل بالسيف، كما كان في مصر ويمسونه التضيق، وإلى الاستلحام وهو قتل بالسيف لكن في الجسم كله، ويمسونه في مصر بالتقطيع، وفي تونس بالتشطير، وإلى الصلب، ويمسونه في مصر وتونس بالشنق، وإلى الخوزقة، وهو أن يجلس المجرم على وتد من خشب أو حديد ويدخلونه في دبره ولا يزال جالساً عليه حتى تنقطع أمعاؤه ويموت، وهو موت شنيع ربما عاش صاحبه أياماً، وإلى الشامبات وهو أن يؤتى ببناء كبير من فخار فيملأ بخرق قد عست في الزيت أو القطران أو زيت النفط، وفرش تحتها طبقة من تراب، ثم يؤتى بمن يترك قتله فتمد ذراعاه ويؤتى بخشبة طويلة تمد على صدره وذراعيه إلى أن تبلغ أطراف

^(١) وما لم يرد في القرآن من القصاص

^(٢) سورة الشورى الآية (٢٣).

أصابع يديه، وتشد الخشبة شداً وثيقاً، ويجعل في عنقه أطواقاً من حديد، فيها سلاسل طويلة أربع أو خمس^(١) ويلبس ثياباً ممزقة وتوضع على رأسه طامة من نحاس ثم يوثق بجمل فيوضع الاتاء الفخار في إناء من النحاس، ويوضعان على الجمل ويشدان بالربط شداً محكماً، ثم يجلس الانسان الذي يراد قتله على الاتاء الفخار، وتربط أطراف السلاسل في حوية البعير ربطاً جيداً بحيث لا يستطيع الانسان الحركة ولا التحول، ثم يرص على الخشبة المجهولة على صدره ويديه شمع من أولها إلى آخرها، ثم يمسير البعير وتوقد النار في الخرق والشمع لكن في الشمع أولاً ويكون قد طلى وجهه بالزفت والقطران، ويطاف به في الأسواق عبدة لغيره، وهذه القطة كانت في مصر أيام الغزو، وهي لنكل القتلات وأشدّها تحريماً وافظعها منظرأ، وآخر من قتل بهذه القطة في مصر فيما سمعناه امرأة يقال لها جندية، كانت تقتل النساء وهي أنها رتبت لها جماعة من الفقهاء في كل يوم خميس وليلة الجمعة يقرأون القرآن، ورتبت من الثبان القاسين القلوب الذين لا يخافون الله، وأعدت أناساً وأعدت في بيتها جملة محال ثم صارت تخرج في صبح يوم الخميس وتتأمل في النساء المارة في الشوارع، فمتى وجدت امرأة عليها حلي كثير تعلقت بها وقبلت يدها ومألتها بالله أن تذهب معها^(٢) إلى بيتها وتجبر بخاطرهما مقدار ربع ساعة، فتقول لها المرأة ولم ذلك؟ فتقول لها انه كانت لي ابنة منك وقد ماتت واحترق قلبي وإنها كانت في هينتك وشككتك، وأنت متها ما تركت منها شيئاً فأسألك بالله تجبريني بالذهاب معي ليذهب بعض ما أجده وأراه من الحزن، وهذا يوم الخميس، وعندي فقهاء فتجلسي وتسمعي القرآن، واتحلي بك ثم ترجعي إلى بيتك، ولم تزل بها حتى تذهب معها، فإذا وصلت بها إلى بيتها تجد المرأة الفقهاء يقرأون، فتصنق كلامها، فتجلس هنيئة معها ثم تخرج كأنها تقضي بعض المصالح، فحال خروجها يدخل عليها من أعدتهم للقتل، فيدخلون عليها ويسد أحدهم فمها وينبحونها، ويقطعون لحمها ويرمونه في جب البيت، ثم تخرج وتأتي بأخرى وهكذا فتأتي في اليوم الواحد بثلاث نساء أو أربع ولا تأتي إلا بالشابات

^(١) في الأصل: "برمة أو حمة... وهو خطأ.."

^(٢) في الأصل: ".. أن تذهب معها.."

وكان آخر من قتلها^(١) شابة يقال لها عبيدة خرجت من بيتها لقضاء حاجة فعثرت عليها جنديّة المذكورة، وتحيلت عليها حتى ذهبت بها الى بيتها وقتلتها كما فعلت بغيرها، وكان لعبيدة المذكورة ام، ولم يكن لها ولد سواها، فانتظرتها مدة فلم تأت اليها، فلما جاء الليل ولم تأت اليها بنتها طار عقلها وذهبت الى الشارع وهي تصيح وتولول حتى اعيأها الأمر، فلما كان الليل^(٢) وهي نائمة رأت بنتها فيما يرى النائم، فسألتها أين كنت ولم لم تأت، فأخبرتها أن امرأة يقال لها جنديّة مكنتها بالمحل الفلاني وصفت بيتها كذا وكذا خدعتني واحتملت عليّ واخذتني لبيتيها وقتلتني ورمت لحمي في الجب، وأخذت حليّ وملابسي، فقامت ام البنت من النوم وتوجهت الى الحاكم وشكت له، فأعطاهما أعواناً وهجموا على محل المرأة فوجئوا المرأة كما ذكر فأخرجوا من عندها لمتعة كثيرة فقتلها الحاكم بالشامبات، وقتل أعوانها بالتخولزيق، الى غير ذلك بصحة ذلك وعدمها: والى القتل بالحرق وهو أن يؤتى بمشاق كتان كثير أيضاً (ثم يلبس للرجل المحكوم عليه بالموت بحيث يغطي كل جسمه) ثم توقد^(٣) النار من عند رأسه ورجليه وجنبه في أن واحد، فيحرق الرجل باحتراق المشاق، وقد كان من جبايرة الغز من دفن الرجل حياً، وذلك أنه أمر بحفر حفرة عميقة فحفرت (ثم ألقى الرجل فيها مكتوفاً وطم عليه التراب، وجلس هو على الحفرة وأمر بالطعام فأحضر، فأكل حتى اكتفى هو وأصحابه فانظر الى قساوة قلب هذا الفاجر، كيف يهنا بتطعام وقد وضع في الحفرة أنمياً من نوعه.

والى التهريس كما يصنع في تونس، وهو أن يُكْتَفَ الذي به ذلك ويجعل في هون كبير له أربع أيدي ثقيلة كالتي يهرس بها البن في مصر ويأخذ الرجال تلك الأيدي ويهرسه حتى يصير مهروساً، ومن أبدع ما سمعت من التنفين في القتل أن مولاي اليزيد ملك المغرب غضب على يهودى وحلف بأن يقتله قتلة ماقتل بها أحد قبله، فسأور أرباب دولته في ذلك فكل أشار بما منحه له من الرأى فلم يعجبه من

^(١) في الأصل "وأمر من قتلها شابة".

^(٢) في الأصل "فلما كان الليل".

^(٣) في الأصل "لم يمدد النار من عند رأسه".

ذلك شيئاً، ثم أطرق ملياً وأمر باحضار بتيّة^(١) فاحضرت وأمر باحضار نجار
ومسامير كثيرة فاحضر كل ذلك، فأمر النجار أن يدخل المسامير كلها في جوانب
البتيّة وأن يجعلها صفوفاً، وأن تكون من الدخّل كشوك جلد القنفذ، ففعل ثم أحضر
اليهودى مكتوفاً وأدخل في البتيّة، ثم مدت وسمرت، ثم أمر بأن تخرج فتخرجت
مراراً ثم فتحت فوجد لحم اليهودى قد صار قطعاً صغيرة كاللحم المفروم.

ومن أنواع القتل التبحير وهو القاء الإنسان في البحر بعد أن يجعل في
غرارة فيها حجر ثقيل، ومن أنواعه الخنق وهو يكون لبعض المحترمين، ومن
أنواعه سقيا السم وهو لمن يخشى عائلته ويكون ذا شوكة، ومن أنواع القتل القتل
صبراً بأن يحبس الإنسان في محل يترك بدون طعام وشراب حتى يموت، ومن
أنواعه القتل بالرصاص أو المدافع، وهذا أسهل لازهاق الروح، ومن أنواعه القتل
بالضرب بالكرباج، أو العصي حتى يموت أيضاً، وأما الحدود الشرعية فقد
ضاعت فلا توجد الآن ومنذ زمن قريب كان منها قطع يد السارق وقد بطل الآن،
واستحسن اللومان عوضاً عنه.

وأما أهل السودان فقد أهملوا الحدود بالكلية وباعوها بالعروض خصوصاً
أهل دارفور، فانهم يأخذون عوضاً عن حد الزنا وعن قصاص الشجاج عروضاً
وليس عندهم شيء موافق للشرع الاكصاص القتل في بعض الأحيان، وأما
القصاصات السياسية فكثيرة عندهم، وإن لم تبلغ في الكثرة ما ذكرناه في بر
العرب، لكن أكثر قصاصهم بالحبس والضرب فيحبسون المجرمين في محل غير
مستوف أرضه تراب، وضيقاً به شوك، ويجعلون القيود في أرجلهم والأغلال في
أعناقهم، والموكل بالسجن (هم) الطواشية، ورئيسهم منهم والختمه رجال،
ويشغلون المحبوسين في دبغ الجلود، وكل إنسان يعطى جلد بقرة أو جلد بعير
وقرضاً^(٢) وأثناء وأسعاً^(٣) من فخار، ويضرب له أجل، فإن لم يتم دبغ الجلد الذى
أعطى له في تلك المدة أبلغ الأيذاء وهذا المسجن لعامة الناس، أما الأمراء وأشراف

^(١) البتيّة: بيت من وسمها لها حبرة من صندل حتى كثرة في هذا الموضع.

^(٢) قرض: هو نوع من الامتياز الذى يحصل للمرهق ويكثر في غرب السودان ولهم بكرة نساء ويسمى في وسط
السودان بالنسط.

^(٣) في الأصل "وأثناء من فخار وأسعاً".

الناس فيحبسون في محل آخر ويكتفونهم من العمل شيئاً، ومن أقيح ما عندهم أن لا يوقظون المسجونين إلا بالضرب بالسياط ويتأوبون عليهم، وكل صاحب نوبة لابد أن يضربهم فيسمع لهم ضجيج عظيم ومن أمر بتأبير سجنه جعل في رجله قيد، كل فردة منه مثقوبة الحداء ويجعل في كل ثقب مسباراً ويرد عليهما بالمبرد ولا ينزع إلا بالموت، بأن يأتي الحداد ويرده بالمبرد حتى ينقطع وأما الأمراء الكبار كأولاد الملوك والوزراء والعظام فإذا غضب السلطان على أحد منهم سجنه في مغائر الجبال^(١) التي كنا تحدثنا عنها سابقاً حين ذهبى إلى الجبل^(٢).

وللفور أنواع^(٣) من القصاصات السياسية منها ما يسمونه برتكابو وهو أن السلطان إذا غضب على إنسان قال: وإن برتكابو* ومعناها اكسروا بطيخة فيرفعون الرجل بأيديهم^(٤) إلى أعلى ويتخلون عنه، فينزل الرجل على أم رأسه أو على غيرها ويفعلون به مثل^(٥) ذلك مراراً حتى يموت.

ومنها الشبخ وهو أن الملك إذا غضب على إنسان استوجب قصاصاً ولو في زعمه: قال لأعوانه شبحوه فيذهبون به إلى شجرتين متقاربتين ويكونوا حفروا حفرتين متقاربتين عميقتين وأدخلوا في كل واحدة خشبة ودموها (ثم) يثبتوهما ويربطون الخشبيتين في يد الإنسان، وفي الشجرتين حتى لا يستطيع الحركة، ثم يأتون بفروع كثيرة من شجر يقال له الثوب منتن الرائحة، ومن فروع ذات شوك صغير معوج كالسنائير الصغيرة فيزيلون من شوكها مقدار ما تقبض أيديهم ثم يتأولون المشبوح بالضرب حتى يموت أو يقرب من الموت.

أما قصاص من قتل قتيلاً وثبت ذلك عليه أما باقراره أو بالبينه، فإن دلت استقوب فنوب الذي يتولى قتله بنفسه فيقطعنه بحربة في منخره، وأما السن والأنف

^(١) في الأصل: "الغبال المعلى".

^(٢) يتم التوقف هنا إلى حديث من سجن الأمراء في سجون الغبال وذلك في كتابه لتوحيد الأديان لما يدل على ارتباطه بغيره فكأنه كما أشرنا من قبل.

^(٣) في الأصل: "بأنواع القصاصات السياسية أنواع".

^(٤) في الأصل: "يرفعون على أيديهم الرجل".

^(٥) في الأصل: "ويفعلون به كذلك مراراً".

واليد والشج مطلقاً فتصاصها في دارفور المات فانه يدفع لمن فعل به ذلك ثمناً قد
اصطلحوا عليه.

ولما اهل الوداي فالتصاصات الشرعية جارية عندهم وقصاص السلطان
بالقتل أو الضرب أو الحبس الطويل، وأما القتل إذا أراد السلطان قتل انسان يقول
لطاقفة من أعوانه تسمى الكبرتو خذوه وطلقوه فيأخذونه الى قضاء متسع أمام دار
السلطان فيسأوبونه بعصى قصار غليظة الرؤوس كقديبايس فيضربه أحدهم
ضربة على ساحل قفاه، فإذا (ظل)^(١) الرجل هكذا راقعاً رأسه من حرارة
الضرب، ضربه واحد آخر على فم معدته برأس عصاه فلا يتحمل الانسان منهم
أكثر من ثلاث ضربات، ومن العجب أن السلطان إذا أمر بقتل جماعة دفعة واحدة
ترى كلا منهم يقدم نفسه للقتل قائلاً: أنا أول أنا أول. كما يتقنون على شيء
نفيس، وأما الضرب فعندهم سياط عراض كالزحم المعروفة الآن في العرض،
ولاسمك إلا أنها جلدة واحدة من جلد الجاموس الوحش، والحيوان الكركدن
المسمى بالخرنيت أو ابي قرن فتراها قبل الاستعمال بها يابسة خشلة إذا ضرب
بها الانسان سوطاً واحداً ينبع الدم من محل الضرب فإذا ضرب بها الانسان مائة
أو ألفاً مات* ولإبقاء له وهذه عانتهم لقساوة قلوبهم.

وأما الحبس فأنواع فيها من يؤمر بحبسه فيجلس أمام شجرة وتجعل
جنورها بين رجله ويقيد من خلف الشجرة يقيد فيمكث كذلك ماشاء الله أن يمكث
حتى تأتيه عذابة (الله) ومنها من يوضع في رجله قيد قطعة واحدة بغدير حلق
يسمى عقرباً وصورته هكذا ○ ○ وفيها من يوضع في رجله القيد وفي رقبته
الجنزير، ويسجن في محل غير مستوف ومنها وهو اعجبها سجن الحظ وهو أن
يقتل لمن أريد له السجن أن السلطان حبسك في هذا الموضع فيمكث فيه من غير
قيد ولا سجان ولا حبس حتى تأتيه شفاعة وهذا (هو) صاحب الذنب الخفيف ومثل
ذلك ما إذا كان لأحد على آخر حق وقبلة في محل وطالبه فاعترف وماطله فانه
يتركه جالساً ويأخذ حربة ويخط بها حوله دائرة ويقول له: الله ورسوله والسلطان

^(١) في الأصل: ... وماذا قال في رجل مكث راقعاً رأسه...

في الأصل: ... فلو مات لا يؤرم.

وام السلطان والتتقا سياد الدار ماخرج من هذه الدائرة حتى تعطيني حتى، فيلتزم الانسان أن يجلس في ذلك الخط حتى يتوصل الى صاحب الحق بمن يشفع عنده ويطلقه وإن لم يطلقه بقي كذلك ولو مدة، حتى يخلصه، فإن خالف وخرج واشتكاه صاحب الحق فأخبر الدولة بذلك بحث عنه أينما كان، ويؤتى ^(١) به ويقاصص قصاصاً شديداً.

وإن ادعى رجل على آخر وخطط عليه ولم تثبت الدعوى يقاصص المدعى ولذلك لا يمكن لأحد أن يخطط على آخر إلا بعد ثبوت الدعوى بحيث لا يخشى غائله ذلك. ولما للجنايات فأحكامها قريبة من أحكام الفور، وما نكرناه من قصاص الجنايات في الفور في من أحبل امرأة أو ضرب آخر فتجبه، سائر في دار الوداي ^(٢) كلها، إلا التحيل في الفور الحيالية كتيموركة والكراكيب ^(٣) فإننا ذكرنا أن الرجل لا يتزوج امرأة حتى تكد ولدين أو ثلاثة قبله في التحرام ^(٤) ولا قصاص على الفاعل ولا المفعول بها بل تنبأهي النساء بذلك والأولاد التي تحصل تنسب إلى أخوالها كما تقدم ذلك مفصلاً ^(٥) والله في خلقه أسرار فهو الذي أقام كل أناس إقامة لا يرضون بغيرها. وقد عن لي أن أسكت غيبة القلم عن الجريان في ميدان الحديث عن بلاد السودان وأحوالها وعوائدها وأنكر سبب انتقال من السودان إلى تونس ومنها إلى مصر ومنها إلى الحجاز ومنها إلى مصر ثانياً ومنها إلى المورة ومنها إلى مصر ثانياً وأنكر ما نشدته من الأشعار مدحاً وما نمقته من الرسائل نثراً ونظماً سواء كان في تهنية أو تعزية أو مجاورة أو جواب سؤال كما يأتي مبيناً أن شاء الله تعالى وأعتقد لكل من ذلك فصلاً مستقلاً لتكون رحلتنا هذه عظيمة الفائدة كثيرة العائد كالجليل الموائم.

^(١) في الأصل .. وماء ..

^(٢) في الأصل .. في دار الفور كلها.

^(٣) تيموركة والكراكيب هما فرسان من فرج الفور والمعروف أن الفور همسبون إلى ثلاث فصب الكبحرة والكراكيب همسور كما فاصط الكبحرة بالعرب فعاد منهم فرج كوا أدى حكم البلاد: بنظر: لشجيد الامان من ١١١.

^(٤) وما سمع المؤلف هذا الكلام فلعنة وقد يكون منه بعض التمثل الوثنية، أما الفور فهم مسجون وحكم البلاد، ويقال له لا يفتل أن يكونوا هذه الفئة وموانهم اسلامية لما نزلت حادثة في الاسلام.

^(٥) بنظر لتأصيل ذلك في لشجيد الامان من ١١١ وما بعدها...

الفصل التاسع

في ذكر الحروب وكيفية

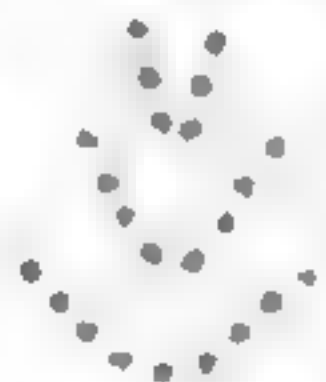
لما كان الغلب على أمره ظاهراً السلطان، وهو الذي أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، لنوع الإنسان، وأمر بالاستعداد في محكم القرآن فقال: تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم^(١) وفي ذلك برهان كاف غير محتاج للذب عن غيره، عرضة وأمواله بنفسه وخيله ورجاله بينما الملوك الذين بهم الاستيلاء والسلطان ويرون أن ذلك لهم أعظم شأن، لكن لما كان منهم المقسط والقاسط والمجاهد والمرابط، كانوا هم أهل للاستعداد للذب عن الدين والعباد والبلاد، فانقسمت أحوالهم بحسب نياتهم وأظهر الله ما أكنوه في طوياتهم، فتري منهم من أرك الله نجاحه وأظهر للعالم صلاحه، يستعد لقتال أعداء الدين اقتداءً بقوله تعالى لنبيه الأمين: يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين^(٢) وهذا هو الذي تجارفة رابحة، وصفقته ناجحة، ومن أغواه إبليس وأطاع طبعه الخسيس فترك فرض الكفاية، وجلس خلال الديار بالظلم والعتو والنكالية، فكان مسمى في صدر الإسلام قاصداً أن يدخل تحت أمره الخاص والعام، لا يريد لذلك شيئاً إلا الاستهارة، والله في خلقه أسرار.

ولما كان أهل السودان لا يندق لهم ولا مدافع، ولا سور لحجز العدو نافع، كان قتالهم بالحروب والسيوف، فيخترق الفارس منهم الصفوف، ينيق من بأسه كاس الحتوف، والرجل يقاتل في الحرب بالحراب، ومنهم من يستعمل الرمي بالنشاب، وأعدوا للوقاية الأتراس التي يسمونها الدرق، فيسترون بها البطون والوجوه والحنق، وأعدوا للوقاية الفرسان^(٣) الدروع والخوذ والشبابات، لتقيهم ضروب السيوف وطعن الحراب والنشابات، وأنبسوا خيولهم اللبوس ليقوهم بها ساعة البؤس، لكن لما كان لكل قوم في محاربتهم اصطلاح وجدوا اسلافهم عليه

^(١) سورة الاحزاب الآية (١٠)

^(٢) سورة التحريم الآية (٩)

^(٣) في الأصل: "وأعدوا الفرسان للوقاية الدروع".

تداح، كان اصطلاح فنور للحرب اصطلاحاً قديماً (حيث) ^(١) يقسم الجيش خمسة
أقسام كما كان يفعله أهل الرتب الخمس الأولى: المقدمة، والثاني: الجناح الأيمن،
والثالث: القلب، والرابع: الجناح الأيسر، والخامس: الساق، وعلى هذا الترتيب
نشأوا، فلا يعملون لموا، ولا يعملون بغيره، وإن ظهر حسنه لهم وحسنه، لكن
لهم في أوائل اتجيش طلائع ينقطع عنهم بها الطامع، وهي غير الجواسيس الذين
يأتون بالأخبار، يعلمون إن كان العدو أقام أو سار، ويسمون بها الايذات، وقد رتبوا
مناصبه بحسب ذلك، فجعلوا في الأمام لرونديوك ^(٢) وفي المقدمة الكامنه ^(٣)، وهو
المسمى فورك أبا ^(٤)، وفي الميمنة أبا نيماء، وفي القلب السلطان، وفي الميسرة
التيكناوي ^(٥)، وفي الساقه أبا الشيخ، والامضاء والوزراء في القلب مع السلطان،
فإذا اصطلف الجيش وكان الميدان سهلاً كان الترتيب هكذا:  ولن كان

وعراً اصطفوا حسب الامكان، ومن عادتهم أن يجعلوا لأنفسهم علامة يتميز بها
الجيشان عن بعضهما، بأن يتفق السلطان وأرباب دولته على علامة يتميز جيشهم
بها، ففي بعض الأحيان يجعلون العلامة في أيديهم اليمنى، بأن يأخذوا من لحاء
الشجر فيربطون {به} أيديهم اليمنى، فإذا علم العدو بذلك وكان قد اتخذها علامة
له، غيرها في الحال بعلامة أخرى، ولولا تلك العلامة لقتل بعضهم بعضاً، ولقد
العدو عنوه، لأنهم كلهم سود فلا يتميز هذا عن {ذلك} إلا بالعلامة، وبالعلامة
المذكورة يميزون قتلهم بعد انقضاء الحرب، بأن {يأت} من كلا الطائفتين جماعة

^(١) في الأصل: "كان اصطلاح فنور اصطلاحاً قديماً للحرب".

^(٢) لرونديوك، لو لرونديوك: سئل ترميزه بمثل حنة بيت السلطان أو وجه السلطان حسب نظام الأمور ومختلف منظمات واسعة لمحكم
على أربعة ملوك من بلاد الهند، ومقره في مدينة العائز، وهو الخوفا الذي يأت لأصحاب الدقوي وعمرهم من بركة ملائكة السلطان
لتشول من بركة، وكان حاكماً لمدينة العائز المحمية ورأس القوتس فيها حسب نمو أركن، وهو الذي يعمل في القضاء المحمية.

متر: Article op. cit. P. 140.

^(٣) الكتاب سئل ترميزه.

متر: الفصل السابع من الكتاب

^(٤) فورك أبا: أي أو المور.

متر: الفصل السابع من الكتاب

^(٥) التيكناوي: لو التيكناوي: أحد أربعة ملوك المور، ومحكم على دار الزمونة واليون وما والام.

ويتخللون القلبي^(١)، فكل طائفة وجنت علامتها على قنبل واروه السراب (ومن وجدوه بغير علامة تركوه)^(٢) ومن عادتهم عند التحام الصفوف أن الخيل تكون كراديس كراديس، وأن الراجلين يكونون أمام الخيل، فإذا التحم الصف تقابل الخيل مع الخيل والراجلون مع الراجلين، لكن الفور إذا أرادوا الاقتحام أظهروا مسنداً لشجاعة الفرسان، فسل الفرسان سيوفهم، وكل كردوس منهم غني أميره بغناء بلغة الفور ورد عليه باقي الفرسان، ومما سمعتهم يُغنون به في وقت حرب الشيخ محمد كرا^(٣) السالف الذكر، اني سمعت كردوسا قية ابراهيم ودرماد^(٤) وأولاده وجماعته وهو مقيمهم ويقول (اناس ديو بائن كابوا اناس ديو كية كابواتي كابو)، لكن هو يقول: (اناس ديوبالين) فيقولون: هم (كابو)، فيقول: (اناس ديوكيه)، فيقولون: (كابواتي كابو) والفرسان حينئذ منهم لابسا درعا وعلى رأسه خوذة، وهي المسماة عندهم بالقلبي، وفي يده أيادي من حديد بولاد يسمونها كمكا، وعلى فرسه لبوس وهي كهيئة اللحاف في التطريز، لكنها من جوخ أحمر، واللبوس للفارس مركب من أربع قطع، إحداها تكون على كتف الفارس فتستر ظهره وجنبه، وتترك حتى تقرب من عراقيبه، والأخرى تستر عنقه وصدره، والثالثة تغطي

^(١) في الأصل: وجمعون القلبي.

^(٢) في الأصل: "ومن لا فلا". أي ومن وجدوه بغير علامة تركوه.

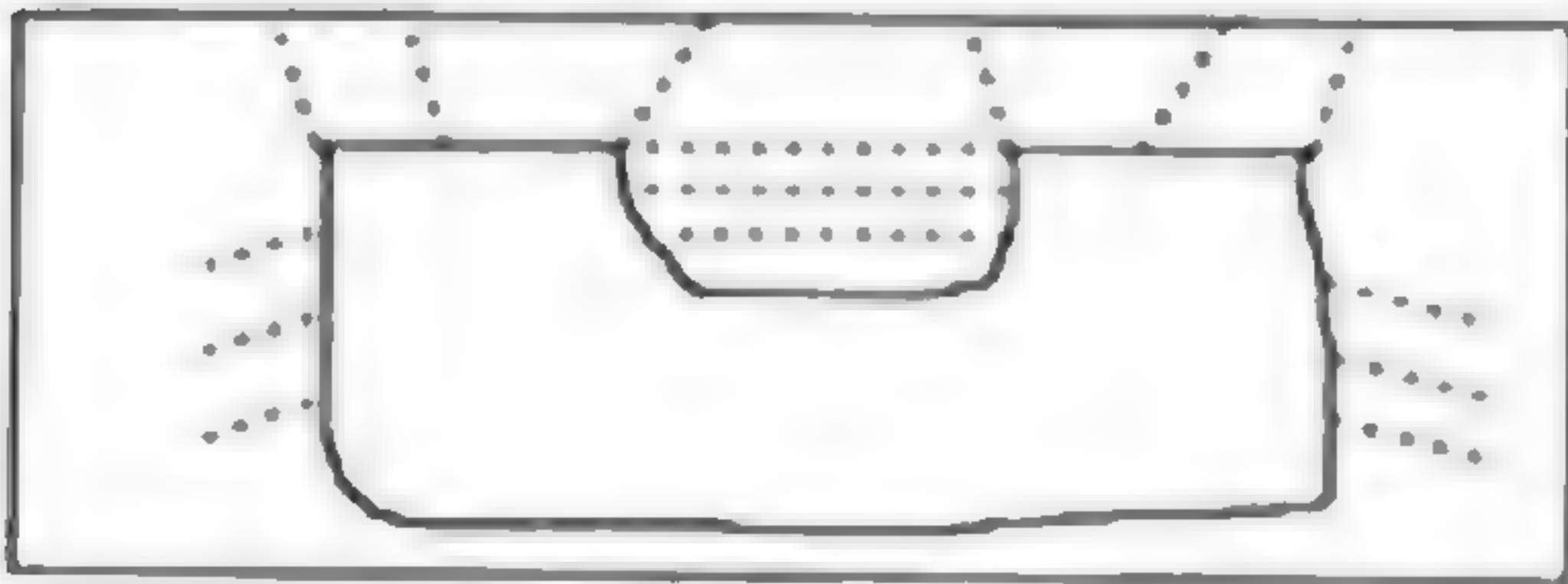
^(٣) الشيخ محمد كرا كان يقول منصب آيات الشيخ في دولة النور في عهد السلطان عبدالرحمن الرشيد وهذا المنصب من أرفع المناصب في دولة النور بعد السلطان فهو الوزير الأعظم أي رئيس الوزراء وأحكام لاهوت وولايات مازهور الأربع وهو المسمى بالأملي ثم المسمى بالمولي وهو الملقب بالمولي الذي يملكه ملائكة النور بعد الشريعة الإسلامية، وكذا هذا المنصب لم يخلو عنه الأتولاء الأقدم من عصر السلطان ولد تولاه محمد كرا وهو حردوسو ذلك أنه التحق بحرس السلطان نواب لم يصح منرفاً على نربة تولاه ومصاحبه الخاصة وبذلك أصبح مسيطراً على شؤون القصر وأولاده خصوصاً في مشكلة مع السلطان ولهم بالخلاء مع حرم السلطان منهم بأحصاء عدة رده حتى يظهر اختلافه للسلطان ويحكم بمهارة في يساعد السلطان مدافع الرشيد في تولي العرش بعد وفاة أخيه السلطان نواب تولاه السلطان عبدالرحمن الرشيد منصب الآيات شيخ المحكمة له ولقد انتشر بحكمته وحسن تدبيره في شؤون الدولة وأسرار في خدمتها حتى عهد السلطان محمد الفضل فمكر خصوصاً من تولاه في مشكلة حادة مع السلطان وأخرج عنه بمهارة فدائه السلطان حتى فاته:

نظر: نجوم خلود تاريخ السوفاة ج ٢ ص ٢٦.

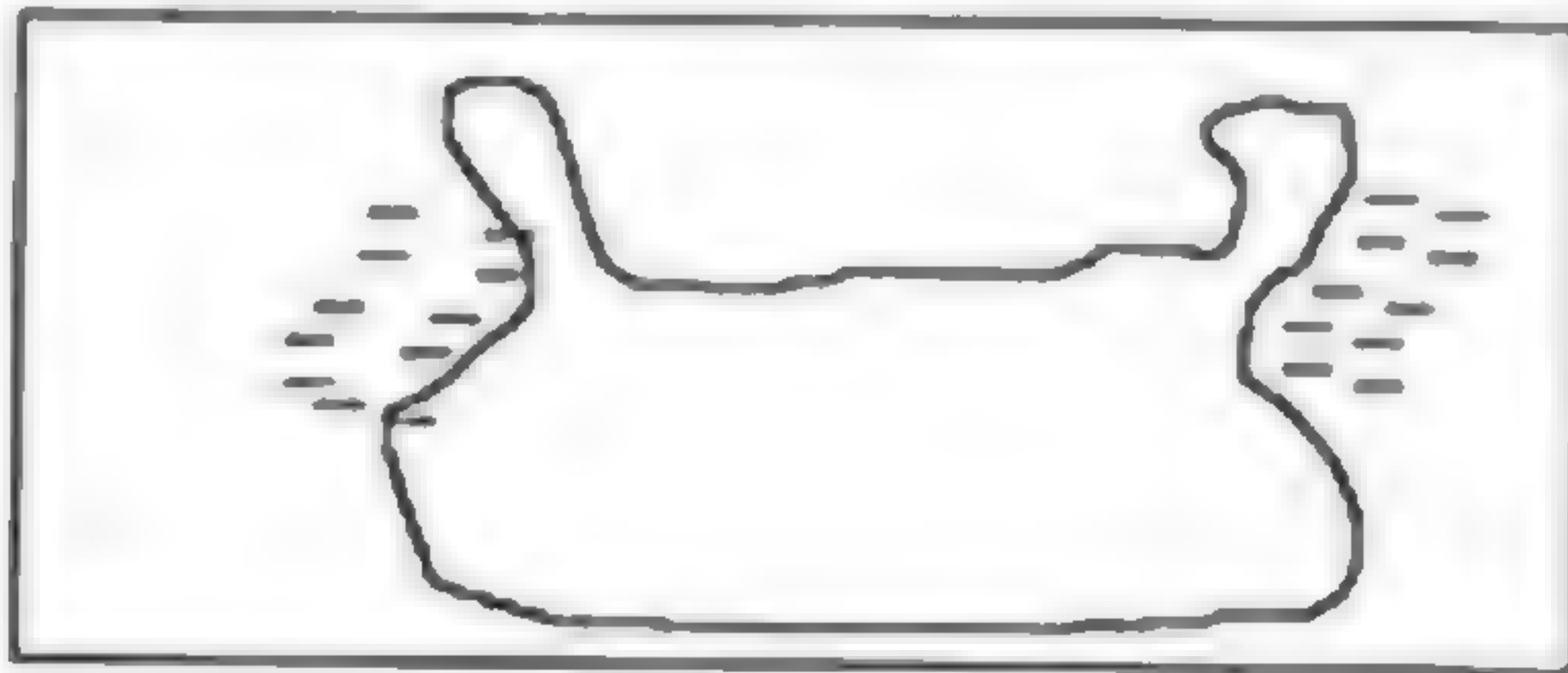
^(٤) ابراهيم ودرماد: وهو أحد الأمراء القويين في دولة النور ولد تولي منصب أمين الخراسان في عهد السلطان محمد فضل وكان شجاعاً مهتماً من الجميع وهو الذي قتل الشيخ محمد كرا حتى فاته بعد خلافه مع السلطان محمد فضل فوعدت له لركن الدولة بفضل ابراهيم ودرماد وتولاه.

نظر: نجوم خلود تاريخ السوفاة ج ٢ ص ١٢٥.

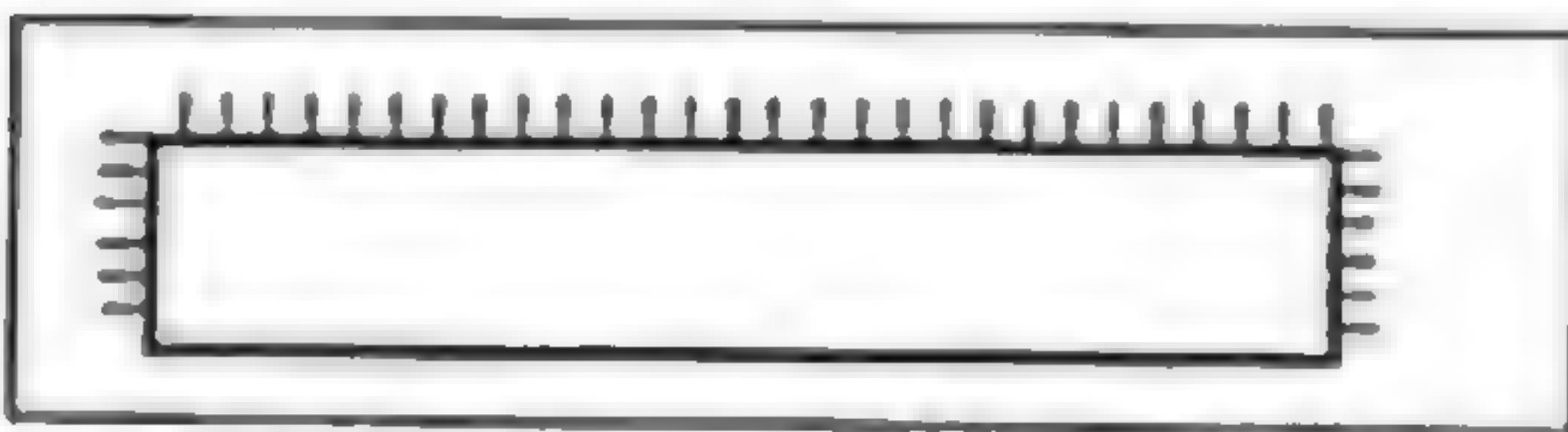
جانبه وتتمثل حتى تصل الي ما يقرب من حوافه، والرابعة تغطي الجانب الثاني، وهي وإن كانت من جوخ أحمر إلا أنها مبقعة ما بين أحمر وأصفر وأبيض وأسود، ويقاربها حشو اللحاف التي يغطي بها أصل مصر وإن خففها في الصورة، لأن اللحاف مربع وهي غير مربعة، لأن التي تكون من أمام فيها قطع مجوفة، وصورتها هكذا



فيضعون التجويف في رقبة الفرس ويربطون الخيوط العليا على مفرقة والخيوط الأخرى يربطونها بخيوط القطعة الثانية، وصورة القطعة الثانية التي توضع على كفل الفرس هكذا:



وصورة القطعة الثالثة والرابعة وهما اللتان^(١) تغطيان الجنبين هكذا:



وحيث توضع كلها على الفرس درعا أو درعين وعليهما شاية، وهي ملبوس أشبه بالجوخة، لكن محشو بالقطن مطرز كاللبوس منفعته تخفيف^(٢) الألم من الضرب

^(١) في الأصل : "وما اللتان يغطيان".

^(٢) في الأصل : "سكت عدم الألم".

الذي يقع من الفرسان، لأن القطن اللين يدفع عن صاحبه وهو مرن سيما إن كان مندوفاً، والناس تختلف بحسب الفقر والغنى^(١).

فمنهم من تكون شايته من حرير، لكنها من قطع شتى ما بين أحمر وأصفر

وأبيض وأسود شكلها هكذا:

أحمر	أحمر	أحمر	أسود
أحمر	أحمر	أحمر	أحمر
أحمر	أحمر	أحمر	أبيض

ومنهم من تكون شايته من جوخ لكنها مفصلة كذلك، ومنهم من تكون شايته من قطن أو الاجة، فكل منهم يعمل على قدر وسعه، ومنهم من يلبس شايته واحدة لعجزه عن ثمن الدرع، ومنهم من لا يلبس درعاً ولا شايته، ورأيت بعضهم قد اتخذ ما يشبه الدرع من جلد التمساح، وحكي أنه وقاية كالدرع، وكذلك من الناس من يتخذ من جلد التمساح درقة هي المعبر عنها بالترس وبالمجن، فإذا علمت ذلك فاعلم أن الفرسان من الفور، إذا كان الواحد منهم لابساً لدرعين عليهما شايته وعلى فرسه لبوس عظيم وتحتة سيفان وأقبل من بُعد يظهر للناظرين أنه شيء عظيم وهذا ما يروع به الفور أعداءهم، وإذا اجتمع نحو ألف فارس على هذه الصيغة رأيت شيئاً عظيماً سيما وهم يروعون الناس بسل سيوفهم وعتادهم وشغاه خنمهم وأصوات صفائيرهم.

نكتة: إذا كان ذو منصب معزول عن منصبه وتولاه غيره بسعاية منه وكل منهما حقد على الآخر وحضر للزحف يفتش المعزول عن المتولي وقت ترتيب الصفوف أو بعد الالتحام حتى يجده ويقول: يا ونداية^(٢) بسم الله، أي تفضل أنا وأنت ندخل الحرب، فإن وافقه ودخل معه في صف العدو سلم منه، وإن لم يوافقه ولم يخرج معه أشهد عليه أنه أبي أن يقاتل، وبعد انقضاء الحرب يرفع قضيتيه للسلطان،

^(١) في الأصل: "وأغناه".

^(٢) كلمة ونداية لم يسمعني القاص لم ترد كما شرحها المؤلف، ونظرت في دار مور علماً على الشاعرين في رواج لمرائد.

ويشهد من أشهدهم، فيعزله السلطان ويوليّه مكانه، وكذا إن خرج معه وقاتل قليلاً ثم فر من العدو، ولكن إن فر وقدر المعزول علي قتله قتله، وإن لم يقدر أشهد علي فراره وتركه، ثم يرفع أمره للسلطان، وكل من كان في قلبه غيظ علي آخر يفعل معه ذلك، لكن إن لم يكونا من أرباب الرتب عند السلطان وأبى أن يدخل معه للحرب أو فر من الصف أشهد أحدهما علي الآخر وتركه، وبعد الحرب يثبت شهادته للناس ثم يترك، فيبقى في غاية الاحتقار عند الناس، حتي يسأله يطلبين المطلق منه، ولم يزوجه أحد ابنته ولا أخته لما وقع منه، ومعنى كلمة ونداي أي المعادل والتظير، كأنه يقول له يا من هو قريبي أو عديلي أو نظيري أو مثلي، وأصل إطلاقهم هذه الكلمة علي الرجلين المتزوجين بأختين، فإن كلا منهما يقول للآخر يا ونداي، ثم توسعوا حتي قالوها لمن تولى منصباً كان القتال يتولاه^(١) قبل ذلك، وتطلق أيضاً علي من خطب امرأة وركن إليها أهلها، ثم جاءهم غيره ألفسد ركونهم وتزوجها، ومثل هذا يطلب ممن تزوجها للحرب أيضاً، وكذا لو طلقها ونتم علي طلاقها وأراد أن يردها وجاء غيره وعقد عليها وهدي لهم نسي ذلك، ولما رجالهم فيتحزمون وقت الحرب بملاحقهم ويشمرون أكمامهم، وكل رجل منهم معه درقة وحراباً لا أقل من أربعة، ثلاث منهم صغار، والرابعة كبيرة، وتسمى الفرخة، ومنهم من تكون له خمس حرايب، وسألسها فرخه، ويجتمعون كرايس كرايس أيضاً ويغنون فيخرج مغنيهم ويغني بلغة الفور إن كان فوراً أو ياً وهم يردون عليه، وإن كان عربياً بلغة العرب وأصحابه يردون عليه، ولقد سمعته يغنون في حرب الأب شيخ وهم يقولون:

(للي للي ويا نزول الا صبا كرية ترك سبيكو دين تكي ايلكا نون فارساً
نيديو فارساً لولو تكبر)

وهذا الغناء وإن كان حين يقولونه يظهر أنه جميل لارتفاع أصواتهم كلهم به وتساويهم في النغمة إلا أنه اذا فسر بالعربية كان ركيك المعني، ولا خصوصية للغة الفور في ذلك، بل أي لغة اذا فسرت غناءها بالعربية تجده كلاً ما مفككاً محه

^(١) في الأصل: "من تول منصباً كان القتال فيه قبل ذلك".

السمع، ومعنى ذلك: (أن الحاج أقبل من جهة الشرق فاسألوا النور كيف حال خورنته، ثم النور في وسط الفرسان، عيب يا فرسان النور مع أخيه).

لكن كبيرهم يقول: للي للي فيقولون هم: ويا، ويسكتون فيقول كبيرهم: (تروا التلا صبا كرية نون سينكو دين تلي ايلكا) ويسكت، فيقولون: (نون فارمسا ديولو فارمسا لونو نكبر) وان كانوا عرباً قال كبيرهم (تور التجاموس ورد التمي، بدور التمي يترشش به)، فيرد عليه أصحابه: (يريد التمي يترشش به)، ويعيدها مرة أخرى ثم يقتصر على قوله: تور التجاموس ورد التمي، فيقولون هم: يريد التمي يترشش به، ويغنون هذا ويهزون حراهم التي في أيديهم ويصرخون فيسمع للجيش ضجيج، (أما) جيش فرقت السلطان المسمى بالعميدية، فيجتمعون زمراً زمراً ويغني كبيرهم: * قامبو رتي اتايا ويو ويو اتايا، ودي ويا، وري ويا، وباري اتايا*.

وهذا الغناء غير معقول المعنى لي، وسألت عن معناه كثيراً من أهل دار فور فلم يجيبوني جواباً شافياً، وسمعت من يقول:

(لولي سيد لو جولو أياك ويدي أنتو ادنبر أدي)

ومعناه بالعربية: ركبت جد الآن، لو اسم للمكان، وسيد لو معناه صاحب المكان، وجولو معناه النظر، وقوله يا دوي معناه يا تاملن، وقوله دي معناه الفحل، وقوله ينبردي معناه مع فحل مثله.

فيصير معنى الكلام مع القلب والتشويش وزيادة بعض كلمات، وسبك العبارة: يا صاحب المكان انظر المكان تري كل فحل يقتل فحلاً مثله، وسمعت بعضهم يقول: {

(لوتا لولو كملجاوه قم جوبو جني كنبو منون دبي قبلأ لنديو ليه) وهذا الآخر معناه ركبك، وإن كان يظهر أنه حسن بالغورأوية، لأن معنى قوله: لويبا لولو: مكان يا مكان، ومعنى لوكلبو: أتخافون من المكان، ومعنى قوله: قم جوبو قولو قم جر، وهاتان الكلمتان تقالان عند الغضب، وأصلها عندهم^(١) تقالان للكلب طرداً أو زجراً له، كما تقول أهل مصر للكلب: عصاجر، فاستعملنا عندهم للتسم مطلقاً،

^(١) ن الأصل: "وعدم كان أصلها تقالان".

فإذا غضب أحدهم قتل لمن يخاصمه قم جر، وإن كانتا غير معقولتي المعنى جيداً،
كقول الفرغلاويين: "ساكري نون ديدون".

ومعنى: جبي كنبو معناه لا تخافوا، وقوله نون دبي، معناه الثور الفحل،
وقوله: قبل ديوكيه، فيه جواب مقابل له، فيصير معنى الكلام مع الزيادة والمسبك
والتنديم والتأخير: (مكان يا مكان أتخافون المكان، قولوا قم جر لا تخافون المكان،
يوجد في صف الحرب ثور فحل مع فحل مثله، أي يقتل قرينه)، وأضرب ذلك
كثير من الغناء، وأما قولنا السابق: (كثوا إيا دو قتر ابوا) فكلوا (معناها) الخوف،
إيا (معناها) أم، دو قتر أبو الحصين^(١)، وديو (أي) الجماع، فيصير معنى الكلام (أم
الجبين يجامعها أبو الحصين).

وبالجملة فأهل دار فور يعتقدون في الغناء ما تعتقد العرب العرباء في
الشعر، وهذا الكلام عندهم في الحرب كالحماسة للعرب، وعندهم في الأفراس غناء
آخر لكن لا يقننه^(٢) إلا النساء، لأنهن المنوطات بذلك.

وإذا انجر الكلام إلى الحرب والفرسان والخيول فنستذكر فيما تعلق بالخيول
وصفاتها، إذ هي أعز ما اقتنى، وبها يقع الأرحاب، وبها يكون الطلاب، وقد ورد
في الحديث: (الخيول معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة^(٣)) وقد قال تعالى في
التحريض على الاستعداد لنبيه الهادي للرشاد:
(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله
وعدوكم^(٤))

ولهذا كانت من أعز الأموال وأجل ما اقتناه الرجال، إذا تقرر ذلك فنقول:
إعلم أن الخيل في دار فور على أجناس، أحسنها ما هو عند الملوك
كالمسلطان ولرباب دولته، وهي التنقلوية^(٥) والمصرية، فأما التنقلوية فخيول عالية

^(١) أبو الحصين: هو المروج، وهو حيوان أبيض، يحمي صفاء الأرض لسكته، ويهاجم منزل الدجاج ليلاً ويصرف في الليل
الكواكنه.

^(٢) في الأصل: "لكن لا يقننوه إلا النساء".

^(٣) ورد الحديث بصيغة أخرى: كالحرم مطهرو يومئذ الخيل إلى يوم القيامة.

^(٤) سورة الأنفال، الآية (٦٠).

^(٥) التنقلوية: نسبة إلى دقل، وهي مدينة في شمال السودان، يفت منها الملح، وأغلب في ذلك الوقت.

القوائم براقعة اللون يغلب علي ألوانها السمراء، وتكتسبها الملوك للزينة لحسنها، وأحسن منها الخيول المصرية التي كانت تقتنيها العامة والخاصة، لأنها وإن لم تكن عالية القوائم كالهندلوية إلا أنها حسنة قابلة للتعليم أكثر من غيرها، وتتحمل المشاق في الكر والفر وألوانها جميلة، ويغلب علي ألوانها الحمرة، فتري المكرم منها مربوع القوائم، ضامر البطن عظيم الكتف والصدر، متوسط الجيد، ينفر ضد المنايا خصوصاً خيل السلطان فإن السيلس يربونهم أحسن تربية، ولذلك تري الفرس الذي يركبه السلطان سواء سار أو وقف وعليه السلطان لا يروث ولا يبول مدة مامو علي صهوة، ولا يرفع قدماً ولا يتقدم ولا يتأخر، بل قصاري لمره أن يرفع رأسه ويضعه، وإذا وقع من فرسه أنه بال أو روث أو تزلزل عن مكانه الذي أوقف به ينزل عنه السلطان ويأخذه^(١) السوايس ويضربونه ضرباً مؤلماً، فلا يعود يفعل شيئاً مما وقع منه، وحين كنت هناك ورأيت خيل السلطان في غاية الحسن، سألت أحد السوايس^(٢) عن سبب ضمورها، فأخبرني بأن ملعامها دائماً من نخيل رطب يجلب من سفح جبل كسا^(٣)، وإن قوامها من الدخن المجروش المعجون بالعسل، حتى يصير عجيباً تخين القوام، يعطي الفرس منه أربع قبضات في الصباح ومثلها في المساء، وبعض قبضات من قش النجيل، وتسقي في الصباح لبناً ملباً، ويدأوم علي ذلك، فيكتسب الفرس قوة وحسناً ويبقى ضامراً كما تراه، وأما الخيل الغورأوية، أي التي أصولها من هناك، فإنها كالبحر، عظيمة البطن شديدة البطر، إن شبعت عربدت وعبثت يديها ورجليها، وإن ركب عليها الفرسان خالفت في مشيها، ولا تستقيم علي الطريق بل تسير مع الاعوجاج، ويقع منها الحرن والجموح، فالحرون منها متى ما حرن لا يمكن {أن} تسيره ولو قطعته، بل كلما ضرب بالسوط رفع يديه ووقف علي رجله حتى يراى بياض بطنه، والجموح {منها} متى^(٤) ما جري لا يرده اللجام بل يقص اللجام بأسنانه ويأخذ

^(١) في الأصل: "ويأخذوه السوايس".

^(٢) هكذا يكتب المؤلف السوايس وأحياناً السيلس، وهو جمع سيلس وهو الذي يقوم بخدمة الفرس ورثته.

^(٣) جبل كسا: من جبال شمال بلاد فارس.

^(٤) في الأصل: "والجموح من ما جري لا يرده اللجام".

فارسه ويظل يجري حتى أنه ربما أوقعه في صف العدو، (وليضاً) ربما أنخل^(١) هذا الحرون صاحبه في الصف ورفض الخروج منه، فيحزن ويثبت حتى يقتل فارسه، وهذان الداءان أکبح شيء^(٢) في الخيل، وإن جاءت هزلة، لكنها تتحمل مشقة السفر والركوب، ومن عانتها أن الفرس إذا جرح في الحرب يرمى صاحبه من على ظهره ويجمع، بخلاف الخيل الأصيلة فإن الفرس منها لو جرح مائة جرح يصبر حتى يرجع به صاحبه إلى عسكره، وأحسن الخيل في دار فور خيل عرب البادية، لأن أصولها عربية، وفارسها إن طرد لحق، وإن طرد سيق، ولو كانت هزيلة. لكن شتان ما بين مرعي خيل العرب^(٣) ومرعي خيل الفور، وشتان ما بين تربية هؤلاء وتربية أولئك^(٤)، أما الفور غير السلطان وبعض خواصه فاتهم يملفون خيلهم بالدخن، والدخن عادته يكبر البطن، ويكثر الدم، والفور يركبونها للزينة ولسفر بعض الأماكن مع الراحة، وتري الأمير منهم بعد كل ساعتين يغير مركوبه بأخر خوفاً عليه من التعب، وأما العرب لثة الدخن عندهم فيطعمونها الحشيش ويسقونها اللبن الحليب دائماً، ويفسلون أجسامها بالسمن المذاب، ومن عادة العرب الإغارة، فدائماً تجد البدوي بالليل يقيد فرسه بقيد من حديد، وفي القيد سلسلة طولها نحو باع، طرفها مربوط بقائمة سريره الذي ينام عليه، ومن حيث أن الخيل استأنست بالمغازي والكر والفر، فمتى وقع في الحيضجة تری الفرس ينهنه ويضرب برجله الأرض فيوقظ صاحبه إن كان نائماً، وبالنهار يربطه قريباً من بيته، فمتى ما وقع في الحيضج قامت امرأة البدوي أو أخته أو أمه أو نحوها ووضعت المرج على الفرس وأجمته، وقام البدوي إن كان نائماً ركب أو جاء إن كان مستيقظاً فركب، وأشار مع جماعته، فهذا تجددهم متى وقع صياح في حي خرج الفرسان كلهم في طرفة عين، ولما كان عمدة أمر العرب على الخيل تغالوا في أثمانها بحيث يباع الفرس المشهور عندهم بأعلى قيمة، وربما وصلت إلى مائة الفرس الرباعية وفحلها معها، وأعلاها عندهم ما

^(١) في الأصل: * وكما الحرون ربما أنخل صاحبه *

^(٢) في الأصل: * وهذان الداءان أکبح شيء ما في الخيل *

^(٣) في الأصل: * لكن شتان بين مرعي خيل العرب وبين مرعي خيل الفور *

^(٤) في الأصل: * وشتان ما بين تربية هؤلاء وتربية هؤلاء *

يسبق ثلاثة كمينين، وذلك لأن الخيل درجات، منها ما يسبق كميناً واحداً، ومنها ما يسبق كمينين، ومنها ما يسبق ثلاثة، وهو أحسنها، فالذي يسبق ثلاثة كمينين يضعون له في كل كمين عشرة من الخيل، وبين كل كمين مسافة نحو ساعة أو أكثر، فيخرج الفارس وحده أولاً ويجري قدماه حتى إذا جاء لحق بالكمين الأول خرج معه العشرة فوارس بخيلهم ويتأخرون عنه^(١) فلا يصل إلى الكمين الثاني إلا وحده فيخرج معه وهكذا حتى يبلغ الثلاثة.

وقد يقع في خيل العجم من الفور والوداي ما يضاهي خيول العرب في السباق^(٢) ويزيد عليها بقوة احتمال المشقات، فقد اتفق أن أحد^(٣) التاماريين الشترى فلوا صغيراً ورباه وكان القلو من السباق للسباق ولم يدركه طالب ولم ينج منه هارب، فلما رأى من جودة فرسه ما رأى طمع في المكسب، فاتفق أن بين الوداي والتاماريين ما بين شفرية مسافة قصبتين أو أكثر، فحدثه نفسه أن يتوجه إلى ذلك الوادي ويخاطر بنفسه، وينظر هل ينفر^(٤) فرسه الوادي أم لا، فذهب وحمل فرسه على الوثوب فوثب ونفر من الشفير إلى الشفير، وكان بين الشفيرين هوي لو سقط فيه لهلك هو وفرسه، ولما علم ذلك من جواده صار يأخذه ويتوجه إلى دار الوداي فيجلس في بئر من الآبار، ويتأمل في البنات اللاتي^(٥) يردن فوقهما^(٦) رأي صبية جميلة اختطفها وفر، فركب وراءه الفرسان فلا يثاقون منه إلا الغبار، وابن اندكوه أتى بهم إلى ذلك الوادي فيظنون أنه لا يمكن العبور منه لسمته، فيفرحون بذلك فيضرب هو الجواد ويعبر الوادي فيأتي الفرسان خلفه فيرونه قد عبر وخيلهم تقف على الشفير فيندمسون من ذلك ويرجعون خائبين، فاتفق أنه أخذ صبية لم يكن لأبويها غيرها، وفعل معهم ما فعل بغيرهم فرجعوا بوجوه بأسرة وصفقة خاسرة فاغتافل أبو الصبية وتوجه إلى بلده وكان عنده من الخيل فرس أنثى

^(١) في الأصل: "يستودمه".

^(٢) في الأصل: "في السباق".

^(٣) في الأصل: "فأعلم أن بعض التاماريين".

^(٤) ينفر: ما يحسن من الخفة واحدة.

^(٥) في الأصل: "البنات التي يردن".

^(٦) في الأصل: "لنهما رأي صبي".

لكنه قرب وقت نقاجها فصبر حتى ولدت وحان وقت النزول^(١) وطلبت ذلك، فأخذ قطعة من القطن المنسوف ووضعها ليلاً على فرجها وربطها ربطاً جيداً وتركها إلى الصباح وأخذها وقد ابنت من رطوبة فرج الفرس، فلها في قطعة قطن أخرى ووضعها في مزود وتكرر بانساً (حيث) لبس ثياباً كثياب النامايين وتزوي بزيم لئلا يعرف أنه من الوادي وسافر إلى بلاد الناما مهاجراً يتكف فصار يتخلل ديار القوم (ويظهر) عندهم في صفة غريب مهاجر حتى عثر على ابنته في بئر من أبارهم فلم يحدثها بل صار يراعيها أين تذهب ويتبعها من بعد حتى دخلت في البيت الذي هي فيه، فصبر حتى دخل الليل وطارق الباب قائلاً إن ضيف الله مهاجر، فأدخلوه في محل الضيافة، فنظر إلى الفرس الذي هو لصاحب الدار وعرف محل مبيته، فلما كان في جنح الليل وهذا الناس قام ودخل على الفرس فحاول^(٢) أن يأخذه ويفر فلم يمكنه ذلك لكون الفرس مقيداً بقيد حديد منين، وفيه سلسلة متينة أيضاً، فلما أعياه الأمر أخرج القطن من المزود وقربه من أنف الفرس، فحين شم رائحة رطوبة فرج الأنثى هاج والفظ واشتدت غلمته فقرب القطنه لأحبله فبالأمر المقدر إنه أمني ووقع منه المني في القطنه، فأخذ القطنه ولفها كما كانت، ووضعها في مزوده وبات بقية ليله، ولما أصبح توجه إلى بلده وكان قد ترك فرسه مربوطاً ولمر أن لا يخرج لئلا يعلو عليها بعض الخيل، فلما دخل دله لم يكن له هم إلا أن أخرج القطنه التي فيها ماء الفحل ووضعها في فرج الفرس فبقيت مائماً الله أن تبقى، فتحلل ماني القطنه من الماء من حرارة الفرج وتشربه الرحم، فحملت بلئن الله تعالى، وتركها مربوطة مدة فظهر حملها ظهوراً جيداً ولما انقضت مدة الحمل وضعت فولاً كأنه أبوه، فقرح الرجل بذلك واعتلى بتربيته حتى جاء أولن ركوبه، فصار يركبه ويدربه شيئاً فشيئاً حتى تقوى عصبه وصار يصلح للغارة فأخذه وتوجه به إلى ذلك الوادي وخاطر بنفسه وألجا فرسه إلى اقحام الوادي فاقحمه (بشكل) أعظم مما كان يقحمه أبوه، فقرح بذلك وتوجه إلى بلاد الناما، وجاء إلى البئر الذي ترد فيه ابنته فصبر قليلاً حتى وريت،

^(١) وقت النزول: أي وقت الاستعداد للحمل.

^(٢) في الأصل: "وفاخ ان باحله..."

ومما يتعاملون به إن كانوا قاصدين حرب عدو ورأوا الخيل تمطت بيديها^(١)
تفاعلوا بأنهم منصورون وإن تمطت برجليها تشاموا^(٢) بالهزيمة، كما أنهم إن
رأوا الغربان تحوم أمامهم تفاعلوا بالنصر، وإن رأوها خلفهم تشاموا^(٣) بالهزيمة
ولهم في ذلك اعتقادات لا تزع من صدورهم.

نادرة:

كان للسلطان تيراب نديم يقال له الفقيه موسى تداويض وكان طلق اللسان
حلو المنطق، فاتفق أنه حضر مع السلطان حرباً في كردفال في سرية، وانهمز
الجند الذي كان معه وكان الفقيه موسى راكباً فرساً أربد، فخاف على نفسه أن
يدركه العدو فنزل عن الفرس ونجا بنفسه وعاد فرسه حتى دخل مع عسكر
السلطان فقبضوا عليه ودخلوا به إلى السلطان قائلين: إن هذا فرس الفقيه موسى
ولولا أنه قتل لما عاد، فاعتصم السلطان لنفده وأمر بربط فرسه مع خيله حتى
ينكشف الأمر، فلما كان بعد العشاء حضر الفقيه موسى ودخل على السلطان فلما
راه السلطان فرح وسأله عن حاله فقال: لقد قاسيت البارحة في الحرب ما لم يقاسه
أحد حتى قتل جوادى الأربد ولولا أن الله نجاني لقتلت أنا الآخر، فضحك السلطان
من كلامه وعلم أنه كذاب، لكن لم يظهر له شيئاً بل قال له لا بأس عليك،
وسنعوضك خيراً منه، ولاتدعك راجلاً بعد أن عرفنا من شجاعتك ما عرفنا، ولما
أصبح الصباح حضر الفقيه موسى فسأله السلطان عن حاله وما جرى له بالأمن
مع الأعداء، فأخبره كما أخبره بالأمن، فقال السلطان: هاتوا للفقيه موسى فرساً
من خيلي، وكان أوصاهم أنه إذا طلب للفقيه موسى فرساً أن يأتوا^(٤) له بفرسه
الأربد، فأتوا به فلما رأى جواده بعينه صاح وقال: اتق الله يا أربد تتبعث قبل يوم
البعث، فضحك منه السلطان والحاضرون، وكان الفقيه موسى ساطع اللسان على
أمراء السلطان ويأخذ منهم العطايا الجميمة، ومن لم يعطه رماه عند السلطان

^(١) للتصود * يدها: أي رجليها الأيمنين، والتصود: برجلها من رجليها الخلفيتين.

^(٢) في الأصل: ... تفاعلوا بالهزيمة.

^(٣) في الأصل: ... تفاعلوا بالهزيمة.

^(٤) في الأصل: ... يأتون له.

بكلام يبيته به فلذلك كانوا يحترمونه، وكان يقول كلما يعتقد أنه شعر مع أنه ملحون، ومن ذلك ممدح به بعض النساء فقال:

صديقك سطيحا كن لو حابره
صار فقير الناس كان كابا

أملك عزازاً^(١) يحفظوا السلطان
شرطك بقرآن الأسير قرآن^(٢)

هذا ولهم في الخيل مقالات ومقالات لو تتبعها الانسان لاتسع عليه الميدان ولهم فيها اشعار واخبار لا يحصيها العد، ولا يوقف لها على حد.

تنبيه:-

اعلم ان الوداي في جميع ما ذكر قريب من اصطلاح الفور، لذلك لم نعتد لهم فصلاً مستقلاً ونهاية الامر انهم أقل من الفور في وصف^(٣) الفرس ونحو ذلك، ولا يخالفون الفور الا في الغناء لانهم لا يغنون ويعدون^(٤) الغناء في الحرب نوع من التعبث وعندهم عوض الغناء بوقات الكبريت والتكحيل ولما التفتيت فلاخيل عندهم البتة وليس عندهم من انواع الحيوانات الا البقر، فانها توجد عند بعض القبائل كقبيلة الجنتي^(٥) والتي ذكرنا ان عندها بقرأ كثيراً من حيث انهم لا يوجد عندهم النواب المذكورة فيحملون ذاتهم ان كانوا مسافرين على رؤوس نساءهم ويحملون ملكهم على سرير، وفي أثناء الحرب على كرسي وهم حاملون له فان انهزموا وضعوه على الأرض وفروا.

تنبيه:-

اعلم ان ملوك السودان لا يفرون حتى اذا انهزم جيشهم فاذا رأى الملك منهم جيشه قد انهزم نزل عن فرسه إن كان فارساً راكباً أو عن أعناق الرجال إن كان من ملوك الفرقيت، لأنه يخشى أن ينحقه العار من الهزيمة وقد اصطلاح أهل

^(١) في الأصل: "عزازة".

^(٢) ممدح هذه المرأة بان صبرها حال كنفوج، وان فعلها حرار مشهور للسلطان وان معها مال صارة من البرة والبرمة فربما، والله اعلم.

صارة من البرة كثيرة تحمل مفروشات على ظهر الفور وهو كناية عن كثرة وعلاء النهر.

^(٣) في الأصل: "في وجه الفرس".

^(٤) في الأصل: "ويعدون ان الغناء".

^(٥) الجنتي: مصطلح يطلق على السودان على الصغر، القبيلة عسوماً.

السودان من قديم الزمان لن الملك لا يقتل من الأعداء الا اذا قتل في وقت القتال
وأما لن جلس على الأرض فلا يقتله الا أوباش الناس ولما العقلاء فلا يقتربونه بل
ياخذونه الى ملكهم فيحسن لقاءه ويكرمه ويظل مقيداً عنده لعدة أيام حتى يتفق معه
على أمر ثم يرسله الى محله مكرماً، وكذا اذا عثر على اتقاضى أو بعض العلماء
فلا يقتلونهم، وكذلك يضرب الطبل والتنقير فالواجب لكل هؤلاء ألا يقتلونهم
ولا يبقونهم في الأسر، بل يطلقونهم ويرسلونهم الى بلادهم واذا ضبط ملك من
ملوك الفرنج فيحسنون اليه ويردونه الى ملكه، هذه عاداتهم قديماً ولا يقتلون من
الأسير الامن خان أو قاتل^(١) بعد الأمر أو كانوا يسمعون أنه يعييبهم ويلعنهم ويقول
فيهم كلاماً فسيحاً.

واذا أسر السلطان ياخذون جميع أعتاقه وخنمه وماله من السلاح والخيول
والأهل ويوقفون له اعتاقاً وخنماً، وإن كان معه نساء ياخذون ولا يردون اليه
في بلاده، ويجرون عليه النفقات التي لن يمتن هذا اذا لم يكن جوارى (فإن كن
جوارى)^(٢) فعل بهن السلطان ما أرك من بيع أو هبة أو سر، لكن عنهما غزا
السلطان بلاد البقرمة وظفر بهم وباع من نسايتهم وأولادهم ما أراد، واسترقهم
لتأوله أنهم كفار تبعاً لملكهم خصوصاً نساء السلطان فإنه اصطفى منهن لنفسه ما
أرك ووجب^(٣) منهن ما أرك وقد ذكرنا بعض ذلك في غزوة باقرمة فلا إعادته.
وفيما ذكرنا كفاية لأرباب الدراية.

^(١) في الأصل "الامن خان لو قاتل".

^(٢) في الأصل "بعضها اذا لم يكن جوارى مثل من السلطنة".

^(٣) في الأصل "ووجب منهن".

الفصل العاشر

في ذكر التجارة وذكر ما يتجر به

اعلم أن المغنى على الإطلاق المنزه عن الانتفاع والارتزاق لما كان غنياً مستغنياً عن كل ماسواه، ومفتقراً إليه كل من عداه،^(١) نظر بعين الرحمة إليهم، وأنزل انعاماته عليهم، ومن رحمته جعل فيهم المالك والمملوك والغنى والصلوك، وخص كل إقليم بما لا يوجد في غيره، وربط الأسباب بالمسببات والهم الناس طروق رشادهم ومافيه صلاحهم وفسادهم، فانقسم^(٢) العالم الى أقسام جليلة حسبما تعلقت بذلك الإرادة العلية، فكان التجار من القسم الوسط الذي ليس على صاحبه شطط، ولولا التجارة لما تمتع الناس^(٣) ولا حصل لهم هذا الاستيناس، كيف وهى حرفة كان من جملة أهلها خير الأنام عليه الفضل الصلاة والسلام، فقد روى بالأسانيد الصحيحة أنه سافر فى تجارة خديجة أم المؤمنين الى الشام، ولم ينكر ذلك أحد من أهل الاسلام، ووردت عدة أحاديث فى مدح التجارة الخالية عن التدليس والغش والخلاية، كما روى ذلك عدة^(٤) من الصحابة، فهذا نجد فى كل إقليم من التدب لهذا الخير والأمر الجسيم، ومن جملة ذلك أهل السودان فبهم لما كانت بلادهم خالية عن الأقمشة الجميلة والبضائع الجليلة وعندهم ما يحتاج إليه أهل المدن العظيمة من الخيرات العظيمة، لتكسب من كل إقليم لهذا الأمر المهم أناس ودخلوا فى ملك أهل التجارة ليكون لهم من الخير التماس، فجلب تجار الفور منها الرقيق والصمغ ومن الفيل والتمر هندي وحب العين المسماه فى مصر بالشمشم والنبق والكرو والبلدى والجلود العظيمة التى تصنع مراكب، المعبر عنها فى مصر بالرى، وریش النعام بنوعيه الأبيض والأسود، وكل مما ذكر له فى الأمصار، فاما الرقيق فهو مما لا يستغنى عنه أهل المدن وهو أعظم ما يتجر فيه، هو ومن الفيل

^(١) فى الأصل: .. ومفتقراً إليه كل ماسواه..

^(٢) فى الأصل: .. فانقسم العالم..

^(٣) فى الأصل: .. ولولا التجارة لم تمتع الناس..

^(٤) فى الأصل: .. كما روى ذلك عدة من الصحابة..

وريش النعام والصمغ والتمر هندي، وهذه بضاعة الأغنياء منهم، وما تبقى تتجر فيه فقرائهم.

وأما البضائع التي تروج عندهم فهي كثيرة جداً، وأكثرها مما لا يعبأ به أهل المدن ويرون أن نفعه قليل فمنها المقصوص، وهو كهرمان أصفر يختلف في الحجم، فمنه نمرة واحد، ومعنى نمرة واحد أن السبحة منه تزن رطلاً، وهو خرز مستدير مقزح^(١) يجعله النساء في عقودهن وهو أغلى ثمناً من غيره ولا يلبسه منهن إلا بذات الأكابر، وبذات الملوك، ومقاربهن، ومنه نمرة اثنين وهو أن السبحة تزن رطلان رطلاً، وهو أقل من الأول ثمناً، ويلبسه نساء أوساط الناس، ومنه نمرة ثلاثة، وهكذا ومنها الريش وهو خرز مستطيل كأنه المرمز، فيه خطوط وهو مستدير وربما وجد منه ما هو كروي وأعلى منه السوميت، وهو خرز رفيع مستطيل أسمر اللون فيه خطوط بيض وهذا تلبسه نساء الملوك وبناتهم، وربما بيعت الخرزة منه برأسين من الرقيق، وإن كثر أي (الرقيق) فبرأس وقد كنا نكرنا ذلك في حلى السودانيين وزينتهم، ومنها البخور، وقد كنا نكرناه، وهو خرز كبير مستدير يجلب من الجليل تجعله النساء في أوساطهن فتجمل المرأة ملين في وسطها سبع حبات أو خمس، وهو ما بين أخضر وأصفر وأسود منكت^(٢) والأسود يسمونه المشاهرة، وأعلى منه الخرز المسمى رقاق الفاقه وهو خرز أكبر من المنجور وأنعم منه وأدق صناعة، فلذلك تلبسه نساء التجار ويلبس المنجور نساء أوساط الناس، ومنها الحوش وهو خرز صغار ما بين أخضر وأزرق وأصفر يتعامل به أهل كويبة^(٣) ويلبسه نساء الفقراء في أوساطهن إذ لا يتقرون على شراء المنجور ومنها المرجان، وهو عندهم نوعان: الفص والمردم، ولا يعرفون من أنواع المرجان سواها، فأما الفص فهو خرز مستطيل وهو كالمقصوع في النحر،

^(١) مزج أي يكون المزج مزج وهو الأزرق والأحمر والاسمر.

^(٢) منكت .. بمعنى أنه منكت أو طاق.

^(٣) كويبة: من أكثر مدن دارفور عند ريادة الغزاة الممثلة، وهي مركز تجاري مهم عند مناطق هذه طرق في شمال دارفور وتقع شمال مدينة الفاشر وكانت محطاً من جميع القوافل التي تأتي من هذه الجهة في شتاتها على ما قلناه من كويبة، ومعظم سكانها أسلاف من قبائل الإحباب أو النصارى، وكان أكثر أهلها من النوازة والفرار والحلابة ولقد عذرت معام كويبة في أولات الغزاة ولم يبق منها سوى أهلها الذي ما زال يحمل اسمها وهو وادي كويبة.

متر: Browne, W.G.O.P.Cit.P.234.

ومنها الفاو، وهو مرجان صناعي وهو على نوعين أيضاً: طويل ومردم والمردم هو الكروي والفاو المذكور رخيص، ولرخصته تلبسه نساء الفقراء والمرجان الحقيقي ينظم مع المنصوص والریش والموميث ويجعل عقود تلبسه النساء في أعيادهن ومنها دم الرمان وهو خرز أحمر كاتم يجلب من بلاد الأفرنج وهو من زجاج، وحبه على نوعين، مستطيل ومردم وكل منهما رقيقة، وهو رخيص تلبسه نساء الفقراء في عقودهن، وفي ثمانين وفي أئرعتهن، وتسمى اللوحة مدرعة، ومنها الطرايش ولا يأخذون الذي فيه طول وبعض ضيق ليكون على الرأس كالطرطور.

ومنها الثياب البفنة الرقيقة المسماة في مصر بالمدرات فلن الجلابية يأخذونها، والطاقية ستون ذراعاً، يقطعون كل طاقية ثلاث قطع كل قطعة عشرون ذراعاً، ويصبغونها ويذهبون بها إلى هناك فيبيعون كل قطعة برأس رقيق والالاجة^(١) الكساوى، وهي أردى الالاجات وتسمى عندهم بالنخوقلى فيقطعون الالاجة قطعتين كل قطعة يسمونها قرناً تلبسها نساء الأكابر على صدورهن، وتباع القطعة منه بنصف رأس رقيق أغنى بنصف ثمن رأس رقيق، ومنها الشواتر وهي المسماة في مصر بالعبك، وهو قماش غليظ من قطن في آخر قطعة منه طرز عريض أحمر، تباع القطعة منه بتسعة قروش أو عشرة تجعلها أهل مصر بطانة المراتب لجلوسهم ونومهم وبطانة لأحفنتهم فيصبغها^(٢) الجلابية ويذهبون بها إلى دارفور فيبيعون كل ستة منها برأس رقيق إن كان الرقيق غالياً، ولقد أدركته في الزمن الذي كنت فيه هناك، وإن ثلاثة شواتر برأس رقيق، ومنها الجوخ، وهو أخشن النسيج ولا يلبسه في مصر إلا الرعايع لرخصته، فيأخذونه ويبيع للملوك ليجعلونه لبوساً لخيولهم، ومنها الحمير، فإن الحمير المصري هناك يساوى شيئاً كثيراً فإن كان عظيماً جداً ربما بيع بعشرة رؤوس من الرقيق، ومنها المنبل والمحلب وخشب الصندل والصقر والشيبة والمرجان والقرنفل وكعب الطير والبن

^(١) الالاجة نوع من المعتر كان يلبس في مصر ويباع للحمال في شكل خلات لم يقطع منه إلا لامبات وحجم ويستر بها كبار القوم في شكل ملاحف يشتمون لها في الشابات وتقطع منها قطع النساء يلبسها في صدورهن. يتر تشبه الالاجة من ٢١١.

^(٢) في الأصل: ... يصبغونها بالملاءة.

والصليبون، وجميع ما ذكر يدق ويجعل في الدهن الذي يُطَيَّب به، ومنها النحاس
الأحمر وهو المسمى في مصر بالقراطة، وهو كل نحاس بطل استعمله الأبعد
صوغه ثانياً، كقتر ذهب، وهذا النحاس عندهم له ثمن عظيم يصنعون منه
الجلال^(١) لكن بإضافة بعض الخارصين عليه ليقلبه من الحمرة إلى بعض صفرة
وتصاغ منه الدمالج^(٢) وهي التي تباع في دار رنكا^(٣) كل أربعة دمالج من الملح
برأس رقيق، ومنها التينان الأصفر وهو ألواح الصفيح، وهي عالية الثمن في
دارفور يجعلونها في وجوه الخيل، فالأمير الذي ليس لفرسه ذلك لايعبأ به، ومنها
الملك الأصفر يأخذه الأمراء ويلوونه على أعواد حراهم زينة، وأهل فرأوجية
يضعون ذلك في الحراب بكيفية جميلة فالسلطان وأرباب النولة يجلبون من
فرأوجية أهل الخبرة بذلك، فيلوون لهم السلوك المذكورة على أعواد حراهم ومنها
التصدير ويبادلون أهل الفاشر بخواتيمه كما ذكرنا ذلك في فصل معاملتهم، ومنها
الجزور وهو خرز مستطيل أحمر وأبيض وأزرق لايلبسه في دارفور إلا الخدم،
ومن لايتنر على (ثراء) غيره، وإنما يأخذه التجار ليبيعونه في دار رنكا وفرأوجية
ودار بيكا^(٤) وجبل شان، فهذه تلبسه نساؤهم ومنها الكحل الحجر المسمى بالأثم
في ناحية الغرب وهو حجر أزرق براق يسمى بلغة الكيمأويين كبريتور الایتمون،
ومنها الإبر، وهي وإن كانت بضاعة مزجاة لكنها في دارفور لها قيمة، فقد تباع
الآلف ابرة برأس رقيق، ومنها أموالس الحلقة، لأن الأموالس التي تصنع في
دارفور حديد كت^(٥) رديء، قليل النفع إذا رأيت الحلق يحلق بها كأنها يسنخ رأس
المخلوق، ومنها السروج والبدل التي تحتها ولايركب عليها إلا أمراء الناس ومنها
الركابت الطويلة التي كانت تركب بها الترك سابقاً، ومن السروج والسيوف

^(١) الجلال، هو الذهب، وهو الكوب أو الكاكر الذي يستعمل في ضرب النسي نو اداء لو غيره.

^(٢) الدمالج جمع دملج وهو مزج من قرمة صمغ من الحبل نرس - الساء كلاسأور ونسعمل كعنة في بلاد شعوركة.
ينظر: لمحمد الامام ص ٣٠٢.

^(٣) دار رنكا نو رومنا: يقع في شمال بحر العرب وشرق بلاد فرأوجية وشمال دولحة من ضمن بلاد العرب في ذلك الزمان.
ينظر: لمحمد الامام ص ١١١.

^(٤) دار رنكا نو رومنا: يقع ضمن جنوب دارفور وشمال بحر العرب وبلدة سمحة ضمن بلاد العرب في ذلك الزمان.

ينظر: لمحمد الامام ص ١١٢.

^(٥) حديد كت أي هو صلب.

المعتدلة فهي التي يتخذ بها الأمراء ويجعلون لها قبضة من فضة، وفي رأس القبضة انتفاخ على هيئة كرة، فارغ البطن يجعل فيه حصيات، فإذا أسند أحد سيفه وحرزه في يده شخشت الحصيات داخل ذلك الفراغ، ويجعل الأمير منهم على سرج فرسه سيفين وربما طلى القبضة بالذهب ويسمون الذي قبضته كذلك أبو تومة، وكذلك الانتفاخ برأس التوم، ولا يكون إلا لأمرانهم العظام، ولما الأمراء الصغار فرما عملوا القبضة وانتفاخها من نحاس، ومنها الورق للكتابة وهو مطلوب عندهم، ومن أحسن ما يتجر فيه في السودان الريال الفرائس المسمى أبو مدفع وهو يغلى حتى يباع رأس الرقيق بعشرة ريات وبثمانية، مع قلة المؤونة في الحمل ومنها كبريت العمود فإنه يطلب ومع رخصة هنا فإنه غلى هناك، ومنها كتب الفقه والحديث فإن مكسبها عظيم جداً، وكان للجلابة سابقاً يأخذون الملايات الحجازي لأمرانهم ملاحف، والآن عندهم، وصاروا يأخذون الالاجات، فيجعلون الالاجة شقين ويحبكون طرفيها ويجعلون لكل طرف هدباً طويلاً، وهو المسمى عند الملوك بالفير، إذا ولي السلطان أحدهم أعطاه فيراً وإذا عزله أخذه منه، والآن يأخذون من الثيت المقلم الذي على هيئة الالاجة فيجعلون كل طاقة لربع قطع، ويحبكون أطرافها ويرجونها كما كانوا يفعلون بالالاجة، وقد تؤخذ لدوايات النحاس للفقهاء عندهم، والمقاشط والمطاوي، ويؤخذ الشاش لعائتهم، كما تؤخذ بعض المراكيب وبعض البرادع^(١)، لكن هذا كله بالوصية أو على سبيل الهدية، وجميع ما نكر يجلب من مصر إلى دار فور ماعدا الريش^(٢) والسوميت^(٣) فإنه يجلب من الحجاز ويتوجه به إلى دار فور عن طريق سنار، وكذا خشب الصندل واللبان والسنبل والمحلب، وأهل الوداي كذلك، إلا أن أهل الوداي لم يتمكنوا ويتوغلوا في الأشياء كما توغل أهل دار فور لأن السلطان مانعهم من ذلك، فإن الخدور الذي لا

(١) البرادع: جمع رعدة، وهي دواة من الخشب محترقاً بالفضة أو الصوف ويحتمل الأكار على سرج الخمار، للزينة والبراعة.

(٢) الريش: حرر مستعمل أهل، يحطط بمطرط حرام، ويحب من مصر، وهو معروف هناك بهذا الاسم.

نظر بتشديد الهمزة من ٦٠.

(٣) السوميت: وهو حرار من نوع الريش لكنه أحسن منه، وله كفة مستطيل صلب كذا من رصاص، وفيه مطرط حرام مستعمل منه.

النساء في شكل صفة خمسة في أفعالهم ويحب من الهند.

نظر الترجمة الفرنسية: من ٢٠٨.

يلبسه في دار فور إلا نساء فقراء الناس يلبسه في بلاد الوداي أعظم نساء الأكابر،
والمروج المصرية والبلد محرمة علي بلاد الوداي، ولا يركب علي مقبها إلا
الملك، وقد قمنا ذلك مفصلاً، فلا يروج في دار الوداي إلا الخدور والنحاس
والمرجان بنوعيه والريش ودم الرعاف^(١)، وثياب البفت والملايات، وكذا ما ذكر
من أنواع الطيب والدروع والسيوف والبتك لكن الأبيض لا الأصفر، وكل ذلك
يذهب اليهم من جهة فزان، وتزيد دار الوداي علي دار فور بأنها تحب الحرير،
أعني الذي يخاط به فلبهم بطرزون مدور^(٢) ثيابهم البيض بالحرير الأحمر
والأصفر والأزرق، وهذا لم يكن عندهم وإنما ألفوه من الباقية، ويجلب للوداي
التيكو والمقوداني من بلاد البرنو، وهي ثياب سود عرض الشقة منها نحو
قيراطين من جنب محيطه، وتجلب أغلب بضائع الوداي من فزان، وفي النادر من
دار فور، وأندر منه من برنو، ولما الحمير في دار الوداي فلا يركبها أحد،
خصوصاً في واره التي هي الفاتر، كما يجلب^(٣) لدار فور خرز طوال طول
للخرزة نحو ثلاثة قراريط أو أكثر أبيض وأسود يسمى الثور، وهو خرز منظم في
خوص كخوص الدوم أو قش كالحلقا، تنظمه النساء، بأن يجعلن بين كل خرزتين
حراوتين أو سوداوتين^(٤) مرجله من المرجان الكروي الحر إن كانت المرأة
غنية ومن الفأو وهو المرجان الصناعي إن كانت فقيرة أو من دم الرعاف،
وبعض {النساء الغنيات}^(٥) يجعلن فيه فصوصاً من النمرة الثالثة، وهذه المدارع
ربما لبسها الرجال أي الشباب، ذلك أن الشاب إذا أحب صبية أو أحبته وصار كل
منهما لا يصبر علي فراق الآخر، أخذ كل منهما شيئاً من ملبوس صاحبه، فهي
تأخذ منه خاتماً أو تأخذ منه كدمولاً، والكدمول^(٦) هو شقة من قطن عرضها نحو

^(١) دم الرعاف وهو نوع من الخمر لعم القون داس، من ملبوس المطران وملبوس كروي ومصنوع من القراح، جلب من لوريا.

مطر : نسخة الادعاء، ص ٢١٤ .

^(٢) مدور تاليم * هي لمرافها .

^(٣) في الأصل : * فإن جلب لدار فور .

^(٤) في الأصل : * بين كل خرزتين حراوتين سوداوتين .

^(٥) في الأصل : * وحرر النساء .

^(٦) في الأصل : * والكدمول المذكور غلة .

شبر، وفي طرفيها أعلام من الحرير الأحمر، عرض العلم منه نحو قيراط أو أكثر بقليل، وبين كل علمين نحو أربعة^(١) قراريط، وطول الشقة المذكورة نحو ثلاثة أذرع، وهي أشبه بتكة السراويل، فأى شاب اتقن كسولاً وأكثر حريزه وأعطاه إلى حبيبته هو الممدوح، وتفتخر {هي} بذلك الكسول، وأما هو فيأخذ منها المدرعة ويجعلها في ذراعه ويفتخر بها أيضاً.

ليكنه: حين وصلت إلى دار فور وجدت لوالدي سريتين، إحداهما محظية وفي يدها مفاتيح الأمور، ولها الأمر والنهي، فمن أحبته أحبه والذي ومن كرهته كرهه، وذلك لحبه فيها، فاتفق لها أنها ذات يوم جلست تنظم عقودها ومدارعيها وبعض الجولاري، وجات أنا ودخلت عليهن وجلست عندهن هينة، فاتفق أن جاءت صبية من بنات العرب من جيرافنا بإناء فيه لبن هريسة فقسمتها لسرية من الجولاري، فأصرت أن يوضع في محل دخل ويغطي حتى يحضر والذي ويسرا، فدخلت وأنا يومئذ شاب يرد عيشة الشباب وشربت من اللبن حتى اكتفيت، ولم أبق منه إلا القليل، فاغتاظت مني لما فعلت، وخصوصاً التريب مكرره، فصانف الأمر أن غابت مدرعة من مدارعيها، وكانت قد تغطت بالتراب فبحثت عليها فلم تجدها، فسمكت حتى جاء والذي وأخبرته، وقالت له ولدك أخذها وأعطاهما للصبيبة التي أهدت لنا اللبن، فقال لها والذي! ولم يأخذها ويعطيها لها، فقالت: لأنه عشقها، ثم قالت له هذه المرة أخذ المدرعة، ومرة أخرى يأخذ عقداً، والله يشهد أنني بسريء مما نسبته التي كله^(٢)، فاغتاظ والذي وظن صدقها، ولم يخاطبني بشيء، فبقينا تلك الليلة، ولما أصبحت لم أشعر إلا وأنا بعسي زروق ومعه عبدان أسودان من كبار العبيد ومعهم قيد غليظ، فقال لي عسي يا فلان إن أباك أمر بتقييدك بهذا القيد، فمد رجلك، فلم يمكنني أن أرد جواباً غير (الاستسلام) إلا أنني قلت وما ننبسي حتى أقيد، فقال لي ذنبك أنك أخذت المدرعة وأعطيتها للصبيبة، فحلفت أنني ما رأيتها، فلم يصنقوني، ووضعوا القيد في رجلي وتركوني وانصرفوا، وبقيت يومئذ كله جالسا في محل نومي لا أخرج منه، وأنا أبكي، وأتى لي بطعام فلم أطلع منه شيئاً،

^(١) في الأصل: "أربع فرسوخ" ومما حقا والمصوب لرمحه.

^(٢) في الأصل: "....." لأن كله.

وبقيت كذلك يومين، وفي صبيحة اليوم الثالث جامني عمي وقال لي: إن أباك يقول لك إن لم تظهر المدرعة بالمعروف ضربتك ضرباً وجيعاً وأنكل بك وأجملك مثله بين الناس، فزاد حزني، فتوسلت إلى الله بنية أن يقبلني من هذه الورطة، ونصت على مجيئي بلاد السودان، وبقيت يومي ذلك في غاية من الحزن، ولم أقطع للبكاء ولا للدعاء والتوسل إلى الله بنية أن يظهر برامتي، فلما كان عند المساء أقبلت على جلوبة من الجوارى وبشرتي بأن المدرعة وجدت مقطاة، فحمدت الله على ذلك، وزال عنائي، ووادي إذ ذلك لم يكن في الدار، فلما كان بعد المغرب أقبل، وحين دخل الدار لم يكن له هم إلا أنه أرسل لي عمي بمثل ما أرسله في الصباح وهي تسمع، ولم تقل له وجدها، بل استمرت ساكنة ظناً منها أنني لم أعلم بإيجادها، فجاءني عمي وقال لي ما أرسله به وادي، فقلت أوليس أنهم وجدوها، فقلت: لا أعلم، فقلت قد وجدوها وجاءني من يبشرني بذلك، فرجعوا وأخبروا وادي بليتها، فسألها حينئذ الحق مايقول، فقالت بحزن وبرود لقيناها، لكن هو الذي أرسلها مع إحدى الجوارى وطرحها هناك لأننا بحثنا في ذلك الموضع مراراً فما وجدناها، فلو لم يطرحها طارح من أين تأتي، فدعا وادي الجوارى كلهن، وسألهن وشدد عليهن، وقال لهن إن كان أعطاهن لواحدة منكن وطرحتهن فلتقل وعليها الأمان، وإلا ضربتكن أجمعين حتى {عرفت} الحق، فحلفن^(١) كلهن أنهن لا يعلمن من ذلك شيئاً، وأنهن لم يطرحنها^(٢) ولا رأينها إلا في ذلك المحل مغلاة بالتراب، فلما ينس منهن أطلقهن، وبثت تلك الليلة مقيدة كما كنت، فلما أصبحت إذا بعمي والعبيد السابقين فدعوني وفكوا القيدين من رجلي وتركوني ومضوا، فلبثت مكاني، وبكيت على حالي، فكيف أتيد كالعبيد الخائنين، وبينما^(٣) أنا كذلك إذ جاءني عمي ببقعة فيها ثياب فأمرني بنزع ما على والبسني متى البقعة وهي ثياب فاخرة فيها ماعدا القميص والسرلويل ففطنت قلبي وجبة جوخ خضراء جديدة وشال كشميري أخضر، وطربوش وعمامة وحزام ونعل سوداني كنعاني أهل

^(١) ن الأصل: "فحلف الجوارى كلهن".

^(٢) ن الأصل: "ولم يطرحنها".

^(٣) ن الأصل: "وكيف أتيد كالعبيد".

مكة وقال لي: كلم والدك^(١) فإنه يدعوك فتوجهت معه اليه وقبّلت يده، وحين التقيل سقطت دموعي على يديه بغير ارادة فرأيت كبر عليه (ذلك) فقبلني بين عيني وقال لي: الحمد لله اني انا فعلت بك ذلك ولم يفعله بك حاكم أو أجنبي وعرف صدقي وثبت لديه ثم بعد أيام أدركت أنه ضاع لها عقد، وأنه لم يأخذه غيري فقال لها (والدي) يأخذه اتقى الله فقد اتهمناه عن قريب فظهرت برامته، ابحتي على عقدك ولعلك تجديه كما وجدت المدرعة، فحلفت انها بحثت غاية البحث فلم تجده وصممت على اتهامي، فبينما هي تتحدث معه في ذلك، إذ أقبلت إحدى الجوارى بالعقد وقالت: هاهو وجدناه في المحل الفلاني، فاستشاط والدي غيظاً وقال لها: لم لم تضع لنا حاجة قبل مجيئه وما ابتدأت حاجتنا في الضياع إلا بعد مجيئه، فاحتفظ لذلك وقال لها: تخلفين الكراهية بيني وبين والدي، وكلما أنهت لا تزيدين الابهضاً ثم غضب وقال زروق هات القيد (ولم يلبث^(٢)) أن أخضر القيد فقال له (والدي) قيدها ودعها تذهب للمطبخ مع الجوارى، إن هي الا جارية مثهن فلما رأت منه الجد بكّت واقتحبت وصارت تتضرع اليه وتقبل قدميه، فأبى إلا أن يقيدها وهي تبكي وتستغيث وصار عني يشفع لها ويقبل يد أخيه فلم يسمع قوله ويتركها إلا بعد جهد وعناء^(٣) ثم انه حلف ان تعرضت لي بسوء وكذبت على لينكنن بها، فبليت من ذلك الوقت وانصلح أمرها معي وأظهرت لي المودة العظيمة حتى سافرت معه الى وداي^(٤) وهناك عاقبها الله على كذبها الذي دبرته لي وكذلك على انما من الدنيا والدينة الى مودتي بها، ولكي يعاقبها الله فقد امتحنها امتحانات قاسية ورد عليها نفس المعاناة التي عانيت منها من قبل وقد عاقبها هي أيضاً بأن تعيش في الحديد عدة سنين كما عشتها لنا عدة أيام بسببها ولكنها لم تجد أحداً يرحمها في سجنها القبان وهذه هي الحكاية.

في الوقت الذي كان يستعد فيه والدي لمغادرة وداي والرجوع الى تونس مازلت انا في دارفور وأرسل أبي ليخبرني بأن الحق به حتى نسافر معاً وسلطان

^(١) في الاصل .. والدك.

^(٢) في الاصل * فلم يكن بأسرع من ان اخضر والقيد معه.

^(٣) في الاصل .. لما سمع قوله وتركها الا بعد جهد.

^(٤) من هارة * حتى سافرت معه الى وداي الى امر القصة ملط في الاصل ولدت اخضر من الرحمة العرسية.

دارفور كما ذكرت من قبل حبسني في دارفور وعندما تأخرت عن الحضور قرر
والذي السفر حالاً، وسلم كل ممتلكاته (المتبقية) في القرى الخمس التي كان
يديرها بنفسه وعائلاتها ونسائه وقطيعه، سلمها لأخيه زروق والذي عينه نائباً عنه
ومسنولاً عن شتونه، ثم سافر عن طريق فزان، ذهب ليري أسرته ويزور والدته
ومابقي له من اخوان، وظلت خليلته في وداي فأظهرت شرستها النسائية، وأعلنت
الحرب المفتوحة مع زروق، وادعت أنها في غيباب والذي فهي خارج السلطات
وليس لها واجب تؤديه لأحد، وكانت تريد أن تخرج بفائدة عن مقاومتها لعسى،
وذهبت عدة مرات لتتسكو عسى للسلطان، وقد نظروا في الأمر واعترفوا بالحقوق
العائلة والكاملة لزروق، ووبخ السلطان هذه المرأة بشدة وثقت الأمر بأن تظل
امراً مطيعة وهادئة مثل باقي النساء، وعندما غضبت من هذه الأحكام أعلنت
عداوتها المفتوحة ضد زروق، ورفضت أي تسوية أو صلح، وعندما علم السلطان
بموقفها هذا أمر بسجنها داخل المنزل وتقييدها بقيود العقرب على قدميها حتى
ترجع وتتوب، وكانت في حالة حمل، وعندما حان وقت وضوعها، فكر زروق في
أن يطلب من السلطان أن يستسمح هذه المرأة، ولكنه خشي أن تعاود مشاكلها معه
مرة أخرى، فاكتمى بأن يطلب من السلطان أن يفك عنها القيود حتى تضع فقط،
وبعد الوضوع يعاود تقييدها كما كانت من قبل، وهكذا كان الاتفاق، وعندما
وصلت أنا إلى وداي وجدت هذه المرأة مقيدة بالعقرب، إن الله لا ينسى الظلم
والظالمين وهو ناصر المظلومين واليه يرجع الناس الذين يعانون الظلم.

ولنرجع إلى ما كنا بصدد من التكلم عن التجارة فنقول: أحسن ما يتجر فيه
في بلاد الفور والوداي: النحاس الأحمر لأنه هو ذهبهم يصنعون منه الخلاخل
والدمالج والأحزمة، ويبيع في دار رفكا بيعاً جيداً، كل ثلاثة أرطال بعبد أو
جارية، وفي بلاد الفور ثمانية أرطال بمداي وإن كثر فعشرة، ولا يتجاوز ثلاثة
عشر رطلاً أبداً^(١) ويليه الخارصين ويليهما الريال الفرائساوي والزنك الأصفر

^(١) في نسخة أخرى: ولكن لا يتجاوز هذا الثلاثة عشر رطل مع أنه ثمانية عشر رطل من الذهب وبلغ الفهم من عدم أن المرأة
الاصغر من الأند.

المسمى بالصفيح^(١) وأما باقى ما ذكرناه فيباع إلا أنه غير مرغوب كما ذكرنا هذا ما يتجر فيه الجلابة، وأما العرب الرزيقات واحزابهم^(٢) فيتجرون فى السمن والبقر والجلود والعسل، فيجلبون السمن الى دارفور فيبييت كثيراً ولولا هم لكان الرطل من السمن بزلته فضة، ولا يجدونه وأما عرب الزبانية والعريقات والزغاوة فيجلبون الملح من بنز زغاوى^(٣) الى دارفور، ولولا هم لمات أهل دارفور من عدم الملح فإن الملح فى دارفور عزيز جداً وفى دارملا^(٤) وفشقروا^(٥) ورتكا اعز فأما فى دارفور فقد يباع الكيل الملح بمئة عشرين مرة من النخن، هذا اذا كان الملح قليلاً، فإن كثر فيباع خمسة عشرة مرة، وإن كثر اكثر من ذلك فيباع بمئته اثنتى عشرة مرة^(٦) وليس أقل من عشرة (فى جميع الاحوال) وأما ملح بلاد الميذوب فذلك للأمراء وأضرابهم، وأتبع ملح يوجد على ظهر الأرض هو ملح بنز الزغاوى، لأنه مختلط بتراب، فاذا وضع شيء منه فى الطعام كان فيه تراب، ولهذا (فإن) أكثر المترفين ينوبونه فى الماء ثم يصفون الماء عنه ويرمون التراب، لأنه يرسب فى قعر الإناء، وأما لو وجد عندهم ملح كملح رشيد^(٧) أو ملح تونس لتقاتلوا عليه بالسيف، وقد تقدم أننا ذكرنا أن بعض أهل الجبل بدارفور يصنعون ملحاً ويسمونه بالفلقو^(٨)، ويجعلونه على شكل مستطيل وبه يبيعون فى الأسواق، فنخلص من ذلك أن الملح فى دارفور ثلاثة أجناس: أعماها وأكثرها

^(١) فى الترجمة الفرنسية: "بعد الحلى بنى الرتكا ثم التارى والملة الاساسية اعمدة الدور..."

^(٢) لقرا بأحرلهم أى حولهم والباقيهم وورد فى الترجمة الفرنسية وفى الاشياء ما عطف العرب الذين يسكنون ضواحي دارفور.

^(٣) بنز زغاوى: بكسر الزى وهى فى الطرون ويذكر ركون ابن اسمها فى النسخة وعلى نسخة اخرى منها يشرح الطرون السدى بأحد البحار ان مصر وبنال لما نعت من العاشر نسخة عشرة ايام ويسكن حولها عرب بنال لهم العماد وقد زلت فيها الكلمة الشيخ محمد بن عمر التونسي وهى فى طريقها الى القاهرة.

متر: Browne: OP.Cit.P.187

^(٤) دارملا تقع فى الجنوب الغربى من دارفور وكانت تابعة لمملكة وداى وهى جزء من دار صليح أى الجزء الغربى الغربى منها، وقد اشتهرت أكثر فى عصر دولة الناحو.

متر: نسخة الادام من ١١٥.

^(٥) فشقرو: تقع الى الجنوب الغربى من دارفور فى بلاد الغربيت بعد دار لولو حيد.

متر: Macmichael. OP.Cit, p.183

^(٦) فى الاصل: "بالحى عشر مرة..."

^(٧) رشيد: هو أحد مصاب نهر النيل على شاطئ البحر المتوسط وعلى شاطئه مجمع للقمح وبنال فى مصر.

^(٨) الفلقو: هو نوع من الملح يجمع محلياً فى دارفور وتتميز به كماله موضح فى هذا الشكل.

وإردوها ملح الزغوى، وأندرها وأحسنها ملح المينوب، وأوسطها كثرة ونفعاً
 الملح الفلقر، ومع ذلك فلا يحب الملح إلا الأغنياء. وأما أكثر الفقراء فيملحون
 أطعمتهم بالرماد، وهو أنهم يأخذون الرماد ويجعلونه في إناء مثقوب ويضعون
 عليه الماء فيقطر الماء من الثقب قليلاً فيأخذون ماقطر منه ويجعلونه في الطعمام
 وقد ذقته فوجدت فيه مرارة، ولا يكاد يسيغه انسان ذاق الملح^(١) ويمسحون الماء
 المذكور بالكتيب وهو ملح الفقراء، وأما الملح الفلقر فقد ذكر لي بعض من رآهم
 يصنعونه أنهم يأخذون تراباً خاصاً من محال معروفة عندهم، ويجعلونه في إنية
 واسعة ويغمرونه بالماء، كما يفعل في ملح البارود، ثم يصفون الماء في إناء آخر
 مصنوعة فيه ثقاير على هيئة قوالب، ثم يترك ونفسه^(٢) حتى تتصاعد منه
 الرطوبة ويبقى الراسب في الحفر المذكورة فيجف ويخرج على هيئة أشكال
 أهرامية وإذا تأمل فيها الانسان وجدها مبلورة بلورات غير منتظمة، لكنه ملح غير
 شفاف، أسمر اللون لكن طعمه جيد، وقد ذكرناه سابقاً بإسبط^(٣) من هذا فراجع له إن
 شئت.

وأما الصناعات فأهل السودان وخصوصاً أهل دارفور ووداي لا يعرفون إلا
 الحياكة والحداذة والزراعة والغزل والصباغة، ويوجد في دارفور الحرايب من
 الكتكو يتعاطون الصباغة النيلية فيصبغون اللقاني والنيكو، ويعرفون صناعة دبغ
 الجلود، ولهم فيها لقان زائد، لتوفر أدواته عندهم، فيصنعون من جلود البقر
 والابل الأجرية العظيمة والنطوع الجميلة، ومن جلود الماعز القرب التي لا تظير
 لها، والمزأود الصغيرة، ومن جلود الضان السختيان وينوعونه أحمر وأخضر،
 فأما الأحمر فأنهم بعد إحكام دبغه يصبغونه بالكلود، وهو إبر قصب أشبه بلشب
 قصب البوص، لكنه أحمر قاني، فيؤخذ ويطبخ في الماء، وبعد غليانه جيداً يؤخذ
 ويدهن به الجلد فيصير أحمر كالسختيان الذي يصبغ بالندوة، وأما الأخضر
 فيصبغونه بالرقاب الذي هو أكسيد النحاس، فيصير أخضر ناصعاً، وهم عندهم

(١) ورد في الرحلة الفرنسية في هذا الشأن قوله: "وله ضم مرارة واسعة مفرقة وزرع صرمان الطيب".

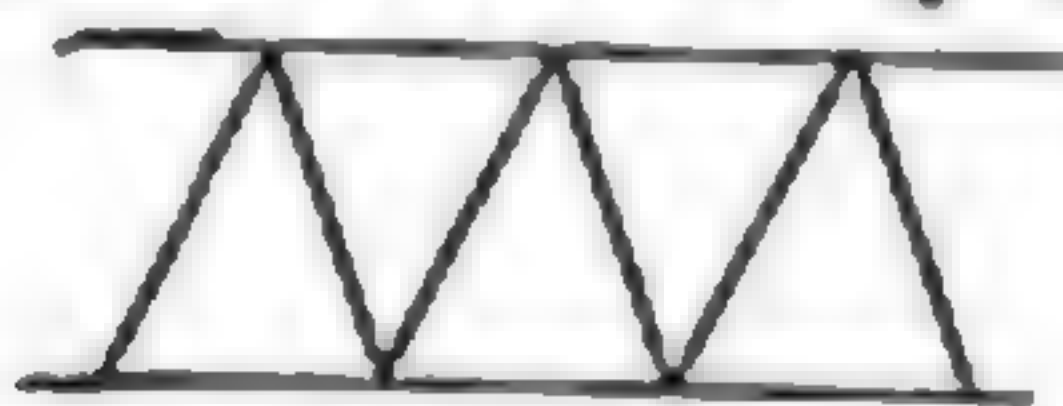
مفرقة الرحلة الفرنسية من

(٢) لم يترك ونفسه... أي يترك لوحده.

(٣) المتعود بكلمة إسبط هنا أي أكثر جملة من سبط الشيء لا عرضه ومنه.

أغلي ثمناً من الأحمر، ومن العجب أن عندهم المنجدين لملبوس الخيل كما ينجس
أهل مصر الحفتم، ويطرزون الملبوس تطريزاً عجيباً، وقد ذكرنا الملبوس سابقاً
مع أدوات الحرب فراجعها إن شئت.

وأما بقية الصناعات المحتاج إليها في المدن فإنها مفقودة عندهم، لأن كلاً
منهم يخلق رأس صاحبه، وصاحبه يخلق رأسه، فلا يحتاجون إلى مزيّن وفي
تعمير بيوتهم كل من أراد أن يعمر بيتاً أعانه فيه أصحابه، بشرط أن يكون الغداء
والعشاء من عنده، وكذا من مات له ميت، فإن كلاً منهم يعرف كيفية الغسل
والكفن، فينتدب أحد أصحابه خصوصاً للفقهاء فيغسل الميت إذا كان رجلاً، وإن
كانت امرأة غسلتها بعض العجائز، ولا يحتاجون إلى نعش، بل يأتون بعودين
يشبكون ما بينهما بحبل أو حبال صورته هكذا :



فيفرشون على الحبال شيئاً ليناً ويضعون الميت على الحبال، ويحملونه بين أيديهم
لأعلى أعناقهم لتعسر ذلك عليهم، ويتساعدون في حفر القبر، وكل إنسان يحفرون
له قبراً على حنّته، فلا يجمعون اثنين في قبر، ولا يأخذ الحامل ولا المغسل أجره
على عمله، وكذلك القراءة والعتاقة والسيخ يجتمع الناس ويفعلونها بدون أجر،
وكل من أصيب أعلاه أصحابه وأهل بلده طمعاً في ثواب الله لا غير، ونسأؤهم لا
يعرفون مما يعرفه نساء المدن شيئاً، أما الشابات الغنيات^(١) فلها من مشغولات
بزينتهن ما بين دهن وكحل وإصلاح ثلث، وإن فرغت واحدة منهن من شأنها
أقبلت على مصلحة بيتها، أو ضفرت لها برشاً من خوص الدوم بعد صبغه ألواناً،
فيصبغنه ما بين أحمر وأخضر وأصفر، ويتقنون ضفره إتقاناً تاماً بحيث يتمني
الشخص أن يفرشه ويجلس وينام عليه لحسنه، ثم تقبل على وضع طعام زوجها
وضيوفه، أما نساء الفقراء فشغولهن مع الرجال في الزرع في وقته، وبالحصاد في
وقته، وبحرين الفسلة في وقتها، ويجمعن القطن في وقته أيضاً، وفي سائر السنة

^(١) والاسم: قضاة الألباء.

{نجد المرأة} مشغولة بقوت الأسرة^(١)، ففي موسم السجلاج^(٢) تجمع السجلاج وتنخره وفي موسم النبق^(٣) تجمع النبق وتنخره لكنه ليس النبق المعروف، وفي أيام الدفري^(٤). والأرز كذلك، وفي أيام العنتراب^(٥) كذلك، وفي أيام العرييب كذلك، وتأخذ الفأس وتذهب إلى الأرض التي يزرع زوجها فيها فتقطع ما فيها من الشوك وتجمعه معه، وإن كان له بنات كبار ذهبن معها، أو صغار مرحن، وفي كل مشية تأتي معها بحزمة حطب تطبخ منها وتستصبح^(٦) لأنهم لا يستصبحون إلا بنار الحطب، والفقراء منهم يستعينون على معاشهم بشراء معزة أو شاة ومشي ولدت تقوتوا من لبنها، وبالجملة فمعيشة فقرائهم كد وتعب شديد، هذا مع ظلم الحاكم ومطلب الرجال للأعمال الشاقة، والحرب والخيمة، لأنهم كالعبيد له.

^(١) في الأصل: "بكرها".

^(٢) السجلاج: شجر يكثر في دار فور ووداي وهو من الأشجار الشوكية ينبت في مناطق السهول الطرية، وهو شجر معبدته الحواميد ويكاد لا يرمى منه شيء، فأورقه يجمع الطري منها ويطح في شكل أدب، يكتفون به المعبد، وهذا الورق الطري يستعمل أيضاً في علاج المروح الزمنا، المعصوم، ويخمره على المرح فرباً، ولما أملا ثم السجلاج وهو أعطر من الطبخ، وهرس في مهرس حسن صار كالصمغ يستعمل في غسل الثياب كالماء، وفي الأوساج، وكذلك مدور الشجرة والحلها يستعملان في غسل، أما إذا نصح الصبر، فهو له علاج أيضاً ربيع، فهو موم، ويصون الصبر، لو يلموه بقاء، فهو صمغ من ذلك الشاة للبدن، أو الشاة، وهي حلوة فيها شيء من المرارة، وهذا الشاة في كل الأحوال علاج لأمر من السمعة كالصمغ والصابون والحرير، أما صمغ السجلاج فصمغ من الأوساج لثقله المرارة، وأعواد المورس والحارث بأوامها، وكذلك السفريلك للصيد، والسروج والهاريس، الخ. ويستعمل صمغ الخراف في إسالة البوت لأنه لا دواء له لما الشاة فكسر ويستخرج منها بذر الصبر يجمع ويصبر، فهو صمغ من دهر، يستعمل في العلاج وطح الأظمة للحمل.

ينظر: تشييد الأفعان من ٣٠٨.

^(٣) النبق: وهو نوعان: النبق والكر، وهو أيضاً من الأشجار الشوكية، من أشجار السهول الطرية، وينبت في دار فور ووداي بكثرة، وبعد احتلافي النورين فمن حيث الشكل يحد النبق لونه لحر ومذاقه حلو مع بعض الحامض، أما الكرو فله لونه أصفر كدو العسل ومع حلاوته به مرارة، وهو أيضاً شجر معبدته القوائد، حامدة النوع الثاني، فمن صمغه يهرس ويؤخذ دقيقه ويبل بالشاة ويحصل في شكل لمرس كثرة الصمغ، وتؤكل حباته لو قبل بالشاة أو الروب وهو الغذاء الطعم، ويدنوي الكرو من امرس لثمة، لما البوت، فكسر ويستخرج منها بذر يسمى الكياكيا، لثمة بالحمل، وتؤكل بطريقة الحلاوة، وتستعمل حرومها في صنع الأسلحة والارزاق والحرارة، وهو من أشجار أهل الحميد.

ينظر: تشييد الأفعان من ٣٠٩.

^(٤) في الأصل: "الدفري" ولثمة بطنه الدفري، أو الدفري، أو هوما ويسمى الكروب أيضاً وهو نبات كالأرز ينبت في الدفري، وبعد الصبح يمسح الأفعان ويستخرج منه الدفري ويطبخ كالصمغ، وتؤكل بالثينة، أو بالسم، بمها لعل دار فور.

^(٥) العنتراب: وهو من أشجار السهول، متوسط في الطول والخط، يعمل ثمره كصمغ أحر طاز ولا صمغ به، وهو لثمة حناء، يصح في قول فصل الربيع.

ينظر: تشييد الأفعان من ٣١٠.

^(٦) في الأصل: "يستصبح منها ويستصبح منها" وهو تكرار لعل ومعنى يستصبح أي تستنشق.

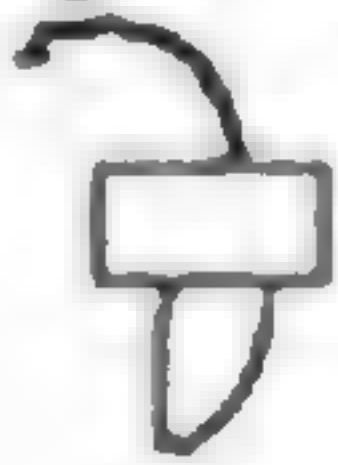
الفصل الحادي عشر

في أمراض السودان وأنواع الداء أي وصحة الأقاليم والصيد

يجب على العبد أن يعلم أن الله خص كل إقليم بما لم يوجد في غيره، وجعل في كل قبيلة خاصية لا توجد في غيرها، ولذا إذا تغرب إنسان من بلد لأخرى يكون هو أو ما مخالفاً لبلده فتحصل له مشقات حتى حين يتغير عليه فيعمل وربما مات، ولم يمت بطول مرضه، ولا يصح جسمه حتى يعتاد بيواه البلد التي يسكن فيها بعد طول المدة وتقوي بنيته.

ولما كان الأمر كذلك كان الأولاد الذين يتناسلون من أم وأب فوراً وبين مثلاً (نجدهم) أطول عمراً، فتجد الرجل له عشرة من الولد وأكثر، أتوباء أصحاب، وكذا عرب تبادية هناك لا يموت الرجل منهم إلا وله أكثر من عشرة من الأولاد أو أكثر، فلو انعكس الأمر بأن تزوج فوراً أي عربية ترى سلالتها ضعيفة نحيفة، لا يعيش منها إلا ما قل ونثر، وهذا مما يدل على أن في البلد والجنس خاصية لا توجد في غيرها، لأن كل ولد يولد من أبوين من فرع واحد كان أقوى بنيّة وأعدل صحة، وتري من انعكس فيه الأمر ضعيفاً فاستلثون نحيفاً^(١).

ورأيتهم في دار فور ووداي يستعينون على صحة الطفل بأخذ الدم، فيأخذون الطفل حيث يستكمل أربعين يوماً من ولادته ويشرطون بطنه من الجهتين، أعني اليمنى واليسرى شاربطة كثيرة، وينزل منه دم كثير وحين يستكمل ثلاثة أشهر يفعلون به مثل^(٢) ذلك وربما هاج عليه الدم فقتله، وأكثر أمراض الأطفال عندهم أبو اللسان، وصورة الآلة التي يعالج بها هذا المرض تبدو هكذا

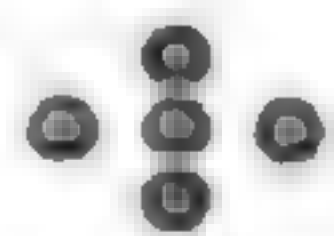


^(١) حديث ظراف هذا لا يتوافق مع النظرة العلمية لعلماء الطب الحديثة، حيث يقول هؤلاء، بأن رواج الأمراض ربما يسورت بعض الأمراض التي تسببها الأمراض بواسطة الغلات، وبالتالي فإن رواج الأمراض هو أكثر صحة وطهارة، وقد شجع الإسلام رواج الأمراض لما فيه من آثار صحية واجتماعية، يقول الإمام العراقي "أدبها ماع وهو ماع أدبها راحة ماع لا تلبسها امرأة ومن الأمراض المذكورة * ناعلوا ناعلوا *".

^(٢) في الأصل: "يملكون به كذلك".

وهي عبارة عن حديدة مركبة في يد من خشب ومعها قطعة خشب ناعمة،
 فيدخل الطبيب الخشبة أولاً حتى يوصلها إلى المحل الذي فيه الزائد من الجهة
 الأخرى، وتبقى الزائدة بين الحديد والخشبة فيضغظ^(١) معاً، فتقطع الزائدة،
 وتخرج الحديدة والخشبة معاً، فيري على الخشبة قطعة لحم صغيرة، ويكون
 الرجل الطبيب استحضر قطعة عطرون^(٢)، وسحقها جيداً بين حجرين، ثم يبل
 الرجل أصبعه ويجعله على المسحوق فيلتصق به، ثم يدخله في فم العليل بعد أن
 يكون قد أدخل الخشبة، لكن لا يوصلها إلى محل الألم بل حتى يتجاوز لسان
 العليل بعد أن يكون قد أدخل الخشبة ثم يدعك محل القطع بالمسحوق الذي على
 أصبعه دعكاً جيداً، فيبرأ العليل بذلك، فإذا ترك أبو اللسان المذكور التحل جسم
 الطفل، ونشأ عنه إسهال عجيب فيكون سبباً في قتله.

وبليه مرض آخر يسمى عندهم أم صقغ، ولا يعترى إلا الأطفال أيضاً
 وهي استرخاء يقع في اللهاة تحدث فيها^(٣) بثرة فلا يشرب العليل اللبن ولا يأكل
 ويصفر لونه، فيدعون له الطبيب^(٤) فيأتي ويسحق العطرون كما تقدم، ويضع
 الخشبة وحدها في فم العليل، فينزل منها دم وقيح، ثم يغمس أصبعاً مبلولاً بريقه
 في النظرين ويحك به البثرة واللهاة، ويفعل^(٥) ذلك ثلاثة أيام فيبرأ العليل، وقد يقع
 للطفل إسهال مفرط لكن ينظر في الطفل فإن كان ابن سنتين ووجدوا المقعدة
 بارزة من محلها حكوها بشفقة حتى ينفقوا ما فيها من البثور، وينزل منها دم كثير،
 ثم يقتلوا^(٦) للطفل الطعام فيبرأ، وإن كان صغيراً كان سبعة أشهر أو ثمانية أو
 نحوها كوره حول السرة أربع كرات هكذا



^(١) في الأصل: "ونكا عليها معاً".

^(٢) في الأصل: "وهي تكون عند استحضار على قطعة عطرون معرة".

^(٣) في الأصل: "وبثرة تحدث فيها".

^(٤) في الأصل: "فيمررون له الطبيب".

^(٥) في الأصل: "لكن يبل ذلك ثلاثة أيام...".

^(٦) في الأصل: "ويقتلوا ما كان فيه".

أعنى تكون السرة في الوسط ويكون أعلاها وأسفلها وأنسبها وحشيتها^(١)، وقد يعترى الأطفال المرض المسمى بالغزيل وهو مرض ناشئ عن إصابة في المخ فيجعل^(٢) الطفل يعبت يديه ورجليه على غير الحالة المألوفة، وأهل مصر كأهل تونس يقولون إنه من الجان، وذلك حين يترك الصبي وحده في محل فيعتريه هذا الحادث، فيقتل في مصر وتونس وبلاد المغرب أطفالاً كثيرة، فلما أهل مصر فيستعينون في علاجه بالكتابات، لا اعتقادهم أنه من الجان فيأتون لمن له شهرة في الرقي والتمائم فيكتب للعليل ويرقى، وهذا قد يصادف أن العليل يخف ألمه وقد لا ينجح، وأما أهل السودان فيعالجونه بالكي في الجبهة، بأن يأثوا^(٣) بلب قصبة من قصب النخن ويلامسون بها النار حتى تأخذ فيها وتبقى لها زهرة كزهرة الشمعة التي تقطر، فيكوون العليل بها فيبرأ لوقتته.

ومن أمراض الأطفال هناك أيضاً أبو صفيير وهو مرض يعترى الطفل فيفسد لونه ويصفر صفرة ظاهرة وهو المسمى في كتب الطب باليرقان الأصفر. وهناك أمراض الصغير والكبير فيها على حد سواء، وفيها الوردية وهي الحمى، ولا يكاد ينجو منها أحد في كل سنة، وتتسلطن عندهم في أيام الخريف وأول الربيع المسمى عندهم بالثورت^(٤)، وهو وقت خريفنا وتنوع: فمنها حمى الوردية، والتي تأتي في كل يوم في ساعة معينة، ومنها حمى الغيب (أو الغيبة) وهي التي تأتي يوماً وتغيب يوماً، ومنها حمى التثليث، وهي التي تأتي بعد كل يومين، ومنها حمى الربع وهي التي تأتي بعد ثلاثة أيام، وهي أقوى أنواع الحمى، وأقل منها بدرجة حمى التثليث. ومنها الحمى المطبقة، وهي التي لا ترتفع عند صاحبها إلا بالشفاء أو الموت وتسمى في مصر بالنوشة وهي في عرف الأطباء التهاب معدى وكلها عند أهل السودان تسمى بالوردية ولا يميزون فيها.

^(١) أي ولحمها ولحمها

^(٢) في الأصل .. فترك الطفل ميتاً..

^(٣) في الأصل .. يثأر بالثأر..

^(٤) الثورت في مصطلح واحدة لعل تدور معناه الثرة التي تثل الخريف وتضع منها الروح ونشهر الحاصل ويحد منه عدة يسرى شمري منمو ونومور.

عجبت

أخبرني القاضي الدليل قاضي القضاة بمملكة الوداي حين جاء إلى القاهرة سنة ١٢٥٧هـ سبع وخمسين ومائتين وألف (١٨٤١م) أن المرض المسمى لبيضة وأهل مصر يسمونه الهواء الأصفر، الذي كان قد أتى إلى مصر من الحجاز سنة ١٢٤٧هـ سبع وأربعين ومائتين وألف (١٨٣١م)، ذهب إلى بلادهم وخربها وقتل منها عالماً كثيراً^(١)، وكنا نظن أنه لا يصل إلى هناك، فسبحان الفعالي لما يريد لا معقب لحكمه، ومن الأمراض العامة الكثيرة الحصول عندهم المرض الأترنجي، ويسمى عندهم بالجبيل^(٢) وكثرته عندهم لكثرة الفساد وليس له دواء عندهم إلا الكي.

وصفة هذا الكي أنهم يأتون بحديدة وهي المسماة عندهم بالحشائنة، وهذه الحديدة مستطيلة مفرطحة عرضها بنحو أيراطين وطولها بنحو خمسة أتراريط أو ستة فيحسوها بالنار حتى تحمر، ولها صورة أنبوبة مركبة في وسطها بالعرض، فإذا احمرت الحديدة أخرجوها من النار وصبوا على الأنبوبة ماء قليلاً ثم يدخلون في تلك الأنبوبة عوداً يرفعونها به ويكون به المحل الذي ظهر فيه الداء من غير استئناء، ومتى ما شهد ذلك الداء على أحد وله أهل كوره ولو قهراً عنه، وبهذه المعالجة شفاء الله بأقرب زمن.

وهذا المرض في كرفال أكثر من دارفور، وفي دارفور أكثر من الوداي حتى أنه في الوداي لا يسمع بالإنسان مرض بهذا الداء إلا نادراً، وسبب كثرته في كرفال أن من أصيب منهم به، يعتقد أنه كلما أذى غيره به يخف عنه، ما هو فيه، ولم يدرك أنه لو أذى مائة ألف لم ينقص ما هو فيه شيء، فترى المريض منهم سواء كان امرأة أو رجلاً يعض خلقاً كثيراً، فلذلك كثر عندهم.

(۳) و الاصل: "وقل منها عالمكم".

المفيل: من الأمر من الخطوة التي تنقل بواسطة العملية الحسية ثم عقل والياء ويظهر في شكل بروح في الجسم وهو من الأمر من
التي تبرز بها بعد على الأفعال والآن لقد أحسن كثيراً في كل هذه الأمور وتلاه من قوما العلية والمصالح في المصالح.

وفى دارفور وإن كان كثيراً، لكنه لما كان منهم من لا يستحي أن يراه الناس مريضاً فيعذو غيره، وهو قليل، ومنهم من يستحي من ذلك فيجلس في بيته حتى يبرأ وهو كثير فقل عندهم.

وأما فى التوداي فكل من مرض به لزم محله حتى يبرأ، فكان وجوده نادراً ومنه الحصر: وهو السيلان الأبيض، ومثله الهبوب وهو ريح ينفث فى البطن السفلى من المرأة أو الرجل، وأكثر ما يوجد فى النساء، ويقولون: إنها معدية. ومن الأمراض الفاشية عندهم الجذام، وهو تأكل مازن الأنف وأطراف الأصابع وكذلك البرص، إلا أنه أقل.

ومنها أبو الصفوف، وهو ذات الجنب، وعلاجه عندهم بالتشريط على الأضلاع، فيشربون أربعة^(١) أو خمسة كل صف أربع شرطات أو خمس^(٢) هكذا

١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠
١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠
١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠
١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠
١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠

ويدعون المحل بالملح بعد التشريط ويمسحونه بالنظرون فينزل من الفتحات دم كثير فيبرأ المصاب.

ومنها الفرنديت، وهو كثير عندهم ويسمى فى مصر بالفرنديت وهو ورم يحدث فى الساق أو اليد، أو فى محل آخر، فيتكون فيه قيح فيبتلع ويخرج من محل البعج خيط أبيض طويل شبيه بالعصب، إلا أنه غير متين كالعصب والظاهر أنه حيوان، لأنه يخرج ويدخل، وعلاجه البعج والتدفئة. ومن الأمراض العضوية عندهم السموية، وهى مرض يخص الركبة، وهو ورم كالفرنديت، إلا أنه لا يظهر له خيط ويتكون داخله قيح كثير، ولا يبرأ حتى يبعج المحل بعجاً غائراً ثلاثة صفوف، فى كل صف ثلاث بعجات، أو أربع فينزل منها قيح كثير وبالتدخين بالمسمن والتدفئة يبرأ العليل. ومنها النقرى، وهو مرض الساق على طولها، وهو ورم

^(١) فى اصل: .. ربع صفوف.

^(٢) فى الاصل: .. لو خمسة.

كورم السوتية إلا أن هذا يمتد على قصبة الساق، وذلك مقصور على الركبة وعلاجه كعلاج السوتية إلا أن البعج يكون صفين من وحشية الساق، وصفين من تسببها^(١)، ومن الأمراض عندهم التي تصيب الأطفال الحصباء، والبرجك وهي القرمزية.

ومن الأمراض العامة وجع الطحال، أعنى كبرة، والاستسقاء بأنواعه وأغلب الأمراض عندهم إلا الطاعون والسل، فلا يوجدان وإن وجد السل فنادر. وأما الجراحة فمتقدمة بينهم لكثرة الفتن والحروب، فتراهم يخطون الجروح حتى أن من خرجت أمعاؤه يردونها ويخطون عليها، ويرأ المريض. وكذا يداوون الشجاج بأنواعها^(٢) وقد ذكرنا سابقاً أن هناك أناساً يسمون الثلاثجين^(٣) يعملون عملية الكترافا من العين مع المهارة النامة، ولكن لا أعلم كيفية العملية، ولا الآلات المستعملة عندهم لذلك وأعرف منهم رجلاً شهيراً يسمى الحاج نور، غير أنهم لا يستعملون البتر ولا القطع ولا الامتصال، وأمراض الأبرء^(٤) قليلة عندهم، هذا ما انتهى إليه علمي في ذلك.

وأطباؤهم مستوهم، فلا تجد طبيباً شاباً إلا نادراً، ومن برع في صناعة الطب يهرع إليه الناس ولو من مسافة أيام ويكرمونه إكراماً تاماً، وأكثر أدويتهم التشريط والكى، ولا يستعملون للباطن^(٥) إلا القدر القليل والعسل النحلي والسمن البقري.

عجيبتي

أخبرني شيخى الفقيه مدنى الفتاوى - عليه سبحانه الرحمة، أنه كان أصيب بالنتقرس الذي هو وجع المفاصل، وهي المسمى في كتب الطب بداء الملوك وأن أعرابياً من البادية وصف له الوقوف في السمن البقري، ومنخن على

^(١) الوحش من الساق شمرها، واسمها، مثل ملك منها ينظر: الخامس

^(٢) في الأصل "... بأوامر.."

^(٣) الثلاثين: جمع مائة سلاح، وهو لفظ تورلوى معناه طيب المولد.

^(٤) الأبرء.. العسل، والناور هو من اسمه يسل في إحدى مصب (الخامس) نسخة الاثني ٢٧٧.

^(٥) الباطن أى الأمراض الباطنة.

النار حتى ذاب نوباناً تاماً، فنزل عن النار وترك إلى أن هذا وصار يتحمله
الإنسان فربط لي حبل في سقف البيت، وصار^(١) طرفاه بيدي، وأفرغ السمن في
قصعة كبيرة، وغسلت رجلي ووقفت في السمن، ومسكت الحبل المذكور فكان
معيناً لي على طول الوقوف قال: فلم أشعر إلا والسمن يسري في جسمي كسريان
النم، غير أنه أولاً صعد إلى مفاي ثم إلى ركبتي ثم إلى فخذي، ثم سرى في
النصف الأعلى فصرت أحس به يصعد في جسمي شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى
عنقي، فأخذني دوار^(٢) وغشي علي، وكنت أمقط، فتلقتني الخدم واثرونني في
ثيابي، وأضجعوني على فراشي وأنا لا أشعر بشيء من ذلك، فظللت نهاري كله
وليلي كله كذلك ثم أفتت عند الصباح، وأنا ناشط كأنما انحليت من عقال بعير،
ورأيت أنه خرج مني عرق كثير كريح الريحانة وبذلك شفاني الله تعالى.

وأخبرني غير واحد أن أهل البادية كذا يفعلون حتى بلغ هذا الخبر مبلغ
التواتر، ولكونهم يتعاطون السحر كثيراً يتداولون بالكتابة وعندهم أداس مشهورون
بذلك وأكثرهم شهرة الفلانا.

وكيفية الولادة عندهم إذا أخذ المرأة الطلق أتاها بعض العجائز من النساء
وربطوا لها حبلًا في سقف البيت فتمسكه وهي واقفة، وتعتمد عليه كلما اشتد بها
الوجع وتفرج بين رجلها حتى يسقط المولود فتلقاه إحدى النساء الحاضرات،
وتقع مرقته ويضعهن الباقيات النساء^(٣) على فراشها.. فإذا تم للمولود^(٤) أسبوع
عملوا له عقيقة، كل إنسان على قدر حاله، فتجتمع النساء عند النساء والرجال مع
الرجال ويكون قد ذبح (أبو المولود) شاة فتأكل النساء والرجال لحم الشاة ويسمون
المولود، ثم يتفرقون، ويطعمون النساء في ذلك الأسبوع عند الصباح المتديدة وهي
الحريرة بلغة أهل مصر، والحصو بلغة أهل المغرب، والكريم بلغة الأترنج، وعند
الظهر لحم دجاجة إن كانوا أغنياء، فإن كانوا فقراء^(٥) فالتמידة أيضاً، وهي مركبة

^(١) في الأصل:..وصلت طرفاه..

^(٢) في الأصل:..فأخذني دورانه..

^(٣) في الأصل:..ويقطع مرقته ويضعها على فراشها..

^(٤) في الأصل:..فلما تم للولد أسبوعاً..

^(٥) في الأصل:..لأن كانوا فقراء..

من دقيق الدخن ودقيق التبلدى والهجليج، فإن كانت من الهجليج كانت بها مرارة^(١) وإن كانت من التبلدى كانت حامضة، فإن تم للمولود شهرين أو ثلاثة حملته أمه على ظهرها وربطته بثوبها ويسمى ذلك الحمل، فوقو، فتحمله كذلك وتذهب إلى شئونها من زرع وماء وحطب حتى يشب، ومن عادتهم أنهن يرضعن أولادهن حولين قلل كالإسلاميين^(٢)

ولا يزوجون بناتهم إلا إذا بلغت البنت الحلم وعرفت منفعة الرجل، ولقد مكثت عندهم سبع سنين، ماريت عروساً تزوجت قبل بلوغها، وإن عقد عقدها قبل البلوغ لا يبنى بها الرجل إلا بعد بلوغها، لأن عادتهم أن الرجل يملك ويترك (عرسه) مدة، فمنهم من لا يبنى بعروسه إلا بعد سنتين ومنهم بعد ثلاث، والمستعجل منهم يبنى بعد سنة (لأنهم لا يملكون عليها إلا إذا نهزت البلوغ، هذا في التبر) وأما الشيب فيبنى بها الرجل يوم ملاكه أو بعده.

وأما قراءة القرآن فتأخرة جداً لأنهم لا يقرأون القرآن إلا بالليل في المكاتب^(٣) فيكون الصبي في النهار سارحاً بمائتيته من غنم وبقرة، وبعد أن يرجع في المساء يأخذ لوحه ويذهب (إلى المسجد)، وعلى كل صبي الاتيان بالحطب يومياً، فيوقدون النار ويحيطون بها فيستضيئون بنورها وعلى ذلك الضوء يحفظون ويكتبون، وحفظهم غير جيد، قلة كان من يحفظ القرآن منهم حفظاً جيداً. وأما قراءة العلوم فتأخرة أيضاً لعدم العلماء، وأكثر قراءتهم للفقهاء والتوحيد وأما المعقول^(٤) فقليل جداً ومع قلة لا يقرأون إلا قليلاً من النحو، وأما المعاني والبيان والبدیع والمنطق والعروض فلا يعرفون فيه إلا الاسم، ومن يعرفه منهم يكون قد تغرب لبلد آخر كمصر وتلقاه فيها، فإذا رجع إلى بلده كان هو العالم.

^(١) في الأصل: "كان لها مرارة".

^(٢) كلمة "كالإسلاميين" ربما تكون مزحة من الأصل العربي والقصود ما هو لكن يرضع أولاده حواشي كما هي تعاليم الإسلام ونظيقات المسلمين.

^(٣) يلمد بالكتاب المكاتب أو الخزانة التي يدرس فيها التلاميذ المعاصر القرآن ومبادئ الفقه والكتابة وهي مخصصة لـ كسب الحياء بالمرور والوقاية.

^(٤) المقصود بالمعقول هو العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق وغير ذلك.

وأكثر ما يعانونه (الطلب) الروحاني والسحر ويسمون علم السحر علم
الطلب، ومن مهر فيه سمي طلبتي، وهذا العلم يوجد عند الفلان أكثر من غيرهم،
وقد ذكرنا سابقاً ما وقع من الفقيه مالك في أولاد السلاطين (وكيف) سحرهم حتى
رجعوا إلى الفاشر بمنما حربوا منه، وما وقع من الفقيه تمرّو فلا فائدة للاعادة.

تبيته:

اعلم أن دارفور وإن كانت كلها قليماً واحداً ومملكة واحدة فهو لها مختلف
وأصحبها القوز، فلذلك تجد من فيه من من أعراب البانية أقوياء أجرياء^(١) لسلامة
أرضه من العفونات والوخم لكن ماء قليل، فقد ذكرنا سابقاً أن منهم من (يكون)
بينه وبين الماء مسافة يومين وأكثر.

ويليه في الصحة بلاد الزغاوة والسماء بدل الرياح، فلذلك تجد الزغاوة
والبدليات اتقاطنين بها في غاية القوة وسلامة الأعضاء، وأرضها هواء الصعيد،
لكثيرة مياهها ووخمها وعفونتها، لكن لا تكون أرضه وخيمة إلا على من لم يعتدها،
وأما المولود فيها فتراهم أصحاب أقوياء لكن عندهم الحمى كثيرة، وأردا من
الصعيد المدن، وأقواها الفاشر ويليه كويبة وكبكيبة ولامسلا وفنقرو وبينجا وشالا
فاوخم الأماكن كلها، لكثرة الرطوبة عندهم، (واستمرلر الأمطار لأنها لا تنقطع في
السنه الامدة شهرين أو ثلاثة)^(٢)

ومع ما في دارفور مما ذكرناه من الأمراض، كل منهم يجب وطنه ويسأف
مكته، وإذا تحول إلى غيره يبكي عليه ويتمنى الرجوع إليه، وهذه غريزة جبل
عليها الانسان والتطبع عليها الجنان من قديم الزمان، فلذلك كان المصطفى عليه
الصلاة والسلام يحن إلى مكة حنين المشتاق ولولا أن الله أمره بسكن المدينة لأقام
في مكة بعد الفتح باتفاق.

^(١) أعرابه : يقصد سرحى المنوي.

^(٢) ما بين الحاضر والآن () ملاحظ.

لكن من حيث أن أمراض بلاد السودان لم تكن وبائية قتالة كانت أعمارهم أطول من أعمار غيرهم، فلذلك تجد فيهم المسنين حتى تجد من تجاوز المائة وعشرين سنة، ولما أبناء السبعين والثمانين والتسعين فلا يكاد يحصرهم العدد، ولا يوقف لكثرتهم على حد، هذا مع ما ابتلوا به من الفتن والحروب والمحن، لأن كل قبيلتين منهم بينهما دم مسفوك، وثأر مطالب به غير متروك، كما بين البرتي والزيادية، وبني عمران^(١)، والميمة والفلاتا، والمساليت والمسيرية، والحمير^(٢) والرزقات، والمجائين^(٣) وبني جرار^(٤)، والزغاوة والمحاميد، مما لا يكاد يحصى، هذا خلاف فتن الملوك وخلاف ما يصير من القتل في مجلس الشراب، أو في المعاندة على الكواعب الأتراب، ولو لا ذلك لكانوا في الكثرة كالأجوج وماجوج، وضاق بهم الفضاء والمروج.

فإن قلت: إذا كان الأمر كما ذكرنا فمأبال النساء العجائز قليلات مع أنهن لا يقتلن ولا يحضرن قتالا ولا حروباً فلو كان مانكر صحيحاً في عدم كثرة الرجال كان وجود النساء المسنات كثيراً مع أنهن مثلهم أو أقل؟ قلت: لما كن يجزغن على من قتل لهن من الرجال، ويتحملن بعدهم الضر والنكال، كن عرضة للأمراض الرديئة الجالبة للمنية، بسبب ما يحصل لهن من الانتعالات النفسانية ومع ذلك^(٥) فن أكثر من الرجال المسنين (ولقد كنت في بلدة أقل عمارة وسكاناً وهو أبو

^(١) هو عمرو: يذكر هؤلاء من أسلافهم قدموا من مملو حميد مصر وكانوا لغارة وررجال طرق صوملة من صعدة أمثال مقلت واستمر بعدهم في وسط كردستان وسط هبة البدوية وغرباً في حين استمر البعض الآخر في شرق دارفور عند حدود كردستان. Macmichael. Op.Cit.P.249

^(٢) الحمير: من مجموعة القبائل العربية التي دخلت السودان من منطقة شمال إفريقيا مروراً بالسودان الأوسط واستقرت في الصحابة في دارفور لم تقتلوا شرقاً وحلوا في دارفور احراقهم من الحولمة والاحمسة والقوية والمركوا في سهل دارفور الحال لم يقتلوا في كل منطقة شمال كردستان، وهذه القبيلة لها أكثر من ثلاثين فرعاً ينتشرون بالرمي والزرقة والتميرة ومن أكثر دوابهم صوف الأسمن وحلقة التمرة والسوق الصمغ العربي واللحمة والسمك الرتبة ثلاثة: الحماكرة والمغرم والرمية. مقرر: أحمد عثمان محمد، المرجع السابق ص ١١٥.

^(٣) المجائين: جماعة من قبيلة دار حنظل التي تنسب إلى فرزة ودخلوا السودان من طريق العرب مع احوالهم من قبائل حمية واستقر بهم لنظام في وسط كردستان ودار حنظل مقرر: Macmichael Op.Cit.P 256

^(٤) هو جرار: يرى ماكمايكل لما ضمن مجموعة فرزة التي انتشرت إلى السودان من حميد مصر في القرن الخامس عشر الميلادي (١٩هـ) وكانت من القوي لقال دارفور وكردستان وموطنهم الآن في الحدود بين دارفور وكردستان. Macmichael. Op.Cit.P.257

^(٥) من كثرة... ومع ذلك... وحق لماه العمل على في الأصل وظل من تشييد الامتداد والرمية العربية.

العلبج أخذوا قطعة من كرة ونزبوها في الماء، فإن كان فيها قطع من عظم صفوها من مصفاة، ثم صبوا ذلك الماء في القدر ووضعوه على النار حتى يصير له قوام، فيأتون بقدر صغير يقطعون فيه قليلاً من البصل ويقطونه في قليل من السمن، ويضيفونه لذلك (الماء) ويضعون فيه شيئاً من الملح والفلفل والكمثب، إن وجدت، وهذا طعام لا يوجد إلا في بيوت أمراء النور.

وأما ويكة الهلجيج فلا يخلو إما أن تكون من الورق أو من الثمر، فالتى من الورق هي التي يجنون الوريقات الطرية الحديثة ويقطونها، وتوضع في القدر على النار، وتحرك بالمسواط حتى يمتزج مع مافيه من الماء والدهن.

وإن كانت من الثمر فكيفيتها أنهم يأخذون الثمر وينقعونه في الماء ثم يهرسونه باليد، حتى يذهب لحمه، كله في الماء، ويأخذون ذلك الماء ويصفونه في قدر، فإن كانوا فقراء وضعوا عليه قليلاً من الشحم وأكثوا، وإن كانوا أغنياء قلوا النار حتى يصير له قوام، ثم عملوا نعليه كالتى ذكرناها في الدورى وأضافوا لها لحماً مدقوقاً من القديد، وصبوا فيه الماء، وتركوا الجميع على النار حتى يحصل الامتزاج التام فتزل عن النار وهذه من أعظم وياكهم^(١) هذا طعام أغنيائهم، وأما فقراؤهم، فقد ذكرنا سابقاً أنهم يأكلون النخن بغير تقشير، وإن أهمهم قبيح جداً لأنه إما يحول^(٢) أو ورق الهلجيج الصغير الطرى، والمسمى عندهم بـ 'النيلمو' أو ثقل المسمم أو ثمر الهلجيج الأخضر المسمى 'عقلو' أو ثمره الناضج، وملح كل ما ذكرنا الرماد المسمى بـ 'الكتبو' لقلة الملح وغلوه.

وأترف الفقراء من تكون له شياه أو بقرة يحلب لبنها، ويأخذ زبدة ويسلقهم بمحيضه، ولا يعرفون اللحم إلا بعد أشهر، إن ذهبت في البلدة بقرة أو ثور

^(١) وياكهم: الثوب جمع ويكة وهي الأمام كما سلفت الإشارة ونظير الويكة الحيا في السودان على الجهة الغاية وطراً لطيفها على مكونات التلاح الأساسية لثقل عليه اسم الويكة خاصة في دارفور ورواية.

^(٢) النكول: وهو نوع من مشطرات الأمام الأساسية، ويصنع من نبات يسمى النكول ينت حادة في الترامم القرمة والشمس القرمية والاحدة الحيوانات فطحن لورقه القامة والحمر في الحسل حتى تصبح في شكل عصا لم يمس في داخل الأرض حتى تصبح راتحة منة مناً لم يمس في شكل كرات صمودة سوداء لينة الراتحة ووضع حادة في التلاح ليمطه بكها لينة حادة مع الحمة، فساكل الثمر منها كميات كبيرة ولقد أمنت الأبحاث العلمية الحديثة فوائد الصحة الغنية للإنسان.

والتسومها، فيأخذ الفقير منهم قسماً على قدر حاله بأمداً^(١) من الدخن لأشياء
أخر، ولذلك تجد أكثر شبائهم يعانون (من) القنيص^(٢).

وقد ذكرنا سابقاً أيضاً أنه في كل سبت يضرب الوردانج^(٣) طبلة ويخرج
الشبان كلهم معه للصيد، فكل منهم يأتي في المساء بما تيسر معه، لأن غاباتهم فيها
كثير من الحيوانات الوحشية، فأكثر ما يصيدونه الأرنب ثم الغزال ثم أبو الحصين^(٤)
ثم بقر الوحش^(٥) وإن وجنوا تيتلاً مريضاً أو أخذوه على غرة قتلوه واقتسموا
لحمه.

والتيتل حيوان وحشي على صورة البقر الأهلي، إلا أنه أصغر جرمًا
فأعظمه كالعجل، وله قرنان صاعدان مائلان قليلاً، إما للخلف أو للأمام طولها
بنحو شبرين وأقل، ومع وحشيتها فيه نوع من البلادة، فلا يفر إلا من أناس
كثيرين، وأما من رجلين أو ثلاثة فلا يفر، بل يثبت مكانه وينظر إليهم نظرة
التأمل. ومن عادة الغور أنهم إذا رأوه ينادونه بصوت عال ياتيتل يا كافر! فيصير
شاخصاً إليهم كأنه غير مكترث بهم، فلا يبرح من مكانه إلا إذا دنوا^(٦) إليه دنواً
كلياً فحينئذ يمشي رويداً رويداً، فإن رآهم جنوا في طلبه هروا.

والفرق بين التيتل وبقر الوحش المعتاد، أن التيتل وإن كان نوعاً من بقر
الوحش، إلا أنه أصغر حجماً، وقرونه تثبت معتلة كقرون الغزال، وبين القرنين
من أعلى التفراج كثير، ولون التيتل أصفر كله.

ولما البقر الوحشي فمنهم الأسود والأصفر والأبلق الذي لونه مختلط
ببياض كثير، وقرونه كقرون البقر الأهلي في الغلظ والاعوجاج، وحجمه كحجم
البقر أيضاً وبهذا تعلم أن التيتل نوع من البقر وبينه وبين البقر الفروق المذكورة.

^(١) الأمدا: جمع مذ من المكامل والله في دارفور ووداي يسأري إلى منبر رخلأ من القرية.

^(٢) القنيص: أي القنص حسب اللغة النارجية في دارفور وهو الصيد.

^(٣) الوردانج: في دارفور هو رئيس الرجال وهو الذي يجمعهم في الشاسات الاحتفالية كالحفلة والعراس والمناسبات في أعمال النساء
والزراعة والصيد، وله اسم في دارفور هو الوردانج مع القوم في تلك الشاسات.

^(٤) أبو الحصين: حيوان صغير كالغزال، (المسرة) يجر العنقا كقوة في الأرض من سمته عند التواضع ولها من (أوالحصين) وهو
دعماً بعد الامارة لئلا يفتن الكناكيت بمسما، ولله سلط الاشارة اليه في هذا البحث.

^(٥) بقر الوحش: يختلف عنه في دارفور ووداي اسم المسمى.

^(٦) في الأصل: .. انما يدنوا اليه..

وهذا أناس مشغولون بصيد الحيوانات لا حرفة لهم سواها، وكل منهم قد أعد لذلك عدة، فأما الشبان فيستعينون على الصيد بالكلاب^(١) والسفاريك^(٢) لا غير. وأما الحدائق فيحفرهاون على الصيد وهم على قسمين:

منهم من يتحصن لصيد ذوات الأربع كالغزال وبقر الوحش والفيل والجاموس والضباع والسباع والخرتيت ونحوها وهؤلاء يجتمعون فرقاً فرقاً كل فرقة منهم خمسة أنفار أو ستة فيأتون للطريق التي يمر عليها الفيل وغيره حين وروده الماء، ويحفرون فيها حفرة عميقة أطول من قائمة، وينقون في مركزها وتداً منبب الرأس حاد السن كالرمح، ويصلبون على الحفرة أعواداً ضعيفة ويغطونها بالحشيش، ثم يغطون الحشيش بالتراب، فتأتي الفيلة أو السباع أو بقر الوحش أو الجاموس أو الخرتيت، واردة الماء، فتمر على تلك الحفرة، فتتى ماثل على الأعواد الوطىء تكسرت تحت أرجلهم وسقط في الحفرة منها حيوان أو ثنتان، فتتى نزل الحيوان بقله على الوتد الذى فى المركز دخل ذلك الوتد فى لحمه فلا يقدر أن يتحرك حتى يأتى صاحب الحفرة فيتم قتله ويأخذ لحمه بعد سلخ جلده، فيعملون اللحم قنيداً وهو المسمى عندهم بالشراميط، لأنهم يشرمطونه أى يقطعونه سيوراً، ويأكلون منه طرياً.

فإن كان فيلاً أخذوا سنه وجلده وقندوا لحمه، وهذا القنيد يأكلون منه ويبيعون منه.

وكل فرقة لها جماعة فى البلد يفتقدونهم فى كل أسبوع، ويأتونهم بما يحتاجونه من الزك وغيره، ويكون معهم جمل فيحملون مايجنونه عندهم من القنيد والجلود والقرون ومن الفيل، فيأتون بالجلود فيعملون منها الدرق والسياط ويبيعون العاج وقرن الخرتيت والسياط للتجار ويبيعون الدرق للعسكر.

وهم قوم لأعهد لهم ويسمون: الدرامدة فلا يناكحونهم أبداً ولا يتزوج النرمودى إلا من جنسه، ومنهم من يتحيل على الصيد، بأن يأتى لمحل توحوش ويأتى بحبل من قد متين يجعله خرته واسعة، فإذا مر عليه شىء من الوحش

^(١) السفاريك: جمع سفرك وهو آلة حربية تصنع من فروج دجاجة المنيح ويحمل كسلاح فى الحرب وأماه ونسبهم مختلف واسمهاه فاعل السالك فى البر والبحر ورواها

ودخلت رجله في الخرقة - وهي دائرة أشبه بالعروة - فرفع الوحش رجله
انخرطت عليه وهي مأكنة الأوتاد فلا يقدر الوحش على قطعها ولا قلعها، فيمكث
حتى يأتوا إليه فيقتلوه.

ومنهم من يعلو على شجرة يقبل^(١) تحتها الوحش، ويكون معه حربة أو
حربتان من الحراب الواسعة الحادة التي هي هكذا



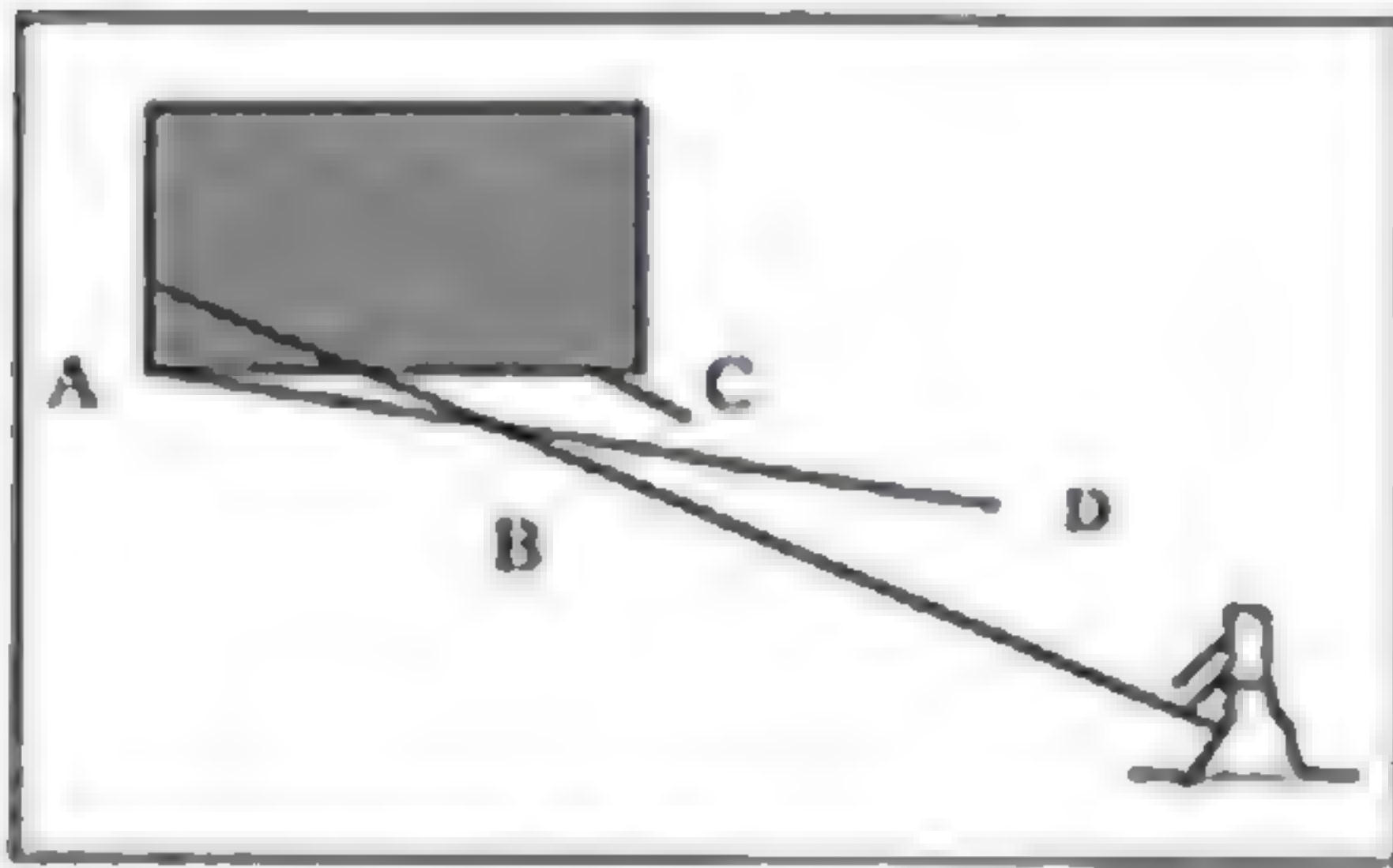
فيمكث في أعلى الشجرة حتى يأتي الوحش ويقبل، ويبدأ فينظر لمن هو قريب منه
ويطعمه وهو نائم في بطنه فتتفر باقي الوحوش التي معه، ويمكث المطعون فينزل
إليه الصيد ويتم قتله.

ومنهم من يتحتمض لصيد الطير، وأحسن طير يصاد عندهم الحبارى، وهو
طائر عظيم أكبر من الدجاج الرومي لونه أبيض يميل إلى الأصفرار والخضرة،
يسكن في أيام الثرى سمناً مفرطاً، ويكون لحمه طرياً لطيفاً، وهذا (الطائر) يألف
دوداً معروفاً عندهم، وحشرات صغيرة، فيأتي الصيد بذلك الدود والحشرات
ويكون معه خيط قد قتله من العصب قتلاً جيداً وهو رفيع لا يكاد أن يرى للطائر،
ويقصد المحال التي يصيد فيها فمتى رأى الصياد الحبارى في محل ربط حشرة أو
دودة في خيط وربط الخيط في أسفل شجرة، ويذهب إلى الحبارى فيسوقها، وفي
الحبارى بلادة لا تكاد تطير حتى يقرب الإنسان أن يمسكها، فيسوقها لجهة الحشرة
أو الدودة حتى تراها، فمتى ما رأتها هرعت إليها وابتلعتها، ولما صارت الحشرة
في حوصلتها وأرادت أن تذهب، يمنعها الخيط من الذهاب، فيأتي الصياد فيذبحها
ويضعها معه، ويربط في الخيط حشرة أخرى إن كان هناك حبارى.

ويوجد أيضاً طير آخر يسمى أباطنطرة، وهو أبيض وهو طائر أكبر من
الحبارى بقليل، وله في عنقه كيس طويل مخروطي الشكل، لسفله واسع وأعلاه

^(١) يقبل: من القبللة وهو السكون والخلال من سر الشهوة.

ضيق، يبتلع الحشرات أيضاً كالحبارى. ومنهم من يصيد الطيور الصغيرة بالشباك وهذا لقل الدرامدة كسباً، لكونه يغرم حياً بذ العصافير وأبوموسى وأمثالها لا تقع الا على الحبوب، فيأتى (الصياد) فى المحل الذى يريد الصيد فيه بحيث يكون قُرب نهر أو بركة وينصب شبكته وهى شبكة مربعة هكذا:



ولها اربعة أوتاد، وتدلن منها مربوطان لصق ركنها وتدلن مربوطان فى حبلين طويلين فى ركنيها الاخرين فيدق الأوتاد فى الأرض وفى قُرب أحد أركائها الوحشى^(١) حبل متين طويل جداً، فينصب الشبكة ويبذر الحب أمامها ويأخذ طرف الحبل الطويل ويمكث بعيداً عنه، فمتى نزلت الطيور وكثرت على الحب كفاً الشبكة عليها بالحبل الذى فى يده، وعيون الشبكة ضيقة جداً، فلا يخرج منها عصفور ولا يفلت منها شيء، فيأتى صاحب الشبكة ويأخذ الطيور منها، فإن كان فيها ما هو غالى الثمن كالنرة أو الببغاء ونحوه أخذ ريش جناحيه وتركه فى مكانه^(٢) وإن لم يكن فيها ذلك نبحها كلها وبذر حياً آخر، وحين كنت هناك كانت لى شبكة وكنت أصطاد بها فى بيتى، فطالما شبعنا من العصافير بصيدى منها. وهناك من هو مغرم بصيد القروذ والنسائس فى الجبال ولا اعرف كيفية اصيادهم لها.

وأحسن من ذلك كله الصيد بالبارود، لأن الانسان هناك متى ما كان معه بندقية جيدة يشبع من لحوم الحيوانات بغير مشقة، ومن الأغنياء من يشتري من الدرامدة عبداً ولا يكلفه إلا بالصيد فمتى قنص ذلك العبد لشبع سيده من اللحم.

^(١) الركن الوحشى أى الخرس.

^(٢) لشكله الرمال.

ولقد رأيت عند شيخنا الفقيه مدني عبداً يسمى سعيداً مسناً، فأخبرني أنه صياد، وأطعمني لحم غزال، وذكر أنه من صيده وأنه لا بد له في كل جمعة أن يأتي له باللحم مرتين أو ثلاثاً، فصرت أتمنى أن يكون لي عبد مثله فما عثرت عليه.

وقسم متمحض لصيد الزراف والنعام، وهم أعراب البادية، كالمحاميد والزبدة والعريقات بدار الوداي، والمجانين والزيادية وبنى جرار والعريقات بدارفور، وكل من هؤلاء يصطاد على الخيل، فأكثرهم صيداً لمسبقهم جواداً، ثم إن الإنسان منهم إذا رأى صيداً وتبعه لا يفتوا أثره بل يداريه حتى يحاذيه ومتى تمكن من فريسته عقرها، فأما النعام وإن كان شديد العدو، فيوجد من يلحقه، وأما الزراف فلا يكاد يلحقه في العدو فرس، ولذلك لا يلحقه إلا الفرس الذي يمر كالريح.

وأعراب البادية في دارفور ودار وداي منعمون فيما يشتهون، لا يحتاجون إلا إلى الدخن والذرة والملبوسات، لكن يشترون من ذلك ما يحتاجونه بما زاد عن كفايتهم من السمن والعسل أو المواشي وجلود الصيد والبقر والأبل، حتى إنهم يجلبون لدار الوداي ودار الفور الأجرية^(١) والقرب^(٢) والبطلط^(٣) والحبال المصنوعة من سيور الجلد، ويسمون هذه الحبال الجلدية بالتوجج والسياط وغسير ذلك.

وأما السمن فمن أنعامهم، ولما تعسل فمن الأشجار، لأن النحل يعيش فيها، وهم يجتونه، وتصيد كثير فلذا ترى ريش النعام عندهم لا قيمة له، وكذا قرن الخرتيت.

وحين كنت في دار الوداي جاء بعض التجار من فزان يطلب ريش النعام، وطلب من الشريف أحمد الفاسي الذي توزر بعد أبي أن يكتب له كتاباً إلى الشيخ شوشو شيخ المحاميد بالوصية عليه وأن يأمر الأعراب بتصيد له برفق في الثمن،

^(١) الأجرية جمع حربة: وهو دواء يصنع من حلة النعنع دناً ويحمل به الحمل.

^(٢) القرب: جمع قربة: وهي دواء يصنع من حلة النعنع ويحمل به الحمل.

^(٣) البطلط: ذكر برون في الترجمة الفرنسية بأنها تؤخذ من الجلد تستعمل في حطب السم ويحمل ولد كبه، بالاسم Battah.

مطبعة: ص ٢١٠ من الترجمة الفرنسية.

وكان معه خمسون ريالاً من الفرائس، فكتب له الشريف بذلك فأخذ الكتاب وتوجه إلى المحاميد بنليل من العرب، ومكث هناك ماشاء الله أن يمكث ولما جاء أخبرنا بأنه حين وصل إلى حبيهم وسأل عن بيت الشيخ دلّ عليه فنزل في أكرم ضيافته وأرحب نزل، ولما أراهم كتاب الشريف زاد الشيخ في إكرامه وبلغ في التعلّف والبر به، وأفرد له بيتاً من الشعر بفرشه وجميع ما يحتاجه، ووكل وصيفه لقضاء مهماته، وكان ذلك التاجر أخذ معه هدية للشيخ المذكور، فقدمها له فقبلها منه وأثلبه عليها، ثم إن التاجر سلم للشيخ الخمسين ريالاً، فطلب الشيخ العرب وقال لهم هذا رجل غريب اضافني^(١) والتجأ إلى ويريد ريش النعام، فمن كان له لرب في الريالات فليغد للصيد من الصباح، وكل من أتى بجك ظليم^(٢) فله نصف ريال، ومن أتى ببريداء^(٣) فله ربع ريال، فاهتز العرب لمطلبه وأصبحوا قاصصين، ففى يوم واحد جاموا بنحو عشرين ظليماً، لمكث عندهم نحواً من عشرين يوماً، فجمع فيها نحو مائة جك ظليم وحملها له الشيخ على أبله، وزوده برك كثير، وكان من جملة ما جاء به دهن النعام، فانه جاء منه بكثير، وأتى ومعه من العسل والكنياكنيا^(٤) والسرنة والكرو^(٥) شيء كثير وباع في واره الظليم بثلاثة ريالات ولم يبق معه الا نحو عشرة من التجلود وربح ربحاً كثيراً. وأما الزراف فلا نفع له في المتجر الإبلوده فيبيعونها، وأما لحمه فيأكلونه طرياً وقديداً، ويوجد عند العرب من الأرز والذفرة والكوريب، والهجليج، والتمر هندي، والعسل، والكرو، والسرنة، ما لا يوجد عند غيرهم، وأما اللبن فلا قيمة له عندهم لكثرة، يأخذون منه السمن ويرمون رائبه حتى إن من أتى إلى أحيانهم وخصوصاً أحياء الرزيقات والمسيرية الحمر، والهبائية يجد الغدران والبرك القريبة منهم كلها لبناً.

^(١) منقول: يريد أن يقول نزل عندي حليماً.

^(٢) الظليم: كما ورد في القاموس هو ذكر النعام ويذكر بدون رواية سمعها من المؤلف أن الكلمة السوءاء لما في كل حاج فكان ريشات وهي أربع كبار وأربع وسط اسمي بالظلم.

^(٣) البريداء: وهي التي النعم وشكتها رمادي وقد عرفها عرب القرمشور وودى أن رسالة أو رسالة بنظر: Voyage au

Darfour, P 459

^(٤) الكنياكنيا: هي المادة التي تستخرج من نواة الشج كعسل تمر بها.

^(٥) الكرو: مثل تمر به وهو دمل من الكرو، حيث مل العسل ويصل في شكل كرات كثيرة، ثم يترك يافئ والروث وله مدلل جميل ويستعمل غذاء في التزريع ولؤلؤات لراحة لوحدة صرمة حاملة للأشغال.

الفصل الثاني عشر

في اصطلاح تزيج النور

لما كان المتوحد في ذاته وصفاته وأفعاله غنياً عن الزوج والولد ما انفصل عن أحد، ولا ينفصل عنه أحد، إذ لا يحتاج لما ذكر إلا الحاصل المسكين، الذي لا سند له إلا الله ولا معين، وهو سبحانه وتعالى حي قيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، واحد أحد، فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولد، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له كفواً أحد، خلق آدم أباً للبشر من التراب، وخلق حواء زوجه من أقصر ضلع من الجهة اليسرى على الصواب.

ولما كان سر خلقه أن يكون خليفة في الأرض، ويملاً من نسله طولها وعرضها، ركب فيهما الشهوة البشرية، ليحصل للتناسل وفق الإرادة المسنية، وكان آدم حين خلقت حواء في سنة من النوم، ولما أفاق رآها أمامه على ترتيب منظوم، فوقعت منه موقع الإعجاب وقال لها: من أنت يا أعز الأحباب؟ قالت: أنا حواء، وقد خلقني الله من أجلك يا آدم، وقدرك ذلك من لزل تقام، فقال لها: هلم إلي فقلت: بل أنت تعال إلي فقام آدم إليها، فصارت عادة الرجال الذهاب إلى النساء.

ولما أن جلس معها ومس يديه جسمها دبت فيه الشهوة الانسانية، وأراد مواقعتها كما هو مقتضى الحيوانية قيل له: كف يا آدم لا تحل حواء إلا بصداق وعقد نكاح، ثم إن الله سبحانه وتعالى خطب خطبة نكاحها بكلامه القديم فقال: الحمد لعزتي والعظمة هيبتى، والخلق كلهم عبيدى، وإبنى لشهركم يا ملائكتى وسكان سماواتى إبنى زوجت بديعة فطرتى، حواء أمتى لأدم خليفتى، على صداق أن يسبحنى ويهللنى فكان ذلك سنة لأولاده.

لكن لما اختلفت الأقاليم واللغات وتعددت القبائل والاصطلاحات كان اصطلاح كل قوم مبيناً لاصطلاح آخرين، وإن كان العقد والمهر واحداً.

فمن اصطلاح الفور أن الشبان إناثاً وذكراناً يتشاورون جميعاً، ففي صغرهم، يمرحون^(١) بالأغنام، ولا حجاب^(٢) بينهم على النول، فربما اصطحب الشاب والصبية من ذلك الحين، وانعقدت بينهما المودة التي لا تبلى على مر السنين، فمتى أحبها وأحبته ركن إليها وصار يغار عليها، ولا يرضاها تحدث غيره، وحينئذ يرسل أباه أو أمه أو أحد أقاربه فيخطبها منه، فإذا انعقد بينهما الكلام ونفذ على وفق المرام جمعت الناس للإملاك، وحضر الشهود للأملاك^(٣) فيذكرون شروطاً كثيرة، ويطلبون أموالاً غزيرة، وكلها يأخذها الأب والأم أو الخال أو العم، ويعتدون لها على شيء قليل من ذلك المال الجزيل، وكنا قد ذكرنا نبذة من ذلك فلتراجع هنالك.

ثم بعد تمام العقد يتركون الأمر نسباً منسياً مدة طويلة، ثم يجتمعون فيما بينهم ويتشاورون، فينعقد رأيهم على وقت فيه يزفون، فإن كان العروسان من نوى البيوت الفخام والمراتب العظام، ابتدا أهلها في تهيئة الزفاف والشرب قبل العرس بأيام كثيرة، ثم يرسلون الرسل إلى أحبائهم من البلاد ويقولون: العرس في اليوم الفلاني المعتاد، ويكون قد أحضروا من المزر^(٤) والنبذ الأحمر المسمى عندهم بأم بئيل، ومن البقر والغنم ما فيه كفاية، فيأتي الناس في اليوم الموعد أفواجاً وهناك نساء معين طويل صغار وكبار، كل امرأة معها ثلاثة طويل، اثنان صغيران وآخر كبير على هيئة الدبكة، تضعها تحت إبطها الأيسر، أحدهما وهو الكبير من أعلى والآخران يحاذيان أسفل الكبير، وتضرب بيدهما على الثلاثة، ومجموعها يسمى عندهم النلوكة، وكلما جاءت طائفة (خرجت) النساء بالطبول لملاقاتها^(٥) ويقفن كلاماً يمنحنيها به، منه قولهن:

^(١) يمرحون أي يلهوون.

^(٢) في الأصل: وإن لا حجاب.

^(٣) الأملاك: والملاك بكسر ما وفتح التاء: التروح أو العقد (العرس).

^(٤) المزر بكسر: هي الغرة والقمير.

^(٥) في الأصل: سر من النساء بالطبول ويتنهد.

هي باني هي باني
 وبتن حسن البان
 يامزازين القنا
 أمريت^(١) مايجيكرنا
 عين الحسود بالعمى
 يامزازين الخراب
 أمريت مايجيكر خراب
 عين الحسود في القراب
 وكلما قالت كلاماً قالت قبل لن تقول غيره:

هي باني هي باني
 وبتن حسن البان
 لما هذا الكلام لايعنى شيئاً بالتحقيقة، وكنت مرة جئت الى عرس فتعرضت لى
 امرأة وقالت:

الشرف جاي من المسيل^(٢)

الكتاب في إيد

ومن قبل يجيب

البرقد عيل^(٣)

وكنت لحفظ من كلامهن كثيراً نسيت.

^(١) أمريت لغة الحق بالعامة، بمعنى كنت

^(٢) المسيل: هو الخلوة التي يقرأ فيها القرآن المراد.

^(٣) وهذا الخط كتابه من النسخة التي جمعت لما أشدح لأن المراد من القابل للذلة والتي ليس من السهولة هي:ها وأسر رحتا.

فيخرج أصحاب العرس ويتلقون القادمين، وفي كل طائفة يأتي رجال ونساء فيجعلون كل طائفة في محل، ويأتون لهم بالأطعمة والأشربة على حسب مقامهم، فمنهم من يأتونهم بالعصائد والمزر المسمى بالبوزة، واللحم المسليق والمشوى، ومنهم من يأتون له بالفطير والشراب الأحمر الذي كالنبيذ وتسمى عندهم بأم بئيل، وإن حضرهم جماعة من الفقهاء، أتوهم بالعصائد واللحوم وبالسوييا، وتسمى عندهم: نزايا، ثم يقبلون في أماكنهم حتى يبرد الحر ويعظم اللفى.

فتخرج الشابات من النساء مقريئات، والشباب من الرجال في أكمل زينة يتدرون عليها، وتصطف النساء صفوفاً صفوفاً، وكل (صف) من النساء يقبله صف من الشباب، وتخرج النساء اللاتي معهن الطبول فيضربن ويقلن من كلامهن، فيبرز صف من صفوف النساء، يمثلين^(١) هوناً ويرقصن بأكتافهن ويتقاصرن إلى الأرض، حتى يصلن إلى صف الرجال، فكل شابة تعد شابة حتى تضع وجهها في وجهه وتهز رأسها نحوه حتى تضربه بصفائرها في وجهه وصفائرها في ذلك مدهونة بالطيب وأنواع ما يعرفونه من العطر فيهبج الشاب ويهز حربته على رأسها، ثم تلتفت راجعة فيتبعها حتى مكاتها^(٢) الأول، فيقف فيه الرجل وترجع هي القهقري حتى تصل إلى المحل الذي كان واقفاً فيه الرجل، فحينئذ من يتأمل يجد صف النساء ثبت في مكان صف الرجال وبالعكس، وإذا كان هناك بعض شبان لم يدخلوا في الصف، وأحدى الصبيا تريد أن يقابلها واحد منهم تألفه تخرج من الصف وتذهب إليه راقصة حتى تكب شعرها على أنفه فيهبج ويصيح ويهز حربته ويخرج وراءها، وإن لم يخرج كان ملوماً، وعليه وليمة للخروجة له. وبعد أن ثبت كل صف في مكان الآخر، تخرج النساء راقصات والرجال راقصين وكل منهم مقابل للآخر، وكل شابة مقابلة لشاب حتى يتلاقي الصفتان في وسط المجال، وكل شابة تكب رأسها في صدر ووجه الشاب المقابل لها، والشاب يهز حربته على رأسها ويصيح صياح الفرح، وهذا الصياح عندهم يسمى:

^(١) في الأصل "يمثلون"

^(٢) في الأصل "من لا مكاتها"

الرقصة، وكل من النساء والرجال مثل مما شرب، ولا يزالون هكذا حتى يأتي الليل، فترجع كل طائفة الى مقرها ويؤتى لها بالأطعمة والأشربة.

وهذا لا يخطر ببالك انه ليس عندهم رقص الا هذا النوع وهو المسمى برقص الدلوكة، وهناك رقص آخر يسمى بالجيل، وآخر يسمى: النقي، وآخر يسمى شكندري، وهناك رقص آخر للعبيد والاماء يسمى: توزي، ورقص الفور يسمى تندنجة، وهناك رقص آخر للعبيد والاماء يسمى بندنه.

وفي الأعراس كل أناس يرقصون نوعاً من هذه الأنواع فالنساء الجميلات بنات الأكابر يرقصن مع أمثلهن من الشبان على الدلوكة، وأواسط النساء مع أمثلهن من الشبان يرقصن الجيل، ومن دونهن يرقصن اللينجي.

فأما رقص الجيل فتقابل فيه النساء مع الرجال يرقصن بأكتافهن ويضربن بأرجلهن اليمنى على الأرض، والرجال كذلك، لكن في كل حلقة هناك نساء يغنين والناس ترقص على غنائهن.

وفي رقص اللنجي: بعض النساء يغنين والشابات والشبان يضربون بأرجلهم الأرض ويرقص كل منهم برجليه اليمنى واليسرى، لكن الشبان يكرون كزيراً^(١) معروفاً لهم (وأما الشكندري^(٢)): فيجتمع للشبان والشابات وكل رجل يأخذ شابة أمامه وتتحنى هي ويمسك خصرها بيديه، حتى يكونوا كلهم كدائرة متصلة أعنى: الأنثى تضع يديها على حقوى الذكر الذي هو أمامها، والذكر يضع يديه على حقوى الأنثى التي أمامه وكلهم منحنون حتى يكونوا كدائرة تامة، ويمشون رويداً رويداً مع ضرب أرجلهم في الأرض لأجل رنين خلا خيلهن والبنات اللاتي يغنين خارجات عن الحلقة.

وأما البندنجة: فهي من أنواع رقص العبيد وهو أن العبد يأتي بالنارجيل المسمى عندهم بالنديب ويتقبه وهو أكر^(٣) مثل كرة المدفع، وينظم منه ثلاثاً أو أربعاً في خيط، ويربطها في رجله اليمنى كالخلخال، وكل عبد يفعل ذلك، وتقف جارية من

^(١) الذكر المتصور هنا: هو اعراج الصوت من الحجرة على أعمام موسيقي.

^(٢) من كلمة (ولما الشكندري...) وهي كلمة تصير من في الكلمة التي سلف من المعنوية.

^(٣) وهو أكر أي يظه وهو في كلمة أن يكثر أو يكثر.

الجوارى خلفه، ويكونون كدائرة ولهم كرير مخصوص فيخرج العبد منهم لأخر
 في وسط الدائرة، ويتحاول معه في اللعب وهذا اللعب مبنى على القوة وخفة
 الجسم، كما يلعب البهلوان، فبعد أن يتحاول ملياً يضرب أحدهما صاحبه برجله
 التي فيها النارجيل فلا يخلو أما أن يوقعه في الأرض أو لا، فالماهر هو الذي إن
 ضرب صاحبه أوقعه والباقي يرقصون رقصاً لا تكسر فيه، وكلهم يريدون على
 المغنيات وهذه المغنيات خارجات عن الحلقة.

ولما التوزى: فهو أن عبداً من العبيد يضرب على طبل كبير والنساء والرجال
 حوله حلقة وكل رجل واضع يديه على حقوى امرأة وكل امرأة واضعة يديها على
 حقوى رجل، لكن مع الانتصاب والاعتدال، لامع الانحناء، ويمشون رويداً والنساء
 يضربن أرجلهن ببعضها لترن الخلاخيل التي في أرجلهن ومشيههم كلهم في الدائرة
 على نظم نقرات الطبل، ويكونون أيضاً كدائرة والمغنيات خارج الحلقة.

ولما التنديجا: فهي لعب البرق والنور^(١) وهو أشبه بالتوزى ولما التفرق
 بينهما في كون أن التوزى يمشون فيه رويداً والتنديجا بحركات عنيفة.
 وبالحقيقة العبارة لا تفي بذلك لأن المشاهدة شيء آخر، فربما يرى المشاهد
 شيئاً لا يمكن التعبير عنه) ولكل رقص من الأرقاص غناء مخصوص، فاما غناء
 الجيل فمنه قولهن:

يُوبَانِي هِي يُوْبَانِي

الليل بوبى^(٢) يا المقاتل^(٣)

أنا راسى اندام^(٤)

الليل بوبى يا المقاتل

أنا راسى اندام

^(١) أصل أن ذكر المؤلف أن هذا الرقص هو رقص النور ولم يذكر البرق معهم، لاسيما وأن ألعاب النور تختلف عما من ألعاب البرق.

^(٢) الليل بوبى، عبارة تدل على صاحبة الحور.

^(٣) المقاتل المقصود به هو الحور.

^(٤) أنا راسى اندام بمعنى أنا صاحب راسى النور من شدة اللهاج والمقتل في عالم الحور.

وهذه الكلمات: يوباني هي يوبتين* لاتعنى شيئاً لكن واحدة منهن تتشد وتقول:
الليل بوبى يا المتقال* فتقول النساء الاخر* انا راسى اندار* ومنه قولهن:

الليل بوبى

دارفور جفت^(١)

انا راسى نوى^(٢)

ومنه قولهن:

فرع الحانية^(٣)

سينر الجانية^(٤)

وبلغريما الصنل^(٥)

فى يوتاقا مرمدل^(٦)

ولما غناه اللنجى فمنه قولهن:

يا عيال جيو المال فيض^(٧)

دللمنج ودببة

صرا دمرز الخيل فى كرو

فيض دلومج ودببة

^(١) أى ان دارفور أصبحت حافة أى طرفة نظرا لعدم تعاطف الحبب معها.

^(٢) راسى نوى* أى طلعت الحرم والية على معاصرة دارفور بحذاء الاحاب لها.

^(٣) فرع، نضمر فرع، والحانية أى الشجر وهو لقب الحبب بالحبس الغمر لطرفة شابه وحسن معشره.

^(٤) سينر الجانية. أى سب لها الطون

^(٥) فرع الصنل. وهو لقب للمحبوب بفرع شجر الصنل لطلب معشره.

^(٦) دغل... أى الحق اعترفاً وحباً للشعوب.

^(٧) صرا دمرز الخيل. أى اجمعوا الخيل بالقوة والشجاعة والحرب كما فعل دلمنج وه مية: وهو من الاموة مية من السلطان والسدى

طلب الادب من السلطان محمد فضل بالامارة على لبال الغربت فطلب قرقيل الى غربه كرو فقلت فقلت هذه الامة مدحسا له

ينظر: Voyage au Waday.P.430

ولما غناء التتدنجبا عند الفور فمته قولهن:

باسى طامى دقلا^(١)

بى لبا ودعجج أبا^(٢)

كتاب مصحف كيج حلبى فيا^(٣)

ترعلى كى رولا^(٤)

فاتييجا مدى صتل جواجى^(٥)

ولو تتبعنا غناء أنواع الرقص لطلال الحال.

فبعد أن يأكلوا ويشربوا يزفون العروس بالثلوكة ويلفون بها حول البلد،
ويأتون بها للمحل الذى أعد للدخول عليها فيه، ثم بعد العشاء بكثير يجتمع^(٦)
الشبان ويأخذون العريس ويذفونه بالغناء والرققة حتى يأتوا به^(٧) إلى المحل
المعلوم، فيجلسون خارجه، وحينئذ جميع الشابات مجتمعة مع العروس والشباب
مجموعون عند العريس، وقد استوزر العريس أعز إخوانه لأنه حينئذ كاتسلطان،
واستوزرت العروس امرأة وسموها: ميرم فبعد أن يجلس الرجال مع عريسهم
يطلبون الميرم، فلا تخرج لهم إلا بعد نحو^(٨) ساعتين، فيتقدم لها الوزير ويسلم
عليها بلطف ويلتمس منها حضور العروس فتقول لهم: من أنتم ومن أين جئتم،
وماهى العروس التى تريدون؟ فيقول الوزير: أما نحن فضيوف وقد جئنا من بلاد
بعيدة ونريد الملكة تؤانس ضيوفها، فتقول له: أما الملكة مشغولة بشغل عظيم، وها

^(١) باسى بمعنى لى، ودقلا، بمعنى لولاد.

^(٢) بى لبا ودعجج أبا.. بمعنى أنت الاب وصوتك لولادك.

^(٣) كتاب مصحف نيج حلبى فيا أى القصة التى ولولادك على المصحف.

^(٤) ترعلى كى، رولا.. أى كضلعك بلدة كوية وتعلم منها.

^(٥) فاتييجا صتل جواجى.. أى ترحبنا أى الترحيب ومدى معنى حياة وصقل نبح لولادك وجواى أى لولادك وحسن جوارى والى صوما

مرا انكم بالولاد الامو طامى.. قد حلقتم القسم لكم وادركم الامون بصلكم حسن ولعلكم حتم الامون وتعلمم بصلكم مدية كوية

وتعلمكم على صغرنا. بطر Voyage: P.233,234,431

^(٦) فى الأصل لجمع الشبان.

^(٧) فى الأصل .. ياتون به..

^(٨) من هنا ر كلمة "ساعتين" وحق عبارة: فى الرمل فى المصنف القليلة مخط من المخطوط.

لنا وكيلتها في ضيافتكم وقرانكم^(١) وما يلزم لكم، فيقول نحن نعلم أن فيك البركة والكفاية، لكن لنا معها كلام لا يمكن إفساؤه لغيرها فنقول له: إذا كان كذلك فماذا للملكة؟ وماذا لي؟ لأن عانتها لا تبرز من حجابها، ولاتأتى لطلابها إلا بجمل فيقول: لها المال والأرواح وكل ما طلبته.

فلا يزال يحاولها وتحاوله حتى يتراضيا وهذا كله والعروسة قريبة منهم وراء ستارة لكنها لا تتكلم بشيء، والعريس أيضاً ساكت كذلك، والمحاضرة بين الاثنين، فإذا وقع التراضي رفعت الستارة فتخرج العروس فيقول الوزير: أما الملكة فللملك وماذا لنا نحن؟ فتأدى الميرم للبنات التي مع العروس فيحضرن وتقول لهن: أيتها البنات أريد منكن في هذه الليلة أن تؤانسن لضياف الملكة فيتن لها: حياً وكرامة (وحيثما تتقدم الميرم) وهي تعلم كل صبية ومحبوها فتقول: يا فلانة كوني مع فلان، وأنت يا فلانة كوني مع فلان، وهكذا حتى لا تبقى إلا التي لا محبوب لها، أو التي لا محبوبه له، فيأخذ كل شاب محبوبته ويبعث معها، وأن سمعهم المحل الذي هم فيه.

وصورة ذلك أن يبست العريس وعروسه، والميرم والوزير، وكل زوجين معاً صفاً أو صفين على حسب سعة الموضع، وإن لم يسع الموضع جميعهم بقي من وسعه المحل مع العروسين، وذهب الباقي، وكل شاب منهم يأخذ محبوبته، ويتوجه بها إلى بيتها أو إلى بيت بعض أحبائها، ولا يذهب بها إلى بيته، لأنها لا ترضى ذلك، لأن عانتهم إن الشاب متى أحب صبية وعلمت أمها بذلك، لا تقبله أبداً ولا يقابلها، وإذا رآته في طريق ولم تر لها مخلصاً منه بركت في الأرض وسنلت ثوبها على رأسها ووجهها حتى يمر وهو كذلك يفعل، يعني: إن رآها وعرفها يرجع على عقبه هارباً إن أمكنه ذلك، والا لدار وجهه لنحو حائط أو شجرة حتى تمر، ثم يرسل لها السلام إن كان معه أحد، وكذلك هي تفعل بعد مروره، وإن لم يكن معه أحد ترسل له السلام إن كان معها أحد، وهذا كله عندهم من نوع الحياء والتعظيم. وعندهم أهل الزوجة محترمون فأمها كأمه بل أشد احتراماً، وأبوها كأبيه بل أشد، وإخوتها كإخوته، وهي مثله في ذلك إذا رأت أمه وأباه فمرت، وسلكت

^(١) وقرانكم من القرية وهو إتمام الضيف.

طريقاً غير طريقهما، وترسل السلام إليه أو يرسل إليها ولا تواجه منهما أحداً وتعتبر أباه كإبيها وهكذا مثل ما ذكرنا في الرجل) ولذلك تذهب مع محبوبها إلى محل آخر ولا ترضى أن تذهب معه إلى بيته، بل إن ضاقت الأماكن بكثرة الناس وليس هناك دار سوى دار أبيه لا تذهب معه إليها، بل يذهبان إلى الخلاء ويبيطان فيه.

ولما دار أبيها من حيث أن لها محلاً يُغذُّ لذلك، فبييت معها فيه من أرادت ولا يراها أبواها فإن الرجل يذهب معها إليه ويخرج عند الفجر، وأما وأبوها نائمان، فلا يراه أحد منهما.

ولنرجع إلى ما نحن بصدد، فنقول: ثم يبيتون تلك الليلة فإذا أصبح الصباح قامت كل صبية وتوجهت إلى بيت أبيها فتصلح شأنها، أعني: أنها تغسل وجهها وأطرافها بل ربما اغتسلت، ثم تتطيب وتكحل وتجدد زينتها، وكذلك العروس تدخل عند أمها فتصلح شأنها، وكذا الرجال يذهبون إلى ديارهم إن كانت قريبة، فإن كانت بعيدة كانوا من بلد أخرى يذهب كل منهم إلى دار صاحب له، فيصلح شأنه هناك، وكذلك النساء إن كانت المرأة من بلد أخرى تذهب إلى دار صبية لها، تصلح شأنها فيها، لأن الشابات اللاتي حضرن للعرس مع كل شابة منهن كحلها وعطرها وما تحتاج إليه، فتصلح شأنها ويجلسن حتى يقرب الضحى، فتأتى العروس إلى محل الزفاف والعريس غائب عنه، أعني عند قيامه لاصلاح شأنه هو الآخر فتقمه^(١) وتتخلفه وتقرشه وتبني مجالسه: هي وبعض صواحبها فيأتى العريس فيجده نائماً فيجلس هو ووزيريه وتقبل عليه الشبان فيجلسون معه. ثم أصحاب العرس بالخيار، إن شاموا جعلوا السبعة أيام كلها بالرقص والفلوكة، وإن شاموا اقتصروا على يوم واحد، فإن ظهر اقتصارهم جلس الضيوف إلى وقت الغداء، وبعد تناولهم الطعام رجع كل منهم إلى بلده، ولم يبق إلا أهل البلد الذي هم فيه، وإن لم يروا الاقتصار وعلموا أن أصحاب العرس يريدون أن يمتد عرسهم إلى السبعة أيام أقاموا، ويظهر ذلك بتجديد الزبائح وعصر الخمر والتبوير^(٢).

^(١) فقمه... أي تكه وتأخذ فمته، (العروس)

^(٢) والاصل: "بوالهوى".

تبيحة:

اعلم أن أهل كل بلد من البلاد الذين دعوا إلى مثل هذه التولية يأتون إما ببقرتين أو ثورين أو ثور أو بقرة أو بشيأ إعانة لصاحب التولية وإن كان لهم أقارب خارجين عن بلدتهم ودعوا، يأتون بأثوار أو بقر غير ما يأتي به أهل بلدتهم إعانة، ثم يمكثون نهارهم كله في لعب وضحك وانشراح واكل وشرب وطيب محادثة إلى العصر، فتُضْرَبُ الطبول التي هي الدلوكات، ويفعلون مثل ما فعلوا في اليوم السابق حتى الليل، فيأتيهم الطعام والشراب، وبعد فراغهم من ذلك يجتمعون رجالاً ونساء في محل الزفاف فيتحادثون حتى إلى منتصف الليل، ثم يأخذ كل شاب حبيبته ويبيت معها حيث باتا أمسهما، ويبقون على ذلك المدة المذكورة.

وإذا أعوز الأمر إلى الذبائح بأن كان ما أعد للذبح لم يكف من حضر، خرج أبو العروس أو أخوها أو أحد أقاربها إلى المرعى فكل ما وجد من البقر أمامه عقر منها ثوراً أو ثورين أو بقرة أو شيأها، وبعد العقر يرسل الجزارين فيذهبون العقير، ويأتون بلحمه إلى الضيوف، وهكذا فإذا بلغ الخبر صاحب البقر فلا يخلو، أما أن يطلب الثمن فيرضونه أو يسكت حتى يبقى له عرس أو لأحد أقاربه، فيعقر هو الآخر ما يريد من بقر من عقر بقره، ودقة بدقة.

ولذلك إذا عمل عرس تخاف أرباب المواشي من العقر فيأمرون رعيهم أن يبعدوا بها في الخلاء لأنهم لا يعقرون إلا من الأموال القريبة المرعى وهذه سنة جارية فيهم.

وفي تلك المدة تكون العروس كاتملكة وصواحباتها معها في لعب وانشراح والعريس كذلك.

ومن عاداتهم: أن العريس لا يفتض عروسه الأبعد السبعة أيام، مع أنهما بيتان متعلقين لاحائل بينهما، ويجعلون ذلك كرامة لها، ولأبويها لأنهم يقولون الليلة الأولى في كرامة أبيها، والثانية في كرامة أمها، والثالثة في كرامة أخيها إن كان لها أخ أو اختها وهكذا حتى تتم السبعة أيام، ومن استعجل وفض قبل تمام ذلك غيبا عليه وقالوا: قد استعجل ولكن من المحال أن يفتضها قبل ثلاث ليال.

عجيبته:

من عوائدهم: أن المرأة لا تأكل أمام زوجها ولا غيره من الرجال. وإذا دخل زوجها وهي تأكل قامت وفرت، وهذا عندهم من أكمل الحياء، ويقبحون على المرأة التي تأكل أمام الرجل، وحين كنت هناك ورأيت ذلك قلت لهم: تستحي من الأكل مع الرجل ولا تستحي من النوم معه، وأنه يدخل بين شعبها ويولج فيها، ويرى فرجها وما هي عليه؟ قالوا: ذلك لا ضرر فيه، وأما أن تفتح فاما وتدخل فيه الطعام أمام الرجل فهذا شيء قبيح، انتهى.

ومن عاداتهم أن الرجل لا يأخذ عروسته ويبنى بها في بيته بل في بيت أمها وأبيها ولا يخرج معه حتى تلد ولدين أو ثلاثة، فإن طلبها للنقطة معه قبل ذلك أبت عليه وربما وقع الطلاق بينهما بسبب ذلك.

ومن عاداتهم: أنها لا تذكر اسمه على لسانها أبداً، بل دائماً تقول قال لي كذا وكذا فإذا سئلت: من الذي قال؟ تقول: هو حتى يولد لهما فتى ولد لهما قالت: أبو فلان أو أبو فلانة باسم من يولد، إن كان ذكراً أو أنثى.

ومن عاداتهم: أن الرجل لا ينفق على المرأة بعد الزفاف إلا بعد سنة، فإن جاء بشيء قبل السنة، جاء به على سبيل الهدية، مع أنه لا يأكل إلا أعز مما يأكلون، فيمكن أنهم طبخوا شيئاً قبيحاً لهم من المأكول الرديئة وينبحون له دجاجاً أو حماماً أو لحماً.

ومن عوائدهم: أن الرجل مدة ما هو في بيت أبي زوجته يصنعون له طعاماً جميلاً جداً غير العشاء يتناول به بالليل إما مرة أو مرتين أو ثلاث، ويسمون الأول بلغة الفور جرى جراتج، والثاني: تارنجا جيسو، والثالث: صبح جلو، ومرادهم بذلك تقويته على الجماع، وأما اسمه بلغتهم العربية ورائية، وأكثر الأغنياء يأكلون بعد أكلهم العشاء لأنهم ربما جاءهم ضيف، فلم يتمكن من الشبع، لحياته من الضيف أو كان العشاء غير جيد، فلا بد له من ورائية.

ومعنى قولهم: جرى جرائج: انزع القمص، فان جرى معناه لميص
وجرائج معناه: انزع وتلنجا جيسو معناه: مسك الرجل، فان تارنجا معناه: رجل،
وجيسو معناه مسك وصبح جلو معناه طلوع الفجر.

وأما الورانية: فهي عربية منسوبة لوراء ضد الأمام، لأنه يأكلها وراء
العشاء، ولهذا تجد بعض الناس إذا كان عنده من يعز عليه من الإخوان، وحضر
العشاء معه وأراد أن يقوم يمنعه حتى ينفض المجلس ثم يدعو خادمه ويقول: هل
من شيء يؤكل فيأتيه الخادم بالورانية، فيأكلان معاً، وهذا لا يفعل إلا مع أعز
الأصدقاء، وهذه الورانية تنفع أحياناً للضيف المفاجيء بالليل الدلجى، وهذا كله إن
كان عرساً.

فإن كان ختناً فعلوا ما ذكرناه من استحضار الأطعمة والتمزير ولم يلبس
والدينزايا ودعوا الناس، ورقصوا على الدلايك وزفوا المظاهر^(١) وجاء المزيّن
فختته وأبوه واقف، فإن بكى المظاهر نفر أهله منه وتركوه ومضوا، وإن صبر
حان الختن ولم يبك قال أبوه: اشهدوا يا أهل المجلس إنى أعطيت ولدى بقرة أو
ثوراً أو عبداً أو أمة مما يقر عليه، وقالت أمه كنك وكل من حضر من أهله يهدى
له شيئاً، فإن كان أهله أغنياء ناله فيهم شيء كثير، فيصير غنياً، وذلك كنه بحسب
غناء أهله وفقرهم، ثم يجتمع لترابه فى ثالث يوم الطهور ويأخذون المسفاريك^(٢)
ويجوسون خلال البلد يضربون الدجاج فيقتلون دجاجاً كثيراً، وفى رابع يوم التلى
اليوم السابع يذهبون الى البلاد المجاورة لهم، فلا يرون حاجة الاقتلوها وكل يوم
يتوجهوا لبلد يقتلون دجاجها وأصحاب الدجاج لا يرون بذلك بأساً.
وإن كان خفاضاً فعلوا فيه كل ما ذكرناه الا الدجاج فلا يقتلونه، والخفاض
لا يتغالون فيه كالختن، ومما ذكرناه يعلم الواقف على رحلتنا أننا استقصينا جميع
ذلك لتمام الفائدة وحسن العائدة.

^(١) المظاهر: أو المظهر: هو المهنود.

^(٢) المسفاريك: جمع سفرك وهو عبارة عن سلاح ينطع من الفخار كمنجل نمر.

واعلم أن أهل دارفور لا يستقون بشيء من أمورهم بدون النساء بل اتسهن
بشاركتهم^(١) في جميع أحوالهم، إلا في الحروب العظيمة، ولذلك فإن عرساً لا يتم
إلا بهن أو حزناً كذلك، ولولاهن ما استقام لأهل دارفور شيء، فترى النساء
يحضرن في الأمور المهمة.

ومن ذلك: الأذكار وهي على ضربين، ضرب يفعلُه أهل البلاد المستعربين
أعنى من ليسوا بعجم، وضرب يفعلُه أعجام الفور. فاما الأول: فهو ما كان على
طريقة شيخ من الصوفية أو ولى من الأولياء، وعلى كل فتحضر حلقة الذكر امرأة
تتشد لهم والنساء خلفها وقوف لا يتكلمن، بل ينظرون أزواجهن وأقاربهن ليعلن
أيهم أحسن ذكراً، وقد ينشد رجل والنساء يسمعن كبتية الرجال.

ومن ذلك ما وقع أن تلميذ الشيخ دفع الله حضر حلقة ذكر تلاميذ الشيخ
يعقوب وبين تلاميذ الشيخين معاندة، فلما حصى الذكر أراد أحد تلاميذ الشيخ يعقوب
أن ينكت على تلميذ الشيخ دفع الله قال:

الماعندين شيخاً فر اجاباً^(٢)

لا يدخل سرقة وشاباً^(٣)

الماعندين شيخاً مهيباً

لا يدخل حلقة يعقوب

^(١) في الأصل: .. تشركهم.

^(٢) فرحله: أي مارك بمس القاصد.

^(٣) لا يدخل سرقة ونظماً: أي لا يرض عنه للمعلم.

فسمع تلميذ الشيخ دفع الله وعلم الله عنه بذلك فقال:-

ندخل وفرق متعالي

بالبينة والعمل الصالح

دفع الله فوقى طوائف^(١)

ناضرة:

حضرت امرأة في حلقة ذكر وأنشدت:-

فصلى ليكم من رسة دواني

وأنا عزبتة بيني طرفاني

يلتفترا ما ليكم زاني

فسمعها الذاكرون وكان فيهم شاب فهم اتعنى وكان يقول: الله، فصار يقول: أنا
زاني أنا زاني^(٢)

ولما أعجام الفور فيقتون في الذكر صفين أو حلقة، وكل منهم خلفه صبية والنساء
ينشدن وهم ينكرون وتكرهم كرير، فمن انشادهن قولهن:

كرو كرو بي عالما

صح ليج كوي جنة

صح ليج كوي

^(١) "تعنى" من مدخل حلقة الشيخ بنفوس وخرج منها مثالي وذلك بحصل لسان الطيبة وأعمال المعاشة والمطيل رعاية الشيخ دفع الله
لها.

^(٢) خلق مختلفا كتاب تشييد الامعان على هذه العبرة بلوغها بفتح من هذه العبرة أن التواصي كان يهبط أحياناً إلى مستوى لا يليق به
في أخبار رجسته الطيبة ولا يستطيع الفنان أن يعاها لتسبوا لاهتمامه لهذا النوع من التواصي والثناء ومع هذا فإن الاعتدال الزائدة في هذه
النبرة لم تكن تستغرب من طبع بعض بني البشر لو من طبعه، وهذا ما ذكرناه أحياناً من أن التواصي كان شيئاً مرتفعاً في شأنه ورجسته
هذه وهذا لأنه لا يسمو من الشارب منه والذين يملكون إلى مثل هذا النوع من الأخبار الخبيثة.

ومعنى ذلك: كرو معناها شجرة وكرؤ معناها: خضراء وعالمنا نما معناها ظل العلماء. وصح لنج كوبي جنة، صح لنج كوبي: صحيح نمشى الى الجنة صحيح نمشى الى الجنة.

ومعناه ان الشجرة للخضراء ظل العلماء ونحن ندخل الجنة حقاً ندخل الجنة حقاً. ومنه قولهن:

جبرائيل ميكائيل

كل سب ملكا الجنة

ومعناه:

جبرائيل وميكائيل كل حسنة يملك بها الانسان الجنة.

ومنه قولهن:

لله قويا^(١) لله

شهر رمضان الله اندو

كالنارنية

ومعناه:

يا أماء الله، شهر رمضان دواء الله فافرحوا به ومثل هذا كثير لو تتبعناه لخرجنا الى الاسهاب وجلبنا الملك لأولى الابواب، وفيما ذكرناه كذابة لكن من حيث اننا نكلمنا في التزويج وما يتعلق به، عن لنا لنا نذكر نبذة في حجاب النساء وهم المسمون في مصر بالطواشية وبأغوات الحریم، وبالتركية مزلر أغالر، لانهم امناء على الحریم.

^(١) لونه أي ملته

الفصل الثالث عشر

في الخصيان المعروفين في مصر بالطواشيت

لما كان الحق سبحانه وتعالى غيوراً على عباده ومخارمه منتقماً ممن تعدى حدوده بارتكاب مائمه، وكانت الغيرة وصفاً من أوصافه، ولذا حرم الظلم على نفسه وخلافه، جعل الغيرة ركيزة في طباع بني آدم من زمن سلف وتقدم، وأول من غار قابيل على أخته إقيما لما أمر آدم أن يزوجه من هابيل ويزوجه من أخته زميما، كما ورد بنص القرآن^(١) بل توجد الغيرة في غير بني آدم من الحيوانات فيغير^(٢) الحيوان على أنثاه، وتحصل المعاركات سيما والنساء لكثير شبقاً وغلماً ولا مروءة تمنعهن ولاهمة، وكان بعض النساء بلغ من الغيرة أعلاها ولزقتن إلى منتهاها حتى أن بعضهم يغار على محبوبه من عيون الفرجس أن رآه كما قال الشاعر من الكامل:

غضى جنونك يا عيون الفرجس منك استحييت بأن اقبل مؤنس

فأمر الحبيب تذبذبت وجنانه وعيونك كن شواخص لم تقس

وبالغ بعضهم حتى أنه غار على المحبوب من نفسه ومن الزمان والمكان كما قال الشاعر:-

اغار عليك من عيني ومنى ومنك ومن مكانك والزمان

ولو أنى وضعك في جنوني إلى يوم القيامة ما كانى

^(١) "والله أعلم بما أوحى إليهم من الحق لا فرما فرما فقل من أحدهما ولم يفل من الآخر قال لاقلنك قال إنما يقول الله من الغفلة، لكن بسطت إل ذلك لعلني ما أنا بسط يدي لك لاقلنك أن أحرم الله رب العالمين، أن لربك أن نوء بالي وأنت تكون من لمحبس النار وأنت مراد الظنون، فطوت له قلبه قال الله فقله فصيح من الخاسر" سورة النجمه الآيات ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩.

^(٢) "هو الأصل يغر من غار واستعمل المؤلف صيغة يغر المصيح للامساك والتمويه بهو ولعله بذلك وبه العرفه من لغوه الامساك ولغوه الخوانه

ومثل قوله من الواقف:-

فلو أسمى على ثلثي مصرأ لقلت معذبي بالله زلنى
ولا تسمح بوصولك لى فانى اغار عليك منك فكيف منى

وارتقى بعضهم لى أعلى المبالغة فغار من الضمير حيث قال:-

اغار عليك من ضميرى فياله هو رانى حتى اهتمت جوارى حتى

فتحيل الناس فى حراسة الحريم، لما عندهم من داء الغيرة المقتد المقيم فما راوا
أحسن من حراسة انسان يكون مقطوع أعضاء^(١) التماسل وهو الذى تطمئن اليه
النفوس فى العاجل والأجل، واكثر الناس احتياجاً لذلك الملوك والأمراء، لأن كل
واحد منهم يجمع ماكثر عليه منهم بلامراء، ولما كانت ملوك السودان أكثر الناس
للنساء جمعاً وابدلهم فى ذلك وسعاً، وكان يوجد عند الملوك من الخصيين عدد
كثير وجم صغير فيوجد عند سلطان الفور نحو الألف أو الأكثر وعليهم ملوك منهم،
وهم له كالعسكر وهو الذى يرتب فى بيت السلطان مايلزم منهم للحراسة، ويبقى
عندهم مازك على احتياجه الى وقت الحاجة، ومع ذلك فلهم فى دارفور مقام
ومقام، وحال لايمائله حال حتى أن لهم هناك منصيين جليليين لايتولاهما غير
خصى، أحدهما منصب الابوة^(٢) والثانى منصب الباب واقول:

إن منصب الباب غير مختص بدارفور بل فى تونس وفى البسطنطينية كذلك.

فكثرة:-

مماوقع من عتوهم وتجبرهم أنه اجتمع بعض أمراء الفور فى محل الشرايح
ونزهة وانبساط، وكان فيهم خصى فجعلوا يأكلون ويشربون والخصى كواحد
(منهم) فالتق أن واحداً منهم معه منديل من حرير، فأبرزه فى المجلس وقال: هل
تعلمون فى أى شيء يصلح^(٣) هذا المنديل؟ فقال أحدهم هو يصلح لمسح العرق

^(١) فى الأصل: التماسل..

^(٢) منصب الابوة هو منصب الأب قبيح، ولد من حرمة أو شاة هذا الكلمة.

^(٣) فى الأصل:..ذلك يصلح..

وقال الآخر هو يصلح للتجميل، والزينة، وقال آخر هو يصلح لأن يجعل على صدر انثى جميلة، وطلق كل واحد منهم يقول ما بدا له، وصاحب المنديل يقول: لا، ولما أعياهم امره قيل له: قل لنا أنت في ماذا يصلح، فقال: هذا يصلح للمسح بعد الجماع، فاستحبوا قوله وسكتوا، فما راعهم ألا أن قام الخصي من بينهم صالفاً سيفه يروم قتل صاحب المنديل وقال (له): (الك) تعرض بي بأني مقطوع ولا بد من قتلك، فقاموا إليه وتطفوا به وهو لا يرجع عن قوله حتى أرضوه بخيولهم كلها، وكان الخصي حليفاً لابن السلطان تيراب والذين اسلفنا ذكرهما^(١)

وبلغ من عتوهم لن الشيخ محمد أوردكا كان في أيام السلطان تيراب في منصب الأبوة ومن عادة الأب أن يتوجه لبلاده ومحل حكمه في كل سنة في فصل الربيع ويجمع أهل البلاد في يوم واحد ويعرض الرجال ويرى العساكر، فاتفق أنه جمعهم في يوم شديد الحر في رحبة واسعة أمام داره ولم يخرج لهم حتى قالت القائلة^(٢)، فخرج في ألبته راكباً جواده والعبيد يظلّلونه من حر الشمس ويجلبون له الهواء بالمراوح، وخرج العسكر وصفوا الناس صفوفاً كدائرة وهو واقف ينظر إليهم^(٣)، وقد اشتد الحر وأمر الناس بالتجني على ركوبهم^(٤)، بوسلحهم ودرقهم في أيديهم، فكان الإنسان منهم لا يستطيع التجني لشدة حرارة الرمضاء، ومسال العرق وكثر التلق، ومكث ملياً لا يأمر بأمر، ولا ينهي عن شيء، وعطش الناس وأخذ منهم حر الشمس أكبر مأخذ وهم صابرون على ما قضى الله عليهم حتى مات بعضهم من العطش، ولما رأى قلق العالم وتحيرهم أعجبه، وضحك وقال بلسان الفور توت يوماً عبوساً قهظيراً^(٥)، وكررها مرتين أو ثلاثاً، وكان العالم مجتمع في تلك الجلدكا^(٦) ماينوف عن عشرين ألفاً، وكان فيهم رجل صالح يقال له الشيخ حسن الكو^(٧) فبرز له وقال: أسكت يا كافر ثلاثاً، فأخذه الرعب من الشيخ المذكور، وولى

^(١) مثل ذكرهما في كتاب تنمية الأدب.

^(٢) قالت القائلة: أي تصفهم وأنت حررة الشمس.

^(٣) في الأصل: "واقف ينظرهم".

^(٤) مكث في الأصل: "واصواب على ركوبهم".

^(٥) بلغة الاستهزاء بالأكبر كما "أنا أقول من رما يوماً عبوساً قهظيراً" سورة الاسراء الآية (١٠).

^(٦) الجلدكا: بمعنى جماعة للعرص.

^(٧) الكو: بلغة دارفور نوع من الخيل الضويل، يستعمل في ماء الصافي السكدة.

هارباً ورفع الشيخ يده الى السماء وقال: اللهم ارحم عبائك، فقام كلامه حتى ارتفع السحاب مثل الجبال ونزل المطر وتفرق الناس وكان يوماً مشهوداً.
وسبب غضب الشيخ هو أن السلطان قد مثل نفسه بالآله، ومثل عرض الناس عليه بعرضهم للحساب، ومثل شدة حر الشمس بشدة حر يوم القيامة، ولذلك استشهد بالآية الكريمة.

ناحية:

حكى أن الشيخ أردكا المذكور كان قليل العقل، ومن قلة عقله أنه لما تولى منصب الأبوة أمره السلطان تيراب أن يقرأ ليتعلم القراءة والكتابة، فأحضر فتيها يعلمه فكتب له حروف الهجاء وصار يقرأ عليه في كل يوم، واستمر على ذلك مدة أيام ثم إنه ذات يوم طلب المصحف فجاء له به فتصفحه ونظر في السطور فرأى وأوا مفردة فعرفها وقال للفتية: إيمان وار، أى هذه الوار، فقال الفتية نعم، فقال: قد ختمت القرآن، وأمر بذبج الذبائح وضرب الطبول وصنع وليمة عظيمة فعدت هذه من طيشه وخفة عقله.

ونرجع الى ما كنا بصدده فنقول: ومع كثرة الخصيان في دار السلطان لم يسلم من الدنس لان النساء شياطين لا يغلبهن غالب، سيما وقد قام عندهن بدواعي كثرتهم في بيت السلطان وهن في من الشباب والراحة وحسن المأكول والملبس، فللغيرة فيهن نصيب أوفر ولما سجن في هذا السجن عملن على دخول الرجال بكل حيلة، فمنهن من تصاحب الرجال من الخدمة الذين بالباب، ومنهن من لها عجايز يأتينها بالرجال بحيلة، وهى أن العجوز تتأمل في الفتيان حتى ترى الشاب الجميل الذى لا يبات بعرضيه فتتحيل عليه بلطف حتى تأخذه الى دارها، ومن المعلوم أن شبان السودان لا يحلقون رؤوسهم بل يوفرونها، فتشبه الوفرة لهم شعر النساء فتتحيل عليه العجوز وتجعل وفرته ضفائر كضفائر النساء، وتلبسه حلية كحليهن من عقود وتمايم ومدارع ومنجورة، وتلبسه دراعة وفردة ثوب بحيث لا يشك رائيه أنه امرأة، وتتخله دار السلطان بين نسائه فمتى ما ولج ذهب خوفها وسلمته لمن

أنخلته برسمها، فيمكث ما شاء الله أن يمكث فلن ستر الله عليه خرج كما دخل. وإن
عثر عليه قُتل ولا يعثر عليه إلا بأسباب^(١)

منها: أن تعلم أمره إحدى ضرائرها فتطلبه منها فتأبى هي بخلافه أو لا يرضى هو
أن يذهب، فحينئذ يحملها الغيظ على أن تقتل به فيعثر عليه.
ومنها: أن السلطان يأمر بالتفتيش فيحضر العلوانية كلهم ويفتش معهم البيوت
ومن وجدوه قتلوه.

ومنها: أنه يزق من طول المكث فيخرج وحده فيعثر عليه البوابون وهو خارج
فيقتلونه، وإن ستر الله عليه خرج، وأغلب من يدخل بالصفة التي ذكرناها لا يخرج
إلا بالليل أو مع نساء كثيرة وهو في وسطهن.

ومن العجائز من يتحين في خروج النساء من بيت السلطان بأن ينكرن المرأة
فيهن بشباب مهنة قنرة ويخرجنها أمام الناس جباراً، فإذا عثر بها البواب أو أحد
الخصيان قيل له: هذه امرأة مسكينة كانت دخلت معنا تنمس معروفاً، ومنهن من
يدلس عليها الخصيان، وذلك لا يكون إلا إذا علم الخصي أنه إن عرض انفتح له
فهوى فقتل فيه، فحينئذ يسكت قهراً عنه وتدخل المرأة وتخرج وتدخل من شامت
ولم تخش بأساً.

ومن ذلك ما وقع من بعض محافظي السلطان صابون مع ترقنك محمد ابن
عمها وسنكر ذلك في سيرة السلطان صابون سلطان دار السوداى أن شاء الله
تعالى.

واعلم أن نساء السودان كثيرات الشبق والغلبة أكثر من غيرهن لأمر:

الأول:- لفرط حرارة الاقليم.

الثاني:- لكثرة مخالطتهن للرجال.

الثالث:- لعدم صونهن واستقرارهن في البيوت، فمن ذلك ترى المرأة فيهن لا تمنع
بزوج ولا بخليل واحد، على حد قول الشاعر من الهزج:-

^(١) ما بين الحاضر والماضي من الأصل.

أيا من ليس يرضيها خليل ولا التأخيل كل عام

أراك بنية من قوم موسى فم لا يصبرون على طعاع

الرابع:- لعدم اقتصار أزواجهن عليهن لأن الرجل منهن إن كان ذا قدرة تكح من الحرائر أربعاً، وتسرى بغيرهن من السراري، وكل ذلك على قدر حاله، والنساء شقائق الرجال والنفس واحدة في الشهوة والطبع خصوصاً وعندهن من الغيرة ما لا مزيد عليه فيتحيلن على الاجتماع بغير أزواجهن، وتأخذ كل منهن في ضروب من الحيل تتوصل لذلك إلى مرغوبها وإن كان لا يقدّر على التسرى فطمع نظيره إلى غير امرأته، فمتى علمت امرأته بذلك حداها حداي الغيرة على الاجتماع بغيره.

الخامس:- العادة لأنهن من صغرن قد تعودن الاجتماع مع أترابهن من الذكور حتى كبرن على ذلك، والعادة إذا استحسنت صارت طبعاً، فلذلك إذا تزوجت لا يمكنها الاقتصار على زوج واحد إلا من رحم الله، ومن حيث أن هذا الطبع مركوز فيهن، يصدر منهن ما يصدر، فلذلك لا يرى منهن من اقتصرت على بعها إلا القليل وكلما تقادم الزمن كلما كثر الفساد عندهم.

خاتمة:

ومن المجرب في دارفور أن النار إذا اشتعلت في دار واشتد وقدها وعجزوا عنه نادوا: هل من طاهرة؟ فتأتي امرأة عجوز لم تزن قط فتخرج كنفوسها^(١): وتشير به إلى النار فتعلقاً بارادة الله تعالى وهذا من مجرباتها. وحين كنت هناك وقع حريق في بيت جدة السلطان واشتد وحضر السلطان بنفسه وأرباب دولته فما أمكنهم إطفاءه ونادى منادى السلطان: هل من طاهرة: وتكرر النداء في البلد، فما قدرت امرأة تأتي لذلك الحريق، ومن هنا يعلم أنه

(١) الكفوس: ملءه والجمع كفوس وهو ليس نفسه تماماً لسان الصلوات في دارفور ووداي وهو عبارة عن طعنى مسوح مرمية نحو أربعة فراسخ وطوله نحو من ثلاثة أفراسخ، تأخذ المرأة وتدخل طرفه من الأمام والخلف في تربط مربوط في وسطها فتسدى طرفه الأمامي ليسر حورها من الأمام والطرف الآخر من الخلف وهو كالخياط عند النساء الشدد في ألبم الخمين:-

نظر التونسي: لتسهيل الألفاظ ص ٢١٢.

لا يوجد الآن فيهن طاهرة، ولكن سمعت بأن ذلك قد يوجد في أعراب باديتهم، ولما
نساء السودان قتل أن يوجد فيهن طاهرة، لأن المرأة منهن - حيث لا صل يردعها
ولا خوف يزجرها ولا دين تراعيه - تفعل ما لرائت، بل قد تتخر بكثرة الأصحاب
وتقول: لو كنت قبيحة ما جأني أحد، ولولا أني من الحسن بمكان ما اتنى للرجال،
ولرتكبوا من شأني الأهواي.

ومن العجب أن في بلاد العرب، إذا أسنت المرأة وكان لها ولد جليل نو
شهرة يمنعها عن ارتكاب الزنا وعن التطلع للرجال، لما لعلمها بعدم الرغبة فيها
إن كانت مسنة، أو لخوفها على مقام ولدها وجلالة قدره إلا نساء السودان.

فقد حكى لي من هو أعز أصحابي، وصونا لصحبته لا أنكر اسمه - أن
خال السلطان محمد فضل المسمى: محمد تيتل زوجته اخته وهي لمبوس أم
السلطان وعمرها نحو خمس وثلاثين سنة بامرأة من بيتها، وصنعت له مهرجائاً
عظيماً درع الناس للفرجة عليه، فأخبرني أنه كان من جملة المقترجين، قال بينما
أنا واقف إذ جاءت أم السلطان ومعهما سرب من النساء كنهن الغزلان، وهي
تمشي أمامهن، ومن خلفها، وهي كانت جارية بشعة للمنظر، مشوهة الخلق دنيسة
الأصل، لأنه لا يوجد في مكان دلفور أني أصلاً من البيوت الذين حسي منهم،
فصار كل من الواقفين يتعجب من صنع الله تعالى أن قُتِم هذه المرأة مع ما هي
عليه من قبح الذات والأصل على من من أحسن وجهاً وأصلاً وذاتاً وبهاءً
وجمالاً، قال: فنخلت على أخيها تيتل وكان وقت بنائه بعمره، فمكنت عنده برهة
ثم خرجت، قال فلم نشعر الابرين الخلاخل والحلى وعبق الطيب، فعلمنا أنها
خارجة، فوقفنا صفاً حتى إذا خرجت لم أشعر بها إلا وقد قبضت على يدي
وجنبتني للذهب معها، فأردت الامتناع وكنتي تعاصيت فدفعني النساء الثلاثي
خلفها، وكرهن أن يشعر الناس بذلك، فمشيت معها محاذياً لها وهي بجانبى قابضة
على فلما كنا في أثناء الطريق قالت: أنا تعبت، مع أنه لم يكن بين بيت أخيها
وبيتها أكثر من مائة خطوة، وقد بلغني أنها قبل اتصالها بالسلطان كانت من أقل
الجواري المبتذلات للمهنة، فكانت تأتي بالماء والحطب على رأسها من الخلاء،
والآن تعبت من مشي مائة خطوة قال: فقلت لها: من كثرة ما عانيت في هذا اليوم،

قال: ثم دخلنا الدار والخصيان واقفون على الباب لا يجترأ أحد منهم أن يتكلم، وقد عرفوني معها، فلما وصلت إلى حجرتها دخلت معها، فأطلقت يدي فجلست على فراش هناك وانطرحت هي على سريرها تتقلب يمنة ويسرة، وتهز منحورها بين يديها ثم قالت لي: إن بي صداعاً، فقلت لها: لا بأس عليك، قالت: فاقرا لي عليه، لعله يذهب فجلت إليها وقد علمت أن ذلك حيلة منها لمقصودها، وإن الكبر يمنعا أن تقول لي: هيت لك، مع أن جميع من كان معها من النساء ذهب، ولم يبق إلا أنا وهي، وهناك جارية جالسة خارج الباب إن احتاجت إلى شيء دعتها له.

قال: فلما أكرت من التقلب ولم تر مني ميلاً إليها، دعيتي لأقرأ على صدغها، فحين وضعت يدي على صدغها وابتدأت القراءة ارتعشت تحت يدي وصارت تضطرب اضطراب المذبوح وتقاوه، فشممت منها رائحة الطيب فاعشيتي وأخذتني ما يأخذ الرجل من النشاط، فهممت أن أعطاها فأتركني خوف من ابنها السلطان، لأنه متى وجد مع أمه أحداً قتله، وقد تكرر منه ذلك مراراً إذ كان يهجم عليها بغير استئذان، لكنها قد رصدت له أناساً يخبرونها بمجيئه، فلما كان عندها أحد تحيلت في إخراجه.

قال: وخفت أيضاً على نفسي، لأنني كنت سمعت أنها مصابة بداء الحصر وهو المعبر به عند الحكماء بالسيلان الأبيض، أعنى أن كل من واقعها ابتلى به سيما وقد شاهدت من مرض به منها.

قال: فحين أتركني الخوف من هاتين الجهتين برد ما بي قليلاً، وكانت قد أطلعت على حالي أولاً، فلما رأت مني الفتور ظننت أني جائع فدعت بجارية لها اسمها نراع القادر، وقالت لها أنت بطعام جميل، فأنت الجارية بتأمين في أحدهما حمام مقلو في السمن، وفي الآخر فطير بالعسل قالت لي: كُلْ كُلْ: فأبيت واعتذرت بأنني غير جائع فحلقت على فتأولت من الطعام وأعجبني وكان الوقت متأخراً، وكنت في تلك الليلة محتاجاً للطعام، وبينما أنا أكل إذ سمعت حركات عذيفة وكركبة، وجاء الخدم يهرعون ويقولون إن السلطان قد أتى، فقالت: خذوا هذا وأخرجوه من الباب الثاني، فأخذتني الجولري وأمرعوا في المشى حتى أخرجوني من الزريبة.

ومن لطف الله تعالى أن السلطان لم يدخل عليها من الباب الذي عاتته
الدخول منه، بل من الباب المذكور، وأوقف عليه حرساً، ودبر حتى أتى للباب
الذي خرجت منه، لأني بمجرد خروجي وانفصالي عن الباب رأيت نواصي الخيل
قد أقبلت، فوقفت على بعد أرى ما يكون، فسمعتة يقول للبوابين: من خرج الآن من
هنا؟ فقالوا: لأحد، فقال أحد الفرسان: أنا رأيت انساناً انفصل من هنا وأظنه كان
هنا، فقال جميعهم مارأينا أحداً، كل ذلك ولما وقف أسمع، وحمدت الله الذي
أخرجني قبل وصولهم، والالو وصلوا إلى الباب قبل خروجي كنت أول قتيل.

فحين سمعت منه هذه القصة تعجبت غاية العجب، وعلمت أن الخصيان
لا ينفعون الامع عدم عرض النساء، ومتى كان للمرأة عرض لا يقتر الخصي أن
يصنع شيئاً، فانظر يا أخي كيف وقعت هذه القصة من هذه المرأة مع أنها أم ملك،
ولو وقعت من غيرها لكان للكلام فيها مجال، فكيف بهذه^(١)؟ وبأجملته فالنساء
لاخير فيهن الا من حفظها الله ورحم الله من قال من التطويل:

ففيهن من تسوي ثمانين بكرة

وفيهن من تغلو بجلد حوارة

وفيهن من تأتى الننى وهو معس

فيضحي وكل الخير في صحن دارة

وفيهن من تأتى الننى وهو موس

فيصبح لى ملك عليك حارة

وفيهن من لم يست الله عرضها

إذا غلب عنها الزوج راحت لجارة

فلا ربح الله خاتمة النساء

واحرق كل الحائلات بنارة

وليعلم إن كل مصيبة تقع أصلها النساء، فكم بسببهن قتلت ملوك وخربت
ممالك وسفكت دماء، فبين لنا شياطين على حد قول الشاعر:

إن النساء شياطين خلقن لنا

نفوذ الله من شر الشياطين

^(١) مثل البعض على هذه القصة بأنها مبالغة من المبالغة ولما من المبالغات القوي ونسبته والله وخاتمته الحسنة، لانه لم يعرف من
هذه السيدة شيء من هذا القبيل في حياتها الطويلة، وعموم حديثه عن النساء في الدرر وروايت حديث مبالغ فيه ويكشف لنا ذلك انه
كان يرمي النساء الملعونات في مثل هذه النسخ والمبالغات وصنع المبالغات في هذا المجال.

غريسة:-

مقتضى انهم جعلوا الخصيان لصيانة الحريم عن الرجال، ان الخصيان امناء عليهن من طرف السيد، والأمر يخالف ذلك، فقد رأينا منهم من عنده عدة نساء يتمتع بهن، وأول من رأيت عنده ذلك محمد كرا، الذي أسلفنا ذكره.

وحكى لى من أتق به: أنه لما رأى الغلب عليه فى قتال السلطان محمد فضل كان عنده امرأة من من أجمل النساء فنبحها بالليل قبل موته لنلا يحظى بها غيره وهذه نهاية الغيرة.

ورأيت فى دارفور وفى الوداي كثيراً من الخصيان، كل منهم حظز نساء عديدة وسألت من أهل الخبرة ما يصنعون بهن، وهم كهن من حيث أن أعضاء التناسل مفقودة؟ فقل لى: أنهم يساحقون النساء ويشد بهم الحال وقت المساحقة حتى أنه بعض الأنثى وقت الانزال عضاً مؤلماً، وكنت إذ ذاك لجهلى بعلم الطب لصدق ذلك، لكن الآن لا أصدق لأن وظيفة العضو فقتت بفقده والعلة تدور مع المعول وجوداً وعمماً.

وكنت سألت أهل الخبرة عن كيفية الخصى، فأخبرنى بعضهم أنه يؤتى بمن يرك الفعل به فيضبط مضبطاً جيداً وتمسك المذاكير وتمسكاً أصل بموسى حلاً، ويوضع فى فى ثقب مجرى البول أنبوبة، صغيرة من صفيح لنلا ينسد، ويكون قد سخن السمن على النار تسخيناً جيداً حتى غلى، ثم يكوى به محل القطع، وبعد أن يكون محل القطع جرحاً حديدياً ينتقل جرحاً ناريماً ثم يداوى بالتغيير عليه بالتفتيك والأربطة، حتى يشفى أو يموت، ولا يشفى منه الا القليل.

فان قيل: إن فى هذا تعذيباً للحيوان الناطق، وقطعاً للتناسل المأمور بكثرة شرعاً فهو حرام، قلت: نعم، قد صرح غير واحد من العلماء بحرمة خصوصاً جلال الدين السيوطى رحمه الله، فانه صرح بالتحريم فى كتابه الذى ألفه فى حرمة خدمة الخصيان، لضريح سيد ولد عدنان^(١) لكن الحرمة على الفاعل،

^(١) يفتى الشيخ السوطى بهذا الكتاب حرمة إحصاء الرجال والمرافق الى لشدة الشهوة للاضطجاع للعمل فى خدمة محمد الرسول صلى الله عليه وسلم كما كان يفعل بعض السلاطين والملوك، خاصة سلاطين القور، ويقتل من هؤلاء اسم الاموات كما هو متعارف الآن.

والنما يخصى الخصيان قوم من المجوس، ويأتون بهم الى بلاد الاسلام فيبيعونهم ويهادون بهم ولا يخصى على يد المسلمين منهم الا القليل النادر.

وأما استخدامهم بعد الخصى فلا ضرر فيه بل فيه ثواب عظيم، لأنهم لو لم يستخدموا لحصل لهم الضرر من وجهين: الأول: ماوقع عليهم من الخصى الموجب لفقد اللذة العظيمة وقطع التناسل، والثاني: من ضيق المعيشة.

فإن قيل: إذا كان الأمراء كالمملوك ومن يجرى مجراهم يجمعون كثيراً من النساء في دورهم وكنهن شابات، ومن المعلوم أن الغيرة موجودة ليهن، كما هي موجودة في الرجال، لأنهن شقائقهم، فكيف يعاشرون بعضهم خصوصاً إذا أحب الرجل واحدة منهم، وأعرض عن غيرها؟..

قلت: إن العداوة واقعة بينهما على قدر أحوالهن فكل منهن تمني أن يخلو لها وجه زوجها، ولا يأنف سواها، لكن لما كن تحت قهر الزوج خصوصاً إن كان ملكاً يخفين البغضاء، ويظهرن المودة وهذه عادتتهن في إخفاء ما يبطن وانفسار ضده، ولا يظهر ما أخفت المرأة منهن الا إذا زال خوفها، وملك رشدها وحينئذ تظهر ما كان كامناً في صدرها.

فإن قيل: ما رتبة نساء السودان في الجمال؟ قلت: اعلم أن نساء السودان على اقسام في ذلك، ومن المعلوم أن كل قبيلة فيها الجميل والتقيح لكن هناك قبائل يوجد فيها الجمال أكثر وأخرى يوجد فيها الشوه أكثر، وأقل قبيلة في دار الفور معروفة بالجمال هم التموركة، لأنهم وحشيون أهل جبال وسوء معاش، وكذا الكراكية^(١)، وقد ذكرنا سابقاً أن قبيلة البرتي والميدوب أجمل نساء من غيرهما، يليهما قبيلة البيقو والبرقو والميمة والتنجور وأشوه قبائل الفور نساء أعجام الفور، يليهم الداجو والبرقد والمسايط، كما أن في دار الوداي قبيلتي لب سنون وملنقا أو منتيقا أجمل نساء الوداي، يليهم الكوكة والميمة وكشمود، وأقبحها نساء

(١) الكراكية، أصل الفرس في كتابه "الأول منجم الأسماء" أن في الفور مفسدون إلى ثلاث فصب أو بنود الأول الكشميرة ومعظمهم من شرق جبل مرة، والثانية الكراكية، وهم سكان جبل مرة الأصليون، والثالثة التموركة، ويهبطون في جنوب غرب دارفور.

مطبعة الجمعية الأنجلو المصرية ١٩٤٣ م

التأما، ويلبها البرقد والمسايط والداجو، ولايقتر الانسان ان يساوى بين جمال أهل السودان وغيرهم من أهل بلادنا لاختلاف اللون.

تبيـر:

أجمل أهل بلاد السودان عموماً من مشرقها لمغربها نساء غفـو^(١) يليهم باقرمة وبرنو ومنار وأوسطهم الوداي، يليهم الفور، وأقبحهم التبو^(٢) والكتكو^(٣) وبالجملة فالجمال يوجد في كل قبيلة لكن قد يقل في واحدة ويكثر في أخرى وسبحان من خص من شاء بماشاء، لأرب غيره، ولا معبود سواه، فما كل أسمر مسكاً، ولا كل أحمر يقوتاً ولا كل أسود زباداً^(٤) ولا كل لماع ملباً، وإن شئت قلت: ما كل أسود فحماً، ولا كل أحمر لحماً، ولا كل أبيض جبراً، فقد يوجد في الأسود والأسمر من الجمال ما لا يوجد في الأبيض الشاق، وكأني بقائل يقول: وهل تستوى الظلمات والنور، أو الظل والحرور^(٥) لكن من الناس من تعشق في الأسمر حيث قال من الطويل:-

وفي الأسمر معنى لو تأملت حسنه لما عشت عينك يضاً ولا حراً

واحـب بعضهم السواد وبـالغ حتى قال، من الواقـر:-

أحب لأجلها السود أن حنى أحب لأجلها سود الكلاب

^(١) غفو: إحدى بلاد النجاشة على غربي السودان شمال بلاد النوبة بشرق: Voyage au ouaday, P. 15

^(٢) التبو: يطلق اسم التبو Toba وأهلها Teda على القبائل المحمر لونه التي تسكن إقليم نيجين وهم يشككون في انتماء القبيلة المحمرات للزعماء والفرعان والجماعات بشرق: مقرة لتعارف الاسلام، مادة كـبو

^(٣) الكتكو: إقليم على نهر النيل ويسكنه قبائل متعددة يطلق عليها اسم كـتكو وهي قبائل عربية ريفية.

^(٤) الزباد: وهو عبارة عن طيب يستخرج من مزجرة السور، أي لط الزباد وهو طيب رقيق ذو لون أسود.

^(٥) هذا البيت من الآية القرآنية: "وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور" سورة النور الآية ٤٣

وكننت قديماً مفهماً بهذا المذهب فقلت، من التوافر:-

يلومونى على حبي بسودا	وما علموا السيادة فى السواد
فقلت لهم: دعونى لا تلموا	فان السود سلاوا بالسواد
وجل اليض لولا الحلابان	وخال الحد حالك فى السواد
لما عشقوا ولا نظروا بعين	ولكن الفضيلة فى السواد

وفى الأول السواد بمعنى: المؤدد، وفى الثانى بمعنى: المال، وفى الثالث بمعنى
السود الحقيقى، وفى الرابع بمعنى: العلم الكثير.
وقال بعضهم من البسيط:-

قالوا: عشقتها سودا فقلت لهم	لون الغوالى ولون المسك والعود
انى امرؤ ليس حب اليض مكرمه	عندى ولو خلت الدنيا من السود

وقال الفاضل الشيخ عبدالرحمن التصفى من الكامل:-

بالروح امر قطعته من لونه	فكسر الياض من الجمال شعاعاً
ولو اسفل من الياض بمثها	لا غاض من ثوب الملاحه عاراً
ما من سلاقة سكرت وانما	قركت سواد العنقول حبارى
حسد المحاسن يعنها حتى اشبهت	كل المحاسن ان تكون عذارى

وكننت عارضته بقصيدة منها قولى، من ترجز وتكامل أحق:

الحق أبيض	دع مثالة معشر	قد عاندوا واستكبروا استكباراً
-----------	---------------	-------------------------------

وقال الصفتي أيضا من التبسيط:-

فأراقشتها سمر افقلت لهم
وما تركت ياض البيض عن غلط
لون الغرالى ولون المسك والخلق
انى من الشيب والاكاذيب فى فرق

وتعالى بعضهم فى مدح التبييض وضم السواد بكلام يطول وقال: من عند فى ذلك،
عميت بصيرته عن قوله تعالى فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة^(١)
ولكل وجهة هو موليها^(٢) وللناس فيما يعشقون مذاهب.

^(١) سورة الامراء الآية ١٢.

^(٢) سورة الفرق الآية ١٨.

الفصل الرابع عشر

العودة الى المغرب ومصر^(١)

عندما عمر الله بعظمة قدرته وجه الأرض بالناس، وقسم لكل الأجناس المأخذاً التي تلائمها، وضع في قلب الإنسان حب الوطن ولرك لن تحب الحيوانات أيضاً مساكنها وبلادها.

قال نبي الله خير بنى عنان: "حب الوطن من الدين" حقيقة لا ينسى الرجل أرض مولده ويحب أبداً أكثر من هذه الأرض الأولى التي قضى فيها جزءاً من أيامه عالم يعيش فيها ذليلاً مهاناً، وإن لم يجد أرضاً أخرى يعيش فيها عيشاً أكثر يسراً وعزاً، ومع كل سينكر دار أسرته في خضم جناح والديه، قال الشيخ النميري في غمرة فرحة والاحترام الذي لقيه عند إقامته في الهند: ليتني مع كل هذه السعادة في صاحيتي دميرة.

كان يحلو للعرب أن يضمّنوا قصائدهم ذكرى الأماكن التي أقاموا فيها وأطلالها والواحات الخضراء التي تحيط بها، وغنّوا أيضاً للمساكن التي التقوا فيها، وعندما خرج الرسول الكريم من مكة إلى المدينة، توجه صوب الكعبة وعيناه تغرورقان ثم قال: نعم أحببت أيتها المدينة الفاضلة، ولولا مكر كفار قريش لما تركتك ثم رفع يديه إلى السماء وقال: "رب أنت الذي أخرجتني من هذا المقام الذي أحب، فقلني واستقبلني في المكان الذي تحب"^(٢) هذه على الأقل أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تدل على تحمده.

^(١) هذا الفصل مكتمل ثم يكن موحوداً في المخطوطات التي كانت بالرحمة المرسلة من يكمل الكتاب ولعمري.

^(٢) ورد هذا الحديث صحيح عدة منها قوله صلى الله عليه وسلم "أنت طمعت في أحب البلاد إلى الله عز وجل مكة طمعت في قومس امرئ من ماضيت اللهم اجعل في قلوبنا حب مكة". روى الصفي في شعب الأيمان من ابن عمر، كسر العمال ٢١٠/١٢ بسبب فصل الأمكة. ومنها "والله أنت خير لرمس الله أني ولولا أن امرئت منك ماضيت" روى الحاكم من ابن مسعود في المستدرک وتعقب من صغار من الخارث بن هشام من أبيه، كسر العمال ٢١٠/١٢، ومنها أيضاً "والله أنت خير لرمس الله وأحب لرمس الله أني ولولا أن امرئت منك ماضيت" كسر العمال ٢٠٠/١٢ قال روى في المستدرک من عندي من العمراء، امرئة البرمدي من كتاب الطب في باب فضل مكة، رقم ٣٩٢٥ وقال حسن صحيح.

أما بعد.. فتعالوا إلى قصتي:

عندما وصلت إلى ودای كان والدي قد غادرها وذهب إلى تونس وكان من جانبه يرى أن الذنب ذنبی لأنني تأخرت في اللحاق به كان قد كتب إلى سلطان دارفور والفقيه مالك يرجو منهما السماح لي بالمغادرة إلى ودای، لكن السلطان نفسه منع سفري وأرغمت على البقاء شهوراً في دارفور، نفذ صبر والدي من تأخري فأودع بيته وأملاكه ومزارعه وأولاده لعلي الشريف أحمد زروق، وغادر ودای قبل أن أصلها.

قررت وقد ساعني عدم محاولة الحظ لي أن لا ألقى بعض المسافرين، وأن أوصل مباشرة حتى ألقى والدي، لكن لطف السلطان صابون أوقفني، فقد أرسل لي هدايا جيدة أصيلة وجواري حسناوات، وملابس ثمينة فخف حنيني ولم أفكر مجدداً في قراري الأول.

مكنت في ودای لبعض الوقت، ولموء حظي خلف الشريف أحمد الفاسي (من فاس بالمغرب) والدي في الوزارة، كان الشريف أحمد رحمه الله يكره والدي وكل من له علاقة به، فوشى بي عند السلطان قائلاً: انني لم أكن سوى جاهل، ورجل فارغ بلا قيمة، وغير جدير بأن يستقبلني أو أن اقترب من أمير، هذه الوشاية وقد تكررت على مسامع صابون فالتأرت فيه انفور، ولم يعد يراني إلا ببرود وتجاهل، وتوقفت عنى عطاياه السخية.

من جانب آخر استولى عمي زروق على كل خراج أرض أبي، ولم يعطني إلا ما يقيني شر الموت جوعاً، وحرمني حق التدخل والتصرف في مال والدي، وجعلني أسمع انني لا أعرف إلا التبذير، وشكوت عدم رضاي عن مسك عمي زروق، لكن أحداً لم يشأ أن يأخذ بحقي، أو يساعني في التمكن من التمتع بحقوقى فوجدتني في ضيق وسط الوفرة، وضائق على الأرض بما رحبت وصارت شحيحة على، بعد أن كانت في أول الأمر كريمة.

ولكن إذا قدر الله أمراً يمهّد له الأسباب، ويفتح له سبل النفاذ، لقد مللت ومنمت مثل هذا العيش، وطلبت من السلطان الآن لي بمغادرة ودای، والتوجه صوب فزان للوصول إلى تونس حيث يوجد أبي، كانت القافلة السنوية تستعد

للرحيل والآن الذي كنت أطلبه حصلت عليه بعد تدخل الشريف أحمد، وأعددت عدتي للرحيل، فاشتريت قرباً وزاداً وكل الأمتعة الضرورية وأخيراً حسد يوم الرحيل وأعلن.

أريد هنا أن أقول عرضاً ماهي بدايات الشريف أحمد الفاسي، وكيف كان، ومأمليكه وأنبه وكيف كانت نهايته.

لا يترك العقل العذبان لخياله فعليه أن يذكر الحقيقة مهما كانت، ولو كانت ضد مصالحه، ولذلك أقول: إن الشريف أحمد رجل يعرف الشريعة والحديث والسيرة، ويعرف بعمق مبادئ المذهب المالكي، إذ كان يحفظ عن ظهر قلب الموطأ (أساس مذهب الإمام مالك) وكان يشرح الحديث على بصيرة، إذ يدرك شأئيه وأحكامه، وكان قد تلقى تربية رفيعة في وسط روحاني يعرف أسس ومبادئ العقيدة، وقد تلقى معرفة غزيرة في العلوم الشرعية والأحكام.

إن أحمد الفاسي كما قال لي أحد العلماء البارزين في فاس: لقب ببابا، لكن لا أعرف إن كان هذا اللقب لكثرة أبنائه أم أطلقه عليه تلاميذه^(١)، فانت به أحداث بسيطة إلى وداي، كان قد خرج من بلاده لأداء فريضة الحج، وبعد لأنها بقسرة الله وجد نفسه مع حجاج من دارصليح، فحدثوه عن كرم السلطان صابون وخصاله الفاضلة حدثوه عن حب هذا الأمير للعلم والعلماء، فثارَت هذه الأحاديث رغبة الفاسي في رؤية صابون والتعرف عليه، فمر بسواكن ومنها إلى سنار وكردفان ثم إلى دارفور، كان ذلك على ما اعتقد في عام ١٢٢٤هـ - حوالي ١٨٠٩-١٨١٠م

التقى في كردفان بالشريف بدر الدين وهو فزاني، وصهر لسلطان فزان، وقد عرف بدر الدين هذا والذي، ونهل من علمه الغزير، وفي كردفان أيضاً تعرف على الشريف أحمد، ثم خرجاً معاً من كردفان، كان بدر الدين يحدث الجميع عن فضائل وعلم سيده، وعكف على خدمته كما يخدم العبيد سائقيهم، كان لهذا السلوك

^(١) وهو قال لقب بابا لكثرة علمه نسبها له بالشيخ أحمد بابا المكنى الذي انتشر بمدينة فاسكت والسودان المعروف بمرارة علمه ومصادقه وكثرة مؤلفاته وعندما لمرا المصلحة دولة منى أحد أسوأ الملوك هناك جنس العلم في مسجد الشريعة لاكثر من خمسة عشر عاماً فاصبح سيد العلوم في الثوب وحكمة في اللغة المالكي وكانت له مؤلفات مشهورة مع منطلق الثوب بالكتاب بالعمود الذهبي ثم فاسن أسره وعاد إلى السودان في بداية القرن الماضي منى ونوى في مدينة فاسكت: بنظر: مدارج السالكين لأبي السويح، طبعه موديس

عاقبته، إذ كان الفزائى يعتقد جيداً أنه سيكسب كما يكسب سيده بعض الحفاوة عند السلاطين، ففى كل بلد يتوقف فيه الشريف كان بدر الدين يتحدث عن مقدرات سيده الخلقة وكما يقولون: بهز الفروع ليلتقط صاحبه الثمر، أى أنه كان يحث الناس على تقدير فضائل الفاسى ومعاملته بسخاء.

عندما وصل الصديقان الى دارفور استضيفا فى قرية ابوالحسن بالقرب من تتلتى من الناحية الشرقية، وبعد زمن قليل عم نبأ وصول عالم الى القرية، عم كل تتلتى وجاء الناس من كل حذب وصوب وحتى من مسافات بعيدة لزيارته وأسرعت جموع الفضوليين من القرى والبلدات.

كنت حينها فى تتلتى فذهبت أيضاً لرؤية الشريفين وتقديم التحية والمجاملة ودعوتهما لمرافقتى الى قريتى فى جلتو، لكنهما اعتذرا وشكرانى وقالوا انهما مستعجلان لمغادرة دارفور.

علم السلطان محمد فضل بوصول عالم الى قرية ابوالحسن، فأرسل يطلب منه الحضور الى الفاشر، وأخبره بأن السلطان سوف يستقبله بحفاوة، فرفض الفاسى بكبرياء الذهاب، وقال: ماأهمية مقابلة هذا الظالم، ليظن انه يغربنى بهدياه ويلجمنى عن قول الحق.

ذهل السلطان لهذا الرفض وأراد أن يتحمل أتعاب المسمى، وبعد حوالى ساعة ونصف من مغيب الشمس وصل السلطان الى الحاج المتعالى وقبل يديه ثم رجليه لكن الفاسى سحب يديه ورجليه متحاشياً لمس السلطان، ثم قال: "ابتعد عني أيها الظالم" ترجاه الفضل أن يباركه، لكن الفاسى رأى أنه لا يستحق وقال: لن أدعو الله لك الا عندما تتخلى عن أعمالك الظالمة.

صاح السلطان وقد أثارت هذه الاجابة وجرحه هذا الاحتقار وهذه الكبرياء والتفاحة " إن قتل مثل هذا الرجل من العدالة لكن ولحسن الحظ أنه كان برفقة محمد فضل ابن أخته الأمين حامد، والذي سعى لتهدئة خاله، حيث قال: "إن الأمراء لن ينالوا احترام الرجال بقتلهم العلماء حتى اذا مسحوا لأنفسهم الحديث بحريسة، واذا ظنوا أنهم يجب أن يبقوا بعيدين عنا، حسب مبالنهم وتعاليمهم الدينية فلن

عاملتهم بسخاء سيكون ذلك أكثر تشريفاً لك، وبذلك تمنع أن يقول الناس بأن حاكم
دارفور لا يعرف سوى احتقار وإهانة العلماء الذين يزورون بلاده.
فهدأت نائرة السلطان، بل أهدق على الشريف أحمد بالعطايا والنفاءة،
فأرسل له عشرين عبداً وعشرين قلة من السمن والعسل وعشرة جمال محملة
بالتقمح، وأضاف الأمين حامد ورفاقه إلى ذلك هدايا أخرى من جانبهم.
لكن الحاج المتصلب مصرأ على كبريائه حيث احتقر هذه العطايا وأراد أن
يرفضها، لكن بدر الدين أوضح له مساوئ مثل هذا العمل، وخلص أخيراً على أن
يقبل كل شيء.

بعد ذلك بقليل ذهب المسافران إلى قرية كوبي حيث استقبل الشريف أحمد
بحرارة، وهرع الناس إلى مده بكل ما يحتاج، ثم أووه وعاملوه برفق، وأخيراً
واصلوا السير وسلكاً طريق وداي، ولكن أينما ذهب الفاسي الماكر يكرر دوماً
تباهيه بورعه، وأن هذه العطايا التي تحمّل إليه لم تكن في نظره سوى أشياء تافهة
لا يعيرها أي قيمة أو اهتمام، وانها تذهب للمسكين الشريف بدر الدين الذي قبلها
واستلمها من اصحابها، لكن في الحقيقة لم يحصل منها بدر الدين الا على طعامه
اليومي.

عندما وصل أحمد الفاسي إلى وداي لم يبد السلطان صابون حرصاً كبيراً
على ملاقاته، كما فعل محمد فضل، إذ اكتفى بأن أهداه بعض العبيد، وعين له
مسكناً في قرية نمرو، ثم قطع له جعلاً متواضعاً يعيش عليه.
هكذا عاش الشريف في قريته حتى يوم قرار والذي السفر إلى تونس
وطلب من السلطان صابون الانن بالرحيل، وحين سأل السلطان والذي قائلاً: لكن
من سيقوم مقامك في الوزارة؟ أجاب والذي: الشريف أحمد يستطيع أن يحل
محلّي في الوزارة ويعلمك القراءة.

فتم انتخاب الفاسي ومعه اختفى زهده وورعه، وبدأ في الاكتناز، فكنس
ثروة على ثروة حتى جاء اليوم الذي اغتالوه فيه مقله مثل أي بannis.
هناك عدة أسباب مهدت لهذه النهاية الفاضحة مثل: بخله، طمعه، تكبره،
أقواله الجارحة، سلوكه المتعالي، حبه المفرط لذاته، وزهوه ورغبته في اذلال

الجميع، فإن اجتمعت كل هذه المساوىء في ملك لجريته، وإن اجتمعت في تاجر لحلمته في يوم واحد، وإن اجتمعت في أي رجل آخر غير الفلسي لهدته في لحظته وغطته بالعار.

لرقت أعمال الشريف أحمد ووجوده أهل ودای، ففكر كبارهم في التخلص منه بالقوة، ولكنهم خشوا غضب السلطان صابون وثاره منهم، مما جعلهم ينتظرون فرصة مواتية، فسكتوا وأضمرُوا كراهيتهم وغيظهم إلى حين، فقبل حوالي ثلاث أو أربع سنوات مرت أحداث راح ضحيتها الفلسي، وقبل الحدث كانت هناك مناسبات عدة كانت كافية لجعله يفتح عينه على الأخطار التي تحيط به ويغادر ودای إلى الأبد، كان أهم هذه الأحداث مغادرتي لدار صليح، فقد أخبرت والدي بأفعال ومعاملة الشريف أحمد لي، فقرر العودة إلى ودای مستكراً نكران الفلسي للجميل.

لقد استقبله صابون بحفاوة بالغة وجرد أحمد الشريف من الوزارة، فعاد يلقي الدروس في بيته كما كان يفعل سابقاً، مر عامان هكذا، وبعد أن عجز أحمد عن استعادة مجده واحتقره الجميع، طلب الآن بالسفر من ودای، كان يتخيل حينها أن السلطان سيمتنع ويعيد إليه على الأقل جزءاً من اعتباره وعنايته، لكن الطلب قُبِلَ على الفور وسارع صابون في تسهيل أمر سفر الشريف.

خرج أحمد يسوق معه على الأقل خمسمائة عبد وأربعمائة من الجمال الجيدة، وجواريه وأولاده وكل ثروته القديمة والجديدة، ولم يترك شيئاً البتة في ودای، ولمسوء حظه انضم إلى قافلة سلكت خط جالو، وقد مضى وقت يسير على تسيير صابون قوافل في ذلك الاتجاه، وبالتالي لم يعتد خبراء الطرق على التسيير في هذا الاتجاه الجديد، ولم تبتعد القافلة التي رافقها أحمد سوى سبعة أو ثمانية أيام من السفر عن جالو حتى تاهت وهامت على وجهها في الصحراء لعشرة أيام، فنضب مخزون الماء واستحكم العطش في الناس، فقد كان الجو حاراً والمرباب يلعب، فسيطر اليأس ووصل الحال إلى بيع جارية الماء المستخلص من كروش الجمال بسبعة ريالات، أما الماء النقي فقد بيع بمسبعين ريالاً، فمات عدد من

المسافرين، وكان الشريف أحمد مخزوناً معتبراً من القرب الكبيرة والصغيرة للمدينة بالماء، ولم يفقد من عبده الا الذين تخلى عن مراقبتهم والعناية بهم^(١) كانت القافلة تعرف ان لدى الشريف قنراً وفيراً من الماء، وأنه منذ بدليته تيه القافلة كان قد خبأ جزءاً من قربه في مخاليه، فجاءوا بترجونه ويستغيثونه ان يكون انسانياً وكرماً ليعطى القافلة التي هدها العطش وانهكها التعب قليلاً من الماء أو يبيعه لهم بالسعر الذي يريد، فاستشاط أحمد غضباً وهاج وماج وقال لـهؤلاء النعساء: في الحقيقة عرضكم عجيب، تريدون حرمانى من مائى وتعرضونى ولولادى للخوف والعطش، قالوا له: ليس لدينا إلا كلمة واحدة نقولها لك: اتظن بأننا نموت من العطش ولديك من الماء مايكفى لعبيدك وجواريك وأبنائهم؟ كل الناس أناس أمام الله كخلائق، هذا صحيح لكن نحن المسلمين وكذلك الأحرار أعظم عند الله من العبيد، قال أحمد: ليس لأحد الحق فى أخذ زادى، ولا لريد أن أعطى منه شيئاً فالماء فى المواضع الحرجة مثل التى نحن فيها الآن، أشلى من أن يعطى أو يباع.

بعد هذا الكلام القاطع هجموا على جمال الشريف وأخذوا ماءه وتركوا له قربتين لتكفيه هو وأبناؤه، وبعدها عطش عبده وإماؤه وماتوا جميعاً، وعندما حل الليل وبفضل البرودة تمكن الشريف وأبناؤه وبعض العبيد وثلاثة جمال من النجاة من الموت، ثم تحركوا، ولكن بعد ثلاث محطات من السفر مات باقى العبيد وضاعت هكذا ثروة الشريف الجشع والتى جمعها بالمكر والخداع. عند وصوله الى جالو استأجر أحمد جمالاً وعاد متعباً بربه باحثاً عن بضاعته التى أرغم على تركها فى الصحراء، لقد كانت تحوى صمغاً وعاجاً وريش نعام كلها منتقاة وذات جودة عالية، فوجدوها وحملها وباعها فحصل منها على ثروة تمكنه من عيشة متواضعة.

عند عودته الى فارس وبعد أن تخلص من قلقه وخوفه من رفاق سفره كتب الى علماء طرابلس (بلاد البربر) طارحاً عليهم السؤال التالى: (مارأيكم حفظكم الله فى هذه المسألة: مسافر فى الصحراء يتبع قافلة متزوداً بما يكفى من الماء، وتاهت

^(١) تحدث المؤلف عن هذا الحدث فى فصل سابق، وانظر الى أنه يتناول به الفصل فى فصل آخر.

القافلة، وبدأ العطش واشتد، فانترعت كل القافلة ماء الرجل بالقوة، فمات من معه من العبيد، وفقد بذلك ثروته، أيجوز في هذه الحالة أن يتحمل أهل القافلة خسارة الرجل لم لا؟.

رد علماء طرابلس بأن القافلة مسؤولة عن خسارة الرجل، ثم وقعت هذه الفتوى وأرسلت إلى الشريف أحمد، فأخذها وتوجه بها إلى السودان. لم يكن والدي موجوداً في حينها، فاستعاد أحمد الوزارة واستعاد معها سلطته القديمة، وأعلن صراحة عدائوته لعلي زروق ورفع القناع وكرر لمن يريد أن يسمع: أن كل أقارب الشريف عمر أعدائي.

عادت القافلة إلى السودان وعاد معها الذين استولوا على ماء أحمد الشريف في صحراء جالو، وما أن يدخل أحدهم وداى حتى يجرد من أملكه لصالح الشريف، بموجب فتوى علماء طرابلس، وبهذه الطريقة استعاد القاضي الجشع ضعف أو ثلاثة أضعاف قيمة ما فقد، لقد ترجاه عدد من أكابر وداى بالعفو عن رفاقه المساكين، لكن الشريف القاضي أعرض عن ذلك، ولم يستمع إلا لنداء النار (سيستمعوا خبري) كان هذا رده لكل طلبات العفو.

تتبع الشريف أحمد بثروته التي جمعها على حساب رفاق دربه القاضي وتخيل إليه أن الحظ قد يمد إليه يديه ويجلب له السلامة والامن في المستقبل، لكن فجأة اغبرت الأقق وتقب دلوه وبدأ شبار الخطر يرتفع، وأضرمت النار في هذه الفترة نادى منادى الموت السلطان عبدالكريم صابون، وعمت البلبلة والقلق، واعتلى العرش سلطان جديد هو يوسف عبدالقادر بن صابون، ولصغر سن السلطان الجديد لم يكن قادراً على فرض سيطرته على الجيش والمواطنين، عندما أخبر فجأة بأن سكان ولره يتبرون لمرأ لضباع الشريف أحمد.

بعد موت السلطان صابون جرد الشريف أحمد من الوزارة وعاد إلى حياته الخاصة، فأرسل إليه السلطان يوسف عبدالقادر يخطره بالخطر الذي يحيط به، ونصحه بالهروب من العاصمة ولكي يقنعه بمغادرة وداى وضح له بأنه لن يصل إلى أي وظيفة بعد ذلك اليوم.

شك الشريف أحمد في جدية ورأى السلطان، فبقي في قرية نمر، وذات يوم هجم سكان واره على قرية نمر واستولوا على بيت الشريف أحمد وقتلوه ثم جرت جثته الى خارج القرية وأحرقت. جعل الله هذه الميثة كفارة لذنوب الشريف المسكين، غفر الله خطاياهم.

نعود الآن الى قصة مغادرتي:

عندما كانت القافلة التي قررت السفر معها على وشك الترحيل، ولم يبق لها سوى شد الرحال، طلبت من السلطان صابون جماً للسفر وكنت أمل أن يعطيني جماً جيداً، ولكن بسبب تدخل الشريف أحمد أرسلوا الى جماً صغيراً وصل لتوه من الهند، ضعيف وغر، وما زال غير صالح للتحميل أو التركوب، صبحت حينما رأيت الحيوان الهزيل: "يارب أيمن لمتل هذا الجمل أن يتحمل تعب رحلة طويلة كهذه" قال لي الشريف أحمد: لكن أيها الوقح هل سيدنا السلطان مدين لك بشيء؟ هل لديه جمال نجاتي^(١) بسنام كالجبال حتى تتجراً وتشكو، وتقول انه لم يعطيك سوى جماً سيئاً؟ هل التزم سيدنا بميثاق بموجبه يعطيك شيئاً آخر؟ أليس تريد مداده؟ لقد فقدت صوابك في الحقيقة وصرت تتصرف بطريقة غير لائقة، خذ هذا الجمل بسرعة والا أخبرت السلطان بما تفعل بفضائله عليك.

أخذت الجمل مرغماً، وكنت مفتظاً ومحبطاً.. ثم أضفت بعض النقود لاستبدال جملي بأخر، ثم غادرت واره مفعماً بالخيبة، ولكن ما أن اقتربت القافلة الى أرض المحاميد في حافة الصحراء حتى وصلنا رسول السلطان صابون حاملاً لي معه ثلاث جوار وعبداً وجملين جيدين وثوراً سميناً لأعد منه القيد، فذبحناه وجهزنا قديدنا وبذلك ندين بالعرفان لكرم السلطان صابون، ونشيد بخصاله الحميدة، وقد عرفنا بعد ذلك أن اليد الشريرة التي أوقفت عطايا السلطان كانت هي يد الشريف أحمد سامحه الله، ولكن ليبارك الله أيضاً الأيام التي قضيتها في وداي، فقد كان فيهن السعد والفرح، رغم ما تحملت من شرور ونزوات الرجال.

^(١) المعنى: ليلة عربية المنهوت بكرة الجمال الأصيلة. مرود

عندما جف قدينا تأدينا للتوغل في الصحراء، فملأنا القرب بالماء وخرجنا ذات صباح مسرورين بالهدية التي أرسلها السلطان صابون، لم يوقفنا شيء الاخضوعنا للزيارة التي تخضع لها القوافل عند المغادرة.

لقد فحص مفتشو الحكومة كل الرقيق الذي كان بحوزتنا ليتأكدوا عما اذا كان أحد منا يسوق معه أشخاصاً أحراراً كرقيق، وسألوا في هذا الموضوع كل رقيق القافلة كباراً وصغاراً شيباً وشباباً، ففي هذه التحريات يطلق المفتشون كل عبد يثبت أنه من أصل حر، أو أنه كان مسلماً قبل استرقاقه، أو أي عبد يؤخذ قسراً من سيده أو يباع دون علم أو رضا صاحبه.

ثم عبرنا سهولاً شاسعة من الخضرة ومراعى واسعة يرعى فيها لعرب المحاميد بقطعانهم ومعهم قبائل أخرى، وبعد خمسة أيام من المسير وصلنا الى أبابا يرد اليها العرب وحتى البديات في شمال شرق وداي وقبائل أخرى مستعدة دائماً لملاقات القوافل ولعرض وبيع المون وبعض معدات السفر، كالتقرب والحبال وغيرها وتاجير الجمال للجلابية أو للمسافرين العائدين، انها نقطة التقاء ويعلم الله لثني نسيبت اسم هذه البئر.

توقفنا هناك واسترحنا لمدة يومين وتركنا جمالنا ترعى بحرية ثم استأنفنا المسير، وبعد خمسة أيام نزلنا في بئر الدوم وسميت كذلك لأشجار الدوم التي تحيط بها، في هذه المسافة تهنا وكندا نبلع آخر ريق لنا.

كان دليلنا قائد القافلة يسمى أحمد، رجل مسن مرت عليه صروف الدهر كان من قبيلة من قبائل التبو تسمى في فزان توبو رشاد أو توبو الجبال، وكان أحمد قد قتل في السابق رجلاً من قبيلة أخرى من التبو ومن يومها أخذ رجال هذه القبيلة يترصدونه للنار منه، ففر القاتل بعد الحادث الى دارصليح، وبقي فيها عشر سنوات خشيبة أن يعود الى أهله باكراً فيؤخذ ذاكرة خصومه، وينفع منه مقابل الدم الذي سفك، لكنه أخيراً لم يستطع مقاومة الرغبة في رؤية بلاده وبيوتها ومنزله القديم، وكان يظن أن عشر سنوات من الغياب قد أنست النار، فسافر مع قافلتنا وتولى قيادها.

عاش أحمد على أرباح تجارته سعيداً هائفاً في وداي، وتمتع بعيش رغيد راضياً عن حاله، ولم يكن هناك من يخشى إلا الله، فقد جلبت له مسنه وثروته احترام واعتبار الجميع، فعندما خرج معنا اصطحب معه أكثر من مائة وعشرين شخصاً من أبناء عمومته وأبنائهم لما بقي القافلة فتكون من حوالي خمسة عشر من أهالي وداي، وخمسة عرب، أنا وطرابلسي اسمه الرئيس عبدالله (فزاني) ومحمد خير ياسر (فزاني آخر) والسيد أحمد من قرية زويلة وآخر اسمه خليل من طرابلس.

لاحظنا أثناء سيرنا أننا كنا خارج الطريق، وقد تهنا بالفعل فوقفنا بدلاً من مواصلة السير، لأننا لو واصلنا السير لأضعنا وقتاً ثميناً، فقررنا التوقف، وبركنا جمائنا، ولكي نحفظ زائدنا من الماء من حر الشمس استغلنا قربنا داخل الطرود (التراف) تحت ملايمنا، لتكب أحمد عدداً من أبناء عمه وأخذ يضرب الصحراء يمينه ويسرة باحثاً عن البئر التي يجب أن نتوقف عندها، لأننا وحسب عدد المحطات والأيام قد تجاوزنا موعد الوصول إلى هذه البئر، وأننا قد انحرفنا عن مسارنا وقطعنا مسافة طويلة بلا جدوى، عند الضحى ظهر مستكشفونا من على البعد عاتنين أليفاً، كان الغبار يغطي وجوههم، وعند اقترابهم أعلنوا النجاح في محاولتهم، وقالوا لنا: أننا لسنا بعيدين عن البئر، وسوف نصلها بعد لحظات ولو مرنا بخطفى بطينة، فحل الفرح مكان القلق، والهم، وفي لمح البصر استأنفنا السير، حضضنا جمائنا على السير بسرعة، فقد كنا نريد وصول البئر قبل أن يعذبنا العطش، فمشينا نحو ساعة على الأكثر فلاحت أشجار الدوم فصعنا (هاهي ها هي) حيث يوجد الماء ناحية هذه الأشجار، فقلنا يجب أن نرتاح هنا اليوم، وما أن نعلقنا بهذا القول حتى ظهر لنا جمع من التبو تركمان.

والتركمان هؤلاء لا يقومون باستقبال القوافل مطلقاً وهم يقومون على حواف صحراء ليبيا، وينقسمون إلى مجموعات متفاوتة في العدد، يحكم كل منها سلطان أو ملك، وهذه التي جاعتا كانت حاضرتها تسمى مرمر، فعلم هؤلاء التبو من خلال بعض مسافريهم إلى وداي قبل شهرين أو ثلاثة أن قاتد قافلنا هو أحمد الذي كانوا يبحثون عنه للاخذ بذارهم منه، وهذا فقط ماجعلهم يترصدون طريقنا

ويرقبون قدومنا، عند العبور قتل هؤلاء النبو أعداء قلائدنا الطريق أماننا وأوفدوا
إلينا مندوباً جامعاً مسرعاً على ظهر بعير تخاله حصاناً يعدو، (رائع ان ترى
المهارة التي يمتطي بها النبو جمالهم، إذ يدربونها كالخيل على مجموعة من
الحركات البارعة، ولم يكن في أيديهم الإزمَام (رسم) رفيع طرفه مربوط بتقرب
في أنف البعير، والآخر في يد الراكب، كل النبو تقريباً الذين يركبون هذه الجمال
للنهب يرتدون ملابس من جلد الضأن لا ينزع صوفه.

كان فارس النبو الذي أوفد للتفاوض معنا ملثماً، إذ يتلى طرف عمامته
ليلف مرتين أو ثلاث من الأمام للخلف بطريقة لا تترك مكاناً يرى من الوجه سوى
العينين.

عندما اقترب منا صاح بلغة النبو: يا أهل القافلة إن سلطاننا وجماعته قد
حلوا بالبئر ويحذركم من الاقتراب، واعلموا لكم أن تردوها حتى تسلموا قلائدكم
ليقتل فداء قتله أحد إخوتنا، قولوا: مارأيكم في هذا الشأن لكي أخبر به السلطان
الذي أوفدني لاستجوبكم في هذا الخصوص، ترجم أحد رجال النبو مقالته الموفد
وقررنا بالإجماع عدم تسليم أحمد إلى أعدائه ولن النبو إذا طلبوا منا حبلاً لمنعناهم
عنه، ثم قلنا للموفد: عد إلى سيدك وأخبره بأن لا شيء يجمعنا بكم، ولن ليس من
بيننا أحد يسلم إليه.

ذهب الموفد ونقل رداءنا، فاستعد السلطان لمهاجمتنا، وحينئذ انفصل عنا كل
النبو الذين كانوا معنا في القافلة باستثناء أحمد وأسرته، وبقوا بعيداً عنا، كان
فريقنا لا يضم سوى خمسة وعشرين شخصاً بما فينا أحمد، ولم أحسب المبيد فقد
كانوا أكثر.

عند اقترابنا من البئر جاء عدد من النبو في حوالي سبعين جمللاً مستترافين
كل اثنين في جمل وهجموا علينا وقتلونا بالحرايب، أما نحن وأعني العرب الخمسة
فقد صوبنا عليهم وأطلقنا بعض العيارات النارية، فتعاجأ النبو وولوا الأنبار فارين
كالنذاب المذعورة، وأصبحنا ملأه على البئر، فضربنا خيلنا وشربنا، وتركنا
جمالنا ترعى في الحشائش القريبة.

اعتقنا أن التبو الأجلاف الذين شتتوا شملهم بسهولة عادوا إلى ديارهم، فاسترحنا في البئر يومين كاملين ولكن في اليوم الثالث سمعنا فجأة صراخاً مدوياً وصياحاً فاتجهنا نحو مصدر الصياح لاستجلاء الأمر، فرأينا خمسة جمال باركة وعنداً من الرجال المسلحين، وجدنا بتقرب منهم قائنا أحمد واقفاً مع رجاله وبعض الودايين من أفراد القافلة، كان في وسط المسلحين عجوز يبدو عليه أنه زعيمهم كان رأسه ملفوفاً بقطعة من السجاد بعرض خمسة أو ستة أصابع وبطول ذراع تقريباً، كان العجوز باركاً وعقبه على عرقوبية كما يجلس الكلب أو الذئب قال له زعيم الودايين: (ماذا أتى بك إلى هنا؟ لقد ذهبت فلماذا عدت؟ وعم تبحث؟ ماذا تدعى؟ رد السلطان: إعلموا أولاً إنني ملك هذه الصحارى، ولي من الجند مالا تستطيعوا عذم، وماجنت لأجله هو أنني جئت انصحكم بتسليم أحمد، إن كنتم تريدون الذهاب دون حرب أو جرح، تعلمون أنه لاعداء بيننا ولا حرب، لكن إن رفضتم تسليم أحمد فسوف تجرون لأنفسكم المخاطر لقد قتل أحمد ابن عمي الذي كنت أحبه كابن لأمي، وواجبي الذل لابن عمي، غسل العار الذي خلفه ترك هذا القاتل حياً، أرئف زعيم وداي قائلاً: ولكن ألا تخاف أن تقتل كما قتل قريبك؟ رد هذا العجوز: لا أخاف البتة، فمن يقتلني سيقتل بدوره لامحالة، فنحن لا نغشوا عن نار أبداً حتى ولو مزقنا إرباً، بهذا الكلام الواضح قام أحمد وأمان السلطان وهم بقتله إلا أنه أوقف، لكنه تسلل من خلف الجند مستغلاً انشغالهم وهيجتهم وقام بقطع عرقوبي جمال السلطان فصاح الأخير فيه: "هذه الأخرى ستدفع ثمنها غالياً، سوف أنزل لجملي أيضاً وسأقطع عراقيب أكثر من جمال من جمالك سوف لن تستريحوا لحظة، وسترونا على أنركم حتى نسحقكم، بعد هذا التهديد قام زعيم الودايين وجلد الزعيم العجوز بقوة في جانيبه وقال له: اذهب وافعل ما تشاء لعنك الله أنت ومن خلفوك.

قام السلطان العجوز ورجاله بهنوء وذهبوا بنون لكثرات مضمرين كل ما في صدورهم من غل للودايين.

انتهى ذلك اليوم، وفي صباح اليوم الثاني ملأنا قربنا وجهزنا امتعتنا وفي لحظة شد الرحال صاح أحد رجال القافلة 'انتظروا لحظة، لقد اختفى أحد جمال الودايين' انتظرنا لحظة ثم تعالى الصباح من كل جانب فاضطربت القافلة وهاجت وماجت، فعرفنا أن التبو تركمان قد أخذوا الجمل المفقود وأنهم قتلوا أحد الودايين، لتقسنا بعد ذلك إلى مجموعتين: الأولى جرت صوب المكان الذي قتل فيه رفيقنا، وبقيت الأخرى تحرس العبيد والمتاع والجمال، فكنت من بين الذين ذهبوا للبحث عن الضحية فوجدنا الوداوى غارقاً في دمه وفي أنفاسه الأخيرة، وعلى مسافة منا رأينا مجموعات من الجمال، يحمل كل جمل فارسين ملثمين بالسواد حتى يخالفهم المرء غرباناً حاطلين على الجمال، لقد درب هؤلاء الأجلاف مطاياهم بحكمة ودراية بالغة فليس الحصان أكثر سرعة أو طاعة أو صبراً في أرض المعركة من جمالهم، فتقدم أحد التبو نحونا وصاح فينا قائلاً: ماذا تدعون؟ هل جئتم حتى ترفضوا ماتطلبه منكم؟ بالنسبة للجمال الذي عقرتموه فقد أخذنا جملاً أحسن منه، أما الجلد فقد دفعتموه حياة واحد من أفضل رجالكم، هذا الذي ترونه قليلاً أمامكم وسترون آخرين مثله أيضاً إن لم تكفوا عن عنادكم قبل فوات الأولن، فلتغرنكم بنادقكم سوف ننقض عليها في جماعات سنقطعكم لربا لرباً.

كان ردنا على هذا المنطق القريب هو إطلاق بعض العيارات النارية على القوات التي كانت تراقبنا، وفي لمح البصر لم يبق من التبو الذين كانوا على مقربة منا سوى نقاط صغيرة بعيدة على الأفق، أما التبو الذين كانوا أمامنا في قافلتنا فقد انعزلوا وساروا لوحدهم على مسافة منا.

طفى علينا القلق والخوف من أن يهاجمنا أجلاف التركمان من حيث لا ندرى، وتحسباً لأي خطر قد يطرأ رفعنا خيامنا وابتعدنا عن البئر لكن التبو تابعونا عن بعد، وطول اليوم كنا نراهم يكرون ويفرون ويقتربون منا ليهاجمونا ثم ينادشون وهكذا حتى أظلم الليل.

فتوقفنا بعد ذلك لأننا في حاجة لقسط من الراحة، لكن التبو المزعجين لم يتركونا للحظة ننعم بالسلام، كانوا في كل لحظة يداومنا بعضهم رغم حلول الظلام، فكان بعضنا واقفاً للحراسة ويذهب آخرون للنوم، الأمر الذي جعلنا في

حالة استعداد دائم، كان عندهم يسمح بأن يقتلوا مضاجعنا، أما نحن فقلقه عندنا ماكان النوم يداعب أجناسنا الا نادراً، فقد كنا ندرك جيداً أنه اذا أخذ التبو واحداً منا فسيقتلونه في الحال، فما كنا نستطيع مجاراتهم، فان قتلنا واحداً منهم فسوف يسحقوننا بعندهم، ثم اننا في بلادهم إضافة الى أن الموت بالنسبة اليهم لايعنى شيئاً.

كان علينا فقط ان نقوم بمقاومة سلبية، وخلصنا الى أن نتحمل كل شيء، هذه الحالة المرهقة وهذا التهديد المتواصل والتعذيب الذي لايعطى تحملاً لمدة عشرين يوماً، ولم نتخلص من هؤلاء الأعداء المشاكسين الا بعد دخولنا لأراضي سلطان آخر من التبو، هم توبو رشاد أو توبو الجبال، أرض هذه البلاد محروقة جذباء تتخللها صخور عارية ولاتثبت الأشجار وبؤساً.

وما أن دخلنا بلاد التبو رشاد حتى انتشعت مخاوفنا وهناكنا انفسنا بالتخلص من أعدائنا بهذا القدر من الخسائر، كانت الشمس في كبد السماء عندما دخلنا أرض التبو رشاد، فواصلنا السير حتى السماء ثم توقفنا وتركنا جمالنا ترعى بحرية، فماعدنا نتخوف من طمع وضراوة التركمان.

وبينما كانت الشمس في طريقها للتبدد في الأفق، رأينا جماعات من التبو - رشاد يأتون من كل حذب وصوب، وماهى الا دقائق حتى تجمعوا حولنا في حلقة دائرية على مسافة منا ثم نزلوا من جمالهم في انتظار جماعات أخرى، تابعنا هذه العملية بهدوء ثم سمعنا فجأة على البعد صوت طبول صغيرة تشبه طبول السعدية أو الشاويشي أو الدالاتية (وهم جوقة تتبع القصر، يتبعون الأمراء بطبولهم في زمن الانكشارية^(١)) وما أن سمع التبو رشاد صوت الطبول حتى قاموا جميعاً صائحين 'ماهو السلطان قد أتى'

^(١) الانكشارية: هي القوة العسكرية التي تأسست الدولة العثمانية في عهد بایزید الأول (١٣٨٩-١٤٠٣ م) حيث تطور نظام حرس الأولاد للمرونة في التركة باسم 'أمو قزاق' الى ما يعرف بالانكشارية وهم صغار أبناء الصغار الذين لم يصبوا بسبب المرض وورثوا في المعسكرات العثمانية تربية عسكرية اسلامية نظيفة ويتحلف بعضهم بpledge اسلامية عالية واحب هؤلاء بالعب الى حبيبي السلطان وهم الانكشارية ولا يهرلون لاجسهم الا ولا لأمأ سوى السلطان والاموات، ولما اخمدت عنهم الدولة العثمانية في قرواحها فكوى ول ماء دولتها. بطر د. حنايير الصلبي: الدولة العثمانية - دولة صغرى عليها ج ١ ص ٣٢١.

لقد رأينا في الحقيقة رجلاً عالياً لم يكن لديه ما يميزه عن العامة، لقد جاء مع زوجته مردوفة خلفه على ظهر جمل، لم يصطحب السلطان معه شخص آخر سوى زوجته وعندما توسط الجميع، استقبلوه بحفاوة، وأناخوا راحلته ثم أنزلوا جلالة السلطانة وبعدها غرسوا في الأرض أعمدة حديدية في شكل مربع، ولفوا عليها ملاية كبيرة في شكل خيمة، يشبه هذا السائر الحواجز المتحركة التي تنصب في المعسكرات خلف خيمة الجنرال وخيار كبار القادة.

دخل السلطان وزوجته هذه الخيمة المرتجلة وتحول الجمع إلى حرس من حولهما، وبعد ذلك بقليل اقترب منا أحد النبوء وصاح قائلاً: 'يا أهل القافلة هيا تعالوا جميعاً دون استثناء تعالوا سلموا على السلطان قمنا وذهبنا للسلام، وعندما اقتربنا من 'الكاريكاتير' السلطان أمرنا بالجلوس على الأرض فجلسنا في ثلاثة صفوف، ثم تقدم في المسافة التي تفصلنا عن جلالته رجل يرتدي على ظهره جلد خروف: انه المترجمان فقال للسلطان: 'ها هم رجال القافلة أتوا للسلام عليك، قال صاحب المعالي التوبوي قل لهم أنني أسلم عليهم وأنهم في أرضي في أمن، وأنهم سيقفون معاملة حسنة نقل لنا المترجمان ماقاله السلطان الذي اضاف، يا أهل القافلة علمت أنكم ثلاث طوائف، اثرف وودأوين وتوبوي، وبالتالي يجب أن تقدموا لي ثلاث هدايا قبل الخروج من بلدي، واعلموا أيضاً أننا نرغب بشدة في أكل اللحم، لأننا لم نذقه منذ زمن طويل، وأن عددنا كبير، ففكروا في وجبة عشاء تكفيها جميعاً، ثم احسنوا الطبخ هل سمعتم؟ فيجب ان يكون جيداً وان يجهز سريعاً اجبناسمماً وطاعة، قمنا بعد ذلك وعدنا إلى محط رحلتنا وبدانا في اعداد احسن ما يمكن إعداده من طعام.

وعندما كنا نعد الطعام خرج السلطان وزوجته وجاءا إلى مكان قريب جداً منا، فتمعنت النظر فيهما، كان السلطان عجوزاً متهماً فانياً جافاً ونحيفاً ذو لحية خفيفة ووجنتين شائرتين، بشع المنظر يرتدي إزاراً أزرق، شبيه بالميرى الذي يلبسه الخدم في مصر، كان وجهه مغطى بلثام أسود، يتكلى من جانبي رأسه كغطى حزين، يحمل في يده الميرى حربة زينة ذات رأس كبير، وفي الميرى عصا منسجبة مثل التي تستخدم في حث الجمال على السير بسرعة، وترفع

بالطرف المنتصب منها الاغصان المتاخمة في الطريق، والتي يجب المرور تحتها، كانت السلطنة عجوزة نحيلة ومجعدة تشبه الساحرة، كانت تلف نفسها بملاءة بسيونية، وكان وجهها مكشوفاً ولكن أى وجه أو بوز!

دار صاحبها الجلالة حول خيامنا دون أن يتقوها بكلمة، أو يحييها أحداً وعندما جهزت الوجبة في الليل، وقد أعدناها على أحسن ما نستطيع، حملناها الى صاحبي الجلالة النحيلين فأخذا ما أعجبهما وقسا الباقي على اتباعهما الجانبين البائسين مثلهما، لقد قسمنا لهما أحسن الأطباق المرغوبة ففى السودان، وهى عصيدة الدخن بويكة 'ملاح' المرموط (بعد هذا الملاح من التقيد الذى يسبق ثم يغلى بالسمن ويضاف اليه البصل وقليل من الماء، ثم يضاف اليه دقيق البامية الجافة مما يجعله متماسكاً فيصب الملاح حول العصيدة، ولكي تأكله تأخذ لقمة من العصيدة وتغمزها فى الويكة ثم تأكلها^(١))

بعد أن أكل السلطان وقومه أعلوا إلينا الأواني الفارغة، وأمرونا بإعداد وجبة أخرى للغد قبل شروق الشمس، وأصروا على أن تعد فى الزمن المحدد إذا أردنا أن لا يحصل لنا مكروه أو أن لا نثير غضب جلالتهم.

طلبنا من خدمنا اعداد الوجبة فى الزمن المحدد، قضينا أسوأ ليالينا متضجرين من هوس الذين ارفعونا من قبل، وهؤلاء الذين يهددوننا الآن، عند شروق الشمس أعلينا السلطان ما طلب، وقمنا للاستعداد للرحيل، وتحركنا ظناً منا أننا بذلك قد تخلصنا من صاحبي الجلالة السخيفين، وإنما لن نراهم ثانية هم وقومهما الانتهازيين المتسولين الجوعى.

فسافرنا طول النهار ولم نتوقف الا فى المساء بعد أن ارفعنا التعب، ثم لمحنا من جديد السلطان وعقائيله والسلطنة من خلفه، وصل بهنوء وهو يتحدث مع أصحابه ثم نزل على مسافة منا وعالت كل مراسم الأمن عدا السلام.

طلبوا من جديد وجبة، فأعدناها وقد نفذ صبرنا واشتد غيظنا لأبعد الحدود، حل الليل وذهب، ولم ندر كيف نهش هذه الآفة التى عذبنا، وكيف نتخلص من

^(١) ملا الوصف بن الحمرين نسخة من المرموط "بوز"

مخائب هذا السلطان الجائع، ومنذ الصباح الباكر كان لابد أن نسلّمه أناوتّه، له ولعقائيله كما حدث البارحة.

ثم خرجنا أخيراً ومشينا طول اليوم في طريق مملوءة بالصخى أنمت خفاف جمالنا، ثم نزلنا في المساء في مكان محاط بالجبال، قالوا لنا إنها عاصمة الدولة ومقر إقامة السلطان العادية، وجدنا السلطان الملعون مرة أخرى هناك، وجبة جديدة في المساء، وأخرى صباح اليوم التالي، لكن هنا زارنا أهل البلد الذين لم يرافقوا السلطان في رحلته لاستقبالنا على مشارف حدود امبراطوريته غيظاً لنا (علم السلطان بالهجوم الذي وقع علينا من قبل التبو تركمان، وللحصول على وجبات إضافية متى أبعد ما يمكن لمستقبلنا ويستغلنا بكل سهولة^(١))

كان علينا أن نصرف كمية كبيرة من زائدنا في الجبال الثلاثة، فقد حاصرنا الحشد، وكنا نموت حمرة، فسألنا الله بخالص نوايانا أن ينجينا بسرعة، ومع ذلك فقد مددنا لقامتنا قليلاً للاستزادة بالماء، وأرسل كل واحدنا من هدايا لهذا السلطان البائس، في هذه الأثناء تمكنا من التجول قليلاً لرؤية المنطقة.

بينى التبو رشاد أكوأخهم على سفوح الجبال، ويعم البلد منظر حزين وبائس ويخلو من كل شيء إلا من بعض القطعان الصغيرة التي يشرب أصحابها لبنها والذي يعد غذاءهم وماديتهم الرئيسية، أما الأشجار فليس في البلد سوى السيقان والدم الذي يأكل التبو ثماره.

عندما تمر قافلة ويموت جمل من التعب يستولى عليه التبو ويقسموا لحمه، يقطعونه شرائح ويعنون منه القديد، الذي يحفظونه ويتغنون عليه، وذلك لعدم توفر اللحم الطازج.

في يوم الرحيل عند الصباح، وعندما كنا نستعد للرحيل لاحظت أن أحد عبيدي قد اختفى وأخذ معه جاريتين وهرب في الليلة الغائبة غالباً لبيعهما، أخرنا سفرنا ليوم وأرسلت للبحث عن العبد والجاريتين، فقد كان قد هدم خسارة معتبرة لي، فأعطيت التبو مبلغاً للحاق بهم لكن دون جدوى، فتدمنت لكوني أضففت إلى خسارة عبيدي خسارة نقودي أيضاً.

^(١) ماير الخمرانين توضيح لبعض من المؤلف ليحول فتم يظهر في الأصل المرو - من: الرحلة المرسلية.

فَتَنَكَّرْتُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ حَكْمَةً مَجْرِبَةً يَعْتَرَفُ بِهَا الْجَمِيعُ، وَهِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ
عِنْدَمَا يَعْزِضُ لَهُ الْخَيْرَ أَوْ يَأْتِيهِ وَيَرْفُضُهُ سَيَنْدِمُ حَتْمًا يَوْمًا مَا، وَيَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهُ سَمِعَ
النَّصِيحَ وَقَبِلَ الْعَرِضَ الَّذِي قَدَّمَ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ يَنْطَبِقُ عَلَى حِينَمَا فَكَّرْتُ فِي هَذِهِ
الرَّحْلَةِ الْمُشَوِّمَةِ وَعَبُورِ الصَّحَرَاءِ اللَّعِينَةِ هَذِهِ، حَاوِلَ السُّلْطَانِ صَاحِبُونَ شَيْئًا عَنْهَا،
وَطَلَبَ مِنِّي الْبَقَاءَ فِي وَدَايَ قَائِلًا لِي: انْتَظِرْ عَوْدَةَ أَيْتِكَ وَمُسَاهَمَتِمْ بِأَمْرِكَ، لَكِنِّي
رَفُضْتُ وَتَمَسَّكْتُ بِقَرَارِي وَيَعْلَمُ اللَّهُ مَا كُنْتُ فِي هَذَا الرَّفْضِ مِنْ ضَجَرٍ وَعَذَابٍ..

كَانَتْ أُولَى مُشَاكَلِي مَعَ هَذِهِ الرَّحْلَةِ الْكَرِيهَةِ هِيَ ضِيَاعُ حِمَارِي الْمُسْرِعِ
الْمَعْتَازِ، حِمَارٌ ذُو قِيَمَةٍ كُنْتُ أَعْتَمْتُ بِهِ وَأَقُولُ فِي نَفْسِي لَمْ لَا يَكُونُ أَفْضَلُ لِي مَنْ
أَيَّ جَمَلٍ حَيْثُ يَرْحَقُنِي بِقَدَرِ أَقْلٍ وَسَوْفَ أَمْتَطِيهِ لِمُعْظَمِ الْوَقْتِ فِي الرَّحْلَةِ، وَعِنْدَمَا
يَتَعَبُ أَتْرُكُهُ لَوْحْدِهِ لِيَسْتَرِيحَ وَأَمْتَطِي سَاعَتَهَا جَمْلًا.

عِنْدَ بَدَايَةِ الصَّحَرَاءِ دَخَلْنَا سَهولًا وَاسِعَةً مِنَ الرَّمَالِ الْمُتَفَكِّكَةِ حَيْثُ تَسِيرُ
الْمَطَايَا الْعَادِيَّةُ بِصُعُوبَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ مَشَيْتُ بِشَكْلِ جِدِّ لِيَوْمٍ كَامِلٍ عَلَى ظَهْرِ
حِمَارِي، تَجَاوَزْتُ فِيهِ الْقَائِلَةَ وَسَبَقْتُهَا بِمَسَافَةِ طَوِيلَةٍ نَزَلْتُ لِأَنْتَظِرَهَا وَاسْتَرِيحَ،
وَبَعْدَ وَصُولِهَا تَرَكْتُهَا تَمُرُّ حَتَّى كَانَتْ أَنْ تَخْتَفِيَ مِنْ نَظَرِي، عِنْدَئِذٍ لَكَزْتُ حِمَارِي
فَمَشَى بِسُرْعَةٍ فَتَقَّةَ خَشْيَةٍ مِنْ أَنْ تَخْتَفِيَ الْقَائِلَةُ عَنِّي نَظَرِي فَاتَّعَرَّضْتُ لَضِيَاعِ الْأَثَرِ
وَالنَّيْهِ مِنْ بَعْدِهِ.

وَصَلْتُ الْقَائِلَةَ بِمَشَقَّةٍ كَبِيرَةٍ، وَحِمَارِي الْمُسْكِينُ بَعْدَ أَنْ أَرَحَقَهُ التَّعَبَ، بَدَأَ
يَعْرِقُ، فَسَالَ الْمَاءَ مِنْ جَسَمِهِ كَمَا لَوْ أَنَّهُ خَرَجَ لِتَوَهُ مِنْ نَهْرٍ لَمْ أَتْلَقْ فِي بِلَادِي
الْأَمْرِ، وَمَا كُنْتُ أَفْكَرُ إِلَّا فِي الْحَقِيقَةِ بِالْقَائِلَةِ، وَسُلْسِلَةُ الْجَمَالِ الْمَرْبُوطَةِ بَعْضُهَا
خَلْفَ بَعْضٍ كَحَبَابَاتِ الْمَسْبُوحَةِ.

كَانَتْ تَسِيرُ بَعْدَ جَمَالِ الْقَائِلَةِ مُبَاشَرَةً الْجَوْلَارِي، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِنَّ جَارِيَةٌ ذَاتُ
جَمَالٍ خَارِقٍ، دُرَّةٌ، فَجَاءَ حِمَارِي وَوَقَفَ بِالتَّقَرُّبِ مِنْهَا وَكَأَنَّهَا يَلْتَصِقُ بِهَا، كَأَنَّهُ
أَرَادَ أَنْ يَحْتَمِيَ بِهَا، وَيَطْلُبُ مِنْهَا النُّجْدَةَ وَيَشْكُو لَهَا كَمَ كَانَ مَرَّهَقٌ أُرِدَّتْ أَنْ تُنْقِصَهُ
فَضْغَطْتُ بِرِجْلِي عَلَى جَانِبِيهِ لَكِنَّهُ أَصْبَرَ فَضْرِبَتُهُ بِقَدَمِي فَعَثَرَ، وَبَدَلَتْ الْفَتَيَاتُ
بِضَحْكِنَ عَلَيَّ، وَقُلْنَ لِي أَلَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ حِمَارُكَ، وَدَعْنَا نَسِيرُ فِي هَذِهِ لَمْ لَمْ نَسْتَطِعْ
كَيْبَحَ عَنَادِ حِمَارِي، فَتَزَلَّتْ مِنْهُ وَأَنْزَلَتْ بِهِ ضَرْبَةً قَاسِيَةً مِنْ قَدَمِي عَلَى بَطْنِهِ فَسَقَطَ

مغشياً عليه، كما لو أنني غرست فيه سكيناً، وقفت مذهولاً لم أتصور موت الحمار المسكين، فنزعت عنه لجامه ومرجه وكل حملة، وحملتها على أكتافى وأسهرت للحاق بجمالى، حيث أوقفت منها واحداً استطيت.

حانئة أخرى وقعت لى، عندما لزمعت الرحيل من وادى كنت قد اشتريت عبداً قوياً ويعلم الله أنهم قد أخبرونى بأنه لا يفكر الا فى الفرار، وللتحسوط كنت أبقيه مقيداً دوماً وبالليل أربط السلاسل المربوطة فى عنقه فى وتد مغروس فى الأرض عميقاً، وأجمل عبداً آخر ممن كان فى خدمتى بنظام متوسداً السلسلة، فلم يجد فرصة للهروب، وبعد خروجنا من وادى كنت أطلق عبدى فى النهار وأعيد ربطه بالليل بالسلاسل فى عنقه والتود فى الأرض، ووصلت فى هذه الاجراءات التحوطية حتى وصلنا عند التبو رشاد، فى الجبال الثلاثة فرجونى بعدها ان أفك اغلاله قائلين، أين تريد ان يذهب الان؟ لاتعنيه أكثر من ذلك، فاذنعت لرجائهم وحملت وثاقه، لكنه خان وسرق اثنين من أجمل جوارى وهرب. كانت تلك بالتمسبة لى خسارة فادحة، فقد عرض على مبلغ مائة وعشرة مثقال من الذهب أى مايعادل مائتى كلون اسباني، مقابل هاتين الجاريتين ولكنى رفضت وعرض على مستون كلونا مقابل العبد نفسه ورفضت أيضاً.

خيبة ثالثة فى رحلة الصحراء هذه، وقعت بعد أن فقت حمارى والذى عندما أرفقه المشى لاحتفى بجارية لم تر عينى جمالاً يضاهى جمالها جانبية وسحراً فسألت من أى البلاد هى؟ ومن هو سيدها؟ علمت أنها ملك أحد التبو فى قائلتنا يسمى تشاى، ذهبت إليه أن يبيعنى الخادمة، فرد قائلاً لا أبيع خادمتى الا بأربع من منها وهذا يعنى أننى لا أريد بيعها، ساسخر هذه البنت لادارة منزلى، لأننى غير متزوج ومستكون ربة بيتى، ارسلت للتبو ملحاً ومقماً عرضاً جديداً، وبعد أخذ ورد والحاح اتفقنا على أن أنفع ثمنها إحدى أجمل خدمى، وأخرى دخلت لتوها من الرشد، جميلة اللجيد، وجمل سريع، فقم الاتفاق، وعندما أظلم الليل أرسل التبو الجارية وارسلت خادمتى والجمل، وعندما أدخلتها خيمتى ونظرت فيها لم أجدها هى تلك التى رأيتها، لقد ندمت واحترت ماذا أفعل، لقد بدت خادمة التبو ذميمة، فارسلت لتشاى أخبره بأنه قد حدث التباس فى الاستبدال، وأن التى أرسلها

لم تكن هي التي أطلب، لم يرد التوبوى أن يستجيب لطلبي، فقد قال: ليس لدى جارية غير هذه وقد تم البيع، ويجب أن يفهم الشيخ أن الاتفاق هو الاتفاق، ولن أراجع عن اتفاقي، لقد ضايقني هذا الرد، ومع ذلك وبعد وساطات ومفاوضات ورجاءات حصلت من التوبوى أن يرد لي خادمتي ويحتفظ بالجمل، فقبلت لأن الرجل من التبو رشاد ولا توجد هنا عدالة أخرى الجا إليها.

عدت أبحث عن تلك الجارية الجميلة فعلمت أنها ملك لتوبوى أخسر، وأن هذا الرجل يحبها كثيراً وتحبه أكثر مما يحبها، وإن هذا الجلف لن يبيعها ولو بوزنها ذهباً.

نعود لقضيتنا الأولى:

قبل أن نستأنف السير جمعنا كل ما كنا نريد أن نهديه للسلطان وقدمناه إليه ولكن بعد برهة أرسل يقول من جانبه ومن جانب زوجته أنه يحب أن يقدم كل فرد من القافلة مداً من الدخن كنليل على حسن النية، وفي الحال فرش سفراء صاحب الجلالة فروة كبيرة على الأرض وقام كل واحد من أفراد القافلة بتقديم حصته وفي لحظة ارتفع كوم من الدخن يكفي لإطعام السلطان والسلطانة وقومهما لفترة من الوقت لا ترى، فجمع التبو الدخن بعناية، ولم يتركوا منه حبة، وصبوه في جرباتهم ثم انصرفوا.

وما إن بدأنا في شد جملتنا حتى رأينا السلطان يدور حول خيامنا وبينها كندل بائن، كان ينظر في كل الاتجاهات، ويهدي نفسه كل مأوقع عليه بصره من حبال وأباريق.. الخ وكان يكرر كل مرة: "لنا سلطان هذا البلد، وسيد هذا الطريق، وكل من يرفض لي طلباً لن يخرج من هنا" جمع صاحب الجلالة التوبوى حصيلة طيبة، وعندما فرغ من التفتيش قال لنا عبر مناديه "انتظروا للحصول على الآن، ووصول صاحبة الجلالة لتودعكم هل تسمعون أيها الاصدقاء؟ فكان لزاماً علينا أن نؤخر شد رحلتنا وقبلنا: "علينا بالصبر فالصبر حكمة" وهما في ظهير الساحرة المعجوز المرعبة تمشي مثل الزواحف القبيحة، موشحة بعلاقتها كئيبين إن رأها الشيطان تفرح، وصلت تترنح وتطلب من الجميع "كيلود" وأخذت من كل من كان عنده، أما الذين لم يكن لديهم فأخذت منهم ملاق لها.

أخذت الأميرة حصيلتها ووضعتها في جراب كان يحمله واحد معها فحيتنا واختفت، ولكن بعدها بقليل انقض علينا جمع من التبو قطيع من الأغوال والشياطين الفارة من الجحيم، فاقتربوا وكل واحد منهم يكرر عبارة "أنا ميلايو" أي: ابن السلطان، فجابوا القافلة وأخذوا كل ما أعجبهم، وكان يجب إعطائهم كل ما طلبوا.

لم يبق لنا تقريباً أي شيء ذو فائدة وبعد هذا التجريد سمح لنا السلطان بالمغادرة، ولم نتأخر فقمنا مسرعين ضجرين ومتعبين حتى الثمالة من أفعال التبو القبيحة وكما يقولون لقد نفذ السهم، أخذوا منا كل ما أعجبهم، من نساخيتي تكاد عيني تدمع كلما أتذكر العبد الذي فر مع لمتين من جوارى.

دخلنا الصحراء التي كان يجب علينا أن نعبرها للوصول إلى قطرون وهي أول بلدة على الحدود الجزائرية، لقد راقتنا حوالي مائة وخمسون من التبو رشاد الذين كانوا يتبعوننا عن بعد، ويتابعون نقاط استراحة قافلتنا، حتى إذا نسينا مسكيناً أو قطعة أو ماشاكل ذلك (والقوافل تخلف دوماً أشياء مماثلة) جاموا وأخذوه، وعادة إذا مات جمل فاتهم يأخذون لحمه ليصنعوا منه القديد، وإذا مرض جمل واستغنى عنه صاحبه فاتهم يأخذونه أيضاً، في هذه الرحلة الطويلة إلى فزان استأجرنا منهم عدداً من الجمال ويتم الاستئجار على النحو التالي:-

عندما يلاحظ أحد المسافرين أن جملاً من جماله قد تعب ولا يستطيع الوصول إلى موقع توقف القافلة، فإنه يعطيه لأحد التبو ويطلب منه جملاً آخر، فيسأل التوباوى "أي جمل تريد أن لرحله لك" فيشير إليه المسافر للجمل الذي يراه جملاً فيقيس التوباوى الجمل للتأكد من وزنه، فإن رآه مناسباً وافق على حمله حتى فزان، ويأخذ التوباوى الجمل المريض أو المتعب فيتركه يسير على مهله حتى يصل إلى بلاده أو إلى فزان، ثم يخضع لعناية خاصة حتى يستعيد عافيته وقواه.

ولذا وجد التوباوى الحمل ثقيلاً يتركه، وقد اضطرت لاستئجار جمل من التبو حيث التزم أحمد بحمل أمتعتي عليه ثم ركبت مع أمتعتي حتى مرزق، وكان على طول الطريق يأتي التوباوى كل صباح ساعة شد الراحات ليشد جملة بنفسه،

فإذا أضفت شيئاً يسيراً على الوزن الذي اتفقتنا عليه من قبل يحتج التوباوى بشدة قائلاً: لن أرحل إلا الأحمال التي قبلتها عند الاتفاق.

كنا نشاء الخروج من أى محطة يأخذ التوباوى زمام الراحلة التي أجرها لى ويسير على أقدامه طوال فترة الصبح والضحي ليقتلع كل الشجيرات والأشجار أمامه ويطعمها جملة دون أن يتوقف، وبعد حلول منتصف النهار يترك الرجل الزمام متخلياً ويذهب لجمع الأعشاب حتى من مسافة بعيدة من القافلة، وعندما يتوقف يأتى ويطعم جملة الأعشاب التي جمعها، ولذلك فإن جمال التبو ورغم طول المسافة تبقى دائماً على أحسن حال، بينما تبو دائماً سيماه الجوع والتعب على جمال المسافرين، كما هو حال جمالنا.

سأحكى هنا قصة قصيرة تعكس جهل ووحشية التبو المنتشرين، فقط فى صداريهم ولا يعلمون شيئاً عن أبسط الأشياء فى البلدان المتحضرة. كان فى قافلتنا طرابلسى اسمه الرئيس عبدالله، وكانت له ساعة قيمة رغم كونها من النحاس، وعندما ذهب لى ودأى كان ينوى بيعها للسلطان ولكنه لم يحصل على السعر الذى طلب، فاستبقاها، وكان يهتم بساعته ولا يترك أحداً يمسها أو يلمسها، وكانت آخر محطاتنا فى أرض التبو رشاد مكان ظليل كثيف الأشجار، فتوقفنا للقبولة عنده، حيث أرحقنا الحر أحراراً وعبيداً، فانتظرنا لتخف حرارة الشمس حتى لا نقتلنا، عندما بدت الشمس فى الانحدار استأنفنا السير قبل وقت كاف من المغيب حتى نستطيع تعويض الزمن الذى أضعناه فى النهار، لن نعوضه ليلاً وحتى نكون فى مأمن من العطش والموت.

شاء التقدر أن ينسى عبدالله ساعته فى المحطة فقد نسيها معلقة على غصن شجرة، عندما أوى لى ظلها فى الظليلة، وعندما تحركنا جاء التبو كعادتهم وأخذوا كل ما نسيناه أو تركناه، فرأى أحدهم الساعة فعمد الفرح لروية لونها الذهبى ثم تقدم وأمسكها لكنه سمع صوت حركة بالقرب من القطعة الذهبية فردها من أنفه، فإذا بالصوت يزداد حدة ووضوحاً، تخيل هذا التوباوى الجلف أن هناك شيطاناً محبوساً داخل هذه القطعة الذهبية، وبكل قوته قذف بالساعة لترطم بجزع

الشجرة وتتكرر الى ألف قطعة، الزجاج، المسلسلة، لقد انكسر كل شيء ثم صاح المتوحش (شيطان - شيطان) وفر بأقصى سرعته وتبعه رفاقه يتسابقون. تذكر عبدالله ساعته وبحث عنها في كل مكان ولم يجدها، سأل عنها رفيقه وجولريه ولم يعلم أحد ماجرى لها، تذكر أخيراً أنه نسيها معلقة على الشجرة حيث استراح عند الظهيرة، فأخذ جملاً وأسرع نحو المكان، فوجد الساعة مكسرة وقطعها مبثرة على الأرض هنا وهناك، وقف مذهولاً يضرب كفه بالآخر متحسراً، ثم صاح: لعن الله الوقت الذي مضيناه هنا، ثم رجع الى القافلة حيران لسناء.

عند محط الرحال ذهب عبدالله الى التبو الذين كانوا يتعقبوننا وسألهم عن من كسر الساعة، فقال أحدهم أنا، أنا الذي دمرت الشيطان، لقد أوقعت عليه ضربة قاضية كتب عبدالله اسم محطم الشيطان، وعند وصولنا الى مرزق، امسكى عبدالله الى القاضى طالباً مبلغ أربعين ريالاً، وقد أرغم التباوى على الدفع. وقبل أن نبرح لرض التبو أقول كلاماً يسيراً عن الطريقة التي يسلمون بها على بعضهم البعض.

يعيش التبو في مجموعات معتبرة العدد، جشعين وشحيحين ويفوقون كل قبائل السودان في الوحشية والبدائية، سأذكر هنا مثلاً لطريقتهم في السلام: فهي إحدى المخافات التي استوقفتني، فعندما يلتقي أحد التبو بفرد آخر لم يره من زمن بعيد فأنهما يتباشران بالمصافحة بل يجلسان بهدوء وصراة كجلسة القرد، والذئب متدلياً على وجهيهما حتى العينين، اليد اليمنى ممسكة بالحرية المغروسة على الرمل، واليد اليسرى ممسكة بالذراع، يقول أحدهما للآخر بصوت نغمة توحاشيدو فيجيب الآخر توحاشيدو هذه طريقتهم لقول السلام عليكم ثم يكررونها بالتناوب كثيراً، بعدها يقول أحدهما للآخر: تيحيلو جانيحي فيرد الآخر تيحيلو جانيحي وتعنى: كيف حالك، ويكررون ذلك بالتناوب مرتين أو ثلاث دون أن يتحركاً، ثم يبدأ أحدهما يقول: أحيلا ويكرر الآخر على الفور أحيلا ويبدو أنها تعنى حفظك الله، وعندما يصل التبو الى هذه الأحيلا فأنهما يكررنها ويبدأ في خفض صوتيهما تدريجياً، حتى إذا ما علت آخر أحيلا مسموعة يبدأ أحدهما من جديد فجاء ويصرخ

صرخة مدوية أحيلاً، وتخال أن مراسم السلام قد انتهت، لكن المسألة تبدأ من جديد وبصرخة مدوية ب (ولحائشينو) وكل الموسيقى وكل المراسم تعود بين الحرفين بنفس البطء وبنفس الطول، وللمرة الثالثة: ودائماً بنفس الطريقة ونفس الكلمات في نفس الأماكن ونفس القصيدة التراجعية.

ويدور هذا المشهد بأكثر قدر من البرود في العالم، ولمدة قد تصل إلى ساعة لم أر شيئاً مماثلاً لهذا النوع من السلام، الا عند أجلاف القور في جبل مرة وتموركة، فعندما يلتقي اثنان من القور فانهما يلتقيان على بعضها التحية تقريباً بنفس البطء كما هو الحال عند النبوءة، الفارق فقط هو أنهم ينوعون عبارات التحية والمجاملة ولا يكرر الشخصان نفس الكلمات، يقول أحدهما لولا 'أسي' كما تقول 'بخير، بصحة جيدة، أراك على مايرام' فيجيب الآخر 'كي ديون أسي' وتعني نراك على مايرام، ثم يقول الأول: 'كمنونقو سياحين أسي، تلي جاء لا وتعني جئت تبدو لي بصحة جيدة، (لا يعرف الشيخ التونسي معنى الكلمة الأولى: جين بمعنى أنت، ون للتوكيد أسي: حرف للربط، تلي: على مايرام، لا: تأتي فيرد الثاني (جين اف جن) وتعني: وانت هل بصحة جيدة، جن بمعنى: أنت، أسي: بمعنى: عافية، وهي كلمة عربية، جن، بمعنى: منك، يواصل الأول بقوله 'دقلا تلي أسي' بمعنى هل الاطفال بصحة جيدة، دقلا: اطفال، تلي: أي جيد، لي بمعنى: هل، والرد (أي تلي) أي نعم جيد، ثم يصدر الأول صوتاً أصمّاً وفمه مغلق 'أم م' ويكرر الثاني معه 'أم م' ثم يكررها كليهما لبعض الوقت، لكن كل ذلك يتم في وقت أقل مما يمضيه النبوءة.

لما للقور الذين تعربوا قليلاً كقور الفاشر، كوبي، كريبو، تارني، والبرقد، وكل الأماكن التي يتحدث الناس فيها قليل من العربية فإنهم يتسالمون عندما يلتقون بقولهم 'أصبحتو' والرد 'أصبحتو' وتعني حفظكم الله هذا اليوم^(١)، ثم يقول الأول: عافية، ويرد الثاني أيضاً: 'عافية' وعندما يتقابلان عند الظهيرة، أو مابعدهما يقولون: قيلتو^(٢) ويقال الباقي كما يقال في الصباح وينتهي بعافية.

^(١) أصبحتو: بمعنى كيف أصبحتم، لود اثنان، عافية.

^(٢) قيلتو: بمعنى: كيف كنتم لودكم، لود اثنان، عافية.

وعندما يقابل شخص شخصاً آخر من بلد غير بلده يقول له 'حبيبك' وهو تحريف لمرحبا بك العربية ويرد الغريب 'حبيبك عشرة' وباقي السلام يتسم كما ذكرنا انفاً.

ويقال للذي يعود من السفر 'جيداً جيتو' فيرد: 'جود حالك' اما الفور الذين يسكنون في نفس المكان فيستخدمون عبارات للسلام خاصة بهم في الصباح وما بعد الظهر، ففي الصباح يقال 'اس جن اس تلى كولا' بمعنى هلى صحوت من النوم بخير* والترد يكون كي ديلون لسي جلى نى فى جن* بمعنى تراك بخير، أو انت بصحة جيدة^(١) وبين الظهر والمساء يقولون 'لسى بمو' أى هل امسيت بخير فيرد الثانى كي دلون لسي بمو* بمعنى تراك بخير هذا المساء وباقي السلام هو نفس سلام الصباح وبصورة خاصة سلام الظهر.

وفى برنو يتسالمون على الطريقة التالية: يقول أحدهم 'فى لا بار' بمعنى هل من أخبار 'وتعدل: كيف حالك، وهى تحريف للعبارة العربية 'هل من خبر' ويرد الثانى لى لى لى* بمعنى 'بخير وكيف انت'.

نعود الى التبو فهناك أيضاً مايتفرد به هؤلاء الاجلاف فبعد انتهاء السلام يتحدثون عن بعض شئونهم ونزاعاتهم، ودائماً يحول الشخصان المتسالمان السلام ولمدة طويلة الى شكوى وتذمر، وفى لحظة مايقومان ويتضاربان بالحرا ب حتى يفصل الناس بينهما وهكذا، فعندما يلتقى اثنان من التبو يتبادلان عبارات مجاملة طويلة ويتسالمان لمدة ساعة بطريقة ودية جداً، ثم ينفجران فجأة وفى يد كل منهما حربته، فيهم بها على الآخر، بكل ما أوتى من قوة، دائماً يكون سبب هذه الصراعات المفاجئة الجشع والشح الذى يتمتعون به، فيذكر أحدهما للآخر حدثاً أو يلومه بكلمة أو على ضياع شيء ثاقه، فتثور بينهما ثائرة الغضب، ويقومان للنزال^(٢) وممايل على جشعهم فانهم قد يتنازعون ويمنعون تحرك قافلة من اجل حبل أو قطعة جلد قد لا تساوى قرشاً واحداً.

^(١) توضيح للمصنف لعل به الشبح التونسي غير موجود في الامل العربي.

^(٢) توضيح للمصنف لعل به الشبح التونسي ودون القرحم في الامل العربي.

لنعود إلى حكاية السفر، كنا كما أسلفت في الصحراء التي تفصل بين بلد
التبوء وحدود فزان، وتبلغ المسافة في هذه الصحراء القاحلة عشرة أيام بلا ماء في
الطريق، ولهذا أخذنا ما يكفي حاجتنا من الماء وأعطيناها غناية فائقة، كنا نساغر
ولماعات طويلة في أول الليل وآخره، لنتحاشى عذاب الحر والعطش، وأود أن
أقول إن العطش الحارق عندما يصيب أحداً يشتد عطشه ويزداد كلما شرب ماءً،
لقد أمرنا الخطأ، وأردنا ابتلاع المسافة وفي آخر ليلة، لم يبق لكثير من
المسافرين ماء، فقط تبقى للبعض منهم النذر اليسير، أما أنا فمازلت أحتفظ بفضل
الله بأربع قرب، فقد جاءتني فكرة ادخال قربتين في قرفة للاحتفاظ بهما، متحاشياً
نقص الماء بالتبخر بفعل الحرارة والهواء، أما الأخرى فأتيت: فكانتا معلقين على
الجمل، القرفة في السودان تعلق على حقائب كبيرة من جلد البقر مدبوغ بعناية
تصنع في وداي وتخاط بسيور رفيعة من الجلد.

في الليلة التي سبقت دخولنا فزان، مثبناً كثيراً، ولم نتوقف إلا عندما يغلب
علينا النعاس والتعب وبوضع أرجلنا على الأرض ينام كل منا في مكانه، لقد أعيانا
التعب، كنت قبل النوم أعطيت العطشى من عبيدي ماءً، ووضعت رأسي بين
قربتي لم أفكر في حفظهما بشكل أفضل، ونام عبدالله ورفيقه بالقرب منا، وعندما
استيقظت في الصباح وجدت قربتي فارغتين، شرب ماءهما عبيد عبدالله، فشكوت
إليه، لكنه لامني على عدم تحوطي، وخاصة في صحراء كهذه، ولامتني القافلة
على حملي على عبدالله، لأنه أقسم لي بأغلظ الأيمان أنه لم يلحظ شيئاً، وأنه بجهل
تماماً ما إذا كان رفيقه قد شربوا الماء أم لا.

ثم توجهت القافلة صوب بنز تبعد حوالي ست ساعات من القطرون،
فوصلتها في الصباح، قبل الوصول إلى البنز التي ذكرتها تعرضت إحدى جاريتي
اللتين أعطيتهما مع الجمل مقابل جارية التبوء، والتي تحدثت عنها سابقاً، تعرضت
لعطش الصحراء (المثوب) فالمسكينة أصابتها رغبة عارمة في الشرب، وكانت
كلما تبتلع جرعة تزداد عطشاً، فارتعشت لرؤية المسكينة وهي في حالة تدهور،
فلاحظت نوتري بدوي من رجال القافلة اسمه خليل فقال: أعطوا هذه البنت عرفة
أصبع من اللبن وستحسن حالتها" فاتبعت نصيحة البدوي وفي لحظات خفت

معاناة جاريتي وأركبتها في جمل، لأن كل العبيد الذين يرافقون القافلة كانوا يسيرون على الأقدام، شاء الله أن تنخفض حرارة الشمس، وبحلول الليل شفيبت جاريتي تماماً من الألم، وكنت حتى ذلك اليوم أجهل تلك الوصفة التي نلتني عليها القنوى خليل، وعند عودتي إلى تونس حدثت أحد أصدقائي بذلك، فحكى بدوره الحكاية التالية والتي اعتقد في صحتها، لأنه صدوق ياتمه الناس.

قال لي: قبل سنوات تحركت ركب حجاج المغرب عبر الصحراء فاصدين مكة فتأهروا وانتهى ما عندهم من ماء، فقال لهم شيخ القافلة لكل قافلة شيخ وإمام بواسطة مذاييه: كل من يؤمن بالله واليوم الآخر ولا يريد أن يذنب بتعجيل نهاية أيامه، ويريد أن ينجو من الخطر الذي يهددنا عليه أن يتناول بضعة أصابع من السمن فسمعوا نصيحته ولم يتناول أحد منهم ولمدة عشرة أيام شيئاً غير السمن فلم يعاني منهم العطش رغم الحر والتعب، ثم أعاد الله الحجاج إلى طريقهم لم يمض منهم أحد، هذه الحادثة أغرب من حادثة خالمتي.

عندما وصلنا البئر التي كنا نقصدها حمدنا الله وكان قد تبقى لي حوالي قربة من الماء موزعاً بين القريبتين، فمكثنا في البئر حوالي ثمان وأربعين ساعة ثم قمنا ودخلنا الأراضي الفزانية، كان أول بلد نبلغه هو القطرون، وجدنا ضواحيها حقائق نخيل كبيرة، ورأينا جمعاً من سكان قطرون قادمين للقائنا، جاءوا يداركون وصولنا، ويستقبلوننا بحفاوة، فنزلنا القرب في البلدة، بعدها جاءت مجموعة من الأهالي تبيع لنا البلح، يلاحظ أن بلح قطرون كبير الحجم ونو طعم ورائحة طيبتين، وتكفي بعض الحبات لاشباعك هذا على الأقل ما حدث لي.

اعتاد سكان البلد على التمر الذي هو غذائهم الرئيسي وربما الوحيد، ويأكلونه بكثرة، وفي كل وجبة، ويطعمونه حيواناتهم الأليفة كالأبقار والخيول، أما أرض قطرون فرملية وجنباء وسكانها سود على الأقل كسواد السودانيين، وهم خليط من التبو رشاد الذين لا يعرفون العيش بين الصخور، وبعض الفزانيين الأصليين من مواليد قطرون، هذا البلد بئس جداً، والسمن والعسل فيها نادران ندرة عنقاء الغرب، ويكاد التمعح أن يكون غير معروف تماماً، فلا يوجد غير التمر والشعير والشحم الذي يلقي به العرب من المناطق المجاورة التابعة لمحمية

طرابلس، وبيع بسعر غالى، ويزرع الشعير فى ضواحي القطرون بساقرب من
الأبار ويستخدم ماء هذه الأبار للرى لئلا تنزل الأمطار أبداً.

ويعتبر اللبن أيضاً من الأشياء النادرة فى قطرون، فالذى يمتلك نعجة أو
شاة حلوباً يذكره الناس كرجل سعيد، ويحسده البعض، وفى هذا البلد الفقير يباع
الخروف بعشرة درو، وقد لايزن خمسين رطلاً من اللحم، والشخص الذى يذبح
خروفاً بمعجزة فأنه يحفظ جلده بعناية، ويخلق صوفه بعناية، ويغزله أما الجلد،
فيفلى ثم يؤكل بشهية، وتقام مأدبة مساء اليوم الذى تقم فيه وجبة الجلد ويملا
السرور والغبطة للبيت.

قضينا ثلاثة أيام فى قطرون، ثم سلكنا طريق مرزق عاصمة فزان
وصلناها فى أربعة أيام، الناس فى كل السودان يسمون هذه العاصمة "زِيلَع" ويبدو
أن هذا هو اسم المدينة القديم.

استوقفنا رجال الجمارك فى مدخل مرزق، أحصوا الرقيق ودونوا العدد
الذى يملكه كل منا، بعد ذلك دخلنا المدينة ونزلنا جميعاً فى منزل محمد بن يونس،
أحد أبناء يوسف باشا، والى طرابلس.

مرزق بلدة كنيية قد لا تساوى قلوب "حاضرة مقاطعة القليوبية، على بعد
أربع أو خمس ساعات من القاهرة، وسكانها خليط من زنج أفانو وبرنو، أما
السكان البيض وذوى البشرة البرونزية فكلهم من العرب القادمين من محمية
طرابلس، جالو، أو جله، ودرنة، أرض مرزق حشة ومالحة، وتعمزل عن أى
مكان آخر ماحول بالسكان بمسافة يوم ونصف أو أكثر، وفى بعض الاتجاهات
ثلاثة أيام، يتكون سوق عاصمة فزان من صفين من الدكاكين فى كل صف سبعة
لا أكثر ولا أقل، يبدأ السوق فى كل يوم حوالى الساعة الثالثة أو الرابعة، حسب
طول، اليوم يتجمع الناس، البعض جالس القرفصاء أمام الأربعة عشر دكاناً،
ويجوب الدلالون المكان يصيحون عارضين مختلف البضائع على نظام المزاد،
يكررون الأسعار التى يعرضها الحضور، والذى يزيد دوماً على تلك الأسعار من
سمن مثقال من بندرة الذهب إلى ربع نصف، أربعة لمدلس المتقال.. الخ ولايستمر
السوق أبداً لأكثر من ساعة ونصف.

يوجد أمام قصر السلطان^(١) ميدان فسيح في مساء اليوم الذي وصلنا فيه
قدم لنا وكيل محمد يونس وجبة عشاء، إذ من العادة أن يقدم صاحب الدار الذي
تنزل فيه للفايلة أو وكيله وجبة عشاء في الليلة الأولى، لقد قدم لنا طعاماً يعلم الله
حتى رقيقنا لم يتمكنوا من تناوله.

ذهبنا صبيحة اليوم التالي لمقابلة السلطان ومعنا هدايا سلمناها لوزيره
الأول عثمان والذي كان سلفه مملوكاً للسلطان محمد في فزان ثم قدمونا الواحد
بعد الآخر لصاحب الجلالة الفزاني.

بشرة السلطان محمد المنتصر كما يسمى، ببضاء تميل إلى البرونزية،
عندما دخلنا عليه وجدناه متلفحاً بثوب أبيض كبير من الصوف، موشى بخطوط
من الحرير الأبيض، يشبه الأشعلية التي ترتديها النساء في تونس، وأتباع الباشا
من البدو. كان يبدو على محمد المنتصر العزلة والاعتداد، يجلس على كرسي
"نوعامة" والذي يبدو هو عرش جلالته يساوي طول هذا الكرسي طول اثنين أو
ثلاثة من الكراسي الأوربية، لذا وضعت جنباً إلى جنب، شبه مقاعد الحدائق
العامة، الفارق هو أن هذا الكرسي الذي يجلس عليه صاحب الجلالة الفزاني له
مسند ظهر من شرائح خشب الأسل المصنوع له أربعة قوائم من خشب الدليب
الهندي سوداء اللون، ومزين في بعض الأماكن بالأصناف الصغيرة والمحار،
تلتقي هذه القوائم الطويلة إلى حد ما وتتقاطع في أطراف الكرسي مع قطع خشبية
أخرى تشكل أنوعاً للكرسي، وعلى ظهر الكرسي شكل أشبه بالقبة، مصنوع من
شرائح الخشب المصنوع أيضاً، على هذه الحافة يضع المرء العمامة والملابس
عندما يذهب للنوم، لا يستخدم مثل هذا الأثاث في مصر إلا لوضع الملابس.

منذ أن ترك أكابر موظفي مصر لبس العمامة، ماعاد حامل العمامة
مستخدماً في المنازل، كانت العمامة قبل حكم محمد علي باشا، وخاصة في عصر
المماليك من الكماليات، وكان التجار يقتنون عدداً منها ودائماً من الكشمير بأعلى
الثمن، أما اليوم فما عاد يلبسها سوى المشايخ والخدم والسواكن وعامة الناس..

(١) رابع حاكم من سلالة بني هاشم وبني علي، رغم أنه لم يكن سوى حاكم تابع لسلطان مصر.

نظر: الترجمة الفرنسية

وأخيراً الأقباط وكل الذين لا يرتدون النظام (الزى العسكري) يلبسون العمام
ولا توجد حاملات العمام الا في بيوت علماء الدين وميسوري الحال.

دائماً تزين قبة الكرسي بكرات لامعة وغالباً ما تكون ذهبية اللون، وتحف
بأهداب من الحرير، والمرايات في الأركان الأربعة وفي وسط القبة من الخارج
تبرز كرات ذهبية اللون أو فضية أو من معدن الفضة أما في نهاية الأرجل الأربع
للاعلى، فتوجد كرات فضية أو مفضضة تسمى عسكر.

لا يجلس الناس أبداً في مصر على الكراسي حاملات العمام، فهي خفيفة
وحشة قد تنهار بمن يجلس عليها، أما ذلك الكرسي الذي يجلس عليه الأمير
الفرائي الضخم فمصمم بشكل جيد ومتين وقد يكون جلالته قد طلبه خصيصاً من
مصر أو المغرب وقد يكون الوحيد من نوعه في داخل إفريقيا^(١)

عندما دخلت على صاحب الجلالة الفرائي وجنته يرتدي عمامة بيضاء
ضخمة لم أر لها شبيهاً، ولقد لفت على طريقة مكة، مائلة على الجانب الأيمن أكثر
من الجانب الأيسر، ولا يوجد مكان في العالم الإسلامي يطوى فيه الناس العمام
بهذا التناقض الا في مكة، لكن صاحب الجلالة الفرائي بالغ في حجمها. وكيفية طيها
لدرجة جعلت من التنقل أو تحريك رأسه أمراً شاقاً، لقد تكرم السلطان بقبول
هداياي، ثم خرجت وكنت أضحك على هذا الأمير المتفتح والمتهينم، والذي
لا يمنع الأبنق الأنفس كلمات منقطعة وبصوت خافت بغير شفوية وغالباً ما كان
يرد أو يعبر فقط بإشارات غير واضحة - يبدو أنه من اللياقة فسي فزان عدم
الاسراف في الكلام أو الحركة في المراسم.

وتلقت حول هذا السلطان المتعالي واسمه الكامل محمد المنتصر كما ذكرت
حاشية من رجال يلبسون ثياباً رثة من الصوف يبدو عليهم جميعاً البؤس.
بعد أيام من وصولنا الى مرزق رأيت السلطان المزعوم يتجول وحيداً
مترجلاً بين بيوت المدينة، يقولون انه يزور بعض خليلاته من النساء.

^(١) هذا الكلام للشول بن الحسن بن لعل به الشيخ التونسي فماعة وسعد بنود في الاصل العربي.

لقد زحف المكنى بجيشه ضد هذا السلطان المنتصر وجرده من الحكم وأرسله إلى ابن عمه أحمد الذي قتله بأمر الأول ومن ثم قتل المكنى أحمد وحكم فزلن.

في اليوم الذي لايت فيه السلطان ذهبت في حوالي الساعة الثالثة لزيارة وزيره عثمان الذي يسكن في دار تجاور دار سيده، فرأيت أمام القصر عدداً من الزنج بثيابهم الرثة، يقرفون لدرجة الغثيان ويضربون طبولاً أشبه بعلبول الأتراك في العهود السابقة وينفخون على مزامير يبدو عليها البؤس أيضاً. قابلت عند عثمان القاضي طاهر وأخاه زين العابدين والشيخ الفاضل أحمد بن عيسى والشيخ محمد بن غلبون من طرابلس، ولقاء إقامتي في مرزق كنت أواظب على حضور الدروس التي يفتيها الشيخ الأخير، في شرح وتفسير القرآن الكريم.

لقد سئمت البقاء في مرزق إذ لم أجد فيها حتى الطعام المناسب، ولم أعرف الموعد الذي ستغادر فيه قوافل طرابلس، ولايجرأ إنسان على التحرك، لأن العرب من بني سليمان قد قطعوا الطريق، وتمردوا على يوسف باشا طرابلس، ينهب هؤلاء الأعراب كل القوافل التي يرونها، وحادر دليل الباشا في كيفية ردهم إلى صوابهم، فانتظرت ثلاثة أشهر لأجد الفرصة للمغادرة، في هذه الفترة شهدت وصول المكنى، والذي كان في طريقه إلى برنو، بأمر من يوسف باشا، وكانت تلك هي آخر رحلة تجارية يقوم بها المكنى للمودان، فعند عودته من تلك الرحلة أعد له يوسف باشا حملة فزلن ضد محمد المنتصر.

يوجد في مرزق عدد محدد جداً من الأجانب، من المغرب ولماكن أخرى ممن قرروا البقاء في فزان، وفي مرزق هؤلاء يعيشون حياة أفضل، وفي هذا الموضوع قال لي الشيخ أحمد بن عيسى: ذات يوم جاء عالم متمكن إلى مرزق وبعد أيام من إلقائه الدروس الأولى تجمع حوله عدد من الناس يتابعون دروسه بمواظبة واهتمام، ولكن الشيخ هرب ذات يوم ودون أي مقدمات، إذ ماعلا يطبق البقاء في مرزق فقال عند خروجه من المستحيل أن أبقى في مثل هذه المدينة أكثر من ذلك' فسأله لماذا؟ فأجاب: إن مرزق صورة طبق الأصل لجبهن، إن

جهنم حارة، ومرزق حارة وحارقة، ملاعين جهنم سود وسكان مرزق بنفس
السود على الأقل، لجهنم سبعة أبواب ولمرزق سبعة أيضاً أى شيطان تريدونى أن
أكون، وأن أفعل فى مكان فيه كل ما فى جهنم ثم ذهب الرجل.

تبيع النساء فى مرزق أغراضهن ببعض التمرات أو حفنة من الشعير، هذا
ماأكده لى عدد من الأشخاص، ما العمل فى هذا المكان؟ كيف أقتل السام، وكيف
أعود على مكان ليس فيه طعام يطيب للمذاق، ولا يروح النفس لحظلة، وحيث
لا تسقط قطرة من المطر، وحيث يأكل الناس وبهائمهم نفس الشيء: البلع كما أن
الحصى اختارتها موطناً تبقى وتتجدد فيه بشكل دائم، بسبب تعاطى البلح وخبز
الشعير والقمح نادر، لا يتعاطاه الا الأكابر والوزراء والسلطان، والزبد معدوم كعدم
الترتور الأحمر السحري، وذلك القليل الذى يجده المرء أحياناً بالصدفة يبدو
كمعجزة تظهر للأغنياء فقط، ما العمل بالشحم الذى يباع فى مرزق كمادة رئيسية
للمطبخ، ما مصير المرء فى بلد يأكل فيه الناس ونعاجهم الكذب؟ ويعنون منه
ولأنهم بعد أن يخلط بقليل من الملح، وإذا وجدت بالصدفة دجاجة فإنها تباع بنصف
مقال من الذهب، وتباع عشر بيضات عندما يجدها المرء بنصف ريال وماذا بعد؟
ألم أر عند القاضي نساء وخدماً يشكون رفض رجالهم إعطاءهم ما يآكلون وماذا؟
التمر هل هناك أكثر بؤساً من الجياد التى تجر الماء من الآبار لسقى بعض
المزارع الصغيرة؟ فى الحقيقة لا يستطيع البقاء فى مرزق الا التجار، إذ يحققون
أرباحاً قد تصل الى ألف فى المائة.

لا يوجد فى كل فزان سوى مائة وواحد مكاناً مأمولاً ويعيش الكل على
التخيل والذى يؤدى مجموعة من الوظائف، فالنخل هو الثروة الوحيدة، وبالكاد
توجد بعض أشجار التمر الهندى حول الآبار.

لا يمكن أن تبقى مرزق أو تكون بنون التجارة فى نقطة عبور قوافل برنو
ووداي وباقرمي وكل السودان الشرقى والغربى يذهب تجار أوجلة لشراء البضائع
المصرية ويرحلونها الى مرزق ويتزود تجار سوكنة فى طرابلس وبلاد البربر،
ويذهبون بعدها الى مرزق وكذلك تجار بنغازى حيث يجلبون البضائع من طرابلس

وحتى من القسطنطينية ويأتوا بها الى عاصمة قران وبذلك تصبح مرزق حقاً
عاصمة تجارية.

تقع سوكنة التي ذكرتها قبل قليل بين محمية طرابلس وعاصمة قران على
تثنى المسافة من طرابلس أى على مسافة ستة عشر يوماً بسير القوافل وبعد يوم
واحد من سوكنة في الاتجاه الغربى توجد هون.

في مرزق بفضل الناس الرقيق القادم من هوسا عاصمة أفناوا على الرقيق
القادم من برنو ووداي وكل البلاد الواقعة شرق هذين البلدين، وفي كل مكان
يرتفع الطلب على رقيق الهوسا، ويباع بسعر أعلى من الجميع، أما رقيق الباقرمي
وبعده رقيق البرنو فمعتبر وذو قيمة أكثر من رقيق وداي، لكن أقل قيمة من رقيق
السودان الغربى.

في المغرب وفزان كما اشرنا سابقاً لا يطلق اسم السودان الا على افناو
وهوسا ونوفي والبلدان الواقعة غرب افناو، أما برنو ووداي وكل البلدان المجاورة
شرقاً فيطلق عليها اسم بلاد العبيد.

في السودان الغربي تسمى مرزق - زيلع، وعند إقامتي بهذه المدينة سمعت
للحصول على بعض المعلومات التاريخية عن البلد وأصلها، ولكن لم أحصل الا
على معلومات نافية، وكان ما استطاعوا قوله هو أن ملك فزان من سلالة الخلفاء
العباسيين، وأن المنتصر الذي تحدثنا عنه والذي رأيت في مرزق يدعى الاتحاد
من هذا النسب، الا أن العباسيين بعد أن طردهم القطار من بغداد هربوا حتى فزان
حيث أقاموا ملكاً.

يمر الطوارق والتواتيون سكان توات* بمرزق مسافرين وتجاراً، وأيضاً
قوافل حجاج تتبكت والتي تتوجه بعد مرزق الى أوجلة ثم سيوه في محافظة الجيزة
ثم القاهرة، كانت قوافل تتبكت تجلب الى مرزق كميات كبيرة من السلع والنقود
من بكرة الذهب وشظاياها وسبائكها وختمه، ولكن الناس في فزان يفضلون بكرة
الذهب إذ أنها أكثر نقاءً وضماناً، إن الذهب المجلوب من تتبكت وبعض الأماكن
الأخرى في السودان الغربي هو الذي يستخدم كنقد في مرزق بوزن الذهب،
بالمقابل ثم يقسم للدفع، أما اليوم فقد نقصت كمية الذهب بشكل معتبر في فزان،
ويدفع الناس غالباً الدورو حسب كمية وحجم المشتريات، وكذلك لأرباع وأنصاف
أو ثلاثة أرباع الدورو التي يقطعها الناس الى أربعة أجزاء متساوية.

أما بالنسبة لشراء المواد ذات القيمة الأدنى فلا يستخدم الناس في التبادل الا
الشعير والتمر، إذ لا توجد قطع نقدية أصغر، وما يشد الانتباه ويثير العجب في
فزان هو طيبة وفطنة السكان في القول والفعل، وسأذكر هنا مثالاً:

يحكى أن أحد الفزانين اتفق ماله بتهور وتضاعل الى درجة البؤس، وقبل
أيام من مغادرة إحدى القوافل الى السودان ذهب وقطع كمية من جريد النخل
والسعف وخرمها ووضعها في أكياس كتائية كبيرة، ثم خاطبها في طريدين
وربطهما بعناية وقوة، فصارت تشبه البضائع، ووضع الرجل الطريدين على جمل
وأتى بهما الى مرزق، وعند الدخول الى المدينة طلب رجال الجمارك اثنين دورو

على الجمل وعلم ان طردين قد وصلا الى السيد فلان من مصر، وفي العادة كانت رسوم الجمارك اثنين يورو عن كل جمل مهما كانت البضاعة، قمائن رخيص أو حرير أو كشمير... الخ لا يسعى أحد لمعرفة ماهي البضاعة، ولم تقشع الطرود أبداً.

أخذ الفزاني الحمل الى بيته ثم ذهب لمقابلة الوزير عثمان قائلا له: تعلم ان قافلة تتجه الى السودان يوم غد، ووصلني اليوم طردان من البضائع ولا استطيع ان أفتحهما وأعيد تعبتهما في الغد، وإلا تأخرت فخذ هذه البضاعة معك كرهينة وأعزني مائتي فرانسا كمولونات أجرب حظي في السودان، ومن ثم لرد الدين، قال عثمان: حسناً، ثم ذهب الرجل ورحل الطردين الى بيت الوزير، والذي وضعهما في غرفة خاصة، وأعطى الفزاني مائتي فرانسا، ثم غاب الفزاني مايقرب من ستة أشهر، ونجح في متاجرته وعاد يقود عدداً معتبراً من الرقيق، وبعد ان استراح لبعض الوقت باع رقيقه ثم ذهب ليساندينه ويشكر صاحبه، وعندما قبض عثمان ماله قال الفزاني: هل تتكرم الآن باعطائي بضاعتي فأمر عثمان عبيده باحضار الطردين فذهبا ولكن بعد جفاف الخشب صار الطردان خفيفين وبدا أقل امتلاءً مماكانا عليه عند وضعهما، وصار يسمع لهما صوت عند تحريكهما، فرفع الحمل عبدان فقط بينما كان في بادئ الأمر لا يستطيع ثلاثة أو أربعة تحريكه.

اندش الوزير وسأل عما جرى لبضاعة الفزاني وخطر له ان لصاً تسال وسرق شيئاً من الأمانة، أو ان رقيقه سحبوا منه شيئاً لم يدر عثمان ماذا يقول، وبدا قلقاً ومضطرباً، فهذه الفزاني قائلا: لا تقلق لم تنقص بضاعتي شيئاً فهي كما تركتها، وهي ليس أكثر من كرناف (جريد نخل) وكان ذلك هو كل ما اعطيتك من رهن، وتحيلت هذه الوسيلة حتى أحصل منك على المبلغ الذي أعزنتي إياه وقد وفقتي الله في مسعاه وجنت لارد لك نقودك وأشكرك على طيبتك أثبتك الله، فرد عثمان أنا سعيد بأن استطعت مساعدتك وقد برحت لي خطبتك الدقيقة والعالية، وقد وفقتك الله بها أعلى الدرجات، ومنذ اليوم فإن كل مالي وثروتي رهن لشارتك فكلما ترقاح الى شيء في تجارتك واسفارك أرجوك ان تأتي وتطلب المبلغ الذي تحتاج.

ومنذ ذلك اليوم صار الفزاني والوزير صديقين حميمين، هذا يؤكد قول
الرسول الكريم "حسن النية سفينة للنجاة"

طالت اقامتي في زرق طول عمر لوبد^(١) (صقر لقمان) فتضجرت وملكت
الانتظار، ويعلم الله شوقي الى ما وراء الجبال والأودية، وتمنيت لو أن لي جناحين
لطرت سريعاً، كان السفر غاية ما أتمنى لكن ما العمل؟ فقبيلة بني سيف النصر
أحد بطون بني سليمان قد استولت على الطريق تهب وتسلب وتسبي، وحتى تقتل
المسافرين، وجعلوا من عبور الصحراء أمراً مستحيلاً فتعلق سفر كل القوافل.

كنت أبحث كل ساعة وفي كل مكان عن رفاق يمكن أن أعتمد عليهم
واحتسب بهم فلم أجد، وأخيراً جاعني الشيخ محمد أبو قصيصة وقال لي أول
ما رأيته: (ها يا صديقي استعد مسافراً، لقد منحت سائحة لنهاية تضجرك، سأأتيه
أي سائحة يا شيخى الجليل، قال: لقد وصل أكثر رجال العلم الذين عرفتهم، وهو
الشيخ بوبكر بن رديون رجل تجله الناس لتقواه وتحترمه كل قبائل عرب بني
سليمان، وقد اختاره يوسف باشا طرابلس وسيطاً لإخماد الحرب التي اشتعلت بين
قبيلتي بني بشر وبني سيف النصر، سألت أبو قصيصة: أي حرب هذه؟ ولماذا جاء
بوبكر بن رديون الى هنا؟ قال نكل مافى الأمر هو أن بوبكر جاء موفداً ليوسف
باشا ومعه الآن باصطحاب أعيان من بني بشر، وهي أيضاً فرع من بني سليمان
الى طرابلس تحت حمايته.

تنقسم قبيلة بنو سليمان الى بطنيين: قبيلة بشر، وقبيلة سيف النصر، وهي
الأكثر عدداً والأقوى عوداً، أراد بنو سيف النصر السيطرة على بني بشر رغم أن
القبيلتين تتحدران من أخوين، حملت كل منهما اسم أبيها، فقامت بينهم الحرب،
فانتصر بنو سيف النصر، أما البشر المهزومون، فقد تركوا عدداً من القتلى في
أرض المعركة وأرغموا على الفرار، ولم يجدوا ما يفعلوا سوى التجوء الى حدود
فزان ليعيشوا بشكل أو بآخر تحت حماية سلطان فزان.

ومنذ ذلك اليوم يقطع بنو سيف النصر الطرق، وينهبون القوافل ويدخلوا في
عداوة مسافرة مع باشا طرابلس، فأرسل يوسف باشا قوة ضدهم أكلسها هزمته،

^(١) صقر من صقور لقمان الحكيم مثل فرقة هذه، لم مات بموت، بل مات حياً المرسية.

وارسلت اخرى لكنها هزمت أيضاً، اندمشت يوسف باشا وازداد قلقه، فلم يستأثر
وزراءه فنصحوه بان ينادى قبيلة البشر الذين انسحبوا الى مقاطعة شيباتى، وان
يتقرب اليهم ويقرر قيام حرب بينهم وبين بنى سيف النصر، فقال الباشا: من
استطيع ان استخدمه فى هذه المفاوضات، قاتلوا له: من الاضمن ان توكل المهمة
الى بوبكر بن رديون، فأرسل يوسف باشا فى الحال طالباً بوبكر، فجاء الى
طرابلس واستقبله يوسف باشا بحفاوة بالغة وقدم اليه الهدايا ثم أخبره بنواياه،
وشرح له غاية المفاوضات التى لوكل أمرها اليه، فقبل بوبكر المهمة، ووعد
باحضار كبار بنى بشر الى طرابلس، أعطى يوسف باشا الشيخ بوبكر فرماناً
واعداً فيه بعد القسم بحماية بنى بشر الذين يأتون الى طرابلس، ووعد بان يعاملهم
بكرم وشرف. أخذ بوبكر هذه الوثيقة وجاء الى قران وقد وصل لتوه، وأعلن ان
هذه أفضل مناسبة يمكن ان تتوقعها للسفر، انضم الى هذه البعثة (يقول
أبو قصيصة) ورتب مع رفاقه وستكون تحت حماية بوبكر، فهو رجل دين
وفضيلة، فقلت: منشرحاً: حفظك الله، قمتنى للشيخ بوبكر حتى أتمكن من التفاوض
معه والتعرف على مسائل عن أمر سفرنا، قال الشيخ: حسناً، سنراه بعد العصر
رتب حالك للخروج من مرزق، من هذا السجن.

وفى الساعة المحددة ذهبت الى منزل أبو قصيصة ووجدت رجلاً يجلس بين
العرب، يبدو عليه بحق النبل والتميز، كان ذلك هو بوبكر وعند دخولى قال
بوقصيصة: هذا هو التونسى، أركيه وأضعه تحت حمايتك، فرد بوبكر: حسناً:
حماية، اهتمام، دعم، نجدة، كل ما تريد ثم قال بوبكر: هل لك حاشية كبيرة ومتاعاً
كثيراً، أحببت بنعم، بان لى متاعاً معتبراً، أريد الشيخ: من الأفضل ان تخرج من
هنا قبلى وان تنتظرنى فى شيباتى، فلن أبقى فى مرزق إلا بضعة أيام، سألت:
ولكن لا أعرف عند من أستزل فى شيباتى، رد قائلاً: هذا أمر سهل لا تقلق
ولا تخف من شيء وكتب لى خطاباً الى زعيم قبيلة بنى بشر والمقيم فى شيباتى،
ويسمى هذا الزعيم بشر أيضاً، وقد كتبت الرسالة تحوى الكلمات الآتية: عند تسلم
هذه الرسالة عامل حاملها بصورة كريمة واعتنى به الى حين وصولى والسلام
عليك وعلى أحبائك.

عين لي بوبكر مرشداً للطريق وفي صبيحة اليوم التالي غادرت مدينة
مرزق القميئة المملة، ومع الصباح الباكر سلكتنا الطريق الذي يجب أن ينتهي بنا
إلى مضارب بني بشر، صار المرشد رفيقاً وصديقاً ومؤمناً، سرنا معه لمدة أربعة
أيام، وفي اليوم الخامس وصلنا إلى بلدة شيلتي، ولحقنا مضارب بني بشر، قبيلة
شجاعة متأهبة دوماً لأي طارئ: الهجوم والدفاع والأسر.

توجهنا مباشرة إلى خيمة بشر زعيم القبيلة وسلمناه رسالة بوبكر، فقال لي:
مرحباً بك أنت هنا في دارك ووصف لي مكاناً بالقرب من خيامه لأضع فيه
متاعى ورقتي، وفي لحظات نزلت كأحد أبناء القبيلة، عاملني بشر معاملة كريمة
ولذلك انتظرت بدون قلق وصول بوبكر.

كانت مقاطعة شيلتي حيث حل بنو بشر مؤخراً أرضاً مخيفة، تسمى 'وادي'
وهي في الحقيقة واد تحفه أشجار النمر الهندي، وظلالها الوارفة، ولم الحظ فيه
سوى قرية واحدة على مسافة من خيام البشر.

سيطر بنو سيف النصر على بني عمومته بني بشر وعذبوهم كما تكررت
وأرغموهم على نزع مضاربهم والبحث عن أرض أخرى بعيدة، فصارت قبيلة
بنو سيف النصر بشجاعتها يهابها الجميع، وأقاموا بين فزان ومحمية طرابلس
متأهين دوماً للنهب أو الحرب، ولم يضعوا أبداً سلاح الحرب أو النصب ويقع
كائناً من كان ضحية في أيديهم.

لنر، أي وسيلة استخدمها يوسف باشا لتحجيم هذه القبيلة وإبعادها وتطهير
طريق القوافل من وجودها، لقد طلب من بوبكر أن يبحث بشر شخصياً ومقربوه،
مشرّوعه ضد الحملات المتواصلة لبني سيف النصر، وقد وعد يوسف باشا بدعم
بشر ومده بالقوات، ووعدهم أيضاً بحمايته ومعاملته بشكل طيب إذا أرادوا قتال
بنو سيف النصر وملاحقتهم، لقد أتم بوبكر مهمته، فقد جاء إلى بشر والفضى إليه
بمشرّوع يوسف باشا.

كنت قد انتظرت بوبكر لخمس أيام عندما جاء إلى شيلتي، لقد مرت هذه
الخمس أيام رغم ضيق عيدي وأمانتي، لقد ابتعدت عن مرزق وقد أعاد السفر

الهمة الى النفس، واخيراً أصبح ممكناً أن أشرب لبناً، وأكل لحماً من بنى بشر
وقتما أريد، وهذا أيضاً مرعى طيب لجمالى، حشائش خضراء وفيرة.

عند وصول بوبكر تجمعت القبيلة فى مجلس كبير للتشاور كباراً وصغاراً
شباباً وشيباً ليتفكروا فى الحاقه الرائعة، ويناقشوا الموضوع، وانكر دلتماً بكل
سرور الانطباع الذى تركه على الاجتماع والحرية التى كان يعبر بها أفرد القبيلة
عن آرائهم وأفكارهم، حيث ينلى الشباب والأطفال مابين الثانية عشرة والخامسة
عشر من العمر بآرائهم مثل البالغين من كبار القبيلة، ويستمع اليهم الجميع
باهتمام، ويعبروا عن أفكارهم، والجميع يعبرون المتكلم نفس الاهتمام بصرف
النظر عن سنه أو غرضه، ثم يردون اليه، فلا يرفض رأى أحد أو احتقاره.

من الأشياء الرائعة التى أحفظ ذكرها يوماً هو رؤية المسنين يستمعون الى
آراء الشباب الذين لم يبلغوا من الرشد بعد، لم يثد التباهى أى مجلس آخر بهذه
القوة ولا أعتقد أن شيئاً مثل هذا يحدث فى أى بلد فى العالم، مجلس هادى ومنظم
ومهم، مجلس يضم كل الاعمار لمعالجة مصلحة عامة، قضية تهم الجميع وتمس
مصالح جميع فئات القبيلة، مجلس كهذا جدير بأن يتبعه ويقلده كل شعوب الأرض،
لأنى كيف تدار المجالس التشاورية فى فرنسا وانجلترا، ولكنى متتبع بأن
الفرنسيين والانجليز يمكنهم أن يأخذوا الدرس والأنموذج فى الاهتمام والحرية
وشكل الحوار الجماعى من صحراء افريقيا، حيث يوجد هؤلاء الأطفال من قبيلة
بشر، فللمتوحشين محاسن وللأجلاف كنمة، وهناك حقيقة، وهناك صبيحة يلتقون
العلماء درساً، كما يوجد فى الصحراء واحات وأماكن خضراء^(١)

كان قرار المجلس هو أن يذهب بعض أعيان القبيلة الى طرابلس مع
بوبكر، وأن يبقى الباقون فى شيتى، وبعد هذا القرار بدأت التجهيزات للسفر فى
قرب الماء، وزيادة وتحسين علف الخيل لتتحمل هذه المسافة، دامت الاستعدادات
لمدة خمسة أيام، وفى السادس تحركت القافلة نحو طرابلس، ومشت على بركة
الله، لم يكن معنا سوى عشرين من عرب التبادية الذين رافقوا بوبكر لمقابلة يوسف

^(١) وصف الحشر عبارة عن حديث فلهى لى فى الشيعى الفرنسي.

باشا، خرجنا من حدود فزلان بعد يومين من السفر، وفي اليوم الثالث دخلنا سهولاً واسعة على مد البصر تكسوها الخضرة، ومغطاة بالأشجار الجافة والمخضرة. على طول الطريق لم يكن للبشر ممن هم في قافلتنا حديث سوى مغامراتهم ومعاركهم وسلبهم، يقول أحدهم: تذكرون اليوم الذي قمنا فيه بالحملة كذا، عندما هجمت علينا قبيلة كذا، حيث انقض علينا الخيالة في الموقع الفلاني، في ذلك اليوم الذي قتل فيه فلان وفلان في ذلك اليوم قتلت فلان، ورأيتي كل القبيلة أسد للضربة التي لربته قتيلاً.. ولم نسمع حواراً آخر سوى قصص ومغامرات بسو الصحراء.

سافرنا لمدة خمسة عشر يوماً في هذه السهول الغنية بالخضرة والمرعى، وكان بعض من عربنا في العطية يصعدون التلال ويجوبون الأفاق، في كل الاتجاهات، يتأكدون من أن المكان خال من أي مخاوف ومفاجآت، ولهم لم يروا شخصاً، ثم يعودون إلينا، ونسير سوياً حتى يظهر مايجب إرسال بعثة جديدة للاستكشاف.

دخلنا أرض الغريان في اليوم السادس عشر، وهي أرض كثيرة الأشجار مزدانة بالحدائق، ومواقع خلوية جميلة، وينابيع مياه وبرك، وبها أيضاً مزارع زعفران كثيرة، وفواكه مختلفة تقع الغريان على بعد عشرة أيام تقريباً من طرابلس في أرض المحمية نفسها من الناحية الغربية.

الغريان شعب طيب كريم ومضياف وودود، لكن الغريب عندهم هو أن كل مساكنهم مبنية تحت الأرض، ولا يرى على سطح الأرض في قراهم سوى المسجد، وعلى مدى الفترة التي كنا في غريان، كنا نقف السماء في قرية، بينما نستجم عند الظهر في محطة، وحيثما ذهبنا كنا نستقبل بحفاوة وكرم، لكن العليخ لم يكن جذاباً لمذاقي على الأقل، ولم أستطع أن أكل إلا قليلاً من اللحم ماكان يقدم إلينا، ما عدا ذلك كان مستحيلاً على أن أكل منه شيئاً، كانت الوجبة الرئيسية والمائدة الكبيرة عند الغريان هي عصيدة مغورة في الزيت ومحلاة بعجينة من البلح، ولما لم يكن متعوداً عليها، لم أستطع أن أبتلع منها أكثر من لقمتين وبعدها لختق.

عبرنا الغريان في خمسة أيام، ثم قطعنا بعدها سهولاً مثل تلك السهول التي قطعناها عند الخروج من فزان، مع فارق بسيط هو أننا نجد في غريان مضارب بدو من العرب هنا وهناك، لقد خرجنا الآن من المخاطر وماعدنا نخاف سوى الله. لقد اهتم بي الموقر بوبكر اهتماماً شديداً وعاملني بكرم، فأرغمني على الأكل معه، وغمرني برعايته، وعمني باطرانه وقممني لإمامة الصلاة كان يستشيرني ويقبل رأيي في جملة مسائل فقهية وشرعية وعقائدية.

أما البشر الذين كانوا معنا، فبدأ لي فارغين من أي محتوى ديني وماكانوا يعيرون أمور الإيمان والشريعة أي اهتمام، فلم يصلوا أبداً ولاشئاً محرماً أو محظوراً عندهم، فتساوى عندهم الفضيلة والجريمة، يقسم البشر دائماً بالطلاق بالثلاثة، مضروبة في ثلاثة ومضافاً إليها ثلاثة للمسلم إذا قسم بالثلاثة لأي سبب وفعل بعدها الشئ، فعليه أن يطلق زوجته ثلاثاً بمجرد الفعل الذي أقسم به، ويقسم البشر على سبيل المبالغة (بالثلاثة) مضروبة في ثلاثة مضافاً إليها ثلاثة.

يفتخر البشر دائماً بعدد الأعداء الذين قتلهم ونهبهم، ويندم على مضي تلك البطولات ويتمنى لو عادت، كنت عند ذكر مثل هذه القصص والبطولات أقول للبشر: 'هذه الأعمال إجرامية لايرضاها الله، كفوا عن الأفعال الشريرة، توبوا' فيقولون: 'نحن ناس الحرام هذه حياتنا نعيش على الممنوع، وتزمننا مثل هذه الأعمال، أنها منافع أرسلها الله إلينا لكي نتمتع بها، ونعيش عليها، خلقنا الله بدواً وأسكننا هذه الصحارى' كنت ألتوا عليهم بعضاً من آيات القرآن الكريم، وأقرأ لهم بعض الأحاديث، دائماً فيما يخص عادات القتل والنهب والسلب، لكن البشر يضحكون عليّ، ويعنون ما أقرأ وأفسر مزاحاً، وأكبر دليل على أن المواعظ لم تنض إلى شيء هو أن أحد البشر واسمه كاتار، قال لي ذات يوم: ياشيخ أنت سعيد بأن كنت اليوم تحت حماية بوبكر بن رديون ولولاه لكانا استولينا على ما عندك من جمال وعبيد' وجملة القول: أن هذه القبيلة لاتؤمن بشيء، لا إيمان ولا دين عندهم، ويتساوى في ذلك كبيرهم وصغيرهم، ولا يوجد استثناء تقريباً، وإن وجد فقلة من العجزة والمعالين، فكل ما عند هؤلاء من إسلام يتركز فقط على

الشهانتين وهى: " لا إله إلا الله محمد رسول الله " لقد أئمنى قول وصحبة هؤلاء
الرجال لكن كان على أن أبقي فقلت فيهم هذا البيت:

هؤلاء مرفاق لأصحاب وعلى الصياد مرافقة الكلاب

ولحسن الحظ لم يدم ذلك طويلاً، فعندما عبرنا غريان لم أعير البشر
اهتماماً، فقد كنت أأمل غنى وخصوبة البلاد، ثم اننى كانت تلاحقنى فكرة
العصيدة الخائفة التى كانت تتردد علينا كل يوم، وتقوم بخلق المسافرين التعساء،
وقد كتبت لنكرى هذه الأرض أرض العصيدة السعيدة هذين البيتين (بتصرف):

نعم الغريان أرض شهيرة أرض غنى وخيرات وفيرة

وهناك ملاعبة المسافر العصا. هى العصيدة

تغضى الغريان حقائق الفاكهة، ومراعى وحدائق عانية ويعمها عدد من
مجارى المياه ولكن المسافر لا يذوق ثمرة إلا بعينيه، فمن يمد يده لفاكهة واحدة
يرجم بالحجارة أو بالعمى، أو يقتل برصاصة، فثمار هذه الأرض وكل أشجارها
تنقل لتباع فى طرابلس، وقد قلت فى هذا الشأن هذه الأبيات (بتصرف):

غريان أرض الحدائق الساحرة تملؤها الألوان الباهرة

تبهج النفس والروح معاً دون مس أو ذوق للمسافر

وأخيراً عندما رأيت الغريانيين يسكنون تحت الأرض كالموتى ويخرجون
كالأشباح من أجدانهم عندما يسمعون صياحاً، فخطر لى أن أكتب قائلاً (بتصرف):

الغريانيون سكنهم القبور يشبه خروجهم منها يوم النشور

توجهنا من غريان مباشرة صوب طرابلس، والتى دخلناها فى المساء
ورأينا تحت بابها رجلاً مشنوقاً على الجدار، فنزلنا فى بيت محمد بن يونس، أحد
أعوان يوسف باشا، وقد كنت نزلت فى مرزق أيضاً فى منزل محمد هذا.

لم أبق سوى أيام معدودات بطرابلس، وقد زرت المدينة وبيدو لى أن
شهرتها أكبر من حقيقتها، وقد يأوى كل سكانها حتى واحد من أحياء القاهرة

والمدينة بقلاعها وحصونها يبتلعها ولا يترك شيئاً ظاهراً خارجها، حتى يرجون
ويمكن اخفاؤها كلها في حي الجوينية بالقاهرة.

تشبه بيوت طرابلس بيوت مدن محافظات مصر، وتحديدأ تشبه بيوت
الاسكندرية قبل أن يعيد محمد علي بناءها وترميمها، لا يوجد في طرابلس سوى
بابين: أحدهما في اتجاه سوق الثلاثاء والذي دخلنا به، والآخر بجانب البحر،
وتوجد في النهاية قاعة كبيرة تسمى سوق الرب، في كل مداخل هذه القاعة
وضعت أبواب يقف عليها حراس وكلاب لحراستها في الليل، كل التجار أو جلهم
من جزيرة جربة، ولا يوجد من أهالي طرابلس الا القليل الذي لا ينكر، ويوجد
أيضاً سوق الترك، والذي يتكون من صفين من النكاكين بكل صف حوافي خمسة
عشر دكاناً وتباع في هذا السوق الملابس وأشياء أخرى أكثر أو أقل قيمة على
طريقة المزاد، وأخيراً أيضاً يوجد سوق الكاملى أو سوق الدلالة حيث تباع فقط
الأدوات المستعملة أو القديمة.

إن أجمل مساجد طرابلس هو مسجد الباشا المقابل للقاعة، وهي عندما
دخلتها عبارة عن متراس مشابه لقلاع أحد الكشاف، وقد لا يساوى منزل به في
مصر، وفي أحسن أحواله منزل باشا.

في الزمن الذي كنت فيه بطرابلس كانت العملة السائدة تُقِيم بقيمة ضئيلة
جداً، فالريال التونسي، والذي يقدر بثلاث الدورو الاسباني أو ثلث الفلاري
النمساوى، يعادل تسعمائة وخمسون ريالاً طرابلسياً^١ وأقول يعادل لأنه لا يوجد في
الحقيقة عملة تسمى ريال طرابلسى، فالمسألة لا تتجاوز تقدير شفاهى أو خيالى،
صار مستخدماً، ومن خلاله يقدر الطرابلسيون قيمة بضائعهم^(١).

لا يوجد في طرابلس من الأطعمة الجاهزة للبيع الا طرشى البازنجان، أى
يعنى ثمار البازنجان مغليو بالخل، والذي يعد من الأطعمة الراقية، والمرغوبة
في طرابلس ويمكن للمرأ أن يحصل على غذاء مرتجل، بشراء رخيصة بخمسين
ريالاً وطرشى بخمسين أخرى.

^(١) نوضح لبعض من القاص: متى ترحلوا لمسة.

لما الذى يبعث عن مائدة فعلية أن يشتري كباباً، وهو عبارة عن قطع كبيرة من اللحم على حجم الجوز، ترص في قطعة حديدية وتشوى على الجمر، أو يشتري لحماً مطبوخاً، أو المعصيدة، عليك أن تضحي من أجله بستمائة ريال على الأقل.

يعقد سوق بين طرابلس والمنشية في يوم الثلاثاء من كل أسبوع وهو سوق يعمه عند معتبر من البدو، وأهالي طرابلس وضواحيها بالإضافة إلى سكان المنشية، قد يجد المرء صعوبة في المشي في السوق نسبة لكثرة عدد الناس، ويجتمع في السوق تجار الأكمشة والطرابيش في صف، وتجد باعة الأدوية في صف آخر، وفي ثالث تجد الجزارين الذين يذبحون ويبيعون في ذلك اليوم كمية من الخراف الجديدة.. وترى اللحم المنشور الناظرين، في ذلك اليوم يتمتع كل سكان طرابلس باللحم الطازج، أما في الأيام الأخرى عموماً فلا يوجد إلا الميسورين الذين يستطيعون إرسال من يجلب لهم اللحم من سوق الجمعة في المنشية، والذي يبعد حوالي ربع ساعة فقط من طرابلس.

إن المنشية مدينة ذات مساحة بامتداد وطول واسعين، وقد لا يعبرها المرء في طولها إلا في أربع ساعات، بيوتها مبنية على طراز بيوت مدن المحافظات في مصر، باستثناء بيوت وقصور الأكابر.. أن السبب في طول المنشية يكمن وراء أن كل بيت (عزبة) فيها حديقة ذات أشجار ونخيل وأرض زراعية، وتقريباً كل السكان من العرب البدو في الأصل.

عند إقامتي في طرابلس كررت بيع ماعذى من رقيق، وأن أقبض القيمة نقداً، لأنه كان في الميناء سفينة تستعد للبحار إلى تركيا، والسعر كان مجزياً، ولم أبق إلا لمة واحدة من الباقرة اسمها زيتون، ثم استبدلت عند أحد اليهود ماعذى بنقود تونسية.

ثم ركبنا في قارب كبير متحرك صوب تونس، وبعد ثلاثة أيام من العبور أو السفر بحراً، وصلنا إلى جزيرة جربة، فنزلنا واشترينا بعض الطعام، ولكن بسعر أعلى بكثير من أسعار طرابلس، ثم ركبنا مرة أخرى وأبحرنا صوب صفاقس، والتي وصلناها بعد يومين من مغادرة جربة نزلنا بعد ساعة ونصف من

مغيب الشمس، ولم تكن تعرف أحداً بالمدينة، ولم تعرف أين ننام، لقد قادونا إلى وكالة بالقرب من باب البحر، حيث قضينا لثمن الليالي، ليلة كنا فيها غرباء مهملين لا يعرفون أين ينزلون، أو أين يدخلون، كانت الغرفة تطفح بالغبار الذي لم نستطع نفثه، إذ كان الليل دامساً، ولو كنا بقينا بالمركب لكن أفضل عشرين مرة، بدا الليل طويلاً بلا نهاية، واستسلمنا كغرائس للحشرات: القمل والبعوض.. وبدا لنا وكأن الصبح لن يأت أبداً ليعلم بداية النهار، وأن الليل لن يجر أنياله أبداً وببزوغ الفجر هربنا من أسرتنا بأسرع ما يمكن كالتصوص، فأسرعنا لأداء صلواتنا بصلوات بالجهر وأخرى بالسري.

ذهبت لزيارة مدينة صفاقس وأسواقها فوجدت سكانها أجلاً بحق، حمر مستوحشة، ولا يجيبون على سؤال، ولا يسمعون شيئاً، حيوانات حقيقية في شكل بشر، اللهم إلا استثناءات نادرة، يتغذى سكان صفاقس على خبز الشعير والذرة الشامية، أما اللحم، فيستهلكون كميات من المبارس فقط، وهي صغار الأسماك التي تسمى في مصر بالبصير، وقد يستغرب المرء لكون صفاقس استطاعت أن تجذب علماء وكتاباً معتبرين، وشعراء، مثل علي حوليقي، والشيخ مقديش والشيخ علي غراب، أشهر الفقهاء، والذي عمت شهرته كل تونس، فقد كتبت عن غراب أبيات ساحرة وشعر في أبيات متفرقة، كحكم مأثورة، ولولا مخافة أن أطيل لسردت بعض أبياته كنيل لمؤلفاته المليئة بالحس والرفقة والروح والذوق.

تشتهر صفاقس بحدائقها الكثيرة، وبأشجارها المثمرة، ويكثر فيها الفستق الأخضر، وهذا النوع من الفستق كان في الطلب القديم وصف لتقوية النكاح، وتطويع المقدرات الذهنية وخاصة عند الأطفال، ويكثر أيضاً اللوز، وتبازنجان وخاصة الشمام الرومي، هذا اللوز يسمى في مصر التفرك وهو نوع سهل الفتح، ويكفي أي جهد بالأصابع لفتحه، أما الشمام الرومي في صفاقس فأحلى من السكر. ويبيع السمك في صفاقس بسعر زهيد مجافاً تقريباً، وقد اشترينا مبارس بالكوم، وقد يزن الكوم خمسة أو ستة أرطال، ولا يساوي ثمن الكوم الواحد سوى فروبية واحدة، أو أربعة نثرين، أو ربع ريال تونسي، أما السمك الكبير فيباع بالوزن أو بالتقدير أو بالقطعة، ولكن دائماً بسعر زهيد.

زرت في صفاقس عدداً من المساجد وأكبرهم ما يسمى بالمسجد الكبير
والذي يسمعون تقريباً نفس سعة الجامع الأزهر في مصر، ولكنه دائماً مهجور إلا في
ساعات الصلاة (بمعنى أنه لا تقام فيه أي دروس) يوجد في صفاقس بازار (سوق)
صغير لمحت فيه محلين للأدوية، أحدهما كبير وبه عدد من الكتب وضعها الطبيب
مالك المحل أمامه، وبجانبه ميزان يزن فيه الأدوية، أما داخل المحل فمزدان
بالزجاجات والتمائم، سألت هذا الطبيب عن الكتب التي أمامه، فأجاب: إنها الكتب
التي استشيرها وأبحث فيها عن الدواء الذي لسا عنده، وأي دواء أو وصفة وأي
جرعة للأدوية المختلفة.

استرحنا لمدة ثلاثة أيام في صفاقس، واستأجرت حمارين، وفي صباح اليوم
الرابع سلكت درب تونس، وخرجنا مع بداية النهار ومعنا كل ما نحتاج لخمس
محطات أي خمسة أيام من المشي، لقد وصلنا نهاية الرحلة حوالي الساعة الثالثة
أو الرابعة بعد الظهر.

في هذه المسافة بين صفاقس وتونس بدت لي غريبة قرية الجسم بقلعتها
وأسوارها القديمة العالية، وهي قلاع ذات طول غريب ومبنية بشكل محكم.
على الجدار فتحات صغيرة عمودية، تقبت عند بناء القلعة تشبه هذه الثقوب
تلك التي ترى في هياكل بعض القرى، والتي يحتتمي بها الأهالي عندما يهاجمهم
العدو، وتشكل كرات رمي حقيقية تطلق منها الذائف، كانت القلعة بلا سقف وبلا
سلم فسألت صاحب الحمير التي استأجرتها عن من الذي بنى هذا البناء، فقال: بنى
هذا البرج في زمن المجوس، بناء العماليق، وقد بنته امرأة أقامت فيه، وكانت تقيم
بشكل طبيعي في القمة، وتقضي نهارها تنزل الصوف.. وكانت تنزل بشكل جيد
لدرجة أن أبناءها ينزلون به من أعلى القصر إلى أسفل.

وفي تونس سألت عن قصر الجمل ولكني لم أجد إجابة شافية، لم نجس في
الجمل ما هو أرخص من التين المشوكي، وقد استريت منه حمل حمار بربيع ريال
تونس، فأكلنا مليء بطوننا وتركنا باقيه.

الدخول الى تونس وملاقة الوالد

أقربنا من تونس، لمحناها من بعيد، تبهر العيون ببياضها الناصع وزجاج بيوتها العاكس، وبرنداتها المغطاة بالحديد الابيض، وقبابها المغطاة بالقرميد شبه الأسطواني، ومطلية بالبرنيق الأخضر، وصلنا دمازات صباح خميس في الثالث الأول من شهر شعبان، ونزلنا في وكالة مسافري صفاقس.

استأجرت على الفور حمارين، حيث وضعت عليهما معدات مطبخي وفراشي وركبت انا في واحد، وأمتى على الآخر، ودخلت المدينة سائلاً عن: أين يقيم أبى، فأخبروني بأن المنزل مغلق، وأنه في مساقية، أى حديقته بلفة أهل طرابلس وتونس، ومازال الناس يسمون البئر التى يسقى الناس منها الحدائق والمزارع مساقية، وخاصة فى قران، إذ يستخرج الماء بواسطة ثور يبتعد ويقرب من البئر بالتأوب لانزال الدلو ثم جره، والكلمة: مساقية، مشتقة من الفعل: ساق، ماضى يسنو بمعنى يسقى، أو يجر الماء من البئر، سألت عن المكان الذى توجد فيه مساقية أبى والطريق المؤدى اليها، قالوا لى إنه فى مكان اسمه حقر أو حفار، ولكى أذهب الى المساقية، يجب أن أخرج من الباب الأخضر الذى يؤدى الى طريق قرية عريانة، فتبعنا الوصف حتى وصلنا المساقية عند منتصف النهار، فدخلنا ولمحنا أحد العبيد فسألنى عن: من أنت؟ قلت: مسافر ضيف الله جنت من وداى، كانت هذه الكلمات كافية ليعرفنى، فجرى يخبر والدى، والذى كان يعمل مع رجاله فى الحديقة، وكان لايزال معه حوالى اثنتى عشرة جارية سرية، وخمسة خدم من العبيد، وعبدان من السود، يسمى أحدهما: خميس والثانى سعدان، إضافة الى ذلك كان قد أعطى أمه جارية شابة للعناية بها، فجاء والدى على الفور، سلم على وقبلت يديه واصطحبنى الى داخل المنزل الذى يسكن فيه، ثم جاءت بنتا عمى وبنتا المرحوم محمد مع أختى، واتى ولدتها سرية أبى المفضلة فى دارفور، واتى تركها لعمى زروق فى وداى، جاءت الثلاثة الى وتقدمن بالتهنئة لى على العودة، ثم جاءت جنتى وأنتى شمرتى بلطفها وحفاوتها.

بعد قليل قمت لنا وجبة وبعدها حكيت لوالدي ظروف سفرى وكل ما حدث
لى ملوأل غيابى، ومنذ خروجى من دارفور الى وداى، وحتى وصولى الى تونس،
لكنى لم أتحدث عن النقود التى كانت فى حوزتى وقلت أيضاً لخادمتى ألا تتحدث
عن ذلك الى أى من كان.

وفى المساء أمر أبى خدمه أن يعدوا لى الحمام، وعندما جهز جلبوا لى
ملابس جديدة على طريق لبس أهل تونس، ثم قال لى: قم استحم، فلن الحمام
سيرحك، ونظف غبار السفر.

وأجبت على طلب والدى ثم جاءت خادمة وأخذت الملابس التى خلعتُها،
وكانت نقودى فيها، وكانت تتكون من محبوبات ذهبية مصرية وقسطنطينية
وبعض ريالات تونس محفوظة فى الحزام، وعندما أخذ والدى الحزام ووجده ثقيلاً
فتحه وفرغه فى أسفل جلبابه، ثم ذهب وصبها فى خزانة دون أن يعدها أو
يتفحصها: وكنت أنا فى الحمام لم أر شيئاً من كل ذلك.

خرجت من الحمام ولارتديت ملابس، وأخذت حزامى لى لأربط به ردائى،
فوجدته خالياً كنزاً أم موسى، بقيت مرتبكاً، وقد تبدد فرح عودتى، كنت أمل بعد
بعضة أيام من الراحة مع أبى أن أشتري بضائع مناسبة وأعود الى وداى، كنت
أريد العودة بحثاً عن الثراء وعن مستقبل أكثر يسراً، ولكن مع ضياع ثروتى
القليلة هذه، بفعله أبى بأن اجنحتى قد قصت، وبالتالي أصبحت عاجزاً عن مواصلة
الطيران، تحجرت ولم أعد قادراً على النطق بكلمتين، فلاح لى أمل ضعيف
وتخيلت بطيبة أن والدى أخذ نقودى ليس للاستيلاء عليها، وإنما ليحفظها ويردها
لى متى أشاء، هددت نفسى بهذه الأوهام لأهدى حمى النهم الذى أخذ قلبى.

وبعد أيام جاء الى بيتنا فقيه من مصر اثة اسمه عمر، ينتمى الى عائلة شيخ
مشهور بتقوى، هو الشيخ أحمد زروق، قطب الفضيلة، وكانت الوظيفة (وهى
مجموعة من الأدعية تقرأ لمدة ساعة أو ساعة ونصف، تقابل مانسميه 'المسبحة'
الساعات، من قرأ هذا الحرز يبقى فى مأمن من كل سوء حتى اليوم التالى.

تربط الفقيه عمر صداقة بوالدى فى وداى، وكان والدى مسروراً برويته،
فاستقبله وعنه باهتمامه، واستضافه فى البيت فى الجزء الذى أسكن فيه، لقد خففت

عنى أحاديث الفقيه العجوز، لأنه كان رجل علم وحصافة وحكمة، وكان ينبغي
مهذباً فى القول والفعل، وهو علم غزير ومتنوع، فخطر لى ذات يوم أن أحدثه عن
نقودى، وعن الكيفية التى استولى بها والذى عليها، وأنه بذلك دمرنى وجعلنى بلا
مورد، وحزنت ولا أعرف إن كان قد استولى عليها أم أنه سيردها لى.

فقال لى الشيخ عمر: سأمستبين والدك هذا السماء حول نواياه فى هذا الشأن،
وفى صباح اليوم التالى، ذهبت الى الفقيه وسألته عن نتيجة حواره، فأجاب:
ياصديقى العزيز ماأن بدلت حديثى الذى أوكلتلى بنقله اليه، حتى تقطب حاجبا
أبيك، وتجهم وجهه، وقال لى بلهجة صارمة: من أين جاءه هذا المال، إن هذا
المال مالى، وهذه ثروتى، إن كان ولدى قد جمعها من حرث الأرض، فالأرض
أرضى، وإن كان من التجارة، فراض المال الأولى كان من مالى، وإن كنت ممن
عطايا السلطان فهى بسببى، لأنه أعطاه إكراماً لى، فإن تحدثت لى مرة أخرى
عن هذا الموضوع سأطرده من هنا دون أى شيء غير الملابس التى يرتديها،
وسأضرب مثلاً يحتذى فى الصرامة له وللآخرين، فكان أن أسكت، والافماذا كان
يمكن أن يكون، فلم أقل كلمة، فأنار فى غضباً جديداً، ونمت بعمق على أننى لم
أفكر فى إخفاء كنزى الصغير فى مكان آمن، وبعد أيام نادانى والذى وقت لى:
أريد أن أسافر مرة أخرى الى وداى، لأحضر أولادى وأسرتى من هناك، وأرتب
أمورى، أما أنت فستبقى هنا فى السانية، سأتركها لك مع الأرض الملحقة بها
مقابل النقود التى أخذتها منك، راقب هذه الحيازة، أزرع الأشجار وأقلمح الأرض
الصالحة وسأترك لك كل مايلزمك لذلك، الثيران للسقى والحرث، وأدوات العمل،
وإضافة الى ذلك سيكون لك فى المكان الذى تحفظ فيه الغلال مخزون جيد من
الشعير، لتغذية البهائم، وكمية من القمح للزراعة ولاستيلاككم جميعاً، وعندك
أيضاً الخمكسى، أو عمال الخمس، وسيكون معك أيضاً عبدى خميس وزوجه
سعدان، وابنتها، ثم أوصيك بأمى، وبذات عمك، فأوليين عنايتك، قلت يا والذى
لماذا تعرض نفسك للمخاطر والتعب برحلة طويلة كهذه، فقد تقدمت بك السن،
وسنكون هذه المسافة شاقة بالنسبة لك، أسمح لى بالسفر فى مكانك، وسأقوم مقامك
فى ترتيب المسائل والقيام بكل ماتريد، أعطنى فقط خطابات للسلطان، وأخيك

زروق والننى اتعهد بان كل امورك مستتم على خير، وانت تبقى هنا فى الصوم
والراحة.

فأجاب بحزم: لا، لا، لا أحد يستطيع أن يصفى أمورى غيرى، ولاستطيع
أن تحل محلى، فسافر وذهبت الى تونس معه، وترك فى الساقية أمه وبنات أخيه،
كان ذلك فى رمضان، فقضينا باقى شهر الصوم فى تونس، وفى هذه الفترة باع
والدى كل عبيده، ولم يترك الا سعدان، وأعد طرداً من مختلف البضائع المطلوبة
فى وداى، واشترى مجموعة أشياء كان يود ان يهديها الى سلطان وداى، وكان
من بين هذه الأشياء ساعة حائط تصدر موسيقى لمدة ثلاث أو أربع دقائق قبل
إعلان كل ساعة، ثم ترن معلنة تمام الساعة، لقد كنت والذى غالياً، حيث دفع فيها
مائة وستون ريالاً تونسياً (٢٦٥ فرنك) وتكونت الهدية أيضاً من بعض الكتب،
وكمية كبيرة من الشاي (لأن السلطان صابون مولع به) وخرز ذات جودة عالية،
وملابس قيمة، وشمع أبيض كالكافور، وبعد انتهاء الإعداد للسفر غادر والذى
تونس وكان ذلك فى شعبان عام ١٢٢٧هـ (مايو ١٨١٢م).

بقيت لبعض الوقت فى تونس، ثم عدت الى الساقية، بقيت هناك مع بنات
عمى، وكنت حينها قد تضاعلت الى الصفر، صفر من الذهب، وصفر من الفضة،
اقرب الشتاء، فأعددت الأرض وزرعتها وكنت عندما أحتاج أبيع شيئاً من
مخزون الشعير.

بعد سفر والذى بقليل اقترحت على جدتى أن أتزوج بنت عمى الصغرى،
رفضت فى الأول، لكننى أخيراً قبلت، وتمت الخطوبة فى شهر ذى القعدة،
وتزوجت نهاية ذى الحجة.

مر عامان، وفى نهاية عام ١٢٢٩هـ (١٨١٤م) أخبرنى محمد يونس بوفاة
والدى، فرتبت لمرى للسفر مريعاً الى طرابلس، فخرجت، وكان على أن أسافر
الى السودان، ولكن لعدم وجود قافلة متجهة الى فزان كان على أن أنتظر، وبعد
قليل وصلتنا قافلة من مرزق كان من بين مسافريها سعدان عبد والذى، فذهبت
لمقابلته، فقال أن والذى أرسله من وداى الى فزان بعبد من العبيد، وبعد بيع العبيد
فى مرزق وعندما كان يستعد للعودة الى وداى سمع خبر وفاة سيده، وبعد ذلك

وصل الخبر الى مسامع المكنى حاكم فزان الذى استولى على ثمن ثريق والبالغ ٩٦٠ تسمانة وستون دورو، كما صادر المكنى منه جملاً وملاية حجازية، فذهبت وأخبرت محمد يونس بهذا السلب، فكتب لى على الفور أمراً باسم يوسف باشا الى المكنى لأرجاع المال الذى أخذه من عبد والذى.

وباستلام الخطاب اشتريت هدية معتبرة للمكنى، وبعد أيام تحركت القافلة الى فزان، فخرجت معها، فتبعنا درب بونجيم وسوكنة (تبتعد بونجيم عن سوكنة مسافة أربعة أيام من المشى، وعندها دائماً يهاجم عرب بنو سليمان القوافل، مابعد ذلك فالتريق آمن وجيد) كان المسير سريعاً ومناسباً ودون أى عوائق، وصلنا الى فزان ثم الى مرزق، وذهبت على الفور لمقابلة المكنى، وسلمته الأمر الذى كنت أحمله، لم يقض المكنى لى حاجتى على الفور، وكان يماطلنى يوماً بعد يوم، وبعد مدة طويلة وجهود، وبشق الأنفس سلمنى ٩٦٠ (تسمانة وستون دورو).

كان القافلة التى اتيت معها من طرابلس قد غادرت مرزق، وكان على أن أنتظر قافلة أخرى، وفى هذه الأثناء اشتريت بضائع متنوعة، يمكن أن تباع فى وداى بسرعة، وكنت فى مرزق أذهب دائماً لزيارة الفقيه على مهادى، وعندما كنت على وشك السفر، احتاج الفقيه الى بعض النقود فطلب منى مائة دورو فأعرتة إياها، وكتب لى مستنداً بذلك.

أكملت القافلة ترتيباتها وغادرت، وعبرت المسافة التى تقع بين فزان وأرض التبورشاد، وعندما وصلنا الى تخومهم رأينا قافلة كبيرة قادمة من وداى فلمحت فيها عمى زروق، لقد عاد ومعه كل مائرك والذى من ثروة، وكذلك ثروة عمى المرحوم طاهر وشركائه فى التجارة.

تسألنا وتوقفت القافلتان، وقبلنا أن تستجما لمدة أربع وعشرين ساعة نزولاً عن رغبتنا أنا وعمى، عندما كنا فى وقت الراحة تحدثت مع زروق عن أبى، سألته عما بقى لنا من ثروة، فقال لى: إن أبى لم يترك شيئاً، مع أنى عندما غادرت وداى لم يكن لزروق سوى أربعة عبيد، بالإضافة الى جواريه، لكننى لرى له فى القافلة مايزيد عن المائة عبد، ومائتى جمل على الأقل، وعلمت أن له شحنة من ريش النعام، وشحنة من المرجان والحلى الفضية، من الأساور ولم شقة

والمحار، وأن كل مسافر في القافلة قد استدانوا منه نقوداً أو جمالاً أو غلة، ولاحظت أيضاً أن كل من كان في القافلة تقريباً تحت أمره وخدمته، وأنه عليه أن يقول فقط يأمر أو ينهى والكل يطيع.

ترجيت الذين كانوا يعرفون زروق ويعرفون ثروته الشخصية أن يشهدوا لي أو يقرروا لي أمام المحكمة، لكنهم رفضوا، خشية أن يغضبوه، لم يكن لي عون أو نجدة أمل فيها، عرفت أن أحد المسافرين يريد العودة إلى وداي، وأن لديه عشرة من العبيد الشباب يريد بيعهم، اقترحت عليه استبدال عبيده بما كان عندي من بضائع، فقبل وتم التبادل في الحال، وعدت إلى فزان مع القافلة القادمة من وداي، والتي فيها عني زروق وبقية أقربائي ممن كانوا يرافقونه.

بمجرد وصولي إلى فزان شكوت زروق، لكن لم يهتم أحد بالقضية، كان زروق يحمل أوراقاً بها إقرار والذي بأن أخيه هو شريكه في كل ما يمتلك في وداي وتونس، وشهد على ذلك الفقيه عمر الذي تحدثت عنه، وشاهد آخر، ثم وثق ذلك بختم الفقيه نور كبير قضاة وداي، اقترح زروق أن يرد لي نصيب القليل من الارث، وكاد النزاع بيني وبينه أن يكون عنيفاً، ولكن تدخل بعض الناس وحثونا على الصلح فرفضت لنصائحهم، وقبلت استلام ثمانية عشر رقيقاً، ولقطع الطريق أمام أي اعتراض لاحق، كتبنا مكتوباً بأن زروق لم يعد مداناً لي بشيء، وأنا لن أطلب منه شيئاً بعد اليوم، بالتمام الاتفاق رد لي زروق لأختي الصغرى والتي كانت أمها جارية من أصل ميدوبي والتي كان قد أعطاها سلطان دارفور لوالدي مع جارية أخرى زغاوية، فالتحرت الزغاوية لأنها كانت تغار من نساء والدي.

أسرعت للعودة إلى تونس، في هذه لم تدم غيبتى سوى عشرة أشهر، وعند عودتي كانت كل ثروتي على ما اعتقد خمسة وعشرين عبداً وفي هذه الرحلة الأخيرة تحملت مشاقاً كثيرة، ومتاعب ومخاطر لن أنكرها حتى لا تكون حكايتي طويلة ومملة، كانت عودتي إلى تونس حدثاً وعيداً لأصدقائي، وبعد أيام من وصولي وبعد ترتيب أموري شهد الله بأن الناس جاءوا لزيارتي من كل حذب وصوب وتهنئتي بالعودة، وشراء العبيد الذين جلبتهم، وفي زمن وجيز بيعت كل

العبيد والجواري ولم أبق معي إلا واحداً يسمى سعد، أما العجوز سعدان فقد اعتنقته
صدقة جارية لوالدي، ولكنني أبقيت زوجته وابنته في عداد عبيدنا.

كان نصيب جدتي من الارث جارينين شابتين الحقتما بخدمتها الخاصة،
أما أنا فكان نصيبي من بيع عبيدي قد وصل إلى ألف محسوب أو أربعة آلاف
 وخمسمائة ريال تونسي، وعندما حصلت على هذا المبلغ اشغلت بزراعة السانية،
ولكنني لاحظت بعد ذلك أنني كنت أخسر وإن هذه الحيازة تصلح لرجل غني
يمتلكها للرفاهية، ولما كانت بلا ربح بعثتها بكامل ملحقاتها بثمانيّة ألف وخمسمائة
ريال تونسي (٨٠٠ ص) وفي هذه الفترة ماتت اختي الكبرى، وبالقائي عداد السيِّ
مُلقائياً للتدان من نصيبها في الميراث.

أقيمت في تونس حوالي عامين، كانت الأسرة كبيرة والغلال غالية، وقد
صرفت لمعيشتنا قسطاً كبيراً مما كنت أملك، فأبقيت بأنني إذا بقيت هكذا لعامين
آخرين، ستلاشي ثروتي الصغيرة هذه تماماً.

فقررت أداء شعيرة الحج، وعند المرور بالقاهرة يمكنني زيارة والدي التي
كنت قد تركتها منذ سفرى إلى السودان، فأعددت لهذه الرحلة الجديدة، كان والدي
يمتلك بيتاً في تونس، واشتريت بيتاً آخر بالقرب من دار الباشا (خزانة الحربية)
بمبلغ ثلاثة آلاف ريال.

طلبت من بنت عمي وكانت حينها زوجتي أن ترافقني إلى الحج، لكنها
رفضت، فاشتركت في صفقة طرايبش مع صانع الطرايبش المشهور محمد
البري، والذي أوكنته إدارة شئون بيتنا في غياي، وأخيراً غادرت تونس في شهر
رجب، كان في حينها الشيخ أحمد السناري الملقب بابن الطيب في تونس وكان
أيضاً ينوي الذهاب إلى الحج، وللمصادفة السعيدة خرجنا في وقت واحد، والتقينا
عند باب المدينة، ومن ثم استأجرنا معاً مركباً صغيرة، كان ذلك في يوم الجمعة،
وبعد صلاة الظهر ركبنا من ميناء حلق الواد، ميناء تونس، لكننا لم نتحرك إلا بعد
ثلاثة أيام، حيث أخذ الرئيس^(١) هذه الثلاثة أيام يرتب أموره في المدينة.

^(١) الرئيس لو الرئيس: هو الرئيس قائد المركب لو الرئيس.

وأخيراً أقمنا وقضينا الليل في البحر، وفي اليوم التالي كنا في ميناء مومسة
أكثر المدن إثارة للانتباه في أفريقيا بعد تونس، معمار مومسة رائع، ومكائنها
طيبون، وبشوشون، توقفت فيها ثلاثة أيام، وكان سبب ضياع هذا الوقت يعود
أيضاً للرئيس، سألناه لم يؤخر القيام هكذا؟ فقال إنه ينتظر شحنة من الصابون في
الموق فقلنا له: ألا يمكننا في وقت انتظارك هذا أن نذهب إلى القيروان لزيارة قبر
المصطفى الجليل عبدالله بن أبي زامة، ومشعور قبل أن تستعد للسفر، قال: حسناً
يمكنكم الذهاب إلى القيروان، فاستأجرنا محطياً، وفي صباح اليوم التالي كنا في
الطريق، مررنا بمستير ومساكن، وفي اليوم الثالث لمغادرتنا مومسة وصلنا
القيروان، كنا سبعة أو ثمانية، بجانب ابن الطبيب الذي كان دليلنا وقائدنا، فزرننا
قبور الصالحين المدفونين في القيروان وقبل كل شيء قبر عبدالله بن أبي زامة
يوجد قبره في مكان بنى بشكل رائع وجميل، والتراب مرصوف بالرخام الأبيض
والجدران، مغطى بالرخام بمختلف الألوان وأطر النوافذ مزينة برسومات مختلفة
الألوان، أحمر وأزرق وبنفسجي... الخ. إن قبر هذا الولي بجمال وروعة تفوق
الوصف، ثم زرنا مقابر وقباب عدد من العلماء المشهورين كالامام أبوزيد، وابن
الناجي... وكلهم من أتباع الامام مالك المخلصين.

فقد استقبلنا واستضافنا مفتي القيروان، وعاملنا بحفاوة، وجاء عدد من
سكان المدينة لرويتنا، والتفوا من حولنا، حاولوا تأخير سفرنا بدعوتنا إلى ولائم
ومناسبات، لكننا كنا على عجلة للعودة إلى مومسة، اعتذرنا بحجة أن المركب
ينتظرنا، وتركناه على وشك أن يفك أشرعته، فرفضوا لطلبنا بعد لأي، أخيراً
غادرنا القيروان ورافقنا أكثر الشيوخ اعتباراً لمسافة طويلة خارج المدينة،
وعبروا عن أسفهم لمغادرتنا، لقد غمرونا بلطفهم.

عدنا إلى مومسة وكانت السفينة في نفس مكانها، بقينا يومين آخرين في
مومسة ولا أعرف لماذا لم نذهب لزيارة أي من العلماء على الرغم من أن فيها
عدداً منهم، كان من بين المعتبرين منهم بعض أقاربي.

وضعت السفينة أشرعتها وبعد قليل كنا في لج البحر لا نرى إلا السماء
والماء ومررنا كذلك عشرة أيام متتالية، وفي اليوم الحادي عشر دخلنا ميناء

الاسكندرية، وبعد ساعة من مغيب الشمس رمينا الحبال، وقضينا الليل على
المركب، وفي صباح اليوم التالي ركبنا قارباً ونزلنا الى الأرض، واستأجرنا شقة
في الاسكندرية في وكالة نباشي، وفي اليوم التالي أرسلوا البضاعة الى الجمارك،
فكانت عليها رسوم دخول، وكان معي خطاب لأحد التجار، هو أحمد زياد المقيم
بالاسكندرية، لقد دفع أحمد زياد الرسوم الجمركية واستلم البضاعة التي جلبتها،
وهي طردين من الطرابيش، وحقبة (أحذية صفراء بلغة أهل القيروان، اشتريتها
من هناك، لم أبق في الاسكندرية سوى ثمانية وأربعين ساعة، وللذهاب الى القاهرة
ركبت الى روزيت، لأنه في ذلك الوقت لم تفتح قناة المحمودية بعد، عبرنا بوغاز
روزيت ودخلنا الى الميناء.

كنت أحمل خطاباً الى محمد نانا أحد أوائل تجار المدينة، ولم أبق في
روزيت سوى أربعاً وعشرين ساعة، وكان الوقت صيفاً، فتقضيت الليل في دار
نانا، لكنها كانت ليلة عذاب، فقد كنت فريسة للناموس الذي التهمني للحسد الذي
أرغمت فيه على ترك المنزل بالليل، وذهبت للنوم على شاطئ البحر.
وفي اليوم التالي وعند استيقاظي أقسمت على أن لا أبقى ليلة أخرى في
روزيت، وقد أنعم الله عليّ بأحد اصحاب المراكب على النيل ويسمى مصطفى
لاله، وكان يمتلك قارباً صغيراً، استأجره نانا بخمسة وعشرين قرشاً لي وحدي،
رفع لاله طردى الطرابيش، وكل ما كان معي، ففرشت السجاد الذي كنت استغله
كمقعد وسرير، كانت الريح مواتية، وفي أقل من ثلاثة أيام وصلنا بولاق، فنزلت
ونقلت بضاعتي الى الجمارك، وتركتها هناك، وحملت معي حقيبة أمتعتي
الشخصية وملابسي، استأجرت حمارين، وضعت على أحدهما الكريو، أي معدات
مطبخي التي عطلتها بفرائش وحقبة الأدوات المعفية من الجمارك، وركبت على
الأخر.

وصلت الى القاهرة وذهبت الى البيت الذي كنت أسكنه قبل ذهابي الى
السودان، وسألت عن أمي، فقيل لي إنها بصحة جيدة، فذهبوا وأخبروها بوصولي،
وبعد لحظات جاءت مع أخيها فهناوني بالعودة وأحسست فرحهم برؤيتي.

بعت بعض طرائدي بالاسكندرية، ودفعت أولاً رسوم الجمارك التي
أعارني إياها أحمد زياد، واستندت من المتبقى كمصاريف للرحلة، وبقي لي منها
مبلغ معتبر أعطيت والدتي منه مائة قرش لمصروفات المنزل.
استقبلت عدداً من الزوار، أشخاص أعرفهم وأشخاص لا أعرفهم، أتوا
لإلقاء التحية وتهنئتي بالعودة، وقد أعد عمي ووالدتي وجبة للاستقبال، بعد سبعة
أيام من وصولي إلى القاهرة اشتريت جارية حبشية جعلتها سرية، كانت بنتاً
جذابة، جميلة ناعمة، وكانت تعتني بمصالحى، ويقلب طيب ومحب، لم يكن لها أى
مزاج أو متعة أو رغبة أو أى أشواق غير شوقى وفرحى ومزاجى ورغبتى،
أبقيتها لمدة ستة أعوام ولم أر فيها سوى الرغبة فى إسعادى والفوز بحبى، ماتت
بداء الطاعون فى العام ١٢٣٧هـ (١٨٢١-١٨٢٢م) لم تسبب أى خسارة أئماً
وحزنأ لى أكثر من موت حبشيتى الجميلة، تغمدنا الله بواسع رحمته.

نهاية المطاف:

الآن، ولكي نكمل هذه القصة، أريد أن أعرض بإيجاز بعض الأحداث التي وقعت أثناء رحلتي من تونس إلى فزان، وعودتي من فزان إلى تونس، لقد قررت أولاً عدم ذكر تفاصيل بعض الأحداث خوفاً من أن تكون طويلة أو مملة، لكنني عدلت عن قرارى، فقلت إنه يمكننى كتابة هذه الأسطر الأخيرة لإكمال سرد كل ماحدث لى فى رحلتى، لأن مثل هذه الحكاوى تخدم مسافرين آخرين، ومن المفيد دوماً معرفة ماحدث للآخرين، حتى يتمكن المرء من تحاشي المشاق فى هذه الرحلات، ويعلم الله كم قاسيت وتخطيت صعاباً ومخاطر، وكان من الممكن أن أموت مائة مرة لولا أن انقضى قنرى، ولم تحن ساعتى الأخيرة.

عند سماع خبر وفاة والدى قررت العودة إلى وداى، وقد كنت يومها لا أملك أحمر ولا أبيض، ولا أصفر، وكنت كالمسافر فى الصحراء وقد تعب جسمه، وإمامه الفضاء الممتد والمعلش، وأحسست بالخيبة أعاننى الله.

لقد أعطانى محمد البمرى فى تونس حقيبة فيها خمسين نسمة من الطرابيش، كانت على الموضحة فى طرابلس، لأنها تباع فيها، ولاتباع فى غيرها، لأن لونها أحمر غامق، يميل للسواد، فقد كانت مصبوغة بالفضة مضافاً إلى القرمز، ولأن اللفظة الحريرية الخالصة مخاطة بخمسة من خيوط الحرير المذهب، بلغت قيمة هذه البضاعة البسيطة (١٢٥٠) ألف ومائتان وخمسون ريالاً (تونسياً) وأعلننى البمرى فوق ذلك (٢٥٠) مئتان وخمسون ريالاً وكتبت له مستنداً بألف وخمسمائة ريال، ووقع على المستند شهود.

لم يوافق البمرى على تسليمى الطرابيش والنقود إلا بعد مدة انتظار طالت لستة أشهر، وكان كلما اطلب منه الوفاء بالاتفاق يردنى إلى الغد يجيبنى بالوعود دوماً، حتى فترت من الالاحاح ولو أنى وجدت شخصاً آخر يعيرنى لتركت البمرى لأنه كان شديد الخوف على ماله، شديد الحرص على مصالحه.

وما أن خلصت حتى استأجرت جملاً من وكالة مسافرى صفاقس وقد جهزت كمية كبيرة من (الزاد) مرتباً لمرى على ألا أشتري شيئاً حتى وداى ومن

جملة ما كان عندي من أشياء جرة كبيرة من الفخار مقلقة بشبكة من الحبال صنعت من نبات الأسفل، مليئة بالقييد الناضج حتى تلتئها، والمغمور في الزيت، كان في هذه الجرة ما يزن خمسين رطلاً من لحم وزيت، لقد حمل الجمال، أمتعتني إلى الوكالة لأنه مازالت هناك ترتيبات في الوكالة، يجب أن تتم قبل المغادرة، وصل الجمال وأناخ الجمل وذهب لقضاء بعض حوائجه، وعندما خلص وعاد، انهض الجمل، فقام الجمل مسرعاً، فاتفكت جرتي التي لم تكن مربوطة بشكل جيد وسقطت وانكسرت، وساق الزيت على الأرض، وتناثرت حبات القيد لتنتثر بالتراب والأوساخ، لم تلتني الشجاعة الكافية لأجمع منه شيئاً، لكن بواب الوكالة وابنته وعدداً من الفقراء جمعوا ما استطاعوا جمعه، فأسفت لهذه الخسارة.

حادثة أخرى مزعجة حدثت لي عندما وصلت إلى صفائس في الحادي عشر من شعبان، وأسرعت مع بعض المسافرين للصعود إلى المركب للعبور إلى طرابلس، كانت نيتنا جميعاً الوصول إلى طرابلس قبل نهاية شهر رمضان حتى نتمكن من بيع ما عندنا من طرابيش، لكن شاء المولى غير ذلك، ولابد لمشيئته أن تنفذ، فبقينا في صفائس حوالي خمسة أيام ثم إقلعنا، كان المركب الذي ركبناه قلعة صغيرة ذات صاريين استأجرناهما أنا وجلون، من أمالي طرابلس، وعمرو الزفيرى وهو ابن أحد كبار أعوان يوسف باشا، وعلى الحنيذلي، من قبيلة حنافة أحد بطون زوارة، كنت قد اشتريت من صفائس عوضاً عن جرة قيدي المكسورة زيتاً وسمناً، واشترينا أيضاً كمية من الشمع الرومي.

تحركنا غادرنا الشاطئ مع موجة هواء باردة، واعتقدنا أننا سنرسموا في طرابلس خلال يومين، ولم نكن نعرف ما يخبئه لنا الغيب، في اليوم الثاني وصلنا إلى جزيرة جربة، ولقد يعلمه الله كان لربان المركب ثلاثة ملاحين هو رابعهم، فسأجر في جربة مع أحد ملاحيه لمنع الرجل من العمل، وأقسم أنه لا يتعامل مع هذا الملاح الماكر ولم يبق إلا رجلين للعمل، وكان من المستحيل أن يقوموا بكل شيء، احترنا في الكيفية التي سيسير بها هذا المركب النعس.

كنا نأمل أن يجد القبطان رجلاً بدلاً من جربة، قضى يومين في البحث عن الشخص، لكن كل الذين كانوا هنا رفضوا العمل مع القبطان، أو السفر معه، فقد

كان مشهوراً بسرعة الغضب والبداءة، ولا يعرف الحديث مع صلاح دون إهنته
وسبه بأقذر الاتفاظ واسوأ الشتائم، كان علينا إذن أن نبحر مع رجلين فقط، جلس
القائد على مقبض النفة وبدأ بأدلة العمل مثل: انزال الأشرعة طيها، إصلاحها..
وعندما يكون العمل كثيراً أو شاقاً عليهما يساعدتهما المسافرون، قضينا على ذلك
يومين من التعب والانهك، والأبحار (برضو ولابرضو) كما يقول البحارة من
أهل المغرب، وفي اليوم الثالث دخلنا رأس المخبر وهو ميناء ممتد تتخلل إليه
المراكب بعد منعطف، وهو مكان هادئ حيث لا يعرف المرء أنه في بر أو بحر،
قضينا ليلة هادئة هناك، وكنا نعتقد أننا سنواصل المسير صبيحة اليوم التالي، ولكن
ما إن ألقنا حتى هبت رياح شرقية أعانتنا إلى الخلف ولرغمنا على العودة،
فرسونا من جديد، رأينا صيادين في قارب، فاشترينا منهم كمية من السمك بسعر
زهيد، كان معنا في طرابلس رجل مسكين يسمى الحاج ميلاد، خبير في الطبخ،
أعطيناه السمك، فطبخه لنا، وبفضل الحاج ميلاد تعشنا بشكل جيد وبقي ما يكفي
للسحور (كان الشهر رمضان) رفع قائدنا الهلب وحاول الخروج، لكن الهواء رده،
وكررنا نفس الشيء لمدة عشرة أيام، كلما نستعد للأبحار يعيدنا الهواء، فإغضبنا
هذا الأخير وأحبطنا، وفي الليلة الحادية عشرة قمنا قبل الفجر بزم من أعدنا وجبتنا،
وما إن أكلنا حتى هبت ريح عاتية فجأة فالتفت الشراع وكان غير مربوط بإحكام،
وتقاذفته الريح، انفك المركب المتراقص من حباله وصار لعبة في يد الأمواج
والرياح، فعندما يميل يمنة يغرف ماءً وعندما ينفعه الهواء في الاتجاه الآخر
ينسكب الماء من ذلك الاتجاه.

كان لنا في سطح المركب مطبخ، وكانت النار متقدة فيه، وبهبة واحدة
أخذت للريح النار والأواني وألقت بها في البحر، وطارَت الجمرات في كل
الاتجاهات، وصار البحر كما لو كان مغطى بالشرر، انتظرنا لحظة الفرق حيث
لم يعد البحارة قادرين على طي الشراع الذي نشره الهواء.

كنا في أشد حالات التوتر تطاردنا ألف فكرة مزعجة، قرأ البعض سورة
يسين، ونادى البعض الولي عبدالقادر الجيلاني، واستجد آخرون بالشيخ الكبير

الماغرني، وتوسل آخرون بالشيخ أحمد زروق، توسل كل بالشيخ الذي يراه يصلح وأقوى، وتوجه كل إلى سيده.

دعونا بالنجدة والسلامة، لكنها لم تات سريعاً لقد هددنا المركب، وكان الليل دامساً ولم نعرف إلى أين دفع بنا، وأخيراً حل النهار وهدأت الرياح وهدأت معه قلوبنا، أعذنا المركب إلى المكان الذي كان فيه قبل العاصفة ثم نزلنا وأدبنا صلاة الشكر لله الذي أنقذنا وهأنأ بعضنا بعضاً بالنجاة من الموت.

أقسم عند منا بأن لا يضع أقدامه مرة أخرى في المركب الذي عاملنا بهذه القسوة، وقررنا جميعاً أن نذهب بالبئر، وعلى الأقدام حتى زوارة، وهي بلدة صغيرة على حدود محمية طرابلس، ادعى الجميع أن زوارة قريبة، ويمكن الوصول إليها قبل منتصف النهار، شاركهم القرار وخرجنا، سرنا طوالت اليوم ولم نصل إلا في زمن منع التجول، حوالي أربع ساعات بعد مغيب الشمس، فكان علينا أن نقم أنفسنا للحرس قبل الدخول إلى البلدة.

أخرنا أحد رفاقنا وهو التاجر الطرابلسي جلون، فقد أعياه التعب وهذه، وكان يترنح، فساعدناه أنا والحاج ميلاد ودعمناه من التجانيين، ومساعدناه على المشي حتى زوارة، عند وصولنا، تعرف علينا عمورة الزفايري، قريب وصهر الباشا واستضافونا في بيت أحد المخاصيص، وقدموا لنا العشاء، وقضينا لسوا الليالي رغم تعبنا، وفي صباح اليوم التالي سألنا عن المكان الذي توجد فيه مطايا للأجرة لتوصلنا إلى طرابلس، قالوا لنا لن نجد إلا الخيول، فقلنا أعطونا خيولاً فاستأجرنا الحصان الواحد بسبعة ريالات تونسية، غادرنا برفقة ملاك الخيول، ومشينا حتى الرابعة بعد الظهر، ونزلنا في أبو عجيبة في دار حسين بيه، أحد كبار رجال بلاط الباشا وحاكم أبو عجيبة، استقبلنا بشكل طيب، وأعدوا لنا مكاناً جيداً للنوم لأنه كان يعرف عموره، ثم استأنفنا السير في اليوم التالي وفي المساء كنا في طرابلس، كنت أظن أن أحد رفاقي يتكرم باستضافتي في منزله، لأنه عندما نفذ زاد بعضهم في البحر عاشوا على زادي، إضافة إلى أن جلون كان سعيداً ببقائتي ومساعدتي له في المشي حتى زوارة، كنت أهتم به بشكل خاص، وكان عندما

يرحمه العطش كنت أذهب مع آخر أجلب له الماء من أماكن بعيدة، باختصار
عندما دخلنا طرابلس اختفى رفيقي كما يختفي الملح عندما يذوب في الماء.
بقيت وحيداً فكان علي أن أتوجه إلى منزل القائم بالأعمال التونسي في
طرابلس، والذي كان يسمى أحمد مهنّي، استقبرت عن مكان سكنه فقانوني إليه،
استقبلني بحفاوة، كان ذلك في ليلة السابع والعشرين من رمضان، وبقيت حتى
العید أتوقع في كل لحظة وصول المركب الملعون الذي تركنا فيه امتعنا
وبضاعتنا، مر العيد وعطلة الأربعة أيام التي تليه ولم يصل المركب، لايت
مسافرين من سوكنة كانوا يستعدون للسفر إلى فزان وكانت فرصة طيبة بالنسبة
لي، فكرت في الأمر ملياً فلم أر أفضل من العودة إلى رأس المخبر، مستأجراً
حماراً بسعر زهيد (تبلغ اجرة الحمار مئاة ريال طرابلس في اليوم) ثم استأجر
جمالاً من زوارة بنقل امتعتي وأعود إلى طرابلس بأسرع مايمكن وأبيع طرايشي،
ثم أغادر مع القافلة إلى فزان، عندما استأجرت الحمار وكنت على وشك الذهاب
جاء جلون وعمورة اللذان علما بمشروعى، جاء! لاستجداني بأن أحضر لهما معى
كل ماتركوه في المركب، كانت كل بضائع عموره ملكاً للباشا، فقد كان وكيله
ورجل ثقته.

علم أحد المغاربة من وسط المغرب نبأ ذهابى إلى رأس المخبر، فجاء
يحمل حقيبة جلدية فيها أمتعته الشخصية، وطلب منى الآن يمرافقتى، كان رجلاً
فقيراً عارى الرأس حافى القدمين، لايرتدى سوى كشيابة محزومة بحزام ضعيف،
وافقت طواعية على عرض المسكين، كانت تلك على الأكل فرصة للأكل فى تلك
المسافة متحاشياً بذلك التثمر من الوحدة، فاصطحبت المغربى ودخلنا أبو عجيله
حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر، ثم واصلنا المسير لأننا لا نريد إضاعة الوقت،
ومشيئاً حتى أدركنا الليل فسيرنا سائرين حتى دخلنا زوارة مع الفجر، حدثت فى
تلك الليلة أحداث عجيبة.

عندما كنا نسير مع المغربى جنباً إلى جنب، سألتنى عن سبب ذهابى إلى
السودان، فقلت له: إن والدى قد توفي هناك وأريد الذهاب لجمع ماترك من ثروة،
زل لسائى وقلت له إن من التركة أيضاً ثمن عند من العبيد كان قد أرسلهم أبى

الى فزان مع أحد عبده وأن هذا العدد قد بيع بمبلغ تسعمائة دورو وانها قد فُتت،
لأن العبد عندما أراد العودة الى السودان علم بنبا وفاة سيده وعلم حاكم فزان أيضاً
بالنبا، فنادى اليه العبد ومنعه من السفر وصائر منه التسعمائة دورو، وبالتالي فإن
أول مبلغ ساسلمه من مال أبى هو تسعمائة دورو، وساسلمها فى فزان، اندمشت
المغربى ورأى فى التسعمائة دورو مبلغاً إن حصل عليه سيكون ثرياً، فجن جنونه
لمجرد التفكير فى ذلك، وتخيل أن المبلغ فى حوزتى، لقد قلت له إن المبلغ فى
مرزق لكنه نسي ذلك، ولم يمالك نفسه من شدة الفرح، ابتعد عني قليلاً ثم عاد
فجأة بخطى سريعة قائلاً: كيف؟ تسعمائة دورو عندك تسعمائة دورو يا بنى، قلت:
بالتأكيد، ثم ابتعد مسرعاً وعاد شاهراً عصا يبدو انه يريد أن يضربنى ويمزقنى
بها، فكرر قائلاً: تسعمائة دورو يا بنى تسعمائة دورو: نعم، نعم، ردت مرتعباً
لأننا كنا اثنين فقط، ولا شاهد لنا الا الله، فاذا رضح هذا الطماع لجنونه وأراد أن
يضربنى أو يقتلنى فمن يستطيع الدفاع عني أو اخراجى من مخالبه.

وللمرة الثالثة يبتعد المجنون ويعود فجأة جارياً والعصا مرفوعة مثل كل
مرة ويصيح: تسعمائة دورو، عندك تسعمائة دورو قلت: لكن إسمع يا حاج هل
تتخيل أن المبلغ معى الآن؟ لا ليس هنا المبلغ فى مرزق فى يد الحاكم، ولا أعرف
إن كان سيعطينى له كاملاً أو مجزء ولا أستطيع أن أتخيل كيف سيحل الله هذه
المشكلة، هذه الكلمات هدأت من روع الرجل، وردته الى حال أكثر هدوءاً وقال
لى: هل تريد أن اذهب معك الى فزان، أحببت بكل سرور لأننى كنت أخاف أن
أغضبه، قال: واذا ذهبت معك كم ستعطينى من التسعمائة دورو؟ النصف؟ الثلث؟
قلت: كما تشاء، كنت مستاءً وناقماً على نفسى للتحدث عن سبب سفرى الى
السودان، بحمد الله مر الليل دون أحداث أخرى، وفى الصباح الباكر دخلنا زوارة
واختفى المغربى.

أسرعت فى طلب الجمال وقلت للجمالة إننى أريد أربعة جمال للذهاب الى
رأس المخبر، حيث توجد بضاعتى فى قارب، ويجب أن أنقلها الى طرابلس،
حصلت سريعاً على الجمال الأربعة برفقة أربعة جمالة جيدهى التسلح، ثم توجهنا
نحو رأس المخبر.

عندما أصبحنا على مسافة لا تزيد على ثلاثة أو أربعة أميال من زوارة رأينا رجلاً مسلحاً على حصان يدعو. وجهه مغطى بلثام لم يترك إلا عينيه، توقف برهة بالقرب منا، ثم قال: سلام أيها المسافرين أجبنا بشيء من الخوف، سلام، قال: إلى أين ذاهبون؟ قلنا: إلى رأس المخبر، ونريد أن نأخذ بعضائع ولمتعة من على المركب حبسه للريح في المرفأ، قال: سيغشاكم الذعر يا أصدقائي، ثم ابتعد بنون أن يقول كلمة أخرى أو يوضح من ماذا سنخاف لاحتربنا فيما نفعل، وفكر كل منا في كيفية الخلاص من هذا الخطر، فقال أحدهم: لنعد إلى زوارة، فربما نعلم هناك سبب هذا الخوف، وقال آخر: لا، يجب ألا نعود، ولنسلك درب الساحل، برغم طوله، لكنه أسلم وسيوصلنا إلى المرفأ ثم نحمل جملتنا ونعود بالساحل إلى زوارة.

أخيراً قبلت الغالبية هذا الرأي الأخير حتى لا نفقد شيئاً مما ستجلبه الرحلة من ربح وفائدة.

تركنا الطريق المسالك الذي كنا نتبعه وانعطفنا جانب شاطئ البحر، لكن عند المنعطف رأينا فارساً آخر كالسابق يتقدم نحونا جارياً فتابعناه بأعيننا حتى اقترب منا، كان عبداً أسوداً قال لنا: ألم يمر بالقرب منكم رجل يلبس كذا وكذا؟ قلنا: نعم، قبل دقائق فقط، ثم أردف سائلاً: وإلى أين أنتم ذاهبون؟ أجبناه: إلى رأس المخبر، وحثمنا إجابتنا بنفس ما قلناه للفارس الأول، فقال: سيصحبكم خوف وذعر، ثم اختفى مسرعاً دون أن يوضح لنا سبب الخوف، فوقفنا مذهشين وأكثر قلقاً مما كنا سابقاً.

أمرعنا وانعطفنا يمنة ناحية الشاطئ، انقسمنا على أنفسنا في تفسير قول الفارسين، قال أحدهما: لنختبئ بالنهار ونسير في الليل، قل آخر: لا، يجب أن نعود وقال ثالث: يجب أن نواصل السير، فوافقه آخرون وواصلنا.

وصلنا رأس المخبر في عتمة الليل وبنا فيها، وفي صباح اليوم التالي ذهبنا لرؤية المركب، وكان على مسافة من الشاطئ فلوحنا إليه براية فنزل قارب يحمل القائد: أخبرناه بقرارنا فذهب وأحضر بضائعنا ووضعها على الشاطئ لما الذين بقوا في المركب كميلاد وتركى جيد التسليح وآخرين كلفوا بمراقبته:

ومرافقة بضائع الباشا فنزلوا ايضاً في نفس الوقت، فاستملت بضائعي وأمتعتي الشخصية وأسلحتي وكل ما كان يمت لي بصلة، الا زكدي فلم أجد منه شيئاً فقد أكله الثنين بقوا في المركب، حملنا رحلتنا وتحركنا متوكلين على الله، تذكرت الفارسين، وتأسفت لأخذى بضائع يوسف باشا، كنت قلقاً جداً وأراقب باستمرار ما اذا كانت هنالك ومن على البعد خيول تقترب منا، أو عدواً سيقتضي علينا.

وبعد ان قطعنا حوالي خمسة أو ستة أميال، رأينا على الأرض آثار خيول كانت جارية وروث مازال لنا، وآثار بول كأنه زلق قبل دقائق فقط، ارتجفت، سيطر علينا القلق والارتباك، لم نهدأ ولم نطمئن الا بعد مغيب الشمس، ومع ذلك بقينا في حالة استعداد، اتفقتنا على الا نتقوه بكلمة، لأن الصوت يذهب بعيداً في هدأة الليل، وجدنا الناس قلقين، فالبعض كان ينتظر ويخشى أن نكون قد ذهبنا وعند وصولنا فقط حل لغز 'ميصيبكم ذعر' حيث قيل لنا أن حمودة باشا، باشا تونس قد مات، وأن العرب البدو في حدود المحميات قد انقضوا على بعضهم البعض، وأن الحمارنة (قبيلة في الأراضي التونسية) قد قتلت من الأورغمة (قبيلة في الأراضي الطرابلسية) عدداً كبيراً من الرجال، ونهبوا عدداً معتبراً من القطعان، وأخذوا أسلاباً وسبائاً، ثم قالوا لنا: 'إن الله قد أخرجكم من مذابح عرب تونس، فإن وجدوكم كانوا سيقتلونكم دون رحمة، وإن نجا منكم أحد فسينيرونه ويتركونه علواً.

بالنسبة لي وإن افترضت أنني قد نجوت، فمأفقت كل ما عدي وما بقي حوزتي من أملاك يوسف باشا، من جواهر وأحجار كريمة، ولقد كانت بحوزتنا ما يزيد قيمته على خمسين ألف فرنك، كنا نسمع دوى العيارات النارية على طول المسافة بين رأس المخبر وزوارة.

نمنا لساعات قليلة وفي الصباح قمنا للاستعداد للرحيل، اشترينا كبشاً ونبحنا، وأعدنا منه وليمة، وهذا أنفسنا بأنجاة من الخطر، ثم توجهنا صوب طرابلس، وقد رافقنا حوالي خمسين فارساً كانوا في حمايتنا لمسافة ثلاثة أو أربعة فراسخ، نمنا السماء في أبو عجيبة.

في اليوم التالي استأنفنا السير على طريق طرابلس، كنت في المقدمة، فتخلتها حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، وجدت عدداً من الناس في انتظارنا عندما سمعوا بالخطر الذي كنا مستعرضين له، هناؤنا بالتوصل سالمين، وحمدوا الله على انقاذنا من أيدي العرب.

بعد لحظات علم الباشا بوصولي، فناداني وطرح عليّ عدداً من الأسئلة حول رحلتي إلى رأس المخبر، قصصت عليه كل التفاصيل، فحمد الله الذي حفظ له جواهره، قام باهدائي غطاءً أحمر لا يقل سعره عن مائة ريال تونسي، ولم تصل الجمال إلى طرابلس إلا في صباح اليوم التالي.

عندما فرغت من ترتيب أموري كتسلیم البضاعة.. سالت عن القافلة المتوجهة إلى فزان، فقالوا لي: إنها تحركت، ولا توجد امكانية للحاق بها، فذهبت على ذهابي إلى رأس المخبر، فإن كنت أعلم أنني سأتأخر لما تركت طرابلس، وكنت أنتظرت المركب ولم أعرض نفسي للأخطار.

سمع رجل من سوكنة يقيم في طرابلس يسمى محمد النكشي سمع الناس يتحدثون عني، فجاء إلى الوكالة التي انزل فيها وهي منزلة أهالي تونس، وطلب مني الذهاب معه لمسكنه، فقبلت واصطحبني، مكثت في منزله ثلاثة أشهر، منتظراً في كل تحرك قافلة إلى فزان، وفي نهاية شهر ذي الحجة جاء إلى طرابلس مسافرون من سوكنة، ومعهم رفيق، كان من بينهم رجل اسمه محمد خير الحريق، وعبد الذي أرسله مع الرقيق، وصائر منه المكنى مبلغ تسعمائة وستون درو، لقد احتفظت بالعبد، وكان مفيداً جداً بالنسبة لي، فارتبط بي ارتباطه بوالدي وخمني بإخلاص.

كان على أن أنتظر تجار سوكنة يبيعون رقيقهم ويشتررون ما يريدون ثم نسافر، وفي نهاية محرم أعدوا عندهم، وأعدت عتي: فاشتريت جملاً ومؤناً كافية، وتبعنا درب بونجيم، ولشعوري بالسعادة قمت بإطعام رفاقي، فحمدوا لي هذا الصنيع وسأحكي من بين الأحداث الكثيرة التي وقعت في هذه الرحلة قصة واحدة.

ذلك عندما تجاوزنا مصراة بثلاث أو أربع محطات، توقفتنا في واد مليء
بالتخضرة، وقررنا قضاء النهار والليل فيه، فشاء القدر أن ينزل مطر غزير على
مسافة من هناك، تجمع الماء وسال في الوادي، فامتلاً وتوجه نحونا ونحن نغصص
في نوم عميق، فسمعنا فجأة أصواتاً من كل الاتجاهات تصرخ (الهرب: الهرب)
جاء عبدى سعدان بسرعة وحملنى على ظهره وأنزلنى في مكان آمن، ثم عاد وقد
جملى وأناخه بالتقرب منى، كما ساعد عند من المسافرين لتثني أكلوا زادى سعدان
في هذه المهمة لطارئة، فإن لم يبعث الله لى العبد سعدان فى هذه الرحلة لكنت قد
ضمت: غرقت، مت... فلولا سعدان لكنت تلك ليلتى الأخيرة، ولم يكن ظهري
الا يوم أمس، أما اليوم فسأكون راقداً فى قبرى بدلاً من أن أكون حياً واقفاً.
كانت تلك رحمة إلهية، لقد وضع الله تاجاً من رحمته على رأسى، ولرب أن
يكون سعدان واخلاصه السبب فى نجاتى، وكرد منى لجميله أعطيت الشجاع
حريته، لقد عتقته.

قبل الوصول الى فزان نفذ زادى، وعند وصولى ضمت كل شىء منه،
لقلتى هذا الأمر ولم أدر ما أفعل.

حدث أن وجد سعدان مسجماً فى الطريق، طلبت منه أن يبيعه، لكنه لم
يتحسس للفكرة، لقد أصبحت معنماً وضائق بي الأرض بما رحبت كيف يمكن أن
أزود من جديد؟ فكرت فى طريقة أتخلص بها من هذا الهم، فجاءت امرأة ووقفت
بالتقرب منى، ثم قالت: لى ابنه لا يستطيع الوقوف رغم أنها فى زهرة شبابها، لقد
أصابها المرض، منذ مايقرب من عام، ونريد أن نكتب لها آيات للتوسل والبركة،
وادعو الله لى أن يسمعنى ويعالج ابنتى، قلت للعجوز: حسنا، تعالى غداً،
فانصرفت وعندما حل الليل توضأت، وصليت المغرب، ثم العشاء، ثم كتبت ورقة
صغيرة للعجوز، عانت فى الوقت المحدد بيننا، فأعطيتها الورقة ثم ذهبت،
قضيت ذلك اليوم أفكر فى طريقة أتخلص بها من الضيق ولم أنجح، وتضايقت
فلم أعد أميز بطنى من ظهري، قضيت الليل فى حالة من الهم وضيق الصدر.

عند طلوع الشمس رأيت عدداً من النساء يسرن ناحيتى تحمل كل منها على
رأسها سلة مليئة، وعندما اقتربن رأيت أن كل السلال مليئة بالدقيق والتمر، وكانت

العجوز من بينهم، فقالت لي: 'إقبل منا هذه الهدية، هذه السلال بها قليل من الزاد
أتمنى أن تكون مقبولة لديك، فبفضلك شفى الله اجنتى، فكانت فرحتى فى الحقيقة
بقدر ما يفكر الفرد كانت أكبر، فشكرت الله على هذا العطاء وهذه النعمة التى
أرسلها لى، فشكرت قول الله تعالى:

وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما لريد ان
يطعمون، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين'

لقد قبلت هدية النسوة، وجعلت منها زادى، وبعد يومين سلكنا طريقنا، وكان
معنا رجل من سوكنة اسمه أبوبكر، سرنا يوماً ويومين، وكان الجمل الذى امتطيه
فى حالة هيجان، رفض الجمل الأكل، وكان يسير أمامى جمل آخر، وفجأة انقض
عليه جملى، وأراد أن يعضيه، فسقطت على الأرض من شدة ومسرعة الوثبة،
ولحسن الحظ سقطت على ظهري، ومع ذلك فقد أصابنى انهيار، فكنت فيه وعيى،
وأحسست بالموت يقترب منى، فما عدت قادراً على الحركة، فأسرع لى كل من
سعدان وأبوبكر ورجل آخر يسمى كادار، ووضعونى على قفاى، استطعت أن
أتنفس لتوى، فحزموا خاصرتى بقوة بحزام، فاستعدت القدرة على التنفس بشكل
أسهل وبألم أقل، ثم وضعونى على جملى، وساروا بجانبى لنجنتى عند الضرورة.
عبرنا الصحراء فى أربعة أيام، وفى اليوم الخامس كنا فى حدود فزان كان
يلزمنا يومين للعبور، فى اليوم الثالث دخلنا مرزق.

لم يبق لى إلا أن أحكى قصة قصيرة حدثت لى فى صفاقس، كنت تلك
الآخيرة لأنها كانت عند عودتى من فزان، وقبل خمسة أيام من عودتى الى تونس.
كنت فى وكالة فى صفاقس مع العبيد الذين أخذتهم من عمى زروق، كنت
جالساً مسترخياً بالداخل، فرأيت رجلاً قائماً لى كنت أعرفه من تونس، اسمه
محمد كوبى، كان فقيراً يعمل فى صناعة الطرابيش، وكان فى حالة يرثى لى،
متسخ ورت الثياب، يهرج من كلا رجلية، فسألته: كيف تشوه هكذا؟ فقال: ان
حلوقاً^(١) هجم عليه وقطع عرقوبيه، أشفقت لحال المسكين الذى كانت الدموع تنزل
من عينيه، طلب منى أن أعطيه صدقة، لقد أثرنى بؤسه، وكان الجو بارداً، وكوبى

(١) الحلوق: حيوان مفترس له أسنان بارزة، ولا شكته يشبه الخنزير ولها عرف ل يصر الأماكن بالمحيط القوي.

يرتفع داخل الثمالة، فالتقيت عليه عباتي، ثم تعشينا معاً ورقد بجاني مدعياً النوم، وعندما رأيته يرتفع غطيته بالعباءة.

كان قبل ذلك كله كنت أخرج محفظة نقودي لأمامه، أنفع قيمة أشياء اشتريها، ثم وضعت المحفظة تحت وسائتي، ونمت، قام كوبي، وأخذ المحفظة من تحت رأسي وذهب، فقد أخذ عباتي ونقودي، وابتعد بهدوء، ظن عبيدي أنني أرسلته في مهمة فلم يفكروا في إيقافه، عندما استيقظت لم أجِد الرجل، بعثت للبحث عنه في كل مكان، ولكن لم يوجد له أثر، يعلم الله أنه لم يبق لي نقود إلا تلك التي في المحفظة، كان فيها أكثر مما احتاج إليه حتى نهاية الرحلة، كان فيها حوالي سبعين ريالاً تونسياً، والمحفظة نفسها من الحرير.

اضطرت لاستلاف حوالي خمسين ريالاً من الجمال لدفع نفقات السفر، من جانب آخر كان ضياع عباتي سبباً لتعرضي للبرد خلال خمسة أيام قضيتها في السفر بين صفاقس وتونس، كانت هذه هي الحكاية الوحيدة التي لزعجتني خلال رحلتي الأخيرة هذه.

إن الأول أن أغلق كتابي الآن، وأوقف كلامي عن التيه في قصة رحلتي

للمودان.

أفكر الآن في كتابة مذكراته في الحج إلى مكة والمدينة المنورة، وزيارة قبر رسولنا صلوات الله وسلامه عليه، ثم أحكي عن سفري إلى المورة، وخاصة مولاتي، وما شهدت من أحداث وكوارث، وسيكون ذلك مادة لجزء آخر.

أسأل الله أن يحفظني من كل سوء، من عمل وقول، وأسأله أن يهديني للصراط المستقيم، صراط الحقيقة: الإسلام، والله قريب يجيب دعوة الداعي، وهو الجامع بحمده، يسمع ويحيب، لك العزة يا ذا الجلال والإكرام، وبارك الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

رب ارحمهم يوم الحشر، والحمد للذات رب العالمين - آمين.

انتهى في يوم ٢٤ يناير عام ١٨١٥ الموافق السادس عشر من محرم عام ١٢١١.

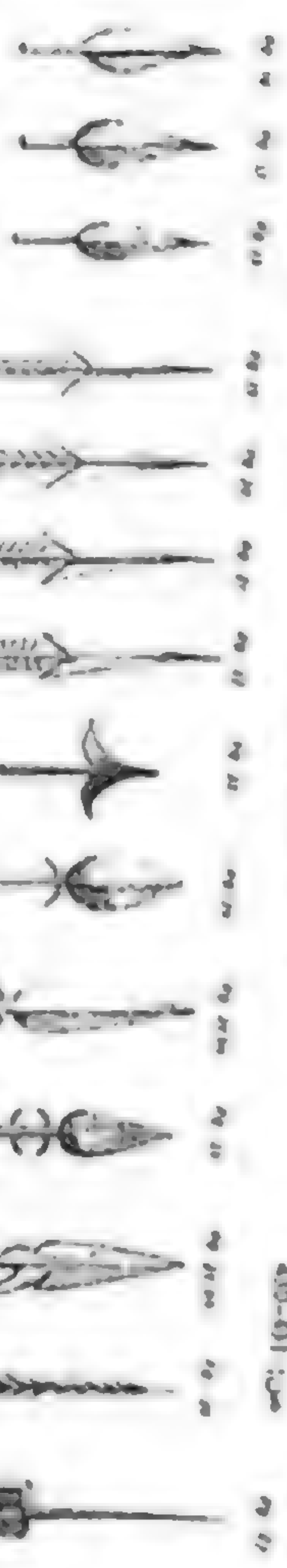
فهرس الموضوعات

رقم	الموضوع	صفحة
١	الأهداء	١
٢	المقدمة (المحتق)	١
٣	مقدمة يبرون	١١
٤	مقدمة جومار	٣١
٥	الفصل الأول: فى سبب إرتحالى من دارفور الى وداى	٧١
٦	الفصل الثانى: فى طول داروداى وعرضها وما التمتك عليه من العلوكف والأمم والأجناس على اختلاف أحوالهم وتباين أشكتهم	٩٣
٧	الفصل الثالث: فى أحوال دار وداى وعوائد ملوكهم وأسماء مناصبهم	١٢٩
٨	الفصل الرابع: فى نبذة من سيرة السلطان صلبون وكيف وصل الى الحكم	١٤٢
٩	الفصل الخامس: فى ذكر ماوقع من السلطان صلبون من الحروب وقهر الملوك	١٦٢
١٠	الفصل السادس: فى عوائد ملوك الوداى وأسماء مراتبهم ومناصبهم وفعل السلطان معهم	٢٤٢
١١	الفصل السابع: فى وفاة السلطان صلبون وما تلى ذلك من أحداث	٢٧٣
١٢	الفصل الثامن: فى قصاص الجنائات	٢٨٢
١٣	الفصل التاسع: فى ذكر الحروب وكيفيتها	٢٩٠
١٤	الفصل العاشر: فى ذكر التجارة وذكر مايجر به	٣٠٨
١٥	الفصل الحادى عشر: فى أمراض السودان وتوابع التلوى وسحة الأفتهم والصيد	٣٢٢
١٦	الفصل الثانى عشر: فى اصطلاح تزويج النور	٣٤١
١٧	الفصل الثالث عشر: فى الخصيان المعروفين فى مصر بالطواشبة	٣٥٧
١٨	الفصل الرابع عشر: فى العودة الى المغرب ومصر	٣٧١
١٩	التحول الى تونس وملاقة الوالد	٤١٨
٢٠	نهاية المطاف	٤٢٨

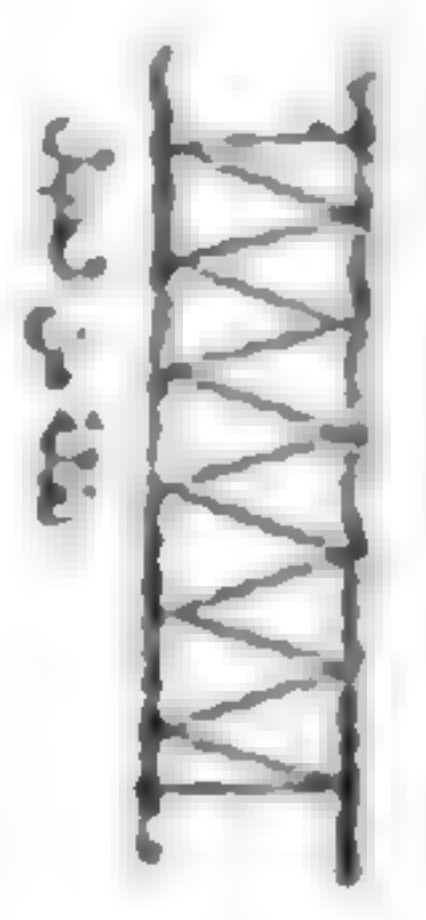
مخيف ربيع

CURVED ARMS OF INDIAN

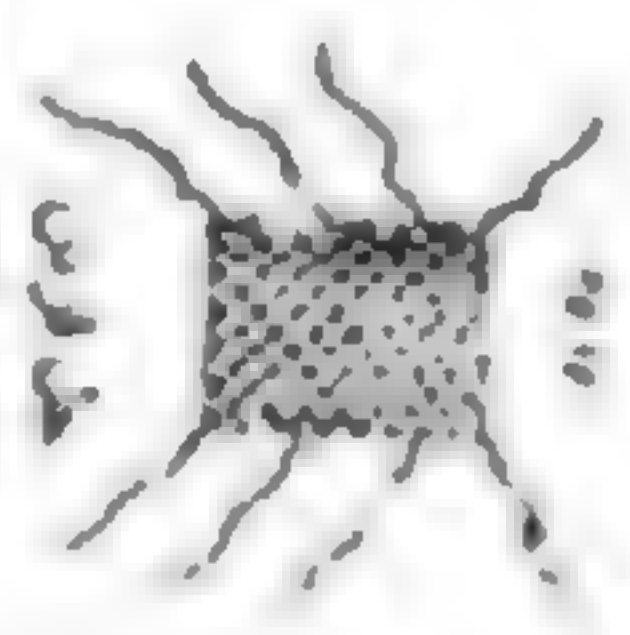
من: 410-411



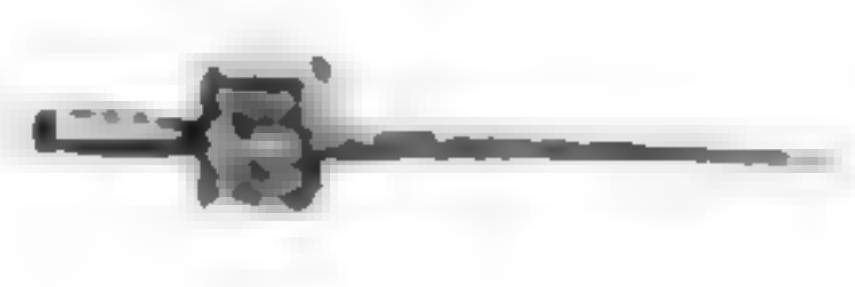
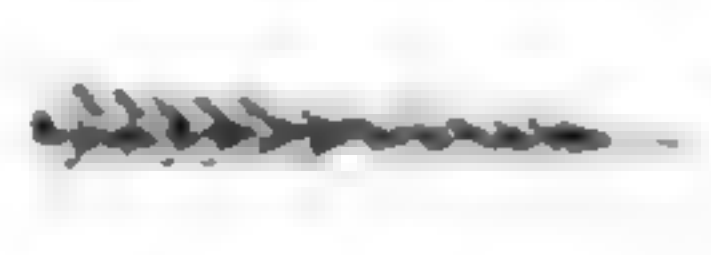
دبستان
نوع من سلاح الكوبر
من: 411
جزء من سلاح
من الأصل الفرنسي



نقطة من الحديد
نقش الحوض
من الأصل الفرنسي



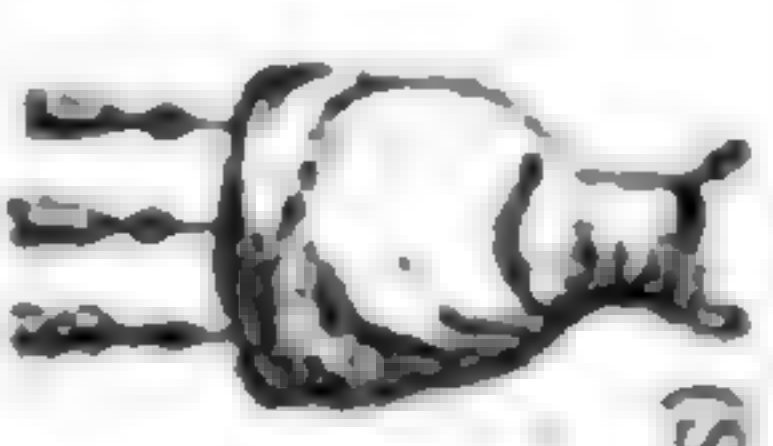
من الحوض
من: 412



نقش من الحوض من القبة من الحربة

من: 413

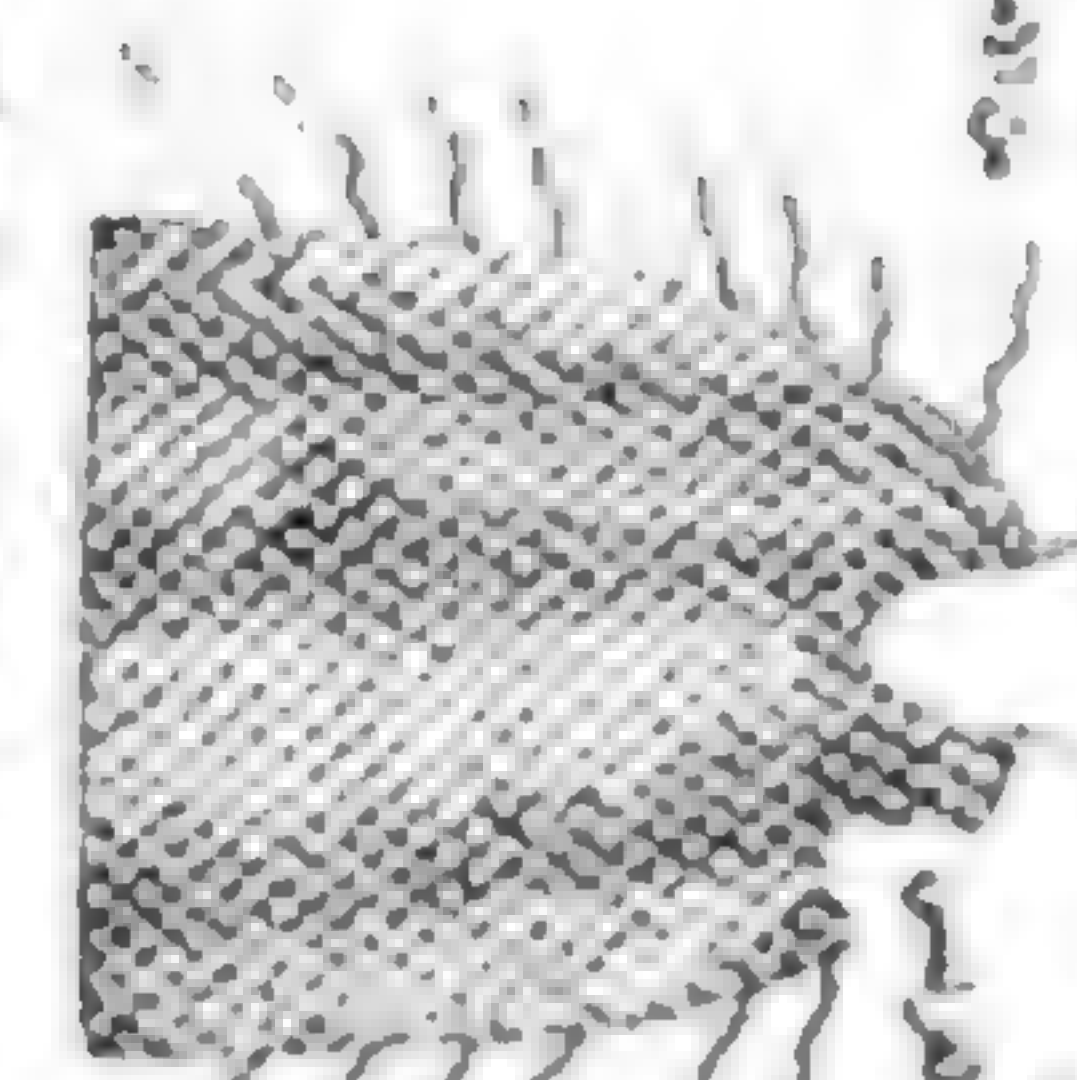
من: 414



من: 415

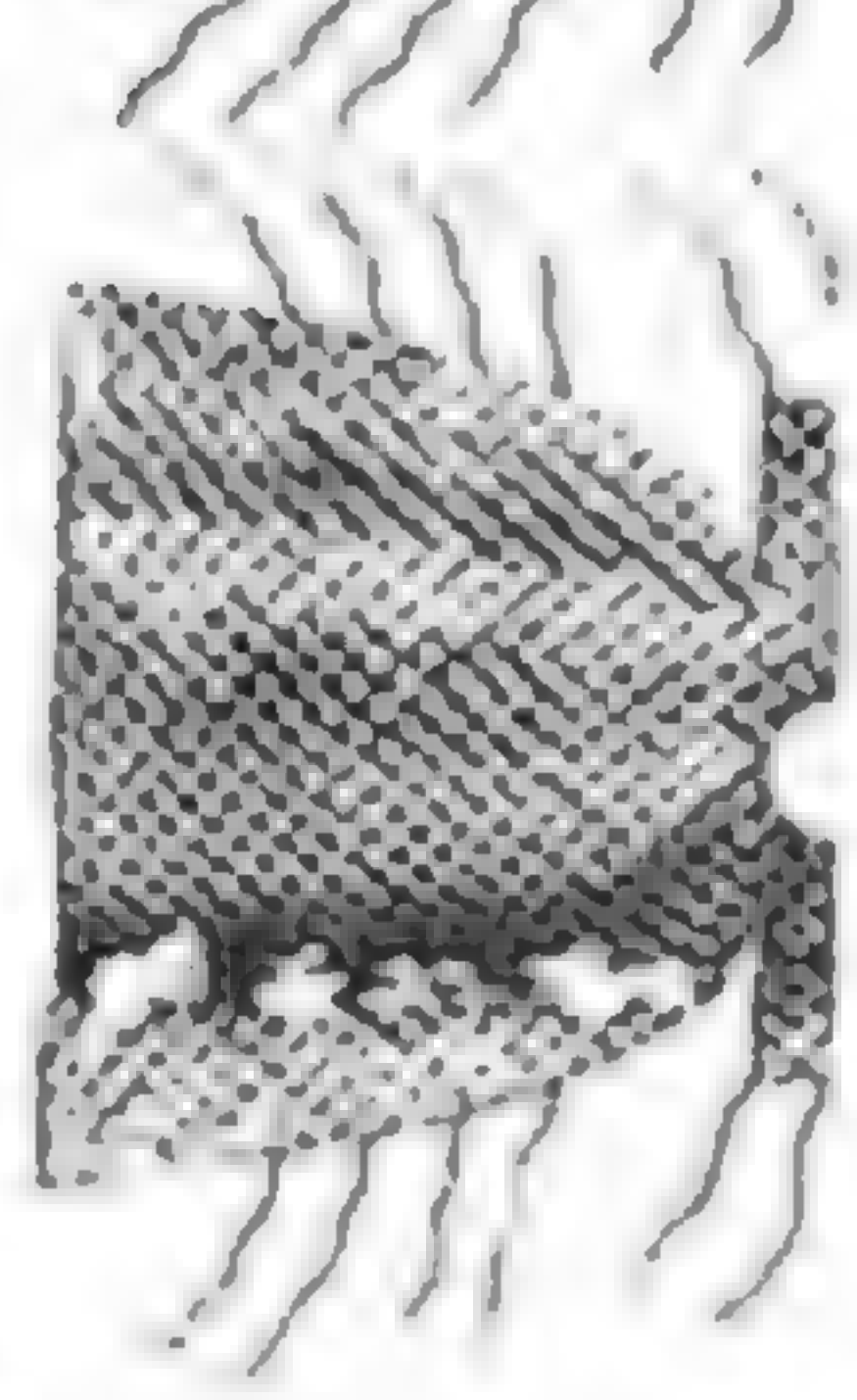
وهي نوع من شريط الكوبر والسفر

من: 416 من الأصل الفرنسي



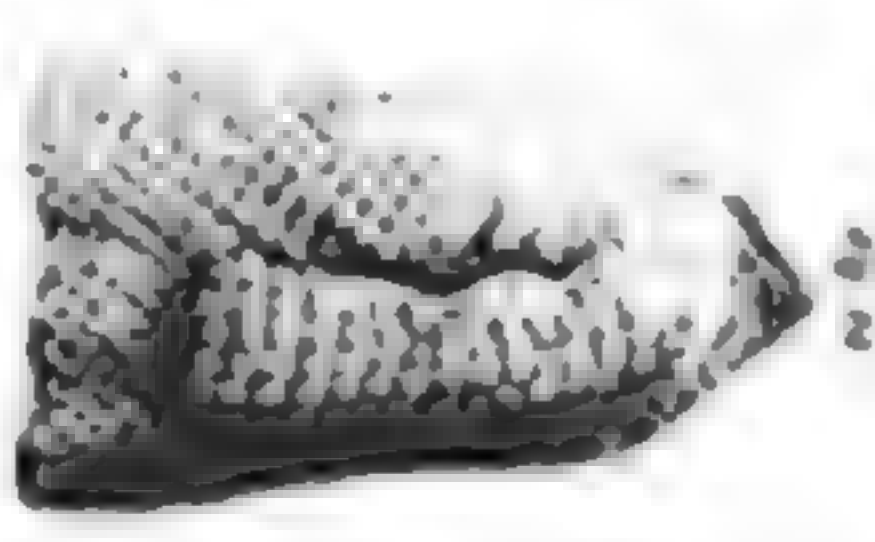
مخوف من سلاح الحديد

من: 417



من الحوض من ركنة شيت حلي الأثر دلف

من: 418



عاهة أو من سلاح مستوحاة

من: 419

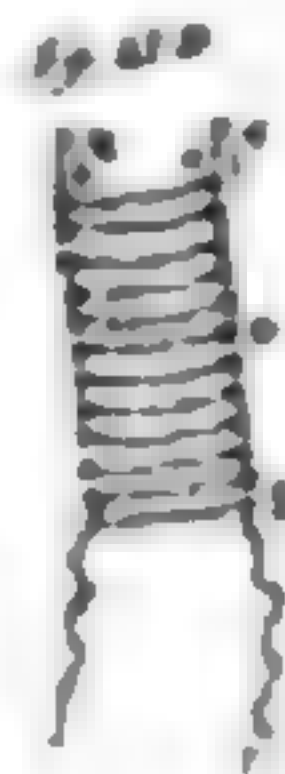
A



الشيخ الهلالي
من لسل وادي
ولد في وادي
في بيتها
حتى الآن
وكان يسكن
نفس البيت الذي
سكن فيه الشيخ التونسي من: ٢٢٤



كبير لسل وادي
لغته ذلك من لسل عربي ولكنه ولد في
وادي وتعلم في الأزهر في القاهرة من: ٢٢٤

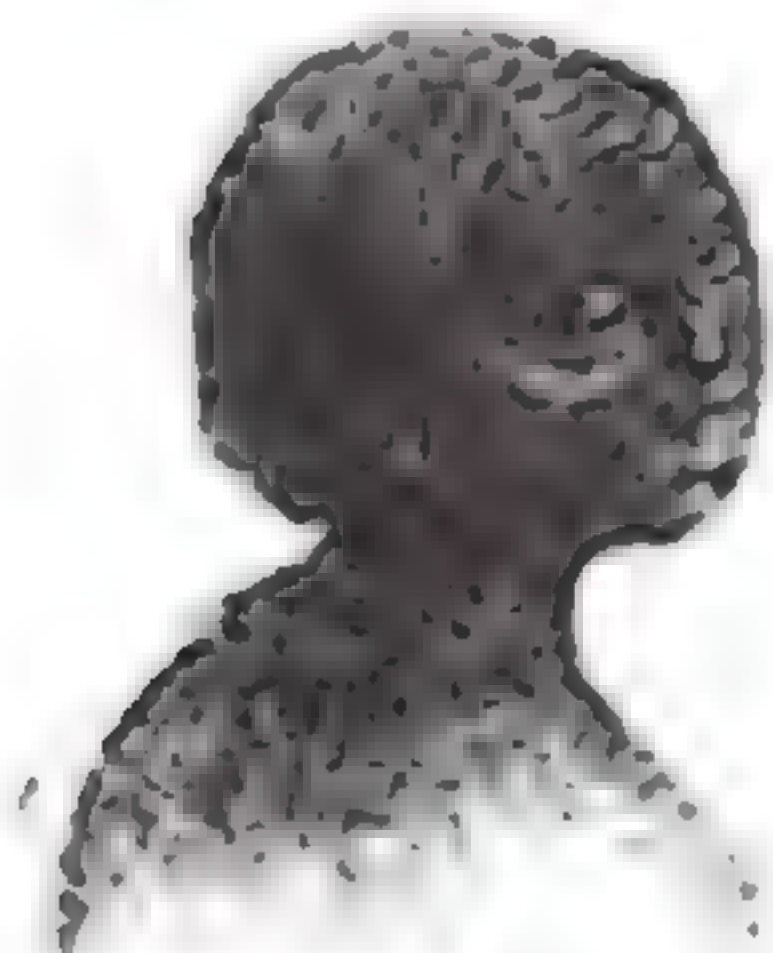


لم تنفاه من: ٢٢٤

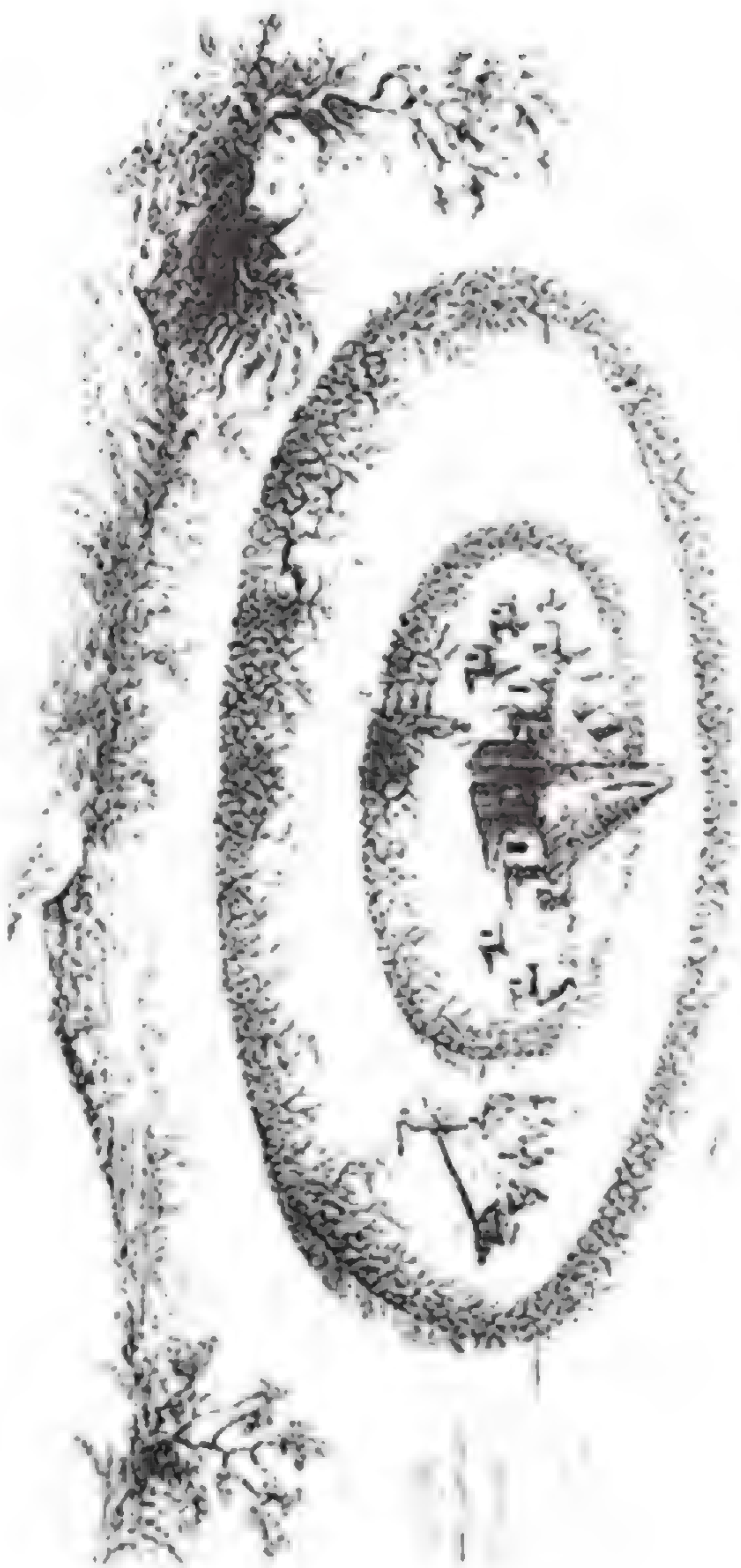


وجه لفر
لوداي في
قربة كركس

كان في رفق لغته الهلالي في وحدة الجمع التي مر عليها بالقاهرة



برأ من وادي مزينة بالم تنفاه من: ٢٢٨

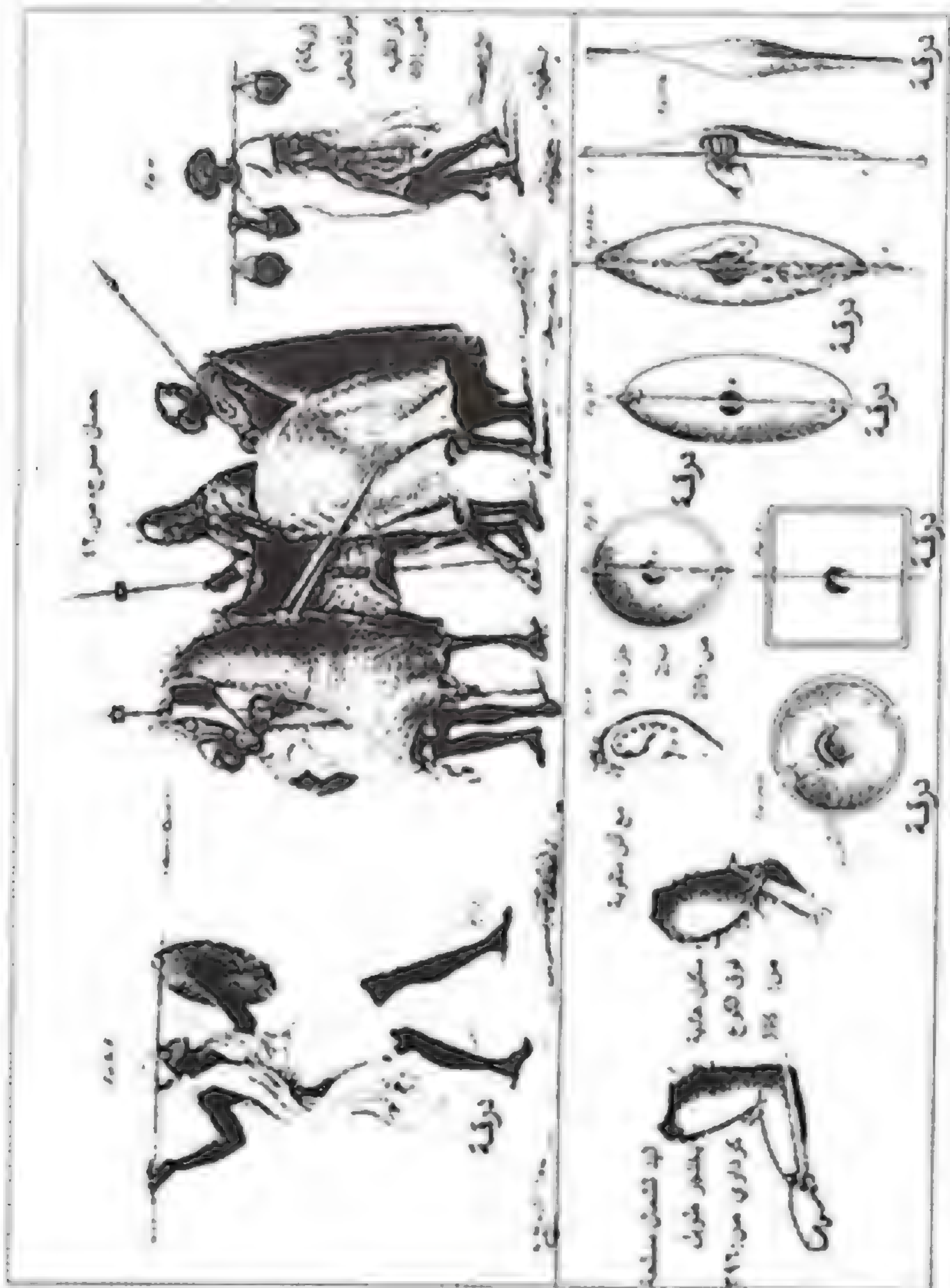


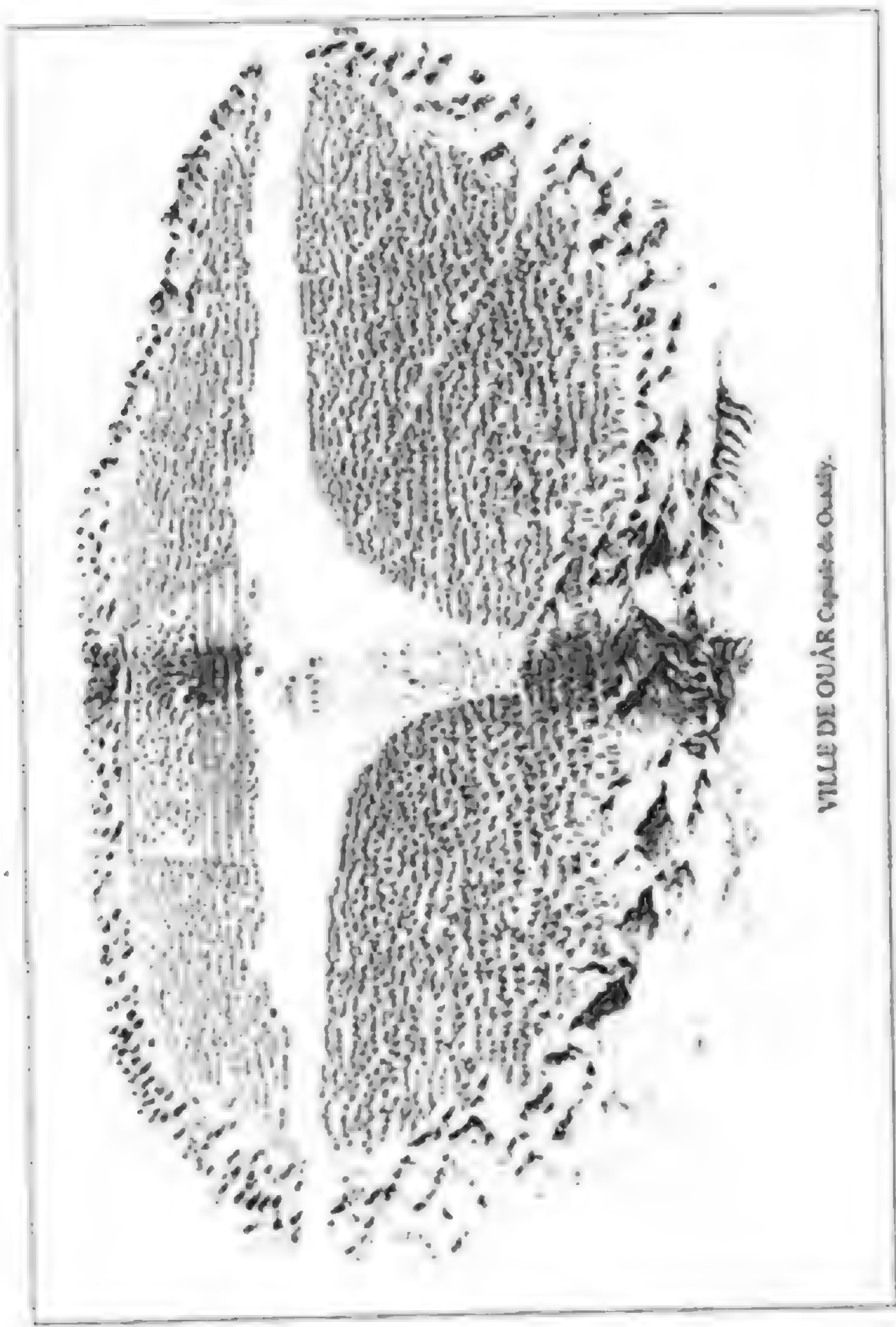
٢

منزل الأمير سليمان قبل توليه العرش

١. الجبل الصغير من منزل مقبول بجوار شجرة مقربة.

٢. جبل قنقش: ساحة خشبية ص. ٩٥. الحز. الأول، الجبل الرابع





VILLE DE OUÂRCAP Cap de Ouârcap.

منهية ولة عاصمة وادي

م. 1343

F

ولد في برني برنو



Barnaury

برنوي

هذه الصورة لأحد
سكان البرنو رسمت
له في منزل
السلطان أبو مقين
في القاهرة وقد تعلم
في الأزهر
بما يراه أن
يكون فاضلاً في برنو



Mandurkury

مندروري

هذا المندروري من سكان
ولاية الجنوبية برنو
هذا الشخص كان جندياً
في خدمة باشا مصر
وحضر في القاهرة
بعد حرب سوريا التي
شارك فيها وقد رآته
في مستشفى القصر العين
التي دخلها مريضاً
مريضاً شديداً
ويكلم العربية جيداً

6



IS SULTAN ABU HAMAH.

Engraving by G. S. 1874. From the
Journal of the Royal Asiatic Society.

صورة للأمير أبو مدين
إن شبه بين الرسم والخطبة مذمنة على الرسم
من سرعة الرسم:
بعنا تم تصوير السلطان أبو مدين، قد نكدي البرنقوي من
بيته وسلكه ونماحت معه وبعد ذلك اعطى الأمر للميد
ماتيرو لرسم رجلنا

CHANTS DE OUDAY

CHANT
N° 1

Gam bou ty ty in ga bla waya wa
ya in ga bla wa ya wa ya in ga bla

CHANT
N° 2

boé djé m' ka li boé nou dé yé ga ba lam di o ka
lo ya lo lo ka lo boé gam djé

CHANT
N° 3

la yé v' di lo djé gué lo ya do wé de
yé in da wa do in ba ra dé vé

CHANT
N° 4

O nmas dlo ba in kel boé O
nmas di o kel boé kel boé yé kel boé

CHANT
N° 5

Let let let wa let bou eoul é la la sahangé e
rth nou ty bi n' d' d' in k' ly et bou nou far san dlo lo

CHANT
N° 6

farva lo nou goulou ra
moua wa eoul el-mellé yé d' d' d' el d' em yé d' eoul eoul boé

CHANT
N° 7

Chout boum to - ça - lo chout boum to - ça
lo let khédy - rah chout boum to - ça - lo

CHANT
N° 8

Yo ba sé e y - o - o - o - o - o
let ba - let d' d' d' for gué fé a - ou eul - cy ba - ou

